مُذَكَرات

الدكتور عبد اللطيف اليُونس

مُذَكِّرَاتْ

الدكتور عبد اللطيف اليُونس

عدد النسخ (٢٠٠٠)

الطبعة الثانية - ١٩٩٧

مزيّدة ومنقحّة

طبعت في مطابع مؤسسة الإسكان العسكرية - دمشق

يرصد ريع هذا الكتاب للأعمال الخيرية

سيادة الرئيس حافظ الأسد:

مواقفك المشرّفة في جميع المجالات القومية - على سعتها وامتدادها .. هي موضع فخر العرب، وإكبارهم وإجلالهم.

وإنّ لحظات المواقف، أيّة مواقف كانت، تمضي - ولكنّ أثرها في النفوس يبقى.. ولا يمضي.

ولقد أضفت، يا سيادة الرّئيس، ملحمةً خالدةً.. إلى تاريخنا الخالد. وهي تُعتَبر، بحقٍّ، من أروع الملاحم، وأغناها وأزهاها.

وصاحب هذا القلم في جميع خطبه ومحاضراته، سواءً بالوطن أو المهجر، يذكر دائماً أياديك البيض - التي أسديتها، وتسديها - إلى المغتربين.. ويُعرِب عن شكره، وتقديره العميق لها، وامتنانه منها.

وكمْ يسعدني، ويغبطني، أن أستهلّ باسمك الجليل مذكراتي، وهي تتضمّن سيرة حياتي.. والأحداث التي مررتُ بها، ومرّت بي.

أبقاك الله لسورية، والأمّة العربيّة جمعاء:

ذخراً وفخراً، وقدوةً ومثالاً.

د. عبد اللطيف اليونس



مع الرئيس حافظ الأسد بطل التشرينين



إلى والديّ

اللذين غمراني بعطفهما وحنوّهما،
وتعهّداني بعنايتهما ورعايتهما، فنشأت
على حبهما، وتقدير فضلهما،
والاعتراف بجميلهما.
وكما أني مدين لهما بوجودي..
فإني مدين لهما بانطلاقتي،
وبما نلته وحقّقته.

ع

مقدمـــة

الطبعة الثانية

إننـي أعيـد طبـع هـذه «المذكّرات».. اسـتجابةً لطلـب الأصدقـاء والأنسـباء، وإلحاحهم.

وأعترف بأنه لولا طلبهم وإلحاحهم.. لما كنتُ أقدمتُ على كتابتها ونشرها.

ومعذرة مـن القـراء الكـرام إذا قلـت: إن هـذه «المذكّرات» حريّـةٌ بالمطالعـة والاقتناء ـ لأنها تحوي تاريخ نصف قرن مـن الزمـن.. حـافل بـالمواقف المتعدّدة الرهيبة، والأحداث الكثيرة الجسام.

وليست هي وقفاً على مواقفي وتحركاتي، خلال تلك الفترة الطويلة، وحسـب.. بل هي منطلقٌ لتسجيل الأحداث الهامّة والمثيرة التي مرّت بالشـرق العربـي، فـي تلك الأعوام الطوال.

وأعترف أيضاً.. بأني لم أسجّل إلا القليل القليل ممّا مرّ بي، ومررتُ به ـ ولـو فعلت.. لاقتضى ذلك عدّة مجلّدات، ولا أغالي. ولكنني، حتماً، وقفت عنـد الأحـداث التي يجب الوقوف عندها، ولا يسوغ تخطّيها.

فأنا أكتب للتاريخ.

ومن يكتب عن الأحداث التي مرّ بها، ومرّت به، وقُدِّرَ له أن يكون ذا أثـر فـي مجرى حياة أمته.. فإن ما يكتبه عنها يكون جزءاً من تاريخها. وثمّـة فـارق بيـن أمّة وأمّة، وأحداث وأحداث، ويراعة ويراعة.

والقرّاء ـ أكثر القرّاء ـ يعرفـون أنـي امـرؤ شقّ طريقـه وسـط العواصف والأنواء..

وخرج على عادات مُتّبعة، وتقـاليد موروثـة، بتـأييد الإقطـاع.. والسـير خلفـه، وباتجاهه واتجاهاته!

وقد سرت في طريق التحرّر الذي ضمَّ، بعدئذٍ، خيرة شباب المنطقة المتطلّعين إلى وضــع أفضل، وغدٍ أجمل، ومُستقبل مشرقٍ وضــيء.. فكانوا ذُخر وطنهم وفخره، وموضع تقديره واعتزازه ـ وما يزالون.

ولم يكن الإقطاع مسيطراً في منطقتنا وحسب.. بل كانت سيطرته تشمل أكثر مناطق الشرق العربي ـ ولا أستثني ـ وإن يكن ثمّة فارق بين منطقة ومنطقة، وقُطر وقُطر، وناس وناس.

وحينما نتحدّث عن زمن أو عصر.. فيجب أن ننظر إليه بمنظار ذلك الزمن والعصر ـ وليس بمنظار الوقت الذي نحن فيه.

ولقد قاسيتُ كثيراً، في ذلك الوسط، وعانيت.. وأنا بمفردي أجابه وأتحدّى.. وتعرّضتُ للموت أكثر من مرّة.. ولم يكن بيني وبينه في بعض المرّات إلاّ لحظات.. ولعلّ المولى، جلّ وعلا، قد أنقذني لأتابع رسالتي التي قُدِّرَ لها أن تفوز.. وأن تتخطّى المخاطر، وتتَحَدّى الصّعاب. والله رؤوف رحيم.

وكم أكون شاكراً لكل من تبدو له ملاحظة ويبديها لنتداركها بطبعة مقبلة. والكمال لله وحده، جلّ جلاله، وعظم كماله. والله وليُّ التوفيق.

د. عبد اللطيف اليونس

إلى الذين لا يعملون.. ويؤذيهم أن يعمل الآخرون!

إلى الذين يكرهون سماع كلمة خير.. تُوجَّه إلى الغير!

إلى الذين لا يعترفون لأحدٍ بكريم صُنع، ونبيل موقف!

إلى من يَسُوَهم أن يُقدِم امرؤ وينطلق.. وهم قاعدون خاملون!

إلى من تشغلُ الذّاتيّةُ ذواتَهم، وتغمر الأنانيَّةُ حياتهم!

فلا يفكرون إلاّ بمنفعتهم.. ولا يعملون إلاّ لمصلحتهم!

إليهم جميعاً:

أسوق هذه الصّفحات..علّهم يجدون فيها دروساً وعِظَات!

وعودةً إلى النّفس ـ لمحاسبتها، وخَنْقِ أنانيّتها،

والابتعاد بها عن التجاوزات، والمنغّصات.

* * *

ومن هذا المُنْطَلَق.. فإنّي أعترفُ بفضلِ كلِّ ذي فضل،

وجميل كلِّ ذي جميل.

وقد وقفتُ حياتي كلّها لخدمة وطني والنّاس.

وسأبقى ما حييت، في خدمة وطني والنّاس.

والله من وراء القصد.

دُعــــاء

يا ربِّي:

هبنــي قوّةً لمجابهــة الظُّلــم . . وجــرأةً لمقاومــة الظالميــن.
هبنــي القــوّةَ ـ مــع الرحمــة . . والتّــواضع ـ مـع الكرامــــة.
هبنــي القــدرة ـ عنــد التّحــدّي . . والصّــبر ـ عنـد التّعــدّي.
هبنــي الرأفــةَ بالضّعــيف . . والصّمــود في وجــه القــويّ.
علّمنــي أن أحــبَّ الضّعفــــاء . . وأحــبَّ الإحسان للفقـــــراء.
علّمنــي أن أمسك لساني عن كلمات السُّوء، وفؤادي عن نيّة الغدر.
علّمنــي التّواضع ـ بعيداً عن الذّلّ . . والتّرفّع ـ بعيداً عن الكبريـاء.
علّمنــي التّغــاضي عن الإساءة . . والصّفــحَ عن المســـــيء.

يا ربِّي:

اجعلنـي قوّياً يهابـه الأقويـاء .. وإنسـاناً يعتمـد عليـه الضّعفــاء.
اجعلنــي حريصــاً علــى معتقــدي ـــ أكــثر مــن حرصــي علــى ســعادتي.
وحريصـاً علـى سـمعتي وكرامتـي ـ أكـثر مـن حرصـي علـى كيـاني وحيـاتي.
اجعلنـي غنـيَّ العقل والـروح ـ ولا تجعلنـي فقـير العاطفـة والشـعور.
اجعل فـي ضميري وداعـة الخِراف ـ ولا تجعلْ فـي دمـي قسـوة الذّئـاب.
أعطنـي سـلاح الحجّـة أدافـع بـه ... وجرّدنـي مـن سـلاح الأذى والسـوء.
أعطنـي القناعـة كنزاً لا يفنـى .. والعزيمـة قـوّةً لا تخـور.
أعطنـي الإيمـان ـ حينمـا يعصف الشّك .. واليقين ـ حينمـا يزوغ القلـب.
أعطنـي البيـان لدعم حقٍّ .. والسُّلطة لدفـع بـاطل.
افتح قلبي على الحقيقة ـ حتى أعرف نفسي .. وأعرف نوايا الناس من حولي.
ولا تُمكِّنّـي من خداع أحـــد . . ولا تُمكّــن أحــداً من خداعـــــي.

يا ربِّي:

وقـت الشّـدة نناديـك .. وعنـد الحاجة نُـهْرَعُ إليـك

نخطىء ـ وتصفح .. ونأثم ـ فتعفو.

تُسدّد خطانا، وتخفّف بلوانا.

تُظلِمُ الدّنيا .. فتُضيئُها بنورك، وتُمْحِلُ الأرض .. فتغمرها بنداك.

يا ربِّي:

أَلْهمني عبادتك ـ مُجَرَّدةً من الأسماء .. ومعرفتك عن غير طريق الوُسطاء.

مكّن الإيمان في قلبي، واليقين في نفسي.

هَبْ فؤادي نُوراً من نورك، وعقلي سَنَاً من سناك.

وحينما أموت ..

اجعل اسمك وجيباً في صدري، ورجاءً في عيني.

شُعاعاً في وجداني، واستغاثةً على لساني.

يا ربِّي:

ارْحمني، واصفحْ عني

واغفر لي، ولا تنسني.

عبد اللطيف اليونس

تمهيد

أعترف، وبكل صراحة وواقعية، أنه لولا إلحاح أصدقائي، ومن لهم دالّة عليّ، لما أقدمت على كتابة هذه المذكرات.

فأنا ـ وأعوذ بالله من كلمة أنا ـ لست من الذين يحبّون عرض مواقفهم، والتحدّث عن ذاتهم.

والمرء ـ أي امرئ كان.. حينما يستعرض ذكرياته، وماضي حياته.. فلابدّ له من التّحدث عن نفسه، والوقوف عند بعض مواقفه. وهذا شيء بَدَهي وطبيعي ـ وإن يكن ثمّة فارق كبير بين شخص وشخص، ويراعة ويراعة.

وقد بدأت بكتابة هذه المذكرات.. منذ سنتين ونيِّف، واستعرضت بها مجمل ما مرّ بي في حياتي ـ وما أعرف إذا كان سيُقدَّر لها أن تخرج إلى النور.. قبل نهاية حياتي.

وليس من عادتي الإبطاء بالكتابة والتأليف. وسيرى القارئ، عند مطالعته هذه الصّفحات، أني كتبتُ أحد المؤلّفات، ولا أغالي، خلال أسبوع واحد.. ومؤلَّفاً آخر، بالنّقد، خلال أسبوعين. والذين عملوا معي، في جريدتَيّ: «الأنباء» و «الوطن» ـ اللتين أصدرتهما في البرازيل ، والأرجنتين، يعرفون أني كثيراً ما كنت أكتب المقالات، وأنا في مكتبي وأعطيها للمنضّد.. دون أن تتاح لي فرصة قراءتها ـ إلاّ حينما تعاد إليَّ لتصحيح التّنضيد.

وأمّا في كتابة هذه «المذكرات» .. فقد آثرتُ التّرويّ والبطء ـ مراعاة للدّقّة، وللتثبُّت من المواقف والوقائع ـ لأني أكتب للتاريخ.. والتاريخ أمانةٌ في ضمير الكاتب، وحجّة الزمن له أو عليه.

والأحداث التي مررتُ بها، ومرَّت بي، كثيرة ومتنوّعة.. ومتعددة الجوانب والأهداف.. وآخذٌ بعضها بتلافيف البعض الآخر. وإنّ عليَّ أن أثبت ما يجب إثباته

منها، وأهمل ما يجب إهماله. وقد حرصت على إعطاء القارئ صورة، ولو بإيجاز، عن الفترة التي عشتها، والأحداث التي حدثت بها.. وكان لها أثرٌ بارز فيها - وبالوقت نفسه.. في منطلق حياتي كلها.

وليس من طبعي الإساءة للناس، والتّدخّل بشؤونهم، والتعرّض لظروفهم الخاصّة - وما يتصل بها. ولكل امرىء «خصوصياته» التي يحرص على كتمانها، وإبقائها بينه وبين نفسه، أو بعض أخصّائه وذويه. وربما كان هذا من طبع الإنسان منذ كان.

وقد حرصتُ في هذه الصّفحات، على عدم الخوض في هذا الجانب - إلاّ بما يقتضيه السّياق.. وتفرضه الأمانة عند بحث واقع، وسرد وقائع.. وما يتّصل بها، ويُعتبر جزءاً متمماً لها.

وليس من السّهل - كما قد يتصوّر القارىء.. انتقاء الأحداث وتنقيتها، وإثبات ما يجب إثباته منها.. وحذف ما يجب حذفه - حتى لا تكون ثمّة إساءة لأحد، أو نيل من أحد.

فالأحداث متلاحقة، ومرتبطة ببعضها.. وهي أشبه ما تكون بالسلسلة المتماسكة الحلقات - واطّراح أيّ منها.. قد يعيبها، ويؤثر في ارتباطها وتماسكها.

ومع ذلك.. فإنه لابدّ من إهمال أشياء.. قد يرى بعضهم في إثباتها إساءةً وإثارة.. وكشفاً عن أمور خفيّة - هي في نظرهم، يجب أن تظلّ مخبوءةً ومخفية.

لقد استعملت منتهى الأمانة والدّقّة.. في استعراض الأحداث وروايتها. وأبداً لم أختلق حادثة معيّنة، أو موضوعاً معّيناً - ومعاذ العُلى أن أكون قد فعلت.. أو أن أفعل. ولكن.. ربما قد أضطر لعرض بعض الأحداث بطريقة خاصة، وأسلوب معيّن يتطلّب ذلك، وربما يوجبه - ولا أكثر.

ومنذ صغري.. كنت من هواة قراءة «المذكرات» وتتبّعها. والأجانب الذين يدوّنون ذكرياتهم.. هم أكثر واقعيّة وجرأة - منا نحن العرب. فبيئتنا العربية تختلف عن بيئاتهم.. وظروفنا الاجتماعية، وانتماؤنا الخلقي، يختلف عن ظروفهم وانتماءاتهم. فنحن العرب.. ما نزال نحافظ على هذا الذي يسمّونه تقليداً

ومراعاة. أمّا هم.. فقد تحرروا من ذلك إلى حد بعيد.. وانطلقوا في مجالات الصّراحة والتّحدي، واللاّمبالاة، إلى حد أبعد.

وما أعرف السبيل الذي هو أجدر بأن يُتّبع ويُسار عليه ـ هل هو سبيلهم المنطلق الجريء.. أم سبيلنا المتحفّظ المحافظ؟

قد أكون أعرف ـ لكنني لا أريد أن أُصرّح بما أعرف.

وكتابة «المذكرات».. إنما تعني نهاية حياة، وبدء فترة جديدة بما تبقّى من حياة.

وماضي المرء.. هو جزء منه، ومستودع ذكرياته، وتكأة حياته. وتراكم السنين.. يضع حداً للطموح والتحدي. والمرء في مستهل عمره يتطلع دائماً إلى الأمام، ويرسم خطوط المستقبل. لكنه بعد أن تتقدم به السن.. يصبح أكثر تطلعاً إلى الوراء ـ إلى الماضي.. لاستعراض حياة، ونبش دفائن ذكريات.. يعيش معها، وبعضهم يعيش لها.

وما أحسب امْرَأً ـ أوتي جاهاً ونفوذاً، في المجتمع الذي نشأت فيه، وانطلقت منه، وكانت أوقاته مليئة.. وحافلة بمراجعات الناس وتهافتهم ـ مثلما كنت وكانت.

والذين عرفوني بتلك الفترة.. التي امتدت ثلاثين عاماً ونيفا.. يعرفون هذه الحقيقة، والنزهاء منهم يعترفون بها.

لا أقول هذا.. من قبيل الزهو والادعاء ـ وأنا من أكثر الناس كرهاً لهما، ونفوراً منهما.. ولكن لأشير إلى أهمية المرحلة التي مررت بها.. بالنسبة لي، وللناس الذين سعيت لتحريرهم من الرجعية والاقطاعية والتخلّف.. وعانيت في سبيل ذلك ما عانيت، وقاسيت ما قاسيت.

ومن هنا.. تدرك أهمية هذه «المذكرات» ـ بالنسبة لتلك الفترة، والفترات التي تقدمتها، وجاءت بعدها.

ومع هذا.. فإني لا أجزم بأن فيها ما يغري الناس بقراءتها ـ ولكني أستطيع الجزم بأنها تعطيهم صورة صادقة عنها، وعن أهم الأحداث التي مرت بها البلاد خلالها.. وكانت ذات شأن كبير بتقدمها وتطورها، وتحررها وانطلاقها.

والحياة بمجملها.. هي مجموعة تجارب واختبارات ـ مثلما هو التاريخ مجموعة ملاحم وحلقات، وأحداث ترتبط ببعضها ـ وإن لم يكن ثمة توافقٌ بينها.

ومن البداهة.. أن لكل امرىء تجاربه وخبرته، وقصة عراكه مع الزمن، وأسلوب تعامله مع الناس. وقد يكون من الفائدة للآخرين أن يطَّلعوا على ذلك.. إذ ربما يجدون فيه بعض العبر والعظات ـ وأبداً.. لا يخلو جانب، من جوانب الحياة، من عبر وعظات.

وإنه لممَّا يسرني ويسعدني، ويضاعف من إيماني ويقيني، أن عامل الوفاء في نفوس الناس لم يضعف.. بل إنهم يذكرون مواقف ذي المواقف.. ويقدِّرونها، ويكبرونها، ويتناقلونها. وهذا دليل على حيوية الأمة، وجدارتها بالحياة والخلود. والأمة التي تتنكر لماضي أبنائها، وخدماتهم، وكريم مواقفهم.. هي أمة ليست جديرة بالحياة، ولا بالوجود ـ فكيف بالخلود!

وإني لأشعر شعوراً عميقاً.. بأن الكثيرين من أبناء المجتمع الذي نشأت فيه، وانطلقت منه.. يحفظون لي في نفوسهم ولاء صادقاً، وحباً صافياً، وإخلاصاً ثابتاً.. وهٰذا يُسعدني ويكفيني.

وقد لمست ذلك في الوطن ـ حينما عبست السياسة واكفهرَّت.. وفي المهجر حينما زرته. حيث أن مواقفي في الوطن الأم، ونضالي ضد الرجعية والاقطاعية والتخلُّف.. وخدماتي المخلصة ـ للناس كافة.. دون التمييز بين طائفة وطائفة، وفئة وفئة، وأسرة وأخرى.. كان لذلك صداه البعيد، وأثره العميق، في نفوس المخلصين الغياري.. الذين أحاطوني بكريم عنايتهم، ونبيل رعايتهم. وإني أحفظ لهم ولذويهم في الوطن الأم، كل تقدير وشكر ومحبة.

وكم أنا فخور بهذه العواطف النبيلة من أبناء وطني، هنا وهناك، وشديد الاعتزاز بها ـ وبما تحويه من طيبة ومروءة، وشهامة ونبل.

وأما العاقّون والحاقدون والحاسدون.. فهم مرضى ـ روحياً وخلقياً.. ولا يخلو من أمثالهم مكان ولا زمان! وهؤلاء ليس ثمة مبالاة بهم.. فهم يكرهون الفضيلة ـ لأنها فضيلة.. ويمقتون العمل الشريف ـ لأنه عمل شريف! ومن كان في مثل

هذه الصفات والأخلاق.. فبُعْدُه خير من قُربه، وانطـواؤه علـى نفسـه.. خـير مـن اتصاله بالآخرين.

ومن أعماق قلبي.. أتوجّه بالشكر الجزيل إلى كافة الأخوان والأصدقاء ـ الذين عايشتهم وعايشوني، وصحبتهم وصحبوني، وأخلصت لهم وأخلصوا لي، وجابهت وإياهم الزمان، وأحداثَ الأيام.

إليهم جميعاً: خالص شكري، وتقديري وامتناني. رحـم اللـه مـن مضـى منهـم، وحفظ من بقي.

وبعد ـ قارئي الكريم:

إن هذه «المذكّرات».. هي عرض سريع ـ لصراع حافل وطويل. ولو أردت أنْ أسجل الأحداث التي مرّت بي، ومررت بها، كلها.. لاقتضى ذلك ألـوف الصفحـات. ولكني آثرت الاختصار ـ بقدر ما استطعت وقدرت.

فاغفر لي.. إذا أخذت من وقتك بعضه ـ وأنـت تسـتعرض مـا أعرضـه. ولعلـك تكوّن عن ذلك فكرة.. قد يكون منها ثمة فائدة لك، وإنصاف لي.

وإلاّ.. فإنها محاولة ـ تشفع بها نزاهة الغاية، وبراءة النية، وسلامة القصد.

والله من وراء القصد

بسم الله الرحمن الرحيم

لا أعرف تماماً اليوم الذي ولدت فيه، حتى ولا السنة.

كان المتعارَف عليه في الريف، آنذاك، أن يحدَّد التاريخ الحديث بـ «سفر برلك» ـ إمّا قبله، أو بعده.

و«سفر برلك» هذه.. هي فترة الحرب العالمية الأولى ـ حيث كان الأتراك يسوقون الناس إلى لهيبها بمنتهى القسوة والشراسة، والضراوة والعنف.

وكان الذين يمتلكون كتباً خاصة.. يسجلون في آخرها تاريخ ولادة أبنائهم الذكور. ولم يكن حظ الإناث، وقتذاك، يسمح لهن بنعمى ذلك التسجيل ـ إلا عند نفر ضئيل.

ووالدي «الشيخ».. كان يحتفظ بكتب كثيرة، بعضها مخطوط، وأكثرها يقتصر على سيرة «النبي محمد» ﷺ وآل بيته الكرام وسلّم. ثم على مجموعة ضخمة من الأدعية والأوراد، وسيرة أولياء صالحين. كما كان يحتفظ بنسخة من القرآن الكريم كتبها بخط يده تبرُّكاً بها، ورغبة في الثواب.

وقالوا لي، فيما بعد، إن والدي سجَّل ولادتي في الورقة الأخيرة بأحد الكتب.. ولكني لم أستطع العثور عليه ـ وربما أن شخصاً استعاره... ولم يُعِدْه.

والدتي.. تحدد ولادتي بمنتصف شهر آب في نهاية «سفر برلك». وأما جدتي، والدة والدتي، فكانت تؤكد أنني ولدت في أول فصل الربيع، وتقول لي مداعبة: لقد استقبلنا بك الربيع.

كانوا يقولون لي في طفولتي: عمرك مثل عمر شجرة التوت هذه ـ ويشيرون إلى شجرة أمام البيت الذي وُلِدْتُ فيه.

ومنذ أن سمعت ذلك.. بدأت أشعر بميل نحو تلك الشجرة، وأوثر دائماً الجلوس تحتها. ولكني كنت أتألم وأنا أراها تمعن بالارتفاع.. وأنا دونها ارتفاعاً

وشموخاً!

منذ طفولتي الباكرة.. كنت أحب التطلع إلى أعلى.. وأتساءل بيني وبين نفسي: لماذا لا أكون طول هذا الحائط؟ لماذا لا أستطيع قطف ثمرة التين من أعلى الشجرة؟! لماذا تعلوني «شجرة التوت» مع أني نشأت وإياها في سنة واحدة؟!

وكان عقلي الصغير يحار في تفسير تلك التساؤلات.. ولا يجد لها جواباً!

وأذكر أن مختار قريتنا ـ بيت الشيخ يونس ـ قد اصطحبني معه إلى دائرة النفوس في مدينة صافيتا، ليسجل اسمي في سجلاتها الرسمية.. كي أستطيع دخول المدرسة التي كانت أنشئت في قريتنا تلك السنة. ورآني الموظف المختص أقف على رؤوس أصابع رجليّ، وأرفع جسدي الصغير إلى أقصى ما أستطيع. فسألني عن ذلك.. مستغرباً. فأرخيت جسدي، وحنيت رأسي خجلاً. ولما ألحَّ على السؤال.. قلت له: أريد أن ترفع سني حتى أتمكن من الانتساب للمدرسة. وضحك مأمور النفوس والمختار من سذاجتي، وزادا عدد السنين التي كانا قد حددا عمري بها.

ولم أعرف كم كان تقديرهما الأولي لعمري.. ولا الزيادة التي منحاني إياها. وهذا ما أعطاني حجة، بعد أن كبرت، بتصغير سني.. والزعم أنه أقل بكثير من السنة التي سجلت فيها ـ هذا ما تقوله بنتي «أمل».. التي تُصِرّ دائماً على منحي سنين أكثر من عمري الحقيقي ــ وهي تريد بذلك.. أن تدفعني للاخلاد إلى السكينة والراحة.. والتوقف عن مجابهة الزمن والأحداث ـ وهو ما لا أستطيعه، ولا أستسيغه.. ومن المحال أن أفعل.

فمنذ طفولتي.. وأنا في صراع دائم مع الزمن والأحداث.. وسأبقى هكذا ما بقيت، وأتابعه ما حييت.

* * *

يقال إن من طباع النساء، أن يكتمن أعمارهن، ويتظاهرن بسِنٍّ أقل مما يبدو عليهن.

وقد توجد بينهن من لا تتعدى الواقع.. بل تذكره وتجهر به ـ بشجاعة وثقة

بالنفس.

وأستميح القارىء عذراً.. إذا توقفت قليلاً، ونحن في سياق الحديث عن العمر، ورويت له هذه القصة.

في مطار «باريس».. التقينا مرة بحسناء لبنانية قادمة من كندا ـ وكنا مجموعة مسافرين سوريين ولبنانيين، وجرى حديث عن العمر.. فسألتنا السيدة اللبنانية كم «نقدِّر» عمرها.. وطلبت منا أن لا نجاملها. فأجمعنا على أنه بين ٤٠ و ٤٢ سنة. فقالت: إن عمرها ٦٢ سنة، وأبرزت لنا جواز سفرها. ودهشنا جميعاً.. ونحن لا نكاد نصدق ـ إذ ليس في ملامحها ما يدل على هذه السن المرتفعة أبداً! فقالت لنا: «السبب الحقيقي في ذلك.. أنه ليس بملامحي ما يدل على ارتفاع سني.. هو أنني لم أستعمل المساحيق على الإطلاق طوال حياتي.. ولذلك بقي وجهي في صفائه ونقائه ـ كما ترون. ووالدتي كانت هكذا، وهي التي كانت تؤكد لي أنه لا شيء يأكل الوجه ويرعاه، ويمتصّ الخلايا والنضارة، ويزرع في الوجنات الشحوب والأخاديد.. مثل المساحيق والدهونات التي تستعملها النساء.. لأنها أكبر ضارٌ لهن، ومذيب لنضارتهن».

فهل تتعظ النساء بهذا القول.. وتأخذن درساً من تلك السيدة اللبنانية الحكيمة الشجاعة؟

* * *

كان البيت الذي وُلِدْتُ فيه واسعاً. ولو بني وفق الهندسة الحديثة.. لوسعت مساحته غرفاً عديدة. وثمة قسم آخر، ملحق به من الناحية الشمالية، خُصِّص لمؤونة الأسرة، وجعله مستودعاً لها.

جدران البيت.. مبنية بالحجارة العادية التي طليت بالطين، من الداخل والخارج، لتخفي الثغرات الكائنة فيها. وسقفه يعلو عن الأرض حوالي ثلاثة أمتار: وهو من أخشاب تعلوها طبقة سميكة من التراب.. ويستند إلى أعمدة خشبية ضخمة في وسطه ـ وهي كثيراً ما تكون مُتَّكَأً للجالسين حولها.

وللبيت باب، ونافذة قربه .. وباب آخر من الشرق، أقلّ حجماً، يُطِلّ على

مساحة صغيرة من الأرض معدّة لزرع بعض أنواع «الخضار».. واستثمارها لحاجة الأسرة. وله باب من النّاحية الشمالية أيضاً ـ هو مدخل للجناح المستقلّ المخصّص للمؤونة. وأخشاب الأبواب كلها مصنوعة من خشب عادي.. تُغْلَق برتاج خشبي يدخل في كوّة عميقة بالحائط.. وهي لا تمنع يداً من التسلّل تحتها، أو فوقها، أو أحد جوانبها.. فكيف تمنع ريحاً تهبّ، أو هواءً يتسرّب؟

وهكذا كانت بيوت القرى كلها في ذلك الحين ـ وأكاد لا أستثني. وأما الآن.. وبعد هذه النهضة العمرانية الرّائعة، في سورية كلّها، فإنّ من النادر أن تجد مثل تلك البيوت في الأرياف.. بل أصبح البناء وفق الأساليب الجميلة، والمخطّطات الحديثة.

لقد كانت أسرتنا كلّها..تنام في ذلك البيت على أسرّة خشبية موزّعة في جوانبه. وأمامه غرفة واسعة، حديثة البناء، بناها والدي لاستقبال الزّائرين الذين كانوا يتوافدون تباعاً، وباستمرار.. حتى يكاد لا يخلو منهم يوم طوال أيام السنة.

وثمّة بيت آخر.. خُصِّص لإيواء الفقراء الذين كانوا يطوفون بالقُرَى استنداءً للأكفّ، وبحثاً عن مأكل ومبيت. وبالقرب من هذه المجموعة من المساكن العادية.. زريبة للحيوانات المختلفة التي لا يخلو من مثلها بيت من بيوت الرِّيف.

وكان عمي الأكبر «الشيخ ياسين».. يشرف على «منزول» خاص بالفقراء، يؤمّونه من مسافات بعيدة. كما أن بعض أنسبائنا، من وجهاء الأسرة، كان أيضاً يحتفظ بـ «منزول» لهذه الغاية النّبيلة.

و«المنزول» في بيئتنا.. يعني «دار الضيافة». وكثيرٌ من الأسر الكريمة تهتمّ بذلك، وتُعْنَى به.

وقد اشتهرت أسرتنا، «آل ياسين»، بعطفها على الفقراء والمعوزين والمحتاجين ـ الذين يقصدونها من أماكن كثيرة.. كما هي مشهورة بحدبها على الضعفاء والمساكين، ولها شهرة واسعة في المحيط كله.

وإلى جانب البيت الذي وُلدتُ فيه.. حُفِرت بئر عميقة لاختزان مياه الأمطار في فصل الشتاء، والاحتفاظ بها لفصل الصّيف ـ حيث تستعملها الأسرة للغسيل،

وطبخ الطعام، وسقي الحيوانات.. وربما أفادت الأسرة من ماء البئر لشرب أفرادها - حينما يزداد شحّ ماء «العين» - وهو ينبوع يقع في أسفل الجبل الذي بُنيتْ فوقه بيوت القرية.

وثمّة «مصطبة» أمام البيت، تعلو عن الأرض حوالي مترين، يجلس فوقها أفراد الأسرة في فصلي الربيع والصيف، وبعضاً من فصل الخريف.. حيث يسهرون ويسمرون مع زوّارهم، وربما تناولوا وضيوفهم طعام العشاء فوقها. وقد أُحدِثتْ «مصطبة» فوق سطح بئر الماء، وأخرى أمام غرفة الضيوف.. حيث أصبحت تلك «المصطبات» ثلاثاً أمام البيت.. يتوزّع فوقها أفراد الأسرة وضيوفها.

وكانت الأُسرَة تبني لها أكثر من «عرزال» - وهو «خيمة» تعلو عن الأرض عدّة أمتار.. وتنتصب على قوائم خشبية قوية.. وتُحاط جوانبها الأربعة بورق (الغار)... ذي الرّائحة الزكيّة المنعشة.. وليس ثمّة ما هو أجمل، ولا أمتع ولا أحلى، من النّوم في تلك «الخيام» ــ التي كانت، حينما تهبّ ريح، تتمايل برقّة كأنها غادة لعوب تتثنّى.. والغُنْج يغمرها، والعطر يُسكرها، وعبق وريقات «الحَبَق» ينعشها ويطربها ويستخفّها!

وفي الليالي المُقْمِرة.. تتسلّل خيوط «القمر» من خلال وريقات «الغار».. وكأنها حبال ضوء تتدلّى من علٍ.

من لم يُنْعَمْ بحياة الريف.. وبساطتها وحلاوتها وألَقِها.. فإنه لا يعرف شيئاً من سحر الطبيعة وعذوبتها، وروعتها ونعومتها.. ولا من هناءة الحياة، وصفائها ونقائها، وعظمة عطائها.

* * *

القرية التي وُلِدْتُ فيها.. تقوم على جبل متوسط الارتفاع، تحيط به الوديان من جوانب ثلاثة. وفي الناحية الجنوبيّة منها ــ عند أسفل الجبل.. يقع ينبوع الماء الذي تستقي القرية منه. وكانت النساء تنحدرن من الجبل إلى حيث الينبوع.. لتملأنَ جرارهنّ، ثم تصعدن بها إلى بيوتهن. وقد قُدِّر لي في

الخمسينات أن أتوسط السلطة لاستخراج الماء، وضخّه إلى أعلى الجبل، وتوزيعه في القرية كلها ـ ثم في قرية مجاورة، هي «خربة أبو حمدان»، لها نصيبها منه. ثمّ توفّرت وسائل بعد ذلك لإكفاء السكّان حاجتهم من الماء والإرواء.

ويلتفّ حول قريتنا من جوانبها الثلاثة، الجنوبي والشرقي والغربي، حزام منيع من صخور عاتية ضخمة ـ لا تقلّ ضخامةً وعتوّاً عن الصخور التي كانت تتخلّل بيوت القرية نفسها.. ومايزال بعضها، إلى الآن عنيداً صامداً يتحدّى!

وحول القرية ـ بل وبالقرب من بعض بيوتها.. كانت ثمّة غابات كثيفة من أشجار السنديان.. هي وسيلة العجائز لتخويف الأطفال من الوحوش الكاسرة التي تقبع بينها.. وربما اتّخذ بعضها أوكاراً له عند بعضها! وقد يكون في روايات العجائز بعض الصّحة ـ إذ كثيراً ما كان بعض الماشية يضل طريقه.. فيصبح فريسة لتلك الضواري.

أمّا اليوم.. فقد اقتُلِعت أكثر أشجار السّنديان.. ولم يبق منها إلاّ القليل الذي تُرِك حول المقابر.. وبعضها قرب «المسجد» وبعض المنازل للفيء والاستظلال. وقد غُرِست مكان تلك الأحراج الكثيفة أشجار الزّيتون المثمرة.. التي أصبحت هي أيضاً غابات تحيط بالقرية من جوانبها الأربعة.

وكانت ثمّة مِدْحاة صغيرة على سطح كلّ بيت، من بيوت القرى، لِدَحْوه أيّام الشّتاء، وقبل هطول الأمطار، كي يتماسك التراب، ويمنع تسرّب الماء منه. ومع ذلك.. فقد كان في بعض الأيام الممطرة يتساقط من ثقوب «السّقف».. فتمتلىء أرض البيت بالماء الذي يسمّونه «الدّلْف».. ويسرع أفراد الأسرة لوضع الأواني تحت الثّقوب ـ كي يحولوا دون تراكم المياه فوق أرضه. وحينما تضيق السّاقية، المحفورة وراء البيت، عن استيعاب المياه المتدفقة عبرها.. تتسرّب تلك المياه من تحت الجدار.. فتغمر البيت كلّه.. ويهبّ حينئذ أفراد الأسرة كلهم لتدارك الخطر الداهم، ونزح الماء إلى الخارج! ويا لها من ساعات رهيبة ومخيفة حينذاك!

ومنذ ما يقرب من مائتي سنة.. بنى أجدادنا مسجداً في أعلى القرية. والبيت

الذي وُلدتُ فيه.. لا يبعد عن المسجد إلا عشرات الأمتار.. وكان والدي يصطحبني معه لأداء الصلاة فيه، بعد أن تجاوزت السنة العاشرة من عمري.

* * *

كنت ذكرت.. أن أسرتنا تتمتّع بمركز دينيّ واجتماعيّ مرموق.. لا تسمو عليه أيّة أسرة أخرى في سائر أنحاء الجبل.. ولها ماضٍ عريق بالسيادة والوجاهة، والقيَم الروحيّة والإنسانيّة.

وسبق، في منتصف القرن التاسع عشر أن نفت السّلطات التركية العدوّة.. أحد أعيان أسرتنا، وهو «الشيخ عبد الحميد اليونس»، إلى «استنبول»، إثر قيامه بعمل بطوليّ.. عرّض أمن الدولة المستعمرة في تلك المنطقة للخطر.. وقد ظلّ في المنفى سبع سنوات.. كانت أسرتنا ترسل له خلالها أموالاً طائلة.. كي يعيش حياة كريمة تليق به، وبكرامة أسرته، ومكانتها. وقد عاد من منفاه يحمل لقب «أفندي»، وكنزاً من التجربة والخبرة.. كان لهما أثرهما في حياته، وحياة ذويه — فيما بعد.

وكان من أبهج أيام السّنة في قريتنا.. أيام «شهر رمضان» المبارك.. فما أن يحلّ.. حتى تحلّ البهجة والغبطة، ويجتمع الناس من أماكن بعيدة - ليشتركوا معنا بصوم الشهر الشريف، والاحتفاء به.

كان الجميع يحيون ليالي «رمضان» بالصّلاة، وتلاوة «الأوراد»، وإقامة «حلقات ذِكْر». وكان ثمّة شيوخ يصعدون إلى المئذنة وسطح المسجد، يتلون المدائح النبويّة.. بأصوات متجانسة شجيّة، وترديد رائع عَـذْب. وكثيراً ما كانوا يصطحبون أطفالاً معهم، وأنا منهم، حيث نقوم بترديد بعض الابتهالات والأناشيد الدينية.

كانت أيام «رمضان» ولياليه.. أحلى الأيام والليالي في القرية - إذ كانت تتهيّأ له، وتلبس فيه حلّة جديدة من الزّينة، ومظاهر الابتهاج تغمر نفوس الجميع. ويتولّى الأهلون إقامة مآدب الإفطار، والإنفاق على ذوي الحاجة.. بشكل سخيّ مشرّف. ورحم الله الشّاعر:

ولم أرَ كالمعروفِ.. أما صنيعُهُ فحُلْوٌ، وأمّا وجهُهُ فجميلُ

كان الشيوخ يتقاسمون دعوات الإفطار والسّحور طوال أيام شهر الصوم.. ويندر أن يكون واحد منهم.. إلاّ داعياً أو مدعوّاً.

* * *

كان والدي شيخاً تقيّاً.. مشهوراً بتصوّفه، وكثرة عبادته، وانصرافه إلى الله.. وبكثرة تواضعه وتسامحه وتقاه. ولم يُعرَف عنه طوال حياته، وقد عاش اثنين وستين عاماً، أنّه آذى أحداً، أو سعى لإضرار أحد، أو لفظ كلمة سوء بحق أحد. كانت حياته مثاليّة في جميع جوانبها، وطوال مراحلها. وكان يقضي القسم الأكبر من الليل بتلاوة «القرآن» الكريم والأوراد. وكثيراً ما كنت أستيقظ، في بعض الليالي، فأراه جالساً في فراشه المنفرد، وهو يرتّل آيات القرآن بصوت خافت.. حتى لا يستيقظ أفراد الأسرة النائمون.. فأذهب من قرب والدتي إلى قربه، وأغفي.. وهو مايزال يتلو «الأوراد» ويقرأ «القرآن» بخضوع وخشوع وتبتّل. وكان ينفق دخله كله في أوجه الخير.. ويوزّعه على المعوزين والمحتاجين. وتلحّ عليه والدتي أن يشتري بعض الأملاك لأولاده، أسوة بالآخرين.. وتسرف بالرجاء والإلحاح، فيجيبها بكل حزم:

«إذا كان الأولاد صالحين.. فإنّ الله لا يتخلّى عنهم، وإذا كانوا غير صالحين.. فإنهم لا يستأهلون». ويستمر بإعطائه الفقراء، وإعانته الضّعفاء، غير مبالٍ بالغد، ولا مكترثٍ به.

وكان النـاس يقصدون والدي من أنحاء مختلفة، ويضطرونه أحياناً كثيرة للتغيّب عن البيت، وقبول دعواتهم المتوالية الملحّة. ويكفي في بعض القرى أن يقال: جاء «الشّيخ»، وذهب «الشّيخ»، حتى يُعرف أن المقصود بهذا القول هو والدي. وفي بعض القرى بنوا «مزارات» ـ بما يشبه «النُّصُب التّذكاريّة» المتعارف عليها.. في الأماكن التي كان يؤثر الجلوس فيها، وإقامة الصلاة بها.

وثمة «شجرة»، في حرج كثيف بقرية «بيت اسماعيل»، جنوب شرقي طرطوس، كان والدي يعتكف تحتها. ومن غرائب القدر. أن تلك «الشّجرة»، بين

مئات الأشجار، تظلّ مورقـةً زاهيـةً طوال العام.. كأنها في ربيع دائم.. وكأنها شجرة ريحان ـ لا سنديان. وكثير من الناس يذهبون لرؤيتها، والتأكدّ من صحّة الشّائعات حولها.

وقد عمد أحد أهالي القرية، المعروفين بطيبتهم وغيرتهم وسخائهم، هو السيّد «محمود اسماعيل» لبناء نُصب تذكاري تحتها ـ يطلَق عليها اسم «تشريفة».. فأخذ غصناً من الشجرة وذهب إلى الشاعر الكبير «الشيخ عبد اللطيف ابراهيم»، وهو في مقدّمة المراجع الدينيّة المرموقة في ذلك المحيط كله، وناوله الغصن، وسأله عن نوع الشجرة التي هو منها.. وتلمّسه «الشيخ» وقال: غصن ريحان.. فأجابه: لابل غصن سنديان.. فأبدى «الشيخ» دهشته، وهو يلمس نعومة الأوراق، وسأله عن الواقع فأطلعه عليه.. وطلب منه أن يكتب تاريخاً لهذه الظاهرة الغريبة، مؤكداً له.. أن «الشيخ يونس عبد اللطيف» كان يؤثر الاعتكاف عند هذه الشجرة، والصّلاة تحتها ـ كلما زار قريتهم «بيت اسماعيل».. وقد عزم على بناء «نُصب تذكاري» تخليداً لذكرى «الشيخ»، ولهذه الظاهرة العجيبة.. وطلب منه أن ينظم تاريخاً شعرياً لينقشه على «النّصب» الذي يطلق عليه في ذلك المحيط اسم «تشريفه». واستجاب الشاعر العلاّمة وكتب هذه الأبيات التي نُقِشَتْ على نُصب ـ «التشريفة» الأنيق الفخم:

مَوْضِـعٌ كَـمْ ذَكَـرَ اللـه بـه   مُؤْمِـنٌ طـاهِرةٌ شـيمتُهُ
«يُونُسٌ عبد اللطيفِ» المُجْتَبَى   باسمِه المعروفِ تعريفتُـهُ
من «بنـي ياسينَ» أقمارِ الهُدى   قِيَمٌ تزهُـو بهـا قيمتُـهُ
شجرةٌ.. كـان يُصلّـي تحتهـا   هِيَ فـي التّاريخ: «تِشْرِيفَتُهُ»

١٣٩٥ هجرية

شادها «محمودُ» تكريمـاً لـه   لا تَـزَلْ محمـودةً سيرته

ومن الغرابة.. أن كلمة «تشريفته» جاءت متضمنة «التاريخ الهجري» الذي بُنِيَت فيه «التّشريفة» تماماً! كأنّ الكلمة وُجدت لهذا.. وكأنّ القدر أراد هذا.

حقّاً .. إنها معجزة القدر، ومعجزة الشعر!

* * *

وحينما بلغت من السن بضع سنين.. كان والدي يصطحبني معه في زياراته لبعض القرى. وكان معه مرافق لا يفارقه في غدوّه، ورواحه أبداً. وكثيراً ما رأيت والدي ينزع رداءه عن جسده ويعطيه لفقير يراه في الطريق، ويلتفع بعباءته.. وحينما يصل إلى المكان الذي يقصده يرسل من يشتري له رداءً بدلاً من الذي أعطاه للفقير.

وقلت له مرة ـ ببراءة طفولة: لماذا لا تعطي الفقير ثمن ثوب يا أبي.. وتُبقي ثوبك عليك؟ فقال لي:

يا بني.. لو أعطيتُه دراهم.. ربّما يشتري بها دخاناً أو خمراً، ولا يشتري ثوباً. والثواب يا بني.. هو أن نبرد نحن لينعم بالدفء هو. وكان يوصيني، والمرافق، أن لا نخبر أحداً بذلك أبداً.. ويؤكد توصيته بحزم. ولقد حافظت على وصيته طوال حياته.

وأعترف ـ ومعذرة من القارىء الكريم.. أني قد تأثّرت بتُقَى والدي، وسماحة كفه ونفسه، إلى مدىً بعيد.. وأن سيرة هذا الأب الطّاهر المؤمن قد تغلغلت في شرايين ابنه الناشىء - إلى أبعد مدىً، وأقصى حدّ. ولا أقول هذا مغالياً أو مُعْتَدّاً.. وإنما هو واقع أرويه، وحقيقة أحمد الله كثيراً عليها.

وكلّما تذكرت مواقف والدي، وحدبه على الضعفاء، ومعونته للفقراء، وصوفيّته المثاليّة بنوازعها الشريفة ونزاهتها، وسموّ غايتها.. يخفق قلبي، وتضطرم المشاعر في نفسي، وتغرورق عيناي بالدموع.

وأعترف بكل تواضع، وبالوقت نفسه بكل اعتزاز، أني إذا كنت قد قمت، وأقوم، ببعض الواجبات الخيريّة، والخدمات العامّة.. فإنني بهذا أقتدي بوالدي، وأقتفي أثره، وأسير على غراره ومنواله ـ وإن كنت عاجزاً عن اللّحاق به، والعمل كعمله.. رحمه الله، ونضّر ذكره وذكراه.

ولا أذكر أن والدي ضربني مرة واحدة ـ رغم أني، في بعض الأحيان،

كنت أتصرّف تصرّفات طفولية قد توجب الشدّة.

* * *

وعمي «الشيخ ياسين».. كان وقوراً مهيباً.. صريحاً في مواقفه، جريئاً بإبداء آرائه وملاحظاته. وهو إلى جانب ذلك يحمل في صدره قلباً طاهراً بريئاً نبيلاً. وأبداً.. لم يلجأ إليه مظلوم إلا وأغاثه، وانتزع له حقه من النّاهبين والطّامعين والمعتدين ـ وما كان أكثرهم في ذلك الحين!

وأحياناً.. كان يقسو في معاقبة أبنائه وأبناء أخيه ـ إذا شكانا أحد إليه.. لأنه يحرص على أن ننشأ نشأة مثالية كريمة. ولكنه في اليوم الثاني يستدعينا، ويلاطفنا، ويعطينا بعض الدراهم، ويوصينا بأن نكون هادئين متّزنين، ومنصرفين إلى القراءة والصّلاة، وإطاعة الوالدين.

ومن جملة مآثر عمّي، وأياديه عندي ـ التي لا تُنسى.. مأثرة كان لها أثرٌ كبير في مجرى حياتي. فقد وُجِد بين رفاقي من حثّني على شرب الدّخان.. فاندفعت، واقتنيت علبة معدنية... وبدأت أعبّئها، وأشرب بشراهة.. متباهياً بذلك أمام رفاقي. وعلم عمّي «الشيخ ياسين»، وكان هذا بعد وفاة والدي، فاستدعاني، ولم يؤنّبني، ولم يصرخ بي كعادته، وإنما قال لي بكل لطف وعطف وحنّو:

يا بن أخي: بلغني أنك بدأت تشرب الدّخان.. وأنا أستطيع منعك وأنت عندي.. ولكني لا أستطيع ملاحقتك إلى كل مكان. فأنصحك بأن تمتنع عن التّدخين. وثق يا بنيّ.. أني أتمنى تركه ولو خسرت قسماً من أملاكي.. ولكني لا أستطيع لأنه تمكّن مني، ولم يعد بمقدوري التغلب على هذه العادة السّيئة الضّارّة. أما أنت.. فإنك ماتزال في البداية، وبإمكانك التّغلّب على عادة التدخين قبل أن تستأصل بك.. وإني أنصحك أن تقلع عنها من الآن. فقبّلتُ يده، وقلت له: ادعُ لي يا عمّي. فلمس وجهي بيده، ودعا لي. فقلت: أعاهدك أني لن أذوق الدّخان بعد اليوم. ولم أعرف التدخين بعد ذلك أبداً.

هذا من أفضل ما أسداه إليّ عمّي «الشيخ ياسين» قدّس الله ذكره وأثره.

وأذكر أني ذهبت مع شيوخ العائلة، في احدى المناسبات، لإحدى القرى، حيث

توجد شخصية لها زعامة مرموقة.. وجلس الشيوخ في القاعة الرئيسية للاستقبال، وفي صدر القاعة جلس عمّي «الشيخ ياسين». وما هي إلا فترة وجيزة حتى دخل المستشار الفرنسي «فيُو» ـ وهو استعماري رهيب.. كان يفرض على الناس أن يقبّلوا يده، ليشعرهم بالخضوع إلى سلطته! وفوراً اتّجه إلى حيث يجلس عمي، ومدّ له يده اليمنى، وقال له باللغة العربية: «بُوس، بُوس»!! فمدّ عمي يده، ووضعها على فم المستشار، وقال له ـ بلهجة عنيفة ـ كانت أكثر حدّة وتحدّياً:

الناس كلها تقبّل يدي.. أنت «بُوس بُوس».

ونظر الفرنسي اللئيم.. إلى الشيخ الوقور الذي يتحدّاه ويستخفّ به.. نظرة لؤم وغضب وحقد.. وغادر القاعة دون أن ينبس. لكنّه بعد أن علم من صاحب الدّار مكانة الشيخ المرموقة، ومركزه الدينيّ الكبير، ذهب في اليوم الثاني إلى قرية «بيت الشيخ يونس» لزيارة عمي، والاعتذار منه.

حدثت هذه الواقعة في قرية «رأس الخشوفة»، بمنزل «يوسف الحامد» ـ الذي رافقه في اليوم التالي لزيارة عمي، وطلب العذر منه.

* * *

والدي، وعمي «الشيخ طاهر»، تزوجا بنتيْ عمهما ـ وكانتا من فضليات النساء، وأكثرهنّ ورعاً وحشمة.

كان عمي «الشيخ طاهر»: طاهراً كاسمه.. تقيّاً كوالدي، متصوّفاً مثله. وكان الانسجام بينهما قوياً متيناً.. حتى أنهما فتحا نافذةً صغيرةً، في الجدار الذي يفصل بين داريهما، لكي يتحادثا مع بعضهما، من وقت لآخر.

وكان لعمي «الشيخ طاهر» مريدون كثيرون يتأثرون بتوجيهاته وإرشاداته، ويقصدونه من أماكن بعيدة. وهو من رُواة الحديث الشريف، ومطّلِعٌ على الفقه الإسلامي بدقّة وعمق.

وقد تزوّج والدي، وعمي الشيخ طاهر، ابنتي عمهما ـ كما ألمعنا.. ورُزِقا بنين لم يسلموا من الرّدى، فلحقوا بجوار ربهم وهم صغار. وخشيت الزوجتان

الصالحتان أن يصبح زوجاهما بلا أعقاب. فطلبت كل واحدة من زوجها.. أن يتزوّج مرةً ثانيةً ليرزق بنين. واستجاب الزوجان لرغبة زوجتيهما الصالحتين اللتين كان موقفهما مثالياً.. ومن النادر أن يوجد له شبيه ومثيل!

ومن غرائب القدر.. أن كلاً منهما قد أنجبتْ بعد ذلك ولداً ذكراً اعتُبِر في محيطه مثلاً بالتقى والصلاح.. «ياسين» لوالدي، و«محمدّ» لعمي!

وهكذا كافأ القدر تلكما الزوجتين الصالحتين ـ على صلاحهما ومثاليتهما.

والدتي «شفيقة».. هي الزوجة الثانية لوالدي.. ولم تكن قد أكملت الثامنة عشر ربيعاً حينما اقترنت به، وهي نسيبته أيضاً. وقد أنجبت له عدداً من الأولاد.. رحل بعضهم في عهد الطفولة إلى جوار ربه، وبقي أربعة: ثلاثة ذكور، وبنت واحدة.

شقيقي الأكبر «كامل».. كانت له ذاكرة عجيبة.. فقد حفظ القرآن الكريم، كله غيباً.. وحفظ معه آلافاً من أبيات الشعر، وبعض كتُب التصوّف.. ومن صغره بدأ ينظم الشعر. وقد حرصت والدتي، بعد وفاة والدي، على إرساله إلى بيروت ليتعلّم فيها ـ ولكن المنيّة عاجلته قبل أن يُتِمّ تعليمه.

أمّا أخي «محمود».. فما يزال حيّاً، والحمد لله. وهو يتمتع بذكاء حاد، وإدارة حازمة، ودقة تركيز. وقد دخل سلك التوظيف، وشغل مراكز مرموقة أثبت فيها كفاية ومقدرة، وعمل في الحقل العام ـ ومايزال.. فكانت له خبرته العميقة الواسعة.

واقترن بفتاة مثقفة متّزنة رصينة ـ هي السيدة «كوثر عبد الرحمن». وقد ساعدته كثيراً بوعيها، وحسن إدارتها. ولها أثر بارز بتنشئة أنجالهما تنشئةً صالحةً، تفيد المجتمع فائدة جلّى. وقد أنجبا خمسة أبناء: مؤنس، وصلاح، وحنان، وسُهى، ومازن.. تخرّج أربعةٌ منهم أطباء من جامعة دمشق، و«حنان» مهندسة، وأنهى الأطباء الأربعة اختصاصهم في فرنسا، وكانوا دائماً الأوائل في دراستهم، وجميعهم مشهورون بالذكاء والتفوق والاستقامة.. ويعتبرون قدوة مثاليةً بهذه الصفات، وسيأتي الحديث عنهم فيما بعد.

وأما شقيقتنا الوحيدة «زينب».. فقد كانت صورة طبق الأصل لوالدتها: جمالاً وذكاءً، وحسن ذوق وخلق. وسيرد ذكرها في مكان آخر.

* * *

ولنعد إلى الطفولة، وسنيّها الأولى:

رغم حنان الأم، ورقتها وعذوبة عاطفتها.. فقد كانت والدتنا حازمة بتربيتنا، وصارمة. وأذكر أني ذهبت مرة، مع بعض الصبية أقربائي، إلى قرية تبعد عن قريتنا بضعة كيلومترات.. لنصطاد منها «عصافير» ـ وذلك بتسلق أشجار باسقة، حيث توجد عصافير كثيرة بين أغصانها المرتفعة. وفي طريق عودتنا، حوالي العصر، أدركنا العطش، فدخلنا احدى القرى وطلبنا ماءً من أحد البيوت، ولما عرفنا صاحب البيت.. أرسل معنا شخصاً أوصلنا إلى قريتنا، وكانت الشمس على وشك المغيب، وقد بلغ الاضطراب والضجيج مداهما في القرية.. لتغيُّب صبية من أبنائها.. والخوف من أن يكونوا قد فقدوا.

ورغم محبّة الوالدة وحنانها.. فقد شدّت وثاقي إلى أحد الأعمدة في البيت.. وظللتُ هكذا فترةً غير قصيرة.. حتى جاءت احدى قريباتنا وأطلقت سراحي.

ونشأتُ بعد تلك الحادثة أكره الصيد إلى أقصى حد. ثم تملكني بعدئذ شعور إنسانيٌّ غريب.. جعلني اضطرب وأتألم حينما أرى أحداً يصطاد عصفوراً، أو يذبح طائراً أو حيواناً. بلى.. إني آكل اللحم ـ ولكنني غير مسؤول عن القتل والذبح. وأذكر أن والدتي أعطتني مرة دجاجة لأذبحها.. ولم يكن في البيت أحد غيري ليقوم بهذه المهمة. فمسكت الدجاجة بيدي، وتأملتها مليّاً.. ثم أطلقت سراحها، وأسرعت إلى والدتي أقبّل يدها، وأنا أبكي، وأقول: لا أستطيع لا أستطيع.

* * *

وأحبّ أن أطلع القارىء على هذه القصة.. التي رواها لي صديق لبناني، قال: «كنا نصطاد الغزلان من صحراء سورية، شرق تدمر، والغزلان تركض خلف بعضها زرافاتٍ زرافات، في خط طويل ومستقيم. ونحن نعرف مدى سرعتها، وأنها لا تخرج عن الخط المستقيم ـ إلاّ إذا داهمها خطرٌ ما.. وحينئذ تنفلت من

رتابة سيرها وتركض في كل اتجاه.. ويكون من العسير اصطيادها آنذاك. ولهذا نسير خلفها بالسيارة ما يقرب من كيلو متر واحد، وبسرعة تتوازى وسرعة ركضها.. ونظلّ هكذا ساعةً أو ساعتين.. حتى تتعب وتجهد، ولن يعود بإمكانها الاستمرار بالركض.. فتمشي وقتئذٍ ببطء. فنغتنم الفرصة.. وننقضُّ عليها، ونبدأ بإطلاق الرّصاص من كل جانب، فتتهاوى على الأرض.. وحينئذ نعمد إلى جمعها، وهي عشرات. وقال:

في احدى المرات.. رأيت غزالاً يزحف على بطنه إلى حيث كانت أنثاه أمامه وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة.. فوضع رأسه على رأسها، والدموع تنهمر من أعينهما بغزارة.. وماتا معاً. ولما رأيت هذا المشهد.. لم أستطع أن أحبس دموعي، فبكيتُ وعدت إلى سيارتي دون أن أصطحب معي غزالاً واحداً مما اصطدته، وأقسمت على أن لا أصطاد بعد ذلك أبداً. وكان الصيد ـ حتى تلك الحادثة.. أحب ما يكون إليّ».

حينما يعود الإنسان إلى انسانيته ـ قولاً وعملاً.. يصبح جديراً بحمل اسم إنسان.. وإلا ـ فلا.

وصدق الشاعر «عمر أبو ريشة»:

لست تَسْتطيعُ أن تكون إلهاً فإذا استطعتَ.. فلتكن إنساناً

* * *

ولقد بلغ من دقة والدتنا بتربيتنا.. أنها علمت مرة بذهابي مع بعض الرفاق إلى نهر قريب لنسبح فيه ـ اسمه «نهر الأبرش». فجرت وراءنا حتى أدركتنا، قبل أن نصل إلى النهر، وأمسكتني بيدي وأعادتني إلى البيت. وهكذا.. نشأتُ لا أجيد السباحة ـ لأنه حيل بيني وبين تعلمها منذ الصغر! وقد حاول صديقي «أنيس الكيك»، بما له عليّ من دالّة، أن يضطرني لتعلمها في مصيف «بونتادي لاستي» الشهير، باوروغواي، حيث كنا نصطاف معاً بسنوات غربتي الأخيرة. ولكن محاولات صديقي «الأنيس» لم تُجْدِ ـ لأن من لم يتعلم السباحة في الصغر..

هيهات أن يستطيع تعلمها في الكبر!

* * *

وضعوني عند «خطيب» في القرية، قبل أن أكمل السابعة من عمري ـ لأتعلم القراءة والكتابة.. ولم تكن قد أُنشئت مدرسة في قريتنا بعد. و«الخطيب»، وهو من منطقة بعيدة، كان ضريراً. فكيف يستطيع رجل فقد نعمة البصر أن يعلم طلاّبه؟ ولذلك كان الكبار منّا، وقد تعلموا القراءة في أمكنة أخرى، يعلّمون الطلاب الصغار. وطريقة تعلّم القراءة.. هي بتعلّم «القرآن الكريم» ـ وحسب! وهكذا كنا نحفظ غيباً بعض السُوَر الكبيرة، وكثيراً من السُّور الصغيرة. و«الخطيب» كان يحفظ «القرآن» كله غيباً.

وكنّا نجلس على بُسُط من قش في أيام الشتاء ـ وأمّا بالصيف.. فالأرض هي بساط الله ـ كما يقولون!

و«الخطيب» الضرير.. كان يضرب طلاّبه بقسوة ـ ولأتفه الأسباب! ويكفي أن تأتي أمٌ تشكو له ابنها.. حتى ينهال عليه بالضرب المبرّح.. دون أية شفقة أو رحمة! ولم يسلم من يديه، وعصاه الغليظة، طالب ما!

وأذكر أن الطلاّب.. حنقوا على «خطيبهم» لقسوة معاملته، وشراستها، فقرروا الانتقام منه.. وصعدوا إلى سطح بيته، في احدى ليالي الشتاء، وكان المطر ينهمر بغزارة.. وسقف البيت من أخشاب، فوقها طبقة من التراب، كسائر بيوت القرى، كما أسلفنا.. فثقبوا السطح، بقضبان من الحديد، ثقوباً واسعة.. فتدفّق الماء منها فوق خوابي الزيت الممتلئة.. وكان أحدهم قد تسلّل إلى مكانها، فرفع أغطيتها عنها.. وحدّدوا أمكنة الثقوب لتكون فوق «الخوابي» مباشرة! وهكذا تدفّق الماء فوق الزيت الذي تدفّق فوق الأرض، وانساب إلى الخارج.. ليختلط بمياه الأمطار، وينحدر معها إلى أسفل الجبل!

وفي الصباح.. كانت الأواني مملوءة ماءً ـ بدلاً من الزيت! واتُّهِمت الطبيعة بتلك الجناية.. ونجا التلاميذ من العقاب.

وأؤكد .. أني لم أشترك بذلك العمل ـ لأني كنتُ صغيراً .. وقد تولاّه الصبية

الكبار.. ولكني كنت معهم، وربما من المتحمّسين.

ومرّة.. ضربني ذلك الخطيب بقسوة ـ ولسبب تافه.. فرفضتُ التعليم عنده، وصرت أتهرب من الذهاب إلى حلقته ـ التي كان يميزها، بالنسبة لنا، أنها قريبة من منزلنا. وكان سلاحي تجاه أهلي البكاء.. ثم الهرب إلى الصخور المحيطة بالقرية، والاختباء وراءها. وظللتُ هكذا.. حتى اضطرت والدتي لنقلي إلى عند خطيب آخر، في القرية، اسمه «يوسف رسلان»، وهو من «أوادم» القرية ـ المعروفين بالطيبة، والاستقامة، وحسن التآلف. وكان دؤوباً على تعليم طلابه دون قسوة ـ بل بمنتهى اللطف والعطف.. فكانوا يحبونه جميعاً، ويقدّرونه. وقد بقيت عنده حتى أتممت حفظ القرآن. رحمه الله.

* * *

وأُنشئت مدرسة في القرية ـ بعد مراجعات كثيرة بشأنها. وعُيِّن الأستاذ «عبد الرحمن الخَيِّر» معلّماً فيها. وكان في ذلك الحين، واحداً من نادرين من أبناء الجبل، يجيد اللغتين: العربية والفرنسية. وقد بقيتُ في مدرسة القرية ثلاث سنوات.. استفدت خلالها كثيراً من خبرة الأستاذ ودرايته، وحسن توجيهه. ويبدو أني كنت نشيطاً بين رفاقي الطلاب ـ إذ أن الأستاذ كان يعهد إليّ بإلقاء الخطب، باسم طلاب المدرسة، في جميع المناسبات الرسمية. ومن البداهة.. أنه كان هو الذي يُعِدّها ثم يُمرّنني على إلقائها.

وصدف أن قام الحاكم الفرنسي لمحافظة «اللاذقية» ـ وكانوا يسمونها «دولة».. إمعاناً منهم بسلخها عن دمشق، وبقية المحافظات السورية ـ قام بزيارة منطقة «صافيتا». وأُعِدّ برنامج الرحلة.. على أن يكون غداء الحاكم الفرنسي ومرافقيه في قرية «بيت الشيخ يونس» ـ لما تتمتع به من سمعة واسعة في المحافظة كلها. وكانت تصحب الحاكم ابنته الشابة، وكبار المسؤولين الإداريين والعسكريين. وأرسل متصرف طرطوس إلى عمي «الشيخ ياسين عبد اللطيف» يرجوه أن يُعَدَ في منزله مأدبة غداء للحاكم وموكبه. واستجاب عمي للطلب، وحلّ الحاكم الفرنسي، ومرافقوه الكُثُر، في «منزول» عمي، وتناولوا طعام الغداء على مائدته.

ورأي معلم المدرسة، الأستاذ «الخَيِّر»، أن يُلقي أحد طلابه خطاباً باللغة الفرنسية أمام الحاكم الفرنسي. ووقع اختياره عليّ. وطبعاً.. كتب هو الخطاب، وعهد إليّ بإلقائه. ثم رأى أن أتمرَّن على الإلقاء مسبقاً. وجلستْ «أم ابراهيم»، حرم خالي الشاعر «الشيخ يوسف ابراهيم» ـ الذي عُيِّن «قاضياً شرعياً» فيما بعد ـ وهي سيدة تقية طاهرة متديّنة.. وصرت أوجه إليها الخطاب، على أنها ابنة الحاكم. وضحكت وهي تقول: ماذا أسأتُ إليكم حتى تشبهوني بامرأة أجنبية؟

ويبدو أني ألقيت الخطاب إلقاءً جيداً. فقد كتبتْ بنت «الحاكم» على بطاقة عدّة أسطر، تقديراً لي، وتوصية بي، وناولتني إياها، وهمّت بتقبيلي.. فخجلت واضطربت.. وانفلتُّ من بين يديها، وهربت من نافذة «المنزول» إلى الخارج.

* * *

بعد فترة من الزمن، في وسط الأربعينات، كنت في مصيف «صلنفة» الشهيرة، الكائنة في أعالي الجبل وسط غابات كثيفة من الأشجار الباسقة، وتقع في الجانب الشرقي من «اللاذقية»، وتبعد عنها حوالي أربعين كيلو متراً - وقد حرصت على الاصطياف فيها بعض الأعوام. وجاءني، يومذاك، من يقول لي: إنَّ الحاكم الفرنسي السابق للمحافظة يجلس هو وابنته في صالون الفندق «الكازينو» الذي بُنِيَ بعهده، وقد جاء لزيارة المنطقة التي حكمها فترةً طويلة.. واستعادة ذكرياته فيها.

وتطلّعت من بعيد إلى الحاكم وابنته التي بدت وماتزال فيها «بقيّة» تُغْري.. وكان بقربي صديقي الشاعر الفَكِه «عبد الرحمن ابراهيم».. فذكرتُ له ما حدث لي مع بنت الحاكم منذ عشرين سنة ونيِّفاً. ونظر إليها، وقال لي بظرفه المعروف: لو حاولتْ تقبيلك الآن.. أترفض؟ أم تطلب المزيد؟

فنظرتُ إليه نظرة استنكار، ولم أجب. فهمهم وتمتم وغمغم.. وغير الله لا يعلم مادار في خاطره بتلك اللحظة!

* * *

في مدرسة القرية الابتدائية.. تلقيت المبادىء الأوليّة للدراسة.. وكانت منطلقاً لي، وذات أثر بارز في حياتي.

وحدث بعدئذ ما سبَّب إغلاق المدرسة.. مما سبَّب مأساةً للقرية وأبنائها التَّوّاقين للعلم، ومتابعة الدرس. ولكن الاستعماريين الذين يريدون استعباد الشعوب.. يعملون دائماً لأن تكون متخلِّفةً عن ركب الحضارة، وموكب العلم. والمدرسة هي التي تثقِّف الناشئة، وتفتح أمامهم سُبُل الحياة ومنطلقها.

وبعد إغلاق المدرسة، في قريتنا، أرسلني والداي إلى مدرسة «صافيتا» الرسمية للانتساب إليها، وتلقي الدروس فيها. ومدينة «صافيتا» تبعد عن قريتنا حوالي خمسة كيلومترات - أو ما يقرب من ساعة مشياً على القدمين. وكنت أذهب إليها ماشياً صباح كل يوم، وأعود في مسائه – وعليَّ أن أهبط جبلاً، وأجتاز وادياً، ثم أصعد جبلاً آخر.. مارّاً في قرية «التلعة» لأصل بعدئذٍ إلى «صافيتا». وطريق الذهاب هو نفسه طريق الإياب. وكثيراً ما كنتُ أعود.. والظلمة حالكة، والطريق مقفرة.. فيرعبني الظلام، ويرهبني الخوف، وأنا طفل - لم أتجاوز العاشرة من عمري.. وأسير وحيداً في تلك الطريق الموحشة.. حيث لا سكان، وأكثر الأحيان ولا مارَّة!! فكنت أرفع صوتي بالغناء وبترديد ما أحفظ من أشعار.. كي أبعد عني شبح الخوف، وكي أعبِّىءَ نفسي بالجرأة والشجاعة.

كان أستاذي في المدرسة «الخوري جبر» يُعْنَى بي، ويؤثرني، ويشجِّعني على متابعة التعليم، ويقول لي دائماً: إذا صحَّت فراستي.. فسيكون لك شأنٌ في المستقبل. وإني مدين له، وللأستاذ «عبد الرحمن الخيِّر»، بانطلاقتي، وبما غرساه فيَّ من ثقة بالنفس، والاعتماد على العلم. رحمهما الله، وذكرهما بكل ما يُذكر به صانع جميل، وفاعل خير.

وكنت أتمتع بحافظة قوية.. كانت مثار إعجاب رفاقي وأصدقائي - وهم يرونني أحفظ القصيدة، مهما كانت طويلة، بوقت قصير.. وإذا كانت لا تتعدّى بضعة أبيات.. فقد كنت أحفظها بعد قراءتها مرتين أو ثلاثاً - ولا أكثر.

وأذكر أننا في وسط الستينات .. كنّا، بعض الأدباء والشعراء في مدينة «سان

باولو» بالبرازيل، قد شكلنا «الرابطة الأدبية»، وقرَرنا في أحد الاجتماعات أن نقصر الجلسة المقبلة على دراسة شعر «شاعر عبقر» ـ «شفيق معلوف». وكنّا نجتمع أسبوعياً. وخلال ذلك الأسبوع حفظت حوالي أربعين قصيدة أو مقطوعة من الديوان.. وبالأصح حفظت الديوان كلّه ـ ما عدا بعض القصائد المترجمة عن اللغة البرتغالية.. فإنني لم أجد ما يشجعني على حفظها. وقد دُهِش أعضاء «الرابطة» وأبدوا إعجابهم الشديد بقوة حافظتي.. ومايزال الأحياء منهم يذكرون هذه الواقعة ويروونها.

ودرست بعدئذ شعر «شاعر عبقر»، وقد طبع الجزء الأول من هذه الدراسة في دار «الحياة» ببيروت.. ومايزال الجزء الثاني معدّاً للطبع، ومهيأ له ـ وسيرد الحديث فيما بعد عن الشعر والشاعر.

وأعود للقول.. أني كنت أحفظ بسرعة غريبة ـ وما أزال، حتى الآن، أستطيع الحفظ. ولكن.. كما أني أستطيع الحفظ بسرعة، فإني أنسى بسرعة، مالم أركز اهتمامي للاحتفاظ بما حفظت.. وحينئذٍ قد أستطيع ـ ولكن أيضاً.. هل أستطيع دائماً تركيز اهتمامي للاحتفاظ بما أحفظ ـ وأمامي مشاكل الحياة ومتاعبها ومنغّصاتها؟! وحتى الآن.. ما أزال أحتفظ ببعض ما استوعبته ذاكرتي أيام الطفولة والمراهقة، وأرويه. وصدق من قال: الحفظ في الصغر.. كالنقش على الحجر ـ إلاّ أن من المحال أن يستطيع المرء الاحتفاظ بكل ما قد حفظه، وأما بعضه.. فربما.

وإنّ احدى عجائب الكون ـ وربما في طليعة عجائبه.. هذه «الذاكرة»، وكيفية اختزانها، وأسلوب حفظها.. ثم الاحتفاظ بما تحفظه! شيء لا يحدّه عقل، ولا «يدركه خيال» ـ كأنه أسطورة!! إنها قدرة القادر، وأهمّ معجزاته التي لاتُعَدُّ ولا تُحصى.

ولم أعرف امرَأً ذا حافظة قوية تبعث على الإعجاب والدهشة .. مثل الأستاذ «مدحة عكاش» صاحب مجلة «الثقافة». فقد أكّد لي ، وهو ما أكّده كثيرون، أنه يحفظ الألوف و الألوف من أبيات الشعر. وهذا ولا شك معجزة خارقة ..

فسبحان الخالق.

* * *

وجاء من يغريني بالانتساب إلى «مدرسة بوقا الزراعية»، في اللاذقية. وكان طلابها يتعلمون فيها، ويُطْعَمُون ويبيتون مجاناً.

ومن أجل الانتساب لتلك المدرسة.. فإنه لابدّ من الحصول على شهادة من مختار القرية للقبول في ذلك المعهد.. وإنّ من غير الممكن إقناع مختار قريتنا بإعطائي تلك الشهادة إلاّ بعد موافقة الأهل ورضاهم. وعرضتُ الفكرة على والدتي فرفضتها رفضاً قاطعاً.. وإذن فلابدّ من اللجوء إلى وسيلة أخرى.

وفي أحد الأيام ذهبت إلى احدى القرى التي يدين أهلها بالولاء لوالدي، وطلبتُ من مختارها أن يضع ختمه على ورقة بيضاء ليعبئها والدي فيما هو بحاجة إليه. ولمّا كانت الثقة بوالدي لا حدّ لها ـ وأنا ابنه.. فقد وضع المختار «ختمه» الرسمي في أسفل ورقة بيضاء، وسلمني إيّاها.

وعبّأتُ «الورقة».. بما يتضمن شهادة من المختار والهيأة الاختيارية.. بأني غير قادرٍ على الدراسة في المعهد الزراعي على نفقة أسرتي، ووضعت إلى جانب ختم المختار إمضاءات أعضاء الهيئة الإدارية، وكنت أعرفهم، وأخذت الشهادة ـ المعروفة باسم «مضبطة».. إلى سكرتير «المتصرّف» بطرطوس.. وحينما استلمها وتأمّلها، ابتسم وقال لي:

أليس الذي كتب «المضبطة».. هو نفسه الذي وضع الإمضاءات عليها؟

وامتقع وجهي واضطربت. ولكنّ السكرتير كان نبيلاً ولطيفاً جداً. وقد أدرك أن الغايةَ هي السعي لطلب العلم، فقال لي: عُدْ بعد الظهر، لكي نعطيك طلباً للمختار.. لنأخذ منه بعض الإيضاحات، وسأعمل لمساعدتك.

فخرجتُ من مكتبه.. وأنا لا أصدق أني خرجت ـ لكثرة ما انتابني من خوف.. وقد اكتشف الموظف أن مضبطة المختار مصطنعة. وأيقنت أني أخفقت ـ لأنّ المختار سيكتشف أيضاً «اللعبة».. وهو لايمكن أن يعطي الإيضاحات المطلوبة إلاّ بعد موافقة والدي الذي لن يوافق حتماً.

لقد كان عملاً طفوليّاً ـ ذاك الذي أقدمت عليه.. وقد دفعتني إليه براءتي وحبّي للدراسة.. ولكن دون جدوى!

وعدت إلى قريتي، ثم إلى مدرسة صافيتا ـ وكنتُ قد أخبرت والدتي أني سأبيت ليلتين عند أحد رفاقي في المدرسة. وهكذا مرّتْ تلك الحادثة بسلام ـ وكأنّ شيئاً ما.. لم يحدث.

وآه.. كم أنا آسف لأني لم أعرف اسم ذلك السكرتير الشّهم.. الذي اكتشف خطيئتي، ولم يحاسبني عليها.

وآه.. كم تمنّيت أن أعرف اسمه ـ لأكافئه، بعدئذ، على صنعه الجميل معي ـ إذْ أنّ من عادتي التي أعتزّ بها.. أني لا أنسى صنعاً كريماً يُسدَى إليّ.. ولابد من أن أعمد لمكافأة صاحبه بقدر ما أستطيع ـ ولو بعد حين.

ولكن ـ يكفي ذلك الإنسان النبيل.. أنه يحمل قلباً طيّباً، هو سبيله إلى الله. وصاحب القلب الطيب ـ وإن ضاع صنعه الحسن بين الناس.. فإنه لا يضيع عند الخالق، وهيهات أن يضيع.

هنيئاً، وألف مرة هنيئاً، لمن يستطيع خدمة الناس دون ترقّب مكافأة.. أو حتى سماع كلمة شكر.

وفي يقيني.. أن أكثر ما يكون قرباً إلى الله.. هو القيام بواجب، وإسداء خدمة، وإبداء معونة ـ لمن هو بحاجة إليها.. دون انتظار كلمة ثناء، أو عبارة امتنان.

إني مؤمن بهذا إيماناً عميقاً ـ وهو شعاري في حياتي.. طوال حياتي. والحمد لله والشكر لله.

* * *

بعد ذلك.. حدثت المأساة المروِّعة.. التي روّعت حياتي، وقلبتها رأساً على عقب.

لقد كان والدي ـ كما سبق وذكرت.. يصطحبني معه في بعض زياراته للقرى، أيام العطل المدرسية. وصدف أني كنت معه في قرية «النقيب»، التابعة لمنطقة

طرطوس، حيث تحلَّق عدد من سكان القرى المجاورة حول «الشيخ»، ينهلون من معين صوفيّته وإيمانه وتقاه.

وقرأتُ في الليلة ـ التي حدثت المأساة في صباحها.. كثيراً من المدائح النبويّة، والأوراد، وقصائد التصوّف التي كنت أحفظها جيداً، وأجيد إلقاءها.

وتفرَّق الناس.. بعد أن قضوا جزءاً من الليل إلى جانب والدي. وظلَّ«الشيخ» كعادته ساهراً يصلّي، ويتلو «القرآن» الكريم.. بصوت عميق خاشع. وأفقت.. وإذا بوالدي يتهيَّأ لصلاة الفجر.. ورأيته يخرج من البيت، ليفترش عباءته على «مصطبة» أمام الدار.. ويؤدي صلاته عليها. ثم جلس مستنداً إلى الجدار.. ليتابع التلاوة والتهجّد.

وأطال تلاوته وتعبّده وتهجده.. وكان الطقس بارداً، وهو نحيف البنية، نحيل الجسم.. ثم عاد إلى فراشه، والشمس على وشك الشروق. وأغفيتُ.. وإذا به يوقظني ويطلب مني أن أجلب له كأس ماء.. ثم استلقى على فراشه، ووضعت الغطاء عليه.. فدعا لي.. وبدأ يكرر الشهادتين تباعاً:

أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن «محمداً» رسول الله

وسكت «الشيخ».. وتلك كانت النهاية!

كنت طفلاً.. لم أتمرَّس بأعباء الحياة، ولا أعرف شيئاً من معاناتها ومسؤولياتها.. ورأيت والدي ينتقل إلى جوار ربه أمامي.. وأنا بعيد عن أهلي.. فلا أعرف كيف أتصرّف، ولا ماذا أعمل! وكان من الصَّعب عليَّ أن أتخيل كيف يموت المرء ويرحل.. وكيف بمثل هذه السرعة يغمض عينيه، وينتهي!

لم يكن عقلي الصغير يدرك هذه المعميَّات، ويعيها!

وأنا الآن أمام مأساة رهيبة.. حفرتْ جرحاً عميقاً في قلبي ـ وما يزال ينزّى ألماً ودماً، وأسىً ولوعةً، وحزناً مدمِّراً مميتاً.. وسيظلّ!

والدي يُتَوَفَّى أمامي. وما بين لحظة ولحظة.. وإسبال يدين، وإغماض عينين، واختلاج شفتين بالشهادتين، يمضي.. ويخلِّف طفله إلى جانبه ـ وهذا الطفل لا يعرف شيئاً من أمور دنياه، ولا يدرك مهامَّها ومسؤولياتها وتبعاتها!

ويرحل. وأفاجأ برحيله، وأناديه: أبي، أبي، فلا يجيب!

وصُعِقتُ.. وتملّكني الخوف والرُّعب.

وأسرعتُ إلى فرس والدي فامتطيتُها.. وركضت بها ـ أو ركضت هي بي.. إلى قريتنا، بيت الشيخ يونس، والمسافة لا تقلّ عن بضعة عشر كيلومتراً.. ووقفت أمام البيت: وصحتُ بأعلى صوتي:

أمّي، أمّي.. لقد مات أبي.

ولويت رأس الفرس، وقفلتُ راجعاً إلى حيث أبي.

ونزل النّبأ على أمّي كالصاعقة.. فصرخت، وتبعتني راكضة وهي تصرخ وتصيح.. ولكنني كنت أبتعد وكأنني أمتطي صاروخاً ـ لا فرساً!

تَصَرُّفٌ طفوليّ ـ بكل ما في الطفولة من معنى!

وفي منتصف الطريق، بين قريتيْ «مجدلون البستان» و«بشبطه»، فوجئت بجمهور غفير يتحلّق حول «تابوت».. يحمله ناس على أكفّهم، ويسيرون به. فصحت بأعلى صوتي: مَنْ هذا؟ وانهمرت الدموع من عيون الناس.

فصرخت: أبي، أبي.. وارتميتُ من على ظهر الفرس، وأنا أنشج وأصيح: أبي، أبي.. ولم أعد أقوى على النهوض، والسير على قدمي.. فحملني الناس ووضعوني على ظهر الفرس. ولكني لم أستطع الاحتفاظ بقواي فوق السرج.. فارتميت على الأرض مرة ثانية.. فحملوني على أكتافهم مثلما حملوا جثمان «أبي».

وكان جميع سكان القرى التي يمر بقربها الموكب، والمجاورة لها.. يواكبون الجثمان.. والجماهير تنحدر، من كل حدب وصوب، للمشاركة بحمله، أو السير وراءه. وامتلأت أزقّة قريتنا وساحاتها بجماهير غفيرة.. لم تشهد لها مثيلاً ـ إلا في أوقات نادرة جداً.

ومن غرائب الحياة.. أن فرس والدي بقيت ثلاثة أيام لا تأكل ولا تشرب، والدموع تسيل من عينيها! وليثق القارىء الكريم أن هذا ما جرى. وصدق من قال: إن عند الحيوان عاطفة كما عند الإنسان.

* * *

بعد وفاة والدي.. وجدت نفسي أمام مسؤولية أسرة: والدة، وثلاثة أشقّاء، وامرأة وفية مخلصة تدعى «سُكّر».. نشأت، مع الأسرة، هي وزوجها «علي سليمان» ـ وكأنهما جزء منها. وكانت تساعد والدتنا في تربيتنا، والعناية بشؤون البيت. وكنا نرى في «سُكّر» أمّاً ثانية لنا ـ بعد أمّنا.. ومن الوفاء أن يقال هذا عنها. رحمها الله.

واضطرّتني وفاة والدي لأن أهجر المدرسة، وأقف طاقاتي لخدمة والدتي وإخوتي ـ ولكنني بقيت مثابراً على التعلّم بصورة خاصة. وكما ذكرت.. فقد تأثرتُ كثيراً بأخلاق والدي، وخطته، وكيفية معاملته الآخرين. ونهلتُ من ينبوع عقيدته النقيّة من صغري، ونشأت على تقديرها، والتعلق بها وإيثارها ــ وهذا ما ساعدني في حياتي، ومكّنني من القيام بواجباتي.

وكان أخي الأكبر «ياسين» يعيش مع والدته في بيت مستقلّ. ونشأ على غرار والده.. فكان صورةً صادقةً عنه: بالصلاح والتُّقى والبذل، وإنكار الذات. وسيأتي الحديث عنه فيما بعد.

* * *

خلال صيف سنة ١٩٣٣ ـ وكنت صرتُ فتىً.. اتفق شيوخ المسلمين العلويين، وزعماؤهم، الهادفون للتطور والإصلاح.. على عقد اجتماع عام، ينظمون فيه أمور دينهم ودنياهم ـ وكانت هي المرة الأولى التي يعقدون مثل هذا الاجتماع الكبير. وتمّ الاتفاق على أن يكون هذا اللقاء التاريخي في قرية «بيت الشيخ يونس» ـ نظراً لمكانتها المرموقة.. وأن يكون في منزل «الشيخ ياسين عبد اللطيف».. حيث مكثوا في ضيافته ثلاثة أيام.. تباحثوا خلالها في الشؤون العامة للطائفة الإسلامية العلوية، ووضع الأسس والمناهج لها. وكانوا عند المبيت يتوزّعون في منازل وجهاء الأسرة وأعيانها. ومنذ الصباح الباكر ـ إلى مسائه يلتئم جمعهم في «منزول» عمي «الشيخ ياسين» لاتخاذ خطط تقضي بتوحيد الكلمة، وتنظيم الصف، والقضاء على التفرقة العشائرية البغيضة.. ووضع منهج سديد لهذه الغايات النبيلة.

وقد حضر ذلك الاجتماع الضخم.. كبار زعماء العلويين، وكبار شيوخهم، وجمهرة من الشباب التواقين إلى التحرر والانعتاق والانطلاق. وخرجوا في نهاية اجتماعاتهم، وبعد أبحاث مكثَّفة متواصلة.. بوثيقة اصلاح شاملة ـ لو نُفِّذت مبادئها.. لتخطَّت بهم جميع الفوارق الزمنية، وخطت بهم خطوات واسعة إلى الأمام.

وطلب عمي «الشيخ ياسين» مني أن ألقي كلمة في ذلك الحفل الكبير.. أحيِّي بها الشيوخ والزعماء وأرحِّب بهم. وقد ساعدني في اعداد الكلمة خالي «الشيخ يوسف ابراهيم» ـ وكان من دعاة حركة الإصلاح والمتحمسين لها.

وقد عرضتُ في كلمتي تلك.. بعض المطالب الهادفة للإصلاح، ورفع مستوى الشعب.. وأنَّ من الواجب إتاحة الفرص للشباب الناهض ـ كي يؤدِّي رسالته في خدمة المجتمع، والانطلاق في مجالات العمل والوظيفة.

وكان الزعيم الكبير «جابر العبّاس» في طليعة الزعماء الموجودين في ذلك الحفل. وقد علَّق على خطابي، وأثنى على الروح الطيبة التي تضمنته، ولكنه أعلن صراحةً أنّ من الصعب تنفيذ المطالب التي وردت فيه بتلك الظروف.

ووقف «شعبان مهنّا»، وهو وجيه من قرية «حميميم»، منطقة جبلة، ورفع «طربوشه» عن رأسه.. وصاح: والله.. كل ما قاله هذا الفتى صحيح.

وأذكر أن أحد الزعماء قال لي وقتذاك:

أتريد أن نعيِّن أحد الفلاحين «قاضي صلح»؟!

فأجابه خالي «الشيخ يوسف ابراهيم» قائلاً:

لا.. هو لا يطلب هذا ـ وإنما يطلب أن تعلِّموا ابن الفلاّح حتى يصبح هو «قاضي صلح». وكان جوابه محكماً وسديداً.

وعند انتهاء المؤتمر.. اتخذ أعضاؤه قرارات بنّاءه.. تهدف لرفع مستوى الشعب، وتوحيد صفّه، وازالة الفوارق من بين أبنائه.. وأن يجتمعوا كل عام للتباحث والمناقشة، والعمل لتنفيذ القرارات المتّخذة.. وحُدِّد موعد الاجتماع الثاني في قرية «قرفيص» ـ منطقة بانياس.

ولكن الفرنسيين.. منعوا عقده، وحالوا دون تلاقي أركان المحافظة ـ لأنهم يريدون تفرقتهم وتمزيق صفّهم.. وليس اجتماعهم وتلاقيهم! وكان المستعمرون يحكمون البلاد بالحديد والنار، وبمنتهى الضّراوة والقسوة والوحشية. وقد عمدوا لخلق زعامات جديدة تسير في ركابهم، وتنفّذ لهم رغائبهم ومطالبهم. وحاربوا الزعماء الذين يوجد عندهم إحساس وطني، وشعور لا طائفي! فكيف يمكن أن يسمحوا بعقد اجتماعات.. يكون لها أَثرها الفعّال في توحيد أبناء الشعب، وتوجيههم وجهة كريمة.. تخدم أهداف الشعب، والمبادىء التحررية القويمة!

* * *

كان كثير من المتداعين، أمام المحاكم، يتفقون على أن يكون «الشيخ ياسين عبد اللطيف» حكَماً بينهم. وتُرسِل له المحاكم رغبتها في أن يستجيب لرغبة المتداعين.. فيستجيب، ويدعوهم للحضور إلى مجلسه.. حيث يستمع إلى كلٍّ منهم.. وكان يوكل إليَّ مهمة تسجيل أقوالهم ـ لكي يعود إليها عند اصدار حكمه الذي يرسله إلى المحكمة. وكثيراً ما كان يوفّق بينهم.. فيخرجون من عنده متفقين متصافين. ويُرْسِل إلى المحكمة إشعاراً بذلك.

وهذا كثيراً ما حدث معي بعدئذ. ولم يصدف إن كُلِّفْتُ من محكمة، بالتحكيم بين متخاصمين.. إلا وخرجوا من عندي متفقين متصافين، والحمد لله.

وتوطّدت الصلة بيني وبين عمي «الشيخ ياسين».. وكان يعلن أنه يتوسَّم الخير بابن أخيه ـ وقد قال لي مرة هذا.. وشفعه بدعاء، وطلب من الله أن يأخذ بيدي.

وابن عمي «غانم ياسين».. كان في طليعة من جاهر في ذلك المحيط بالإصلاح الديني والزمني، وناضل وتحدّى. ولولا مكانة أبيه ومقامه.. لما سلم من الناس.

وهو أول من لبس ربطة عنق في بيئتنا، وحرّر «الطربوش» من ذؤابته المتدلّية. وأول من استعمل الشوكة والسكين في الطعام، وأجبر الذين يستضيفهم، ويستضيفونه، بأن يأكل كلٌّ منهم في إناء خاص.. يُصَبُّ فيه من الإناء الكبير بملعقة كبيرة خاصة.. ويضع على ركبتيه «فوطة» تحافظ على نظافة الثوب،

وإناقة المائدة. وقد حارب الدَّجل، والشعوذة، والبدع الخرافية ـ وكان يجاهر بذلك، ويتحدّى. وحارب تقبيل الأيدي.. صارخاً في وجه كلّ من يراه يقبّل يداً، أو ينحني لتقبيل يد. وأقرّ تعليم البنات ـ وكان ذلك حَدَثاً هاماً في ذلك الحين! وكان الناس يتناقلون أخباره.. بمنتهى الدهشة، والاستغراب.. وبعضهم يأتي من أماكن بعيدة ليتأكد منها.

ولولا مكانة والده، وسموّ مقامه وقدره، لما سلم «غانم» من ذوي العقول المتحجّرة، والأفكار المريضة. ولكنه لم يسلم من اتهامهم إياه بالخروج على العادات والتقاليد!! والخروج عليها، عند مرضى العقول، يعني الإلحاد والكفر ـ وياله من تهمة مخيفة، في ذلك الوسط المحافظ المتديّن! وابن عمي «غانم ياسين» كان آية من آيات الطيبة والجرأة والإخلاص، وعزّة النفس وإبائها.

وشقيقه «عبد اللطيف ياسين».. كان قويّ الحجة، طلق اللسان.. جريئاً إلى حد الانفعال، وعدم المبالاة. ولم يعرف ذلك المحيط أكثر منه سخاء يد ونفس، وعنفوان كلمة، وشجاعةً بالقول والتّحدّي. ولولا حدة طبعه، وقسوة مزاجه.. لاستطاع أن يلعب دوراً أكثر أهمية وفعالية ـ لأنّ طاقاته الروحية، وشمائله، كانت تؤهّله لذلك.. ولكن للظروف أحكامها، وتأثيرها وفعاليتها.

وقد هاجر «عبد اللطيف» إلى الأرجنتين في مطلع الثلاثينات.. وبقي فيها ما يقرب من ربع قرن ـ حيث تزوّج وأنجب.. ثم عاد إلى سورية ليتزوج ثانية ويُنجب. وخلّف هنا، وهناك، أنجالاً أذكياء متفوقين، يرحمه الله.

ولما قويت المعارضة في وجه الدّعوة للإصلاح، واشتدّت.. وبدأت السُّبُل تضيق أمام المصلحين، والأشواك تُزرع في طُرُقهم ـ وللرجعية أثرها وخطرها.. اضطرّ «غانم» للهجرة إلى أمريكا.. حيث عمل وأخاه «عبد اللطيف» ـ الذي كان قد أسّس عملاً ناجحاً أشرك أخاه «غانم» فيه.

وحينما زرت الأرجنتين سنة ١٩٤٨ ـ كما سيجيء.. ألححتُ عليهما بأن نعود معاً، وأصررتُ، فاستجاب «غانم» لإلحاحي وإصراري، وعاد معي إلى الوطن بعد غربة عشرين عاماً.. حيث قُلِّد وسام الاستحقاق السوري ـ تقديراً لجهوده وجهاده

في المغتربات.. ثم عُيِّن عضواً في مجلس بلدية صافيتا. وقد توفي سنة ١٩٧٨ رحمه الله.

* * *

في تلك الفترة.. رسخت في نفسي فكرة الدعوة للإصلاح، والتهافت عليها، والحماس لها.. وصرتُ توّاقاً لحياة العراك والنضال – في سبيل الإيمان بفكرة، والتّبشير بعقيدة، والدفاع عن مبدأ.

وأذكر أني حينما كنت في الرابعة عشرة من عمري.. دخلتُ على تلك الفئة المتحرِّرة، المنفتحة على الانطلاق، والنضال في سبيله.. فقال لي أحد أفرادها: «بكِّير عليك»! فخرجتُ حزيناً.. ولم أدخل عليها بعد ذلك أبداً – رغم تقديري العميق لها، وإيماني بصواب آرائها وأفكارها وخطتها وخُطاها.

وأذكر أيضاً.. أني انتقدتُ بيتاً من الشعر لـ «الأخطل الصغير»، «بشارة الخوري»، في رثائه «الملك فيصل» الأول، فقال لي الذي كان يقرأ القصيدة: «بكِّير عليك.. »! الكلمة نفسها التي قيلت لي قبل ذلك – وهو الشخص نفسه الذي قالها أولاً وثانياً! فتألمتُ، وصممتُ على أن أتابع نقد الشعر، وألازمه. وبقيت الفكرة تلازمني.. حتى أصبح النقد، فيما بعد، نواة تخصّصي الأدبي، وإيثاري إياه على سواه. وأصبح ذلك الشخص نفسه.. من أكثر الناس تقديراً لي، واندفاعاً معي.. وكان يقصدني في كثير من الأمور التي يتعرّض لها.. فألبّي طلبه، وأحقّق له رغبته. ولم أذكِّره مرة بموقفه السابق مني – حتى لا أجعله يخجل ويتألم.

* * *

بدأت أنظم الشعر.. وأنا ابن الرابعة عشرة. واشتركت في مجلة «العروبة» التي كان يصدرها «الحوماني» في بيروت. وقد نشرتْ لي أول مقال.. أشكو فيه أمراض المجتمع، وتسلّط الإقطاعية والرجعية، والروح العشائرية، في ذلك المحيط. وقد لفتَ ذلك المقال أنظار الناس حينذاك، وعرّضني عند ذوي الشأن لأكثر من تساؤل وملاحظة. ولكنّي كنت قد بدأت أشقّ طريقي.. ولا أبالي.

وأذكر أني قرأتُ ذلك المقال لوالدتي بصوت عالٍ.. وأنا أرقص طرباً.. فبكتْ

وهي تسمع ابنها يقرأ لها مقالاً مطبوعاً في مجلة. فدعتْ لي، وشجعتني على المثابرة.. وكانت دائماً تشجّعني على القراءة والمطالعة. وقالت لي مرة.. أنها رأتْ جمعاً، فيه «الشيخ عبد اللطيف ابراهيم»، والكلّ يتحدّثون ويسمرون.. وهو منصرف عنهم إلى كتاب يقرأ فيه. وقالت لي: يوم تعمل مثله.. تصبح مثله ـ ولكن هيهات أن أكون مثله ـ هيهات. رحمه الله.

وكان خالي «الشيخ يوسف ابراهيم»، العالم والشاعر، يشجعني أيضاً على المطالعة، ويعيرني بعض الكتب ـ من مكتبته العامرة.. ثم يسألني عمّا أفدته مما طالعته.

وخالي «الشيخ عبد الكريم» نظم بعض الشّعر.. ولكنه لم ينصرف إليه، وإلى بقية نواحي الأدب، انصرافاً كلياً.. ولو فعل لكان له شأن به ـ لأنه كان ذوّاقة، ويتمتع بحافظة غريبة.. إلا أن انصرافه إلى تديّنه وتقاه.. كان أكثر من انصرافه إلى الأدب ومشتقاته. وقد سافر إلى الأرجنتين، أسوةً بكثيرين من أبناء المحيط.. لكنَّ الأقامة بها لم ترقه، كما راقت لسواه.. فآثر العودة منها ـــ بعد أن ترك أثراً كريماً فيها.

* * *

بدأت أنشر بمجلة «المكشوف»، وصاحبها «فؤاد حبيش».. كان يرحّب بمقالاتي، ويشجّعني على الإكثار منها.

ومن المؤسف.. أني لم أحتفظ بتلك المقالات، ولا بشيء من شعري في تلك الفترة.. وكان من الخير أن أحتفظ بها، أو ببعضها.. لأنها تلقي ضوءاً على ذلك التفكير المبكّر.. وعلى شعورنا بالحاجة إلى الإصلاح في ذلك الحين.. وطرق دعوتنا إليه. ولكنَّ الأحداث التي توالتْ بعد ذاك.. وطوّحتْ بي إلى أماكن بعيدة.. قد حالت بيني وبين تحقيق ما كنتُ أرغبه وأتمناه.

وأذكر أني كتبت مقالاً أنْعَى فيه على الشباب المسلم العلوي ركوده وجموده، وقعوده عن الدعوة للإصلاح، والعمل على التحرر من ربقة العشائرية والرجعية والإقطاعية. وكان المقال جريئاً وعنيفاً وصريحاً.. وقد أوردت أسماء الشباب

الذين كنتُ أترقب منهم الاندفاع نحو الإصلاح. ونشرت المقال في مجلة «المكشوف».. التي نشرتْ بعد ذلك مقالاً آخر ردّاً عليه، ويحمل توقيع (ح.ي).. وعرفت أنه نسيبي وصديقي الشاعر «حامد يوسف» ـ الذي تربطني به، منذ الصِّغر، روابط مودّة وصداقة، وأنس معشر ورفقة، وما تزال.

ولم يكن الرّدُّ عنيفاً ـ بل على النقيض من ذلك.. كان مهذّباً ولطيفاً. وهو يحبّذ فكرة الدعوة للإصلاح ـ ولكنه يعارض العنف بإبدائها.. ويدعو إلى المرونة، والقول الهادىء الناعم.

ولم ينبرِ أحد غيره للكتابة بالموضوع ـ استحساناً أم استهجاناً.

وكنت بتلك الفترة.. أعتمد بصورة مبدئية وهامّة، على صداقة «الشيخ عبد اللطيف ابراهيم»، الشاعر العلاّمة، وأخيه «عبد الرحمن» الشاعر أيضاً، والعازف الماهر على «العود»، وذي الصوت الرخيم، والمعشر الذي لا أظرف منه ولا أحلى!

كانت أحبّ الأيام إليَّ.. تلك التي كنتُ أقضيها في قرية «الدبدابة»، أو «بيت ناعسة»، أو «بعمرة».. حيث أنعم برفقة حلوة، وساعات هناء وصفاء، وقراءة ومباحثة ودرس.

وأعترف بأن بدء انطلاقتي.. كانت من تلك الصداقات واللقاءات.. فأنا مدين لها إلى حدّ بعيد.

وخلال زياراتي لبيروت.. كنت ألتقي عدداً من الأدباء والصحفيين، وبعض الساسة المرموقين. وكان مكتب مجلتيْ «المكشوف» و«العروبة» بمثابة خليّة نحل، يلتقي فيهما أدباء وشعراء، وقد كنت أحرص على زيارتهما باستمرار.

والتقيت أكثر من مرّةٍ.. الزعيم «أنطون سعادة»، مؤسس «الحزب السوري القومي الإجتماعي».. وتأثّرت بشخصيته الموحية، وبانسجامه التام مع أفكاره ومبادئه وتعاليمه. ولا شكّ.. أنه في طليعة المفكرين الذين عرفهم المجتمع ـ ذلك الحين.

* * *

في ربيع سنة ١٩٣٦ أعلنت المدن السورية إضراباً عاماً استمر ستين يوماً. وقد توقفت مرافق الحياة بكاملها توقفاً تاماً.. وحصلت مظاهرات صاخبة، واصطدامات عنيفة ـ بين أبناء الشعب السوري.. وجنود السلطة الفرنسية المنتدَبة.. التي كانت تستعمل أقسى أنواع التّنكيل والتعذيب، والأساليب الاستعمارية الجهنمية الرَّهيبة.

واضطرّت الحكومة الفرنسية أخيراً للرضوخ.. ووافقت على ذهاب وفد وطني رسمي إلى باريس ـ للتفاوض بشأن معاهدة تضمن لسورية حريتها واستقلالها.. على أساس وحدة تشمل المدن الداخلية، ومحافظتيْ اللاذقية والسويداء ـ وكانت السلطات الفرنسية قد فصلتهما عن دمشق.. وأقامت في كل منهما «دويلةً» مصطنعة هزيلة!

وارتفعت أصوات كريمة حرّة ـ في المحافظتين اللتين فصلهما المستعمرون عن الوطن الأم.. تطالب بالوحدة السورية الشاملة. وعُقِد في مدينة طرطوس مؤتمر.. ليقرّر فيه زعماء الجبل والساحل موقفهم من الوحدة المنشودة. وحصل بين المؤتمرين انقسام عنيف بالرأي: فئة تطالب بالوحدة.. وأخرى تصر على بقاء الانفصال.

واشتدّ الصِّدام بالرأي بين الفئتين المتناحرتين، وقويت المجابهة، وازدادت الهوّة اتساعاً وعمقاً. واندلعت حرب البرقيات والعرائض ـــ بعضها يطالب بالوحدة، وبعضها الآخر يدعو للانفصال. وشهدت دوائر البريد تهافتاً واكتظاظاً، من الفئتين المتناحرتين المتنازعتين، لا مثيل له.

ووقف الفرنسيون، بشراسة وعنف، في وجوه المطالبين بالوحدة السورية.. واندفعوا لمؤازرة المتمسكين بالانفصال، والدَّاعين له.

وكنت من المؤمنين بالوحدة المتحمّسين لها.. والداعين لذلك بكل اندفاع وجرأة.. وقد حضرت كثيراً من الاجتماعات التي تُعقَد لأجلها.

وفي احدى الليالي. جاء إلى قريتنا وفد من المطالبين بالوحدة السورية.. يطلب التوقيع على برقيّات تُرسَل لباريس، ولعصبة الأمم، تأييداً للوحدة.. وشجباً

للانفصال. وكان في طليعة الوافدين: منير العباس، وحامد المحمود. وامتلأ «المنزول» الذي كان يتّخذه عمي «الشيخ ياسين» مجلساً له طوال النهار، وقسماً من الليل.. امتلأ بالأنسباء الذين لبّوا الدعوة للحضور.. وبلغ بي الحماس أشدَّه.. فحملت عرائض أطوف بها على سكان القرية ـ الذين لم يتمكنوا من الحضور.. لوضع تواقيعهم عليها.

وفي صباح اليوم الثّاني.. جاء رتلٌ من السّيارات يحمل أصحاب التواقيع إلى مركز البريد في صافيتا.. كي يبرزوا هوياتهم، ويعلنوا موافقتهم على تلك البرقيات المطالبة بالوحدة ـ بينما كانت البرقيات، المؤيدة للانفصال، لا تتطلّب حضور الأشخاص المبرقين.. لابراز هوياتهم!.. وإنما يكفي عرض البرقيات، من أي كان.. لكي ترسل!!

وحدث في مناطق الانفصاليين ما يشبه الذعر ــ لأن لـ «بيت الشيخ يونس» سمعتها، ومكانتها المرموقة في المحافظة كلها. وتنادى الزعماء المحليّون الذين يدعون للانفصال إلى عقد اجتماع عاجل لتطويق ذلك الحدث الهام، وعدم فسح المجال لتطوّره وانتشاره! وشهدت تلك الاجتماعات نزاعاً قوياً، ومجابهةً حادّة ـ بين عقليّات متطوِّرة، وأخرى متخلِّفة. ومن المؤلم والمؤسف.. أن الغلبة آنذاك كانت للمتخلّفين ــ ولكن إلى حين.

* * *

وبقيتُ في سيري المتحرر من الإقطاعية والرجعية.. وكانت الصحف تنشر لي مقالات أدعو بها للتحرر والانطلاق. ولم تكن مقالاتي حينذاك في المستوى الذي يؤهّلها لأن تزاحم المقالات الأدبية التي كانت تحفل بها مجلتنا «العروبة» و «المكشوف»، وقد مرّ ذكرهما. ولكن صاحبي المجلتين: «الحوماني»، و«حبيش»، كانا مؤمنين بفكرة التحرر.. التي كانت منطلقة في لبنان، مثلها في سورية، وداعيين متحمسين لها. ولذلك.. كان كل منهما يشجعني ويدعمني.

وبفضل المثابرة والمتابعة والمطالعة.. تمكّن قلمي من الخوض في عدد من المواضيع: أدبياً وسياسياً واجتماعياً.. وقد بدأ يتكوّن لي أسلوب خاص، ميّزته

الوضوح، وانتقاء كلمات معبِّرة وضيئة. ولكل براعة أسلوبها الذي تُعنَى به. وأنا حريص دائماً على صفاء الديباجة، وإناقتها وإشراقها.. وصار القرّاء يتهافتون على قراءتي، ويطالبونني بالإكثار من الكتابة.

ثم بدأت أنشر في جريدة «البلاد» التي كانت تصدر في اللاذقية ـ وأُطلق عليها، فيما بعد، اسم «الخبر».. وكذلك في صحف محلية أخرى. واتّسع مجال نشري لمقالات متتابعة.. فصرت أنشر في جريدتيْ «الضحى» و«الهدف» ـ اللتين كانتا تصدران بحمص، وجريدة «الفداء» التي كانت تصدر في حماة. وأكثر مقالاتي.. هي حملات عنيفة على الرجعية والإقطاعية، والتعصّب العشائري البغيض.

واشتدّت الوطأة عليَّ من الرجعية وعملائها وأنصارها. ولأول مرّة حملوا «عمّي» على الوقوف «ضدي». وبهذا أصبحتُ وحيداً ليس إلى جانبي أحد ـ إلاّ والدتي المعروفة بشجاعتها، وسداد رأيها، وقوة شخصيتها.. وأخي الأكبر «ياسين» الذي ورث مركز والدنا الديني.. وكان يُلقَّب بـ «الدرويش» ـ نظراً لزهده وورعه وتقاه، ثم أحد أنسبائي المخلصين: «الشيخ يونس أحمد علي غانم» ـ وهو صديقي من عهد الطفولة.. وقد وقف موقفاً نبيلاً معي.. وكان يقف عند المسجد يلوّح بعصاه ويتحدّى.. وكان جريئاً وشجاعاً. رحمه الله رحمةً واسعة، وأسكنه فسيح جنانه. وابنه المهندس «محمد».. سائر على نهج أبيه ـ بالطيبة، والإخلاص، وصفاء الودّ.

ووصلت مقاومة الرجعية والإقطاعية ضدي.. إلى حد العنف الشرس! فكنتُ أمرّ بالقرب من بعض أنسبائي وأحبّهم.. فلا يردّون التحيّة ـ وربما تطاول بعضهم عليّ بكلمات غير كريمة! لذلك شرعت ألتمس لي طريقاً آخر حول القرية ـ حتى لا أصطدم بمرأى يؤذيني.. وسماع مالا أطيق سماعه.

وكنت ألمح في عيون بعض الأقرباء بريق محبّة وعطف ـ ولكنّ ألسنتهم ليست معي، بل هي ضدي.. لأن سيطرة الإقطاعية والرجعية كانت قوية ونافذة في تلك الأوقات! ووضعي آنذاك، مع أولئك الأقرباء، يشبه إلى حد بعيد قول

«الفرزدق» لـ «الحسين بن علي»، ع، وقد سأله: «كيف رأيتَ القوم بالعراق»؟ ـ وكان في طريقه إليهم فقال له:

«والله.. يا بن بنت رسول الله.. قلوبهم معك، وسيوفهم عليك».

وهكذا.. كان وضعي مع بعض أقربائي!

ولمّا وجدتُ أنه لم يعد لي ثمة مجال في قريتي.. التمستُ مجالات أخرى خارجها. وكان لي قريب يسكن مدينة طرابلس، بلبنان، وعنده محل لبيع الأقمشة والخياطة. وكنا صديقين متحابّين متآلفين منذ الطفولة ـ وهو «محمد» ابن خالي «الشيخ عبد الكريم». وكنت وإياه، وشقيقيه «أحمد ومحمود»، وكأننا ربينا معاً في بيت واحد.

وصديقي «محمد».. اقترن بفتاة من «طرابلس» أنيسة لطيفة.. تحبّ أقرباء زوجها وتؤثرهم على ذويها الذين انحدروا من الجبل وسكنوا مدينة «الفيحاء».

وكنت أتردّد على صديقي «محمد» ـ بين وقت وآخر.. فأجد الرّاحة والطمأنينة، والبعد عن الاصطدام مع الرجعية والاقطاعية، وأتباعهما وأشياعهما.

ولم يعرف الناس، في ذلك المحيط، صداقةً مخلصةً وفيةً.. كتلك التي كانت بيني وبين «أبي غسان». وحينما انتقل إلى رحمته تعالى، بعد عقدين ونيف من ذلك التاريخ، بكيته بأدمع حرّى. وما يزال الأسى يغمر نفسي ويوجعها لفراقه ـ لأن عاطفته كانت نسيج وحدها: بالصدق والمروءة والأريحيّة.

وصدف مرة.. أن كنت عنده في طرابلس ـ وكان الوضع الأمنيّ قد تَرَدَّى إلى أقصى حدود التردّي.. فأبناء الفيحاء يطالبون بالوحدة مع سورية، والفرنسيون يقاومون ذلك بوحشية وضراوة ولؤم! وخرج الطرابلسيون يوم «جمعة» بمظاهرات صاخبة.. واندفع الجنود الفرنسيون يطلقون الرصاص بغزارة.. فسقط قتلى وجرحى كثيرون! وكان رصاص العدو المحتل يُطلق في كلّ اتجاه.. وبيت «أبي غسان» يقع في مكان مرتفع يطلّ على شوارع المدينة وأحيائها. ولم نكن في بعض الأحيان، نستطيع التنقّل داخل البيت إلاّ بما يشبه الزحف على الصدر ـ لأن الرصاص المنهمر.. كان يتسرب بعضه من النوافذ إلى وسط المنازل! وقد

رأيت أحد المواطنين يسقط قتيلاً أمام المنزل.. وتلك هي المرة الأولى التي شاهدت فيها انساناً يُقتَل على مقربة مني.. وقد انتابني الهلع والذعر حينذاك.

ولكنّ ذلك المنظر المؤلم.. صار مألوفاً عندي في العراق ـ وأنا أشاهد جثث القَتلى العراقيين ملقاةً في الشوارع، برصاص الجنود الانكليز.. إبّان الحرب العراقية سنة ١٩٤١ ـ كما سيجيء.

* * *

وسنة ١٩٣٦ ذهب إلى باريس وفد سوري، بدعوة من الحكومة الفرنسية المستعمرة، بعد أن عجزت عن إنهاء الإضراب، وإخماد المقاومة السورية الباسلة ـ وذلك للتفاوض بشأن عقد معاهدة تنهي الانتداب الفرنسي.. وتكفل لسورية حقَها الشرعي بالوحدة والحرية والاستقلال.

وكان الوفد مؤلفاً من «هاشم الأتاسي»، و«فارس الخوري»، و«سعد الله الجابري»، و«جميل مردم»، يمثّلون «الكتلة الوطنية» ـ وهي المؤسسة الشعبية الوحيدة الناطقة باسم الشعب وقتذاك، وانضمّ إليهم الزعيم اللبناني المعروف «رياض الصلح» بصفة شخصية. ومثّل الحكومة السورية التي كان يعيّنها الفرنسيون: «الأمير مصطفى الشهابي»، و«أدمون حمصي» ـ بصفتهما عضوين رسميّين بالوفد.

وكان قد ذهب إلى باريس، بنفس الفترة، «الشيخ تاج الدين الحسني».. الذي نصّبه الفرنسيون، فيما بعد، رئيساً للجمهورية ـ سنة ١٩٤١ ـ وقد ودّعه الشاعر الكبير «عمر أبو ريشة» بقصيدة جاء فيها:

ذهبَ «الشّيخُ».. والوقيعةُ تبدو بين عينيهِ، والدَّمارُ الفاجعْ!
ليتَ شعري.. ما ذا يُسَطِّرُ عنا؟ قطَّعَ اللهُ كفَّهُ والأصابعْ!

وبعد ستة أشهر من المفاوضات المضنية.. عاد الوفد يحمل معه نصّ «معاهدة» ـ تشبه، بشكلها ومضمونها، المعاهدة البريطانية مع مصر والعراق.. وقد ضمنتْ ضمّ محافظتي «اللاذقية» و«السويداء» لدمشق ـ مع إعطائهما استقلالاً ماليّاً

وإدارياً.

واستُقبل الوفد، عند عودته، استقبال الفاتحين. وأُجريتْ انتخابات نيابية، في المحافظات السورية، بخريف السنة نفسها ـ ما عدا اللاذقية والسويداء.. فقد جرت الانتخابات بهما في السنة التالية.

وانتُخِبَ «هاشم الأتاسي» رئيساً للجمهورية، و«فارس الخوري» رئيساً للمجلس النيابي. وعُيّن «جميل مردم» رئيساً لمجلس الوزراء.. واشترك معه بالوزارة: «سعد الله الجابري»، و«عبد الرحمن الكيالي»، و«شكري القوتلي».

وعُيّن «مظهر رسلان» محافظاً للاذقية التي كانت، بموجب «المعاهدة» مع فرنسا تتمتَع، هي و«جبل العرب»، بالاستقلال الذاتي: مالياً وإدارياً، ضمن الجمهورية السورية.

وسنة ١٩٣٧ أُجريت انتخابات نيابية بالمحافظتين، ولأول مرة اشترك نوابهما مع زملائهم، من مختلف المحافظات في مجلس نيابي واحد. ونجح عن صافيتا: «منير العباس»، و«أمين رسلان»، و«جبرا الحلو». وفشلت اللائحة المنافسة المشكلة من: «يوسف الحامد»، و«عزيز الهواش»، و«أديب جبور».

وفي الأسبوع نفسه.. الذي أُعلِنت فيه نتيجة الانتخابات عُيّن «عزيز الهواش» محافظاً لحوران، ونُقِل بعد ذلك إلى محافظة لواء دمشق، ثم استقال، بعد فترة، وعاد إلى مقرّه في صافيتا.

ولكن ـ ممّا يؤسف له.. أن تدخُّل السلطات الوطنية، بالانتخابات التشريعية، كان مخجِلاً ومعيباً! فقد وقفت إلى جانب بعض المرشحين.. ضد بعضهم الآخر ـ ولم يكن لذلك ما يبرره من الناحية الوطنية.. وإنما كان لدواعٍ شخصية، وبواعث ذاتيّة، واتجاه سياسي خاطىء!

كانت الانتخابات، حينذاك، تجري على طريقة انتخاب «مندوبين ثانويين» ـ أي أن كل مائة شخص. ينتخبون مندوباً عنهم لينتخب المرشحين! وهو أسلوب ابتدعه الفرنسيون ليستطيعوا التحكم بارادة الناخبين، وتوجيهها حسب رغبتهم وإرادتهم ـ لأن التأثير على أشخاص معينين أسهل من التأثير على شعب بكامله!

ومن ذلك التدخّل السّافر.. فإن الأصوات بين «حامد المحمود»، ومنافسه في طرطوس، كانت لصالح «حامد» ضد منافسه ـ وقد زاده صوتاً واحداً ـ ولكنّ اتجاه السلطة كان إلى جانب منافسه.. ولم يكن هناك سبيل لإسقاط الناجح، وإنجاح الفاشل، إلا بإبطال ذلك الصوت، وكانت ثمة ورقة.. جعل كاتبها مسافةً بين «الحاء» و«الألف» ـ فكانت هكذا: «حـامد».. وهي طريقة مألوفة بالكتابة كثيراً ـ ولكن المسؤولين الرسميين في طرطوس اعتبروا الورقة لاغية.. لأنها تُقرأ «حسامد» وليس «حامد» وبهذه الوسيلة.. نجح منافس حامد ـ والأصح «حسامد» وقد بقي السياسيون المعارضون يتندرون بهذه الواقعة إلى أمد بعيد!

هذا.. مع أن «حامد المحمود» كان من دعاة «الوحدة السورية» المتحمسين والمندفعين.. وقد باع جزءاً من أملاكه إبّان الحملات الضارية.. بين دعاة «الوحدة» ومعارضيها. ورغم ذلك.. فإن بعض أركان السلطة الوطنية وقف ضدّه في تلك الانتخابات.. لتقدير خاطىء، واتّجاه مريب!

ومثل ذلك التدخّل السافر المعيب.. جرى في انتخابات ١٩٤٧ ـ كما سيجيء.

* * *

ومع انفراج الحالة في سورية، وتقلّص الظلّ الفرنسي عنها.. بدأ تأثير الرجعية والإقطاعية يتقلّص ـ لأن السلطات الفرنسية كانت هي التي تدعمه وتفرضه وتغذّيه.. وبدأ الشباب التوّاقون للتحرّر والانطلاق، بالوثوب، والتكتّل، والتحدّي.

وفي أواخر سنة ١٩٣٧ عُيِّن «احسان الجابري» محافظاً للاذقية. وكان قد عاد من منفاه الذي استمر بضعة عشر عاماً في سويسرا. وهو من كرام الشخصيات العربية، والشقيق الأكبر للسياسي الكبير «سعد الله الجابري».

وحينما زرتُ المحافظ، «الجابري»، وُجِدَ من حَدَّثه عن نشاطي الوطني، واندفاعي وحماسي. فعرض عليّ تعييني معلّماً في مدرسة «وادي العيون» ـ للعمل على تلافي خطر الفرنسيين الذي كان قد بدأ يتفاقم في تلك الأنحاء.. وشرع الفرنسيون يتّخذون من تلك القرية المرموقة في الجبل.. ركيزةً لدعايتهم، ومنطلقاً

لها.

وأوعز المحافظ إلى مدير المعارف، «مصطفى الزين»، لإصدار القرار.

وما أن بلغ الإقطاعيين نبأ هذا التعيين.. حتى سارع أربعة منهم ـ ولا أحبّ ذكر أسمائهم، وقد أصبحوا جميعاً في رحمة الله ـ سارعوا لمراجعة المحافظ، والاحتجاج على هذا التَّعيين.. الذي يرونه موجّهاً ضدهم ـ لأنّي أتحدّاهم، وأهاجمهم بالصحف. وبلغت الحدّة بأحدهم مداها.. فقال للمحافظ:

إنّ «عبد اللطيف اليونس» عدونا ـ فإمّا نحن.. وإمّا هو!.

واستجاب لهم المحافظ ـ مفضلاً إرضاء زعماء أربعة.. على إرضاء فتىً!

ولمّا ذهبتُ إلى مديرية المعارف لآخذ قرار تعييني، وألتحق بعملي.. أبلغني المدير، والتأثّر بادٍ عليه، أن قرار التعيين قد أُوقف بطلب من المحافظ!

وصُعِقتُ للنبأ، واضطربت، كما لم يبلغ بي الاضطراب مثيلاً له من قبل ـ إذ كنتُ أعلّق أهميةً بالغةً على ذلك التعيين.. لأنه ينقذني من محيطي المتجهّم العابس.. ويُمكّنني من الابتعاد عنه ـ حيث تُتاح لي فرصة الانطلاق، وحرية التعبير عن مبادئي وأفكاري، والانصراف الكلّي إلى القلم والكتاب.. ثم العيش براحة وهدوء فترة من الزمن، وبعدها أنطلق للعمل السياسي.

وطلبتُ مقابلة المحافظ، فاستقبلني فوراً، وأبلغني موقف الزعماء الأربعة، واحتجاجهم العنيف على تعييني.. وإلحاحهم وإصرارهم على إلغائه! وقال لي:

إن المصلحة العامّة.. تقضي عدم إغضاب هؤلاء الزعماء من أجل تعيينك معلّماً! وطلب مني التضحية ـ حتى لا أثير أزمة بين السلطة وبينهم.. والوضع العامّ مكفهرّ، وو.. الخ!

حينئذٍ.. وقفت وقلت للمحافظ بأسلوب خطابي، وبانفعال شديد:

يا سيدي: قضيّتي هذه.. ليست قضيةً شخصية وعادية.. وإنما هي عراكٌ بين عهد قديم، وعهد جديد ـ بين شباب يريد أن يتحرّر من سلطة الإقطاعية.. وإقطاعية تريد أن تخنق الشباب الناهض، وتسدّ في وجهه مسالك الدروب ـ فإمّا أن تكونوا حملة رسالة تحرير.. أو لا تكونوا! إمّا أن تقطعوا الطريق على كل من

يريد أن يسهّل أمامكم الطريق.. وإمَّا أن تستسلموا للإقطاعيين، وتتركوا لهم المجال رحباً.. كي يستمروا في استبدادهم، وخنق كل صوت يرتفع في وجوههم، وهذا ما كان يفعله الفرنسيون.. وحينئذٍ تبحثون عن هذه الأصوات فلا تجدونها ـ لأنها تكون قد ذهبت ضحية تساهلكم مع الإقطاعية، وتسامحكم معها، وتَرْك المجال فسيحاً لها وحدها.. فتعمل كما تشاء وتريد، وتستبدّ كما تشاء وتريد!

وقلت له:

إن موضوعي هذا.. سيدوّي في كل مكان بالمحافظة ـ ولستُ أنا الذي سأنشره.. بل الإقطاعيون أنفسهم هم الذين سينشرونه، ويتّخذون من موضوع تعييني، وإلغائه، وسيلةً لدعم إقطاعهم، وإلقاء الرعب في وجه كل من يحاول الخروج عليهم، وعصيان أوامرهم!

إنّ قضيّتي هذه.. ستكون مَثَلاً بين الناس ـ وسيُحكَم منها على سياسة العهد الجديد، وموقفه من الجيل الجديد.. فإمّا أن أكون قرباناً على هذا المذبح.. أو أن يُتّخَذَ من قضيتي إشارة مرور ـ للشباب المتحفّز المتوثّب، والتّواّق للتّحرر والتّطوُّر، والانعتاق والانطلاق.

وقلت له: معذرة، يا سيدي، إذا ردّدتُ على مسمعك الكريم ما قاله ذلك الذي سُئِل: لماذا دالتْ دولة بني أميّة؟ فأجاب: «لأنهم قرّبوا أعداءَهم، وأبعدوا أصدقاءَهم.. فخسروا الصديق، وما ربحوا العدو»!

وأستميحك عذراً إذ قلتُ لك: أخشى أن ينطبق عليكم هذا القول! ولو كان غيرك في موقفك هذا.. لخفَّ عنه العتب واللوم ـ وأمّا أنت.. صاحب الماضي المشرق، والجهاد المشرّف، والوطنية الصامدة.. فإن المرء يقف حائراً أمام هذا الموقف! أنت الذي جابهت الفرنسيين بكل عزم وقوة وتحدٍّ.. تخشى من أذنابهم، وتعمل لتنفيذ مآربهم ضدّ الشباب الذي يريد أن يتحرر.. ويؤدّي رسالته القومية، ضد الرجعية والإقطاعية! ويا سيدي.. أمامك سبيلان:

إمّا أن تساعدنا للتحرُّر، وأداء رسالتنا الوطنية الشريفة.. وإمّا أن تدعم الإقطاعية ضدّنا.. وبعدئذٍ تبحث عنّا.. فلا تجدنا!

كنتُ أتكلم بحماسة واندفاع ـ لأني كنتُ أشعر بأن مستقبلي، ومستقبل اخواني الشباب، وقفٌ على هذه الوقفة.. وعلى هذه الصراحة مع المحافظ الذي كان يصغي إليَّ بإمعان.. ويتأملني، وأنا أتكلم بمنتهى الاهتمام.. وقد بدا عليه التأثّر ممّا سمع من الشاب، الواقف أمامه، وهو يتكلم بصراحة وانطلاق، وعفويّة وإيمان.

فأشار إليّ بأن أجلس.. واتصل هاتفياً بمدير المعارف، وطلب منه أن يجلب له قرار تعييني. وما هي إلاّ دقائق.. حتى كان القرار أمامه، فوقّعه، وسلّمني إيّاه. والتفت إلى مدير المعارف وقال له:

لقد تأثّرتُ كثيراً بكلام هذا الشاب. وحقّاً.. لا يجوز أن نترك هؤلاء الشباب، الساعين للتحرّر من الإقطاعية، فريسةً بين أنياب الإقطاعيين.. فنقضي على طموح الجيل الجديد.. ونترك المجال فسيحاً للرجعيين يسرحون ويمرحون، ويستبدّون كما يشاؤون. وإنّ من واجبنا أن نشجع الجيل الناشىء ـ ولو تعرّضنا لمعارضة الزعماء، ونقمتهم وتحدّيهم.. وكما قال لي هذا الشاب: إمّا أن نكون أصحاب رسالة وطنية.. أو لا نكون.. والواجب القومي يفرض علينا أن نكون.. وأن ننسجم مع رسالتنا الوطنية ـ مهما تكن الوسائل.. ثم النتائج.

والتفت إليَّ المحافظ، وقال: اذهبْ يا بنيّ، ولا تبالِ. ويجب أن تعلم أن مهمتك في القرية التي ستذهب إليها.. هي وطنية ـ أكثر ممـا هي تعليمية. فأنت ذاهب إلى منطقة.. يتّخذ منها الفرنسيون منطلقاً لتقويض دعائم العهد الوطني.. وعليك إرشاد القرويين إلى واجباتهم الوطنية ـ قبل إرشاد الطلاب إلى قواعد التعليم.

فشكرتُه من أعماق قلبي.. ورجوتُ أن أكون عند حسن ظنّه وثقته.

وشعرت بأن مدير المعارف، «مصطفى الزّين»، كان مسروراً من موقف المحافظ.. ومغتبطاً بما سمعه منه. ومنذ ذلك الحين.. صرت و«الزّين» صديقين ـ وبقينا هكذا.. إلى أن انتقل أحدنا إلى جوار ربّه، وبقي الآخر ينتظر قضاء الله وقدره. والأعمار بيد الله.

* * *

في تلك الفترة.. كنتُ قد اقترنت ببنت عمي «جميلة» ــ وأبوها ابن عمّ أبي، ووالدتها بنت عمي «الشيخ ياسين»، ونحن شركاء في الأملاك، وبيوتنا متجاورة. ومنذ صغرنا.. كان ذوونا قد أعدّوها لي، وأعدوني لها. وكان خالها «غانم ياسين» قد عكف على تعليمها القراءة والكتابة ـ في وقت كان فيه تعليم البنات، بمحيطنا إجراماً وكفراً، وخروجاً على التقليد والدين، كما أسلفنا! فهي ربيبة خالها، وتلميذته.. وكان يحنو عليها حنوَّ الآباء على أبنائهم ــ ولا أقلّ. وهي من أطهر النساء وأعفّهن ــ ولا أقول ذلك لأنها زوجتي ــ بل لأن الواقع هو هذا.

وأعترف أمام القارىء، وأمام الله جلَّ جلاله، وأنا أدوِّن هذه «المذكّرات»، بأني قد أسأت إليها ـ ببعدي المستمر عنها.. وعدم فسح المجال أمامها لتنعم بالحياة الزوجيّة، وتهنأ بها ــ كما تهنأ الأُخريات، ولكن للقدر أحكامه الغريبة العجيبة!

وكلما فكرت بهذا ــ وكثيراً ما أفكّر به.. ينتابني الألم، ويغمرني الأسى.. ويهيمن عليّ شعور غريب بـ «عقدة الذّنب» هذه! والأمر يومئذٍ لله.

* * *

لقد كنت خلال تلك الفترة.. أمرّ بوضع ماديّ قاس! فالدّخل كان محدوداً.. وانطلاقتي تتطلّب دعماً مادياً ــ وهذا الدعم لم يكن متوفّراً كما يجب.. مع أن أملاكنا ــ التي ورثها والدنا عن والده.. تكفي أسرة كبيرة، وتفيض عن حاجتها.. إلاّ أن ثمة ظروفاً.. كانت مفروضة علينا .. ولا مجال لذكرها، والتوقف عندها! لكن حكمة والدتي وحسن إدارتها وتنظيمها.. كان لهما أثر كبير في تغلّبنا على كثير من الصعوبات.

وأذكر.. أنّي مرضتُ مرة، وكنت بحاجة لعلاج يوجد في متجر أحدهم بالقرية. ولم يكن ثمن العلاج متوفّراً لي حينئذٍ. وذهب أخي «محمود» إلى التاجر يطلبه منه ـ على أن ندفع له ثمنه فيما بعد. فرفض التاجر إعطاءه إياه.. قبل أن يتقاضى ثمنه مسبقاً! ونهضتُ من فراشي، وذهبتُ إليه، وحرارتي مرتفعة، ورجوتُه.. فرفض، وبقي مصرّاً على تشبُّثه وإصراره ـ حتى ذهبت والدتي وقدمت

له سوارها الذهبيّ.. «رهناً» للعلاج!

وحينما عُيّنتُ معلماً.. لم يكن بحوزتي المال الكافي للانتقال إلى مركز عملي.. والراتب يتأخّر وصوله في الفترة الأولى. فقصدت تاجراً معتبراً في صافيتا ـ هو «خليل علي حيدر» ـ فرحّب بي، وقدّم لي المبلغ الذي طلبته، وسألني إذا كنت أريد أكثر.. وهو يعرف جيداً ما بيني وبين الزعماء الإقطاعيين من صدام ومقاومة وتحدٍّ.. وودّعني، وهو يشجعني بكلمات مخلصة.. معرباً عن استعداده لمساعدتي في كل ما أطلبه منه. وصار بعد ذلك من أعزّ اخواني وأصدقائي.. وكان معروفاً بصراحته واستقامته. وانتقلت صداقتنا إلى أنجاله: «ديب»، و«حبيب»، و«حسيب».. فكانوا، ومايزالون، أصدقاء أوفياء مخلصين.

وكان إلى جانب مكتبه التجاري.. مكتب آخر لشخص خيِّر كريم ـ هو «الشيخ غانم يوسف»، من قرية «بيت طيّون». ومن هذين المكانين.. كانت ترتفع إلى جانبي أصوات التأييد العلنّي، والتشجيع الكليّ.. يساعدهما في ذلك شخص من صافيتا، وعضو بلديتها، اسمه «عبود الأسعد» ـ وكان معروفاً بجرأته وصراحته وتحدّيه.

هؤلاء الأشخاص الثلاثة.. كانوا ركائز قويّة، لانطلاق أفكاري التحررية.. والتبشير بها، والدعاية لها. ثم تبعهم آخرون ـ ولا مجال لذكرهم جميعاً، والتحدث عن مآثرهم، وكريم مواقفهم. رحم الله من مضى منهم، وحفظ من بقي حيّاً. ورعى الله كلّ من وقف معي بالدعوة للإصلاح.. وأيّدها وشجعها، ودعمها.. وعمل ما بوسعه لإنجاحها، والتغلب على مناوئيها ومعارضيها. وسامح الله من قاومها وعارضها.

* * *

قبل سفري إلى «وادي العيون».. ودّعتُ عمي «الشيخ ياسين»، وطلبتُ دعاءه. وكان مرتاحاً لتعييني، وأبدى سروره به، ومنحني توجيهات كريمة.

وفي «وادي العيون». حللت بمنزل مختارها «حسين الشّلفون» ـ حيث لقيتُ منه، ومن أسرته، ترحيباً وإكراماً بالغيْن. كما لقيتُ حماساً واندفاعاً من الشاب «سليمان خضر»، وأشخاص كرام آخرين.

ولم يكن في القرية مدرسة قبل ذلك ـ وإنما دعاة الفرنسيين كانوا أحدثوا فيها مدرسة ـ ليس لأجل التعليم.. وإنما لأجل الدعاية لفرنسا، ودعم فكرة الانفصال، والعمل لتقويض دعائم الحكم الوطني!! وقد بدأ المستشارون الفرنسيون ـ الذين فرضت «المعاهدة» بقاءهم في مراكزهم.. متابعة وضع العراقيل، ونصب الأشراك للعهد الوطني، والسّعي لهدمه من الداخل.. يساعدهم في ذلك «زعماء» يعشّش روح الانفصال في دمهم، ويتدفّق في شرايينهم.. وهم يحنّون إلى عهد «الانتداب» الذي كان يساعدهم بفرض «زعاماتهم»، وجمع الإتاوات والجعالات.. من الشعب البائس الفقير!

وحتى بعض الزعماء الوطنيين.. الذين أيّدوا «الوحدة السورية»، ودعموها، وضحّوا في سبيلها.. حتى هؤلاء.. عاد بعضهم وانقلب على المبادىء القومية، وشرع يطالب بالانفصال، ويتحمّس له.. لأن العهد الوطني لم يصبح له مطيّة ـ كما كان المستعمرون يفعلون! ومن المؤسف أن نقول هذا.. ولكنه حقيقة واقعية.

ونحن لا ننكر.. أن المسؤولين الوطنيين قد أخطأوا بحقّ هؤلاء، أو بعضهم ـ ولكنّ المصلحة القومية.. تتقدّم على المصلحة الذاتية، وتظلّ أسمى منها.. أو هذا ما يجب أن يكون.

و ـ يا إلهي: متى نرتفع إلى مستوى الآخرين.. ونصبح ناساً كالنّاس؟!

* * *

كانت ناحية «وادي العيون».. من أقوى المعاقل التي يعتمد عليها الفرنسيون، ومؤيّدوهم ومناصروهم ـ لأن سكان القرية أنفسهم، وهي مركز الناحية، كانوا مشهورين بالقسوة والبطش، وامتداد أيديهم.. إلى ما ليس هو لهم!

والشّيء الذي يبعث على الاعتزاز والسرور.. هو أن تلك السمعة المتجهّمة ـ التي كانت لأهالي «وادي العيون».. قد حلّ محلّها اسم كريم، وسمعة مشرقة. وتُعتبر الآن.. من أجمل مصائف الجبل.. ويُسَرُّ زائروها من وداعة أهلها وأمانتهم وحسن معاملتهم ـ حتى أن المصطاف، أو الزائر، إذا فُقِدَ منه شيء ما.. فإنه يجده في مخفر الشرطة، أو عند مختار القرية. فهنيئاً لهم، ولوطنهم بهم.

ولم تكن مهمتي في «وادي العيون» سهلة ـ بل كانت شديدة القسوة، متلاحقة الصعوبات!

فإلى جانب واجبي.. كمعلِّم مدرسة، في أول تأسيسها ـ وأنّ عليَّ تهيئة المكان والمقاعد.. وحتى التلاميذ والكتب، ثم تنظيم الدراسة، والدقّة بتحديد أوقاتها.

إلى جانب هذا.. كان ثمّة واجب آخر أهمّ وأعمّ ـ وهو: محاربة الدعايات السامّة.. التي كان يمارسها عملاء فرنسا ضدّ العهد الوطني.. مستغلين براءة تلك النفوس، وطيبتها، وسذاجتها.. ومحاولين دفعها في تيّار معادٍ للحكم الوطني.. الذي بدأت ركائزه تهتزّ، ودعائمه تتداعى ـ نظراً لنكول فرنسا عن تعهداتها.. ولتراجعها عن اتفاقاتها.. وامتناع حكومتها عن عرض المعاهدة على مجلس النواب لإقرارها وتنفيذ بنودها! وكان «ليون بلوم»، رئيس الوزارة الاشتراكية التي وضعت المعاهدة وتعهّدت بتصديقها من البرلمان.. قد استقالت وزراته، وحلّت محلها وزارة يمينيّة.

واستمر «جميل مردم»، رئيس الوزارة السورية، يتنقل بين دمشق وباريس، في محاولات يائسة.. لتجميد المعارضة الفرنسية الشّرِسة.. وحمْل الحكومة الفرنسية على تقديم مشروع «المعاهدة» إلى البرلمان الفرنسي لإقراره.. وفي كل مرّة.. كان يبدي تنازلاً جديداً، وتساهلاً في أمور تسيء إلى السيادة الوطنية ـ مما دفع «نجيب الريّس» صاحب جريدة «القبس» لأن يكتب مقالاً افتتاحياً عنيفاً.. وجّهه إليه، وختمه ببيت الشعر المشهور:

تَعالَى اللهُ.. يا سلْمُ بْنُ عَمْرو أذَلَّ الحرصُ أعناقَ الرجالِ!

فعطلوا الجريدة خمسة عشر يوماً. واضطر أخيراً «جميل مردم» للاستقالة ـ تحت ضغط النوّاب والشارع الذي كان يلهبه «الدكتور عبد الرحمن شهبندر» بخطبه الناريّة، ويدفعه للمظاهرات العنيفة الصاخبة.

وكانت خطّة الفرنسيين، ومؤامرتهم، تدور حول فصل محافظتي اللاذقية، وجبل العرب، عن الوطن الأم.. وإعادة المهزلة السابقة ـ بجعلهما «دويلتين» مستقلتين!

والمحافظ «احسان الجابري».. يقيم في داره يومياً مآدب للزعماء، وذوي النفوذ في الجبل، ويبذل جهوداً مضنيةً في سبيل زحزحة الانفصاليين عن مواقفهم، والالتزام بالخط الوطني السَّليم. ووصلتْ به طيبة القلب، وبراءته، إلى أنه كان يتناول «المصحف الشريف».. ويطلب منهم أن يقسموا عليه.. بأن لا يخرجوا عن النهج القومي القويم، وإنّما يظلّون ملتزمين به!

لقد كان متديّناً، ومخلصاً باتجاهه القويم ـ وهكذا.. فإن الصّادق لا يعتقد بالآخرين إلاّ الصدق ـ وذو الخلق الكريم.. يحسب الناس كلّهم ذوي أخلاق كريمة مثله! ومن هنا ينشأ الفارق بين انسان وآخر.. ويذهب ذوو النّوايا السليمة.. ضحايا ذوي النفوس المغرضة اللئيمة!

* * *

بعد استقراري في «وادي العيون».. بدأتُ أعمل لتقوية صلاتي بأهالي القرية، وعمداء أُسَرها. وقد لقيتُ منهم كلّ ترحيب وتأهيل. ولا شكّ أنه قد كان لمكانة أسرتنا وسمعتها.. أثر في تهافت الأهلين لزيارتي، وتسهيل مهمتي.

وعمدتُ لتوسيع صلاتي بالقرى المجاورة.. فزرتُ «آل الوقّاف الكرام» وبيننا وبينهم وشائج قُرْبَى قديمة. ونعمت بالجلوس إلى «الشيخ يوسف علي خليل» العابد المتصوِّف.. الذي يفيض منظره ومجلسه مهابةً ووقاراً.. وتحفل داره دائماً بالزائرين الذين يهرعون إليه لينهلوا من عبير طهره وتقاه. وقد تخلّق أنجاله بأخلاقه، وساروا على غراره ومنواله. وحيث أبناء أعمامهم الأجلاء.. الذين يُعتبَرون ملاذاً للفضيلة والصّلاح ـ منهم «الشيخ محمد عبد الهادي» الذي جمع الوجاهة العريقة.. إلى العلم والأدب، و«الشيخ حسن حبيب» الذي اغترب فيما بعد، وكان مثالاً للرَّصانة والتُّقى. وبقية أفراد الأسرة الكريمة يتحلّون بسمعة عاطرة، وصفات نبيلة جليلة.

وزرت قرية «الرّقمة».. حيث يفيض الخشوع والرصانة من محيّا «الشيخ اسماعيل محمد».

كما زرت «الشيخ علي أحمد ميهوب»، في قريته الرابضة بأعلى الجبل، بين

مصياف وبانياس، وقد تمثَّلَ به وبأنجاله صفاء العقيدة، وطهر الإيمان ونقاؤه.

وأذكر أن نكهة «السَّمْن»، في تلك الأماكن، لا تضاهيها نكهة أخرى ـ في أيّ مكان آخر. وربما يعود ذلك إلى جودة المناخ، وحسن المرعى ـ إذ أن لبعض الأعشاب، في تلك المواقع، رائحة زكيّة منعشة.. يظهر أثرها واضحاً في ألبَان الماشية المختلفة.

وزرتُ قرىً أخرى منها: «بِشْمِسْ»، و«النِّيحاَ»، و«برمَانـة المشائخ» ـ التي تربطنا بأهلها جذور نسب قديم ـ وقرية «فجليت»، حيث التقيت شبابها النّاهض، والنّاهد إلى غد أفضل، ومستقبل أجمل.

كما زرت الشيوخ الأجلاّء من «آل معروف الكرام» في «القليعـة» و«النّكْش»، و«البيرة» ـ حيث الوجاهة العريقة الأصيلة، والكرم العربي الأصيل.

ومرّة.. زار العلاّمة الكبير «الشيخ سليمان الأحمد» تلك المنطقة.. فتحلّق حوله الشيوخ والعلماء ينهلون من عبير العلم، والاطلاع الواسع العميق. وقد بعث رسولاً خاصّاً إلى «وادي العيون» يطلب مني الالتحاق به. فكانت تلك السانحة.. من أبهج السوانح وأنضرها، وأخلدها في النفس.

ولأوّل مرّة.. تعرّفت بـ «الشيخ معلّى ربيع».. وكانت سمعته المدوّية تغمر الجبل كلّه. ولن أنسى، ما حييت، تلك اللحظة.. التي التقى فيها «الشيخ معلّى» بـ «الشيخ سليمان الأحمد».. وكيف يتواضع العالم للعالم، ورجل التُّقى لرجل التُّقى.

ولا تشبهها إلا اللحظة التي التقى فيها «الشيخ سليمان» بـ «الشيخ عبد الكريم محمد ـ المصطبة».. الذي جمع في نفسه شمائل العالم وفضائله، ومكارمه ومؤهلاته.

ومعذرة من القارئ.. فأنا شديد الاعتزاز بهذه الصفوة المختارة ـ التي هي حجّة الزمن لأبناء الزمن. وما أجمل.. أن ينشر المرء مآثر قومه، ويعتزّ بها.

* * *

وهكذا.. استطعتُ أن أقيم علاقات وثيقة، وصداقات عميقة، في ناحية «وادي العيون» كلها، وبعض القرى المجاورة لها.. والتي كان لدعاة الفرنسيين أثر

فيها، ومناورات بين أبنائها ـ ممّا ساعدني على اجتثاث بذور دعاياتهم السامة ضد الوطنيين الأحرار. وكنت ألقى آذاناً صاغيةً من المواطنين، واستجابةً صادقةً منهم ـ الأمر الذي مكّننا من القضاء على الدّعاة المغرضين.. الذين ما لبثوا أن أغلقوا مكتبهم في «وادي العيون»، وغادروها.. ولم يعودوا إليها.

وكان ذلك الإنجاز.. من أفضل ما أنجزته وقمت به.

وحسبي.. أنني بهذا.. قد أدّيتُ مهمّة وطنية قدّرها المحافظ «احسان الجابري»، وأثنى عليها كثيراً.. وكان لها أثر بتقوية صلتي به، وجعلي أحوز على تقديره وثقته ـ لأن المهمة التي قمتُ بها كانت ذات أثر فعال في ذلك المحيط كله.

ومرة ألحّ مختار «وادي العيون» على زيارة المحافظ، والتعرّف عليه. فذهبت وإياه إلى اللاذقية لتحقيق رغبته ومطلبه.. ولكنّ المحافظ استقبلني منفرداً.

فأبنت للمحافظ مدى تأثّر «المختار»، وخيبة أمله، لعدم استقباله إيّاه.. كما أبنت له مدى الخدمات التي أدّاها لنا.. حتى استطعنا إجلاء عملاء فرنسا عن تلك الناحية ذات الحساسية الكبرى. واقتنع أخيراً.. ووافق على استقباله إيّاه ـ على أن لا يبحث معه في أيّ موضوع سياسي، وهذا ما كان.

* * *

بعد أيّام من عودتنا.. تلقيت كتاباً من مدير منطقة مصياف، وكان يُعرف باسم «قائمقام»، يطلب مني الذهاب لمقابلته. وذهبت يوم «جمعة» ـ حتى لا أجعل الطلاب يخسرون يوم تدريس.. وقصدت بيت «القائمقام»، السيد «علي نجيب»، وأرسلت له بطاقتي مع الخادم، ومكتوب عليها، تحت اسمي، «صافيتا ـ بيت الشيخ يونس» ـ وخرج لمقابلتي، وقال لي:

لو لم تكن من «بيت الشيخ يونس».. لكان لي معك موقف آخر. وعاتبني لأني ذهبت إلى اللاذقية، وبرفقتي مختار «وادي العيون»، دون أن أستأذنه ـ بصفته مدير المنطقة.

ولا شكّ أن من حقه أن يكون الذهاب عن طريقه ـ بصفته الرئيس المباشر للموظفين العاملين في منطقته .. وتخطّي صلاحياته ـ كمسؤول إداري.. هو عمل

غير قانوني، ولا منطقي.

ومن البداهة.. أنه كان يريد أن يذهب مختار القرية عن طريقه، وبواسطته - لأنها هي مركز الناحية.. وكانت تعتبر ناشزة عن الخط الوطني.. ومنطلق دعاية وأعمال عنف ضد الأمن.. وذهاب مختارها لمقابلة مسؤولين، دون علمه، يُعدّ انتقاصاً من ادارته، وهيمنته على المنطقة التي هو مديرها.

ولكنّي أفهمته صراحةً.. أنّ المحافظ هو الذي أراد أن تكون صلتي به مباشرة.. ودون اطلاع أيّة هيئة رسمية.. وقلت له: بإمكانك أن تتصل به هاتفيّاً، وتسأله عن ذلك. فسكت، ولم ينبس. وأشهد أنه كان لطيفاً في حديثه معي - وإنْ يكن في قرارة نفسه غير راضٍ عن تصرّفي، وانفرادي بالعمل دون اطلاعه - وذلك للاعتبارات التي مرّ ذكرها.

* * *

في ربيع سنة ١٩٣٨ قررت إقامة مهرجان أدبي ضخم، تكريماً للعلاّمة الكبير «الشيخ سليمان الأحمد»، في مدينة اللاذقية - بصفته الرائد الأول للإصلاح، في الجبل كلّه.. إلى جانب مكانته العلمية والأدبية الكبيرة. وهو من أبرز العلماء والفقهاء والشعراء في ذلك الجيل. وقد انْتُخِب عضواً في «المجمع العلمي» بدمشق - واسمه الرسمي: «مجمع اللغة العربية». ولـ «الشيخ» العلاّمة أبحاث مستفيضة وجليلة في مختلف المجالات العلمية والأدبية، وتعليقات واسعة ودقيقة على كثير من البحوث التي ينشرها بعض المفكرين... ومراسلات مع علماء «النجف الأشرف»، و«الجامع الأزهر»، وردود على مراسلاتهم ومطالعاتهم. وله مقالات، في كبرى المجلاّت، تصحيحاً لمئات الكلمات في مختلف المعاجم الحديثة - لكبار علماء اللغة.. ممّا كان له أثرٌ كبير، وصدىً بعيد، في مختلف الأوساط العلميّة.. وحفظ لـ «الشيخ» مكانته المرموقة، وجعله موضع تقدير العلماء، وحرصهم على إقامة جسر من المراسلات بينهم وبينه. وقد نُشر الكثير من تلك المراسلات في الصحف آنذاك، وحُفظَ بعضها ونُشر أخيراً، وكان يجب أن تُحفظ كلها وتُنشر - لأنّها ذخرٌ للعلم.. مثلما هي ثروة للتاريخ.

وأشعار «الشيخ» تمتاز بالحكم، ومحاربة العادات المسيئة، والتقاليد السخيفة. ولم يكن من السَّهل.. أن ينبري شيخ متحرِّر، في ذلك الوسط المُتَخلِّف، لمحاربة عادات اصطُلِحَ عليها، وتقاليد ورثها الخلف عن السَّلف.. حتى أصبحت جزءاً من حياته، ومن عقيدته أيضاً!

ولكنَّ «الشيخ» المصلح لم يبال.. بل اندفع لأداء رسالته، في ذلك المجتمع المريض، ولُقِّب بـ «المعرِّي الجديد»، مع فارق الزمن والناس. لأن دعوته، في شعره، للإصلاح.. ومهاجمة الانحراف، والتقليد الأعمى.. كانت شبيهة بدعوة «شيخ المعرَّة ـ أبي العلاء»، وتَصَدِّيه للعادات والتقاليد المتغلغلة في عقول البسطاء السُّذَّج. ومثلما كان موضع تحامل من المتخلفين المرضى.. كان موضع تقدير وتقديس من الذين ينشدون التحرّر ويتوقون إليه.

وكان من أكبر مؤيدي «الشيخ سليمان»، والسائرين على نهجه، عالمان جليلان، لكل منهما أثره الضخم بالسعي للإصلاح، والنضال في سبيله، وهما: «الشيخ يعقوب الحسن»، و«الشيخ ابراهيم عبد اللطيف» ـ وإن كانت ظروف كل منهما.. تختلف عن ظروف انطلاقه، والتعبير عن مبدئه وفكره ومعتقده.

وبعد ذلك.. العلاَّمة الكبير «الشيخ عبد الكريم محمد»، قرية «المصطبة ـ الدريكيش». و«الشيخ سليمان الأحمد».. أول من علم بناته القراءة والكتابة، ودعا الناس للاقتداء به. ولكن العامة من أبناء الشعب، وحتى الخاصة، لم تكن تنظر إلى هذا الاتجاه الجريء.. نظرة رضى ـ بل ربما اتهمت صاحبه بالخروج على التقليد.. الذي كان له حرمة الدِّين! وقد أرسل ابنه «عليّاً» ليدرس الطِّب في فرنسا ـ حيث كان من الأطباء المرموقين.. ذوي الشهرة الواسعة.. وهو أول من استعمل «الوخز بالإبر»، في سورية، لمعالجة الأمراض العصبية ـ وهي المشهورة باسم «الإبر الصينية»، وقد عولجتُ بها في البرازيل، وأفدت منها، كما سيجيء.

وبنت «الشيخ سليمان»، الدكتورة «جمانة»، هي أول فتاة تخرجت طبيبة في محافظة اللاذقية.. وقد أظهرت تفوّقها البارز على جميع أقرانها وقريناتها.

* * *

وزرت «الشيخ سليمان الأحمد».. وعرضتُ عليه فكرة إقامة حفلة تكريمية لسماحته.. فعارض الفكرة، ورفضها، واستمرَّ برفضه ـ رغم إلحاحي الشديد، وتشبثي وإصراري. فاستعنتُ بأسرته الكريمة لإقناعه.. وبعد جهود متتابعة، استمرّت عدة أيام تمكنا من حمله على الموافقة. وإن فكرة الحفلة والعمل لها هي فكرتي أنا.

وإني أتحدَّى من يزعم عكس ذلك، ويجرؤ عليه.

وأذكر أن «الدكتور علي سليمان».. قال مرة: إن صديقنا «عبد اللطيف» يعمل دعاية بيننا للحفلة.. مثلما يعملها بين الآخرين. وصدق.

ولمّا نجحتُ في إقناع «الشيخ العلاّمة»، وأسرته، صار علينا أن ندخل في التفاصيل. واستقرَّ الرأي.. على أن تكون حفلة التكريم مهرجاناً خطابيّاً تشترك به وفود من سائر المناطق السورية واللبنانية، وبعض الأقطار العربية.. التي يوجد لـ «الشيخ العلاّمة» اتصالات ومراسلات مع عدد من علمائها ومفكّريها.

وتمّ الاتفاق على تسمية الحفلة ـ أو المهرجان: «اليوبيل الذهبي للعلاّمة الكبير الشيخ سليمان الأحمد».

وهذه التسمية.. نبعت من سيرة «الشيخ» ومسيرته.. إذ في تلك السنة ـ ١٩٣٨ ـ كان قد أمضى خمسين عاماً.. وهو يكتب وينشر، ويعلّم ويوجّه. وإقامة «يوبيل ذهبي» له، بهذه المناسبة، هي الفكرة الصّائبة المتعارف عليها.

وفوراً.. شرعت بزيارة شخصيات ذات فعاليات: أدبية وفكرية واجتماعية.. لبحث الموضوع معها، وحملها على حضور اجتماع تمهيدي.. يكون بمثابة «لجنة تحضيرية» ـ تنبثق عنها «لجنة تنفيذية» وزرت «عبد الواحد هارون» وأطلعته على الفكرة، فوافق عليها ووعد بدعمها.

ووزعت الدّعوة لعقد «الإجتماع التمهيدي»، وهي تحمل تواقيع: عبد الواحد هارون، الشريف عبد الله، الشيخ صالح العلي، منير العبّاس، منح هارون، الشيخ أحمد حبيب، الشيخ عبد اللطيف ابراهيم، الشيخ يوسف ابراهيم، الشيخ عبد اللطيف سعود، الشيخ كامل صالح ديب، الشيخ أحمد معلّى غانم، الشيخ يوسف

ابراهيم عيد، وأسماء كريمة أخرى، وكان اسمي بين تلك الأسماء بالطبع.

وقبل موعد الاجتماع المحدّد، بأيام قليلة، حصلتْ قضية مؤسفة ــ مع «الشريف عبد الله»، عميد الأسرة الهاشمية في اللاذقية! ويبدو أنه تأثّر لأنّ اسم «عبد الواحد هارون»، الزعيم الوطني المعروف، قد وُضع قبل اسمه.. و«الشريف» يرى أنه من السلالة النبوية.. ولا يجوز أن يوضع اسم قبل اسمه، وأن يتقدّم أحد عليه! وهدّدني «الشريف» في رسالة أرسلها إلي بتقديم دعوى علي.. إذا لم أصدر بياناً بأني وضعت اسمه دون علمه!!

وزرت «الشيخ عبد اللطيف ابراهيم» ، وأطلعته على الرسالة ـ وكان «الشريف عبد الله» يقدِّره ويحترمه.. وطلبتُ منه أن نذهب معاً إلى عند «الشريف».. لتدارك الأمر قبل أن يستفحل. ووافق «الشيخ» على الذهاب، وكان أخوه «عبد الرحمن» حاضراً، فطلبتُ منه أن يذهب معنا.. فأجابني ـ بأسلوبه المَرِح:

أخي «عبد اللطيف» اسم، وأنت فِعْل، وأنا أذهب معكما «حرف جرّ».. لا والله!

فأضحكنا، وتنصّل من الذهاب معنا بهذه «النكتة»!

وعندما قابلنا «الشريف».. كان غاضباً ـ ولا أقول: ثائراً..! ولكنني استطعت تهدئته بالأسلوب الذي أعرف أنه يؤثّر فيه ـ وقد أثّر فيه! وبعد اللتي واللتيا واللواتي ـ كما يقول النُحاة.. استجاب لطلبنا، وأعطاني رسالة تتضمن موافقته على وضع إمضائه.. ووعد بحضور الحفلة ــ وقد حضرها هو وأركان أسرته. وأظهر مودةً للشيخ «عبد اللطيف ابراهيم»، وتقديراً ملحوظاً.

* * *

واجتمعت «اللجنة التحضيرية»، أو التمهيدية، في «النادي الأدبي» الذي كان مقرّاً دائماً لـ «الشيخ منح هارون»، ثم مقرّاً ومنطلقاً للعمل في سبيل «اليوبيل». وقد ناف عدد الحضور على المائة وخمسين شخصاً ـ وكلّهم من أعيان المحافظة وشبابها الواعي المثقّف.

وانتُخِب ـ بالإجماع : عبد الواحد هارون ـ رئيساً لـ «اللجنة التنفيذية»،

و«الشيخ منح هارون» نائباً للرئيس، و«عبد اللطيف اليونس» أمين السر. وحُدِّد عدد أعضاء اللجنة بستة وثلاثين عضواً.. كما حُدِّد موعد اقامة المهرجان ـ اليوبيل ـ في ١٤ تشرين الأول من ذلك العام ١٩٣٨ الموافق ١٩ شعبان ١٣٥٧ هـ، وتقرَّر دعوة شخصيات كبيرة للاشتراك به.. كما تقرَّر الاكتتاب بالتبرعات لأجل تقديم هدية نفيسة لـ «الشيخ» المحتفى به.

واستقر الرأي على أن تكون الهدية مكتبة عامرة بالكتب، ومكتباً أنيقاً يحفل بكل أدوات الكتابة، وساعة ذهبية نفيسة. وطلبنا من «الشيخ» أن يعطينا لائحة بأسماء الكتب التي يريدها.. فزوّدنا بها.

وذهبتُ وأمين الصندوق، «محمد بشير هيكل»، إلى بيروت ـ حيث اشترينا المكتب وأدواته من «مخزن الهندي» الشهير، وحصلنا على الكتب من مكتبة «حامد عجّان الحديد» بحلب، ومن مكتبات أخرى.

* * *

وكان لابدَّ من إصدار كتاب عن حياة «الشيخ» في سبيل تحرّر الفكر وتطوّره، وانعتاقه وانطلاقه.. ورسالته بتحرير المجتمع من التُرهّات والأضاليل والأباطيل.. ثم دراسة شعره، ونواحي أدبه وعلمه، وإعطاء صورة مشرقة، عن ذلك كله، للمحتفين، ولأبناء الشعب كافّة.

وكلّفنا الشاعر والكاتب «محمد المجذوب» كتابة الكتاب، فأنجزه خلال شهرين.. وعنوانه: «مقدمة اليوبيل الذهبي للعلاّمة الكبير الشيخ سليمان الأحمد».

وذهبتُ و«المجذوب» إلى مدينة «صيداء» لطبع الكتاب في مطبعة «العرفان» - وصاحبها، وصاحب المجلة التي تحمل اسمها، «الشيخ عارف الزّين».. أحد أصدقاء «الشيخ سليمان»، وفي طليعة مقدّريه. وقد أبدى «الشيخ عارف» تجاوباً معنا، وتساهلاً في طبع الكتاب بشكلٍ أنيقٍ مُتقَن.

ثم زرتُ، و«المجذوب»، العلاّمة الكبير «السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي»، في مدينة صور، وتغدينا على مائدته، ونعمنا بالجلوس إليه بضع

ساعات. وقد تلطّف واستجاب لنا.. وكتب مقدّمة الكتاب بأسلوبه الأنيق الفخم، وبيانه الرّائع العَذْب - الذي يصحّ فيه ما قاله «سعد زغلول» عن بيان «مصطفى صادق الرافعي»:

«كأنّه تنزيلٌ - من التّنزيل». وحقّاً إنه لكذلك.

وعاد «المجذوب» إلى مقرّه في طرطوس، وبقيتُ بمدينة صيداء ثلاثة أسابيع.. أشرفت خلالها على طبع الكتاب وتصحيحه، ثم اصطحبتُ نُسخه كلها معي.

وكان «منح هارون»، نائب رئيس اللجنة، قد سافر إلى السعودية بعد اجتماع «اللجنة التحضيرية».. ولم يعد منها إلا قبل موعد الحفلة بأيام قليلة. وهكذا.. كنت مضطرّاً لمراجعة رئيس اللجنة، في المواضيع التي لا بدّ من مراجعته بها. وكان «عبد الواحد هارون» يقضي فصل الصيف في بلدة «فالوغا» بلبنان، وفصل الخريف بقرية «الجريمقية» التابعة للاذقية.. وكنت أزوره فيهما كلما دعت الضرورة لذلك.

وهكذا.. قمت وحدي، وخلال بضعة أشهر، بكل الأعمال المتعلقة بالحفلة – من ألفها إلى يائها.. ودون مشاركة أيّ كان. وأنا بذلك جدّ فخور ومعتزّ.

* * *

وراع عملاء فرنسا أن يقام مهرجان تكريم «الشيخ سليمان الأحمد» وتحضره السلطات الوطنية، وأن محافظ اللاذقية «احسان الجابري» سيلقي كلمة الافتتاح، فقرّروا مقاطعة المهرجان. وكان الإقطاعيون المتآمرون مع فرنسا، قد بدؤا يتنكّرون للعهد الوطني، ويجاهرون بعدائهم له – ولا يأبهون ولا يستحون! واحتدم الصراع بينهم وبين الوطنيين الشرفاء في محافظة اللاذقية.. وبدأ يأخذ حدّه الأقصى. وبلغت القِحّة والشراسة ببعض الإقطاعيين أنهم كانوا يهدّدون ويتوعّدون كل من يحضر المهرجان.. أو يتبرّع له!

وأرسل الرجعيون رسولاً منهم يزور «الشيخ» في داره ليبرّر له أسباب مقاطعتهم المهرجان، وأن موقفهم النّابي هذا.. إنما هو ضد الوطنيين وليس ضد

سماحته!

لكنّ ذلك الموقف المعيب المخجل من الإقطاعيين والرجعيين وأذنابهم.. لم يمنع تدفق الجماهير إلى «مسرح شناتا» الواسع الرَّحب - حيث أُقيمت الحفلة التي حضرتها وفود من سائر المدن السورية، وبعض المدن اللبنانية، ومن العراق جاء وفد كريم ـ مما اضطرّنا لإزالة الحاجز الخشبي الذي يفصل بين المسرح ومقهى بجانبه.. حتى يتاح للجماهير المحتشدة أن يجدوا أمكنة يجلسون فيها أو يقفون.

واستمرت الحفلة خمس ساعات ونيَفاً.. وكان يتخلّلها عزف موسيقي شجيّ، من فرقة موسيقية استقدمناها من بيروت.

وننقل هنا عن جريدة «صوت الحقّ».. ما نشرته عن الحفلة ـ تحت عنوان: أكبر وأروع مهرجان عرفته اللاذقية.. مهرجان العلاّمة الكبير «الشيخ سليمان الأحمد». وجاء تحت هذا العنوان.. قال مندوبنا الخاص:

ما أطلّ يوم الجمعة ـ ١٤ تشرين الأول. وهو اليوم المقرّر لإقامة حفلة «اليوبيل الذهبي» للعلاّمة الجليل «الشيخ سليمان الأحمد».. حتى امتلأت المدينة بالوفود التي غصّت بها المقاهي والمنازل.. وظهر «مسرح شناتا» الكبير، في حلّة قشيبة من التّزيين والتجميل. وكانت الأعلام الوطنية، والزينات المختلفة، والأقواس المقامة على المداخل، وعلى المسرح، تملأ جوانبه الواسعة.. واحتشد الناس خارجه.. مما اضطر اللجنة إلى نزع الحاجز الخشبي الذي يفصل بين المسرح والفناء الخارجي.. حيث يوجد مقهى هناك.. فيصبح جزءاً من مكان الإحتفال الذي غصّ بالجموع الزاحفة إليه.

وكان يشرف على ترتيب الحفلة «الشيخ منح هارون»، نائب رئيس اللجنة، والأستاذ «عبد اللطيف اليونس» أمين سر اللجنة، وعرّيف الحفلة.

وجاء معالي « احسان الجابري » .. فاستقبلته فرقة « كشّاف ربيعة » عند الباب، وفي الساعة الرابعة وعشر دقائق وصل العلاّمة المحتفى به، وسط هالة من الشيوخ والعلماء .. فاستقبلته « فرقة الكشّاف » بنشيد حماسي .. ودخل المكان المُعَدّ له وسط تصفيق الجمهور وحماسه. وافتُتِحت الحفلة بتلاوة عشر من

القرآن الكريم. وبعدها وقف أمين السر عريف الحفلة يقدّم الخطباء، وهم السادة:

«الشيخ منح هارون» ـ باسم رئيس اللجنة «عبد الواحد هارون»، «الشيخ أحمد رضا» و«الشيخ سليمان ظاهر» من النبطيّة بلبنان، وعضوا «المجمع العلمي» بدمشق، و«الشيخ عارف الزين» صاحب مجلة «العرفان»، و«الشيخ أمين حكيم» باسم «الشيخ مصطفى المحمودي» مفتي اللاذقية.

وأعلن عريّف الحفلة فترة استراحة.. صعد خلالها طفلا الأستاذ «عبد الغني الشيخ» من حلب، وعمر أكبرهما لا يتجاوز السادسة.. وأنشدا نشيد الوحدة العربية ببراعة فائقة.. جعلت موجة التأثر تغمر نفوس المحتشدين جميعاً. وبكى المحافظ «احسان الجابري» وسماحة «الشيخ المحتفى به»، مما دفع الأستاذ «اليونس» عريف الحفلة لأن يقف ويقول:

إنَّ أمةً يبكي مجاهدٌ من كبار مجاهديها، وعالمٌ من أجلّ علمائها.. عند سماعهما نشيداً وطنياً مؤثّراً.. هي أمّة يستحيل أن تموت، وأن تقهرها الحوادث والأحداث.

وأنشدت «فرقة الكشّاف» ـ بقيادة «شفاوكيل».. النشيد السوري .. ثم بدأ عريّف الحفلة يقدّم الخطباء: «رشيد سنّو» مدرِّس الفلسفة والأدب في الكلية العلمانية بطرطوس، و«إدوار مرقص» عضو المجمع العلمي بدمشق، و«بهجة ميخائيل منصور» الذي ألقى كلمة الشباب المثقف، والشاعر «الشيخ عبد اللطيف ابراهيم»، والشاعر «حامد حسن»، والشاعر «عبد الرحمن ابراهيم»، و«عدنان الأزهري» أمين سر الشباب الوطني باللاذقية، والشاعر «ميشال بيضا». ثم أنشد «عبد الغني الشيخ» نشيداً شعبياً على أنغام الموسيقى. وجاء دور «رشيد الملوحي» فارتجل خطاباً باسم صحفيي دمشق وشبابها جاء فيه:

نحن يا سيدي العلاّمة كلنا أبناؤك وتلامذتك.. فنهضتك الإصلاحية لم تقتصر على هذا الجيل وحده.. بل تعدّته إلى عموم البلاد العربية، وكان لدمشق النّصيب الأوفر منها. وألقى الشاعر حليم دموس قصيدة.

ثم نهض المحافظ احسان الجابري وتقدّم من العلاّمة المحتفى به، ووضع يده بيده موجّهاً إليه كلمة، نقلها عريف الحفلة إلى الجمهور، ومما قاله:

إن هذه الحفلة هي قسطٌ من دَيْن لك على الأمة العربية.. وأؤمل أن تستطيع إيفاءك إياه إن شاء الله. ونهض عريف الحفلة وقال:

إن من واجبنا أن نتلو على مسامعكم أسماء الأدباء الذين قدموا للاشتراك بالحفلة.. ولم يتسع لهم برنامجها، مع الأسف، وكذلك أسماء الأدباء الذين أرسلوا كلمات وقصائد من الوطن والمهجر، والأدباء الذين أرسلوا كتب التأييد والاعتذار، وبرقيّات التهاني، إلى اللجنة.. وتلا الأسماء وهي كثيرة.

ثم ألقى «نوفل الياس» كلمة كانت موفّقة ببعض جوانبها السياسية.. ولكنه اشتطّ فتطرّق إلى النواحي الطائفية.. وذكر الأقليات المسيحية ـ مما كان له وقع غير كريم بالحفلة.. فنهض «الشيخ عارف الزين»، صاحب مجلة «العرفان»، وردّ على تعرضه وتعريضه، وقال: إنّ كلمة أقليّات.. هي محاولة لئيمة من المستعمر لتمزيق صفوفنا.. ونحن شعب واحد، لا تفرقة بيننا. وأنّ إخواننا المسيحيين هم قبلنا في هذه البلاد .. فهم أحقّ بها منّا، ولذلك.. فليس بيننا أقليّة وأكثريّة ـ بل كلنا شعب عربي واحد. وصفّق له الجمهور طويلاً.

وبعد ذلك صعد المحتفى به «الشيخ سليمان الأحمد» إلى المنبر حيث قدّم له رئيس اللجنة «عبد الواحد هارون» هدية اللجنة المؤلّفة من: ساعة ذهبية نفيسة، وقلم حبر ذهب، وخزانة مملوءة بالكتب، وطقم شاي مطعّم بالذهب.

ثم أُلقيتْ كلمة العلاّمة المحتفى به.. وكانت رائعة المعنى والمبنى.

وأحب أن أقف قليلاً.. عند «حليم دموس» وشعره. فقد كان من أعظم الشعراء حسن إلقاء، ولم أسمع في حياتي إلقاءً مدوّياً وآخذاً بمشاعر النفوس أفضل من إلقائه.. ولكن كانت له طباع غريبة! ففي حفلة «الشيخ سليمان الأحمد» كان الجمهور يصفّق له باستمرار.. ومرّة صاح: قفوا قفوا لا تصفّقوا.. ليس هنا مكان التّصفيق.. فجمدت الأكفّ. وبعد أن قرأ بيتين أو ثلاثة صاح بهم: هنا صفّقوا.. فغلب الضحك على التصفيق في تلك اللحظة!

* * *

لقد وقفت طويلاً عند موضوع الحفلة التكريمية لعلاّمتنا الجليل «الشيخ سليمان الأحمد» ـ لأنه أول عمل واسع تحمّلتُ أعباءه بمفردي، وحققت له نجاحاً كبيراً لم يكن يرتقبه أحد أو يأمله ـ وحتى أسرة «الشيخ» نفسها.. لم تكن تحسب أن المهرجان سينجح ذلك النجاح الرائع.. ويظهر بذلك المظهر الضخم الفخم، والمستوى الرفيع الأنيق الذي ظهر به. .

وقد اعترف الجميع بأنه أضخم مهرجان عرفته محافظة اللاذقية قبل ذلك.

وكل ما يُعمل في سبيل مجد «الشيخ سليمان الأحمد»، وتخليد اسمه، إنما هو عمل قليل وضئيل ـ بالنسبة للخدمات الجلّى التي قدّمها لشعبه.. وللسمعة الناصعة التي منحه إياها.

وهو فضلاً عن أنه شاعر كبير، وعالم من أجلّ العلماء، فهو أول من وضع لُبْنَةً في صرح تحرير الفكر، وتحرير الإنسان.. بهذا الوسط الجامد المتخلّف.

وقد عيّنه الفرنسيون قاضي القضاة، إثر دخولهم محافظة اللاذقية، وطلب منه الحاكم العسكري «الجنرال بيوت» أن يعلن بأن العلويين غير مسلمين، فقال له «الشيخ» المؤمن:

نحن العلويين مسلمون.. كتابنا القرآن، ونبينا «محمد» ﷺ، والكعبة قبلتنا، والإسلام ديننا.. وغادر القاعة غاضباً، وذهب إلى مكتبه فكتب كتاب استقالته ووضعه على مكتبه، وكتب فوق إمضائه: قاضي قضاة المسلمين العلويين.

وهو موقف مُشرّف ـ لا أروع منه ولا أعظم ولا أسمى.

رحمه الله، ونضّر ذكره وذكراه، بقدر ما قدّم لأمته من خدمات ـ خلود الفضيلة والطهر والمكرمات.. في نفوس الأُباة.

* * *

ومن أقوى الدلائل على عبقرية «الشيخ سليمان الأحمد»، وغنى شاعريته وأصالتها وغزارتها.. أنه نظم قصيدة مدح فيها «الشيخ محمد عبد الرحمن»، وابنَيْ أخيه «الشيخ ابراهيم عبد اللطيف»، و«الشيخ علي مرهج»، ضمّن كل بيت منها تاريخين لعام ١٩١٧ هجرية ـ وهو العام الذي نُظِمَتْ فيه القصيدة ـ أي أنه

وضع في الشطر الأول تاريخاً لذلك التّاريخ، وفي الشّطر الثاني أيضاً! وهي معجزة لم يعرف الشعر مثيلاً لها منذ وُجِدَ ـ فيما نعلم.

تاريخان في كل بيت ـ في الصدر وفي العجز.. دون أن يبدو في الشعر أيّ تلكؤ أو تعثّر أو تصنّع.. وإنما انسياق شعري طبيعي رائع! حقاً إنها معجزة!!!

وأذكر هنا بضعة أبيات من هذه «الملحمة» والمعجزة الخالدة:

قِفْ مُنْعَماً حيث آرامُ الحِمَى نَزُلُ ١٣١٧ هـ

على العقيق فثَمَّ الأعيُنُ النُّجُلُ ١٣١٧ هـ

وحيٍّ مسرحَ حَيٍّ الرّقمتين وقُلْ :	أَنْعِمْ صباحاً وظِلاً أيّها الطَّلَلُ
أمسى بنجدٍ لربٍّ الأنس مرتعها	وفيه قال الجوى والمجدُ مذ رحلوا
رفقاً بصادٍ شجيٍّ القلبِ مكتئبٍ	ماذا عليهم بعطفٍ عنه لو سألوا؟
همُ همُ سلبوا فكري.. عذابهمُ	عَذْبٌ لقلبيَ منه كل ما فعلوا
أعلَّلُ الودَّ في ذكرى معاهدةٍ	إنَّ التّعلّلَ قد حلّت به العِللُ
بديعةٌ ببديع الحسنِ قد كملتْ	والدّرُّ برد ثناها واللّمى عسلُ
جبينهُا النّيّرُ الصّافي يحلُّ به	صباحُ فجرٍ دُجاه فَرْعُها الجَثِلُ

وهكذا وهكذا ـ ٧٦ بيتاً.. في كل بيت تاريخان ١٣١٧ في الصدر وفي العجز!!!

* * *

في تلك الفترة.. اقترنت شقيقتي «زينب» بالدكتور «علي سليمان الأحمد». وقد تمَّ التعارف بينهما إثر زيارة قام بها مع والده الجليل لقريتنا «بيت الشيخ يونس». وجرى لها عرس حافل اشتركتْ به القرى المجاورة، وواكبتها السيّارات إلى طرطوس، وبعضها واصل السَّير إلى اللاذقية.

وما أحسب أمّاً كانت تحبُّ ابنتها، وتتعلّق بها، وتتشبّث ببقائها قربها.. كتشبُّث والدتي بأختي. وكم كان يُغمى عليها ـ حينما تذكر أنّ ابنتها ستنتقل من جوارها، وتصبح بعيدةً عنها.. حيث لا تتمكّن من رؤيتها إلا في فترات متقطعة.. وبين حين وآخر.

ولكن.. كان يُسَرّى عنها حينما تدرك أن ابنتها ستنتقل إلى بيت كريم نبيل. وأنّ من قُدِّر لها أن تكون زوجته، ورفيقة دربه، هو في طليعة الشباب ثقافةً وعلماً، وخلقاً واستقامة. فتحمد الله وتشكره، وتستكين.

والدكتور «علي سليمان» قد ورث أخلاق والده، وتتبّع سيرته، وعاش معها ولها. وهو إلى جانب تفوّقه في ميدان الطب والعلوم الأخرى.. فإنه لم يهمل أصالته الروحية.. بل ظلّ محتفظاً بها، ومحافظاً عليها، ومثابراً على النهج الذي انتهجه والده الجليل.

ولهذا.. فإني أسامحه لأنه لم يذكرني، كما يجب أن أُذكَر، عندما تحدث عن حفلة «اليوبيل الذهبي» التي أقمتها لوالده - أجل أقمتها.. لأني صاحب الفكرة، والسّاعي لتنفيذها، والعامل بكل طاقاتي لانجاحها ذلك النجاح المثاليّ.

وإنّ من العقوق.. ولا أقول أكثر من هذا.. مَنْ يتجاهل الواقع وينكره - وهو مِنْ أعرف الناس به .. ومع ذلك: سامحه الله. فأنا بنعمته تعالى، لست من الذين يعرفون الحقد والضّغن.. ويعيشون معهما ولهما. والشكر لله.

* * *

خلال وجودي في مدينة «صيدا» - للإشراف على طبع كتاب «مقدمة العيد الذهبي»، كما مرّ بنا، وُلِدَت ابنتي «أمل».

وحينما عدتُ إلى القرية - إذ كنت ما أزال مقيماً فيها - طالعتني ابتسامتها الوضيئة.. فشعرت، حينئذٍ، بأنّ سلكاً جديداً بدأ يربطني بالحياة. ومن وحي ابتسامتها العذبة.. أطلقنا عليها اسم: «أمل».

إن ابنتيّ «أمل» و«سُمَيَّة».. هما نُعمى أبيهما، وموضع غبطته وسعادته. وقد استغنيتُ بهما عن سواهما، ولم أرغب بالمزيد من الأبناء - رغم محاولات الأصدقاء والاخلاّء.

عند انتهاء الدراسة في ربيع سنة ١٩٣٨ اعتذرتُ عن متابعة التعليم في مدرسة «وادي العيون»، وقدّمتُ استقالتي - رغم إلحاح المحافظ ومدير المعارف، وإصرارهما على وجوب استمراري بوظيفتي، ومتابعة مهمتي.. لكن كنتُ قد

اتفقتُ مع «الدكتور علي سليمان الأحمد»، و«عابد جمال الدين»، على إصدار جريدة نُطلق عليها اسم «صوت الحق»، يكون «عابد جمال» صاحب الامتياز، و«الدكتور علي» المدير المسؤول، وأنا رئيس التحرير.

وطلبتُ من المحافظ ومدير المعارف تعيين صديقي «عبد الرحمن ابراهيم عبد اللطيف» معلّماً مكاني ـ على أن يُنقل إلى منطقة صافيتا، وألححتُ بطلبي فوافقا، وتمّ قرار تعيينه.

وانطلقت الجريدة انطلاقاً واسعاً خلال مدّة وجيزة، ودوّى اسمها في المحافظة كلّها. وكانت طلبات الاشتراك تنهال علينا من مختلف الاتجاهات ـ حتى إن «عابد جمال الدين» قال لي ـ بعد أن عاد من جولة واسعة: ستصبح «صوت الحق» في يوم من الأيام مثل «الأهرام»! وحتماً كان ذلك القول مبالغاً به كثيراً.. ولكن الإقبال الكبير على الجريدة.. والصدّى الواسع لما كنا نكتبه.. هو الذي هيّج فيه شعور الأمل، ودفعه إلى هذا التفاؤل!

وإنّ من البداهة أن تغار منها الصحف الأخرى التي تصدر باللاذقية.. وتتألّب ضدها ـ مع أننا جميعاً نعمل في الحقل الوطني، وندافع عن قضيتنا الكبرى.. ولكنّ الدنيا هي الدنيا!

خلال تلك الفترة استأجرت غرفةً في مدينة اللاذقية وسكنتُ فيها. وبقيتْ أسرتي في القرية: والدتي، وأخي محمود، وزوجتي ـ وابنتنا «أمل». وكنتُ أتردد على القرية في نهاية كل أسبوع.. فأمكث فيها نهار الجمعة، وأعود صباح السبت لعملي في الجريدة.

* * *

كان الجو السياسي، كما ألمعنا، قد بدأ يتلبّد ويكفهرّ. وشرع الفرنسيون ـ بالتعاون مع عملائهم.. يخطّطون لتمزيق المعاهدة التي عقدوها مع سورية.. كي يعيدوا مأساة ـ بل مهزلة.. سلخ محافظة اللاذقية، والسويداء، عن الوطن الأم!

ولمجابهة تلك المؤامرة الدنيئة ودرئها.. كثرت المظاهرات المضادّة حتى عمّت مدن المحافظة كلها.. واندفع الفرنسيون يمدّون أنصارهم الرجعيين بالسلاح

والعتاد. ويهيئون للقيام بثورة ضد الحكم الوطني. وكانوا يعتمدون على عملائهم للقيام بأعمال إرهابيَة.. فيعطونهم من السلاح والذخيرة.. ما يكفل لهم تجنيد المئات تلو المئات، من أولئك القرويين السذّج، ودفعهم للاعتداء على المواطنين بالطرق العامة من أجل سلبهم ونهبهم.. وذلك للإخلال بالأمن، وتصعيد الاضطرابات، والإساءة إلى السلطة الوطنية! وندر أن مرَّ يوم، خلال تلك البرهة، دون أن تصلنا أخبار عن نهب قرية تعود ملكيتها للوطنيين المتمسكين بعروبتهم ووطنيتهم.. أو سلب ناس على طريق عام!

وصدف خلال تلك الفترة.. أن جاء وفد من أعيان «جبل عامل»، لزيارة «الشيخ سليمان الأحمد» بقصد جمع إعانات «للكليَّة الجعفرية» في مدينة «صور». وكان يرأس الوفد مفتي «صور»، وهو ابن المجتهد الكبير «السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي» الذي مرَّ بنا ذكره. وقد تصدّى مسلّحون على مفرق قرية «سطامو»، بين اللاذقية وجبلة، وسلبوا رئيس الوفد وأعضاءه كلَّ ما معهم.. وحتى لباسهم الخارجي وأحذيتهم! وحينما وصلوا إلى دار «الشيخ سليمان الأحمد» كانوا حفاةً.. وليس عليهم ما يسترهم إلا ملابس داخلية! وسارع «الشيخ»، فقدَّم لهم من ثيابه وثياب أبنائه ما أعاد لهم الظهور بمظهر لائق كريم. ثم أرسل، مع رسول خاص، رسالة إلى «سلمان المرشد».. ومعه لائحة بالأغراض والنقود المسلوبة.

ومن الإنصاف للحقيقة والتاريخ.. أن نذكر أنه فور وصول رسالة «الشيخ» إلى «المرشد».. أعاد إلى سماحته كلّ ما ورد في تلك اللائحة دون أيّ نقص منها.. وهذا يدلّ على مكانة «الشيخ سليمان الأحمد» الرفيعة عند الناس كافة ـ سواء كانوا مؤيّدين أو مناوئين.. لأنَّ رجل المعرفة والعلم.. يفرض احترامه على أيِّ مجتمع كان.

ومرةً زرتُ المحافظ «احسان الجابري».. وعرضتُ عليه فكرة إرسال وفد من الشباب المسلم العلوي لزيارة «سلمان المرشد»، والبحث معه في موضوع انتهاك رجاله حرمة الأمن، والتي تسيء إلى السمعة والكرامة ـ مثلما تسيء إلى القضية

الوطنية والقومية.

وأعجبت المحافظ الفكرة، وسُرَّ بها، ووافق عليها، وعلى أعضاء الوفد الذين اقترحت أسماءهم وهم:

الدكتور علي سليمان الأحمد، محمود أحمد حبيب، كامل صالح ديب، نديم محمد، الدكتور محيي الدين المرهج، محسن عباس، فؤاد جبارة، أحمد عيد الخَيّر، محرز صقر، وأنا، وآخر نسيت اسمه مع توالي الأيام.

ودعانا المحافظ للعشاء في منزله.. ورُسِمَتْ الخطّة على أن تكون سرّيّة.. حتى لا يعلم الفرنسيون بها.. ويدبِّروا مكيدة لإحباطها. وتعاهدنا جميعاً على أن لا نبوح لأحد بهذا الأمر. وافترقنا ـ على أن نلتقي في مكان معيّن قبل بزوغ الفجر.. حيث تكون السيارات بانتظارنا، فننطلق إلى قرية «الجوبة» مقر «سلمان المرشد». وهذا ما كان.

ولكننا عند وصولنا إلى جسر النهر الكبير، جنوب اللاذقية، قبل أن تبدو خيوط الصباح، وجدنا المستشار الفرنسي واقفاً قرب سيارته.. وهو يلوّح لنا بيده، ويقول بلغة عربية ركيكة: سلّموا لنا على «سلمان أفندي»!

فَمَنْ الذي ذهب إليه، وأطلعه على السر بعد منتصف الليل؟! الله أعلم.

وحامت شكوكنا حول شخص معيّن.. لا أريد ذكر اسمه، ومن المحال أن أفعل ـ لأني أتحاشى كثيراً الإساءة للغير، والتحريض بأيٍّ كان في هذه المذكرات.. إلا بما يقتضيه السِّياق، والأمانة للتاريخ.

واستقبلنا «سلمان المرشد» ـ وهو يعرف بعضنا ـ بدهشة واستغراب.. إذ لم يكن يتوقع هذه الزيارة المفاجئة، بتلك الساعة المُبكِّرة، وقال: خير إن شاء الله؟ واشتركنا معه بمباسطة ومداعبة بعض الوقت. وهو لطيف المعشر، خفيف الظِّل، ويعرف كيف يساير بحديثه، ويعرب عن وجهة نظره.

ودخلنا في صلب الموضوع. وأبَنّا له المخاطر عمليّاً ودعائيّاً إذا استمر في مناوأة العهد الوطني، ورجاله الأحرار.. وأكدنا له أنّ حتميّة التاريخ، واستمرار مسيرته، لابدَّ وأن ترغم الفرنسيين، عاجلاً أم آجلاً، على الجلاء.. وقد جلا قبلهم

الصليبيوّن، وبعدهم الأتراك.. وقبل ذلك التّتر والمغول والرومان. وبعد أن انتهينا من حديثنا بدأ هو الحديث.. وتلفّظ بكلمات قاسية.. ضد المحافظ، والعهد الوطني ورجاله.. وهدّأنا من ثورته، واستعملنا معه كلمات مقنعة وغير مثيرة.

واستجاب أخيراً لرغبتنا.. وعاهدنا على أن يتوقّف عن كل عمل معادٍ للدولة السورية، ومسيء للوطنيين في اللاذقية. وركّزنا على موضوع القرى التي تُنْهَب، والمسافرين الذين يتعرّض لهم البعض على الطرقات.. فوعدنا وعداً جازماً بأنه سيعمل للحؤول دون تلك الأعمال.. وجعل الأمن مُسْتَتِبّاً في تلك المناطق. وبقينا معه طوال النهار، وتناولنا طعام الغداء عنده، ثم ودّعناه وقفلنا راجعين. وكان لطيفاً جداً باستقبالنا ووداعنا، وحديثه معنا.

ولكن، وبينما نحن نهبط الجبل العالي بسياراتنا.. إذا بالمستشار الفرنسي، نفسه، يصعد بسيّارته، ويُلوّح لنا بيديه وهو يبتسم! وللمستعمرين أساليبهم الجهنميّة، ومناوراتهم التي تنطوي على الخديعة والمكر!

وكلّفني رفاقي بأن أنقل للمحافظ نتيجة ما حدث.. وأكتم عنه الكلمات الحادّة القاسية التي تلفظ بها «سلمان المرشد» ضدّه، وضدّ رجال العهد الوطني.. وأن يقتصر إخباره على النتيجة التي توصلنا إليها فقط، وأكتفي.

ولم يكن المحافظ موجوداً في داره.. وقيل لي إنه موجود في دار «عبد الواحد هارون»، فذهبتُ إلى هناك. ولكثرة ما كان متلهّفاً لمعرفة ما جرى.. خرج معي فوراً. ومشينا معاً في الحديقة التي تفصل بين دار «هارون»، ودار المحافظة الكائنة قرب فندق السياحة والاصطياف، المعروف باسم «الكازينو». وطلب مني المحافظ أن أخبره بالتفصيل عن كل ما جرى.. فأخبرته عن النتيجة التي توصّلنا إليها.. وكتمتُ عنه الأقوال النّابية التي تلفظ بها «المرشد» بحقّه هو، وبحقّ رجال الحكم الوطني ـ وذلك حسب ما اتفقنا عليه وتعاهدنا. ولم يكن من الممكن أن أنكث بوعدي لرفاقي.. وأن أنقل إليه الكلمات الجارحة التي قيلت بحقه.

وشعر المحافظ أنّ هناك شيئاً ما.. أكتمه عنه، وصارحني بشعوره. فقلتُ له: وهل بإمكاني أن أورد لك كل ما قيل خلال ساعات؟ أليس المهم هو النتيجة التي

توصَّلنا إليها، وهي التي ذهبنا لأجلها؟ وسكت على مضض!

وفي اليوم التالي استدعاني إلى مكتبه، وسرد أمامي كلمات «سلمان المرشد» القاسية.. التي لفظها بحقه، وبحقّ أركان الحكومة.. وتهديده ووعيده أول الأمر ـ أي عند بدء الحديث معه. وقال لي: أن ما كتمته عني جاء أحد اخوانك وأطلعني عليه. فقلتُ له: وما الفائدة من إطلاعك على كلمات ليس فيها ما يسرّ ويرضي؟ أليست النتيجة التي توصَّلنا إليها هي المُتَوَخَّاة؟ قال: ولكنني كنت أريد منك أن تطلعني على كل ما تلفَّظ به. قلتُ: وهل في نقل كلمات النَّيْل والشَّتْم فضل وفضيلة؟

وحينئذٍ صارحته.. بأننا اتفقنا، فيما بيننا، على أن نكتم عنه الكلمات الجارحة.. حتى لا نجرح شعوره، وحتى لا نزيد في تأزّم الحالة بينه وبين «المرشد».. وتعاهدنا على هذا. وأما إذا نكث أحدنا.. فهو المسؤول عن ذلك. وأما أنا.. فلن أفعل. وانصرفتُ.

وبلغني، بعدئذٍ، أن المحافظ قد قدَّر موقفي وأكبره. فقد أخبرني أحد أصدقائي أنه قال له: إنّ «عبد اللطيف اليونس» إنسان مستقيم وشريف، ويمكن التعامل معه.. فهو يفي بوعده، ويحافظ على عهده.

* * *

بقي أن يعلم القارىء. أنّ أساليب الفرنسيين الخبيثة بقيت تؤثِّر على البسطاء السُذَّج.. الذين استمرّوا بتنفيذ مآرب الزعماء الانفصاليين الذين كانوا يخطّطون لفصل اللاذقية عن الوطن الأم. وأُشيع أن أولئك الزعماء، المنحرفين عن الخطّ الوطني، سيهاجمون مدينة اللاذقية، نفسها، ليلاً. وتجاه ذلك التهديد عمد مسؤول في الإدارة الوطنيّة لاتخاذ خطة غريبة.. فقد جمع عدداً من الكلاب وربطها ببعضها، عند مدخل المدينة الشرقي الذي يُرتقب الهجوم منه، وقال:

حينما تحسّ الكلاب بحركة.. تنبح بقوة، وتهاجم المغيرين، وتقف حاجزاً بينهم وبين دخول المدينة.. إلى أن يستيقظ السكّان، ويهبوا للدفاع عن مدينتهم!

ونظم الشاعر الكبير «نديم محمد» قصيدة.. يسخر فيها من ذلك الإجراء

الوقائي وقد جاء فيها:

إذا عجزَ الكماةُ.. فسوف تقوى على ردِّ المغيرين الكلابُ!

وقد عرّض الشاعر «نديم» بلفيف الإقطاعيين في رثائه الوطنيَّ المناضل «فائز الياس» ـ الذي تُوفي بحادث سيارة ـ وكانت وفاته خسارة كبرى للقضية الوطنية، وأقيمت له حفلة تأبين في مدينة بانياس، كنت أحد المتكلمين فيها. وجاء في قصيدة «نديم محمد»:

أَنِسَتْ بالكرامِ روحُك في الخلدِ وخَلَّفتَنا لِشَرٍّ عشيرِ
ولِعلجٍ.. يمشي اختيالاً على الأرضِ ويرمي النجومَ بالتّصعيرِ
ولِقومٍ.. عضّتْ مُنَاهُمْ على النِّيرِ فلا يعرفون غير النّيرِ

أما العَضُّ على النِّير.. فهو من رائع الوصف والتصوير. وإنه لقولٌ موجع ـ ولكنَّ الحقيقة.. كثيراً ما تكون موجعة! إنها صورة لواقعنا المريض حينذاك.. ومن المحال أن تشبهها صورة أخرى لذلك الواقع وتحاكيها ـ أو تضاهيها!

وأمّا من هو «العِلْج»..؟ فالمعنى بقلب الشاعر ـ وأعظم بـ «نديم محمد» من شاعر متفوّق كبير.

* * *

في تلك الفترة.. انتقل إلى جوار ربه الكريم «الدكتور وجيه محيي الدين» الذي كان في طليعة الشباب المسلم العلوي حماساً للوحدة، واندفاعاً في سبيل التّحرّر. وقد أصدر مجلة «النهضة».. لتكون منبراً حرّاً للأقلام المتحررة.. ووسيلةً للتآخي والتعاضد والانطلاق.

وكان الدكتور «وجيه محيي الدين» ـ في جميع مواقفه يدعو لنبذ «العشائرية» والتعصُّب الأعمى. وهو في كلمته بحفلة «اليوبيل الذهبي»، للعلاّمة الكبير «الشيخ سليمان الأحمد»، قد جاهر برأيه وبدعوته للإصلاح، في ذلك الجمع الحاشد، وقال: (... وأخيراً.. أحبُّ أن أنقل إليكم، أيها الأخوان، ما يتطلّبه الشباب المسلم العلوي من علمائه ومرشديه ـ فالشباب.. يريد أن تنصهر العشائر والأحزاب في بوتقة الوطنية الجامعة.. فلا يبقى صوت إلاّ صوت العروبة.. ولا دين إلا دين

المحبّة والتضامن. نحن نريد أن تتحطّم هذه الحواجز العشائرية السخيفة.. ويُشيَّد على أنقاضها صرح منيع لحزب منسجم الآراء، متّحد الأفكار، متآخي النزعات والميول).

(نحن نريد من رجال الدين أن يقوموا بواجبهم من حيث التحرر الفكري.. فيحضّرون، هذا الشعب ويحرّرونه، ويعملون لتطوره ورقيّه).

(أمّا برنامج الشباب المسلم العلوي المثقف ـ الذي شرّفني بتمثيله في هذا الحفل الكريم.. فهو تحطيمٌ وإنشاء: تحطيم كل ما هو حجر عثرة في سبيل تفاهم الأخوان بالعقيدة والمبدأ.. وتهشيم كل حاجز يعترض سبيل الوحدة والاستقلال.. ونبذ كل تفرقة ـ أيّاً كان مصدرها وباعثها.. وإنشاء جامعة كبرى لا دين لها إلاّ دين المحبة والإخلاص، ولا هدف إلا هذا الهدف). اهـ

هذه كانت احدى صرخات «الدكتور وجيه محيي الدين».. الذي انتقل إلى جوار ربه الكريم والمجتمع أحوج ما يكون إليه. ولقد بكيته بأدمع حرّى يوم تشييع جنازته، ثم في حفلة أربعينه، وإحياء ذكراه. رحمه الله.

ونسيبه «الدكتور عدنان محيي الدين» يحمل رسالته بإخلاص ونزاهة وإيمان.. ويجاهر بها، ويعمل لها.. وله مركزه العلمي والاجتماعي المرموق. وقد زار البرازيل، في الثمانينات، مع زميله «الدكتور محمد منصور» وقرينتيهما، للاشتراك في مؤتمر عالمي للطب.. وكانا موضع تكريم الجالية العربية، وحفاوتها وتقديرها البالغين. والدكتور «عدنان محي الدين» هو مثاليّ بسخاء قلبه ويده، وكرم نفسه وروحه..

* * *

ورئس تحرير مجلة «النهضة» الشاعر الكبير «حامد حسن».. وكان نجمه قد بدأ يسطع، واسمه يتألّق ويلمع. ومن البدء حمل فكرة التحرر من الرجعية والإقطاعية، وانطلق بها.. وكان من أقوى بُناتها ودُعاتها. وقد شرع ينظم الشّعر مبكّراً.. وكانت شاعريته منذ البدء متألّقة وضيئة. وهو الآن من الشعراء المجلّين المتفوّقين ـ قُدَامَى ومُحْدَثين. وكثيرون من الشعراء الكبار ـ بعد أن أشرفوا على

الثمانين توقفوا واعتكفوا.. وأمّا «حامد حسن» فإنه ما يزال في تفوقه وانطلاقه وابداعه.. انه مفخرة هذا الجيل، وفي طليعة عباقرته ومفكّريه.

وقد أطلعني أخيراً صديقي الشاعر الملهم «عزّة دلاّ» على بعض أعداد «مجلة النهضة». ففي الفترة الأولى كان الأستاذ «حامد حسن» رئيس تحريرها.. وفي الفترة الثانية كان مديرها المسؤول ـ أي أنه كان دعامتها في التحرير والإدارة. وهو منذ نشأته موضع ثقة عارفيه ـ وما يزال، وسيظل.

* * *

كانت جريدة «صوت الحق» التي أصدرناها في اللاذقية منطلقاً للقضية الوطنية، والدّعوة لها، والدفاع عنها. وكنتُ أحمل حملات شعواء.. على الأعمال الوحشية التي يقوم بها الجنود الفرنسيون، والسائرون في ركاب فرنسا، ضد الوطن والوطنيين.. وأهاجم أتباع المستعمر بقوة وشدّة.. وأستصرخ الضمير القومي، للوقوف بقوة وحزم، ضد المستعمرين ومن يسير في فلكهم من الإقطاعيين، ومن يشترك معهم ضد وحدة الوطن وحريته واستقلاله.. مما دفع هؤلاء للنّقمة عليّ.. ورصد الطرقات لخطفي ـ وحينئذٍ لا يعلم غير الله ماذا يكون مصيري.

وعُقِد مؤتمر في طرطوس بدار «محمود عبد الرزاق»، والد «رياض عبد الرزاق»، واحتشد ناس كثيرون من أبناء المحافظة.. المؤمنين بوحدة وطنهم، المتشبّثين بها.. وأعلنوا استنكارهم لمؤامرة الفرنسيين وعملائهم وأتباعهم. وكان ذلك المؤتمر.. صوتاً صارخاً في وجوه المستعمرين ودعاة الانفصال.

بعد انتهاء المؤتمر ذهبتُ إلى صافيتا لقضاء يوم أو يومين مع أسرتي. وكان القدر رحيماً بي ـ إذ أن أتباع الإقطاعيين كانوا يوقفون السيارات العائدة إلى اللاذقية، ويتحروّنها بحثاً عني، وعن بعض الشباب الذين جلجلت أصواتهم في المؤتمر الوطني. ومن حسن الحظ أني كنت في صافيتا حينذاك.

وازدادت أعمال العنف المعادية احتداماً وضراماً. وعيَّنت الحكومة الفرنسية مفوّضاً «سامياً» جديداً اسمه «بيو»، حلّ محلّ المفوض السابق. وقال رئيس

وزارة فرنسا للصحفيين:

سورية.. ليست بحاجة إلى معاهدة واستقلال ـ وإنما هي بحاجة إلى رجل قويّ حازم كالمسيو «بيو»!

وهكذا كشف القناع عن مهمة المندوب الفرنسي الجديد.. وأنها تتلخّص بتمزيق المعاهدة السورية ـ الفرنسية وإلغائها.. والعودة إلى الأسلوب الاستعماري الشرِس الحقود!

وكانت حجة الفرنسيين أمام السوريين هي قيام هتلر، وتهديده، والأجواء الدولية المكفهرّة.. مع أنّ هذا وحده كان كافياً لإيفاء فرنسا بتعهداتها.. كي تتهيّأ لمجابهة النازيّة التي كانت تهدد أوروبا والعالم كله.. ولكنّ الروح الاستعمارية كانت متغلغلة في السلطتين: التشريعية والتنفيذية ـ في فرنسا.

ورغم وجود معاهدة تكفل حرية الحكم للسوريين. فقد كان الجيش، وعدة مؤسسات أخرى، في سورية ولبنان، يديرها الفرنسيون مباشرة، ويطلقون عليها اسم «المصالح المشتركة» ـ وتضم: بنك سورية ولبنان، الجمارك، البريد والبرق والهاتف، السكك الحديدية، ومراقبة الشركات الأجنبية! ورغم المعاهدة والاستقلال.. فإنه لم يكن للسلطات السورية أية سلطة على تلك المؤسسات!!

ومع تمسُّك فرنسا بكل هذه المصالح التي هي قاعدة الاقتصاد الوطني ونواته.. رغم ذلك فقد كانت باريس تطالب بالمزيد، وباعطائها صلاحيات أخرى واسعة في وزارة الداخلية، وابقاء جيشها بعَدَده وعُدَده في الساحل والشمال!

* * *

وشرع المندوب الفرنسي الجديد.. يتنقّل بين المحافظات السورية ـ بحجة الاطلاع على رغبة الأهلين ـ بشأن الوحدة والاستقلال!!

وكانت تحركاته سخيفة مضحكة.. تدعو إلى السخرية والهزء ـ كأنّ الحرية والاستقلال بحاجة إلى سؤال.. ومعرفة ما إذا كان المواطنون يريدونهما.. أولا يريدونهما!

شيء مضحك ومعيب! ولكنّ المنطق الاستعماري لا يعرف إلا الأسلوب الوقح

المزري!

وقبل أن يصل المفوض الفرنسي وموكبه إلى اللاذقية.. اجتمع في دار أحد الزعماء بدعاة الانفصال الذين احتشدوا جميعاً.. ورفعوا العلم الفرنسي مكان العلم السوري! وهناك خطّطوا لانفصال اللاذقية عن الوطن الأم من جديد!

وأرسل الشاب الوطني الغيور المحامي «عبد الله العبد الله» برقيّة نارية إلى أولئك الزعماء الانفصاليين جاء فيها:

(طويتم رايتنا.. فطوينا زعامتكم.. رايتنا مرفوعة إلى السماء.. وزعامتكم هوت إلى الحضيض).

رحم الله «عبد الله العبد الله».. فقد كان من أكثر الناس وطنيةً وإخلاصاً، وأشدّهم فتوّة قلب وعقل. وكانت وفاته، هو والدكتور «وجيه محيي الدين»، خسارة كبرى للشباب المتحفّز لنزع نير العبودية عن عاتق الشعب، وتحطيم سلطة الرجعية والإقطاعية.

وفي طريق المندوب الفرنسي إلى اللاذقية.. مرّ بمدن المحافظة ــ حيث كان الانفصاليون يحشدون أتباعهم في الطرقات.. وهم يحملون الأعلام الفرنسية ويلوّحون بها! بينما كان الوطنيون الأحرار.. يحشدون أنصارهم وهم يحملون الأعلام السورية، وينشدون الأناشيد الوطنية.

وهكذا كانت الطرقات بمثابة تظاهرات صاخبة للوطنيّين الوحدويّين.. وللانفصاليين عملاء فرنسا والسائرين في ركابها. وخرج أبناء المدن الساحلية يعربون عن تعلّقهم بالوطن الأم ــ إلى جانب الوطنيّين الأحرار من أبناء الجبل.. المستميتين في سبيل وحدة وطنهم وحريته واستقلاله.

ووصل موكب المندوب الفرنسي إلى اللاذقية بعد غروب الشمس. وكانت العتمة قد بدأت تنتشر.. وبدأ الليل يرخي سدوله. وفجأةً انطفأت الأنوار الكهربائية.. وسار الموكب إلى دار المندوب الفرنسي وسط تلك العتمة ــ أو ما يشبهها.. واتّهموا المحافظ بأنه أوعز إلى بلدية اللاذقية كي تطفىء أنوار الكهرباء.. ساعة وصول المفوض الفرنسي.. ولم يكن هذا صحيحاً. ولكن.. لو أن الفعل كان

مقصوداً فعلاً.. فإنه مُشَرِّف جداً ــ لأنه تعبير عن نقمة الشعب الوطني على المؤامرة الفرنسية.. واعلان سخطه على ذلك التنقّل الوقح.. والاستفتاء السخيف المزري.. الذي يخفي في طياته نوايا فرنسا العدوانيّة، وخطتها الجهنميّة التي ترمي إلى تمزيق وحدة الوطن، واعادة الحكم الاستعماري الرهيب!

وتجاه هذا الموقف العدائي من الجانب الفرنسي.. ولم تعد مؤامرته الوقحة ضد وحدة البلاد، والعهد الوطني، خافية على أحد ـ تجاه ذلك، وتجاه الضغط الشعبي المستمرّ.. استقالت الوزارة التي كان يرأسها «جميل مردم». وحاول رئيس الجمهورية «هاشم الأتاسي» أن يبقي الخيط معلقاً مع فرنسا.. وأن تستمرّ الاتصالات معها كي تتراجع عن موقفها العدائي.. وتوافق على تطبيق نصوص المعاهدة ـ رغم بعض موادّها الجائرة.. وإقرارها من البرلمان الفرنسي.. لذلك عُهِدَ إلى «لطفي الحفّار»، ثم «نصوح البخاري»، بتشكيل وزارة جديدة.. تأخذ على عاتقها الاتصال مجدّداً مع فرنسا لإبرام المعاهدة. ولكن أيّاً منهما لم يستطع زحزحة فرنسا قيد أنملة عن موقفها العدائي، ومؤامراتها ومطامعها. فاستقالا كلاهما ـ الواحد تلو الآخر ـ كما استقال «احسان الجابري» محافظ اللاذقية، وسافر إلى دمشق، وقد أرسل إليه الأديب المناضل «أديب الطيّار» هذه البرقيَة:

«استنفرتنا إلى الحرية.. فنفرنا منك! وعدلت بيننا.. فعدلنا عنك! فاغفرْ لنا.. واحملْ صليب شقائنا معك في معركة جديدة».

هذه البرقية.. هي تعبير عن واقع تاريخي مؤلم. وهي تعتبر ملحمةً في تاريخ، أو صورة لمنعطف تاريخ.. وتعطي فكرةً ناصعةً عن وطنية «أديب الطيّار»، وصفاء إيمانه، ونقاء بيانه.

* * *

واستقال «هاشم الأتاسي» من رئاسة الجمهورية ــ احتجاجاً على سلخ الفرنسيين محافظتي اللاذقية، وجبل الدروز، عن دمشق.. وتعيينهم محافظيْن لهما. وأرسل «الأتاسي» كتاب استقالته إلى المجلس النيابي.. الذي حلّه الفرنسيون وعيّنوا حكومة مديرين تحكم البلاد حكماً مباشراً.. بإشراف المندوب

الفرنسي وتوجيهه! ثم توالت الأحداث الرهيبة، واجراءات فرنسا التعسفيَة، بعد ذلك!

وكانوا قد أرسلوا كتيبة من الجيش الفرنسي لاحتلال المجلس النيابي، واخراج النواب الذين اعتصموا فيه ـ باعتباره حصن الديمقراطية. وقاوم رجال الشرطة مقاومةً عنيفة باسلة.. واستشهدوا جميعاً بعد دفاعهم المجيد ـ ضد الهجوم الفرنسي الغادر اللئيم.

* * *

وتفاقمت الحالة الرهيبة واشتدت.. واتّسعت المظاهرات وعمّت ـ حتى شملت المدن السورية كلها: ساحلاً وداخلاً. واشتدّ معها العنف والهياج والمصادمات.. واندفع الجنود الفرنسيون لمجابهة المتظاهرين، واعتقال عدد كبير منهم.. وزجّهم في السجون رهن التعذيب الوحشي الدامي!

وفي مدينة اللاذقية .. كانت تُسمع أصوات المعتقلين واستغاثتهم خارج الثكنات.. بشكل مرعب ومؤلم ومحزن!

وكنتُ أشترك في أكثر المظاهرات، وأُلقي خطباً حماسية.. والمتظاهرون يحملونني، وبعض الرفاق، على الأكتاف.. لنزيد في توقّد هياجهم وحماسهم واندفاعهم.

وفي إحدى المرّات.. انطلقت احدى المظاهرات من منزل المحامي «فائز الياس».. ووصلتْ إلى قرب دار الحكومة، فخرج المستشار الفرنسي إلى الشرفة وهو يهدد بقبضتيْ يديه ويتوعّد.. فأطلق أحد المتظاهرين عيارات ناريّة أصابت زجاج النافذة التي كان يقف المستشار قربها وحطّمته.. وتناثر الزجاج، وأصاب بعضه يدي المستشار الذي كان يلوّح بهما في الهواء مهدّداً متوعداً! وأطلق أحد الشباب قنبلة يدوية اصطدمت بالحائط، وأحدثت دويّاً، ولكن لم يصب أحد بأذى.

وفتح الجنود الفرنسيّون النار على المتظاهرين.. فجرحوا بعضهم، واعتقلوا عدداً منهم ـ حيث عُذّبوا في الثكنة العسكرية التي يحتلها الفرنسيون عذاباً منكراً ـ كما ألمعنا! وقيل إن بعضهم كانت تُقلَع أظافر يديه.. ويُكوى بقضبان

حديدية حامية ـ إلى غير ذلك من وسائل التعذيب الوحشية المنكرة.. التي لا يقرُّها عرف ولا قانون!

* * *

في مساء ذلك اليوم.. وردني نبأ هاتفي عن وفاة الشيخ «توفيق اليونس»، إمام المسجد في قريتنا، وأحد شيوخ الأسرة المرموقين. وكانت تربطني به صلة روحيّة عميقة.. وكنت كثير التقدير لشمائله ومزاياه. وقد راعني نبأ وفاته.. فأسرعت بالذّهاب إلى صافيتا للاشتراك بتشييع جثمانه.

وأمام مسجد قريتنا وقفتُ أؤبّنه بكلمات باكية مؤثّرة.. وتطرّقتُ للوضع السياسي، وحملتُ حملةً شعواء على فرنسا، والسّائرين في ركابها لتهديم الوحدة السورية، والحكم الوطني. وقد احتشد جمهور كبير غصّت به الساحات المحيطة بالمسجد.. كما أنَّ عدداً من الزعماء الضالعين مع فرنسا، وفق سياستها التهديمية، ومخططها الإجرامي الرهيب، كانوا موجودين. وكان الذي تطلق عليه فرنسا اسم «المفوض السامي!».. قد أصدر قراراً يتعلق بالطوائف.. اعتبره المسلمون ماسّاً بهم، وبكرامة عقيدتهم وصيانتهم.. فأضربت المدن السورية، وقامت مظاهرات صاخبة احتجاجاً على ذلك القرار الجائر.. مما اضطرّ المندوب الفرنسي للتراجع عنه بالنسبة للمسلمين «السّنّة» فحسب.. وإبقائه ساريَ المفعول على المذاهب الإسلامية الأخرى!!

وقد أبّنْتُ في موقفي الخطابي خطورة ذلك القرار.. وتحدَّثتُ عن خطره، وغايته اللئيمة في تمزيق وحدة المسلمين، وبعثرة صفّهم.. وحملتُ على الفرنسيين حملةً شعواء.

ونُقِل إليَّ.. أن «الشيخ عبد اللطيف محمد رمضان» ـ وهو سليل أسرة متصوّفة عريقة، لها مقامها ومركزها المرموق.. نُقِلَ إليَّ أنه قال بعد أن أنهيتُ خطابي:

«وا أسفاه عليك يا «عبد اللطيف».. إنهم لن يتركوك حرّاً بعد اليوم».

فكأنه، بنافذ بصيرته، قد أدرك ما سيحصل لي بعدئذٍ، وقد حصل.

* * *

وبالنسبة لذلك القرار الجائر.. فقد قويت معارضة أحرار المسلمين العلويين له.

وأنشر هنا.. صورة الرسالة التي بعثها «اسماعيل الهوّاش» ـ والد «عزيز الهوّاش» ـ إلى عمي «الشيخ ياسين عبد اللطيف» يطلب منه التحرك ضد ذلك القرار لإبطاله. وقد زودني بها «طاهر محمود ياسين» حفيد عمي «الشيخ ياسين». وهي ولا شك وثيقة تاريخية هامّة، فشكراً له. وهذا نصّها حرفيّاً:

لحضرة الأخ الأستاذ الفاضل الشيخ ياسين أفندي عبد اللطيف الأكرم.

سلام الله عليكم، وبعد:

لا يخفى عليكم القرار الصادر من «المفوض السامي!» بخصوص «قانون الطوائف» الذي كنتم تحاربون هذه الفكرة قبل ظهورها ـ أي من يوم ابتداء «التبشير والتنصير» في جماعة السيد «أمين رسلان». وكنتم وحدكم تعملون لخنق هذه الرّوح الخبيثة.. وعقدتم اجتماعات شتّى، وقدّمتم الاحتجاجات للمفوضية العليا ووزارة الخارجية الفرنسيّة، وجامعة الأمم.

وما قولكم بعد أن سمعتم فخامة «المفوّض السامي!» يذيع في الراديو توقيف تنفيذ القرار عن إخواننا «المسلمين السُّنَّة» من دوننا، ومن دون الطوائف الإسلامية الأخرى! أرضيتم بذلك..؟ أم أنكم ستجابهون هذا التصريح من عندكم ـ كما صرّح المجتهد الأكبر «السيد محسن الأمين»، وأعلن استنكاره، وتحملون الزعماء والمشائخ، والعلماء والوجهاء على استنكار هذا الموقف الشاذّ؟ فوالله إذا لم تقوموا قومة الرجل الواحد، وتقفوا أمام مظالم هذا القرار.. فستعمّنا البلوى، ويستهدفنا التّبشير.. ويصبح أبناؤنا من بعدنا طعمة سائغة للاستعمار الأجنبي. وعلى كلٍّ.. فالمسؤولية تُوَجَّه عليك أولاً.. ثم يتبعكم العلماء والزعماء. والله يأخذ بأيدينا لنصرة الحقّ والإسلام. والسلام.

دمشق في ١٩ آذار ١٩٣٩

زعيم عشائر المتاورة

إسماعيل الهوّاش

* * *

في اليوم الثاني.. عدت إلى مدينة اللاذقية، ووصلتها ظهراً. وكان أثر مظاهرات الأمس بادياً في الشوارع، والجنود الفرنسيون منتشرين في أكثر الأماكن. وقد تركت مظاهر العنف آثارها الموجعة في كل مكان.

وحين هبطت من السيارة.. التقيتُ الصديق «محمود الترسيسي» ـ وهو موظّف بمديرية المالية في اللاذقية.. فأصرّ إصراراً شديداً على أن أصحبه للغداء في منزله.. ولم يترك لي فرصةً للذهاب إلى مكتبي في الجريدة، أو إلى البيت الذي كنت أقطنه، بل أصرَّ على أن أصحبه إلى داره.. حيث نعمنا بغداء دَسْم، وجلسة حلوة. وصار يحدِّثني عن وحشية الجنود الفرنسيين ـ السنغاليين ـ وهم يعتقلون المواطنين، ويزجّون بهم في أقبية الثكنة العسكرية.. حيث يُسمع صراخهم وعويلهم إلى خارجها. وكان الحديث ذا شجون.. وكنتُ كلما أردت الذهاب لمتابعة عملي في الجريدة، وأنا رئيس تحريرها ـ كما مرّ بنا.. كان يصرّ على بقائي فترة أطول للاستماع إلى نشرة أخبار الإذاعة.. ويلهيني بالحديث، وأكل قطع حلوى.

ودخل علينا رجل نحيل الجسم، أصفر اللون، اسمه «طاهر»، وجلس معنا. ولما رأى صاحب البيت يزيد في إكرامي واحترامي.. سأله عني، ولما ذكر له اسمي.. امتقع وجهه، وازداد اصفراره، وبدت عليه سمات الألم والاضطراب.. وانتحى بصاحب الدار، وأسرَّ إليه شيئاً.. ثم عادا وقد بدتْ على كلٍّ منهما علائم الاضطراب والقلق. وحاولتُ الانصراف.. فتمسك بي صاحب الدار مُلِحّاً عليَّ بالبقاء ومصرّاً.. وكان إلحاحه واصراره أكثر من ذي قبل، فقلتُ لهما: صارحاني.. يبدو أن ثمّة أمراً تريدان اخفاءه عني. فنهض «طاهر».. وانحنى على قدميّ يريد أن يقبّلهما.. وهو يبكي ويقول: «دخيلك لا تؤاخذني».

وبصعوبة استطعت أن أرفع رأسه من فوق قدميّ. فوقف وقال والدموع تنهمر من عينيه:

«إني خادم في بيت فلان ـ وهو موظّف كبير في اللاذقية، وشقيق أحد الزعماء الكبار الضالعين مع فرنسا ـ وقد أرسلني منذ ساعتين إلى عند المستشار

الفرنسي لأخبره بأنك أنت ـ عبد اللطيف اليونس ـ الذي أطلق عليه الرصاص! فأرسلني المستشار ـ والكلام للرجل «طاهر» ـ إلى المستنطق العسكري.. حيث أدّيتُ هذه الشهادة الكاذبة أمامه.. وأخذ توقيعي عليها»!!

وقال الرجل: إنّ الجنود الفرنسيين يبحثون عنك الآن لاعتقالك، وهم يتحرَّون كل مكان ترتاده.

واستمرّ الرجل ببكائه واعتذاره. ونظراً لما أبداه من ألم وندم.. فقد سامحته من كل قلبي، وهوّنت الأمر عليه.. وذكرتُ له ما جاء في القرآن الكريم:

﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾. وقوله تعالى ﴿ولا يحيق المكر السَّيِّءُ إلا بأهله﴾. صدق الله العظيم.

ومضى الرجل. وقلتُ لمضيفي ـ رحمه الله ونضّر ذكراه ـ لا يجوز أن أبقى هنا لحظة واحدة.. وإن بقائي يشكل خطراً عليّ وعليك. فسألني: إلى أين تريد الذهاب؟ قلتُ: إلى بيت «الشيخ عبد اللطيف سعّود».وكان قاضي القضاة في اللاذقية، ومن أعزّ أصدقائي.

ونهضنا فوراً.. ومشينا وسط الحارات الداخلية ـ حيث الأزقة الضيقة، والطُّرُق المتعرِّجة الملتوية.. وهي بعيدة عن الشوارع الرئيسية.

وكان منزل «الشيخ عبد اللطيف سعود» يقع على رابية جنوب المدينة.. ووجدناه جالساً مع أسرته الكريمة.. وليس ثمة شخص آخر. وروينا له القصة.. وأن «فلاناً» هو الذي أرسل خادمه ليشي بي.. فتأثر كثيراً.. وأكد لي أنه لا يستغرب هذا عن ذلك «الزعيم» وشقيقه ـ وهما من البيئة التي منها «الشيخ». وقال:

يجب أن تعرف أنك هنا في بيتك.. وأنه لن يحصل عليك مكروه ما دمتُ حيًاً. وسأذهب إلى قلب المدينة لأستقصيَ لك الواقع. وكانت الشمس على وشك المغيب.

وأوصى «الشيخ» أفراد أسرته أن يضعوني في مكان لا يستطيع أحد الاهتداء

إليه ـ إذا جاء من يسأل عني.. ودلّهم عليه.. ومضى وبرفقته صديقي «محمود التّرسيسي».. وقد أوصاه أن لا يخبر أحداً، وأيّاً كان، عن مكاني.. وأن يفترق عنه حال خروجهما من البيت، ويذهب كل منهما في طريق.

وفي المساء.. عاد «الشيخ»، وعلى محيّاه تبدو علائم الاضطراب والقلق.. وأخبرني أنهم يبحثون عني في كل مكان.. وأن «عبد الكريم الخيّر» ـ وكنّا نسكن معاً في منزل واحد ـ أخبره بأنهم تحروا الدّار بحثاً عني. وذهب إلى مكتب الجريدة «صوت الحق» فوجده مغلقاً.. وأخبره الجيران أن أحد رجال الأمن الفرنسيين جاء يسأل عني، ومعه جنود سنغاليون.. فقال لهم «عابد جمال»: لقد سافر.. ولا أعلم إلى أين. وأغلق المكتب أمامهم ومضى.

وأخبرني «الشيخ» أنه اجتمع مع «الدكتور علي سليمان الأحمد»، وتباحثا معاً بأمري، واستقرّ رأيهما على أن أذهب إلى قرية «السّلاّطة».. وأختبىء فيها إلى أن ينجلي الموقف، وقال لي: لقد هيّأنا كل شيء.. والسيارة التي ستستقلها إلى «السّلاّطة» ستكون بانتظارك عند الفجر على جسر النهر الكبير.. الذي يقع جنوب اللاذقية على بعد عدة كيلومترات.. فنم الآن مطمئناً.. وتهيّأ للنهوض باكراً قبل طلوع الفجر. وهكذا كان.

وسار «الشيخ» معي في الأرض العراء.. ونحن نتحاشى المرور قرب طريق.. حتى وصلنا الجسر - بعد سير ما يقرب من ساعة.. في أراض شائكة وعرة، مملوءة بالحفر والأخاديد. وكانت السيارة بانتظارنا.. وفيها شخص أوفده «الدكتور علي».

وودّعني «الشيخ عبد اللطيف سعود» والدمع ينهمر من عينيه، وهو يقول لي: أودعتك في خزائن الله.

* * *

لم يغادر «الشيخ» موقفه.. حتى اختفت السيارة عنه. وكانت خيوط الفجر تتسلسل عبر التلال.. والطبيعة هادئة ساكنة.. لا يعكّر صفوها شيء إلا هدير محرّك السيارة.. التي تحمل في داخلها انساناً تائهاً.. وتنطلق به إلى مصير

مجهول.

ويقيتْ عمّة «الشيخ» تلوح لي ـ وكأنها البدر الذي يضيء ظلمة نفسٍ تائهةٍ حَيْرَى.. إلى أن طواها منعطف طريق. ولكن طيفها الوضيء ما يزال في قلبي وفي عينيّ ـ وإلى الأبد.

رحم الله تلك النفس الطاهرة.. فما عرفتُ ـ على كثرة من عرفت.. أنقى من نفس «الشيخ عبد اللطيف سعود»، ولا أطهر ولا أرقّ ولا أحلى.

لقد كان ذا خلق عالٍ، ونفس أبيّة، وسريرة نقيّة، ووجدان شريف نظيف. يكره الضرر والضارّين، والأذى والمؤذين.. ويندفع لنصرة مظلوم، وإغاثة مكلوم ـ أيّاً كان.. وبأيّ أسلوبٍ كان. وإذا رأى انحرافاً عن الطريق القويم، وتلكّؤا عن القيام بواجب، أو خروجاً على الخلق والدين ـ أو يحسب ذلك.. فإنه لا يتورع، عن التحدي والهجاء!

وكان من أهجى شعراء العرب ـ قُدَامَى ومُحْدَثين ـ ولا أستثني. شاعريته وضيئة.. فيها صفاء فكر، ونقاء تعبير. حسن الديباجة، صادق اللهجة، مشرق المعنى. ولعله من أقدر من زاول «التاريخ» في الشعر ـ أيْ البيت، أو الشطر، أو الكلمة الواحدة التي يذكر فيها تاريخ تلك السنة. ولولا قسوة هجائه، وتناوله شخصيات كريمة.. يعتقد أنها انحرفت عن النّهج القويم، والصراط المستقيم.. لكانت حياته مثاليّة في جميع جوانبها.. ولكن جلّ من لا يخطئ.

رحم الله «الشيخ عبد اللطيف سعود».. فلولا صنعه الكريم معي، ولولا يده التي أمسكت بيدي وسارت بي إلى طريق الأمان والاطمئنان.. لما كان لي موعد مع القدر، ومع الحياة ـ من يدري. وصدق من قال: «الصديق عند الضيق».

ورحم الله الصديق الوفيّ «محمود الترسيسي».. الذي أحفظ له في نفسي أجمل الذكريات. ففي موقفه مني.. دليل على نقاء عاطفته، وصفاء مودّته.. وقد ساقه القدر إلى طريقي.. ليضطرّني للذهاب معه إلى داره.. وكان ذلك سبباً لنجاتي وانقاذي.

وشكراً لك يا ربي.

* * *

كنت أجلس في المقعد الخلفي بالسيارة.. وخيوط الفجر تنهال عَبْر النافذة، وتتسلسل منهما إلى شغاف قلبي.. والمدى يترامى أمام باصرتي.. فأخال قريبه بعيداً، وبعيده قريباً.. والأفكار السوداء تنتابني وتغلّفني.. تهدهدني وتهدّني، ورُؤى البصيرة تكتنفها سحبٌ قاتمةٌ.. فلا تستطيع استكناه ما وراءها، ولا التخمين عما تخفيه خفاياها!

إلى أين أنا سائر؟ وأين سيحطّ بيَ القدر؟ وما هو مصيري؟ وهل باستطاعتي الإفلات من قبضة الأعداء؟

فكّرتُ كثيراً بأمي، وأختي، وأخويّ، وزوجتي، وبنتي التي كانت ما تزال طفلة تحبو.. وماذا سيقولون لها عن أبيها..؟ وكيف سيصوّرونه لها.. ويحدّثونها عنه؟!

أسئلة.. كانت تتراقص أمامي في الأفق البعيد.. ولا أرى لها جواباً!

إني ذاهب إلى مصير غامض مجهول!

إلى واقع ــ لا أعرف واقعه.. ومنطلق ــ لا أعرف كيف أنطلق منه.

وليس لي إلا رحمةَ الله، والاعتماد عليه تعالى. والله سبحانه رؤوف رحيم.

وأسبلتُ أجفاني على رؤًى معتمة.. واستسلمت للقدر ــ لمشيئة الله.

* * *

وصلتُ «السّلاّطة».. قبل طلوع الشمس. وكان العلاّمة الكبير «الشيخ سليمان الأحمد» قد اختارها للاصطياف بها ــ بعد أن جعل سكناه الدائمة في مدينة اللاذقية.

و«السّلاّطة».. قرية صغيرة، لم يكن فيها إلا بضعة بيوت. وهي تقع على هضبة ترتفع عن الطريق العام مئات الأمتار.

ومنزل «الشيخ سليمان».. يقع في أعلى الهضبة، وتحيط به الصخور من سائر جوانبه.. وهو مؤلّف من عدة غرف ــ بعضها حديث البناء، وبعضها قديمه. وإلى الجانب الشرقي منه.. يقع مرتفع آخر.. بُني عليه، فيما بعد، مسجد تعلوه سبع قُبَبٍ.. وفي ناحية من المسجد الواسع، دُفِنَ جدث «الشيخ» الطاهر الذي

تُوفّي بعد ذلك ببضع سنوات.

ومن ذلك المرتفع المطل.. تبدو بلدة «القرداحة»، إلى الشرق منه، وقد أوشك البناء بهما.. أن يتّصل ببعضه.

لم يكن هناك.. ما يشغلني عن نفسي.. وعن التفكير بمستقبلي ومصيري ـ رغم أني إلى جانب عالم كبير.. يمكن أن يصرفني علمه، ثم عطفه ولطفه، عن ذاتي، وعن التفكير بالمستقبل المظلم الغامض.

ومن أين لي الاطمئنان، واستقرار الفكر ـ وأنا ألمح في الأفق البعيد خيوطاً باهتةً سوداء.. كأنها تعني المصير الذي يترقّبني.. والغد المكفهرّ الذي ينتظرني؟! وهل باستطاعة امرىء أن يستكين إلى الأمان.. ونفسه يغمرها القلق والاضطراب ـ ولا أقول الخوف ـ لأني دائماً كنتُ شجاعاً، جريئاً، متين الأعصاب في تحدّي الصعوبات، ومجابهة الأحداث.

لقد مررت، رغم حداثة سنّي، آنذاك، بمصاعب كثيرة قبل ذاك ـ ولكنها لم تكن كهذه صعوبةً وقسوة، وضراوةً وشدّةً. تلك أبقتني في مكاني لم تزحزحني منه ـ إلا إلى أماكن أكثر أماناً واطمئناناً وصعوداً.

أما الآن.. فإني لا أعرف إلى أين أتّجه.. ولا كيف يكون المسير ـ ثم المصير!

كنت أجلس ساعات طويلة على تلك الصخور.. ألملم ذكرياتي، وأستعرض واقعي.. وأتطلّع إلى الأفق البعيد.. فلا ألمح بصبص أمل ـ بل سُحُباً قاتمة سوداً.. فأستسلم لليأس.. ولا أجد معاذاً وملاذاً إلا الله.. فألجأ إليه. وما أذكر أني لجأت إليه مرة.. إلا استكانت نفسي، وهدأت أعصابي، وزايلني ما أشكوه من ألم ويأس، وجزع وخوف.

هذه القوة الغامضة العظيمة ـ ولا أقول الرهيبة ـ التي نعرفها باسم «الله»، ويعرفها آخرون بأسماء أخرى، وصفات أخرى...

هذه القوّة المهيمنة الرحيمة.. كم لها من الأثر في تهدئة نفوس، وانعاش قلوب، واحياء آمال.

ومساكين أولئك الذين لايؤمنون بها ـ بالله جلّ جلاله.. فهم لا يعرفون كيف

يؤمنون بالقوّة التي تلهمهم القوّة.. وبالقدرة التي تعطيهم القدرة.. وبالطاقة التي تمنحهم الطاقة.. ثم السعادة والغبطة والنُّعمَى.

واستقريت الغيب.. واستنطقت الأفق البعيد.. وتراءى لي أن عليَّ أن أرحل.. فصمّمتُ على الرَّحيل.

لقد شعرتُ بأنَّ سلكاً خفيّاً يمسك بتلابيبي، ويقتلعني من فوق تلك الصخور، ويقول لي: امشِ!

ومشيت إلى عند «الشيخ سليمان».. صباح اليوم الثالث من وجودي بضيافته، وتحت رعايته، وأبديتُ له رغبتي بالسفر.. فسألني: إلى أين؟ قلت لسماحته: لا أدري. ولكني أشعر شعوراً عميقاً - لا أعرف كنهه وسببه.. يهيب بي لأن أرحل.. أمّا إلى أين؟ فإني لا أعلم.. ولكنّ الذي أعلمه أنّ عليّ أن أذهب.. ووجهتي الآن مدينة طرابلس، إذا قُدِّر لي أن أصل إليها.. ولعل فيها مكاناً آمناً لي - حتى إشعار آخر.

وقَبّلتُ يد «الشيخ» الطاهر، ومضيت - وأنا لا أكاد أبصر الطريق أمامي - من شدة تأثري لتأثره، وتألّمي لألمه.. وقد اغرورقت عيناه بالدموع - وهو يودّعني ويدعو لي، ويضع عِمّته على رأسي.

وكانت شقيقتي «زينب»، رحمها الله، ترسل كل يوم رسولاً خاصّاً إلى قرية «السلاّطة» للاطمئنان عني.. والتأكد من أن شيئاً لم يحدث لي. وكنتُ بواسطة ذلك الرسول، وزياراته التّفقدية الرّتيبة.. على صلة دائمة بما يجري في اللاذقية من أحداث.

وقيل لي، فيما بعد، إني بعد أن غادرت «السلاّطة» ببضع دقائق.. وصل رجال أمن يبحثون عني. وقابلوا «الشيخ».. فقال لهم: لا وجود له هنا.. وأكرمهم - لأن من طبعه الكرم أولاً.. ثم ليؤخّر رحيلهم حتى يكون قد اطمأنّ لسفري.

وإنه لمن عجائب القدر.. فهم قد جاؤوا من الشرق، وأنا ذهبت من الغرب.. وهكذا لم يلتقوا بي. ولو أني تأخرتُ بضع دقائق لاصطادوني.. ولم يكن ثمّة وسيلة من الإفلات - وهيهات. ولكن الله كريم، رؤوف رحيم.

كنتُ صباح ذلك اليوم أشعر بأن شيئاً ما.. سيحدث، وأن عليَّ أن أرحل.. فصمّمتُ على الرحيل. ولو تأخرتُ قليلاً.. لما كان هذا القلم بيدي الآن - ربما.

والحاسة السادسة كثيراً ما تصيب، وقليلاً ما تخطىء! والله سبحانه وتعالى، رؤوف رحيم.

* * *

ما إن وصلتُ إلى الطريق العام - في أسفل مرتفع «السّلاّطة».. حتى وصلت السيارة التي تقلّ الركاب من «القرداحة» إلى اللاذقية.. وكانت هي واسطة النَقل الوحيدة في ذلك الحين - ولو تأخرتُ دقيقةً واحدة لما ظفرت بها، وكانت سيارة عتيقة، وليس ثمة واسطة نقل سواها. وكان السائق يعرفني فأوقف السيارة فوراً، وقال للركاب: هذا أخو «الست زينب» زوجة «الدكتور علي».. فرحبوا بي، وحشروني بينهم - وكنتُ الخامس عشر عدّاً ونقداً!

بعض «الركّاب».. كان يقف وسط السيارة، وهو منحنٍ فوق المقعد الذي يستند إليه السائق، والثلاثة الجالسين قربه. وكان آخرون يجلسون في أحضان بعضهم بالمقعد الخلفي.. واثنان يقفان على حافة السيارة من كل جانب. أما أنا - فإني لا أعرف من الذي جلستُ في حضنه.. ولا من جلس بعدئذ في حضني! ولكنّ الذي أعرفه، وأذكره جيداً، أن عجوزاً ملأ رقبتي سعالاً من فمه، ورشاشاً من أنفه، طوال الطريق.. وأنا لا أتحرّك - وكيف أستطيع التحرك.. وحولي ركام من البشر - كأنهم «مقانق» حُشيت في كيس ضيّق!

وانسابت السيارة الصغيرة.. على الطريق العام المملوء بالحفر والأخاديد.. وهي ترتفع وتهبط، وتئنّ وتتأرجح، وتميل يمنةً ويسرة.. والغبار يتصاعد من ورائها ومن حولها.. كأنه ضباب كثيف.. والسائق مغتبط بما يحمله في سيارته من «قطعان» بشرية.. وهو يردّد «العتابا والميجنا» من وقت لآخر.. وصوته ينسجم مع سعال الشيوخ، وصوت المحرك، وتأفّف المدعوسين والممعوسين.. ونشيج «خفيّ».. يطلق أحياناً من «أدنى».. فتلتحم رائحته برائحة الدخان المنبعث من أفواه المسافرين.. فيكون اندماجهما عنيفاً، وأثره في النفوس

مخيفاً.. ومن أين لرائحة الأزهار، المنتشرة على جانبي الطريق، أن تخفّف من حدّته، أو تلطف من ثورته؟!

والسائق - وهو يحشر في سيارته هذا «القطيع» من البشر.. يتابع ترديد «العتابا» من وقت لآخر.. كي يلهي الركاب عن مأساتهم - حيث يصيح هذا بذاك: «هَرَسْتني».. وآخر يقول لآخر: «مَعَسْتني».. وأنا لا أشكو «هرساً» ولا «معساً».. فحسبي ما أنا فيه من مأساة أهمّ، وموقف حرج أقسى وأعمّ.. وانسياق في طريق مظلم لا يعلم نهايته إلا الله.

ولكن وضع السيارة المؤلم، والمضحك بنفس الوقت، صرفني بعض الشيء عن ذاتي ومأساتي.. وصدق من قال: وشرّ البليّة ما يضحك!

والمسافة بين «السّلاّطة» والطريق العام الموصل إلى «اللاذقية» لا تزيد على بضعة عشر كيلو متراً. ومع ذلك.. فقد اقتضت من الوقت ما يقرب من ساعتين نظراً لوعورة الطريق.. المملوءة بالحُفَر والأخاديد.. ولما تحمل السيارة في داخلها أطناناً من البشر! ووصلنا الطريق في مفرق «القبو»، وقال لي السائق: الحمد الله على السلامة - وأية سلامة هذه؟! وإن يكن الحمد لله عليها واجباً وضرورياً، ولابدّ منه.

وأفرغ السائق بعض حمولة سيارته لكي أستطيع النزول منها. وبصعوبة بالغة.. سحبت احدى قدميّ من تحت أحد الركاب.. ولكنها خرجت عارية.. وبقي حذاؤها بمثابة مُتّكأ له! فاضطرّ السائق إلى أن يفرغ النصف الآخر ليعثر على «فردة الحذاء» ويسلّمني إياها: ممعوسة ومهروسة!

ورغم ما أنا فيه من حرج وضيق.. فقد وقفتُ أتأمل السائق وهو يعيد ترتيب وتنسيق الركاب داخل السيارة وخارجها.. ثم أضاف اثنين آخرين كانا على الطريق العام ينتظران مرور سيارة، فأجلسهما في الصندوق الخلفي، وجعل غطاءه مرتفعاً إلى أعلى! وراحت السيارة تتهادى على الطريق - وكأنها ذاهبة إلى فتح.. أو عائدة من فتح!

* * *

انتحيتُ جانباً من الطريق العام.. حيث أرى ولا أُرى.. وأنا أترقّب وصول سيارة تقلّني إلى طرطوس. ووصلت سيارة ذات مقعد واحد، وصندوق واسع وراءه، فأومأت إليها، ووقفت بمحاذاتها، وسألتُ سائقها إذا كان باستطاعته أن يأخذني إلى طرطوس. ونظر إليّ ملياً.. وفي وجهه تساؤل ملحّ.. وكنت فعلاً زائغ البصر، بادي الاضطراب، ولي أربعة أيام لم أُزلْ شعر ذقني، فكثف وطال.. ولم يكن منظر الشعر مألوفاً في وجوه الشباب ذلك الحين. وبصورة عامة.. لم يكن منظري طبيعياً. وإنما يوحي بأنّي انسان مضطرب قلق حائر. فسألني صاحب السيارة بجدية:

ألك علاقة بالحوادث التي تجري في اللاذقية؟ قلتُ: نعم. ولا أعرف كيف أجبته بالإيجاب وأنا لا أعرفه.. وموقفي من الدّقة والحراجة كما هو! ولكن لساني سبق تفكيري. فنزل من السيارة، وفتح صندوقها الخلفي وقال: هنا مكان أمين.. بالنسبة لك.

كان صندوق السيارة واسعاً، وفيه كثير من الألياف وغزل القطن ـ مما هيّأ لي مقعداً وثيراً. وقد وضعتُ بعض ألياف القطن فوق رأسي ـ حتى لا يصطدم بغطاء الصندوق بينما السيارة تجري. وكنت رجوته أن ينزلني قبل مدخل طرطوس، ففعل. وحينما تقدمت منه أسأله كم يريد.. حدجني بنظرة حادّة أخجلتني.. فاعتذرتُ منه، ورجوته أن يتلطف ويعطيني اسمه، فقدّم لي بطاقته.. وإذا به محام من بيروت، فكرّرت له شكري وامتناني.

وكم تألمتُ وحزنت.. لأن تلك البطاقة فقدتْ مني.. ولأن اسمه ضاع من ذاكرتي.. ولأنه ليس من عادتي، ولا من خلقي، أن أنسى فضل ذا فضل، أو مكرمة ذا مكرمة. فشكراً له، وجزاه الله خيراً. وآه ما أحلى الصنع الكريم.. ممّن لا ينتظر عليه مكافأة، ولا يطلب أجراً.. وإنما هي مروءة لأجل المروءة.. وعمل خير واحسان لإرضاء النفس النزّاعة للخير والإحسان.

* * *

كانت وقفتي قبل مدخل طرطوس.. فاتجهت إلى الغرب متحاشياً الاقتراب من

الطريق العامة أو دور السكن. وكانت دار الحكومة على مرمى نظر مني. ولاح لي «الشيخ قاسم عابدين» وهو خارج منها - وكان عضو محكمة الاستئناف، ولي به صلة كريمة. فأسرعتُ الخُطى.. دون أن أقترب من مكانه. وبعد السير مئات الأمتار سمعتُ صوتاً يناديني: يا شاب يا شاب.. دون أن يذكر اسمي، وأوجست خيفةً منه.. وخشيت إذا ركضتُ أمامه أن ألفت إليّ الأنظار، فوقفتُ. وحينما وصل إلى قربي قال لي:

أنا خادم «الشيخ قاسم عابدين»، وقد أرسلني لأقول لك.. أن تختفي بسرعة ـ لأنهم يبحثون عنك في كل مكان. فشكرته. وطلبت منه أن يقدّم لفضيلة «الشيخ» جزيل شكري وامتناني.

وأسرعت أغذّ السّير، وأنا لا ألتفت يميناً ولا يساراً. إلى أن وصلتُ دار صديقي«محمد المجذوب».. فصعدتُ الدرج، وطرقتُ باب الدار، وسألتُ زوجته: من الطارق؟ فذكرتُ لها اسمي.. ورجوتها أن تفتح لي الباب لأني مطارد من الفرنسيين.. ففتحته فوراً، واختبأت وراءه ـ لأنها أسرة محافظة جداً. وكانت لي صداقة متينة مع «المجذوب» ـ إذ كثيراً ما كنت أزوره في منزله، وكان يزورنا أحياناً في قريتنا فنأنس به وبزيارته. وطلبتُ من السيدة حرمه أن ترسل من يخبره بوجودي، وأني مضطر للالتقاء به فوراً.. وكان يعمل تاجر حبوب، بعد أن تخلّى عن مهنة حلّاق.. فجاء بسرعة، وهو بادي القلق والاضطراب، وقال لي:

عرفتُ كل شيء.. قلتُ: إذن عليك أن تؤمن سفري إلى طرابلس، وأن تقرضني بعض المال ـ ولم يكن معي وقتذاك إلا بضع عشرة ليرة سورية، وبضعة فرنكات. فمضى مسرعاً.. بينما زوجته الفاضلة بدأت تُعِدُّ طعام الغداء. ولما عاد.. كنت قد أخذت نصيبي من الطعام، فقال لي:

أسرع.. إن السيارة بانتظارك، والسائق قريبي، وقد أطلعته على ما يجب أن يعمله ليمكنك من الوصول إلى طرابلس بسلام.. وأعطاني عشرين ليرة سورية ـ ولم يكن حينذاك ذا سعة.. ثم ودّعني عند السيارة، جزاه الله خيراً، وقد سافر بعدئذٍ إلى السعودية ليطبع مؤلفاته فيها، ويدرّس باحدى جامعاتها، ولا يزال مقيماً

هناك.

ركبت السيارة بين اثنين في المقعد الخلفي. وكنت قد أزلت لحيتي في بيت صديقي «المجذوب»، وتخلصتُ منها ومن منظرها الكئيب، وبدوتُ انساناً عادياً.

وقبل أن نصل بلدة «الحميدية» توقف السائق.. وطلب مني النزول من السيارة، ثم همس في أذني أن أتّجه غرباً إلى قرب البحر. ثم أتّجه جنوباً إلى حيث تنتظرني السيارة في آخر البلدة. وهكذا فعلت. وأخبرني السائق أن نقطة التفتيش في «الحميدية» كانت دقيقة جداً في تحريها الركاب، وقد أطلعتْ على هوياتهم ودققتْ فيها ـ وحتماً كان اسمي بين المطاردين والملاحقين الذي يجري البحث عنهم. واجتزنا الحدود بأمان ـ لأنه لم تكن هناك دوائر أمنية أو جمركية بين البلدين. وقبل أن نصل إلى بلدة «العبدة».. أنزلني أيضاً من السيارة، وجعلني أمشي في طريق خاصة بين البساتين.. حتى تجاوزت مخفر الأمن الذي يتحرّى القادمين من سورية. وهكذا وصلت طرابلس دون أن ألقى أية صعوبة.

* * *

استقبلني صديقي ونسيبي «محمد عبد الكريم» ببشاشته المعهودة، وترحيبه الحار. وأطلعته على موقفي.. وكان عنده محل للخياطة في حي «باب التبانة» ـ كما مر بنا.. فترك عمله وصعد معي بسرعة إلى البيت الذي لم يكن يبعد عن المحل إلا مئات الأمتار.. فاغتسلت، واستبدلت بثيابي الداخلية ثياباً لابن خالي «أبي غسان» ـــ لأني خرجتُ من اللاذقية وليس معي من الثياب إلا ما كنت أرتديه.

واتصل «أبو غسان» بشقيقتي «زينب»، وقال لها: «المسافر» وصل الآن.. وهو بحاجة إلى ملابسه فأرسلوها له بسرعة. ومن حسن الصدف أن «الشيخ كامل صالح ديب» كان يتهيّأ للسفر إلى طرابلس.. فتلطّف واصطحب معه حقيبة ملابسي. وكانت شقيقتي «زينب» ـ رحمها الله ـ قد ذهبت إلى البيت الذي كنتُ أسكنه.. فجمعتها وعبّأتها في حقيبة وسلّمته إياها.. فوصل إلى طرابلس ظهر اليوم الثاني ومعه الحقيبة. ولا شك في أن وصول ما يعوزني من ملابس.. كان

بارقة أمل، وبادرة خير.

قضيت ثلاثة أيام في طرابلس.. وأنا بقرب نسيبي «أبي غسان»، وصديقي «الشيخ علي منصور» ـ الذي عُيِّن، فيما بعد، مفتياً للمسلمين العلويين في طرابلس.. ولم يسلم من الأحداث المؤسفة التي حدثت أخيراً ـ رغم مركزه الديني المرموق.. بل أُطلق الرصاص عليه، وعلى نجله، وهما يؤديان صلاة المغرب فوق شرفة منزلهما.. فقُتِل ابنه، ونجا هو ـ لأنه أطال الركوع.. فلم يصبه الرصاص المنهمر.

وكذلك كنت أنعم بلقاء الشاعر الأديب «محمد علي عكاري».. وكان يوافيني إلى قهوة «التل العليا»... حيث كنتُ أقضي في زاوية منها طوال النهار. وقد فضّلتُ الانزواء فيها.. نظراً لكثرة روّادها، وازدحام الناس فيها.

وقبل ظهر اليوم الرابع.. جاءني «أبو غسان» وعلائم القلق والاضطراب بادية على محيّاه، وقال لي: لقد جاؤوا إلى المحل يسألون عنك، وقد ارتبتُ بهم وبنظراتهم الزائغة.. وما أحسب إلا أنهم من رجال الأمن، يرتدون ملابس مدنية.. وأرى أن تسرع إلى بيت «علي المرعوش»، وتختبىء هناك. قلتُ: وما الفائدة؟ فمن أخبرهم أني قد أكون عندك.. يخبرهم أني قد أكون عندهم ـ لأنه ربما يعرف الصّلات الوثيقة التي تربطنا بأسرة «أبي عبد الكريم». وهذا ما حصل فعلاً.

واتفقتُ وابن خالي «أبو غسان» على ضرورة السفر إلى بيروت، ومنها إلى دمشق ـ علّي أستطيع النفاذ منها إلى العراق. ومضيتُ وإياه في طريق متعرجة داخل طرابلس حتى وصلنا إلى مكتب الصديق «محمد علي عكاري».. وأخبرته بعزمي على السفر.. وكان على علم بما أنا فيه، وبالمخاطر التي أتعرّض لها.. فأقرّ الفكرة، وقال: ربما أنك بحاجة إلى مال.. وفتح الصندوق الحديدي، وأدار ظهره، وقال: خذْ ما تشاء.. وإذا في الصندوق أكداسٌ مكدسة من الذهب والأوراق المالية المختلفة. وكان قد ورث عن والده ثروةً طائلة.. أنفقها كلها في العمل السياسي لصالح سواه! وتناولت عشرين ليرة ذهبية، وهو يدير ظهره لي.. ولمّا أردت عدّها أمامه حدجني بنظرة قاسية.. وهو لا ينظر لما في يدي..

فاعتذرتُ منه ووضعتُ المبلغ في جيبي ـ دون أن يعرف كم هو.

لقد كان «محمد علي عكاري».. ذا مروءة مثالية.. ومعشر ممتع ـ لا آنس منه، ولا أحلى. وفي أواخر أحداث لبنان سنة ١٩٥٨ التجأ إلى بيتي في صافيتا.. وكم كنتُ سعيداً لأنه أمضى معنا فترةً لم تطل مع الأسف ـ لأنه منذ أعلنت الإذاعة عن توقف الأحداث.. عاد إلى طرابلس فوراً، وكم أنسنا به وبمعشره. وأخيراً سافر إلى بيروت وعمل محاسباً لمجلة «الحوادث».. وقد توفي منذ سنوات، رحمه الله ـ فقد كان من أكرم وأطيب الناس. وقد رجوت الرئيس رشيد كرامي، وكانت تربطني به صداقة وثيقة، لتعيينه مدير أوقاف طرابلس، وهذا ما حصل.

* * *

سافرت إلى بيروت ومنها إلى دمشق.. دون أن يعترضني حادث معكّر على الطريق. وكنتُ قبل وصولي إلى مخفر الأمن في مدخل دمشق.. تظاهرت بأن لي غرضاً هناك.. وقلتُ للسائق الدمشقي: سألتقي بك بعد مخفر الأمن.. وأدرك غايتي وقصدي.. فلم تبدر منه بادرة سوء. وهكذا وصلتُ بأمان.. وفوراً ذهبت إلى فندق متواضع، وسجلت نفسي باسم مستعار.. مدّعياً أني نسيت بطاقة هويتي في بلدي طرابلس، وسوف تصلني خلال يومين.. وفعلاً كانت بطاقتي قد فقدتْ مني.. ولم أكن أحمل أية وثيقة تدل على هويتي.

بعد أن أمّنت مبيتي.. ذهبتُ إلى عند «احسان الجابري» في فندق «الشرق»، أوريان بالاس، وقد سرّ كثيراً لنفاذي من المخاطر التي كانت محدقةً بي.. وكان قد بلغه أني ملاحق من السلطة الفرنسية. ووضعتُ وإياه خطة لجوئي إلى العراق.. وقد أقرّ الفكرة وحبّذها. وفي عصر اليوم الثاني التقيتُ صدفةً بـ «جمال الحامد».. فأخبرني أن اثنين من رجال التحري سألاه عني، وقال لي: إن موقفك حرج هنا.. فتدبر أمرك ـ وأحسن الله إليه.. فقد أحسن إليَّ بهذا النبأ.. ولو لم ألتق به مصادفة لكان من الممكن أن يعثروا عليَّ.. وأنا مطمئن إلى أنهم لا يحسبون أني استطعت الوصول إلى دمشق. فأسرعت إلى عند «احسان الجابري» وأخبرته.. فأرسل سكرتيره فوراً إلى الفندق الذي حللت به حيث جلب لي

أغراضي منه.. وكنت قد أعطيته رسالة إلى صاحب الفندق، عليها نفس الإمضاء المسجّل عنده ساعة وصولي.

ورسم «احسان الجابري» خطة سفري إلى العراق: دمشق، دير الزور، فالحسكة، فالقامشلي ـ حيث زوّدني برسالة إلى مدير البريد فيها.. ليسهّل لي مهمة سفري إلى بغداد.. كما زوّدني برسالة إلى رئيس وزراء العراق، يقول له فيها:

«هذا ولدي، أضعه بين يديْ الله.. ويديْ الأخ الكريم».

وودّعني «الجابري» بعد أن زوّدني بمبلغ من المال. وحينما أعدتُ له المبلغ مع صديقي «إسبر ميخائيل بشور» ـ وكنت قد وفّرته من راتبي، حينما عُيّنت مدرّساً بثانوية البصرة ـ كما سيجيء ـ غضب.. وصبّ جام غضبه عليّ حينما قابلته بعد عودتي من العراق.. وهذا ما فعله «محمد علي عكاري» الذي أصرّ على ألاّ يأخذ المبلغ.. ولكن إلحاح صديقي «إسبر» جعله يستجيب. أما «محمد المجذوب».. فقد تناول ما أرسلته له شاكراً ـ لأنه كان ذا حاجة.

ومن طبعي.. أني لا أتأخر عن إيفاء دين.. وهي عادة نشأت عليها من صغري، وما أزال متقيداً بها ـ وقد ساعدتني كثيراً بتخطّي بعض الصّعاب في المغترب ـ بعد أن اطمأنّ الناس إلى دقة معاملتي، وصدق وعدي.

* * *

هيّأ لي سكرتير «الجابري» مكاناً في سيارة شحن.. كانت مسافرة ليلاً إلى دير الزور ـ وقد جلستُ إلى جانب السائق وحيداً. وفي مدينة «تدمر».. استرحنا بعض الوقت عند أحد أصدقائه، ثم تابعت السيارة سيرها ـ بعد أن صعدت إليها سيدة حلوة.. وقد حرص السائق على أن تجلس إلى جانبه.. وأنا إلى جانب النافذة ـ وهذا ما أريده. وبقيت طوال الطريق أقرأ لهما أشعاراً، وأروي نوادر أدبية. وكانت حافظتي ما تزال قوية وغنية ـ وحتى الآن، بنعمة الله وفضله، ما تزال تحتفظ ببعض القوة والغنى ـ إلى حدٍّ ما.. وإن للعمر أثره، وللأحداث المتعاقبة المضطربة مفعولها وتأثيرها!

وبإنشاد الشعر، وسرد الروايات الأدبية.. أخذ السائق فكرة كريمةً عني، ووعدني ـ دون أن يعلم شيئاً من أمري ـ بأن يهيّيء لي أمر سفري من دير الزور إلى القامشلي.. ولم أكنْ قد ارتدتْ تلك المناطق قبل ذلك الوقت.. ولا أعلم شيئاً عنها ـ إلا ما تعلّمته في المدرسة، أو سمعته من أفواه الناس.

وصلنا «دير الزور» بعد منتصف النهار.. دون أن يعترضنا عارض ما. وكان السَّير في طريق صحراوية.. هو السبيل الوحيد لاجتياز تلك المناطق آنذاك. ودخلت السيارة «كاراجاً».. كان فيما سبق «خاناً» يستقبل قوافل الجمال الذاهبة والآيبة، ويؤويها فيه. لذلك شُيّد سقفه عالياً يرتفع حوالي ستة أمتار.. وهو يرتكز على قناطر تستند على أعمدة من الحجارة.. حسب أسلوب البناء في ذلك الحين. ومساحة «الخان».. مئات الأمتار المربعة ـ وقد أصبح مبيتاً للسيارات.. بعد أن كان مبيتاً للجمال والدواب الأُخَر!

وضع السائق حقيبتي في مدخل الكاراج، وبدأ يهتمُّ بأمره هو، قبل أن يهتم بأمر تسفيري ـ كما وعدني. وكنت واقفاً في الداخل.. وإذا بشخص يجلس على حقيبتي، ويتطلع إليّ بين الفينة والفينة! ولقد كان منظري غريباً حقاً.. إذ كنتُ قد عمدتُ إلى التنكر.. فاشتريت من بيروت «قبعة»، وتركتُ لحيتي دون حلاقة ـ بعد اليوم الأول من وصولي إلى طرابلس! ولبست سترتي «الجاكيت» على المقلوب.. ظناً مني أن هذا يلفت النظر عني! ولم يدر بخلدي أن التنكر يقتضي الظهور بمظهر كريم لائق.. يساعد على إبعاد الشك والرِّيب.

وأوجستُ خيفةً.. وأنا أرى شخصاً يجلس على حقيبتي، ويترصّدني بمرآة صغيرة في يده ـ حتى لا يجعلني أشعر بترصّده إياي.. فأعمد إلى الهرب. وتساءلت في نفسي: لو كان يريد رؤية وجهه هو.. فلماذا يستمرّ هذا الوقت كله؟ ثم لماذا يدير نحوي المرآة الصغيرة.. حيث يرى نصفها، وأرى أنها نصفها الآخر الذي يترصّدني به؟!

واستيقظت الحاسّة السادسة في نفسي.. وجعلتني أدرك أنه يتابع حركاتي ـ وأنا أتمشى داخل الكاراج جيئة وذهاباً.

وانتحيت بالسائق جانباً، وأطلعته على وضعي.. وعلى خشيتي من الرجل الذي يجلس على حقيبتي. فارتبك واستمهلني قليلاً.. وذهب إلى صاحب الكاراج يساره ويطلعه على حقيقة أمري. وجاء صاحب الكاراج يتمشّى معي، ويصارحني بأن الذي يجلس على حقيبتي هو من رجال الأمن.. وحتماً حينما تحاول الخروج سيستوقفك، ويطلب منك هويتك، فهل أنت ملاحق من الفرنسيين؟ قلتُ: نعم. وأطلعته على رسالة «احسان الجابري» إلى رئيس وزارة العراق، وعلى رسالته إلى مدير بريد القامشلي. وكنتُ قد وضعتهما ضمن كيس نايلون، وأخفيتهما بين ثيابي الداخلية. فقال لي ـ بعد أن أطلع عليهما:

لا مجال أمامك.. إلا أن تغافله وتصعد على هذا الدرج إلى السطح، ثم تهبط من السطح إلى الأرض بأية طريقة تستطيعها.. واذهب شرقاً إلى حيث توجد شجرة وحيدة، وانتظرني عندها. ونحن سنذهب ونقف بالقرب منه ـ حيث نحجبك عنه، ونشغله عنك.

وصعدت الدرج بسرعة إلى السطح، ونظرتُ إلى أسفل.. وإذا بي على علوّ شاهق من الأرض. وكانت حجارة البناء من التراب المطبوخ.. الذي يطلقون عليه اسم «طابوق»، وقد أثر فيها المطر وحرارة الشمس.. فبرزتْ جوانبها، وعمقت الثقوب بينها ـ ممّا يسهل الإمساك ببعضها.. فمسكت أول حجرة، ثم الثانية، ثم الثالثة، وأنا أهبط إلى أدنى.. وأفلتت الرابعة من يدي، فسقطت على الأرض.. وشعرتُ، من قوة السقوط، بأن شيئاً ما قد حدث لي في بطني.. فلم أكترث له ـ لأني في شغل شاغل عنه. ولملمتُ نفسي وأنا لا أعرف ما بي، ولا ما حدث لي.. وإنما كنت أعرفُ أنّ رجل الأمن سيكتشف هربي.. فيلاحقني ويقبض عليّ. وحتماً هو لا يعرف من أنا.. ولكنه سيفتشني تفتيشاً دقيقاً. وحينما يطلع على رسالتيْ «احسان الجابري».. فسوف ينكشف له أمري، ويقتادني إلى السجن. ومن البداهة أن اسمي، وأسماء المطاردين والملاحقين جميعاً، موزّعة على مخافر الأمن كلها ـ في سائر أنحاء سورية.. وحينئذ تكون المأساة.

ووصلت إلى عند الشجرة.. وأكاد لا أصدق أني وصلتُ.. ووجدتُ «باصاً»

صغيراً احتشد فيه ناس وَضعت أمتعتهم على سطح السيارة ـ وهي على وشك الانطلاق. وسألت السائق إلى أين هو متجه.. فقال: إلى مدينة «أبو كمال»، فطلبت أن أذهب بسيارته، وكنت خائفاً ومضطرباً من أن يلحق بي رجل الأمن.. فاعتذر بحجة أن ركاب السيارة قد اكتملوا، وأنه لا مجال لشخص آخر. فأغريته بدفع الآجار مضاعفاً، فلم يقبل. فيئستُ، واستندت إلى جذع الشجرة.. وأنا في حالة إعياء شديد من سقوطي على الأرض.. وخوفٍ أشدَ من ملاحقة رجل الأمن.

وبعد دقائق قليلة وصل صاحب الكاراج، فانتحى بالسائق جانباً وأسرّ له شيئاً.. وعادا معاً إلى حيث يجلس شخص في المقعد الأمامي، وقالا له: إن هذا الشخص، وأشارا إليَّ، مضطر للسفر إلى «أبو كمال»، وهو نسيب صاحب الكاراج، وطلبا منه أن يؤجّل سفره إلى اليوم الثاني ـ حيث يذهب مجاناً دون أن يدفع أجرة. فلم يمانع الشخص، ونزل من السيارة وصعدت وجلستُ مكانه ـ وأنا أشعر بأن باب الجنة قد انفتح أمامي. وكنت أجلس قرب جندي، متطوع بالجيش الفرنسي، يذهب يومياً لمرافقة حقيبة البريد التي تحملها السيارة.. وقد هيّأ لي القدر وسيلة الجلوس قربه لحمايتي، وستر أمري.

وقبل أن أصعد إلى السيارة سلّمني صاحب الكاراج بطاقة للسيد «علي محمود جهجاه» صاحب «أوتيل غازي» في مدينة «أبو كمال»، وقال لي: سوف يؤمّن لك وسيلة السفر إلى العراق، فشكرته من أعماق قلبي، وسألته عن حقيبتي، وفيها ملابسي وأنا بأمس الحاجة إليها.. فقال لي: كن مطمئناً.. غداً تصلك. فأعربتُ له عن جزيل تقديري وامتناني، وانطلقت السيارة.

وحينما وصلت مدينة «أبو كمال» سألت أول شخص قابلته عن «محمود علي جهجاه»، فقال: أنا هو، فسلمته بطاقة صاحب الكاراج، فرحب بي ترحيباً حارّاً، وصعد بي إلى الفندق. فطلبتُ منه أن يجلب لي حلاقاً يحررني من شعر ذقني، ففعل. وتجمهر حولي عدد من الشباب يسألون عن الوضع في دمشق، ومجرى الأحداث فيها.. وعن الزعماء الوطنيين ومصيرهم ـ وكانت الاضطرابات قد عمّت كل أنحاء القطر السوري.. فأطلعتهم على الوضع العام، ورجوتهم أن يسهّلوا لي

مهمة سفري إلى العراق.. وألحّوا عليَّ كي أبقى إلى اليوم الثاني.. فاعتذرت منهم، وأخبرتهم عن المخاطر التي تعرضت لها.. والتي قد أتعرض لها إن بقيت. فوافقوا على سفري. وسألني «محمود علي جهجاه» إذا كنتُ أحسِنُ ركوب دراجة.. فقلتُ: لا. فهيأ سيارة أقلّتنا إلى الحدود.. حيث نزلنا منها، ومشينا حتى تجاوزنا مخفر الأمن.. ثم واصلنا السير، ودخلنا الأرض العراقية ـ وهي لا تبعد عن مدينة «أبو كمال» إلا بضعة كيلومترات.

* * *

كانت الشمس قد غربت، وبدأ الليل يرخي سدوله. فطلبت منهم أن يسمحوا لي بالوقوف هناك بضع دقائق، فاستجابوا. ونزلت من السيارة، ووقفت على مرتفع صغير من الأرض.

كان الأفق البعيد .. ما يزال يحتضن خيوطاً صفراء خلّفتها الشمس وراءها ـ وهي تتوارى ـ كأنّ ذلك إيذان برحيلها.. هي، وأنا!

وكان القمر في أيامه الأوالي.. تعلوه صفرة تضفي عليه رقةً وعذوبةً وأنساً. وثمّة غيمات متفرّقة داكنة صغيرة.. تفصل بينها زرقة سماء مشوبة بالاصفرار الذي خلّفته الشمس وراءها.

اليوم.. هو الرابع من نيسان ـ شهر الربيع والبهجة والغبطة. وثمة نسيمات رقيقة ناعمة.. تحوي شيئاً من البرودة تهبّ علينا.

المكان هادىء. والأرض من حولنا تنبسط في أمكنة.. وترتفع كثيبات في أمكنة أخرى.

وتطلّعت إلى الغرب ـ حيث القمر الباهت يتطلّع إلينا.. وقد بدأتْ خيوطه البيضاء، المشوبة بصفرة حلوة، تغزو خيوط الشمس المتبقيّة، وتمحوها.. والأفق حائر بين شمس تغيب، وقمر يطلّ.. وظلمة تتهيّأ لتنقضّ ـ بعد أن يختفي القمر ويتوارى.. فتلبس الصحراء حلتها الرهيبة الكئيبة السوداء.

وبدأت نجيمات بيض تنفلت من مخابئها وتطلّ ـ كأنها بسمات السماء، أو عيون الجوزاء.. تسترق السمع، وتتلصّص على الغبراء.

الأرض ندية تحت أقدامنا.. وثمّة أعشاب صغيرة لم يكتمل نموها بعد.. وقد بدأت تعلو عن الأرض وتتمطّى. بعد أن انزاح عنها كاهل الشتاء وأطلّت بسمة الربيع. وبينما هي في زهوها، وارتعاش الحلم، وانتعاش الحياة.. جاء الإنسان يحد من حريتها، ويدوس بأقدامه رؤوسها.. ويحاول أن يخنق رغبتها بالحياة والانطلاق.. فكأنه ينشد حريته على حساب الحريات الأخرى، وعلى أنقاضها.. وهذا هو الانسان!

وتَبًّا لهذه الحياة! القوي يأكل الضعيف ـ من البحار، إلى الغابات، إلى الناس! وحتى الجذور تحت الأرض، والنبات فوقها، فإنّ أقواها يخنق أضعفها ويمتصُّه.. ليبقى القويُّ ويزول الضعيف! وكذلك الحشرات والديدان، والحيوان والإنسان.. فإن القوي يعيش على حساب الضعيف ـ وليس ثمّة مجال آخر.

فما هي الحكمة من ذلك يا ربي؟

إنها تساؤلات بريئة.. تصدر عن نفس حائرة مضطربة.. فاغفر لها، وسامحها على هفواتها وتطفّلاتها.

* * *

وقفتُ أنظر إلى الأفق البعيد.. وأستعرض ما حدث لي ومرّ بي.. وشعرت أني ألقي بنفسي في أحضان مستقبل غامض.. وغد لا يعرف كنهه إلا الله.

لقد تركتُ ورائي أمّاً حنوناً، وزوجة وفيّة مخلصة، وطفلة لم تكمل سنتها الأولَى.. وأخاً لم يتجاوز الأربعة عشر ربيعاً.. وسيكون هو المسؤول عن هذه الأسرة الصغيرة رغم أنه لا يزال في مقتبل العمر، ولم يتمرّس بأمور الحياة بعد.

وأخي الأكبر «ياسين».. مؤمن متدين، نقيّ العاطفة والشعور، ولكن له أسرته، ومسؤولياته وواجباته.. وليس بإمكانه تحمل أعباء أخرى ـ وهيهات.

وأمّا شقيقتي الوحيدة «زينب».. فهي في كنف أسرة خيّرة نبيلة.. وهي تحمل في قلبها الطاهر هموم أسرتها الأولى وأوجاعها.. وكأنّ كل عطور الحياة قد انسكبت في قلبها الطيب الذي يضطرم عاطفةً ورقةً ونبالة. وأحمد الله أن ابنتها «عائدة» قد ورثت عنها شمائلها كلها.. حتى لكأنها صورة عنها ـ وهي فعلاً

صورة لها وعنها.

* * *

استعرضت ذلك كله.. ووضع أسرتي، وماذا سيكون مصيرها بعدي.. ثم كيف تتحمل أثر هذه العاصفة التي ألقت بي بعيداً بعيداً. وبكيتُ ـ ولم أكن قد بكيتُ ـ إلا حين ودّعني «الشيخ عبد اللطيف سعود» وهو يبكي.. فبكيتُ لبكائه. ثم حين ودّعت «الشيخ سليمان الأحمد» وتلطّف فوضع عمّته على رأسي، وذرف دمعة، فبكيت حينذاك.

ذرفتُ على الحدود السورية ـ العراقية دموعاً حرّى.. لأن الغاصب المحتل قد اضطرني لأن أجلو عن بلدي، وأبتعد عن أسرتي، وأهيم عبر الآفاق، وألقي بنفسي في أحضان غد غامض مجهول.. وليس في جيبي إلا مبلغ صغير من المال لا يكفيني بضعة أسابيع.. وتذكرتُ قول «شوقي» ـ حين نفته السلطات البريطانية إلى اسبانيا:

يا ابنةَ اليمّ.. ما أبوكِ بخيلٌ ... ماله مولعاً بمنعٍ وحبسِ!
أحرامٌ على بلابلهِ الدَّوح ... حلالٌ للطيرِ من كلّ جنسِ!
وطني لو شُغِلْتُ بالخلد عنه ... نازعتني إليه في الخلد نفسي

ولملمتُ أعصابي المنهارة.. وكفكفتُ دموعي المنسابة.. وانحنيت على الأرض وقبلتُها شكراً لله الذي أنقذني من الظلم والظالمين، وأتاح لي التخلّص من براثن الاستعمار والمستعمرين. ونهضتُ، وأدرتُ ظهري للغرب حيث بلدي الذي يسيطر عليه عدوّ غاصب محتل.. ومضيتُ إلى حيث صحبي وهم جالسون في السيارة لا ينبسون، وقد سيطر عليهم جلال الموقف ورهبته.. وأثر الحزن الذي خيّم عليّ وقسوته.

وانطلقتْ بنا السيارة إلى الشّرق.. حتى وصلنا بلدة «الحصيبة» ـ أول مخفر عراقي مواجه للحدود السورية. ونضّر الله ذكرى «بدوي الجبل» الذي قال:

ليس بين العراقِ والشّام حّدٌّ ... هدَّمَ الله ما بَنَوْا من حدودِ

وقصدنا مركز مدير الناحية.. وقدمت إليه نفسي ـ بصفتي «لاجئاً سياسياً»، وأطلعته على رسالة «احسان الجابري»، إلى رئيس الوزارة العراقية، فرّحب بي.. وتلطّف «خاشع الراوي»، سكرتير مدير الناحية، فاستضافني في داره.. وهو شاعر مطبوع، حلو الديباجة، وافر الإنتاج.

وفي مساء اليوم الثاني جاءني «محمود علي جهجاه» بحقيبتي التي بقيت في دير الزور ـ كما مرَّ بنا ـ واستلمتُها سليمة.. لم تمتدّ لداخلها يد. فشكراً له، ولصاحب الكاراج في دير الزور ـ وقد نسيتُ اسمه ـ وبارك الله بهما، وبعاطفتهما النبيلة، وشعورهما القومي الشَّريف.

لقد دخلتُ العراق في الرابع من نيسان سنة ١٩٣٩ ـ نفس اليوم الذي صُرِع فيه «الملك غازي».. وقد كان لمصرعه وقع مؤلم في البلاد العربية كلّها.. نظراً لمواقفه الشجاعة في وجه المستعمرين الإنكليز الذين كانوا يحقدون عليه، ويتآمرون مع عملائهم وأتباعهم ضده. وكانت علائم التأثّر والحزن باديةً على وجوه الناس جميعاً.

خلال الأيام الثلاثة التي قضيتها في «الحصيبية».. كانت تترى تتوالى وفود القرى العراقية، والقرى السورية المجاورة، للتّعزية بوفاة الملك.. فتُلقَى الخطب، وترتفع التأوّهات والحسرات، والأناشيد المروّعة الحزينة. وكنتُ أشترك مع الخطباء، وألقي كلمات تعزية وتوجّع.. أختتمها بحملة عنيفة على فرنسا، وسياستها العدوانية الهمجية الشّرسة ضد سورية والسوريين. وقد وُجِد من نقل إلى المستشار الفرنسي، في «أبو كمال»، نبأ التجائي إلى العراق، والخطب النّارية التي ألقيها ضد فرنسا وأعمالها الإجراميّة، وسياستها الحاقدة اللئيمة.

في اليوم الثالث لوجودي في مركز ناحية «الحصيبية» العراقية، جاء المستشار الفرنسي من «أبو كمال» ليعزّي بوفاة «الملك غازي». وقبل أن ينصرف قدَّم مذكّرة رسمية، لمدير الناحية العراقي، يطلب تسليمي له لأني ملاحق قضائياً من السلطات العسكرية، والقضاء العسكري.

ورفض مدير الناحية قبول المذكرة والاستجابة لطلب المستشار، وقال له:

إنّ القوانين الدولية تمنع تسليم اللاجئين السياسيين.

وكان المستشار قد علم من مخابراته أن «محمود علي جهجاه».. هو الذي هرّبني وأدخلني العراق، فاعتقله فترة من الزمن.. إلى أن أُطلق سراحه بعد مراجعات مستمرة بشأنه، وبعد أن دافع عنه محاموه. بحجَة أنه صاحب كاراج وفندق.. يستقبل الناس ويسفّرهم، دون أن يعرف شيئاً عنهم.

ولم أر «محمود جهجاه» بعد ذلك. إلا يوم عرس ابنتي «أمل».. وقد تلطّف وزارنا حينذاك.. وكان يصطاف في بلدة «الدريكيش» الشهيرة بمياهها المعدنية. وألححت عليه كي يبقى معنا بصافيتا.. فاعتذر ـ لأنه مضطر للبقاء في «الدريكيش» قرب الماء. بناءً على نصح الأطباء. لكنه ظل يتردد علينا، بين وقت وآخر، فأسرّ بلقائه أيما سرور، واغتبط أشد اغتباط. لقد كان انساناً نبيلاً، وذا خلق كريم سَمْح، وشعور وطني لاهب. وإن له عندي يداً بيضاء لا تنسى.

وقد تعرفت بنجله الكريم السيد «عبد الحميد»، وأسرته الكريمة. وسرّني أنه يحمل شعور أبيه، ونبل عاطفته ومروءته. هو وشقيقاه «محمد سعيد»، و«عبد الخالق»، وأبناؤهم الذين يسيرون على غرار آبائهم.

* * *

صباح اليوم الرابع أرسلني مدير ناحية «الحصيبة»، برفقة شرطي، إلى مدينة «عانة» ـ مركز مدير المنطقة.

و «عانة».. لها ذكر كثير في كتب التاريخ. وقد نشأ فيها عدد من المتصوفين، والشعراء المرموقين ـ منهم «منتجب الدين العاني».. الذي لا تستطيع التمييز بين شعره وشعر «الشريف الرضي».. من حيث الجودة، ونصاعة الديباجة، وقوة السبك.. إلا أن عنده شعر مناسبات أكثر مما عند «الشريف الرضي».. الذي عنده من الغلوّ أكثر مما عند «المنتجب».

و«عانة».. تمتدّ بين نهر الفرات، وسلسلة هضاب مرتفعة. وطولها حينذاك كان ثلاثة عشر كيلومتراً، وعرضها في بعض الأماكن لا يتجاوز عشرات الأمتار!

وقد أطّلعتُ على رسالة أرسلها «فؤاد الشايب»، وكان مدرِّساً في «عانة»، إلى

صديقه «الدكتور يوسف سمارة»، وكان أيضاً مدرِّساً في مدينة البصرة، يصف له مدينة «عانة» ويقول في وصفها:

إنَّ طولها ثلاثة عشر كيلومتراً.. وعرضها خمسة سنتمترات! وهو نفس الوصف الذي وصفته لمدينة «بونتادي لاستي» الشهير، باورغواي، وأذكر أني نظمت قصيدةً حينذاك في وصف «عانة» جاء فيها:

شــوارعُ كالأزقّــةِ ضيّقــاتٌ «مزفّتــةٌ» ــ ولكــنْ بــالوحولِ!

وفي الطريق إلى «عانة».. مرَّ بنا موكب «المتصرف» وهو ذاهب إلى «الحصيبة» لتفقد منطقة الحدود ـ إثر الاضطرابات العنيفة التي نشبت في كل أنحاء العراق.. عقب مصرع «الملك غازي». وفي الموصل قتل القنصل البريطاني ــ لأن الشعب العراقي كان يؤمن بأن الإنكليز وراء مصرع الملك.. وربما كان في ذلك الكثير من الصحة.

واستضافني في «عانة» أحد الوجهاء في بيته ـ وكنتُ تعرَّفت عليه في «الحصيبة»، وصحبني إلى مركز المنطقة. وفي صباح اليوم الثاني ذهبتُ وإياه، وبرفقتنا الشرطي، إلى مكتب مدير المنطقة ـ حيث كان «المتصرف» الذي استقبلني فور وصولي، وكان قد عاد من جولته في منطقة الحدود، وقد أخبره مدير ناحية «الحصيبة» عني. ولمّا أطلع على رسالة «احسان الجابري» لرئيس الوزارة اتصل به هاتفياً، وقرأ له نصّ الرسالة الموجهة إليه. وبعد انتهاء المخابرة قال لي «المتصرف»:

رئيس الوزارة يرحب بك، ويقول لك: إنّ البلاد بلادك تتنقل بها كما تشاء.. وأنت الآن تذهب حيث تريد.. وهو ينتظر زيارتك له عندما تصل إلى بغداد. فشكرته، وطلبتُ منه أن يصطحبني معه إلى مركز «المتصرفية»، ومنها أذهب إلى بغداد. فوافق، وطلب مني الاستعداد للسفر.

ودّعتُ مضيفي شاكراً، وسرت في موكب «المتصرف» ـ وقد بدأتْ تنتابني بوادر حمّى. وكان الموكب مؤلفاً من بضع سيارات، توقفتْ في أرض موحلة بالطريق ـ نتيجة انهمار أمطار غزيرة.

وكان إلى جانب «المتصرف» رجل طويل القامة، وسيم الوجه، قيل لي إنه ألماني. وأخبرتهما عن اجتياح القوات الإيطالية لـ «البانيا» ـ وكنتُ قد سمعتُ النبأ من الإذاعة في الصباح بمنزل مضيفي. ولما تُرجِم النبأ للألماني.. لم تبدُ عليه أية دهشة، كما بدت على المتصرف، وقال بهدوء: هذا متفق عليه بين ألمانيا وايطاليا.

في بلدة «حديثة» زادت عليَّ الحمّى.. فطلبتُ من «المتصرف» أن يعفيني من متابعة السفر ـ لأني لا أستطيع. وشكرتُ عاطفته الكريمة، وشعوره النبيل. وتلطف فأوصى بي مدير الناحية الذي استضافني تلك الليلة في منزله. ولكني لم أستطع النوم مطلقاً ـ نظراً لارتفاع حرارتي، ولما رافقها من ألم. وأذكر أني قرأتُ كتاب «من بعيد» للدكتور «طه حسين» تلك الليلة ـ مما كان له بعض التأثير في تخفيف قسوة الألم، وشدة الحرارة.

في الصباح.. أخبرني مدير الناحية أنه مضطرٌ للسفر إلى بغداد ـ لأنه تلقى نبأ وفاة شقيقه هاتفياً.. وعرض عليّ أن يصطحبني معه إذا كنت راغباً بالسفر إلى العاصمة. فعزيته بوفاة شقيقه وشكرته، وأعربتُ عن رغبتي الحارة بالسفر معه.

حينما وصلنا بغداد.. اجتزنا الجسر الفاصل بين ناحيتي «الكرخ» و «الرُّصافة» اللتين يفصل بينهما نهر «دجلة».. وبدا لي أن هناك تشدُّداً كبيراً في مراقبة المارة ـ إثر الأحداث الرهيبة التي وقعت بعد مصرع الملك. فأبرز مدير الناحية هويته لرجال الأمن، وقال عني إني ذاهب معه.. فلم يعترضوا سبيلي. وبعد أن قطعت الجسر الضخم، وأصبحنا في ناحية «الرُّصافة»، نزل مدير الناحية من سيارته وأوقف عربة خيل، وطلب من سائقها أن يوصلني إلى «فندق الرافدين»، وأعطاه الأجر المطلوب، وودّعني ومضى. جزاه الله خيراً.

في الطريق.. كنت أتطلع من العربة يمنةً ويسرة، وهي تسير سيراً وئيداً في شارع «الرشيد»، المزدحم بالسيارات وعربات الخيل والناس.

آه.. كم سمعتُ عن بغداد، وكم قرأت عنها.. وكم كنت متلهفاً لرؤيتها والتنقل

بين معالمها.. وها أنا الآن فيها، وهذه هي! وكتطلّع المتلهف المشوق.. كنتُ أجيل بصري هنا وهناك.. والعربة تجري ـ وقلبي أكثر جرياً منها! ولمحتُ فندقاً كُتب عليه «سوريا».. فاستوقفت السائق ونزلت من العربة مسرعاً وأنا أحمل حقيبتي في يدي، والسائق يصيح لي: «ياواشْ واشْ»: فندق «الرافدين» « بَعْدُ بَعْدُ.. كُبَل كَبَل».. فلم أُصغ له ـ إذ حسبتُ أني سألتقي بناس سوريين يسهلون لي أموري في بغداد.. وأنا اللاجيء الغريب لا أعرف أحداً، وليس في ذاكرتي اسم أحد. وهل بإمكاني الاعتماد على رئيس الوزارة ومراجعته في أموري كلها؟ أما مواطنون سوريون.. فربما.

وقطعتُ الشارع بسرعة إلى الجانب الآخر.. وأنا فرح مشدوه. ولما صرتُ أمام الفندق صُعقتُ.. وأنا أرى اسمه «استوريا» ــ وليس سوريا! ولم يكن ثمَّة مندوحة من الدخول.. فدخلت، وحجزتُ لنفسي غرفةً فيه. وفور دخولي الغرفة نزعتُ ملابسي، ودخلت الحمام، واغتسلت، ثم استلقيتُ على السرير. ورغم خيبتي بالنسبة للفندق.. فقد كنتُ أشعر بسعادة وغبطة لا مثيل لهما ـ أني اجتزتُ المصاعب التي كانت تترقبني، والمتاعب التي تعترضني.. وها أنا الآن في مكان أمين.. لا تطالني أيدي الفرنسيين، ولا سلطة الاقطاعيين.. وناديت الخادم ليجلب لي فنجان شاي.

وبينما كنت أدغدغ آمالي وأحلامي.. وأستقرىء من النافذة خطوط المستقبل وأستعرضها.. إذا بالباب يُطرَق، ويدخل كاتب الفندق ليطلب مني جواز سفري كي يطلع عليه رجال الأمن. فقلتُ له: ليس معي الآن، فقال: لا نستطيع أن نقبلك عندنا ما لم تأتنا به ــ لأن دوائر الأمن لا تسمح لنا بقبول أي شخص.. مالم نطلع على هويته ونسجلها عندنا، ثم نسلمها لمسؤولي الأمن كي يطلّعوا عليها.

وأسقط في يدي، واضطربتُ أيَّما اضطراب. فالعراق يقف على بركان بمناسبة مصرع «الملك غازي»، والشعب العراقي، بأكثريته الساحقة يعتقد أنه اغتيل اغتيالاً وأن الحادث كان مدبَّراً ــ لأن «غازي» كان يكره الانكليز ــ وقد صفع السَّفير البريطاني على وجهه إبان ثورة الآشوريين. ووقعت اثر وفاته أحداث

رهيبة.. وعمّت المظاهراتُ سائرُ أنحاء العراق.. وهوجمتْ سفارة بريطانيا في بغداد.. وقُتل قنصلها في الموصل - كما مرّ بنا. وازدادت الاضطرابات واشتدت، وتفاقمت وعمّتْ.. فكان من البداهة أن يراقب رجال الأمن الآتين والذاهبين بدقة.. وأن يبحثوا عن الغرباء ويراقبوهم، ويحذَوا من نشاطاتهم وتنقّلاتهم وتحركاتهم.

وماذا أعمل؟ هل أعترف بواقعي.. فيتناولني رجال الأمن، ويحتجزونني، وأبقى رهن الاحتجاز ـ وربما السجن.. حتى يمكن الاتصال برئيس الوزارة فيأمر باطلاق سراحي.. ولكن بعد أن أكون قد أمضيت في السجن فترة.. لا أعرف كم تطول؟ وهل إذا سلّمتُ رجال الأمن رسالة «الجابري» لرئيس الوزارة يعيدونها إليّ.. إما يحتفظون بها ليوصلوها إليه؟ وهل هناك ضامن لعدم ضياعها؟ وإذا فُقِدتْ مني الرسالة ـ وهي مستندي الوحيد.. فماذا سيكون مصيري في العراق؟ وهل ثمّة من يعتقد بعد ذلك أني «لاجىء سياسي»؟.

هذه الأسئلة مجتمعة.. دارتْ في مخيلتي.. وموظف الفندق أمامي يكرّر قوله لي:

من المحال بقاؤك في الفندق ما لم تأتِ بجواز سفرك. وإلا فإننا سنخبر الشرطة عنك.. ولسنا مسؤولين عما يحدث لك. فقلتُ له: إني ذاهب إلى محطة القطار لجلب جواز سفري من دائرة الأمن.. وسأُبقي حقيبتي عندكم حتى أعود. وارتديتُ ثيابي بسرعة. ورفضت شرب قدح الشاي الذي كان قد أُعِدّ لي، وخرجتُ من الفندق، وأنا لا أعرف أين أتجه.. ولا أين أسير!

كانت الشمس قد غابت، وبدتْ طلائع الليل تخيّم.. والسماء تمطر مطراً خفيفاً.. وأنا غريب عن البلد لا أعرفُ أحداً فيه. ومرةً أخرى بكيت.. وتطلعتُ إلى السماء.. وتوجهت إلى ربي بالنداء، وخاطبته ـ وكأني أخاطب صديقاً، وأعاتب حبيباً، وقلت:

يا ربي، يا إلهي، يا خالقي، يا رازقي: أما آن لك أن تريحني.. أو ترتاح مني؟

وانهمرت الدموع من عينيَّ بغزارة لم أعرفها من قبل! وهمت على وجهي ـ وأنا لا أعرف كيف أسير، ولا أين أسير! واصطدمتُ كثيراً بالناس.. وبالأعمدة

المثبتة على جانبي «شارع الرشيد» لكي تحمي السّقوف المبنيّة فوقها، وتحمي الرصيف تحتها من المطر والحر.. وهي طريقة ما أجملها وأفضلها.

وبينما أنا أسير.. تذكرتُ أننا نرسل جريدة «صوت الحق» لشخص معتبر.. تربطه بأسرتنا صلة قديمة، واسمه «السيد طه العاني». وشرعتُ وأنا أمشي، وأصطدم بالناس وبالأعمدة، أتذكر عنوانه.. وفجأة قفز إلى ذهني اسم «شارع القوارير».. وأننا نرسل الجريدة إليه على هذا العنوان. وبدأتُ أسأل المارّة عن هذا الشارع.. فلا يقول لي أحد أنه سمع بهذا الاسم. وأخيراً.. قال لي شخص: لعلك تقصد «الصّفافير»؟ قلتُ بلهفة لا مثيل لها: نعم. قال هذا مدخله. والغريب العجيب أني كنتُ أمام المدخل! وقد علمتُ بعدئذ أن الصفافير هو حيٌ مؤلف من شوارع عديدة ــ شأنه بذلك شأن «الحريقة» و«المزرعة» أو «الميدان» بدمشق... وتعرف تلك المنطقة الواسعة باسم «الصفافير»!

وسألتُ أول واحد بالسوق الذي دخلته عن السيد «طه العاني».. وهل يعرفه فقال: لا.. لا أعرفه. ولكن ذلك الشخص الذي يغلق محله من «عانه».. ولعله يعرفه. فذهبتُ إليه ـ وكان باب محله ذا شقين.. وقد أغلق الشق الأول، وشرع باغلاق الثاني لينصرف. فحيّيته، وسألته إذا كان يعرف «السيد طه العاني».. فنظر إليَّ نظرةً فاحصةً عميقة، وقال لي: من أين أنت؟ قلتُ من سورية، وبعد أسئلة وأجوبة.. قال لي: وصلتَ، وأهلاً وسهلاً. وأشهد بأن تلك اللحظة كانت من أسعد اللحظات التي مرّت عليَّ في حياتي.

كان ذلك الشخص اسمه «يونس العاني»، وهو صاحب «تشايخانه» ـ أي محل لصنع الشاي، وتوزيعها على التجار المجاورين، بارك الله به، وجزاه خيراً.

وليثق القارىء بأني لو تأخرتُ دقيقة واحدة ـ أو اثنتين على الأكثر.. أو أني دخلتُ «الصّفافير» من أحد المنافذ الأخرى.. وهي عشرات وعشرات.. لما كنتُ عثرتُ مطلقاً على ذلك الانسان الطيب.. ولا كنتُ عرفتُ كيف أسير، ولا كيف أستقر. ولكنَّ القدر يتدخّل في اللحظة الأخيرة وينقذني، وهذا ما حصل لي، وحصل كثيراً معي.. كما سيجيء.

فشكراً لك يا ربي - ثم شكراً لك يا ربي.

ورويتُ لـ «يونس العاني» قصّتي وهو يهيء لي كأساً من الشاي لم أذق في حياتي ألذَّ منه ـ نظراً لحاجتي الماسّة إليه.. ولشعوري العميق بأني قد وصلتُ فعلاً إلى الاستقرار.

وذهب «يونس» معي إلى الفندق، وقال لصاحبه إني تاجر، وإنه مسافر معي إلى مدينة البصرة، ودفع له آجار الغرفة، وأخذنا الحقيبة وخرجنا.. وركبنا زورقاً عبر بنا نهر دجلة إلى الشاطىء الثاني «الكرخ» حتى لا نمر على الجسر فتُطلب مني هويتي، وأقع بنفس المشكلة التي كدت أقع فيها.. ومشينا بممرات وأزقة عديدة حتى وصلنا إلى بيت «السيد طه».

شيخ وقور.. تطفح المهابة من وجهه - مثلما تطفح الطيبة، وسيماء التَقَى. وكان قد فرغ من صلاة العشاء.. ولم يكن قد رفع سجادة الصلاة بعد. ولما قدّمتُ له نفسي.. رحب بي كثيراً، وأنزلني منزلاً رحباً بداره العامرة ثلاثة أشهر.. وأنا أشعر كأني بين أهلي وأفراد أسرتي.. وقد أنست بأولاده وأنسوا بي.. حتى صرتُ صديقاً لهم، وصاروا أصدقاء لي. ومن داره العامرة تعرفتُ بأقربائه «العانيين».. فأصبحت وكأني بين أبناء عمومتي وخؤولتي. بارك الله بهم جميعاً ـ فليس كمثل مروءتهم مروءة، ولا مثل عاطفتهم عاطفة. وكم أشعر بالسعادة حينما كان يزورني أحدهم في سورية، أو ألتقي به في أي مكان آخر وان باب بيتي مفتوح لهم جميعاً ـ مثل قلبي ـ وإلى الأبد. وأنا لا أتحدَّث بالسياسة. وإنما أتحدَّث عما جرى معي سنة ١٩٣٩.

واليد البيضاءَ.. لا أنكرُها سوَّد الله وجوهَ المنكرينْ

بعد بضعة أيام من وصولي بغداد.. طلبتُ مقابلة رئيس الوزارة لأسلِّمه رسالة «الجابري». فاستقبلني ببشاشة ورحّب بي، وسألني عن الفترة التي سأقضيها في العراق.. فقلتُ له: إلى أن تستقيم الأمور في سورية وتستقر. فقال: نحن نعمل باستمرار من أجل ذلك.. وقريباً سيعود الحكم الوطني، ويعود الوطنيون لممارسة صلاحياتهم كالمعتاد. فشكرتُ له جهوده.. كما شكرتُ حسن استقباله واهتمامه

بأمري. وتناول الهاتف، وأوعز إلى مدير الشرطة أن يعطيني بطاقة مفتوحة. فودّعته شاكراً، وذهبتُ إلى مديرية الشرطة، فزودتني ببطاقة «لاجيء سياسي» غير محدَّدة، ويطلقون عليها في العراق: «دفتر اقامة». وأكدوا لي حينذاك.. أن الفرنسيين سيخرجون قريباً من البلاد.

* * *

بعد أيام، من وصولي إلى بغداد، بدأتُ أشعر بألم حاد في بطني - نتيجة ذلك الهبوط المخيف من أعلى البناء في مدينة دير الزور.. ولم يعد بامكاني تحمل ذلك الألم العنيف الحادّ. وكنتُ تلك الفترة قد تعرّفتُ على عيادة «الدكتور أمين رويحة»، وكان لاجئاً سياسياً مثلي، ومن المجاهدين الأوائل في سورية. وكانت عيادته كخليّة نحل - لكثرة الزائرين والمستشفين. وحينما زرتُه وعرضتُ عليه وضعي الصحي.. فحصني فحصاً دقيقاً، وقال لي: إنك بحاجة إلى عملية جراحية. وتوسط لي مع أحد الجراحين في «مستشفى الرشيد»، وقد أجرى لي العملية دون أن يتقاضى شيئاً، بفضل توسط «الدكتور رويحة» الذي حضر العملية. كما حضرتها «الدكتورة ميليا بشور» - وكنتُ زرتُها قبل ذلك في عيادتها الخاصة.. وهي من كرام النساء العربيات. وما أحسب أنّ امرأة دخلت العراق، وخرجتْ منه.. وهي أنضر سمعة وأكرم اسماً، وأنقى شمائل منها - وهيهات. وسيأتي ذكرها فيما بعد.

وأذكر أنه قبل أن يأخذ التخدير مفعوله القوي بي.. قال لي الدكتور «رويحة»: إنك بحاجة إلى عملية ثانية يمكن إرجاؤها.. ولكن الأفضل اجراؤها الآن.. وقد ينتهي مفعول التخدير قبل إتمام العمليتين معاً.. فهل تستطيع الاحتمال؟ قلتُ: بإذن الله وتوفيقه، سأستطيع.

ومن حسن الحظ.. فإني لم أشعر بالألم إلا بعد نقلي إلى السرير - وقد أجريتْ لي العمليتان معاً. وأفردوا لي غرفة خاصة بالمستشفى الحكومي - وذلك بفضل الدكتورة «ميليا» التي تعمل فيه. وكانت تتفقّدني باستمرار، وتوصي الممرضات بي. وتلطّف أحد أقرباء «السيد طه» فظل يبيت معي في غرفتي بالمستشفى طوال

المدة التي استمرت أسبوعاً.. وقد خرجتُ منه معافى بفضل الله.. وفضل عناية الدكتورة «ميليا»، و«الدكتور رويحة»، والطبيب المختص ـ الذي زرتُه في منزله برفقة «الدكتورة ميليا» معرباً له عن جزيل شكري وامتناني.

* * *

من عادتي.. أني لا أعرف الانزواء ولا الابتعاد عن الناس. فبعد أن عُوفيتُ شرعتُ أواصل اجتماعاتي واتصالاتي بمن أستطيع الاتصال والاجتماع بهم. وقد تعرّفتُ بعدد من الأصدقاء.. كان لهم أثر في مجرى حياتي ـ إبّان لجوئي القسري إلى العراق. ومن الأصدقاء الذين عرفتُهم، وتوطّدت صلتي بهم: السيد عبد الوهاب الصافي النجفي، وكان قاضي الشرع الجعفري في بغداد، وهو يجمع إلى غزارة العلم: أنس المعشر، وسلاسة الحديث، وخفّة الروح. وله موقف كريم مني.. كان له الأثر الأكبر باستمرار حياتي ـ وسيجيء الحديث عنه فيما بعد.

ومنهم السيد «محمد رضا شرف الدين» ـ نجل العلامة الكبيرة الشهير السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي الذي مر ذكره بنا. وكان «السيد محمد رضا» سكرتير السيد «محمد الصّدر» رئيس مجلس الأعيان ورئيس مجلس الوصاية على العرش في غياب الوصي «الأمير عبد الاله». وكان للسيد «الصدر» أيادٍ بيضاء عندي، ومواقف كريمة ـ كما سيأتي.

ومنهم «السيد صدر الدين»، شقيق السيد «محمد رضا»، وصاحب جريدة «الساعة» التي كانت من أكبر الجرائد العراقية، وأكثرها انتشاراً، ثم أُغلقت جريدتُه وسُحِبت منه الجنسية العراقية لاشتراكه بالحملات الضارية ضد «معاهدة بورتسموث» التي عقدها «صالح جبر» مع بريطانيا، وأصدر «صدر الدين كُتَيِّباً» ضدها كانت له ضجّة هائلة في العراق، وعنوانه «سحابة بورتسموث»، وهو من كبار الكتّاب العرب، وتتميّز كتابته بأسلوب أنيق شائق.

ومن الأصدقاء الذين نعمتُ بصحبتهم كثيراً: «صبيح الغافقي» الذي كان ضابطاً في الجيش العراقي، واستقال لينتسب إلى الجامعة، ثم عمل في الصحافة.. فصار من ألمع الصحفيين بالعراق. وقد قرأتُ في الصحف أخيراً نبأ وفاته.

فحزنتُ كثيراً وتألمت. كما حزنتُ وتألمت لوفاة الأصدقاء. «محمد علي عكاري» من طرابلس، و«محمد قره علي» من جبل عامل بلبنان. وآخر صديق بلغني نبأ وفاته وحزنت وتألمت لفقده «العميد مصطفى النابلسي» معاون وزير الادارة المحليّة، يرحمه الله وبقية الأصدقاء الأوفياء. وإن حالي مع أصدقائي الراحلين تشبه حال الشاعر «شفيق معلوف»:

فصرتُ متى يمتْ خِلّ وفيّ   أحِسّ كأنّما بعضي يموتُ

ومن الشخصيات الكريمة التي عرفتها، وتوطّدت صلتي بها: «خليل عزمي»، وهو متصرف سابق، وكان آنذاك رئيس الدوائر العقارية، وصهره «ابراهيم حمدي» سكرتير أمانة العاصمة، «بلدية بغداد» ـ وكان ذا نفوذ كبير فيها. والسيد «عبد الجبّار العاني»، وهو وجيه كريم وذو تقىً ودين ـ وابنه أصبح فيما بعد رئيس رابطة الطلاب في العراق، وقد زارنا مراراً في صافيتا ـ وكنتُ أتردد دائماً على محل والده التجاري في أحد شوارع «الصفافير». والسيد «مصطفى العاني» وكان رئيس الدوائر العقارية في متصرفيّة «العمارة» ـ وهو أخو «السيد طه»، ومثله بالتقى والصّلاح. والشيخ «محمد بهجة الأثري» ـ وكان مفتش اللغة العربية في وزارة المعارف، ثم أصبح رئيس المجمع العلمي بالعراق. والشيخ «محمد رضا الشّبيبي» ـ وكان في بعض الحكومات العراقية وزيراً للمعارف. والكاتب الكبير «جعفر الخليلي» الذي كان يصدر مجلة «الهدف» في «النجف»، ثم نقل مكتبه إلى بغداد. والسيد «عبد الرزاق الحسيني» المؤرخ المعروف، والأديب «عبد المجيد لطفي»، والسيد «طه الراوي» وكان يصدر صحيفة في البصرة وكنتُ أكتب فيها باستمرار، حينما عُيّنتُ مدرساً هناك ـ كما سيجيء. وكثيرون غيرهم.. لا مجال لاستعراض أسمائهم كلها.

وفي تلك الأثناء.. كان يتردد على بغداد «خاشع الراوي» الذي حللتُ ضيفاً عليه في «الحصيبة» ـ كما مرّ بنا.. فكنا نلتقي دائماً، وقلما أن نفترق. وقد عرفني على عمّه «الشيخ أحمد الراوي» ـ وهو من أبرز رجال الدين في العراق. شيخٌ جليلٌ مهيب، تطفح من محيّاه سيماء التقى والوقار، وكان يطلب مني دائماً

أن أزوره، وكنتُ أفعل. ولقد سمعته يدافع عن السلطان العثماني «عبد الحميد»، وينفي عنه تهم القتل والتعذيب.. ويُثني عليه كثيراً، ويؤكد أن اليهود هم الذين لفّقوا عليه تلك التهم ـ لأنه رفض السماح لهم بإقامة دولة صهيونية في فلسطين.. ثم تآمروا عليه، مع بعض صنائعهم، وأقالوه من عرشه. وقد قرأتُ أخيراً، مايثبتُ قول ذلك الشيخ الجليل، ويؤكده.

وكنت أزور «الدكتور محمد مهدي البصير»، الأديب الكبير المعروف، وكانوا يلقبونه بـ «طه حسين» العراق ـ لأنه ضرير مثله، وخريج جامعة «السوربون» مثله، ولأنه تزوج امرأة فرنسية كما تزوج عميد الأدب العربي. وقد التقيته أول مرة في مكتب الدكتور «فاضل الجمالي» مدير عام وزارة المعارف حينذاك، والذي أصبح رئيس وزارة العراق فيما بعد. وصرتُ كلما التقيتهُ، بعد ذلك عرفني من صوتي. كما كنتُ ألتقي الحاج «أمين الحسيني» مفتي فلسطين ـ وكان له دورٌ كبيرٌ في الأحداث التي جرت في العراق بعد ذاك. وألتقي بالمجاهد الكبير «أكرم زعيتر»، وكان يعمل في مكتب الدكتور «فاضل الجمالي» بوزارة المعارف، وله عندي يد بيضاء كلما ذكرتها شكرتها.. وقد قُدِّر لي أن ألتقيه كثيراً بعد ذلك.. وكنتُ كلّما اجتمعتُ به ازددت له حبّاً وتقديراً.

وفي تلك الأثناء التجأتْ إلى العراق شخصيات سورية مرموقة ـ منهم «سعد الله الجابري»، و«جميل مردم»، و«فخري البارودي»، و«بدوي الجبل»، و«لطفي الحفّار»، و«عادل العظمة»، وغيرهم ـ وذلك بعد اغتيال «الدكتور عبد الرحمن شهبندر» في دمشق. وكنتُ أزورهم من وقت لآخر في «فندق الرافدين».

* * *

وليالي بغداد.. من آنس الليالي، وأجملها وأحلاها. فما أن تتوارى الشمس في فصل الصيف.. حتى يتوارى معها الحرُّ اللاهب، ويصبح الجو منعشاً لطيفاً.. تغمره برودة ناعمة أنيسة حلوة. وأكثر أهالي بغداد ينامون على أسطحة المنازل، أو شرفاتها في ليالي الصيف. وليس ثمة ما هو أمتع من ليالي بغداد.. ولطافتها ورقّتها وعذوبتها ونعومتها.

وكنا نقضي أكثر الأمسيات على شاطيء دجلة ـ حيث تمتد المقاهي مسافة كيلو مترات على جانبي النهر.. وهي مكتظَة بالناس الذين يتوافدون ليسمروا ويأكلوا «السَّمك المزقوف»الذي يُجمع كل من ذاقه.. على أنه لا مثيل له في العالم كله ـ من حيث النكهة واللذة وطريقة الشواء.

وللعراقيين أسلوبهم الخاص ـ بالمباسطة والمحادثة والمعاملة. وهم طيبون جداً، وأسخياء جداً. ولكن المرء يظل حذراً ـ عند معاشرتهم والتعامل معهم ـ نظراً لدقة حساسيتهم، وسرعة انفعالهم.. ولأنَّ أقل شيء يغضبهم، ويثير مشاعرهم. ولكن.. إذا عرف المرء كيف يتجنَب إغضابهم وإثارتهم.. فإنه يجد بهم ناساً لا أكرم ولا أنبل، ولا أسخى. ولقد نعمتُ بصداقة أصدقاء منهم.. لعلهم من أطيب من عرفتُ وعاشرتُ وخبرت في تلك السنين.

وكانت شوارع بغداد تُغلَق يوم السبت فقط ـ لأن التجارة الرئيسية كانت بأيدي اليهود الذين يحرِّمون العمل في ذلك اليوم؟ فترى المتاجر مفتوحة كلها يوم الجمعة، ومغلقةً يوم السبت ـ حتى أنّ الغلاة والمتطرفين من الصهاينة.. يحرَمون ركوب السيارات في يومهم ذاك!

ولقد فوجئتُ وصُعِقتُ، حينما رأيتُ ذلك.. وكتبتُ مقالات عن رحلتي في جريدة «صوت الحق» ـ التي حُذف اسمي من رئاسة تحريرها، بعد أن لوحقتُ من قبل السلطات الفرنسية، وكانت مقالاتي بامضاء «جوّابة». وذكرتُ في احدى المقالات موضوع اغلاق يوم السبت فقط في بغداد.. فمُنِعتْ الجريدة من دخول العراق ـ لأنهم اعتبروا ذلك نوعاً من التشهير.. وإن كانَ واقعاً وحقيقةً!

لقد كان تأثير الصهاينة، ومن ورائهم البريطانيون، قوياً وعنيفاً. والشعب العراقي النبيل مغلوبٌ على أمره ـ لأنّ حكامه كانوا دون المستوى القومي.. ولأن السيطرة البريطانية كانت من اللؤم والشراسة فوق ما يتصوره عقل، أو تحاول تصويره يراعة!

* * *

بعد ثلاثة أشهر من اقامتي في بيت «السيد طه العاني».. استأذنتُ منه

وانتقلتُ إلى الفندق. وقد تشبث بي كثيراً لأبقى في منزله طوال اقامتي بالعراق.. فشكرته واعتذرتُ ـ لأني خجلتُ أن أبقى عالةً عليه وعلى ذويه أكثر من تلك الفترة التي بقيتُها. وأشهد أنه، وشقيقه السيد مصطفى، من كرام الناس طيباً وتقىً وصلاحاً.

وبعد شهرين ونيِّف، من انتقالي إلى الفندق، نفد آخر درهم معي. وكنت آمل أن أعمل مع صديق، في مؤسسة صحفية ننشئها، تقوم باودي، وترّد عني غائلة الحاجة، ولكن ذلك الأمل تبخّر.. والسعي إليه لم ينجح!

وسُدَّت أمامي المنافذ والسُبُل.. ولم يعد ثمة متسعٌ لرجاء، أو ترقب غيث!

وكانت الحرب العالمية الثانية قد بدأت.. والعراق ـ الذي يبسط الانكليز سلطانهم الجائر عليه.. يتمخض عن أحداث خطيرة ورهيبة.. ولم يعد ثمَّة أمل بعودة الحرية والاستقلال إلى سورية ـ كما كنا نأمل ونرجو. وكان رئيس الوزارة العراقية قد قال ـ كما مرّ بنا ـ إنَّ الأوضاع في سورية سوف تتغير قريباً، ويعود الفرنسيون عن موقفهم الطائش. ولكنّ هذا لم يحدث ـ بل ازداد الفرنسيون شراسةً وتعنتاً ووحشية!

وإذن.. فلا بدَّ من بقائي لاجئاً سياسياً فترة طويلة من الزمن. وكنت بأمسّ الحاجة.. ومن المحال أن ألجأ إلى أحد، أو أطلب العون من أحد.. وقد عشت أبِيَّ النفس عزيزها وسأظلّ.. بإذنه تعالى وتوفيقه.

وجاء صباح يوم.. وأنا لا أستطيع الجلوس في مقهى ـ لأني لا أستطيع دفع ثمن فنجان قهوة.. وقد مرّ عليَّ يومان لم أتناول فيهما طعاماً.. وأنا مدين للفندق بآجار أسبوعين ونيِّف.. وليس معي فلس واحد.

وتطلعت عبر النافذة إلى الأفق البعيد.. فلم أجد بصيص أمل!! واستعرضتُ أوضاعي كلها.. فلم أجد منفذاً لرجاء ـ يشجعني على استمرار البقاء...! واسودّت الحياة في وجهي، وتملكني اليأس.. فقرّرتُ أن أضع حدّاً لحياتي وأستريح..

والواقع أني بعد أن اتخذتُ قراري هذا.. شعرتُ براحة تامّة ـ وكأنَّ عبئاً ثقيلاً قد انزاح عن عاتقي.. وأنَّ ظلمة دامسة كانت تكتنفني قد انقشعت عني.. وحلّ

محلها ضوء غبطة، وانشراح وأنس.

إني انسان متدّين.. وأعرف أن الانتحار منهيٌ عنه، ولكني مؤمن بربٍ كريم، رؤوف رحيم.. وأني ألجأ إليه من حياة لم أتحملها، وشقاء لم أعد أطيقه، وحرمان قد يضطرني إلى أن أنحني لغير الله - وهو مالا أستطيعه ولا أستسيغه.. وقد تمرّ على الانسان ظروف قاسية تضطره لاتخاذ قرارات أكثر عنفاً وقسوة..!

وكتبت رسائل عديدة لأهلي وأصدقائي وواحدةً لصاحب الفندق أعتذر منه، وأوصي له بما لدّي من أمتعة ـ مقابل ماله عليّ من دين، وما أسببه له من إزعاج. وقد جمعتُ أمتعتي كلها في الحقيبة - وكأني عازمٌ على سفر!

وبكيتُ ـ لا حزناً على الحياة التي سأفارقها.. بل لما سأسببه لأهلي وأصدقائي من ألم وأسى.

وهيأت «شفرة حلاقة».. أقطع بها شريان يدي. وبنفس اللّحظة التي وضعتُ فيها الشفرة بين أناملي اليُمنى، وعريتُ يدي اليُسرى، وهممتُ.. وإذا بالباب يُقرع بعنف، فتوقفت. وعاد الطارق يطرق بشدة، ويصيح: افتح افتح: أنا «عبد الوهاب».

فقمتُ، وأخفيتُ الرسائل التي كتبتها، وجففتُ عيني من أثر الدموع، وفتحتُ له الباب.. وقد ارتسمت على وجهه علائم الاضطراب والقلق ـ لأنه أمضى بضع دقائق واقفاً أمام الباب قبل أن أفتح له. وكنتُ أعرف أنه في مدينة «النّجف»، وأنه سافر إليها لقضاء اجازته السنوية فيها. وهو صديقي، وكان «قاضي الشرع» في بغداد، وكنّا نلتقي دائماً.

وقبل أن يكلمني جلس على سريري الذي كنتُ قد رتبته ـ وكأن أحداً لم ينم ...يه. ونظر في جوانب الغرفة.. وإذا بأغراضي كلها قد جُمعت ونُسّقت ـ كأني ...زمعٌ على سفر. وفجأة قال لي: يبدو أنك تتهيّأ للسفر.. قلتُ: ربما. فنظر إليّ ...ظرة فاحصةً عميقةً، وقال: هات.. أعطني عشرة دنانير أنا بحاجة إليها. قلتُ له: ... الصديق الذي أضع معه نقودي مسافر. قال: هات خمسة.. هات واحداً.. قلتُ ... يوجد معي الآن شيء، قال: هات ما معك من الفلوس.. فأنا بأمس الحاجة.

قلتُ: يا سيِّد ـ وهكذا كنا نخاطبه لأنه من السلالة النبوية الطاهرة ـ من المؤسف أن جيبي الآن فارغة وليس فيها فلس واحد.

فنظر إليّ نظرةً.. صبَّ فيها كل شعائر الألم والأسى والعطف وقال:

ألستُ صديقك؟ لماذا لا تصارحني بحقيقة وضعك؟ لقد رأيتك في منامي هذا المساء.. وليس معك شيء.. وأنك في ضيق شديد وسمعت هاتفاً يهتف بي:

قُم.. وأنجد صديقك «عبد اللطيف».. فهو في موقف حرج، وفي غاية الضيق وأفقتُ، ولم أستطع بعدها أن أنام. وحينما بزغ الفجر أسرعتُ إلى منطلق السيارات لأستقل أول سيارة ذاهبة إلى بغداد.

وحينئذٍ.. عادت الدموع تنهمر من عينيّ. وأيقنت أن في الغيب من يتفقدني ولا يُهملني. فشكراً لك يا ربي.

وأمسك بيدي، وقال: ارتدِ ثيابك بسرعةٍ، وتعال معي. وفتحتُ الحقيبةَ، والدموع ما تزال تنهمر من عينيّ، وأخرجت ثوباً ارتديته، ومشيتُ معه ـ وأنا لا أدري إلى أين. وإذا به يذهب بي إلى صراف، في سوق الصيارفة بحي الصفافير، ورحَّب به الصيرفي كثيراً وهو يقول: أهلاً بالسيد، أهلاً بالسيد.

وأخرج السيد من جيبه كيساً مملوءاً بليرات ذهبية وقال له: يا حجّي.. في هذا الكيس خمسون ليرة ذهبية، وديعة عندك لهذا الشاب.. تبيعها له حينما يرتفع سعر الذهب، وتعود فتشتري حينما يتدنّى، والربح الذي يتوفر من ذلك تعطيه له. وإذا صدف ولم يحصل ربح.. فأعطه ما يطلبه ـ وأنا المسؤول. وقال له: هات الآن عشرة دنانير على الحساب، فأخذها وأعطانيها.

وكانت سوق بيع الذهب وشرائه في تلك الأيام رائجة كثيراً ـ نظراً لاندلاع نار الحرب العالمية الثانية. وصرتُ كلَّ أسبوع أذهب إلى عند الصيرفي ـ الحجي ـ فيعطيني ربح الخمسين ليرة ذهبية التي أعطاها له «السيد».. أو يقول لي: هذا الأسبوع لم يتحقق ربح، فخذ ما تحتاجه، ويعطيني ما أطلبه، وهكذا دواليك.. طوال عدة أشهر.

ظللتُ هكذا.. إلى أن توسط لي «السيد محمد الصدر».. عند وزير المعارف

«صادق البصّام». وكان أمين عام الوزارة «الدكتور فاضل الجمالي»، ومدير مكتبه «أكرم زعيتر» الذي اهتّم بأمري، وأولاه عنايته ورعايته حتى أتمّه. وعُيِّنتُ مدرِّساً في ثانوية «البصرة».

حينما تسلمتُ قرار تعييني.. ذهبتُ إلى عند الصيرفي، وودعته شاكراً. وقلتُ له: المال هو للسيد «عبد الوهاب الصّافي» وليس لي.. فأرجو أن تُعيدهُ له. وذهبتُ إلى «السيد» وودعته، وأعربتُ له عن جزيل شكري وتقديري وامتناني.

أيّ انسان طاهر نبيل، وصديق مخلص صدوق كـ «السيد الصافي» ـ الذي تتمثّل به الشمائل العربية، وما فيها من أريحية وشهامة ونبالة ومكرمات. فإذا كان قد رحل.. فأسأل الله أن يتغمّده برحمته ورضوانه، ويسكنه فسيح جنانه. وإذا كان مايزال حيّاً.. فأسأل المولى أن يقدرني على رؤيته قبل أن يرحل، وأرحل. وقد زار دمشق في أواسط الأربعينات، وقُدّر لي أن ألتقيه فيها. وماتزال نفسي توّاقة لأن أراه فترات أطول وأكثر.

* * *

اللهمّ.. لقد كان لي عددٌ من الأصدقاء، الأوفياء في العراق. ولو أنني طلبتُ العون من أي منهم لما ردّني خائباً. فنفوسهم مشبعة بالعاطفة والنبل والمروءة ـ ولكني عشتُ أبيّ النفس عزيزها، ومازال ـ وبإذنه تعالى سأظلّ. ورحم الله بدوي الجبل الذي قال:

وأحملُ عن إخوانيٍّ العسرَ جاهداً ... ويُبعِدُني عنهمْ إذا أيسروا، اليُسْرُ
ونفسي.. لَوَ انَّ الجمرَ مسَّ إباءَها ... على بِشْرِها الرَّيّانِ. لاَحْترَقَ

ورحم قبله «الإمام الشافعي» الذي قال:

منزلي منزلُ الملوكِ.. ونفسي ... نفسُ حرٍّ.. ترى المذلّة كفرا
أنا إنْ عشتُ.. لستُ أُحرمُ قوتا ... وإذا مُتُّ.. لستُ أُحرمُ قبرا

ورحم قبلهما الشاعر «محمد بن يزيد» الذي قال في رثائه أخاه:

فتىً كان يدنيه الغِنى من صديقه ... إذا هو ما استَغْنى.. ويُبْعِدُه الفقرُ

وقبل أن أنتقل إلى مدينة «البصرة»، لتدريس الأدب العربي في ثانويتها، وصل إلى بغداد شاعر الأمة العربية الكبير «بدوي الجبل» تصحبه عقيلته السيدة «زلفى» ـ التي هي مثال الرصانة والرزانة، والخلق الرفيع. وهي التي أوجدتْ لشاعرنا جوًّاً من الأنس والطمأنينة والراحة.. كان له أثر كبير في انطلاق شاعريته، وبروز عبقريَّته. وصدق من قال: وراء كل عظيم امرأة.

وقد نعمتُ كثيراً برؤية أنجالهما الأذكياء اللطفاء: «منير» و«أحمد» و «عدنان» و «جهينة». وقد تفقَّد القدر بعد ذلك من تفقده منهم، وبقي «أحمد» ذخراً للمجتمع ولأنسبائه وأصدقائه، مدّ الله في عمره، وقد اقترن ببنت أختي الحبيبة «عائدة»، وأنجبا والحمد لله ثلاثة أنجال، وعُيِّن «بدوي الجبل» أستاذاً في كلية الآداب ببغداد. وسكن في حي الأعظمية ـ على مقربة من الكليَّة. وكانت داره ملتقى الأدباء والشعراء، ورجال السياسة والفكر. وكنتُ كلما قدمتُ إلى بغداد، من البصرة، أحلّ في داره العامرة ـ وأسرته الودودة تأبى إلا هذا.

* * *

مدينة «البصرة» قسمان: البصرة القديمة المعروفة تاريخياً، والضاحية الجديدة المتفرّعة عنها، واسمها «العَشَّار» ـ وقد سُمِّيت باسم النهر الذي يتفرع من النهر الكبير «شط العرب» الذي ينساب جنوباً حيث يروي بساتين البصرة القديمة، وبيوتها ومزارعها. وقد بُنيتْ ضاحية «العشار» على الشاطىء الجنوبي لـ «شط العرب»، وتقع فيها دور الحكومة والسينما، والفنادق والمطاعم، وعيادات الأطباء، ومكاتب المحامين، والأبنية الحديثة التي يسكنها الأغنياء والتجار الأجانب.

و«البصرة».. هي ثاني مدن العراق، وأهم مدينة تجارية بعد بغداد ـ لكنها تمتاز عن بغداد بأنها المرفأ الذي تُرسي فيه البواخر التي تحمل البضائع من العراق وإليه.

ونهرا «دجلة» و«الفرات» يلتقيان في مكان يدعى «القُرْنَة»، بين مدينتي «البصرة» و«العمارة»، ويختلطان ببعضهما.. حيث يصبحان نهراً واحداً يدعى

«شط العرب»، ويُعتبر من أنهر العالم الكبيرة، ويصل عمقه إلى بضعة عشر متراً، وترسي فيه بواخر كبيرة، وعرضه عند البصرة حوالي ألف وخمسمائة متر. ويبلغ طول «شط العرب» من «القرنة» إلى مصبه عند «الفاوْ» بـ «الخليج العربي» مائة وستين كيلو متراً. وتقوم على جانبيه بساتين النخيل التي تُروى منه بواسطة أنهر صغيرة، وتُرَع وسواق موزّعة بشكل دقيق مُتْقَن، بين غابات النخيل المترامية الأطراف. وكان عدد أشجار النخل في مطلع الأربعينات ثلاثة وثلاثين مليون نخلة. وهي تُعتبر أكبر مجموعة في العالم كله، بعد الهند. وهذه الغابات من النخيل تُسقى كلها بواسطة «المَدّ والجَزْر» من وقت ما عُرفت السقاية منذ الأزل حتى الآن.

بعد كتابة ما تقدم، عن تمور البصـرة ونخيلها، اطلع عليه الأستاذ «ابراهيم يونس» ـ أبو ماجد ـ فقال.. إنه قرأ بأن العراق ينتج من التمـور سبعين بالمائة من انتاج العالم كله.

وقد كتبت أنا، ما علمته.. وأنقل عنه ما علمه هو.

و«المَدّ» و«الجَزْر» قد ورد في «نهج البلاغة» للإمام «علي بن أبي طالب».. أنهما من أعجب ما يراه الإنسان في حياته.

وفي النظرة العلمية تنحدر المياه من أعلى إلى أدنى، بواسطة الجاذبية، وكذلك كل الطاقات. فالأنهر تنحدر إلى البحار ـ لأنّ الأرض أعلى من البحر. ومياه «شط العرب» تصب في البحر الذي يُعرف في ذلك المكان باسم «الخليج العربي». ومن غرائب القدر، وعجائب الطبيعة، أن مياه البحر ترتفع ـ على مدى الدهر.. ستّ ساعات، ثم تنحسر ستّ ساعات.. وهكذا دواليك؛ ويُطلقون على ارتفاع المياه اسم «المَدّ» وعلى انحساره «الجَزْر». ومن المحال، على توالي الأيام والأعوام، أن يزيد الوقت عن ست ساعات، أو ينقص، سواءً للمدّ أو الجزر! أمرٌ غريب عجيب ـ ولكنه واقع!

وحينما ترتفع مياه البحر، وتُشكل حاجزاً دون تدفق مياه «شط العرب» إليه.. تتجمع مياه النهر فوق بعضها وتعلو.. حتى يصبح ماوراءها أدنى مما أمامها..

وبفعل عمل الجاذبيَّة تعود القهقرى إلى الوراء.. حيث تفيض بغزارتها على جانبيْ النهر! وقد عمد الانسان، منذ عرف عهد السقاية، إلى شق الترع والأنهر، والجداول والسواقي، كما ذكرنا.. فتسيل فيها مياه «المَدّ» وقد عبَّأتها وملأتها.. فيسرع المزارعون إلى ريِّ أراضيهم، وسقي نخيلهم منها.. وهي تتهادى حتى تصل إلى أقدامهم وجذوع أشجارهم ـ دون آلة تدفعها، أو سدّ يحفظها ليتمَّ توزيعها! ومتى حان موعد «الجزر»، بعد الساعات الست تماماً!.. تنخفض مياه البحر، فتنكفىء مياه النهر، وتعود القهقرى إلى مجراه الطبيعي! وحينئذٍ يأخذ المزارعون والعاملون راحتهم. حتى يعود إليهم المَدُّ مرَّةً أخرى، وهكذا دواليك منذ الأزل.. كأن عقلاً أليكترونيّاً يجري الحساب بدقة غريبة!!

وأين العقل الأليكتروني من قدرة الإله الخالق المدبِّر؟

* * *

أهل البصرة.. قوم كرام الخلق واليد. ومن العسير على المرء أن يرى ناساً على شاكلتهم: طيباً وأريحية ومروءة.

ولا يحسبنَّ القارىء الكريم أنّي أبالغ في قولي هذا ـ بل إنها الحقيقة والواقع.. اللذان لا يستطيع إنكارهما كل من عرف «البصرة»، وعاشر البصريين.. وعاش بينهم ومعهم.

كان أحدنا يركب سيارة أجرة، وقد يسهو عن الدفع للسائق.. فهل يُعْقَل أن يستوقفه هذا، ويقول له: تعال.. ادفع؟ من المحال أن يحصل هذا ـ وإذا صدف وحصل. فيكون السائق من خارج البصرة.

وقد جرى ذلك معي شخصياً أكثر من مرّة. وكنتُ أقف بعدئذٍ على الطريق أرقبُ السيارات، وأنتظر حتى يمرّ السائق.. فأستوقفه وأدفع له، وأعتذر منه. وكنتُ أعرفُ أكثر السائقين ـ لأني كنت أسكن في البصرة الجديدة «العشّار»، وأنتقل قبل الظهر وبعده، إلى البصرة القديمة ـ حيث الثانوية التي أعمل بها. والمسافة بين قسمي البصرة.. لم تكن تتعدّى ثلاثة كيلو مترات، وأحسب أنهما قد اختلطا ببعضهما الآن.

* * *

التقيتُ في مدينة «البصرة» الأساتذة السوريين واللبنانيين الذين عُيِّنوا مدرّسين فيها ـ ومنهم: «إسبر ميخائيل بشور»، و«عبد الله العبد الله»، يرحمهما الله.. فقد كنتُ آنس بهما، وأشعر بأني بين أهلي وذويّ. ومنهم «يوسف سمارة» الذي أصبح، فيما بعد، مدير السياحة في سورية.. ومن اللبنانيين «جرجس كنعان» ـ وكان يُعتبر من أعلام اللغة العربية الأول، وله مؤلف ضخم عنوانه «تاريخ الآداب العربية».. و«عبد الله النجار» الذي أصبح فيما بعد سفيراً للبنان.. و«نديم دمشقية»، وقد أصبح من كبار موظفي الخارجية اللبنانية، و«جورج حداد» الذي كان عميد الدفاع في الحزب السوري القومي.. واختلف مع أركان الحزب، فقرر «جورج عبد المسيح» تصفيته ـ كما روى لي «حداد» ـ فعزم على الهرب قبل أن يفتك به. وفي الصباح الباكر، مع انبلاج الفجر، خرج من ...له ـ وإذ بـ «جورج عبد المسيح» الذي كان يترصده يُطبق عليه بكلتي يديه، وينحني ليخرج مسدساً أو سكيناً من وسطه، و«جورج حداد» قصير القامة، و«جورج عبد المسيح» أطول قامة منه، وإذا بأذن «عبد المسيح» أمام فم «حداد»، فالتقطها بأسنانه وعضّ عليها بقوة.. فاقتلعها كلها ولفظها على الأرض، وكان ذلك سبباً في تفلته منه، ونجاته وفراره. وفعلاً ظلّ «جورج عبد المسيح» بعد ذلك يلبس غطاءً على رأسه ليستر مكان أذنه التي اجتُثّت بكاملها!

وثمّة أساتذة آخرون لا تحضرني أسماؤهم الآن.

كنّا جميعاً نشكّل أسرة واحدة في حياتنا العامة.. فنأكل أكثر الأوقات في مطعم واحد، ونسهر في مكان واحد. ومساكننا قريبة من بعضها ـ الأمر الذي كان يسهل لنا الالتقاء، وكان عددنا سبعة عشر فيما أذكر.

وكانت «الدكتورة ميليا» قد طلبت نقلها من بغداد إلى البصرة.. تاركة أضخم مستشفى في العراق آنذاك «مستشفى الرشيد» ـ وماذلك.. إلا لأن طبيباً شاباً من أسرة كريمة في بغداد طلب الاقتران بها.. وتوسط مدير المستشفى ليبحث معها ـ ولم يجرؤ هو أن يفعل. ولم تكتف هي بالرفض فحسب.. بل أصرت على نقلها إلى مكان آخر، أو قبول استقالتها ـ لأن شخصاً في المشفى الذي تعمل فيه طلب

الاقتران بها!

فتأمَّلْ تلك الطبيبة.. المثالية بخلقها وعِفّتها وبراعتها. كانت شابة جميلة الصورة، فارعة القوام.. تبدو عليها سيماء الفتيات النبيلات المثقفات، وحشمتهن ورصانتهن وقد نذرت نفسها للعفة والطهارة.. وتربية إخوانها وأبنائهم تربية صالحةً مثالية.. وتحقق لها ذلك ـ فحققّت أمنيتها ورغبتها.

حقّاً كانت «الدكتورة ميليا بشور» من النساء النادرات.. ولم يكن بينها وبين الراهبات أي فارق ـ سوى أن هؤلاء يرتدين الزيّ الأسود المخصص لهنّ.. وهي ترتدي الزيّ العصري ـ مع الحشمة والوقار. يرحمها الله.

* * *

في تلك الفترة.. مرّ بمدينة البصرة «سعد الله الجابري» الزعيم السوري المعروف، وهو في طريقه إلى المملكة العربية السعودية، بدعوة من «الملك عبد العزيز آل سعود». وعرض عليّ أن أرافقه قائلاً: إنها مناسبة.. قد لا تتسنّى لك فيما بعد. فشكرته، واعتذرت منه ـ لأن تعييني مدرساً كان حديث العهد، ولأن رحلته قد تطول.. فأخسر وظيفتي التي كنت بأمس الحاجة إليها. وفعلاً استمرت رحلته بضعة أسابيع.. كان خلالها موضع تكريم بالغ من العاهل السعودي، كما أخبرنا بعد عودته، وقد أُعدّ برنامج حافل طاف بموجبه مدن المملكة كلها، وتنقل بين أرجائها جميعاً!

ومما أخبرنا عن رحلته تلك.. أنه في احدى الأمسيات كان في مجلس «الملك عبد العزيز».. وسأل الملك حاشيته عن الحالة في المملكة.. فقالوا له: إن بلادك تنعم بخيرك العميم، أكثر من أية بلاد أخرى. وسأل عن الحالة الغذائية بصورة خاصة، وهل هي متوفرة للأهلين.. فأجابوه بأن كل ما يُطلب من أنواع التغذية موجود في كل مكان بكثرة.. وإن كيلو الموز يباع بريال واحد فقط! فسألهم من أين تستوردونه؟ فقالوا: من لبنان والصومال. وألحّ بالسؤال.. إذا كان متوفراً للجميع في المملكة.. فأجابوه بأنه لا يخلو منه بيت ولا دكان! فرفع الملك يديه إلى أعلى، وقال: ألله ألله.. سامح يا «سعد الله بيك».. كيلو الموز يباع عندنا

بريال واحد، وهو موجود في كل مكان.. ألله ألله ألله!!

وقال لنا «الجابري»: لقد زرتُ مدن السعودية كلّها، وتجوّلتُ في شوارعها، وأحيائها، فلم أر «موزة» واحدة على الإطلاق!

والمتزلفون للسلطان هم دائماً هكذا ــ في كل مكان وزمان.. يخفون عنه الواقع والحقيقة، ويصورون له الأسود أبيض، والسيئات حسنات.. والعكس بالعكس! وصاحب السلطة.. لا يرى الأماكن بعينه ـ لأنَّ ظروفه قد لا تسمح له بذلك.. ويسأل حاشيته فتجيب، بما يتفق وميولها ومصالحها وأهواءها! ولعل هؤلاء الذين لا يتقون الله ولا يخشونه.. هم أشدّ خطراً على البلاد من أعدائها الحقيقيين ـ لأنهم يكتمون الواقع عن رجل السلطة.. فيسيئون بذلك إليه، وإلى البلاد كلها ويضرون ويؤذون!

ونُقل عن شاه ايران ــ الذي خُلع ومات في المنفى.. أنه قال: ليس «الخُمَيْني» هو الذي أسقطني، وأبعدني عن عرشي.. بل حاشيتي التي كانت تكتم الحقيقة عني.. هي التي فعلت ـ لأنها كانت تصور لي الوضع في البلاد عكس ما هو تماماً وربّما كان هذا القول صحيحاً ـ أو أنّ فيه بعض الصحة.

* * *

في السنة الأولى.. اخترتُ من بين طلابي سبعة عشر طالباً.. عهدتُ إلى كل منهم بأن يعمل دراسة لشاعر من شعرائنا القُدامى.. انتقيته له. وزودتهم جميعاً بالمراجع.. وكنتُ أوجّههم وأساعدهم لإتمام تلك الدراسات. وقبل نهاية السنة الدراسية كان الكتاب قد أنجز. فطبعناه باحدى مطابع البصرة. وبلغ عدد صفحاته ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير، وسميته «تراجم شعراء».. وقد أحدث ضجة في الأوساط الدراسية ـ لأنه أول كتاب من نوعه يصدر في العراق ـ إذ لم يسبق أن أصدر طلبة ثانويون كتاباً تحت إشراف مدرسهم قبل ذلك الكتاب.

ولكن.. بدلاً من أن يجلب لي من الوزارة ثناء وتقديراً.. فقد جلب لي نقمةً وقرار تسريح! وقد جاء ذلك في آخر السنة الدراسية ــ حيث تلقيتُ كتاب «انهاء العقد» مع وزارة المعارف ـ بدلاً من كتاب ثناء وتقدير!

فالأساتذة العراقيون ومدير الثانوية نفسه، قد غاروا من ذلك الكتاب.. وصارحني بعضهم بأنه قد أوجد لهم إحراجاً شديداً تجاه الطلاب وذويهم! ونقموا علي، وكتبوا وتوسطوا.. حتى تم لهم ما أرادوا! وقد ماشاهم بذلك مدير الثانوية نفسه ـ مع أنّي كنتُ قد استكتبته مقدّمة للكتاب.. إلى جانب المقدمة التي كتبتها أنا ـ فتأمّل!

وكان الكتاب مهدىً إلى وزير المعارف حينذاك «صادق البصام» ـ إلا أنّ وسطاء المدير والأساتذة، في وزارة المعارف، قد أخفوا الكتاب عن الوزير، ولم يطلعوه عليه! وقد وصل الحقد والحسد إلى هذا الحدّ!

لكنّ «السيد محمد الصدر»، ندّى الله ترابه، قد لفت نظر وزير المعارف إلى هذا الإجحاف. وقد فُوجىء الوزير بذكر الكتاب حينما ذكره له، وأخبره بأنه لم يطلع عليه، ولم يعلم به! وبعد أن أطلع الوزير عليه، وعلى واقع الغيرة والحسد.. أعرب عن أسفه لذلك.. ووجّه لي كتاب تقدير وثناء.. وألغى قرار «انهاء العقد» وأعاد تعييني من جديد، ولكن في ثانوية أخرى بمدينة البصرة. وحسناً فعل ـ لأنه كان من غير الممكن التعاون مع الهيئة الادارية التي أساءت إليّ.

* * *

في فترة إقامتي بمدينة البصرة.. كنتُ دائماً أكتب مقالاتٍ في جريدة «السّجِلّ» لصاحبها «طه الراوي».. ممّا لفتَ إليّ الأنظار، وأوجد لي صداقات كثيرة نعمتُ بها.

وكنتُ أقضي فصل الصيف في بغداد لأن الحرّ في «البصرة» لا يطاق.. وهو مفعمٌ بالرطوبة، وحافل بما يُرخي الأعصاب، ويهدُّ القوى. ولياليها تختلف عن ليالي بغداد. فالحرارة في البصرة تظل لاهبةً ليلاً نهاراً.. أما ليالي بغداد فهي منعشة ـ كما مرّ بنا.. وهي تشفع بحرّ النهار القاسي.. وأما البصرة.. فلا!

* * *

في صيف سنة ١٩٤٠ كانت الصحف السورية، الموالية للفرنسيين، تشنّ حملات شعواء على العراق ـ متهمة حكومته بأنها تسيء معاملة السوريين الموجودين فيه!

وبحث «رشيد عالي الكيلاني»، وكان قد عُيِّن رئيساً للوزارة، عن كاتب يردّ على تلك الاتهامات، ويدحض تلك الافتراءات المدفوعة من الفرنسيين وعملائهم.. ويجلو حقيقة موقف العراق من السوريين اللاجئين، ومن الأساتذة الذين يدرِّسون فيه والطلاب الذين يَدْرُسون.

واتصل «عبد الرزاق الحسني»، المؤرخ المعروف، ومدير ديوان رئاسة الوزارة، اتصل بـ «السيد عبد الوهاب الصافي» ورجاه أن يطلب مني كتابة كلمة حول هذا الموضوع. وكنتُ في بغداد أكتب في صحيفتي «الاستقلال» و«البلاد»، وصحف أخرى.

وحدد لنا «الكيلاني»، رئيس الوزارة، موعداً لمقابلته مساء أحد الأيام، وذهبت و«السيد عبد الوهاب الصافي» في الوقت المحدد. وأعرب «الكيلاني»، في حديثه الطويل معنا، عن تألمه من تحامل بعض الصحف السورية المنصاعة لتوجيهات الفرنسيين المحتلين! وقال لي:

«نحن لا نطلب منك.. إلاّ حسب ما يوحي إليك وجدانك، وعمّا لاقيته وتلاقيه وأخوانك».

وأذكر أنه في تلك الجلسة حمل على الانعزاليين في لبنان حملة شعواء ـ وخاصة «أميل اده» رئيس الجمهورية وقتذاك، وقال لي: وماذا نرتجي، من رئيس جمهورية استهلّ خطابه أمس، في الاذاعة اللبنانية، بقوله: «اخواني الفينيقيّين، وأبناء بجدتي الفرنسيين»؟! وأكد السيد «الكيلاني» أنه سمع الاذاعة نفسها، ولم يسمع النبأ من سواه. ثم ودعناه، وقد وعدته بكتابة كلمة ونشرها باحدى الصحف العراقية ـ وهذا ما حصل.

لقد دحضتُ في كلمتي ـ التي صدرت في اليوم الثاني.. تلك الاتهامات الملفّقة، والادعاءات الكاذبة.. وأثنيت على حسن العناية والرعاية التي يلقاها السوريون

من أخوانهم العراقيين: شعباً ومسؤولين. وكان لتلك الكلمة التي نشرتها جريدة «الاستقلال»، ونقلتها الصحف الأخرى، صدىً بعيد في الأوساط العراقية كافَة في ذلك الحين.

* * *

في أول أيار سنة ١٩٤١ تأزّم الموقف بين الوزارة العراقية ـ التي كان يرئسها «الكيلاني» والانكليز. وحصلت تطوراتٌ رهيبة بين الحكومة والأسرة المالكة أدّت إلى اقصاء «الأمير عبد الإله» عن وصاية العرش.. ففرّ هو، والملك، ونوري السعيد، وعدد من أعوانهم إلى الأردن ـ حيث الأمير «عبد الله» عمّ الأمير «عبد الإله»، وكلّف «الكيلاني» السيد «محمد الصدر» رئيس مجلس الأعيان ليكون «الوصي» منفرداً، وكان يرأس مجلس الوصاية في غياب الوصي، كما مرّ بنا، فرفض «السيد الصدر» هذا العرض، وأبى قبوله، فعيَّن «الكيلاني» أحد الأشراف من «آل البيت» وصيّاً على العرش.

* * *

واصْطدم الجيشان العراقي والانكليزي ببعضهما. وقيل يومئذٍ، وربما هو الواقع، إن الانكليز هم الذين صعّدوا الخلاف لكي يسارعوا لاحتلال العراق.. قبل وصول نجدات ألمانية قويّة إليه! وكانت المانيا حينذاك منشغلةً، باحتلال يوغسلافيا واليونان وجزر بحر ايجة ـ وخاصة جزيرة «كريت».

واشتدّ لهيب الحماس بالشعب العراقي الذي كان يضيق ذرعاً بالاحتلال الانكليزي، ويستميت لتحرير بلاده من الدولة العدوّة التي كانت تتدخل في شؤون الحكم من وراء ستار، ولها في كل وزارة مستشار!

واندفعت التظاهرات الصاخبة في مدن العراق كلها ـ وربما كانت في مدينة «البصرة» أشد منها في أي مكان آخر. وسرعان ما تطوع بعضنا في الجيش العراقي، وكنتُ أحد أولئك المتطوعين، وألبسونا ملابس ميدان، وأعطوا كلاً منا رتبةً عسكرية ـ حسب الراتب الذي يتقاضاه، وكانت رتبتي «ملازم أول».. ولم تكن بين رفاقي رتبة أعلى منها. وكنت أحمل على كتفي نجمتين. وذلك الثوب

العسكري.. هو أبهى وأجمل ما لبست في حياتي كلها ـ وكم كنتُ معتزاً به وسعيداً.

وكنّا حينما نمّر بالقرب من الجنود العراقيين، الرابضين في مواقف معينة، يصرخ الآمر بينهم: «سلام.. خذ» ـ فتلتصق الأقدام ببعضها، وترتفع الأيدي إلى محاذاة الآذان! شيء رهيب، ومثير وجميلٌ وكم كنا نغتبط بهذا ونزهو.. ونرفع قاماتنا إلى أعلى مباهين! ويبدو أنه كما لأداء التحية أصوله.. فكذلك الرد على التحية له أصوله أيضاً. وكنا نجهل هذه الأصول.. فنرد على التحية بأسلوب عادي! وبعضنا كان يقول للجنود: السلام عليكم! فأدرك هؤلاء أننا ضباط «باش بُزُق»، كما يقال ـ أي لا بالعير ولا بالنفير! وصرنا بعد ذلك نلتقي بالجنود ـ وتكاد أكتافنا تصطدم بهم.. فلا يأبهون ولا يكترثون! وبعضهم «يزّم شفتيه».. وغير الله لا يعلم ماذا كان يتمتم بينه وبين نفسه، وماذا يقول هو ورفاقه!

ومثلما كنا أولاً.. نتجّه نحو الجنود لنباهي بالتحية العسكرية التي يؤدونها لنا، ونغتبط بها.. أصبحنا بعدئذٍ نتحاشى الالتقاء بهم، ونبتعد عنهم ـ حتى لا نُصدم بزمّ الشفاه، وعدم الاكتراث! واشتدت المظاهرات الصاخبة.. وكان من البديهي أن نشترك بهاً، ونندد بالعدو البريطاني اللئيم ـ وربما كنتُ أكثر رفاقي حماساً واندفاعاً، وثورةً واستماتة. ومن طبعي.. أني متى ما اندفعت.. أندفع حتى الموت، والأعمار بيد الله.

في اليوم الثامن من الحرب.. دخلت القوات البريطانية مدينة «البصرة»، واحتلتها ـ قادمةً من الشرق، من الخليج العربي.. حيث كان بعض قطع أسطولها يحتشد فيه.

صباح ذلك اليوم، ومع بزوغ الفجر، أفقتُ على دويّ المدافع يصمّ الآذان. وكانت الغرفة التي أسكنها تقع مباشرة على الطريق العام.. ونافذتها الغربية لا تعلو عن الأرض إلا متراً ونيفاً. وفتحت النافذة ـ ونور الصباح في بدء انطلاقه.. وإذا ببندقية تصوّب إليّ من الخارج.. من بين قضبان حديد النافذة... فانحنيت على الأرض بسرعة، وفوهة البندقيّة ماتزال مشرعةً، ولكن ليس بالامكان أن

تصيبني فيما لو أُفرغ ما في داخلها.. لأني كنتُ قد حبوت بخفّة إلى الزاوية، واحتميتُ فيها. ولم أكن أضأتُ الكهرباء.. ولو أني فعلت لكانت ثمة مأساة، لذلك كانت العتمة تملأ جوانب الغرفة. وحبوتُ على الأرض بخفة وسكون نحو الباب، وحينما وصلتُه فتحتُه بهدوء وحذر.. وتسللت منه إلى بهو البيت ـ بعد أن أغلقتُ الباب برفق، وأوصدته خلفي دون أن أثير أية حركة.. وجلست في صالة الدار أرتقب.. وأستعيذ بالله من حالة الرُّعب التي انتابتني، وبعد فترة.. صعدتُ الدرج إلى سطح البيت، وزحفتُ على صدري إلى حافته الأمامية المواجهة للشارع.. ونظرتُ من ثغرة في الحاجز الذي يوضع عادة على أسطحة المنازل في العراق، ليمنع استراق النظر ـ لأن الناس يبيتون في فصل الصَّيف على الأسطحة فراراً من الحر داخل الغرف.. ونظرتُ إلى أدنى.. فرأيتُ الجندي الانكليزي قد ترك مكانه قرب النافذة، ووقف عند زاوية البيت.. فنزلتُ ودخلت الغرفة بهدوء، وأغلقتُ النافذة، وسدلتُ الستار عليها، ثم استلقيت على السرير.. وأنا أسمع دويّ المدافع يصم الآذان ـ مع أنه لم تكن هناك مقاومة عراقيَّة تُذكر ـ لأن كتائب الجيش العراقي كانت محتشدة في الجهة الجنوبية الغربية، بمواجهة الثكنة العسكرية البريطانية في «الشعيبة». ومن الشمال.. حينما دخلت القوات البريطانية البصرة، بواسطة سفن حربيّة تحمل الجنود، لم تعترضها قوات عراقيّة تذكر.

وكانت هذه احدى الأخطاء الجسام ـ التي اقترفها القادة العراقيون! وحينما كانت القوات البريطانية تطلق قنابلها.. فذلك لإرهاب الأهلين، ولأسباب عسكرية أخرى!

وهكذا احتل الانكليز مدينة البصرة ـ «العشار»، المركز الاستراتيجي الهام.. خلال الساعات الأخيرة من الليل.. دون أن تعترضهم مقاومة تذكر!

الساعة الثانية عشرة ظهراً.. أعلن المحتلون أنهم يسمحون بالتجول ساعة واحدة فقط، لكي يتدارك الأهلون وسائل مؤونتهم. ومن يُرَ خارج مسكنه قبل هذا الوقت، أو بعده، يطلق عليه الرصاص، ويُعدم في مكانه!

إنها حالة حرب.. وهل عند العدو شفقة أو رأفة؟!

وانفلت الناس من بيوتهم - بعد حصار دام من الصباح الباكر.. وانطلقوا إلى الحوانيت يشترون منها زادهم لذلك اليوم، وربما للأيام التي تليه.. من يدري؟!

وتجمعنا في بيت «جرجس كنعان».. وذكرنا أن لنا زميلاً لبنانياً من مدينة «بشرّي».. يسكن مع أسرته وراء «نهر العشّار» في الناحية الغربيّة من المدينة، وهو الجانب التجاري الشهير.. فقرّرنا كلنا الذهاب للبحث عنه. وجلبه وأسرته للعيش معنا.

وقمنا فوراً.. وعبرنا الجسر الذي يقع على «نهر العشّار» الذي يفصل بين الجانبين الشرقي والغربي من ذلك الحي. وكان بيت زميلنا في مدخل الأسواق التجارية. وذهلنا.. إذ لم نشاهد هناك إلا الخراب والدّمار! وأبواب المخازن كلها مكسّرة ومحطّمة.. ومنهوب ما فيها! فالجيش العراقي انسحب من البصرة كلها.. والانكليز لم يدخلوا الحيّ التجاري لأنه لا مصلحة لهم به.

ألم نسمع بالقول المشهور: «بعد خراب البصرة»؟ لقد رأينا هذا الخراب، وعشنا واقعه المرير الأليم!

ويبدو أن هذه المدينة التاريخية الجميلة.. قد مُنيت كثيراً بمثل هذا السلب والنّهب والتّخريب، فيما مضى - إذ ما إن أُشيع عن وجود خلاف بين العراق والانكليز.. حتى تجمعت قبائل البدو من مسافة مئات الكيلو مترات، وانتشرت غربي المدينة وجنوبها في مساحات تمتد إلى مسافات بعيدة.. وهي تستعدّ لتنقضّ على فريستها - تماماً كما تتجمع الحيتان في البحر حول السفن.. عندما يهب إعصار، ويضطرب الموج! واحتل الانكليز الجانب الشرقي من «العشّار»، وهو الحي الآهل بالسكّان والدوائر الرسمية.. ولم يدخلوا الحي التجاري المكتظ في الجانب الغربي من «العشار».. وكانت قوات الأمن العراقي قد انسحبت منه.. فكانت فرصةً للبدو الذين نهبوا كل ما في تلك الأسواق الواسعة خلال ساعات - ولم يتركوا فيها إلا البعوض والذباب.. ونقط دم سالت من أيديهم وهم يكسرون الأبواب المغلقة وينفذون منها إلى الداخل!

وشرع البدو يقيمون معارض، بين خيامهم، لبيع ما نهبوه! فكنتَ ترى الأحذية مربوطةً بربطات عنق جميلة.. والأثواب النسائية الأنيقة قد جعلت سلالاً للمسامير وأدوات البناء.. وهكذا دواليك! وكان منظر البدو، وهم يلبسون الملابس الحضريّة مضحكاً جداً!

وفي اليوم الثاني رُفع حظر التجول خلال ساعات النهار، وذهب بعضنا إلى معارض البدو ليشتري ما يروق له منها، وقد اشترى أحدهم راديو متوسط الحجم بربع دينار فقط! واندفع التّجار المنهوبون لشراء أغراضهم من الناهبين ـ تماماً كما حصل في لبنان إبّان أحداثه البشعة الرهيبة!

وهذا يذكّرني بما جرى لصديقي «أنور الشلاح» الذي أخبرني بأن شخصاً اتصل به هاتفياً وعرض عليه شراء مواد كانت سُرقت من مكاتبه ومستودعاته في بيروت.. ويؤكد «الشلاح» أن العارض هو نفسه السارق والناهب! وأوشك صديقي أن يقول له: أخاف إذا اشتريتهم منك اليوم.. أن تعود لسرقتهم غداً ـ ولكنه أمسك، ورفض العرض.

أرأيت الأسواق التجارية في «ساحة البرج» ببيروت الحزينة.. وما حل بها؟ هذا ما حصل في مدينة البصرة يوم احتلها الانكليز!

شيء يكاد لا يصدّقه عقل ـ ولكنه مع الأسف قد حدث! فيا للمأساة المروّعة، والكآبة المفجعة، والأسى المرير!

وأفاً للانسان الذي يخرج عن انسانيته.. ولا يعود ثمّة فارق بينه وبين الحيوان! وبمثل هذا يقول شاعر الأمة العربية الكبير «بدوي الجبل»:

لعلّه تبعثُ الأقدارُ رَحْمَتَه فيصبحَ الوحشُ في بُرْدَيْه إنسانا!

ولكنّ الأقدار لم تبعث الرحمةَ في قلوب أولئك الجناة.. الذين جاء في القرآن الكريم عنهم: ﴿الأعراب أشدّ كُفراً ونفاقاً﴾ صدق الله العظيم.

* * *

وصعدنا إلى بيت صديقنا «سليم البشرّاوي» وهو يقع فوق مخازن منكوبة كسواها. وكان هو وزوجته، وطفلاهما الصغيران، ممتقعي الوجوه.. تلمح شبح

الموت في أعينهم من الخوف والهلع والذعر.. وهم يرون من النافذة ما يجري تحتهم وحولهم من أعمال تقشعر لها الأبدان.. وهم لا يعرفون متى يصعدون إليهم، وتكون المأساة!

وحينما رأونا أجهشوا جميعاً بالبكاء.. وهبطنا وإياهم الدرج بسرعة تشبه الركض ـ حتى نصل إلى أماكننا قبل انتهاء الساعة التي حددها الانذار.. ونحن في أتون حرب ضارية، لا تُشفق ولا ترحم! وما أن وصلنا إلى منتصف الجسر.. حتى دوتْ صفارة الانذار ـ وكأنها نعيب غربان! وصوب إلينا الجنود الانكليز بنادقهم ورشاشاتهم.. فتوقفنا، وجمدتْ أقدامنا ـ حيث لا نستطيع التقدم ولا التأخر! إنها الحرب! وإنه جيش عدوّ محتل! وإنها لحظات حاسمة في حياة المرء!

وبقينا دقائق هكذا.. الصفارات تدوي، والجنود يصوبون أسلحتهم نحونا.. ونحن جزعون حيارى! وكنتُ و«نديم دمشقية» أفتى الزملاء جميعاً.. فحملتُ طفلاً بيديّ، ورفعته إلى أقصى ما أستطيع، ورفع «نديم» الطفل الآخر، وتقدّمنا ببطء شديد، وحذر أشدّ.. و«نديم» خريج الجامعة الأميركية وهو يجيد اللغة الانكليزية، فشرع يصيح بأعلى صوته:

نحن مدرّسون سوريون ولبنانيون وفلسطينيون.. وهذه الأسرة منّا وقد جئنا لننقذ أسرة زميلنا من البدو، ونأخذها إلى حيث نسكن.

وتقدّم البقية وراءنا ببطء ـ وفيهم بعض النسّاء يلوّحن بمحارم بيض في أيديهنّ، وقد رفع الجميع أيديهم إلى أعلى، وكان عددنا يربو على العشرين. وصرخ بنا ضابط: قفوا.. وحوله جنود يحملون البنادق والرشاشات، ويصوبونها نحونا.. فوقفنا، وجمدت أقدامنا، وتقدموا نحونا وفتشونا.. واطلعوا على جواز سفر بعضنا، وحتى النساء أنفسهنّ لم يسلمن من التفتيش! ولما تأكد الضابط أننا غرباء، ولا نحمل سلاحاً، سمح لنا بالعبور، وأرسل معنا جنوداً على رأسهم «رقيب»، وهم يمشون أمامنا وخلفنا حتى وصلنا إلى أماكننا.

في الطريق رأينا جثة ملقاة في الشارع.. وقد قُتِل صاحبها، وهو يجتاز

الطريق، بعد نهاية الانذار.

وأذكر أن «عبد الله النجار»، وهو جريء كأبناء قومه «بني معروف» الأشاوس، قال للرقيب الانكليزي، ونحن سائرون في الطريق: أنا استرالي، وزوجتي استرالية ـ وكانا كلاهما يحملان الجنسية الاسترالية.. لأنهما قضيا في تلك البلاد فترةً طويلة ــ قال له: أحب أن أسألك: ألا تَخِزكُم ضمائركم.. وأنتم ترون أعمال السلب والنهب بهذا الشكل الفظيع الذي لا مثيل له.. ولا تمنعونها وتحولون دونها؟! فقال له الرقيب: أنا لا أرى إلا الرَّشاش الذي أحمله بيدي!

وحينما وصلنا إلى نقطة، على رأسها ضابط، ردّد له «النجار» القول نفسه.. فأجابه الضابط الانكليزي بخشونة: هذا لا يعنيك.. إمْشِ في طريقك.. ومشينا جميعاً في طريقنا حتى وصلنا إلى الحيِّ الذي نقطن فيه.. ورافقتنا الدورية واحداً واحداً حتى دخلنا منازلنا جميعاً.

وقبل الغروب تركوا للسكان ساعةً واحدةً ـ ليتداركوا حاجاتهم المسائيَّة وكان ذلك بين السادسة والسابعة مساءً. فتجمعنا في دار «الدكتور جورج فرح» وهو ــ إذا لم تخنِّي الذاكرة من قرية «الجمهور» بين جبيل وبيروت ـ وكانت الألسن، خلال ساعة الظهر التي سُمِح فيها بالتّجوُّل، قد تناقلت أن البدو سينهبون في الليل الحي الشرقي من العشار ــ كما فعلوا بالأسواق التجاريَّة صباح ذلك اليوم.. وفي هذا الحي دور الحكومة، والبنوك والشركات، وبيوت الأثرياء، من أجانب وعراقيين وكنا نسكن ذلك الحي.. فأوجسنا خيفةً مما قد يجري:

وتداول الزملاء موضوع الخطر الدّاهم، واتفقوا على الاحتماء بدار «الدكتور جورج فرح» ـ لأن من السهل الدفاع عنها نوعاً ما.. حيث أن بناءها حديث، ونوافذها مشبكة بالحديد، وترتفع عن الأرض حوالي مترين، ويُصعَدُ إليها على بضع درجات. وأسرع الزملاء الذين بحوزتهم مسدسات، يحتفظون بها في مساكنهم، للمجيء بها، واستخدامها عند الحاجة. وقرَّرتُ البقاء معهم والاحتماء ببيت «الدكتور جورج».

وكنتُ و«عبد الله النجار» وشخصاً ثالثاً من تونس، نسكن في بيت واحد.

وحينما سمع «النجار» أني قررتُ البقاء، مع بقية الزملاء، قال لي بغضب:

يا عيب الشوم يا «عبد اللطيف».. أتقبل أن نترك تلك العجوز المسكينة في البيت وحدها، وقد تُقتَل هي.. ونختبىء نحن هنا؟ أين المروءة العربية؟ أين الشهامة؟ أين الناموس؟ والله لن أبقى هنا.. وسأعود إلى بيت العجوز ـ فإما أن أمنع عنها القتل.. وإما أن أُقتل معها. وانتفضت عروق جبهته، وشمخ أنفه.. حتى بدا لي أنه أطول كثيراً مما هو! إنه من «بني معروف» ـ الدروز الأشاوس. ويكفي أن يقال: إنه من «بني معروف».. حتى يُعْرَف من هو.

وقلتُ للنجار: معك كل الحق.. وأنا معك ـ فإما أن نعيش معاً، أو نموت معاً.

وحاول بقيَّة الزملاء اقناعنا بالبقاء معهم.. فأبينا ورفضنا.

وانتفض «إسبر ميخائيل بشور» ـ وكان رجل مروءة وأريحية، وهو يسكن في منزل آخر، وقال: أنا معكما.. ومن المحال أن أترك ابن بلدي «عبد اللطيف» وحده.. وما يحدث له، يحدث لي، وما يصيبه يصيبني، وألحوا عليه جميعاً بالبقاء، واشتركت معهم بالالحاح والرجاء.. أن يبقى مع بقية الزملاء ـ وكان موضع تقدير الجميع واعتبارهم.. فأصرّ، وأبى إلا المُضيَّ معي. وقرّر «التونسي» أن يذهب معنا، فصرنا أربعة.

كانت الدار التي نسكنها مجاورة لدار «الدكتور فرح» ـ ولا يفصل بينهما إلا شارع جانبي لا يتجاوز عرضه بضعة أمتار. وكلاهما يقع على الشارع العام.

وبعد أن أصبحنا داخل البيت.. تذكّر «إسبر بشور» أنه نسي علاجاً في بيت «الدكتور جورج» وأنه لا غنىً له عنه.. وأراد العودة لجلبه. فأصررتُ على أن أذهب أنا، ويبقى هو. واندفعتُ نحو الباب. واندفعتْ العجوز صاحبة البيت، ووقفتْ تريد أن تمنعني من الخروج ـ خوفاً من أن ينتهي وقت الانذار وأنا في الطريق.. فيصيبني ما أصاب غيري، فنحّيتها جانباً، وانطلقت أعبر الشارع، وأنا أستبقُ الوقت قبل انتهاء موعد الساعة المعطاة للتجول.. والحرب هي الحرب ـ التي قال عنها «زهير بن أبي سُلمى»:

«وما الحربُ إلا ما علمتم وذُقتُم...»

والمنطق والعقل يقتضيان الحيطة والحذر.. ونحن في موقف بالغ الدقّة والحرج. وبخطوات سريعة عبرتُ الشارع، وتناولتُ الدواء بسرعة من الطبيب. وبينما أنا أفتح الباب لأخرج.. دوت صفارة الانذار الرهيبة.. تعلن انتهاء مدة الساعة المسموح التجول بها. وكانت الشمس قد غابت.. وبدأت العتمة تُرخي ذوائبها السود فصرخ بي الزملاء: ارجعْ ارجعْ.. إياك إياك الخروج. ولم أُصغِ لصراخهم وتحذيرهم.. فأسرعوا ليمسكوا بي ويمنعوني.. لكنني فتحتُ الباب، وأصبحتُ خارجه.

ما إن هبطتُ درجةً، أو اثنتين، حتى دوّت طلقات نارية.. فارتميت على الدَّرج من هول المفاجأة.. وأنا لا أدري إن كنتُ أصبتُ، أوّلاً، وأسرع «الدكتور فرح» ينزع عن ساعده اشارة «الهلال الأحمر» ويضعها على ساعدي. ولكنَّ الجنود وصلوا إليَّ قبل أن يستطيع.. فارتمت الاشارة قرب يدي، فخاطبهم الدكتور باللغة الانكليزية، وهو متخرج من الجامعة الأميركية قائلاً لهم:

هذا الشخص «مُمرِّض عندي.. وهو ذاهبٌ لمعالجة امرأة مريضة بجوارنا، وهذا هو العلاج في يده. وكل قوانين العالم تسمح لرجال الاسعاف بالتنقل في أي وقت.. ولا يسري علينا قانون حظر التجول، ونحن نؤدي خدمات انسانية».

وشرع يذكرهم بالقوانين الدولية، ويقول لهم: أنتم شعب راقٍ، وعندكم شعور الانسان، وهذه ناحية انسانية بحتة.. تقرّها جميع الشرائع الدولية والأعراف الانسانية.

فقال له الرقيب، وهو استرالي ـ كما علمنا فيما بعد: أين هي المريضة؟ تعال.. نذهب ونتأكد من ادعائكم.

وسار الدكتور أمامهم، وصاح بأعلى صوته: أين المريضة.. التي جاء الممرض «عبد اللطيف» ليعالجها؟ قال ذلك.. لكي يَفْهمَ زملائي، الموجودين في البيت، ويتخذوا الاحتياطات بسرعة. وفتح «اسبر» و«عبد الله» الباب، وقالا: هذه هي:

كانت العجوز ـ صاحبة البيت الذي نسكنه قد صنعت لنا الشاي، قبل أن نذهب

إلى بيت «الدكتور فرح» لنجتمع مع بقية رفاقنا ـ كما مرّ بنا.. ولكني لم أستجب لرجائها وتوسّلها بالبقاء، وخرجتُ. وحينما سمعت صفارة الانذار، وأعقبها طلق رصاص، سقطتْ على الأرض مغشيًاً عليها. فحملها الزملاء الثلاثة إلى فراشها ـ ولم يكونوا بعد قد أتمّوا تمديدها عليه، وإذا بالباب يُدقّ.. وسمعوا صوت الدكتور، ففتح الزملاء الباب، ودخل الجنود وهم يمسكون بي. وأمسك الدكتور بيد العجوز، وإذا بحرارتها مرتفعةً.. فطلب من الرقيب الاسترالي أن يلمسها، فلمسها.. وتأكّد من وجود حُمّى، فخرج ومعهم الدكتور ليوصلوه إلى داره، وقبعوا في أماكنهم عند الزاوية.. يترقبون صيداً آخر!

صباح اليوم الثاني.. نهضت العجوز من فراشها، وصنعت لنا الشاي كعادتها.. وكأنه لم يحصل لها شيء أمس. فسبحان القادر على كريم صنعه. وكريم عطفه.

حادث إطلاق النار بين رجليّ، وعدم إصابتي بفضله تعالى.. يذكّرني بحادث جرى للرئيس «عبد الحميد كرامي» زعيم طرابلس، فقد كانت جماعة من خصومه السياسيين أطلقوا عليه الرصاص، وهو في طريقه من الجبل إلى طرابلس.. ولم يُصب بأذىً. وكان حينذاك يلبس سروالاً فضفاضاً.. وقد علّقه بعد الحادثة في صالة الاستقبال بداره. وكان حينما يأتي زائرون لتهنئته بالسلامة والنجاة.. يمسك السروال بيده ويقول لهم، وهو يبكي:

«من لا يعتقد بوجود إله.. فليأت وينظر سروالي هذا»!

وكانت الرصاصات السبع التي أُطلقت عليه.. قد خرقت السروال ولم تخدشه! هو!

وهذا ما حصل لي ـ إذ أنّ الرصاص قد حفر بالدَّرج خدوشاً ولم يصبني بأذى فشكراً لك يا ربي.

* * *

أليس هذا من عجائب القدر؟!

عجوز.. لم تكن تشكو شيئاً على الاطلاق.. وخلال دقيقة، أو اثنتين، يُغمى عليها وتنتابها حُمّى.. ويكون ذلك سبباً لانقاذي من مصير غامض مجهول لا

يعلمه إلا الله!

أليس هناك ـ في الغيب.. قُوىً ترعى الانسان، وتحفظه، وتصونه وتُسدِّد خطاه؟!

أليس من الجهل والحماقة.. أن لا نعتقد بوجود هذه القوة الخفية التي تُحَرِّكنا وتُلهمنا.. وتُوجِّهنا وتُسيِّرنا ـ ونحن لا ندري من أمرها شيئاً، ولا نعرف عن واقعها شيئاً.. وهي تعرف كلَّ شيء عنّا؟!

أليس من الغباء والطيش.. أن يعزو الانسان إلى «المصادفة».. كل ما يحدث له، ولغيره، وللإنسانية جمعاء؟!

أليس من الحماقة والجهل.. أن نعزو ما يحصل من تطور غريب عجيب.. إلى ما يسمونه «مصادفة» ـ وإلى نظريّة «داروين»: «النشوء والارتقاء» التي وضعها ليصرف ذهن الانسان عن خالقه الدّيّان.. وإنّ ما بدا ويبدو في الطبيعة.. هو من صنعها وحدها.. وليس ثمّة قوّة أخرى سواها؟!

وهل يُعقَل... أن هذه الكائنات، ومجرَّتنا واحدة من ملايين المجرات، تنتظم بالمصادفة وتتحرك بالعادة ـ دون أية إرادة.. فيدور بعضها حول نفسه، وغيرها حول غيره.. وذلك كله باتِّساق وانتظام ـ دون أن يكون ثمّة عقل يدبِّر، وإرادة تملي، وطاقة توحي؟!

نظرة إلى أعماق الانسان ـ كما يقول الدكتور صبحي غنيمة ـ ويأتيك الجواب.

ورحم الله «غاندي» ـ المفكر الكبير الذي يقول في مقدمة كتابه «قصة تجاربي مع الحقيقة»: «كلما فكّرت بهذا الكون وكيفية تكوينه.. وينتابني الذّعر!»

وليختلف الناس على اسم «الله».. وليطلقوا عليه الأسماء والصفات التي يريدون ويشاؤون.. فهذه القوّة الخفيّة التي تسير الكون، وتحفظه وترعاه.. إنما هي فوق مستوى الأسماء والصفات، والتصور والتصوير!

وفي يقيني ـ يقيني الخاص ـ وهو ما توصلتُ إليه بعد تفكير طويل، واستقراء عميق.. أن هذه القوّة الخفية التي نشير إليها، ونطلق عليها اسم «الله».. لا تأبه لكيفية اتجاه الانسان إليها، أو وصفه لها، أو تسميته إياها.. ولا

بكيفيَّة اتجاهه نحوها، وإيمانــه أو كفـره بهـا.. بقـدر مـا تأبـه، فـي اعتقـادي، لأن يكون الانسان صادقاً مع نفسه، ومـع ربـه، ومـع النـاس.. مسـتقيماً فـي عملـه.. مخلصاً بأداء واجبه.. تنزع نفسه دائماً للخير، وتبتعد عن الأذى والسوء ـ يعمل لنفع غيره ـ مثلما يعمل لنفع نفســه.. ويبتعد عن أذى سواه ـ مثلما يرغب أن يبتعد الآخرون عن أذاه. فالدين الصحيح هو كما قال «النبي محمد» ـ ﷺ «الدين المعاملة» وقد عبّر الشاعر «الياس فرحات» أجمل تعبير عن هذا المعنى العظيم بقوله:

ما دمتَ محترماً حقّي فأنت أخي آمنتَ باللـه، أمْ آمنتَ بالحجرِ

والإيمان باللـه، جلّ جلالـه، وبقدرتـه وعظمتـه، ورأفتـه ورحمتـه، لا يعادلـه شيء.. ولا يقارن به شيء.

* * *

أصررتُ على صديقي «إسبر بشور» أن ينام في سريري، وأتولى «وعبد اللـه النجار» حراسة البيت.. وبعد رجاء والحاح وافق. ودخل «التونسـي» إلـى غرفتـه ليسـتغرق فـي نومـه. وصعدتُ و«النجـار» إلـى سـطح البيـت لنتولـى حراسـته وحمايته.. ودرسنا موقع البيت، ووضعنا خطّة الدفاع كأننا «أركان حرب»!

جزمنا أن الهجوم على البيت سيكون من الشّرق ـ حيث البيت المجاور الذي يمكن القفز منه إلى السّطح، ولا يفصل بينهما، إلا مسافة متر واحد فقط ـ لأنّ البيت الذي نسكنه محاط بشوارع من الجنوب والشمال والغرب، ونوافذه محكمة الاغلاق، ونحن من أعلى نمنع أيّاً كان من الاقتراب منها بواسطة الحجارة التي نصبّها على رأسه. وإذنْ.. فإنّ علينا تحصين الجهة الشّرقيّة، وهذا ما فعلناه.

جمعنا الكثير من الحجارة الصغيرة الموزّعة على جوانب السّطح، من جهاته الأربع لحمايته من نظر الجيران، والتي يعلو بناؤها حوالي متر. وأقمنا منها بمنتهى الهدوء والحذر، حاجزاً بمواجهة البيت الشرقي يزيد ارتفاعه على متر.. وجلسنا أمامه على فراش اصطحبناه معنا من سرير«عبد اللـه».. حتى إذا نعس أحدنا يستطيع أن يغفي قليلاً عليه، ويظل الآخر سهران يقظاً.. إلى أن يشعر

بحاجته للنوم قليلاً، فيوقظ رفيقه.. وهكذا نتناوب النوم والسّهر معاً. ولكنّ أحداً منا لم ينم طوال الليل.. بل ظللنا ساهرين نرعى نجوم «امرىء القيس»، و«النابغة الذّبياني»، ويقرأ كل منّا ما عنده من محفوظات شعرية. وكانت ليلة مباركة.. مكّنني من قراءة ما أحفظه من أشعار - وما كان أكثرها في تلك الأيام.

ولا شك أن أصوات الرصاص، المدمدمة من الشرق، كان لها أثر في اختفاء النعاس من أجفاننا - إذ أنها كانت دليلاً على هجوم البدو.. واصطدامهم مع السكان. وكلما اقترب صوت الرصاص.. نقول: هاهم قادمون إلينا.. ويتحسّس «النجار» الحجارة التي اقتلعها من أماكنها عل السطح وجمعناها، ويقول، مباهياً معتزاً: سترى ماذا أعمل.. كل حجر بـ «قرعة» - أي أنه سيقتل بكل حجر واحداً من المهاجمين، ويضيف: أنت عليك فقط أن تناولني الحجارة.. وسترى. وأشهد أنه كان باستطاعته أن يفعل - لأنّ رجولته بارزة - ولكني قلتُ له: وإذا هاجمونا بالرصاص فماذا نعمل؟ قال: نحتمي بهذا الحصن الذي أقمناه من الحجارة وإذا اقترب أحدهم.. أمعس رأسه بحجر، فاطمئن ولاتخف. وأحمده تعالى.. فقد كنتُ دائماً شجاعاً - لا أخاف ولا أرهب.

ولكن الجيش الانكليزي تدخّل أخيراً.. بعد أن هاجم البدو عدداً من المنازل، وقتلوا وجرحوا عدداً من السكان.. وكان يُسمَع دوي الرصاص على مقربة منا. وكانت توجد بيوت قناصل أجنبية، وموظفي شركات بريطانية.. فكان تدخل الانكليز للمحافظة على الأجانب، وليس على السكان العرب - والدليلُ على ذلك.. هو أن آلاف المحلات العربية نُهبت أمام أنظارهم.. فلم يتدخلوا، ولم يطلقوا رصاصة واحدة لمنع المهاجمين - لأن المنكوبين لم يكونوا أجانب ..

وإنما هم عرب!

* * *

كان «عبد الله النجار».. من «بني معروف»: قلباً وقالباً وروحاً، وسخاء يد وعاطفة، ومروءة وبطولة. وقد عشتُ وإياه في بيت واحد بضعة أشهر، وافترقنا بعد ذلك سنة ١٩٤١ ولم نلتق بعدها إلا في موسكو سنة ١٩٥٥ - حيث كنتُ

عضواً في الوفد السوري الذي دُعِيَ من مجلس السوفيات الأعلى، كما سيجيء. وقد زرتُ وأعضاء الوفد السفارة اللبنانية ــ وإذا بـ «عبد الله النجار» هو السفير. وحينما رآني أبدى اغتباطاً كبيراً، وأمسك بيدي، ودخل إلى احدى الغرف، ونادى زوجته وقال لها:

هذا هو صديقي «عبد اللطيف» الذي حدَّثتك كثيراً عنه، وتلطف وذكرني بعبارات كريمة.. وألحَّ عليَّ أن أبقى في ضيافته الفترة التي أستطيع بعد انتهاء زيارتنا للاتحاد السوفياتي. فشكرتُه واعتذرتُ ـ لأنَّ البرنامج كان يقضي بزيارة عدد من الدول الاشتراكية كنّا دعينا لزيارتها ـ كما سيجيء. وكان ذلك آخر العهد به.. إذ أنه اغتيل وعقيلته في أحداث لبنان ـ رحمهما الله.

* * *

في اليوم الثاني لاحتلال الانكليز مدينة البصرة، سمحوا بالتجول ٤ ساعات في اليوم. وبعد ذلك أبيح التجول من الساعة ٧ صباحاً إلى الساعة ٧ مساءً ــ بعد أن تأكد العدو من أنه ليست هناك مقاومة ضده ــ وكانت الشرطة العراقية قد انسحبت إلى حيث فلول الجيش العراقي بعيداً عن البصرة.

واجتمعنا نحن ــ المدرسين السوريين واللبنانيين والفلسطينيين ــ لنتدارس وضعنا، ونقرّر مصيرنا. رأى الجميع أنه لم يعد ثمَّة مجال للبقاء في البصرة.. وأنه لا يمكن السَّفر إلى بغداد نظراً لحالة الحرب.. ولأنَّ القبائل البدوية ــ كما قيل لنا ــ تقطع الطرق، ولا يسلم منها متسللون.. فضلاً عن أنه لا يوجد صاحب سيارة يجازف بنفسه، ويسلك طريقاً صحراوية في مثل تلك الفوضى العارمة. واتفق الجميع على السفر إلى ايران، ومنها إلى تركيا ــ حيث يمكن العبور منها إلى سورية ولبنان.

وكنتُ زرتُ قنصل سورية الفخري، في البصرة، وطلبتُ اعطائي، جواز سفر.. فطلب مني أوراقاً رسمية تثبتُ أني سوري ــ وهو ما كان يطلبه مني موظفو القنصلية الفرنسية في بغداد.. ولم يكن معي شيء من الأوراق المطلوبة. وكانت السلطات الفرنسية هي الوحيدة التي تضطلع بمسؤوليات اعطاء جوازات سفر، أو

التأشير عليها.

وهكذا كنتُ.. كلما راجعتُ موظّفي القنصلية الفرنسية ببغداد، بحجة فقدان جواز سفري لاعطائي بديلاً عنه.. كانوا يحجمون - لأنـي لا أحمل هويةً سورية. ولم أستطع إطلاعهم على بطاقة «الاقامة».. التي أُعطيت لي بصفتي «لاجئاً سياسياً» ـ لأنهم لو اطلعوا عليها، وقد عرضتُ عليهم عقد التدريس مع الحكومة العراقية.. فكانوا يجيبون بأنهم يريدون إثباتاً سورياً - لا عراقياً!

وفي احدى المرات.. ذهبتُ مع صديق، كانت له صلة بموظفي القنصلية الفرنسية، فصرخ بوجهي الموظف الشرس الذي كنتُ أراجعه.. وطلب مني الخروج من القاعة.. فخرجتُ ولم أعد.

وكتبتُ لعمي «الشيخ ياسين» أرجوه بذل جهوده ليحصل لي على بطاقة هوية، وكان يطلق عليها اسم «تذكرة نفوس»، وقد تلطّف وبذل جهوداً مضنية من أجل ذلك حتى أنه اضطر للذهاب إلى اللاذقية بنفسه، رغم شيخوخته ومركزه، وزار المحافظ «شوكة العباس»، ومدير الداخلية «علي الكنج»، ولكن دون جدوى.. مدعيين أنه لا يمكن إعطاء «تذكرة نفوس» إلا للشخص نفسه. والواقع أنهما كانا يخشيان معارضة الفرنسيين.

واقترح أحد الأنسباء إرسال مضبطة من مختار القرية توافق عليها مديرية المنطقة، وتكون ذات صفة رسمية، وكان اقتراحاً وجيهاً.. وكتبوا لي بهذا الشأن، ورضيتُ بهذا الحلّ ـ لأنه ليس ثمّة وسيلة سواه. وأرسلتُ لهم رسمي ليضعوه على المضبطة.. ولكنّ مدير المنطقة - وكان يطلق عليه اسم «قائمقام» ـ لم يجرؤ على التصديق عليها قبل مراجعة المستشار الفرنسي الذي رفض رفضاً باتاً.

* * *

ذهبتُ وصديقي «إسبر بشور» إلى القنصلية الفرنسية في البصرة.. نطلب اعطائي مجرد «جواز مرور» يتيح لي عبور الحدود العراقية إلى ايران.. فاعتذر القنصل بلباقة ـ مدعياً أن هذا ليس من اختصاصه!

وعدتُ إلى إخواني أعتذر منهم ـ لعدم تمكني من مرافقتهم إلى ايران، وكانوا

قد حصلوا جميعاً على تأشيرات دخول من قنصليتها العامة في البصرة.

ومرّة أخرى.. وقف «إسبر بشور» موقفاً نبيلاً ـ إذ اعتذر هو أيضاً، قائلاً لزملائنا: لا أستطيع أن أترك «عبد اللطيف » وحده. وكان له ـ كما ذكرت ـ أثره وتأثيره في تلك المجموعة من المدرِّسين.. ووُجد من وقف موقفه، وأثبت غيرته وطيبته، وشعرتُ بحرج تجاههم، فقلت لهم: سأعمل على سفركم، إلى بغداد، والوصول إليها سالمين مطمئنين ـ بإذن الله.

ولم يثق بعضهم بهذا القول.. ولم يطمئن إليه ـ نظراً لصعوبة المسعى واستحالته، ولكنّي انطلقت أسعى. وكانت لي صداقات كثيرة وعميقة في البصرة ـ وخاصة مع قاضي الشرع الجعفري السيد «محمد علي الكاظمي»، صديق السيد «عبد الوهاب الصافي» الذي كتب له عني، وأوصاه بي كثيراً.. فكان لي بعده خير صديق وأليف.

ورجوتُ «السيد الكاظمي» أن يساعدنا بتهيئة السفر إلى بغداد. ففاجأني بقوله إنه هو نفسه سيسافر مع أسرته، وإنه يتهيأ مع بعض الأصدقاء للسفر، ويمكننا الانضمام إلى موكبه ونسير معاً.. وتعهّد بإيصالنا إلى منطقة «الكوت»، ومنها نسافر بالقطار إلى بغداد. وكان وجوده في مقدمة القافلة ضماناً لها ـ لأنه «سيّد» من «آل البيت النبوي» الشريف. إذ بعد أن نعبر خط النار الانكليزي.. يكون الخطر البالغ من «البدو الرُحَّل». ولكن هؤلاء في الجنوب «شيعة».. ووجود «السيد» معنا.. خير حرز لنا، وضامن لوصولنا.

وتلطّف «السيد الكاظمي».. فأرسل رسولاً معي من قبله إلى عند ناس من كرام البصريين يمتلكون سيارة نقل كبيرة «باص»، طالباً منهم أن ينقلونا بها إلى «الكوت». وكان الجماعة أنفسهم أصدقائي، وبعض أبنائهم طلاباً عندي في الثانوية، وكنتُ أزورهم في كثير من المناسبات.. ولما أيقنوا أن «السيد» سيكون على رأس القافلة.. وافقوا على تأجيرنا سيارتهم الكبيرة وتساهلوا معنا.

وعدتُ إلى زملائي أزفّ إليهم البُشرى، فقال لي أحدهم: أسْرِعْ واختبيء؟.. فالجنود البريطانيون يبحثون عنك، وعن ثلاثة زملاء معك، وهم: «جورج حداد»

و«رفيق هنين»، و«عبد الرحيم محمود». ولم يتركوا مكاناً في الحيّ إلا وتحروه بحثاً عنكم. وقد توارى زملاؤك الثلاثة، وفرّوا إلى البصرة القديمة قبل أن يلتقطوهم.

وكنا نحن الأربعة.. قد تقدمنا بطلب إلى قيادة الموقع العسكري في البصرة للتطوع بالجيش ـ منذ اليوم الأول لاعلان الحرب ـ بين العراق وبريطانيا وقُبِلَ طلبنا، ولبسنا بزات عسكرية ـ كما مرّ بنا.

وقد عهدوا إلينا بأعمال كتابية ـ على أن يرسلونا، فيما بعد للتدريب. وحتماً وقع طلبنا بأيدي السلطات العسكرية الانكليزية، فأصدرتْ قراراً باعتقالنا نحن الأربعة. وأمّا بقيّة زملائنا فلم يتعرضوا لهم. ولم يكن المرحوم «عبد الله العبد الله» تلك السنة في البصرة ـ وإلا لكان في طليعة المتطوعين ـ نظراً لوطنيته وحماسته.

وانتحيتُ بزميلي جانباً، وأخبرتُه بما جرى معي، ورجوتُه أن يسرع ليخبر بقية الزملاء كي يتهيّؤوا للسفر بقافلة القاضي «الجعفري» ـ وهو خير ضامن لنا في الطريق من قبائل البدو.. وأخبرتُه عن المكان الذي سأختبىء به في البصرة.. وقد حرصتُ على أن يكون في بيت أحد أصحاب السيارة أنفسهم، وهو على مقربة من دار «القاضي الجعفري»، ورجوتُ زميلي الاتصال بي دائماً لانهاء اجراءات السفر.

فسُرَّ زميلي كثيراً بهذا النبأ.. وذهب مسرعاً ليزّف البُشرى إلى بقيّة الزملاء.. وكانوا ينتظرون نتيجة مساعيّ، وهم في شك من نجاحها، و«إسبر» يقول لهم: إنه يستطيع وسترون.

وكانت اتصالات الزملاء بي مستمرة.. واتصالي بسماحة «السيد» مستمر أيضاً.

وتحدّد يوم السفر. وذهب صديقي «إسبر بشور» إلى غرفتي.. فرتّب لي ملابسي وأغراضي في حقيبتي، وبقيت كميّة من الأوراق التي لم يكن ثمة مجال لحملها ـ وكم كانت عزيزة علي. وانتقل الزملاء بسيارات أجرة إلى البصرة

القديمة ـ حيث توجد السيارة الكبيرة المعدّة لنقلنا، ولم يكن الجيش الانكليزي قد دخل البصرة القديمة ـ بل ولم يقترب منها.. وإنما اكتفى بالضاحية الجديدة «العشار» ـ كما أسلفت. إذ لم تكن تهمه الأحياء السكنية المزدحمة بالعراقيين، ولا الأسواق التجارية، مهما كان شأنها، وإنما تهمّه المواقع العسكرية وإحكام سيطرته عليها، وعلى الملاحة في «شط العرب»، وهذا ما حققوه!

* * *

وسارت القافلة مع الفجر، وهي مؤلفة من بضع سيارات ـ في طليعتها سيارة «القاضي الجعفري» الذي كان لنا بمثابة «جواز مرور».. في المناطق التي يسيطر عليها «البدو الرُّحّل» بالجنوب. وكانت أعمالهم الوحشية في أسواق البصرة ـ العشار ـ وما حولها.. موضع استهجان كبير من أئمّة الشيعة، وعلمائها ووجهائها وشبابها المثقف.. بل من أبناء الشعب كافةً.

والشيعة في العراق ـ وأكثر سكان البصرة من الشيعة.. معروف عنهم الشهامة، والتمسك بأهداب الدين الحنيف.. ثم الاستماتة بالمحافظة على الغريب ورعايته وحمايته. ولكن بعض البدو الرُّحّل لم يكن يتقيّد بهذه المبادىء، ولا يعترف بها ـ وربما لا يعرفها!

وسرنا على طريق صحراوي. وما إن ارتفعت الشمس، وبدأت ترسل أشعتها اللاهبة حتى وصلنا إلى مقابل «مطار الشعبية» ـ وهو أحد المعسكرين الهامّين اللذين احتفظ بهما الانكليز، بموجب المعاهدة التي فرضوها على العراق بعهد «الملك فيصل». وما إن وصلنا مقابل المعسكر الانكليزي.. حتى تحركتْ دبابات، ووقفتْ تعترض طريقنا، وتصوّب مدافعها نحونا. فتوقفت القافلة، وبدأت طائرتان انكليزيتان تحومان حولنا باستمرار!

وظللنا على هذه الحال عدة ساعات، والنساء يلوحن بمحارم بيضاء من نوافذ السيارات، وأحياناً يخرجن رؤوس أطفالهن وهم يبكون ويصرخون ـ ولكن دون جدوى. وبرود الدم الانكليزي مضرب الأمثال!

وقرّر بعض الزملاء أن ننزل جميعاً على الأرض ـ واحداً واحداً.. ونحن نرفع

الأيدي إلى أعلى، وبدأوا بالنزول. ورفض «إسبر بشور» و«عبد الله النجار» أن ينزلا من السيارة.. وبقيا فيها، وبقيتُ معهما.

ورآهم من في السيارات الأخرى فاقتدوا بهم ـ وفي طليعتهم القاضي «الجعفري»، ببزّته السوداء المهيبة. وبقوا مصلوبين في العراء فترة غير قليلة. والأطفال، وكان عددهم غير قليل، بعضهم يلعب، وبعضهم يبكي، وآخرون يتلاكمون ويتخانقون ويركضون وراء بعضهم.. ومنهم من وصل إلى قرب الدبابات وصار يرميها بالتراب الممزوج بالرمل.. ودموع النساء تجري من مآقيهنّ، فينزلن أيديهن ليمسحن الدموع المنهمرة.. ثم يُعدن رفعها مع المناديل البيض إلى أعلى!

ومع كل هذا.. فقد بقيتْ الدبابات في أمكنتها لا تتحرك.. وقد صوبتْ أفواه مدافعها نحونا!

وبعد فترة طويلة من «الدراما» المحزنة.. وحرارة الشمس اللاهبة تكوي الأجساد.. ورؤية الأطفال والنساء مؤثرة ومثيرة ومحزنة.. بعد تلك الفترة القاسية التي استمرت عدة ساعات.. تحركت الدبابات، وأخلت الطريق، وعادتْ إلى قواعدها. وحينئذٍ انطلقت القافلة تتابع سيرها.. والطائرتان الانكليزيتان تحوّمان فوقنا وحولنا لمراقبتنا.. فتغيب احداهما فترةً للتزودّ بالوقود ـ كما يبدو.. ثم تعود لتذهب الأخرى، وهكذا دواليك.. حتى وصلنا إلى قرب المواقع العراقية في الكوت، فاختفت، واختفى معهما الهلع والجزع.

وكنّا كلّما اعترضتْ طريقنا مجموعةُ من البدو.. ينزل «القاضي الجعفري» من السيارة.. وما أن تبدو عمّته السوداء، ولباسه الدينيّ الوقور، حتى يفسحوا لنا الطريق، وبعضهم كان يسرع إلى تقبيل يده، والتبرك بها.

وما إن وصلنا إلى مدخل مدينة «الكوت».. حتى نزل «السيد» من سيارته يودّعنا، فودّعناه، شاكرين ممتنّين. وتابع ورفاقه سيرهم إلى «النجف الأشرف»، وبقينا نحن تحت رحمة الجنود العراقيين، وأكثرهم من البدو يسألوننا «من أين أنتم»؟. وكيف جئتم؟ وهؤلاء النسوة.. أليسوا «زيناتْ» يهوديات؟ وكيف سمح

لكم الانكليز بالخروج من البصرة.. لو لم تكونوا من مؤيديهم ومساعديهم؟ وغير ذلك من الأقوال والتهم، والأسئلة الجارحة السخيفة!

وشرعتُ ألاطفهم، وأقرأ لهم أشعاراً بمدح «آل البيت»، وما أحفظه من القرآن الكريم، وأروي لهم أحاديث ونوادر كثيرة عن الأئمة المعصومين، وقلتُ لهم: أنا شيعي مثلكم. وذكرتُ لهم بعض أئمة الشيعة وأعلامها ومجتهديها ـ مثل: «السيد محمد الصدر»، و«السيد محسن الأمين»، و«السيد عبد الحسين شرف الدين»، و«السيد عبد الوهاب الصافي» وغيرهم. وقلتُ لهم:

هؤلاء كلهم لي صلات وثيقة بهم. وطلبتُ منهم أن يتصلوا بـ «السيد محمد الصدر» في بغداد، ويذكروا له اسمي، ليعرفوا صحة ما أقوله لهم.

ومع ذلك.. فقد ظلّ بعضهم مصراً على أن يقتادونا «أسرى حرب»، ويصادر أمتعتنا وأغراضنا.. مؤكداً أن «الزّينات»، أي النساء الموجودات معنا، هنّ يهوديات ـ لأنهن غير محجّبات! وهم يعتقدون أن النساء المسيحيات يتحجبن مثل المسلمات.. وربّما أنهن هكذا في بعض مدن العراق المحافظة ـ مثلما كنّ في مدينة «حماه» بسورية حتى مطلع هذا القرن.

وعبثاً حاولت اقناعهم.. وأنا أقرأ لهم آيات من القرآن الكريم، وكثيراً من الأشعار وأخيراً وقفتُ على مرتفع بقربي وصحتُ بأعلى صوتي:

أيها الأخوان: أنا شيعي مثلكم. وأنا أستحلفكم بـ «أبي الحسنين»، وبدم «الحسين» أن لا تجعلوا هؤلاء الأخوان العرب يحملون عنّا فكرة غير كريمة.. وأنتم المعروفون بشهامتكم وغيرتكم وأريحيتكم، وكرمكم وناموسكم، وأنا أقول لكم ما قاله الامام «جعفر الصادق» عليه السلام للخليفة العباسي «المنصور» الذي كان يريد قتل الامام، فقال له:

أنا أذكر لك ثلاثة أنبياء لتقتدي بمن تشاء منهم: «يونس» ابتُليَ فصبر، و«يوسف» أُعطيَ فشكر، و«محمد» أوذي فغفر. فوقف الخليفة وقال: أهلاً بك يا بن بنت الرسول، واحتضنه، وأجلسه إلى جانبه.

عندئذٍ اندفع أحد الجنود، ويبدو أنه كان له تأثيره على رفاقه، وصاح: اذهبوا

في سبيلكم «آغاتي»، الله يسهل لكم. فشكرته، وقرأتُ الفاتحة، ودعوت له ولأخوانه، وأن ينصر الله العراق على أعدائه المجرمين.

وذهبنا.. ونحن لا نصدق أننا أُفلتنا وصرنا أحراراً. وكان ذلك الموقف من أقسى المواقف التي مرّت عليَّ في حياتي، ليس بالنسبة لي ـ لأني اعتدت على المخاطر والمجازفات، والله أنقذني منها.. بل لأني المسؤول عن ارتياد زملائي تلك الطريق المحفوفة بالمخاطر، وإقدامهم على تلك المجازفة التي لم تكن مضمونة العواقب. ولم يكن في ذلك المكان مسؤول كبير يمكن اللجوء إليه.. وإنما كلهم جنود من أبناء البدو! ولو اقتادونا أسرى.. فلا يعلم غير الله مصيرنا.. ولو أطلقوا سراحنا بعد ذلك.. فإننا نكون قد قاسينا الأمرّين في الاعتقال.. وتكون أمتعتنا، وكلّ ما معنا، قد استولى عليه الجَنود.

وركبنا السيارة، وتابعنا سيرنا إلى محطة القطار.. حيث حجزنا مقاعد في القطار المسافر إلى بغداد تلك الليلة. وطوال الطريق.. والزملاء يشكرونني، ويثنون على موقفي، ويقولون: لو أننا ذهبنا إلى ايران وتركيا.. لما عرفنا ماذا كان سَيحلّ بنا ـ فضلاً عن النفقات الباهظة التي نتكبّدها، والصعوبات التي نلاقيها. وكم كنتُ سعيداً بنجاح الخطة التي رسمتها وتم تنفيذها والحمد لله.

* * *

صباح اليوم الذي وصلتُ فيه بغداد.. ذهبتُ إلى دائرة التجنيد في الجيش العراقي، وقدمتُ طلباً أُعلن فيه تطوعي للقتال مع إخواني العراقيين، وقد التقيتُ الكثيرين من الشباب السوريين واللبنانيين والفلسطينيين، محتشدين في دائرة التّجنيد للتطوع. فرحب بنا المسؤولون العراقيون وأخذوا عناوين إقامتنا ووزّعوا علينا بعض الأعمال الادارية والثقافية ـ على أن يتمَّ نقلنا إلى قطعات التّدريب بعد ذلك.

أمّا الصديق «إسبر بشور».. فقد رغب بالسفر الفوري إلى سورية، وكان ذلك عسيراً جداً ـ لأن البلاد في حرب مع الانكليز، ووسائل النقل كلها تحت تصرف الجيش لنقل الجنود والمعدات، وحاجات التموين.. فضلاً عن أن الحدود بين

العراق وسورية كانت مغلقة ـ حيث أن الجيش الفرنسي الموالي لديغول، والذي قد عُرِف باسم قوات فرنسا الحرة، كان قد بدأ بمعونة الجيش الانكليزي الهجوم على سورية ولبنان لاحتلالهما، واقصاء جيش حكومة «فيشي» التي كان يرئسها «الماريشال بيتان» الذي كان يتعاون مع الألمان ـ لاقصاء جيشه عن سورية، واستيلاء «الديغوليين» أنصار بريطانيا عليها.

فذهبتُ إلى «السيد محمد الصدر» ورجوته بشأن صديقي «إسبر» وبقيّة الزملاء الراغبين بالسفر.. فاتصل سماحته بوزير الدفاع وألحّ عليه لتسهيل سفرهم، وبعد أخذ وردّ، عدة أيام، تمكن سماحته من تدبير أمر السفر. وقد أرسل معنا مرافقه الخاص؛ باحدى سيارات «مجلس الأعيان» إلى محطة القطار. وهناك ودّعتُ صديقي «إسبر بشور».. وقد امتزجت القبلات بالدموع.

* * *

في الثامن والعشرين، من الشهر نفسه ـ أيار تلقيتُ كتاباً من «الحاج أمين الحسيني» يشعرني بقبول طلبي للتطوع، ويطلب مني الالتحاق بالكتيبة السورية، اللبنانية، الفلسطينية، التي شُكِّلت برئاسته، وكانت تعمل تحت اشرافه المباشر. فسررتُ جداً واغتبطتُ ـ لأني نذرتُ نفسي للكفاح والجهاد ضد المستعمرين.. وأداء الواجب القومي في سبيل أمتي وبلادي. وكانت أجمل أمنية عندي.. أن يتحقّق لنا حلم النصر، أو الشهادة.

وبدأت بتهيئة أمتعتي لأودعها في عهدة صديق. وكان قد تحدّد موعد التحاقي، ورفاقي المتطوعين، بالكتيبة العسكرية في أول شهر حزيران ـ أي بعد يومين من وصول كتاب القُبُول. ولكن الأحداث المخيِّبة للآمال.. كانت أسرع من ذلك، مع الأسف والألم والأسى!

في اليوم التاسع والعشرين ـ أي في اليوم الثاني لوصول الكتاب.. كنتُ أزور «السيد محمد الصدر» في مكتبه، وقلتُ له: إن الأخبار «طيبة» ـ حسب التعبير العراقي ـ وإنّ الجيش يتقدم باستمرار نحو معقل الانكليز. وكنتُ أزوره لأودعه ـ وأنا ذاهب للتدريب والقتال ضد العدو اللئيم، فأمسك بيدي، وأخرجني معه إلى

الشرفة المطلة على نهر دجلة، وقال: اسمع.. وإذا بأصوات مدافع بعيدة تتعالى.. وقال لي:

إنهم قادمون إلينا، وسيصلون غداً أو بعد غد.. فلا تصدّق ما تسمعه بالاذاعة.

وعاد إلى مكتبه، والكآبة مرتسمة على وجهه.

كان السيد«محمد الصدر» طويل القامة، عريض المنكبين.. يطفح الأنس من وجهه السّمْح الوقور. وكان ذا لحية طويلة مكتنزة، تستلفت النظر، وتضفي على وجهه الوسيم مسحة من المهابة والوقار.

وللمناسبة أروي هذه الحادثة التي تُروى في العراق كله.

وليّ عهد ايران الذي أصبح «شاهاً»، فيما بعد، وأقصته الثورة التي حمل لواءها «آية الله الخميني»، كان في زيارة رسمية للعراق بعهد «الملك فيصل الأول». وأقام الملك مأدبة عشاء حافلة. ونظراً لمركز «السيد الصدر»، وهو رئيس مجلس الأعيان، ويرأس «مجلس الوصاية» ـ حينما يغيب «الوصي على العرش»، كان مقعده إلى جانب وليّ العهد الايراني الذي قال له بكل وقاحة: لماذا تجعل لحيتك طويلة هكذا؟ فأجابه السيد «الصدر» بلهجته الفخمة، وصوته الجهوريّ المهيب:

لقد حدثونا كثيراً عن لباقتك وتهذيبك.. ولم نصدّق ـ حتى رأيناك وسمعناك! حقّاً إنك انسان مؤدّب ومهذّب.. وأنا أهنىء والدك بك.

وران على القاعة صمت وذهول طوال حفلة العشاء.. وبلغ شاه ايران، الأب، بنفس الليلة، ما حدث.. وهو يعرف جيداً مقام «السيد محمد الصدر»، ومركزه الضخم، في العراق.. فاستدعي ابنه فوراً إلى طهران.

ومرّة كنتُ في منزل « السيد الصدر » في الكرخ، وجاء لزيارته «رشيد عالي الكيلاني»، وكان رئيس الوزارة حينذاك.. فوقف له «السيد» عند دخوله، ووقف له عند خروجه، ولم يخطُ خطوةً واحدةً ـ لا في استقباله، ولا في وداعه.

لقد كان «السيد الصدر» زعيماً كبيراً ـ بل زعيم الزعماء العراقيين كافة، ولا أستثني.

ويُروى.. أن والده «السيد حسن الصدر» كان هو المرتقَب لأن يكون ملكاً على العراق. ولكنّ الانكليز نصّبوا «فيصل» ملكاً ـ بعد أن أقصاه الفرنسيون عن عرشه في سورية.

* * *

في ٣٠ أيار دخل الجيش الانكليزي بغداد، وفي مقدمته «الأمير عبد الله» ـ ولم يكن قد أصبح ملكاً للأردن بعد.. وكان معه «الأمير عبد الإله» و«نوري السعيد»، و«جميل المدفعي»، وأعوانهم الذين فرّوا والتجأوا معهم إلى الأردن ـ حيث الجيش الانكليزي يقوده «كلوب باشا»! «أبو حنيك»!

وباليوم نفسه غادر العراق ملتجئاً إلى ايران «رشيد عالي الكيلاني». وقبل مغادرته استدعى موظفين برئاسة الوزارة، وسلَّم المال الموجود بحوزته للدولة، وأخذ منهم ايصالاً باستلامه، ومضى. كما سافر معه مفتي فلسطين «الحاج محمد أمين الحسيني» ـ الذي كان مهيمناً على الضباط الأربعة الذين كانت لهم السيطرة الفعلية على الجيش، ومنهم من ألقي القبض عليه وأعدم، ومنهم من استطاع النَّجاة والذهاب مع «الكيلاني» و«الحسيني» إلى ايران، فتركيا، فالمانيا حيث بقوا جميعاً إلى نهاية الحرب العالمية الثانية. وأما «أكرم زعيتر»، فإنه لم يذهب إلى المانيا، وإنما بقي في تركيا إلى نهاية الحرب.

وصباح اليوم الثاني.. اندفعت الجماهير الغاضبة تقتحم محلات الصهاينة في شارع «الرشيد»، وسواه، وتحطّمها وتدمرها. واندفع الجيش المحتل لمساعدة أنصاره، وللفتك بأعدائهم.. وفتح نيران رشاشاته على الناس جميعاً ـ وبوحشية وضراوة لا مثيل لهما، وقد قُتل في ذلك اليوم مئات العراقيين في «شارع الرشيد» وحده ـ فضلاً عن مئات ومئات الجرحى!

وحينما رُفع حظر التجول، وقت الظهر، لمدة ساعة واحدة فقط، أسرعتُ إلى بيت «الدكتورة ميليا بشور» ـ وكانت قد عادت إلى بغداد من البصرة ـ بعد أن بلغها أن الطبيب الذي طلبها للزواج.. قد تزوج، وانتقل إلى خارج «مشفى الرشيد».. وكان بيتها وعيادتها في الطابق الأرضي من هذا الشارع، وفي زقاق

ضيّق متفرع منه. ولم يكن يبعد عن الفندق الذي أحل فيه إلا مئات الأمتار.. فأسرعتُ الخطى لتفقدها، وتدارك ما يلزمها. ولمّا طرقتُ الباب.. اطلّتْ ـ وفي وجهها علائم الشجاعة والعزيمة والثقة بالنفس.. فدهشتُ، وسررتُ بالوقت نفسه، ولم أخبرها عن أثر الدم البادي على أرض الزقاق، ولكنها هي ذكرت أن قتلى قد سقطوا في ذلك الزقاق ـ نتيجة وجود بعض العراقيين به وملاحقة أفراد الجيش الانكليزي لهم، واطلاق الرصاص عليهم. وعرضت عليها أن تنتقل إلى دار «السيد طه العاني»، أو أحد أنسبائه، وكانوا يحترمونها ويقدرونها، فاعتذرتْ، ورفضت. فغادرت منزلها. وألححتُ عليها أن تخبرني عما تحتاجه من السوق حتى أؤمّنه لها.. فذكرت لي بعض حاجاتها، فأسرعتُ وأمّنتها لها.. وعدتُ إلى الفندق ـ قبل أن تعلن صفّارة الانذار انتهاء مدة الستين دقيقة.. بدقيقتين فقط.

ولم أرَ «الدكتورة ميليا» بعد ذلك، إلا في سورية. ثم رحلتْ إلى خالقها منذ سنوات، رحمها الله.

* * *

صباح اليوم الثالث من حزيران.. زارني «رفيق حنين» ـ وهو أحد الزملاء في البصرة، وكانت له معزّة خاصة في نفسي، وقد أصبح فيما بعد طبيباً ناجحاً في «صيدا» كما بلغني. وكان يقيم بعد وصولنا إلى بغداد في منطقة «الباب الشرقي»، مع مجموعة من السوريين واللبنانيين والفلسطينيين يربو عددهم على الأربعين ـ وأما أنا. فلم أغيِّر الفندق الذي اعتدتُ النزول فيه، وهو يقع في منتصف «شارع الرشيد»، وهو الشارع الرئيسي في بغداد.

وأخبرني صديقي «رفيق» أن فئة من «الجيش العربي»، وهو ما كان يُطلَق عليه الجيش الأردني.. وأكثر ضباطه ـ إن لم يكونوا كلهم ـ من الانجليز! وأمّا جنوده.. فأكثرهم من قبائل البدو الرُحَّل في الأردن.. أخبرني بأنهم هاجموا الفندق، واعتقلوا من كان فيه.. وأخذوا أغراضهم وأمتعتهم كلها. ومن حسن حظّه، وحظّي أيضاً ـ كما سيجيء.. أنه لم يكن حينذاك في الفندق، ولكنّ أغراضه

نُهبت كلها، وفيها جواز سفره.. وقد نُقِلَ المعتقلون يومئذ إلى معسكرات الجيش، وعُذّبوا تعذيباً شديداً.. وبعضهم اختفى أثره، ولم يُعرف شيء عنه. وطلب مني «رفيق» أن أذهب معه إلى القنصلية الفرنسية، كي يحصل منها على «جواز سفر» يستطيع بواسطته العودة إلى لبنان. وكان قد سُمح بالتجول ست ساعات ذلك النهار.

وأخبرته عن وضعي في القنصلية، وعما جرى لي بها. وأنه من غير الممكن استطاعتي دخولها ـ بعد أن طلب مني الموظّف المختّص الخروج، وعدم العودة.. وأني إذا رافقتُه إليها قد أضرّه ولا أنفعه. فطلب مني أن أدلّه على مكانها فقط ـ دون أن أدخل معه. فذهبتُ واياه وشرعنا نتحدّث عمّا حصل لنا، وعمّا قد يحصل. واشتركنا بالحديث.. ولم ننتبه إلا ونحن داخل القنصليّة، وأمام الغرفة التي يجلس فيها الموظف الذي كنتُ أراجعه. وإذا بشخص آخر يجلس مكانه، وذلك الموظف الشّرس غير موجود. فدخلنا معاً، وتقدَّمنا من الموظف وحيّيناه، وطلب منا أن نجلس، فجلسنا. وذكر له «رفيق» ما جرى له ولرفاقه في الفندق.. فقال الموظف: لقد بلغنا النبأ.. ونحن مستعدون لمراجعة السلطات العراقية بهذا الشأن. وطلب منه أن يكتب له قائمة بالأغراض التي فُقدت منه. فكتبها له بسرعة وقدَّمها له، وأخبره عن فقدان «جواز سفره»، وطلب اعطاءه بدلاً منه.. فقال له الموظف سنعطيك جواز سفر جديداً، فهات ٣ رسوم.

وانتبهتُ فوراً لجواز السفر.. وكنتُ سعيتُ كثيراً للحصول عليه، ولم أتمكن، فقلتُ للموظف: وأنا أيضاً فُقِد مني جواز السفر بالفندق.. فقال لي ـ كما قال لزميلي سنعطيك بدلاً عنه فهات ٣ رسوم، واكتب لنا قائمة بالأغراض التي سُلِبَتْ منك.. فارتبكت ـ إذ هل من المعقول أن أدَّعي فقدان شيء من أغراضي.. وأنا لم أكن بذلك الفندق، ولم يفقد لي شيء من أمتعتي؟ هذا لا يجوز. وأما «جواز السفر».. فهو أمر آخر، يتوقف عليه مستقبلي ـ وربما مصيري. فقلتُ له: إن أغراضي لم تفقد كلها.. وإنما فُقد بعضها.. ولا يجوز أن أقدّم لائحة قبل التأكد من الأغراض المفقودة.. حتى تكون المعلومات التي نقدمها للسلطات المختصة دقيقة

وواقعية. قال: هذا صحيح.. ولكن عُدْ إلى الفندق، وتحرَّ الأغراض المفقودة وتعال إليَّ. قلت أخشى أن يسألوني في الطريق عن جواز سفري، وقد فُقِدَ أيضاً. فقال: اذهب مع رفيقك واجلب لي ٣ رسوم، وأرني وثيقةً تُثبت أنك سوري. فقدمتُ له صكّ تعاقدي مع وزارة المعارف العراقية للتدريس، فقال: هذا يكفي ـ لأن فيه إثباتاً بأنك سوري.

وذهبتُ وزميلي بسرعة، فأخذنا صوراً عن باب القنصلية، وفي أقل من ساعة.. كان كلّ منا يحمل جواز سفر في جيبه. فسبحان المدبّر والميسّر.

وهذا أيضاً من غرائب القدر! فكم تعبتُ، وأتعبتُ آخرين، للحصول على جواز سفر، ولم أوَّفق.. إلى أن قيّض لي الله تلك المناسب العجيبة.. فأذهب مع ذلك الصديق ـ دون ارادة مني.. ثم أدخل دار القنصلية الفرنسية دون أن أشعر.. وإذا بذلك الموظف الفظّ الذي وقف مني مواقف شرسة في السابق.. غير موجود، وإنما ثمّة شخص آخر قد حلّ محله.. فأطالب بما طالب زميلي، وأحصل على ما حصل عليه ـ دون ترقّب وتهيّؤ وانتظار!

أليس ذلك من غرائب القدر؟! شكراً لك يا ربي.

* * *

صباح اليوم الرابع من أيار.. كنتُ جالساً في مقهى تحت الفندق.. أتناول طعام الفطور ـ كعادتي في كل يوم.. وإذا بأحد أقرباء «السيد طه العاني» يلمحني وأنا جالس بمحاذاة النافذة وقرب الباب، فيدخل المقهى وعلائم الاضطراب والقلق والارتباك بادية على وجهه، وقال لي بلهجة سريعة وحازمة: انهض، انهض.. أمامك عدة دقائق فقط، وجرى أمامي فلحقتُه.. وإذا به يصعد سلّم الفندق بسرعة مخيفة، وأنا خلفه بنفس السرعة.. ولا أعلم ماذا جرى، ولا لماذا هذا! واتّجه نحو صاحب الفندق يقول له: اعمل حسابه فوراً، فهو مسافر. ودخل غرفتي، وكنتُ ذكرتُ له رقمها ونحن نصعد الدرج راكضين.. فجعل يضع أمتعتي ركاماً فوق بعضها، وأنا أفعل مثله ـ ولا أدري لماذا! ومازاد على الحقيبتين حشرناه في أكثر من قميص.. وقد تركنا بعض الأغراض الصغيرة دون أن نبالي بها ـ نظراً

للسرعة الفائقة.. وخرجنا من الغرفة كلٌ منا يحمل حقيبة في يده، ووضع على مكتب صاحب الفندق دنانير عراقية، وقال له: الباقي للخدم، وهبط الدرج بسرعة، وأنا أجري وراءه. ولما وصلنا الشارع اتجه يميناً بضعة أمتار، وأوقف عربة خيل لنمتطيها.. وبينما نحن نصعد إليها التفت وراءه.. وإذا بسيارة عسكرية يهبط منها عدد من الجنود، فقال: هاهم وصلوا.. لقد جاؤوا ليعتقلوك فلنسرع.

شهد الله.. لم يكن بيننا وبينهم إلا أقل من دقيقة! فتأمل!

أليس هذا أيضاً من عجائب القدر.. وحكمة المولى التي لا تُدرك؟

وبعد أن سارت بنا عربة الخيل بضع مئات من الأمتار، وسط «شارع الرشيد» المليء بالسيارات وبالناس، ترجّلنا منها.. وقال: قد يلحقون بنا في الشارع.. ولكن حتماً لن «يصدّقوا صاحب الفندق انك خرجتَ قبل لحظات من وصولهم.. بل سيتحرون الغرف كلها، ثم يخرجون للبحث عنك، ونكون حينئذ قد اجتزنا منطقة الخطر بإذن الله».

ووصلنا إلى جانب نهر دجلة، وركبنا زورقاً أوصلنا إلى الجانب الآخر «الكَرْخ».. وهناك أخبرني بأنه يعمل في «الدائرة السريّة» بمديرية الشرطة.. وأنّ مهمته هي التنصُّت على الهاتف، والتقاط الهام من المحادثات، واخبار المسؤولين، وقد سمع هاتفاً يعطي أمراً بالقبض على كافة السوريين واللبنانيين والفلسطينيين الذين تطوعوا بالجيش العراقي. وقد حدّدوا عدداً منهم بأنهم «خطرون»، ومتحمسون كثيراً للثورة، وأنه يجب القبض فوراً عليهم ـ وكان اسمي بين تلك الأسماء الخطرة التي ذكرناها، وذكروا بالهاتف اسم الفندق الذي أحلُّ فيه.

ولما سمع اسمي، ذلك الانسان النبيل، ذو الأريحية النادرة المثال.. رمى الهاتف من يده، وأسرع إلى فندق «الأهالي الجديد» ـ وكان قد عرف اسمه من المخابرة. فجزاه الله خيراً، وألف شكر لعاطفته ومروءته.. ولولا موقفه النبيل ذاك، وإسراعه بالذهاب إليّ ورؤيته إياي في المقهى، ربما أن هذا القلم ليس في يدي الآن.

وقال ذلك الانسان الطيب: إنك لا تستطيع الاختباء في بيت «السيد طه» ـ لأن صلتك به وبأقربائه جميعاً معروفة. وحينما حصلتَ على الإقامة بصفة «لاجىء سياسي».. وضعتَ عنوان إقامتك في بيت السيد طه. ولذلك يجب أن تختبىء في دار أحد أصدقائك الآخرين.. الذين لا صلة لهم بنا، ولا صلة لنا بهم.

وفعلاً تحرّوا بنفس اليوم، والأيام التي تلته، بيت «السيد طـه»، وبيوت أبنائه وأقربائه بحثاً عني.. وكذلك محلاتهم التجارية في حي «الصفافير».

وخطر في ذهني فوراً اسم السيد «محمد رضا شرف الديـن»، سكرتير مجلس الأعيان، وهو من أعز أصدقائي، وكان يقيم في مدينة «الكاظمية» التي يوجد فيها مقام «السيد موسى الكاظم» عليه السلام، وقد سُمِّيت باسمه ـ وهي متصلة بحيٍّ «الكرخ» الضاحية الجنوبية من بغداد، ولا يفصلها عن «الرُّصافة» الضاحية الشمالية إلا نهر دجلة ـ وبينهما جسر ضخم جداً.

وركبتُ عربة خيل، واتجهت إلى دار صديقي «السيد محمد رضا»، وحينما طرقتُ الباب، سألتْ حرمه من الداخل: مَنِ الطارق؟ فذكرتُ لها اسمي، وقلتُ لها: إني ملاحق من السلطات العسكرية.. ففتحتْ لي الباب ـ وهي تعرف مدى الصلة الوثيقةُ التي تربطني بزوجها، وكنتُ أتردد دائماً على دارهم، وقالت لي: من وراء باب غرفتها: البيت بيتك، أهلاً بك.

ولما جاء «السيد محمد رضا»، بعد انتهاء دوامه بـ «مجلس الأعيان»، رحّب بي كثيراً.. وقضيتُ في داره العامرة ثمانية عشر يوماً لا أبرحها ـ إلا في بعض الأمسيات، حيث نذهب إلى مقهى منعزل لا يؤمّه إلا بعض أبناء مدينة الكاظمية. وطبعاً كنتُ أتنكّر في ملابسي.

في تلك الفترة ــ وهي ثمانية عشر يوماً.. استطاع «السيد محمد الصدر» رئيس مجلس الأعيان، بما له من نفوذ واسع، أن يحصل لي، من وزير الداخلية نفسه، على إذن لي بالخروج من العراق، ودون علم السلطات العسكرية بذلك. وقيل لي: هذه تتعلق بالمخافر الإدارية فقط.. وعليك أن تتحاشى النقاط العسكرية تحاشياً تاماً ــ لأن تعميماً منها قد وُزِّع لإلقاء القبض عليك.

وعلمتُ بعدئذٍ.. أنَّ أكثر الذين تطوعوا بالجيش العراقي واعتُقِلوا.. قد اختفتْ آثارهم، ولم يُعرف عنهم شيء. وقيل إنهم أعدموا!

وقد تلطف «السيد محمد رضا شرف الدين» فرافقني إلى محطة القطار الذاهب إلى سورية حوالي منتصف الليل، وهناك ودَّعني جزاه الله خيراً.

* * *

في تلك الأثناء.. كان الجنرال الفرنسي «كاترو»، بعد أن احتلَّ جيشه دمشق، قد حلّ مجلس المديرين الذي يرئسه «بهيج الخطيب»، وأصدر بياناً بالتراجع عن الملاحَقين السياسيين، وطيّ الأحكام التي صدرَت بحقهم، وشكَّل حكومة جديدة برئاسة «خالد العظم».

وقد شملتني تلك الاجراءات.. كما شملت غيري من اللاجئين السياسيين، والسجناء جميعاً، ولذلك قرَّرت العودة إلى سورية.

* * *

في القطار.. فوجئتُ برؤية صديقي «الملازم محمد رضا استانبولي» وعقيلته السيدة «فاطمة». وكان السيد «استانبولي»، وهو ضابط سوري سابق، يعمل مدرِّساً في العراق بعد خروجه من الجيش الفرنسي. وكان قد تطوع في الجيش العراقي بحربه ضد الانكليز، ولوحق مثلما لوحقنا.. ولكن زملاءه الضباط العراقيين استطاعوا أن يخفوه، وأن يؤمِّنوا خروجه وحرمه من العراق، بطرقهم الخاصة. وكنتُ والملازم «استانبولي» دائماً على موعد لقاء في بغداد، وتربطني به وبأسرته صلة وثيقة العُرى ـ قبل أن نلجأ إلى العراق. ولذلك أنستُ بلقياه، وعقيلته المتديِّنة السيدة «فاطمة» التي نعمت أخيراً برؤيتها في دمشق، وقد انتقل زوجها إلى رحمة الله.

لم نُوَفَّقْ بالحصول على مقاعد بين الرُكاب ـ إذ أنها كلها كانت معدَّة لأفراد الجيش الانكليزي المتَّجهين إلى سورية.. بعد أن تمَّ احتلالها من الفرنسيين الموالين للألمان، فجلسنا في «عربة فحم» فارغة. وكان «استانبولي» وقرينته يحملان معهما بعض جهاز بيتهما.. فاستلقيا هما على فراش، وأعطياني آخر

انتحيتُ به جانباً، واستلقيتُ عليه.

ووجودنا في عربة فحم، وفي قطار يغصّ بجنود الحلفاء.. أبعدنا عن أنظار العسكريين العراقيين، وحمانا من أعين الرّقباء.. والمفتشين والفضوليين.

وحينما وصلتُ الحدود السورية لم يعترضني أحد. ولما وصلنا مدينة حلب.. كان أول ما فعلته أن ذهبتُ لزيارة «احسان الجابري»، ولم يكن الفرنسيون قد أبعدوه بعد إلى بلدة «عينطورة» في لبنان، وفرضوا عليه إقامة اجبارية فيها طوال سني الحرب الأخيرة. وقد رحّب بي وبصديقي «استانبولي» كثيراً، وقضيتُ أياماً بقربه، وأنا أتردّد عليه يومياً.

كانت سلطات الأمن تراقب بيت «الجابري»، ولاحظتْ تردّدي اليومي عليه ـ وأحياناً أكثر من مرة في اليوم. ففرضت عليّ اقامة اجبارية في حلب ـ على أن أثبت وجودي في دائرة الأمن صباحاً ومساءً كل يوم.. واستمر ذلك عدّة أيام، ثم تركت لي الحرية بعد ذلك، وأُعفيتُ من إثبات الوجود.

فقرّرتُ وصديقي «استانبولي» أن نذهب إلى تركيا معاً، ونقيم في لواء اسكندرون ـ الذي سلخه المستعمرون من سورية وأعطوه لتركيا ثمن حيادها في الحرب، وعدم وقوفها إلى جانب المانيا، كما فعلت في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ وكانت مؤامرة فرنسا وبريطانيا مع تركيا ضد الشعب السوري وأرضه وتاريخه وجغرافية بلاده.. من أقبح المؤامرات وأحطّها وأدناها!!!

ورأيتُ وصديقي «استانبولي» أن وجودنا في مدينة انطاكية، على مقربة من مدينة اللاذقية، يسهّل لنا مراقبة الحالة في سورية، ودخولها متى يصبح الجو ملائماً.

وذهبنا إلى القنصلية التركية نطلب تأشيرة دخول.. فرفضت اعطاءنا. وتوسطنا «احسان الجابري».. ولكنها لم تقبل وساطته، وبقيتْ على رفضها. ولكنها أخيراً وافقتْ على اعطاء «الملازم استانبولي» التأشيرة المطلوبة ـ لأنها علمتْ أنه «جركسي»! وأما أنا العربي فقد بقيتْ مصرّة على رفضها! فتركتُ صديقي يتهيأ للسّفر وحده.. وسافرت أنا من حلب إلى اللاذقية.

في اللاذقية.. سعدت برؤية شقيقتي «زينب»، وكانت أعزّ خلق الله عليّ ـ مثلما هي ابنتها «عائدة» التي ورثت شمائل والدتها، وادّخرتها كلها في نفسها.. فهي تملأ العين والعقل والقلب جميعاً. وكم أنا شديد الاعتزاز بها، وبطيبتها، ونضارة روحها ونفسها.

كما سعدتُ بلقاء «الدكتور علي سليمان الأحمد» زوج شقيقتي «زينب»، وأنا أكِن له محبة وتقديراً. وزرتُ والده العلامة الجليل «الشيخ سليمان الأحمد»، وكان في قرية «السلاطة»، ورغم وضعه الصحي القاسي.. فقد أبدى ارتياحاً وغبطةً حينما رآني. لقد كان لنا جميعاً موجِّهاً ومرشداً. نضّر الله ذكره وذكراه.

* * *

من اللاذقية ذهبتُ إلى صافيتا ومنها إلى قريتنا «بيت الشيخ يونس» ـ حيث فاجأتُ الجميع بوصولي إليها. وقد نعمتُ برؤية والدتي، وأسرتي، وأنسبائي وأصدقائي جميعاً.

وبعد أن أمضيتُ في القرية أسابيع قليلة.. استأجرتُ بيتاً في صافيتا عند «آل توما» ـ وهو نفس البيت الذي سكنه «سعد الله الجابري».. حينما فرض عليه الفرنسيون إقامةً اجباريةً في صافيتا. وقد عمد إلى تعلم اللغة الفرنسية، بواسطة أستاذ «صفتلي». وعلم المستشار الفرنسي بذلك.. فذهب لزيارته، وقال له: لقد بلغنا أنك تتعلم لغتنا، وهذا دليل على أنك تريد التقرّب منا. فأجابه «سعد الله»:

أنت مخطىء يا حضرة المستشار.. فأنا أتعلم لغتكم كي أحاربكم بها. فاغتاظ المستشار، وخرج غاضباً.

وبعد ذلك.. انتقلتُ إلى بيت لـ «آل الصايغ» استأجرتُه، ومكثتُ فيه بضع سنوات. والأسرتان «آل توما»، و«آل الصايغ»، من كرام الناس، وقد أنستُ وسُرِرت كثيراً بحسن جوارهما. وما أزال أحفظ لهما في نفسي كريم أثر، وجميل ذكرى.

كانت بنتي «أمل».. لم تكمل سنتها الرابعة بعد. ومن البداهة أنها لم تعرفني.. وقد استغربت وجودي إلى جانب والدتها وأنكرته. ولكنها بعد أيام ألفتني ولم تعد

تفارقني.

* * *

كان عمي «الشيخ ياسين» قد توفي، وتركت وفاته أثراً عميقاً في نفسي. وأذكر أني مساء يوم خميس ـ وكنت بمدينة البصرة، في العراق ـ رأيت في الحلم أن عمي «الشيخ ياسين» قد توفي. وأفقت مذعوراً.. وأنا أبكي، وكانت الساعة الرابعة صباحاً. وكتبت لأخي «محمود» أستفهم منه عن وضع عمي الصحي.. وكان بلغني أنه تردّى كثيراً. وجاءني الجواب من أخي مطابقاً لما حلمت به ـ وبنفس اليوم والساعة!

أليس هذا من عجائب القدر؟

رحم الله عمي «الشيخ ياسين».. فقد كانت شخصيته ووقاره من أعظم ما رأيت في حياتي.

ورأيتُ الحلم نفسه يوم وفاة عمي «الشيخ عبد الحميد السعيد» ـ وكان من شيوخ العائلة الأجلاء.. فقد رأيتُ في منامي، وأنا في مدينة سان باولو بالبرازيل، أنه تُوفِّي بنفس اليوم الذي تُوفِّي فيه. تغمده الله برحمته، وأجزل ثوابه في الآخرة ـ بقدر ما أفادني في الدنيا.. وكان في طليعة الأتقياء وذوي الوجاهة والسعي لخدمة الناس.

* * *

أنجب عمي «الشيخ ياسين» أربعة أبناء: «محمود» و«غانم»، و«عبد اللطيف»، و«يونس»، وقد رحل الثلاثة الأول إلى خالقهم، وبقي الابن الرابع «يونس» ـ مد الله في عمره، وحفظه بقيّةً صالحةً بعد أبيه وأخوته.

وكانت أملاكنا كلها مشتركة.. يشرف عليها جميعاً عمّي «الشيخ ياسين»، وابنه «الشيخ محمود». وقبل لجوئي إلى العراق، طلبتُ من عمي أن يقسم أملاكنا فيما بيننا ـ تفادياً من حدوث مشاكل وخلافات في المستقبل: فاستجاب لطلبي فوراً، وأعدّ قوائم بأملاكنا، وترك لنا حريّة الاختيار ـ بعد أن احتفظ لنفسه بقطع من الأراضي لدار الفقراء «المنزول».

وكان كبير أسرتنا، بعد عمي، نجله «الشيخ محمود ياسين» الذي كان معروفاً بطيبة القلب، وصفاء الايمان، وقد استمدَّ مركزه من شخصية والده الموحية.

وبدأ أخي «الشيخ ياسين» يحتل مركز والده.

كان انساناً متصوّفاً.. بعيداً عن مطامع الحياة ومغرياتها.. منصرفاً إلى عقيدته الصّافية.. انصرافاً كلياً لا يهمه من دنياه إلا التعبد، ومساعدة الفقراء، وخدمة المسجد. ونظراً لانصرافه عن الدنيا ومغرياتها.. فقد أُطلق عليه اسم «الدرويش»، وأصبح لا يُعرف إلا به ـ حتى أصبح صفةً له ونعتاً ملتصقاً به، وبأسرته.

و«يونس» و«غانم نجلا أخي ياسين.. فيهما الكثير من صفات والدهما: تقىً وصلاحاً، ونزوع نفس لعمل الخير والاحسان.

وقد سبق الحديث عن أخي «محمود».. وأنه كان المسؤول عن أسرتنا والاشراف على أملاكنا وادارتها. وقد اكتسب تجربةً في الحياة.. مكّنته من تقوية معارفه، واثبات وجوده وشخصيته.

وأما عمي «الشيخ طاهر».. فقد أنجب ثلاثة أبناء: «محمود» و«محمد» و«أحمد». وقد عُيّنوا جميعاً معلمين في المدارس الحكومية الرسمية. وأتمَّ «أحمد» دراسته الجامعية، وحصل على شهادة الحقوق وانتقل من وزارة التعليم إلى وزارة المالية ـ وعيّن مفتشاً فيها. ثم استقال لينصرف إلى العمل بالمحاماة. وهو يتمتع بثقة وتقدير عارفيه ـ وقد توفي أخيراً رحمه الله.

أما «محمود».. فقد رحل قبل أن يُتّم رسالته التربوية والاجتماعية، ثم تبعه «محمد» ـ وكلاهما مضى إلى جوار ربه.. ومجالات العطاء تنتظر الكثير منهما. رحمهما الله معاً. وقد أنجب عمي «الشيخ طاهر» أبناء بررة طيبين.. متابعين أثر آبائهم، ومتأثرين بمناخهم الفكري والاجتماعي.

وفي يقيني.. لو أن ابن عمي «محمد طاهر» عُنِيَ بشاعريته وتابع النشر في الصحف، والوقوف على المنابر ـ كسواه.. لكان زحم بمنكبيه الكثيرين من الشعراء الذين حلّقوا واشتهروا. فشاعريته الوضيئة، وأخيلته المشرقة، وديباجته

الناصعة.. كانت تكفل ذلك وتوجيه، ولكنه كان ينظم لنفسه.. وليس للناس.

وإنّ شاعرية ابنه «الدكتور سعد الله».. هي ألقّ من شاعرية أبيه، وصفائها ونقائها وإشراقها.

* * *

كان شبح الحرب مخيماً على البلاد بشكل رهيب. فالغلاء فاحش، وكثير من الأشياء التي تُستورد من الخارج مفقودة.. وإذا وُجدتْ ـ فلا يطال ثمنها خيال. والفرنسيون «الفيشيون» الذين استسلموا للألمان.. قد أُخرجوا من سورية ـ كما أسلفنا ـ وحلّ محلهم أتباع ديغول المتعاونون مع بريطانيا وأولئك «الفيشيون» تعهدوا، عند دخول قواتهم سورية ولبنان، بأن يعترفوا باستقلال «البلدين .. استقلالاً تاماً».

وكان الفرنسيون ـ عند فصل المحافظتين عن دمشق في مطلع سنة ١٩٣٩ ـ قد عُينوا «شوكة العباس» محافظاً للاذقية، و«عبد الغفار الأطرش» محافظاً لجبل الدروز. لكنّ الديغوليين، عندما استولوا على الحكم في سورية، أقصوا رجال الادارة الذين عيّنتهم السلطات الفرنسية السابقة، وعينوا محلهم ناساً آخرين.

وقد أُقصي «شوكة العباس» عن محافظة اللاذقية، وعُيّن مكانه «سلامي مصري زاده» ـ وهو من أصل عربي تقيم أسرته في تركيا.. وكان يتمتع في بلده بزعامة مرموقة تشمل عدّة مناطق، ويملك ثروة طائلة.. استولى عليها الأتراك كلها ـ بعد أن وقف إلى جانب الأرمن المقيمين في مناطق نفوذه.

وكان «سلامي».. يعتمد على الفرنسيين والانكليز لتزويده بالسلاح في دعمه الأرمن، وحمايتهم من بطش الأتراك بهم. ولكن في ليلة ليلاء.. انسحب الانكليز والفرنسيون من الأناضول دون أن يُشعروه، وجماعته، بخطتهم تلك! بل إنّ كبار ضباطهم كانوا، تلك الليلة نفسها، يتناولون طعام العشاء على مائدته! ومن قصره استقلوا سياراتهم، وغادروا المنطقة متجهين إلى سورية.. وتركوه وقومه، والأرمن المطاردين، فرائس بين أيدي الضواري الأتراك! وبعد قتال حادّ استمر أياماً طويلة.. اضطرّ على أثره «سلامي»، وأتباعه، والأرمن، للانسحاب والالتجاء

إلى سورية ولبنان. وأقام «سلامي» في مدينة بيروت.. وقيل أن الأتراك بعد رحيل «أتاتورك» طلبوا منه العودة إلى قصره وأملاكه.. فرفض ـ لأنه لا يثق بهم.

وشعر الفرنسيون بمسؤوليتهم تجاه ما حصل لـ «سلامي» وأسرته.. فخصّصوا له من الموازنة السورية راتباً شهرياً يمكنه من أن يعيش وأسرته حياة كريمة. كما أن الأرمن في لبنان خصّصوا له جُعالةً شهرية سخيّة ـ بعد أن استقرّوا وبدأوا يعملون وينتجون.. وفاءً لما قدّم لهم من حماية، ولأنه اضطر للجلاء عن أرضه، والتخلّي عن ثروته الواسعة بسببهم.

وهكذا عاش موفور الكرامة، سخيَّ المائدة، شامخ الرأس. ثم عيّنه «الديغوليون» محافظاً للاذقية ـ بعد أن أقصوا «شوكة العباس» عنها. وقوبل تعيينه بالترحيب ـ من بعض الأوساط التي كانت تأمل أن يكون بعيداً عن التّيارات الحزبية في المحافظة. وكنتُ التقيت «سلامي» أكثر من مرة في طرابلس وبيروت، وترك في نفسي أثراً كريماً. لكنّ تعيينه محافظاً للاذقية لم يطل أمده إلا أسابيع قليلة. فقد أقال الفرنسيون «خالد العظم» من رئاسة الحكومة؛ وعيّنوا «الشيخ تاج الدين الحسني» رئيساً للجمهورية ـ وهو الضّالع مع الفرنسيين. والذي كان طوال حياته ضد الوطنيين السوريين.

وحينما عُيّن «الشيخ تاج» رئيساً للجمهورية سنة ١٩٤١ شكّل حكومة مؤلّفة من بضعة وزراء.. كان «منير العباس» واحداً منهم، ووالده «جابر العباس»، وهو من أقوى الزعماء في محافظة اللاذقية وأذكاهم، وأشدهم عنفاً في المواقف التي تتطلّب العنف، وأكثرهم نعومة وسلاسة في المواقف التي تتطلب ذلك. وقد أبرق لولده «منير» أن يستقيل فوراً ـ احتجاجاً على إقالة أخيه «شوكة» من المحافظة.

ورأى الفرنسيون، وشيخهم «التّاج» أن استقالة وزير من الوزارة، ولم تكن قد مارست أعمالها بعد، سيترك بلبلة قد تؤدي إلى استقالة سواه.. فعمدوا إلى «ستر الحال».. وأعادوا «شوكة» محافظاً للاذقية. وهكذا أصبح الابن الأكبر لـ «جابر العباس» وزيراً، والثاني محافظاً ـ وهو ما لم يحدث شبيه له قبل ذلك في

المحافظة، ولم يتوفّر لأحد من زعمائها مثل هذا النفوذ الواسع في تلك الفترة الدقيقة.

وقيل إن ثمّة اقتراحات قُدِّمت للفرنسيين كي يعيّنوا «جابر العباس» أميراً لمحافظة اللاذقية.. وأُشبع هذا الموضوع بحثاً ودرساً، ثم صُرِف النظر عنه ـ نظراً لوجود حساسيات محليّة.. لم تكن تسمح بذلك.

في خريف سنة ١٩٤١ استُدْعِيت إلى دائرة الأمن العام في طرطوس ثم إلى مكتب المستشار الفرنسي فيها، وجوبهت بأقوال تسرَّبتْ عني ضد الاحتلال الفرنسي، وضرورة التحرر منه. وكان بعضها صحيحاً، وبعضها مختلقاً، وفُرِضت عليَّ إقامة إجبارية في بيروت، وإثبات وجودي في دائرة الأمن العام مرتين يومياً ـ صباحاً ومساءً!

وتضايقتُ من هذا الاجراء التعسّفيّ ـ وإن يكن غير مستغرب من المحتلين حدوث مثله.. فعزمتُ على الهرب إلى مصر.. عن طريق الأردن ـ لأنه ليس ثمّة مجال غير ذلك.. وصارحت أحد أصدقائي اللبنانيين بعزمي هذا.. فعرّفني بشابين يضطلعان بمثل هذه المهمات، وتعهّدا بايصالي إلى الحدود التي أعبر منها إلى الأردن، ومنه إلى مصر. وكنتُ قد عزمتُ على الإقامة في القاهرة، والتفرّغ للكتابة والنشر. وكثيرون من الأدباء السوريين واللبنانيين فعلوا هذا، فكان لهم في مصر أثر وشأن.

وحشوتُ بعض أغراضي الضرورية في حقيبة يسهل حملها ـ حينما اضطر لذلك، وأبقيتُ بعضها عند صديق في بيروت وسرنا على بركة الله، متجهين إلى الجبل ومنه نعبر الحدود السورية إلى الأردن، ومنه إلى حدود مصر حتى يُقيّض لنا الله الوصول إلى أرض الكنانة.

وكان مسيرنا بعد غياب الشمس، وبدء العتمة. وبدأنا نصعد جبلاً ونهبط من جبل.. ونجتاز مجرى ماء ضحل.. ليستقبلنا مجرىً آخر عميق الغور. والأرض في أكثر الأماكن شائكة، والأدغال محتبكة، والصخور حدباء.. والظلام الدامس يخيّم علينا ـ وكأنه حجاب كثيف بيننا وبين المجهول! ومشينا.. ونحن نتلمس

الأرض، أحياناً بأكّفنا.. قبل أن تتلمّســها أقدامنــا! ومشــينا.. ونحــن لا نهتدي إلــى طريق ـ ولو اهتدينا.. فإننا لا نستطيع السّير عليه! ومشينا.. ونحن لا نعرف أين نسير، ولا كيف نسير.. ولكننا نتّجه إلى الأمام ـ وباستمرار إلى الأمام. ولكـن هل كنا نعرف حقاً أننا نسير إلى الأمام.. وحجر يقذفنا، وكُثَيبٌ ينتصب أمامنا.. ونحـن لا نعرف أنه كثيِّب إلاّ حين نصعده، أو نهبط منه!

وكنا نأنس ببعض النجيمات.. وبخيوطهـا الرقيقـة الناعمـة التـي كـانت تتسلل عبر غصون الأشجار، وتنسكب في نفوسـنا وأعيننـا ـ وكأنهـا أمل باسـم، وحلـم مشرق، ينسكب فيها! ومشينا.. ونحن نزدرد الظلام، ونحبس أنفاســنا خشـية ممـا هو حولنا، وأمامنا ووراءنا! ولم نعرف طعم الرّاحــة ولا النــوم ـ وكيف يمكـن أن نرتاح أو ننام.. ونحن نحسّ بوجود وحوش كاسرة على مقربة منا ـــ وربمـا أنهـا تنتظر الفرصة المناسبة لتنقضّ علينا وتفتك بنـــا! ومشـينا دون هـدف ـ إلا هـدف السيِّر لاجتياز تلك المخاطر المرعبة المخيفة! مشينا في أرض شبه عارية ـ كـأن حريقاً شبّ بها وأتى على ما عليها.. أو أنّ أيدياً امتـدَّت إلـى أشـجارها وقطعتهـا، واجتثتها من جذورها. ولـم نسـر إلاّ قليـلاً.. حتـى ارتفعتْ فوقنـا وحولنـا الأنـوار الكاشـفة.. وأعقبهـا انهمـار رصـاص بشـكل كثيـف ومخيـف.. فانبطحنــا أرضــاً والرَّصاص المنهمر يدوّي في كل مكان.. وحينمـا كـان يهدأ قليـلاً نتـابع الزّحـف، ونحن لا نجرؤ على رفــع رؤوسنا إلـى أعلـى.. حتـى لا تكتشـف الأنـوار الكاشـفة مكاننا. وكلمــا اعترضتنـا صخـرة كبيـرة، وبقايـا جـذوع أشـجار ضخمــة.. نحتمـي وراءها، ونرتاح قليلاً بجانبها، أو نستكين داخل حفرة عميقـة ـ ومـا أكـثر الحفـر والأخاديد! ولمّا زاد الرصاص كثافة، والأنوار الكاشفة تلصصاً.. لم نعد نعرف أين نتّجه ولا كيف نسير!

كانت الظلمة حالكة، والأخاديد كثيرة، ومن المستحيل الاهتداء إلى طريق في تلك المسالك الوعرة.. وبين تلك الهضاب، والتلال والوديان. وكان الظلام الدامس ينهمر رعباً في قلوبنا ـ أكثر منه في عيوننا! ونحن لا نهتدي إلى طريـق ـ ومـن أين لنــا أن نهتـدي ونحـن نسير في سواد ليل فاحم.. حيث لا نرى إلا الظلام، ولا

نلمس إلا الظلام، ولا نتنشّق إلاّ الظّلام!!

* * *

إنني وأنا أدوّن هذه الذكريات.. أفكر بأولئك المناضلين العرب الأشاوس الذين يعيشون وسط تلك الأدغال، والصخور والجبال.. يترصدون العدو الصهيوني المجرم الأفّاك.. فينقضّون عليه، ويفتكون ويدمرّون.. ويعطون أروع صورة عن بطولة العربي وشجاعته، وجرأته وتضحيته.. وعن ايمانه بقضيته، واخلاصه لعقيدته.

في حياة الصراع والكفاح: عنف وعناء وتعب، وألم وعذاب! ولكنّ فيها إلى جانب ذلك غبطةً ولذّة.. ونُعمى قلب، وراحة ضمير.

إنها نعمة الايمان. ومتى حلّ الايمان بنفس ـ مهما كان نوعه وهدفه.. وأياً كانت النفس ومبتغاها.. فإنّ الايمان وحده هو الذي يوحي بالعزم والاقدام، والاستهانة بالحياة، واللامبالاة بالموت.

تحيَّة.. إلى أولئك المجاهدين البَرَرة ـ الذين هم بنضالهم وكفاحهم، وعرقهم ودمائهم.. يعطون الصورة الصادقة عن العربي الأصيل.. الذي لا ينظر إلى الحياة إلا أنها أداة.. ولا للعيش إلا أنه سبيل ووسيلة.. وأمّا الهدف والغاية.. فهما رفع مستوى الذات، ورفع الرّاية العربية خفاقةً مشرقة.. والاسم العربي مدوياً ومجلجلاً.. والكرامة العربية مُقَدَّرَةً ومصونة.

وأمّا المتخاذلون والمتقاعسون.. فهم ليسوا عرباً.. وإنما دخلاء على العرب! وبئس الناس.. الذين يُحسبون من الناس ـ وهم ليسوا منهم.. ومن المحال أن يكونوا منهم!

اللهمّ أيقظْ مرضانا ـ مرضى العاطفة والايمان.. أيقظْ فيهم الضمير والشعور ـ حتى يأخذوا درساً من هؤلاء المناضلين الشرفاء.. الذين يعيشون وسط الغابات وبين الصخور ـ كأقسى ما يعيشه انسان، أو يفكر بوجوده انسان! ومع ذلك.. فهم سعداء ـ لأنهم يؤدّون رسالة القوميّة، ويُجاهدون للقضاء على الصهيَونيّة، والعمل على تحرير الانسان العربي من الدخيل المحتل.

تحيّة لهم ـ من صاحب هذه اليراعة.. الذي يقدِّر جهودهم وجهادهم، ونضالهم وكفاحهم، وتضحياتهم الجسيمة المُثْلَى.

وأُشهِد العُلى.. بأنّي لو كنتُ في فتوّة وعزم ـ لما كنتُ الآن إلاّ بينهم ومعهم.. أؤدي واجبي الوطني والقومي ـ في أكرم سبيل، وعلى أكمل وجه.

وهذا هو إيماني، وعقيدتي ويقيني.

* * *

وأخيراً رأينا من بعيد ضوءاً.. بعث فينا شعور الأمل والرجاء فسرنا نحوه، والعطش قد برّح بنا، والتّعب قد أخذ منّا مأخذه. وما أن اقتربنا من المكان.. حتى تصاعد نباح الكلاب... فكان أشدّ رهبةً وخوفاً من ذلك الظلام المخيف الرهيب.

وتسمّرنا في أمكنتنا.. لا نريد أن نعود، ولا نستطيع أن نقدم. ولمّا استمرّ نباح الكلاب في تصاعده العنيف الحادّ.. سمعنا من ورائه أصواتاً تصيح: من القادمون؟ فصاح أحد الرفيقين: عرب، عطشانون.. نستنجد بكم وبالشهامة العربية. وسمعنا صوتاً يقول:

أهلاً بكم، أهلاً بالضيوف، وصلتم.

ووصل إلينا رجلان.. أسكتا الكلاب، وقادانا إلى خيمة واسعة. وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل.. ورأوا ما نحن فيه ـ وإذا هي حالة مخيفة.. فما من أحد منّا إلاّ وتشقّقت ملابسه ـ مثلما تشقّق جلد وجهه ويديه.. وكان التعب قد نال منّا مناله ـ من كثرة الصعود والهبوط، وكثرة المزالق التي مررنا بها، والحُفَر التي ارتمينا فيها! وكثيراً ما سمعنا فحيح أفاع.. فنمضي ـ ونحن لا نعلم إذا كانت ستصطدم بنا، أم نحن سنصطدم بها! وباستمرار كانت ثمة أجسام تسير بين الأدغال على مقربة منا، فنحسّ بأنها وحوش كاسرة. لذلك كنا نسير ملتصقين ببعضنا، ونرفع أصواتنا عالياً حينما نتكلم ـ لأننا سمعنا أن الوحوش تخشى الأصوات، ولا تقترب منها.

وكان القوم كراماً.. فسقونا، وغسّلوا جراحنا، وأطعمونا.. ثم أبوا إلا أن نستلقي قليلاً.. لنأخذ قسطاً من الراحة. وقدّمنا لهم مبلغاً من المال وأصروا على

عدم أخذه صائحين:

يا قوم: هذا عيب.. فما قمنا بـه تجاهكم.. ليس إلاّ واجب العربي نحو أخيـه العربي.

ولكنّ إلحاحنا الشديد تغلّب أخيراً على إصرارهم الشديد.. فقبلـوا المبلـغ مكرهين.

وكانت ثمّة صبية حسناء ـ في الخيمة المضاءة بقناديل زيت عادية.. هي التـي تقدّم لنا الماء والطعام.. وتتنقل برشاقة وخفّة ـ دونها خفّـة الغزال ورشـاقته، ولا أقلّ خفةً ورشاقة. ولولا تلك الخيوط السّود حول معصمها ومبسمها ـ وهي وسائل التجميل عند البدويات.. لتحدّيتُ غانيات هوليود أن يوجد بينهن مـن هـي أحلـى بسمةً، وأبهى طلعةً، وأفتك نظرات.. من هذه البدويّة الرائعة الحسن والجمال.

وحاول أحد الرفيقين أن يبقى متعلّلاً بالتعب والمرض ـ وغير الله لا يعلم ماذا كان يدور في خلده نحو تلك الفتاة، ولكنّ رفيقه زجره، فقام ومضينا.

ولولا التّقى.. لقلتُ: إنّ شعور رفيقنا نحو تلك الفتاة.. لم يكن أعنف وأشدّ من شعورنا نحن الاثنين الآخرين.

وآه ــ ثم آه.. من هذا «التُّقَى».. فوالله ثم والله.. لولاه ولولاه.. لكان لنا فـي هذه الحياة جولات وصولات و.. وعفوك ربي ورحماك!

ولكنه «التُّقى».. اللهمّ ارزقنا بركته ونعماه، والحمد لله ثم الحمد لله.

وأمّا رفيقاي.. فقد حصلا على معلومات كافية تمكّنهما مـن الاهتـداء إلـى ذلـك البيت حينما يريدان زيارته ــ وما أعرف إذا كانا فَعَلاَ، وأحسب بأنهما فَعَلاَ.

وكانا في بيت البدوي .. قد ذكـرا لـي أنـه مـن المسـتحيل متابعـة السـفر إلـى الأردن، ونحن لم نهتد إلى طريـق .. ثـم هنـاك مراكـز عسـكرية قـد تلقـي القبـض علينا، ولا نعلم ماذا يجري لنا .. ولذلك فمن الأفضل العودة من هنا .. واقتنعتُ بوجهة نظرهما، ووافقتُهما.

وحينما خرجنا.. لمحنا ثمّة أضواء خافتة على مقربة منا.. وعلمنا أنه توجد مضـارب أخـرى للبدو، قـرب البيـت الـذي استضافنـا.. والـذي شكرنـا أصحابه من

أعماق قلوبنا، وسنظل نشكرهم.. ثم نذكرهم ـ ومعذرة من «التُقى».

ويبدو أن فئة من البدو قد استصلحت قسماً من الأراضي في تلك الجبال، واستوطنتها، وبدأت تستثمرها.

ومشى معنا ابن صاحب الدار.. حتى أوصلنا إلى طريق جبليّة توصلنا إلى الطريق العام التي توصلنا إلى بيروت.

* * *

وصلنا الطريق العام.. وخيوط الفجر الرقيقة بدأتْ تنطلق من الأفق البعيد.. ونحن طوال ذلك الليل ندور في حلقة مفرغة لا نعرف كيف نتّجه، ولا أين نسير.. وقد التهمنا الظلام الحالك.. ولم يلفظنا إلاّ عندما بدأت تباشير الصباح. وقد فقد رفيقاي حافظتهما للطرق ـ عندما تِهْنا، والرصاص ينهمر حولنا.. والأنوار الكاشفة تتعقّبنا.. وهي تصعد وتهبط وتتلوّى!

رحم الله «سلامي الترسيسي»، وجزاه أفضل الجزاء ـ إذ لولا توسّطه مع الفرنسيين.. لما علم غير الله ماذا كان حصل لي ـ وأقلّ ما يمكن أن يحصل.. هو فرض الإقامة الاجباريَّة عليّ في «الميَّة وميَّة» قرب «صيدا»، والبقاء إلى نهاية الحرب، كما حصل لـ «عزيز الهواش»، و«أسعد هارون»، وكثيرين غيرهما. وأذكر أن «سلامي» قال لي حينما ذهبتُ لوداعه في منزله:

«لازم بقا تعقل»! وضحك وضحكتُ. وأكّدتُ له أني لن أسلك سبيل المجازفات والمخاطر بعد الآن ـ إلا إذا اضطّرتني الظروف لذلك اضطراراً.

ولو كان مايزال حيّاً.. لكنتُ أسأله: هل عقلتُ.. أم أني لا أزال كما كنتُ؟

* * *

في سني الحرب الرّهيبة.. كانت الحالة الاقتصادية قد تدنّت بالبلاد إلى أبعد مدىً! وكان الفرنسيون والانكليز يصادرون الحبوب من البيادر، ومن بيوت الأهلين، لارسالها إلى جيوشهم المحاربة. وكان ثمّة ضابط انكليزي في صافيتا قد عُيِّن لهذه الغاية.. وكان يستبدُّ بالأهلين، ويستعمل كلّ أنواع الضغط والشّراسة في سبيل مصادرة الحبوب!

إنها الحرب ـ بكل مآسيها، وويلاتها، ونكباتها!

وأكثر الأعمال توقفتْ.. وأطلّ على البلاد شبح مجاعة مخيف.

وقد رأى عدد من المفكرين، في صافيتا، أن نؤسِّس «جمعية خيريّة».. تأخذ تبرّعات من ذوي الطاقة، وتعطيها لمن لا طاقة لهم. وأسِّستْ الجمعية من السادة:

الخوري الياس راعي الطائفة الأرثوذكسية، وقزما الخوري عن الكنيسة الكاثوليكية، وقسيس طائفة البروتستانت، وأنا.

وشرعنا بجمع التبرعات، وتوزيعها على ذوي الحاجة، من الفقراء والعوائل المستورة. وقد لقينا تشجيعاً من المواطنين، وتهافتاً لمساعدتنا في مهمتنا ـ حيث استطعنا خلال السنوات الأخيرة من الحرب، وبعدها، إسداء عون للمعوزين، وإطعام جائعين. وكانت اجتماعاتنا في بيت «قزما الخوري» أمين صندوق الجمعية.. وكان يُطبَخ الطعام في منزله، ثم يُنقل إلى بهو الكنيسة الكاثوليكية القريبة من داره.. حيث يتوافد الفقراء لتناول حاجاتهم من الطعام ثلاث مرات في الأسبوع. وكنا ننشر أسماء المتبرِّعين دائماً ونعلّقها على جدران شارع صافيتا.

وقد ورد ذكر قسيس البروتستانت ـ إذ كان ثمّة عدد من أبناء هذه الطائفة في مدينة صافيتا، وكان لهم قسيس، ومكتبة، وكنيسة. وقد أُغلقت المكتبة والكنيسة، ومضى القسيس.

وعلى ذكر الجمعيات وتشكيلها، بتلك الفترة، فقد شكّل «سعد الله نقولا بشور» جمعيةً ثقافيةً في صافيتا، ودرّب بعض شبابها على عزف الموسيقى. ولأوّل مرة.. رأتْ صافيتا فرقةً موسيقيةً تجوب شارعها الرئيسي، وتعزف قطعاً حماسية مؤثِّرة.

و«سعد الله بشور» منذ يفاعته طموح.. ويقتصر طموحه على الخدمة العامّة، وغاياتها النبيلة. وله مواقف شجاعة ونزيهة في سبيل ما يعتقده، ويؤمن به. وتربطني به، وبشقيقه المربّي «دعاس بشور»، وشقيقهما اللواء «بديع بشور»، المشهود له بالكفاءة والشّجاعة والاخلاص.. تربطني بهم صداقة متينة صافية ـ منذ ذلك الحين، وما تزال. وقد قال لي: «اللواء عزيز عبد الكريم»، وكان نائب

رئيس الأركان حينذاك، أن بإمكانه في حالة نشوب حرب تسليم قيادة الجيش للواء «بديع بشور»، وأنه واثق بأنه سينتصر.

* * *

سنة ١٩٤٣/ اضطرت فرنسا لأن تعترف باستقلال سورية ـ تحت ضغط الأحداث، واصرار الشعب السوري على نيل حريته، والتمتع باستقلاله. واستفادت البلاد من النزاع الخفي الذي كان قد بدأ يستشري بين فرنسا وبريطانيا ـ اللتين كانتا قد تعهّدتا بالموافقة على نيل البلدين حريّتهما واستقلالهما التامين.. عندما دخلت جيوشهما سورية ولبنان.. كما مرّ بنا.

وأرادتْ فرنسا أن تعيد «المجلس النيابي» الذي كان انتُخب سنة ١٩٣٦ - حين عقد المعاهدة معها.. ثم حلّته سنة ١٩٣٩ عندما مزّقت المعاهدة، وعادت لتحكم البلاد حكماً استعمارياً رهيباً ! وكانت ترمي من وراء ذلك.. إلى إحياء المعاهدة التي كانت ألغتها.. وتنفيذها، والعمل بها نصاً وروحاً!

ولكنّ تطور الأحداث، وانطلاق الشعب وطموحه.. كان قد تجاوز تلك المعاهدة والظروف التي عُقِدتْ بها، وتخطّاها. فرفض الوطنيون اقتراح الفرنسيين، وأصرّوا على اجراء انتخابات نيابيّة جديدة حرّة ـ على أن لا تكون مرتبطةً بأي تعهّد.. وألاّ تكون لها أيّة علاقة أو صلة بالمعاهدة الملغاة.

وبهذه الفترة.. مات «الشيخ تاج».. فصعق الفرنسيون للنبأ، وخسروا بموته سندهم القوي في سورية.. وانزاح عبء ثقيل عن كاهل الوطن والوطنيين.

وعيّن الفرنسيون «عطا الأيوبي» رئيساً للوزارة التي تشرف على الانتخابات النيابيّة. وكانت سياسته معتدلة ورصينة. وفازت «الكتلة الوطنية» فوزاً ساحقاً في سائر أنحاء سورية. وانتُخِب «شكري القوتلي» رئيساً للجمهورية، و«فارس الخوري» رئيساً لمجلس النواب، وعُيّن «سعد الله الجابري» رئيساً لمجلس الوزراء. وعُيّن «الأمير مصطفى الشهابي» محافظاً للاذقية مكان «شوكة العبّاس» الذي نقل مديراً في وزارة الداخلية.. فرفض، وأبى الالتحاق بعمله الجديد، واستقال.

وفي يقيني.. أن ذلك كان خطأ منه ـ وهو نفسه شعر بذلك الخطأ.. لأنه سنة ١٩٦١ أراد العودة إلى الوظيفة، وتعيينه محافظاً باحدى المحافظات السورية ـ كي يستفيد من خدماته السابقة، ويحصل على تقاعد. وكانت رغبته على وشك التحقيق.. ولكن الأحداث كانت أسرع من تحقيق أملنا.. فحصل انقلاب، وتبخرت تلك الجهود! فسكن «شوكة» بعد ذلك مدينة طرابلس ـ هو وحرمه كريمة «يوسف الزين» رئيس مجلس نواب لبنان السّابق، وأحد زعماء جبل عامل المرموقين. وأسّس «شوكة» وحرمه ثانوية في مدينة طرابلس لها أثرها في توجيه النّشء الجديد. وقد تُوفّي أخيراً، ودفن في قرية «الطليعي». وذهبت والصديق النبيل «اللواء محمد سليمان» لتقديم التعازي لأنجاله وشقيقه الأستاذ «أحمد» وكان النائب «عبد اللطيف الزين» شقيق زوجة «شوكة» موجوداً هناك، مع بعض أنسبائه من جبل عامل.

* * *

الدولتّان الاستعماريتان فرنسا وبريطانيا.. كانتا تعملان دائماً لتمزيق الصّف العربي، وعدم تمكين العرب من إعادة وحدتهم. وقد قال «دزرائيلي» ـ وهو يهودي اعتنق المسيحية ليصبح رئيس وزارة بريطانية ـ قال في مجلس العموم البريطاني سنة ١٩٦٠ أنه لا يهنأ له عيش حتى يقضي على العرب والإسلام.. لأنهما هما اللذان يشكلان خطراً على مستقبل بريطانيا! وقال «اللورد كيرازون» وزير خارجية بريطانيا بعدئذٍ: إننا سنندم في المستقبل.. إذا ما سمحنا بانشاء دولة عربية كبيرة يحكمها رأس واحد!

لذلك لم تقض بريطانيا وفرنسا على تركيّا، وتجزّئها إلى دويلات.. وكان بامكانهما ذلك سنة ١٩١٨ ـ وإنما أبقت لها وحدتها بعد أن تحررت الأقطار العربية منها، واحتلها الحلفاء ـ لكي يظلّ الأتراك قوة في الشرق الأوسط تحول دون وحدة العرب. وأعطتها فرنسا وبريطانيا بعد ذلك لواء اسكندرون ـ السوري.. لكي تضمنا حيادها في الحرب العالمية الثانية، كما أسلفنا! وجزّأ الحلفاء البلدان العربية، واقتسموها فيما بينهم ـ بعد أن تحررتْ من سيطرة

الأتـراك عليها.. ولم تبال الدولتان العدوّتان بوعدهما للملك حسين الجد، وللعرب، عند بدء الحرب!

ولمـا رأى الانكليـز تركيا تستعيد قوتها.. خشـوا علـى مستعمراتهم ومنـاطق نفوذهم في الشرق الأوسط منها.. لذلك صرّح «ايدن» وزير خارجية بريطانيا، في مجلس العمـوم، بأن بريطانيا لا تمانع فـي أن تؤسّس الدول العربيـة «جامعـة عربية» للتشاور فيما بينها بشؤونها الخاصة. وكتبت جريدة «التـايمس» اللندنيـة تقول:

«الجامعة العربية».. فكرةٌ خطرتْ فـي رأس «تشرشل»، فنطق بهـا «ايدن»، وهلّل لها «نوري السعيد»، وتبنّاها «النحاس».

وكـان «النحـاس» رئيس وزارة مصـر آنـذاك.. وقـد فـرض الانكلـيز علـى «فاروق» أن يكلّفه بتشكيل وزارة «وفدية» تكـون سنداً شعبياً لهم فـي مواجهـة خطر الألمان الزاحفين عبر الصحراء.

ودعا «النحـاس» «بشـارة الخـوري» و«جميـل مـردم» لزيارتـه فـي القـاهرة.. وهنـاك أخبرهمـا عـن الاتجـاه لتشـكيل «جامعـة عربيـة» تضـم البلـدان العربيـة المستقلة. وحينئذٍ طلب «بشارة الخوري» من «جميل مردم» أن لا تطالب سـورية بالأقضية السورية الأربعة التي ضمّتها فرنسا للبنـان، وهـي: طرابلس، والبقـاع، ووادي التيم، والجنوب.. فقال له «مردم»: نحن نتنازل لكم عن كل هذه المناطق ـ بل نحن مستعدون لاعطائكم أراضي أخرى.. إذا سرتم في الطريق الصحيـح. فقـام «بشارة الخوري» وشكره، وعانقه. وقـال «مـردم»: إن النحـاس ـ وهـو يحدّثهـم عن «الجامعة العربية» ومهامّها.. كان يقرأ في ورقة مكتوبة أمامه ثم يتحدّث.

وأسستْ «الجامعة العربية» حينـذاك مـن خمـس دول: مصـر وسـورية ولبنـان والعراق والسعودية. واشتركت اليمن بصفتهـا دولـة مستمعة ـ وليست عضـوة. وكان وزير خارجية لبنان «هنري فرعـون»، حينمـا وُضِـع ميثـاق «جامعـة الـدول العربية»، في الحكومة التي شكلّها «عبـد الحميـد كرامـي»، بعد حكومـة «ريـاض الصلح»، وطلـب وزيـر خارجيـة لبنـان أن يتضمّـن ميثـاق «الجامعـة العربيـة» أن

تكون القرارات بالاجماع - وليس بالأكثرية، وأصرّ على ذلك.. فكان له ما أراد! وبهذا صار لكل دولة حق «الفيتو» لاسقاط كل قرار لا يتفق، ووجهة نظرها! وهذا ما أضعف مركز «الجامعة»، وجعل قراراتها غير ملزمة لأعضائها - إلا إذا وافقوا جميعاً عليها!

وترتفع اليوم أصوات.. لإعادة النظر بميثاق «الجامعة»، وجعل قراراتها تُتّخذ بالأكثرية - وليس بالإجماع.. ولعلّ هذا سيتحقّق.

* * *

في فترة الانتخابات التي جرت إبّان حكومة «عطا أيوبي».. توفي أخي الأكبر «ياسين» - الدرويش - فحفرتْ وفاته جرحاً عميقاً في نفسي - وما يزال يتنزّى ألماً ودماً. وكنتُ أحبّه وأقدّره كثيراً.. وهو يعيد سيرة والده، والسّلف الصالح من أجداده.

لقد كانتْ وفاته ، بعد وفاة والده وعمّه، صدمةً قاسيةً لي .. ومأساةً رهيبة - وأنا أجابه الحياة.. وما بها من قسوة وضراوة وتحدٍّ.. وأتحفز للنهوض بفكرة كريمة تزيل عن عاتق المستعبّدين نير العبودية، وتعيد للانسان، في ذلك الوسط المتخلّف، حريّته وحرمته وكرامته.

كانت وفاة أخي «ياسين» مأساةً لنا جميعاً.. وكان اسمه قد بدأ يجلجل في المحيط كله.. للتبرك به، وبصوفيته وتقاه. رحمه الله، وحفظ نجليه «يونس» و«غانم» وشقيقتيهما، وأنجالهم جميعاً، من كل أذى وسوء.

* * *

سنة ١٩٤٤ زار رئيس الجمهورية السورية «شكري القوتلي»، محافظة اللاذقية.. وجرت له استقبالات رسميّة وشعبية حافلة. وقد واكبته خلال تلك الزيارة من بدايتها إلى نهايتها، وطوال الرحلة التي استمرت أربعة أيام. وكنّا باستقبال الرئيس عند حدود المحافظة في منطقة مصياف - قبل أن تُضَمَّ إلى محافظة حماه.. كما كنّا في وداعه عند حدود المحافظة «بتلكلخ» - قبل أن تُضمّ إلى محافظة حمص. وقد واكب موكبه كبار شخصيّات المحافظة طوال تلك الفترة.

ولـم يشترك «منير العبـاس» باستقباله فـي صافيتا ـ كمـا كـان متوقعـاً ـــ لأن البرنامج لم يتضمن زيارة الرئيس له في قرية «الطَّليعي». والذين وضعوا برنامج تلك الزيارة قد أخطأوا بذلك التصرف ـ وهي حقيقة يجب أن تُقال، وواجب يجب أن يُعْتَرف به.

وقد توقف الموكب عند قرية «رأس الخشوفة» ـ حيث كان «يوسف الحامد»، نائب صافيتا، قد أقام سرادقاً ضخماً عند مدخل القرية على الطريق العام، واحتشد منذ الصباح الباكر جمهور من القرى القريبة والبعيدة. وألقى «الشيخ عبد اللطيف ابراهيم» قصيدة رائعة ـ أو ألقاها عنه أخوه «عبد الرحمن ابراهيم»، بصوته القويّ الجهوري، وقد جاء فيها:

هـذي الجبـالُ أسـاورٌ عربيَّـةٌ صَدِئتْ، وأغفلتِ الشـآمُ صِقالَها

والتفت «فارس الخوري» إلى «بدوي الجبل»، وقال لـه: يبدو أنَّ في هذه الجبال «بدواناً» كثيرين. فأجابه «البدوي»، بما عُرِف عنه من رقَّة وتهذيب، «كلّنا تلاميذ الشيخ».

وفي ذلك الحفل الضخم.. ألقيتُ خطاباً أشرتُ فيه إلى ما يعانيه «الجبل العلوي» من تخلّف.. وأنه بأمس الحاجة إلى مدارس ـ مثل حاجته إلى الهواء والماء والغذاء.

وعند خروجهم من السُّرادق.. ربت «فارس الخوري» على كتفي، وقال لي: أحسنت يا بني.. وإني أتنبأ لك بمستقبل باهر.

* * *

سنة ١٩٤٤ ألفّتُ كتاب «الجبل المريض» ـ وأعني به طبعاً الجبل الذي يقطنه المسلمون العلويون.. وقد عُرِف باسمهم في المرحلة الأخيرة من التاريخ.

كان ذلك الكتاب .. أوّل كتاب ألّفته ـ وهو مجموعة فصول عن حالة المسلمين العلويين، وما فيها من فقر وجهل، وتأخر وجمود، وعبودية عمياء للاقطاعيين والرجعيين.. وتفرقة عشائرية بغيضة ـــ يغذِّيها الاقطاعيون، وذوو النفوس المريضة!

وكانت السلطات الفرنسية، وقبلها التركية، تدعم التفرقة وتنمّيها وتقوّيها وتغذّيها.. لكي يظل الجهل سائداً، والشعب مستعبداً، والوضع الاجتماعي والاقتصادي في أسوأ ما يكون!.

وكان الزعماء العشائريون في قبضة السلطات الحاكمة.. وبواسطة هؤلاء يسيطر المستعمرون على الشعب المستعبَد المضطهَد المسحوق!

ذلك الكتاب.. كان صرخةً مدوّيةً في ضمير الزمان والانسان. ولم أكتب، وما أحسب أحداً قبلي قد كتب، مثل ذلك التحليل الدقيق، لواقع المسلمين العلويين الزريّ المؤلم.. وما كانوا يعانونه ويقاسونه من ذلّ وعبودية واضطهاد، وتأخّر وتخلّف وحرمان!

تلك فترة رهيبة مظلمة.. عشتُ بعضها، وقاسيتُ فيها الأمرَّينْ. وأنا إذ أكتب عنها.. فإنما أكتبُ عن حياة مررتُ بها وعانيتها، وجاهدتُ وناضلتُ من أجل تغييرها وتبديلها ـ ثم محوها.. ونجحتُ بعدئذٍ، إلى حد بعيد، في هذا.

كنت أغمس القلم في جراح قلبي.. وأنقش الكلمات في صدر الأفق، ومُقل الدّراري.. وأعطي صورةً عمّا بنفسي من أسىً وتأثر.

لقد كان ذلك الكتاب.. صدىً لحياة قاسية مؤلمة.. خانقة مريرة. وقد قُدّر لي أن أعيش لأناضل وأكافح وأكتب ـ ثم لأعمل مع رفاق مناضلين شرفاء.. في سبيل محو تلك الصورة الباهتة المقيتة والمؤلمة المُذِلّة.. لحياة أبناء الجبل المضطهَدين المستعبَدين. ولولا موعد مع القدر ـ لأداء هذه الرسالة.. لما بقيت. وقد رأى القارىء في هذه المذكرات أن الاقطاعيين والرجعيين قد عملوا على ألاّ أبقى ـ كي لا أتحدّى. ولكني بقيتُ وتحدّيتُ ـ لأن للقدر مشيئته وإرادته.. ولأن ثمّة واجبات لابدّ من النهوض بها.. ورسالة لابدّ من أدائها، وتحمّل أعبائها.

ولم يقدّر لذلك الكتاب، في ذلك الجو المظلم، أن ينتشر على نطاق واسع.. كما كان يجب، وكما كان مقدراً له ـ لأن للاقطاعية صولتها، وللرجعية سلطتها.. وكانت كلتاهما، تثبتان وجودهما في كل مكان، وتفرضان إرادتهما في كل حيِّز! والمستعمرون يريدون هذا، ويعملون له ـ لأنه يساعد على بقائهم، وبقاء الجهل

والانحطاط معهم.. ولأن التخلف أقوى الركائز التي يستند إليها الاستعمار.. وأسباب وجوده وبقائه واستمراره!

وقد أهديتُ الكتاب إلى «احسان الجابري» الذي عانى من سلطة الاقطاعية والرجعية، حينما كان محافظاً للاذقية، ما عانى، وقاسى ما قاسى.. ولقي من مهاجمةٍ وتحدٍّ ما لقي ـ كما مرَّ بنا!

ورفض «شكيب الجابري»، مدير عام الاعلام حينذاك، إعطائي الورق اللازم لطبع الكتاب ـ ولم يكن ثمَّة ورق للطبع إبّان سني الحرب، إلا في وزارة الاعلام.. وبذلك حال دون تمكني من طبع الكتاب، فاضطررنا لطبعه على الآلة الكاتبة، وتوزيعه ضمن نطاق ضيق ومحدود.. ووزّعنا نسخه المحدودة بين الأصدقاء.. وبعض الأحرار نقله بخط يده ليساعد على نشره وتعميمه ـ لأن النّسخ التي طُبعت على الآلة الكاتبة.. كانت قليلة ومحدودة.

وكتبتُ في ذلك الحين.. مقالات كثيرة في صحف « الوعي القومي » باللاذقية، و«الضحى» بحمص، و«العاصي» بحماة، وغيرهنّ. وكانت مقالاتي تتسم بالجرأة والتحدي.. وتُعطي صوراً واضحة عن الاقطاعية ومساوئها ومآسيها.

وكانت السلطات الوطنية.. راضية عن تلك المقالات الجريئة، والحملات النَّزيهة.. وكنتُ ألْقى منها دعماً وتأييداً وتشجيعاً ـ وذلك تقديراً لمواقفي الوطنية الثابتة، ولما لاقيته من أذىً واضطهاد.

ويُشرِّف هذا القلم، وصاحبه، أنه لم ينحنِ إلا لله.. ولعقيدته التي يؤمن بها، ويعمل لها.. وأنه في الليالي السود قد أثبت وجوده، وفرض ذاته، وغرس تعاليم التحرر الشريفة في تلك البيئة المتخلفة المريضة.. وعمل لتحررها وتطوُّرها، وانعتاقها وانطلاقها.

ومن المشرِّف للانسان أنه ماتزال له ذاكرة لا تنسى ـ وإذا نسي، أو تعمدَ النسيان، فإن التاريخ يظل وحده، وفيّاً للحقيقة، وحارساً لها.. وهذا يكفي.

وقد قدَّرَ الشعب الكريم مواقفي تلك.. ووقف إلى جانبي ضد الاقطاعية التي كانت مُستشرية.. وانتخبني نائباً في المجلس النيابي السوري، ثلاث مرات

متتاليات: سنة ١٩٤٩ و ١٩٥٤ و ١٩٦١ - كما سيجيء.

فشكراً لله تعالى - ولأولئك الغيارى المخلصين - الذين آزروني وأيدوني ودعموني، ووقفوا إلى جانبي في الملمّات والنائبات.

* * *

في مطلع سنة ١٩٤٥ زرت المجاهد الكبير الشيخ «صالح العلي» ـ قائد الثورة المعروفة باسمه - والتي استمرّت ثلاث سنوات ونصف من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٢٢ - زرته في مقرِّه الشتوي بقرية «الرَّستَن»، قرب «الشيخ بدر» معقل الثورة.

وكان «الشيخ» قد أشعل الثورة ضد الفرنسيين منذ دخولهم البلاد، وقبل ذلك كان أشعل ثورة ضد الأتراك تجاوباً مع الثورة العربية الكبرى التي أضرمها الملك حسين «الجدَ» في الحجاز.

فثورة « الشيخ » .. كانت هي الرائدة في سورية ـ إذ أنها بدأت، كما أسلفنا، عند دخول الفرنسيين سنة ١٩١٨ - والثورات التي قامت بعدها تأثرت بها، وتبعتها.

وأنا بهذا القول.. لا أنال من قدر الثورة السورية الكبرى التي رئسها المجاهد الكبير «سلطان باشا الأطرش».. فثورته التي نزهو بها ونعتز.. هي مفخرة في تاريخنا القومي. وكذلك ثورة «الدّنادشة» في تلكلخ، وثورة «هنانو» في حلب، والثورات الأخرى هنا وهناك.. فكلها موضع فخرنا وتقديرنا واعتزازنا.

ولكننا الآن.. في معرض الحديث عن ثورة «الشيخ صالح العلي» الرائدة، وفعلاً كانت رائدة ـ لأنها أقدم الثورات كلها وأطولها مدةً ومدىً. وليس هنا مجال استعراض تلك الثورة الضخمة ـ وقد كتبتُ عنها كتاباً مستقلاً، يقع في ٢٢٣ صفحة، سنة ١٩٤٧ وأعادت طبعه وزارة الثقافة والارشاد القومي سنة ١٩٦٢ وإنما هي توطئة للحديث عن «الشيخ»، والموضوع الذي سيجيء ـ كما أعيد طبع «تاريخ الثورة» مرتين بعد ذلك.

لقد حرصتْ فرنسا على تسجيل انتصاراتها العسكرية في الثلث الأول من القرن

العشرين، وأصدرت كتاباً بهذا.. أطلقت عليه اسم «الكتاب الذهبي»، وقد خصصتْ فيه أربع عشرة صفحة لثورة «الشيخ صالح العلي»، وذكرت المعارك التي خاضها جيشها ضد المجاهدين في تلك الثورة، وقد تضمن الكتاب تسمية المواقع وتاريخها. وترجمت كل ما ورد في ذلك الكتاب عن الثورة حرفياً ووضعته في التاريخ الذي وضعته لثورة «الشيخ» المجاهد.

وكنتُ التقيتُ «الشيخ صالح».. وأُعجبتُ بصوفيّته وواقعيته وتواضعه.. وبتلك المهابة الأخّاذة التي خصه الله بها.. والمنظر الوقور الذي يذكّر ناظره بما قاله «الفرزدق» عن «الامام علي زين العابدين»:

يُغضي حياءً، ويُغضَى من مهابته فلا يُحَدَّثُ إلاَّ حين يبتسمُ

ويشهد كل من رأى «الشيخ» المجاهد أنه كان هكذا. وسيأتي الحديث، فيما بعد عن الطبيب الألماني الذي زاره.. وكان مأخوذاً بوقاره ومهابته إلى أبعد حد.

وكنتُ دائم التردّد على «الشيخ».. وقد أولاني عاطفةً وعطفاً ـ لا مجال للحديث هنا عن تأثري بهما، وتقديري لهما.

وكانت صلتي بـ «الأمير مصطفى الشهابي» محافظ اللاذقية قد توطدتْ ـ وهو علاّمة جليل أصبح فيما بعد رئيس «مجمع اللغة العربية» في القطرين سورية ومصر إبّان وحدتهما.. وبعد الانفصال أصبح رئيس المجمع في سورية ـ إلى أن انتقل إلى جوار ربه، رحمه الله.

وكان «الأمير الشهابي» من أهل الفضل.. الذين يقدّرون ذوي الفضل فعرضتُ عليه فكرة إقامة حفلة تكريمية لـ «الشيخ صالح العلي».. وأنها ستكون بمثابة تظاهرة وطنية ضخمة، في هذا الصراع الرهيب بين الحكومة الوطنية والفرنسيين.. الذين يصرّون على بقاء جيشهم ونفوذهم في سورية ـ رغم قيام حكم وطني دستوري فيها!

وفضلاً عن أن الحفلة ستكون تظاهرة وطنية.. فإن «الشيخ المجاهد» يستحقّ كلّ تكريم، ويستأهل كل تعظيم.

ورحّب المحافظ بالفكرة، وأبدى تأييده لها. وعرضتُ عليه أن تكون الحفلة

تحت رعايته ـ ليس بصفته محافظاً للاذقية، وإنما بصفته علاّمة. فوافق وشكرني على هذا التقدير. وخرجتُ من مكتبه وأنا مؤمن بأن الحفلة ستقام.

وزرتُ رئيس الجمهورية «شكري القوتلي» لأخذ موافقته أيضاً.. ولمّا عرضتُ عليه الفكرة، وافق فوراً عليها. فطلبتُ منه أن يرسل كلمة للحفلة، ويقدّم وساماً رفيعاً لـ «الشيخ»، فأبدى رغبته بتنفيذ هذا الطلب، وأعرب عن استعداده لدعمنا في كل ما نطلبه منه.

وزرت «سعد الله الجابري» رئيس الوزارة ـ ولي صلةٌ وثيقة به، منذ كنتُ لاجئاً سياسياً «في العراق».. وكان هو أيضاً «لاجئاً سياسياً»، كما سبق وذكرنا، وأطلعتُ الرئيس «الجابري» على فكرة الحفلة.. فأيّدها بقوّة، وأبدى استعداداً كبيراً لدعمها وتنفيذها. كما زرتُ كبار الشخصيّات الوطنية، وأركان الحكومة.. وقد أبدى الجميع تأييدهم الفكرة، وقال بعضهم: هذا هو الوقت المناسب لها.

بعد ذلك .. ذهبتُ لزيارة «الشيخ الصالح» في عرينه بـ «الشيخ بدر»، مقرّ الثورة ومنطلقها، وعرضتُ عليه موضوع الحفلة.. فاستغربه، وأبدى تحفظاً تجاهه. وبقيتُ يومين في ضيافته، وأنا ألّح عليه. وأخيراً اقتنع ووافق، وأرسل معي تحيّةً إلى «الأمير مصطفى الشهابي».

وبدأتُ بالتنفيذ.

زرتُ «أسعد هارون»، نائب اللاذقية، وكان يحتلّ مركز أبيه «عبد الواحد»، وعرضتُ عليه رئاسة اللجنة التي ستتبنّى الفكرة، وتعمل لانجاحها.. فوافق.

وبدأنا العمل.. وبالأحرى بدأت أنا ـ لأني الوحيد الذي فكّر بالموضوع، وسعى لتنفيذه.. ولم يكن لي مساعد ومسعف ولا معاون على الاطلاق.. وإني أتحدّى من ينكر هذا، ويقول عكسه ـ أيّاً كان.

وقمتُ بجولة في أنحاء سورية.. اجتمعتُ خلالها بشخصيات سياسية وأدبية كبيرة.. عرضتُ عليها الاشتراك بمهرجان التكريم، فأثنى كل من لقيتُه على الفكرة، ووعد بالحضور. وعدتُ أحمل الموافقة من شخصيات مرموقة.. وطبعتُ بطاقات الدعوة، موقّعة من «أسعد هارون»، رئيس اللجنة، وأنا أمين السر،

وتحدّد موعد الحفلة في ١٧ نيسان ١٩٤٥.

وبدأتْ أنباء معارضة الزعماء الاقطاعيين، السائرين في اتجاه فرنسا، تردنا باستمرار! وكان الجوّ قد تأزّم إلى حد بعيد ـ بين السلطات السورية والفرنسيين الذين كانوا يتشبثون ببقاء جيشهم، وبقاء المصالح المشتركة كلها في أيديهم.. دون التنازل عن شيء منها! وبدأ الصراع يتّخذ شكلاً حاداً بين الحكومة الوطنية، والحكومة المستعمرة. وشرعتْ فرنسا تحشد أنصارها من جديد.

وكان الاقطاعيون والرجعيون يحنّون إلى العهد الفرنسي الذي يدعم نفوذهم، ويمكّنهم من السيطرة على البسطاء السُّذّج.. وهو ما لا يحصلون عليه في العهد الوطني الذي بدأتْ فيه المدارس تُؤسَّس وتنتشر.. وبدأ الطلاب يزحفون إليها من كل حدب وصوب. ومعنى ذلك.. أن جيلاً جديداً سيهبّ كالاعصار.. فيدمّر معاقل الرجعية والاقطاعية.. ويذرو نفوذ الزّعامات المستبدة مع الريح.

وبتوجيه من المستشارين الفرنسيين.. عاد الاقطاعيون إلى عنفوانهم، وتكديس الأسلحة لأعوانهم.. وارسالهم لمهاجمة القرى التي يعارضهم سكانها.. ولا يدخلون في طاعتهم، ويسيرون وفق إرادتهم ومشيئتهم.

وكنتُ أعرف سلفاً.. أن مهمتي ستكون عسيرة، ولن تكون أبداً سهلة.. وأني سأقابَل بمقاومةٍ وتحدٍّ ـ يشبهان إلى حد بعيد المقاومة والتحدّي اللذين لقيتهما، وتعرّضتُ لهما، حين إقامة «اليوبيل الذهبي» للعلاّمة الجليل «الشيخ سليمان الأحمد».. ولكني أيقنتُ بأني مثلما نجحتُ سنتذاك.. فبإذن الله، وتوفيقه، سأنجح الآن.

وكانت الحكومة السورية، والوطنيون المخلصون، يؤيدونني ويدعمونني.. وهذا ما كان يشجعني ويدفعني ويشدّ أزري.. ويمنحني الكثير من القوة والعزم.

وزرتُ الشاعر الكبير «بشارة الخوري» أكثر من مرة ـ طالباً منه حضور الحفلة، وإلقاء قصيدة فيها. وكان شاعر الأمة العربية الكبير «بدوي الجبل» قد اعتذر عن نظم قصيدة والقائها بالحفلة ـ لكنه وعد بالقاء كلمة نثريَّة. وكانت كلمته التي ألقاها قطعةً رائعة.. كأنها شعر ـ بل كانت خيراً من كثير من الشعر.

وإذن.. فلم يكن ثمَّة بدّ من العثور على شاعر ضخم الاسم.. يدوي اسمه داخل الحفلة وخارجها. وأشيع خبر اشتراك «الأخطل الصغير» ـ «بشارة الخوري» في الحفلة.. وكنتُ على صلة دائمة به من أجل ذلك. وفي احدى زياراتي له بمنزله في بيروت، أطلعني على عدد من الرسائل.. يهاجم مرسلوها «الشيخ صالح العلي» وثورته.. ويوردون كلمات وتعابير تنمُّ عمّا في نفوسهم من انحطاط وحقد!! وقال لي:

ماذا أقول في «شيخكم» ـ وهذا ما يقوله الناس عنه؟ قلتُ له:

أتعرف أحداً من هؤلاء؟ قال: لا. قلتُ: إذن.. لماذا تثق بأقوالهم وأنت لا تعرفهم؟! لماذا لا تتّصل بـ «شكري القوتلي» رئيس الجمهورية السورية، و«فارس الخوري» رئيس مجلس النواب، و«سعد الله الجابري» رئيس مجلس الوزراء، وتسألهم عن «الشيخ صالح العلي».. وعن رأيهم به وبثورته؟ بل لماذا لا تتّصل هنا في لبنان بـ «رياض الصلح»، و«عبد الحميد كرامي»، و«عمر الداعوق»، والدكتور «عبد اللطيف البيسار»، وبعلماء جبل عامل ومجاهديه.. وتسألهم جميعاً عمَّن فجَّرَ أول ثورة ضد الفرنسيين استمرت ثلاث سنوات ونصفاً دون انقطاع؟ ثم قلتُ له:

أتصدِّق هؤلاء المارقين المدفوعين من الفرنسيين وأذنابهم.. ولا تثق بزعماء سورية ولبنان، وأولي الأمر فيهما؟ ومتى كان مثلك يجري خلف مثل هذه الأقوال اللئيمة المغرضة.. وأنت تقول لمن ناصبك مثل هذا العداء:

لو كنتُ في الوحش لا أرضاك لي كَفَلاً أو كنتُ في الطيِّر لا أرضاك لي ذَنَباَ

ولو كان «الملك فيصل» حياً. لكنتُ طلبتُ منك أن تسأله، وهو الذي كان يموّن الثورة بالسّلاح.. ويعتمد عليها لاقصاء الفرنسيين عن الساحل السوري، وضمّه إلى أمه دمشق.. وأنت الذي تقول بـ «فيصل» يوم تتويجه:

طأطئِ الرأسَ. ذاك ثامنُ آذار ومحرابُ يَعْرُبٍ والمُصلَّى
معقدُ التاجِ من جبينِ الأماني على مفرقٍ أجلّ وأعلى
هيكلٌ من دم الفداءِ.. ولوحٌ لوحُ سيناءَ لا يضاهيه فضلا

وهبتْه الصدورُ حبّاتِها الحُمْرَ لعرشٍ تعيذه أن يُثَلّا
كلُّ أيّاً منا عبيدٌ ــ ولكنْ.. ذلك اليومَ وحده كان مَولَى

فانبسطت أساريره حينما قرأتُ له بعضاً من شعره، وقال: كفى كفى.. سأستعين بالله، وأُعِدُّ قصيدة لائقة بـ «الشيخ» وحفلته. قلتُ: وأيضاً.. لائقة بشعر «الأخطل الصغير»، فابتسم، وقال: بارك الله بك، كم أنت مؤمن بما تؤمن به.. ومتمسكٌ بصحة ما تعتقده.

* * *

رحم الله «بشارة الخوري» فبعد أن بويع أمير الشعراء بما يقرب من ربع قرن، بعد هذا الحديث، انتابه مرض عضال أفقده الكثير من ذاكرته. وزاره مرةً مندوب مجلة «الصياد»، وأخذ منه حديثاً تطرّق به إلى حفلة مبايعته أميراً للشعراء، والذين حضروها، وشاركوا بها.. فذكر اسمي بين الأسماء التي ذكرها ــ كما ذكر اسم «بدوي الجبل».. مع أن أيّاً منّا لم يحضرها مع الأسف. فأنا كنتُ سنتئذٍ في المهجر، و«البدوي» كان بعيداً عن سورية ولبنان ـ ولو أنه كان موجوداً فيهما.. لكان من المستحيل أن يحضر حفلة تنصيب غيره أميراً للشعراء.. وهو قد بلغ من الشهرة أبعد مدىً، ومن الشعراء أرفع مستوىً.

ولقد تأثّرتُ كثيراً.. حينما رأيته يذكر اسمي ـ مع أنني لم أكن موجوداً.. إذ لم يكن يخطر بباله، وأنا صديقه وراوية شعره، إلا أن أكون أحد المساهمين بذلك الحفل الكبير، وأحد المتكلمين فيه.

وحضرتُ أكثر من مرّة اجتماع «بشارة» و«بدوي الجبل».. وكان تقديرهما لبعضهما، وتواضع كل منهما للآخر، موضع اعتزاز وإعجاب.

وأذكر أننا كنّا مدعوين لحفلة عشاء.. أقامها أمير كويتي في قصره ببحمدون، أحد المصائف اللبنانية الشهيرة.. وبينما نحن في الطريق إلى الجبل: «بشارة الخوري»، و«الياس فرحات»، وأنا ـ برفقة صديقنا الطيب الذكر «محمد قره علي».. قرأت بعض القصائد التي أحفظها من شعر «الأخطل الصغير» ــ منها: قصيدته «المسلول»، وأخرى في رثاء الملك فيصل التي حاكى بها قصيدة

«شوقي» في رثاء «الملك حسين»، وقصيدته بـ «فيصل الثاني» عند تتويجه، وبعض قصائده الغزلية.. ودمعتْ عينا «بشارة»، وهو يسمعني أروي عدداً من قصائده، وقال:

أعترف أمامكم.. بأنه لم يعد باستطاعتي نظم مثل هذه القصائد. وقد أعرب عن هذه الحسرة.. في الأبيات الأربعة التي ألقاها في حفلة مبايعته «أميراً للشعراء» ـ والأصح ألقاها ابنه «عبد الله»، ومنها هذان البيتان:

أليومَ أصبحتُ.. لا شمسي ولا | من ذا يُغنّي على عودٍ بلا وتر!
تلك القوافي.. التي صاحبتُها زمناً | رَعَتْ شبابي، وخانتْني على كِبَري!

* * *

ما رأيته عند الشاعر «بشارة الخوري».. من رسائل متّسمة بالحقد والضّغن واللؤم ـ أرسلها ناس حَمْقَى مغرضون بُلَهاء.. وما كنتُ أسمعه عن المقاومة الرهيبة والمعيبة للحفلة ـ من المتعاونين مع فرنسا، والسائرين في ركابها.. دفعني للقيام بجولة أخرى واسعة.. ألتقي خلالها بشخصيات كريمة. ومن هذه الشخصيات من كنتُ زرته، وبحثتُ معه موضوع الحفلة، ووعد بحضورها. وخشيتُ أن يكونوا قد تلقّوا رسائل مثلما تلقّى «بشارة الخوري».. فتتزعزع عزائمهم ـ مثلما تزعزعت عزيمته أول الأمر. ولم يكن لموعد الحفلة إلا أقل من شهر.. فحزمتُ أمري، وصممتُ على القيام بجولة واسعة في سائر أنحاء سورية ولبنان، مرةً أخرى.

بدأتُ الرحلة بمدينة «ادلب»، ومنها إلى حلب، فحماة، فحمص، فدمشق.. ومنها اتصلتُ بكبار المجاهدين في «جبل العرب». وكان بعض الرسائل المغرضة قد وصل إلى «هاشم الأتاسي»، و«احسان الجابري» اللذين يعرفان الكثير عن «الشيخ» وثورته الرائدة.. ومواقفه الوطنية الشريفة بعدها. فمزّقا الرسائل، وصبّا جام غضبهما ونقمتهما على مرسليها.. وقد أيقنا ـ كما أيقن رجال السلطة الوطنية بأن الفرنسيين هم الذين دفعوا أذنابهم لذلك ـ لأنهم يعتبرون تكريم قائد الثورة في محافظة اللاذقية، إنما هو تحدٍّ لهم ـ فضلاً عن أنه تظاهرة وطنية ضد

وجودهم، وضد مصالحهم.

وزرتُ الرئيس «القوتلي».. وأطلعته على الواقع الذي نجابهه، وعلى مقاومة الاقطاعيين، وأتباع الفرنسيين للحفلة.. والدعايات التي يبثّونها، والرسائل الشّائنة التي يرسلونها لمختلف الشخصيات، والأدباء والشعراء. فأخبرني الرئيس أنه على علم بذلك كله.. وأكد لي دعم السلطة لنا، ووقوفها إلى جانبنا.. وأن وفداً ضخماً من دمشق سيحضر الحفلة. فخرجتُ من مكتبه وأنا مطمئن كلّ الاطمئنان، وواثقٌ كل الثقة بأنّ الحفلة ستظفر بالنجاح التام.

وسافرتُ إلى بيروت، وزرتُ «رياض الصلح».. وقد وعد بأن يحضر ـ لكنه مع الأسف لم يفِ بوعده، وإنما أبرق محيِّياً ومثنياً، ومقدراً ومعتذراً. ثم اجتمعتُ بعدد من الأدباء والوجهاء.. بعضهم لبّى، وآخرون أبرقوا معتذرين وذهبتُ إلى صيدا، وصور، والنبطية، واطمأننتُ إلى أن وفداً كبيراً من «جبل عامل» سيحضر الحفلة. وفي طرابلس مكثتُ يوماً زرت خلاله عدداً من الشخصيات التي أبدت حماساً للحفلة، واستعداداً لحضورها. وقد استغرقتْ تلك الرحلة الطويلة ثلاثة أسابيع كاملة.

ومن طرابلس سافرتُ إلى اللاذقية.. ولم أكن بحاجة للتوقف في طرطوس ومدن المحافظة ـ لأنه سبق لي أن قمتُ بجولة واسعة فيها، واجتمعتُ بشخصيّاتها الأدبيّة والوطنية. ومن كان معنا.. فهو معنا ـ ومن كان ضدّنا فهو ضدّنا. وليس هناك حدّ وسط.

وتوقفت السيارة في طرطوس، وفي كاراج قرب دار الحكومة، فاغتنمتها مناسبة لكي أزور القائمقام ـ مدير المنطقة ـ «يحيى علي أديب»، وأطلع على ما عنده من أخبار بشأن الحفلة. وقد وجدتُ عنده «الدكتور محيي الدين المرهج» ومدير المال ـ واسمه «عبد المجيد كنيفاتي» فيما أذكر. وحينما دخلتُ.. وقف القائمقام وصرخ بأعلى صوته: أين كنت؟

وفوجئت بصياحه، ولهجة سؤاله، وقلتُ له: كنتُ أرتّب شؤون الحفلة، والشخصيات التي ستحضرها.. واتصلت بالشعراء والأدباء الذين سيتكلمون فيها

فقال:

إن «الشيخ صالح» ملأ الدنيا أسئلة عنك.. ودائماً تردنا الرسائل والهواتف من «الشيخ بدر» تستفهم عنك.. وتلحّ بحاجة «الشيخ» لرؤيتك، وكان يريد أن تذهب إليه بسرعة.

فاضطربتُ جدّاً.. وقلتُ له: إني مستعد للذهاب إليه الآن ـ لأن ثمة أمراً هاماً، على ما يبدو، قد حدث في غيابي، فقال:

لا.. لا لزوم لذهابك ـ فقد أرسلنا وكيل الضابط «فارس أبو كف» إلى عنده، ونحن بانتظار عودته.. وبامكانك البقاء معنا حتى يعود، ومنه نعلم السّبب. قلت:

لابدّ لي من الذهاب ـ لأني أخشى أن يكون قد حدث أمر هام في غيابي وأصرّ القائمقام على عدم ذهابي، وأصررتُ على موقفي بكل عناد وتشبّث فأمسك يدي مدير المال وخرجتُ معه إلى خارج القاعة، وقال لي بلهجة جديّة وحازمة:

بيت « الشيخ » محاصر من جنود يخدمون بالجيش الفرنسي، من أبناء تلك الجهات.. وهم وأسيادهم، كما تعلم، يعارضون قيام الحفلة، ويترصّدونك شخصياً.. فإلى أين تذهب؟ فأجبتُه:

ما قلته الآن يُشجعني على الذهاب، ولا يمكن أن يثنيني عنه.. وما كنتُ في حياتي خائفاً أو جباناً.. أفتريدني الآن أن أكون؟ قال:

ولكنهم سيفتكون بك. قلتُ:

كلّ حياتي، حتى الآن، مجازفات ومغامرات.. فلتكن هذه احداها، والأعمار بيد الله.

وعدتُ إلى القائمقام.. وقلتُ له إني ذاهب.

فقال لي: إني أمنعك باسم الأمن.. وللمحافظة على حياتك.

قلتُ: إن حياتي تجاه واجبي لا تساوي قلامة ظفر. وإذا أردت منعي من الذهاب.. فارسل شرطة إلى الكاراج ليمنعوني بالقوة ـ إذا كان باستطاعتك ذلك.

وخرجتُ. وتبعني «الدكتور محي الدين المرهج»، وقال لي بلهجة حازمة مخلصة: انتظرني حتى أذهب إلى البيت، فألبس جزمتي، وأجلب مسدسي،

وسأعود بسرعة لأذهب معك.. وما يصيبك يصيبني.

وأسرع هو إلى بيته، وأسرعتُ أنا إلى الكاراج لأخرج حقيبتي من السيارة المسافرة إلى اللاذقية، وأستأجر سيارة تقلنا إلى «الشيخ بدر». وانتظرت «الدكتور مرهج» عشرين دقيقة، ولما تأخر وصوله ـ وكنتُ وكأنني أجلس على جمر لاهب.. وأنا مضطرب ومتلهف للاسراع بالسَّفر إلى أقصى حد يتصوره عقل.. وكانت الدقيقة عندي كأنها ساعة ـ وربما أكثر، فركبت السيارة وحدي، وقلت للسائق: انطلق ـ وبأقصى سرعة ممكنة. ثم طلبتُ منه أن لا يقف لأحد على الطريق، وأيّاً كان ـ لأني مضطر للوصول والعودة قبل أن يهبط الظلام.. ولم أجرؤ على ذكر المخاطر التي نوّه عنها القائمقام ـ ولو فعلتُ.. لما جرؤ السائق على السَّفر معي.

وعلمتُ، بعدئذٍ، أنَّ «الدكتور مرهج» قد وصل إلى الكاراج بعد خمس دقائق من مغادرتي. فاغتمّ وحزن. لقد كان وطنياً مخلصاً، رحمه الله.

* * *

غربي «الشيخ بدر»، على مفرق «السَّودا»، التقيتُ بـ «فارس أبو كف» عائداً وبرفقته دركي، فترجلنا معاً. وسألته عن سبب دعوة «الشيخ»، وقلتُ له: ما الخبر؟ فقال:

لقد عدل «الشيخ» عن حضور الحفلة، وطلب مني أن أخبر القائمقام لكي يخبر المحافظ بوجوب إلغائها ـ لأن «الشيخ» تلقى رسائل كثيرة، يهدد مرسلوها بنسف دار السينما التي تقام فيها الحفلة على كل من فيها! و«الشيخ»، كما تعرفه، لا يريد أن يسبب ضرراً أو أذىً لأحد.. ولذلك يصرّ على الغاء الحفلة. وقد انتظرك طويلاً .. ولما تأخر مجيئك استدعاني وكلفني . وقد أطلعني على عدد من رسائل التهديد التي تلقاها .. وكلها شتائم وقذف بالوطنيين، وبك ـ بصورة خاصة، وو.. الخ!

فقلتُ له: يا «فارس».. بيني وبينك خبز وملح ـ كما يقول المثل العامي.. وأنا أستحلفك بهما، وبما بيننا من مودة، وكان صديقاً لي، ومن رجال الثورة

الشجعان، أستحلفك أن تكتم الأمر عن القائمقام.. حتى أعود من عند «الشيخ». فوعدني، وقال:

إن مدير الناحية، ورئيس المخفر، قد أخبراه بأن متطوعين بالجيش الفرنسي موجودون حول بيت «الشيخ» ـ لمنعه من الذهاب إلى اللاذقية، وحضور الحفلة.. وهم يترصدون «عبد اللطيف اليونس» ليفتكوا به. فسألته: وهل لاحظتَ أحداً منهم في ذهابك إلى قرية «الرستن»، حيث يقيم «الشيخ» أو إيابك منها؟ قال: لا. ولكنهم في «الشيخ بدر» قد أكدوا لي ذلك.

وعدتُ أكرر رجائي.. بأن لا يخبر القائمقام، بما قاله «الشيخ صالح» له، حتى أعود، فوعدني وأكد لي. فركبتُ السيارة، وانطلقتُ.. معتمداً على الله.

ولمّا وصلتُ «الشيخ بدر».. وجدتُ دركيّاً يقف على الطريق، ويطلب مني مقابلة مدير الناحية. وكان القائمقام قد اتصل به ـ ليحول بيني وبين الذهاب إلى مقر «الشيخ» ودخلتُ مكتب مدير الناحية، وإذا به يقول بكل رقّة ولطف:

إنك لا تستطيع الوصول إلى عند « الشيخ » ـ لأن جنوداً متطوعين بالجيش الفرنسي موجودون على الطريق، وحول المنزل، وأنت المقصود شخصياً.

قلتُ له: أرجو أن تقدّر موقفي. فقد أمضيتُ عدة أشهر وأنا أسعى في سبيل «الحفلة».. ومضت عليّ ثلاثة أسابيع وأنا أطوف في سورية ولبنان ـ للاتصال بشخصيات كريمة من أجل حضورها. وإني أريد التحدث مع «الشيخ» شخصياً، فقال:

ولكنّ «الشيخ» قرر إلغاء الحفلة.. وهو مصرٌّ على ذلك فقلت: وهذا ما يضطرني للاجتماع به، وبحث الموضوع معه. قال: ولكن حياتك مهددة بالخطر، قلتُ: يا سيدي.. أنا أؤمن بالله إيماناً عميقاً، وبقول المولى جلّ وعلا: ﴿قُلْ لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾، والأعمار بيده تعالى.. وليست بأيدي بسطاء سذّج ويعملون في جيش العدو.

فاقترح أن أكتب رسالة إلى «الشيخ»، يحملها دركي.. ويعود بالجواب. قلتُ:

هذا لا يكفي، ولابد من أن أبحث الموضوع مباشرة مع «الشيخ».

ولما رأى الحاحي وإصراري.. وكان مهذّباً جداً ـ ويؤسفني أني لا أذكر اسمه، ولا أعرف عنه إلا أنه من حلب.. فقرّر أن يرسل معي دركيين جلستُ بينهما في المقعد الخلفي، ونزعتُ الطربوش عن رأسي ومضينا ـ والمسافة لا تتعدّى ثلاثة كيلو مترات.

وأعترفُ.. بأني كنتُ كلما رأيتُ شبحاً من بعيد.. أقول بيني وبين نفسي: هؤلاء هم. ولكن أحداً لم يعترضنا ـ لا في ذهابنا، ولا في ايابنا.

واستقبلني «الشيخ» فوراً.. وهو بادي الاضطراب، وأدخلني معه إلى المنزل الداخلي، وقال لي بكل حزم:

لا أريد أن يُقتل أحدٌ بسببي، وأنا بغنىً عن الحفلات والمظاهرات.. وقد أديتُ واجبي تجاه ربي، وتجاه وطني، وهذا يكفيني. لذلك طلبتُ إلغاء الحفلة، وقد انتظرتك طويلاً حتى تأتي.. ولما تأخر مجيئك، وموعد الحفلة أصبح قريباً.. طلبتُ «فارس أبو كف»، وأبلغته أن يخبر القائمقام ليبلغ المحافظ بأني لن أحضر الحفلة، وطلبتُ إلغاءها، واعلان ذلك بالصحف والاذاعة. وقال: خذ.. وألقى بين يدي مجموعةً ضخمةً من الرسائل، ففتحتُ بعضها، وقرأتُ ما جاء فيها، ثم أغلقتها وقلتُ له:

ولكن.. ماذا نقول للمئات من الأدباء، وأرباب الوجاهة والنفوذ، وقد اتصلتُ بهم شخصياً واتفقتُ واياهم على حضور الحفلة؟ قال:

هذا لا يهم. تعلن في الصحف تأجيلها ـ بدلاً من إلغائها.

قلتُ: وهل هناك ما يسرّ أعداءنا.. مثل هذا؟ قال:

وهل تريد أن يُقتّل الناس بسببي - والفرنسيون مجرمون.. والسائرون معهم أكثر اجراماً منهم.. وهم لا يتورعون عن ارتكاب أي عمل إجرامي ـ ولو أدى ذلك إلى قتل المئات؟ لا، يا بني لا. وأنت تعرف جيّداً أني لا أخاف أحداً.. ولكني أخاف أن أكون السبب بقتل أبرياء. لا.. لا أريد.

وعبثاً حاولت إقناعه بأن التهديد هو علامة الجبن ـ وليس علامة الاقدام.

وعبثاً استعطفته، وألححتُ بتوسلي ورجائي.. فقد بقي مصراً على إلغاء الحفلة.. ولم يتراجع عن قراره.

ولما رأيتُ إصراره. وقفتُ أمامه بجرأة وحزم.. وقلتُ له:

سيدي: إنَّ الحفلة ستقام في موعدها.. ولن نتراجع. وسنرفع رسمك في قاعة الاحتفال ونشير إليه ـ بدلاً من وجودك شخصياً، والتوجه بالاشارة إليك. ولكنني أريد أن أسألك، وبصراحة، ماذا سيقول الناس إذا سمعوا أنك لم تحضر الحفلة ـ لأنك تلقيتَ رسائل تهديد.. من أوباش رعاديد؟ وهل يصدّقون أن قائد الثورة التي استمرت ثلاث سنوات ونصف، دون انقطاع، يخاف من رسائل أُرسلت إليه.. فيمتنع عن حضور احتفال كبير يقام له؟! أو لايكون امتناعك عن الحضور وسيلةً لزرع الشك حول الثورة وقائدها؟ ثِق يا سيدي، أن امتناعك عن حضور الحفلة ـ التي هي تمجيد لبطولتك.. سيدفع كثيرين للاقتناع بما يقال من أعداء الثورة عنها.. وسيكون موقفك هذا مشجعاً للنيل من سمعة الثورة ومجدها ومسيرتها. ومشيتُ.. ثم التفتّ وقلتُ له:

أرجو أن تغفر لي.. إذا قلتُ: إن الناس سيخامرهم الشك بشجاعتك وبطولتك، وبواقع الثورة وحقيقتها.. ولن يقولوا إنَّ حرصك على أرواح الناس هو السبب بتخلفك عن الحضور.. وإنما على حياتك هو السبب! وقلتُ: إني مؤمن ببطولتك وشجاعتك، وسموّ قصدك وغايتك، كل الايمان ـ ولكنّ أعداءنا هم الذين سيستغلون هذا الموقف ضدك، وضد ثورتك إلى أبعد حدّ.. وهم جميعاً أدنى وأحطّ من أن يجرؤوا على القيام بأي عمل.. وما هو إلا تهديد ووعيد، ورسائل سخيفة من رعاديد. فأين هي بطولتك التي عرفها الناس.. وشجاعتك التي هي حديث كل الناس؟ أنت يا من حاربتَ فرنسا، وقبلها تركيا، تتراجع أمام تهديد جبناء أذلاء حقيرين! وهل يجوز أن تدفن مجدك بيدك ـ وأنت «الشيخ صالح العلي» البطل الشجاع؟!

وانهمرت الدموع من عينيّ وأنا أتكلم.. كأني في موقف خطابيّ مؤثر.. ومشيتُ. وقبل أن أصل إلى الباب، صرخ «الشيخ»: قِفْ، قِفْ. فوقفتُ وتطلعتُ

نحوه.. وإذا به قد تحوّل إلى انسان آخر! ذلك الوجه الوسيم الهادىء.. الذي يحف به الجلال والوقار والدَّعة.. قد استحال إلى وجه محارب عنيد شديد المراس.. وتلك النظرة الناعمة الصافية الودودة.. حلّتْ محلّها نظرة نَسْر يريد أن ينقضّ، أو أسد يحاول أن يثب، وقال لي:

كلّ ما قلته صحيح.. وإنّ الناس لن يعتقدوا بأن تخلّفي هو من حرصي على أرواح الأبرياء.. وإنما هو من الخوف على حياتي أنا. صدقتَ يا بني.. إن الغاء الحفلة سيسيءُ كثيراً إلى سمعة الثورة. سِرْ على بركات الله، وتابع عملك، وثِقْ بأني لن أذهب إلى الساحل إلا على ظهر فرسي، وليقابلني من يشاء على الطريق، فأنا على أتّم استعداد. ثم نادى مرافقه «سليم شاويش» وصاح به: هيئوا السلاح من الآن.

أعترف.. بأنه لم تمر عليَّ لحظة، في حياتي، كانت أسعد من تلك اللحظة - إذ لم يكن من السهل ضياع تلك الجهود المضنية التي بذلتُها خلال تلك الأشهر.. فضلاً عن خجلي من أولئك الذين اتصلتُ بهم أكثر من مرة.. وتجشّمتُ مشقّةَ السفر لزيارتهم في مناطقهم، والتحدّث معهم بشأن الحفلة وكان من غير المعقول، ولا المقبول، أن تتبخر تلك الأحلام، وتتبدد وتتلاشى.. ولا أن نعطي أعداءنا سلاحاً يستقوون به علينا، ويتخذونه وسيلة ضدنا.

وعدتُ إلى طرطوس - بعد أن توقفت قليلاً عند مدير ناحية «الشيخ بدر»، وأخبرته بأن «الشيخ» قد تراجع عن قراره.. وصمّم على حضور الحفلة، وأن بامكانه أن يتصل به للتأكد من ذلك. وبدا لي أنه سرّ للنبأ واغتبط به. وتابعت سيري.. وأنا في حالة سرور وغبطة لا مثيل لهما.

وذهبتُ إلى بيت القائمقام.. وأصوات المؤذنين تجلجل من المآذن لصلاة العشاء.. وإذا بـ «فارس أبو كف» قد سبقني إلى عنده، وأخبره بأن «الشيخ» يطلب إلغاء الحفلة، وقد اعتذر مني «أبو كف»، بعدئذٍ، وقال لي أنه اضطر لاخبار القائمقام بما جرى - لأنّ مسؤوليته تقضي عليه بذلك. وأن تأخري بالعودة جعله في موقف حرج. وكان القائمقام قد اتصل بالمحافظ فوراً، ونقل إليه طلب

«الشيخ» إلغاء الحفلة، واصراره على ذلك. وأسرعتُ إلى الكاراج، واستأجرتُ سيارة أقلتني إلى اللاذقية فوصلتُها وأنا مُنهك من التعب والاعياء.

في الصباح الباكر.. اتصلت بالمحافظ في منزله، فأجابني ـ وقد سُرَّ بقدومي وطلب مني الذهاب إليه، وتناول فطور الصباح معه. وما أن وصلتُ حتى بادرني بالسؤال:

لماذا طلب «الشيخ صالح» إلغاء الحفلة؟ وهل يخاف من تهديد ووعيد هؤلاء الأوباش؟

فأخبرته عن موقف «الشيخ» الأخير، وطمأنتُه.. فسُرِّيَ عنه ـ ولكنه قال: إن القائمقام قد أخبرني عن طلبه إلغاء الحفلة! فقلتُ له:

بامكانك، يا سيدي، أن تكلف رئيس الديوان الاتصال بمدير الناحية كي يذهب إلى عند «الشيخ»، ويتأكد من موافقته أخيراً. فقال:

لا.. لا لزوم لهذا. إني أثق بكلامك.. وأنت قادم من عند «الشيخ»، وهذا يكفي. ثم أردف: نحمد الله أن الخبر لم يتسرَّب إلى الصحف.. وإني لم أخبر دمشق به ـ وإلا.. لكان حدث اضطراب وبلبلة.

ولما عدت من عند المحافظ.. مررتُ أمام مطبعة «الارشاد» ـ وإذا بصاحبها «الشيخ أمين حكيم» يناديني ويقول لي: ما هذا؟ قلتُ: ماذا؟ قال: لماذا أجلتم الحفلة؟ قلتُ: لا.. لم تُؤَجَّل وإنما ستقام في موعدها المحدد، فناولني بياناً مطبوعاً عليه توقيعي. وهو يتضمَّن تأجيل الحفلة إلى أجل غير مسمىً! والامضاء: «أمين سر اللجنة ـ عبد اللطيف اليونس»!

فبهتُّ عند قراءة البيان وصُعِقتُ، وسألته إذا كان البيان طُبِع عنده.. فأجاب بالنفي. قلتُ: ومتى وُزِّع؟ قال: أمس مساءً، وهم يوزعونه الآن! فأخذتُ البيان منه وذهبت إلى عند «أسعد هارون»، رئيس اللجنة، فوجدته مضطرباً، وعلائم التأثر بادية على وجهه، وقبل أن أجلس قال لي:

كيف تنشر هذا البيان.. دون أن تخبرنا لنعرف ماذا نقول للناس، إذا سُئِلنا عنه؟ صحيح.. أنت المسؤول عن الحفلة أولاً وأخيراً.. ولكن على الأقل كان يجب

أن تطلعني على موضوع التأجيل قبل أن تصدر بياناً بذلك. ولما أكدتُ له.. أنه لا علم لي بهذا البيان مطلقاً، وإني فوجئتُ به، وهو صادر باسمي، مثلما فوجيء هو، وأكثر، ودُهِش وازداد اضطرابه، وقال:

أإلى هذا الحد.. وصلت مؤامرتهم؟!

وذهبتُ وإيّاه إلى عند المحافظ، وأطلعناه عل البيان الملفّق، فتأثر هو أيضاً وقال:

لا شكّ أنّ هناك مؤامرات رهيبة تحاك لمنع قيام الحفلة، أو افشالها إذا أُقيمتْ.

ثم سألني:

والآن ماذا ستعمل؟ قلتُ:

إني سأتدارك الأمر بسرعة، وبما يسركم ويرضيكم، وودّعتهما ومضيتُ.. دون أن أخبرهما عمّا سأعمل.

ووعد المحافظ بالاتصال بوزارة الداخلية كي تخبر الصحف عن قيام الحفلة في موعدها المحدّد.. وأن لا تنشر بياناً مضاداً إذا وردها ـ لأنه ملّفق. ثم أوعز إلى رئيس الديوان أن يتصل بالصحف المحلية، ويفهمها ذلك أيضاً، ثم يتصل بمديري المناطق في المحافظة ويخبرهم عن البيان الملفق.. وكذلك بمدير ناحية «الشيخ بدر» ليطلع «الشيخ صالح».. حتى لا يفاجأ هو أيضاً به.

* * *

ذهبتُ إلى الفندق، وأعددتُ حقيبتي، وأسرعتُ إلى الكاراج، فأخذتُ مقعداً في سيارة مسافرة إلى حمص، حيث وصلتُها بعد الظهر. وذهبتُ فوراً إلى مكتب «الحاج سليمان المعصراني»، نائب حمص، ورئيس الجمعية الخيرية الاسلامية، وصاحب مطبعة وجريدة «الضُّحى». وكان من كرام الناس، وهو من أعز أصدقائي، ومن خطباء الحفلة، ومكلّف بالقاء كلمة الرئيس «هاشم الأتاسي» رئيس الجمهورية السورية السّابق.

وبُهِتَ «المعصراني».. حينما اطلع على البيان، وقال: أإلى هذا الحد وصل لؤمهم وتآمرهم! ثم سألني: ومذا تريد مني عمله؟ فناولته بياناً مضاداً، كنتُ قد

أعددتُه وأنا في السيارة، وفيه تعريض بالدساسين المتآمرين.. وتأكيدٌ لقيام الحفلة في موعدها المحدد. قال: هذا سهل، ونطبعه فوراً، ويكون جاهزاً عند المساء. قلتُ: وثمّة شيء آخر.. أريد فرقة «الميتم الاسلامي» لكي تذهب معي. قال: اليوم الاثنين، وموعد الحفلة يوم الجمعة، والوقت طويل، والمصروف كبير، ولا حاجة للفرقة الموسيقية قبل يوم الحفلة.

قلتُ: نسافر غداً الثلاثاء صباحاً، ونتحمّل مصروف الفرقة الموسيقية مهما بلغ ـ لأننا بحاجة إليها كي تطوف مدن المحافظة، وهي تحمل لافتات عن موعد الحفلة.. وبذلك نحبط كيد الكائدين، ومؤامرة المتآمرين. فوافق، واستدعى «خطاطاً» ليكتب لافتات كبيرة.. توضع على سيارة «الباص» التي تقل الفرقة الموسيقية، وتحمل كل منها هذه العبارة:

«حفلة تكريم المجاهد الكبير «الشيخ صالح العلي» تقام في موعدها المحدد، بمدينة اللاذقية، نهار الجمعة ١٧ نيسان الساعة ٤ بعد الظهر».

واغتنمتُ مناسبة وجودي في حمص.. فزرتُ «الرئيس هاشم الأتاسي» وأطلعته على البيان الملفق الذي نشروه باسمي، ووزعوه، فتأثر وقال: إن أخصامكم.. سيعمدون إلى وسائل أخرى لاحباط الحفلة.. فلا تبال بهم، واستمر في سعيك. ووعد فخامته بإيفاد وفد ضخم من حمص لحضور الحفلة، وهذا ما حصل.

وصباح اليوم الثاني.. كان كل شيء جاهزاً.. ومشى أعضاء الفرقة الموسيقية وهم يحملون «لافتات» صغيرة عليها نفس العبارة الموجودة على لافتات السيارة الكبيرة. ومشيت واليافي «مدير الميتم الاسلامي»، في مقدمة أعضاء الفرقة من دار «الميتم» إلى مدخل مدينة حمص الغربي، والفرقة تعزف الموسيقى، ونحن نوزع البيان الذي طبعنا منه عشرة آلاف نسخة.

وكان لي دالّة على فرقة «الميتم» هذه ـ لأنها كانت تذهب بموسيقاها إلى صافيتا في بعض مواسم الزيت، وعلى رأسها «اليافي»، وتبقى أياماً... تطوف خلالها ببعض القرى، حيث تؤمن للأيتام، من المواطنين الكرام، حاجتهم من الزيت تلك السنة.

وحينما وصلنا إلى «تلكلخ»... ترجلنا من السيارة، ومشينا من أول المدينة إلى آخرها، والعزف مستمر، والبيانات توزّع، و«اليافي» وأنا، في المقدّمة.. والناس يحتشدون حولنا، ويسيرون معنا من الجانبين، ويصفقون.

وسألتُ عن «علي عبد الكريم الدندشي»، قائد الكشاف العام في سورية – وكنتُ أزوره في دمشق لألتقي المجاهد الكبير «أكرم زعيتر» الذي كان يحل ضيفاً عليه بعض الأحيان. ومن حسن الحظ أنه كان موجوداً عند والده ذلك اليوم. فذهبتُ لزيارته، ومعنا الفرقة الموسيقية، وهي تعزف، وأطلعتُه على البيان الكاذب، وعلى المؤامرات المحيكة، من الفرنسيين وأذنابهم، ضد الحفلة، فقال: وماذا تريد مني؟ قلت: أن تحشد كشافة المحافظة للقيام باستعراض جميل في اللاذقية، ومدن المحافظة يوم الخميس، وهم يحملون لافتات عن حفلة «الشيخ صالح». فوقف، بما عنده من وطنية وأريحية، وقال:

خذ مني فُرقاً من كشاف دمشق وحمص وحماه وحلب، علاوة على اللاذقية، ومعهم أعلامهم وموسيقاهم. وسوف يرى أولئك المتآمرون الخونة موقفنا الجريء منهم. وسأبدأ اتصالاتي الهاتفية بفرق الكشاف من الآن، سافرْ.. الله معك، ونحن معك.. وانْتَظِرْنا يوم الخميس في اللاذقية. فشكرته من أعماق قلبي، ومضينا.

ومررنا بمدينة صافيتا.. فترجلنا من السيارة، ومشينا من شرق المدينة إلى غربها، والموسيقى تعزف، ونحن نوزع البيان المضادّ على الناس – وهكذا في طرطوس، حيث تناولنا الغداء فيها، ثم تابعنا سيرنا إلى مدينتي بانياس وجبلة.. فطفنا بهما. وكنّا كلما شاهدنا بعض المارة على الطريق العام.. نلقي إليهم نسخاً من البيان المضادّ.

وحينما وصلنا اللاذقية، بعد غروب الشمس بقليل، ذهبنا بالفرقة رأساً إلى دار المحافظ، وطلبنا إذناً بالسماح للفرقة أن تدخل الحديقة، فسمح لها، ووقف المحافظ على الشُرفة وهو يبتسم، وعلائم الغبطة والارتياح بادية على محيّاه – وهو يرى الفرقة تعزف، واللافتات مرفوعة فوق بعض القطع الموسيقية عن

حفلة «الشيخ» وموعدها المحدد، وقال لي:

أحسنتَ، أحسنتَ.. هكذا فليكن الترتيب والتنظيم. وأوعز إلى الشرطة بتوزيع قطع الحلوى على الأيتام، ثم وزّع عليهم بعض الدراهم.. وأوفد من قبله من يهيىء لهم المبيت في الفنادق على نفقة المحافظة، وكان عددهم ٤٥ شخصاً.

نضرّ الله ذكرى «الأمير مصطفى الشهابي»، وأكرم في الآخرة مأواه ومثواه.

وفي اليوم الثاني.. قامت الفرقة بجولة في شوارع اللاذقية وأحيائها. ونهار الخميس أوفدناها إلى مدينة الحفّة.

وهكذا أحبطنا مؤامرة محبكَة بدقة.. كانت ترمي إلى ايهام الناس بأن الحفلة قد أجّلت إلى أجل غير مسمى ـ ومعنى ذلك أنها ألغيت.. فيمتنع الناس عن الحضور، وتفشل الحفلة.

ولكن الذي فشل.. هو مخطط الأعداء والخصوم.

* * *

مساء ذلك اليوم.. ذهبت إلى دار «أسعد هارون»، رئيس اللجنة، ومعي الفرقة الموسيقية التي بقيتْ تعزفُ أمام داره فترةً من الوقت. ثم دخلتُ وإياه نبحث موضوع استقبال الضيوف القادمين من المدن السورية، ومن لبنان. وإذا بـ (أبي نزار).. يفاجئني باقتراح غريب ـ وهو.. أن نغيّر مكان الحفلة ـ لأن من المحال، حسب رأيه، أن يحضر ناس كثيرون، نظراً لشدة المقاومة للحفلة، وتألّب خصوم العهد الوطني ضدها. وهو يرى أن من غير اللائق أن تظل مقاعدنا فارغة بدار السينما الواسعة، ولا يملؤها أحد. واقترح أن نقيم الحفلة في مقهى ـ إذ أن بالامكان ملأه، حسب قوله، من أبناء اللاذقية ـ إذا لم يأت من الخارج أحد. واقترح أن يكون «مقهى الشيخ ضاهر».

واستغربتُ الاقتراح، وعارضتُه بشدة. وأكدتُ له أن الحاضرين سيكونون أكبر من قاعة السينما، وستضيق بهم. وتشبث كل منا بموقفه ـ هو رئيس اللجنة، وأنا أمين السر ـ المسؤول عن الحفلة. وأخيراً اقترحتُ أن نحتكم إلى المحافظ «الأمير»، والحفلة تحت رعايته، فوافق. واتفقنا على أن نذهب لمقابلته صباح

اليوم الثاني الأربعاء، وكنتُ واثقاً من أنّ المحافظ سيكون إلى جانبي ـ لأنه كان يثق بي.. وخاصةً بعد أن رأى أثر عملي، ودقّة ترتيبي وتنظيمي.

وصباح اليوم الثاني.. ذهبتُ إلى دار «أسعد هارون» لنذهب معاً إلى عند المحافظ.. وإذا به يقف على شرفة منزله ــ المطلة على الحديقة، وقاعة الاستقبال، فقال لي بصوت عالٍ:

لا داعي لتحكيم المحافظ. أنا موافق معك مائة بالمائة. ثم أخبرني، وآثار الدهشة ما تزال في وجهه، أنه رأى «الشيخ صالح العلي» نفسه في المنام ـ بهيئته الوقورة، وسمته الرّزين، وقال له:

قل لـ «عبد اللطيف» أن يهيء عدداً كبيراً من المقاعد ـ لأنّ الحفلة سيحضرها ناس كثيرون.

وظلّ «أسعد هارون» يروي قصة هذا الحلم العجيب طوال حياته، وهو مأخوذ به مشدوه.

حقاً.. إنّ في الكون أسراراً عجيبة غريبة، لن يدري كنهها إلاّ المولى ـ جلّ وعلا، وليس ثمة مجال هنا لذكر أحلام أخرى.. كان لها أثر كبير في مجرَى حياتي. والأمر بيد الله، ولا رادّ لمشيئته تعالى.

* * *

نهار الأربعاء في ١٥ نيسان.. امتطى «الشيخ صالح» فرسه، وحوله جمع من رجاله، وذهب من الجبل إلى الساحل ـ إلى الطريق العام عند «نهر مَرَقِيّة»، الحد الفاصل بين منطقتي بانياس وطرطوس. والمسافة من مقر «الشيخ»، إلى ذلك المكان، تبلغ أكثر من عشرين كيلو متراً. وكانت ثمة سيارات تنتظر ـ لتقلّ «الشيخ» ومرافقيه من بعض بقايا حملة السلاح أيام الثورة، إلى طرطوس.. حيث حلّوا في فندق «خضر حبيب».

في ذلك الليل.. جرت محاولة لخطف «الشيخ» بواسطة أحد الاقطاعيين الضالعين مع فرنسة. ولكن يقظة «عباس حبيب» و«سليم شاويش»، مرافقيْ «الشيخ» قد أحبطت تلك الخطة ـ بل المكيدة اللئيمة.

وهكذا حاول الاقطاعيون، السائرون في ركاب فرنسا، منع اقامة الحفلة، ولجأوا إلى عدد من الوسائل ـ منها:

١ ـ دفعوا أنصارهم لكتابة رسائل كثيرة لفضيلة «الشيخ».. يؤكدون له فيها أنهم سينسفون المكان الذي تقام فيه الحفلة حتى يمتنع عن حضورها.. ويطلب الغاءها ضناً بأرواح الناس ـ وهو المعروف بزهده وتواضعه وتقاه.

٢ ـ أشاعوا أنهم يحيطون بمقر إقامته ليمنعوه من الذهاب، وحضور الاحتفال الذي يقام لتكريمه!

٣ ـ عمدوا إلى اختطاف «الشيخ» بأسلوب خادع ماكر.. ولكن يقظة حراسه قد أحبطت تلك الخطّة الجهنمية الرهيبة.

٤ ـ ولما أخفقتْ محاولاتهم تلك.. عمدوا إلى وسيلة خسيسة.. فوزّعوا بياناً باسمي، يعلن تأجيل الحفلة إلى موعد آخر.. حتى يمتنع الناس عن الحضور ولكن مؤامراتهم كلها باءت بالفشل، وأحبطت جميع محاولاتهم الخبيثة الدنيئة.

* * *

صباح الخميس في ١٦ نيسان ١٩٤٥ سافر «الشيخ» إلى اللاذقية، وبرفقته جمهرةٌ من أعوانه وتابعيه، وحلّ في فندق السياحة والاصطياف «الكازينو».

ومساء الخميس .. تجمعت وفود « الكشّافة » في اللاذقية، ومرّتْ أمام الفندق باستعراض زاهٍ «جميل».. وهي بألبستها الزاهية، ومشاعلها وعصيها وموسيقاها.

كان الاستعراض بديعاً رائعاً.. والمنظر خلاباً وجذاباً.. والموسيقى شجيّة ومثيرة. وكان عدد «الكشافة» كبيراً ينوف على الألف.. والناس يتجمهرون على أرصفة الشوارع.. وهم يصفّقون بحرارة. وكثيرون ساروا مع التظاهرة المنسقة الجميلة، في جميع الشوارع والحارات التي طافوا بها.

ومقابل الفندق.. كانت تحتشد موسيقى الأيتام ـ وهي تعزف أحلى الأنغام، وتثير في النفوس أبهج المشاعر، وأرق الأحاسيس وكانت وكأنها في عرس أنيق مشرق.

وقد دمعتْ عينا «الشيخ»، وأعين الكثيرين، وهم يرون «فُرق الكشاف» تحمل أعلامها، وآلات موسيقاها.. وهي تعزف وتسير بدقة وانتظام مهيبين رهيبين..

لقد كانت مسيرة «الكشاف».. تبعث على الغبطة والاعتزاز والزهو.

وفي اليوم الثاني - الجمعة.. أقمنا حراسة قوية، من «الكشافة» والشرطة، حول دار السينما.. منعاً لكل حادث يُفتعل لتعكير جو الحفلة. كما أجرينا تفتيشاً دقيقاً على جوانب الدَّار، والأماكن المحيطة بها.

وأمَّتْ اللاذقية جماهير غفيرة من الجبل والساحل.. حتى اضطررنا لأن نمنع دخول أي كان ــ مالم يكن يحمل بطاقة دعوة. وحسب ايحاء «الشيخ» في المنام ــ كما مرّ بنا.. فقد استأجرنا مئات الكراسي، من مختلف المقاهي، ووزعناها بجوانب السينما ــ حتى أننا لم نترك فيها أيَّ فراغ يتسع لكرسي.

وجاءت وفود من سائر المدن السورية واللبنانية.. وتَمَثَّل «جبل العرب» بوفد من كبار مجاهديه ــ ما عدا «سلطان باشا الأطرش» الذي حالت ظروف خاصة دون تمكنه من الحضور. ويحضرني بيت من قصيدة الشاعر «سلامة عبيد»، حملها ولده المجاهد الكبير «الشيخ علي عبيد»، وفي هذا البيت يخاطب العروبة، مشيداً بنضال الجبلين: جبل اللاذقية، وجبل السويداء:

جبلانا.. حصنك الراسي، ولم يرهق الروَّاد إلا جبلانا

وحضر وفد من كبار علماء «جبل عامل» ومجاهديه، وعدد من الشخصيات اللبنانية الكريمة ــ من بيروت وطرابلس. وناف عدد النواب السوريين الذين حضروا الحفلة على الثلاثين. وبرزت الحفلة تظاهرة وطنية كبرى ــ بالوقت الذي كان قد استشرى فيه الخلاف بين السلطات الوطنية ورجال الاستعمار الفرنسي الحاقدين الطامعين.

واستمرت الحفلة خمس ساعات كاملة. تخللها عزف من فرقة «الأيتام»، وفرق «الكشافة».

وتُليتْ في الحفلة ــ وكنتُ عريفها طبعاً ــ كلمة الرئيس «شكري القوتلي»، تلاها «نجيب الريس»، نائب دمشق وصاحب جريدة «القبس».. وكلمة الرئيس

«هاشم الأتاسي» ـ تلاها «الحاج سليمان المعصراني» نائب حمص. كما تلوتُ برقيات بعض المسؤولين الذين لم يتمكنوا من الحضور. ونوهتُ بالكلمات الكثيرة التي أُرسلتْ لتُلقى ـ ولكنَّ ضيق المجال لم يتسع لها.

وقدَّم «الأمير مصطفى الشهابي» للشيخ المحتفى بـه «وسام الاستحقاق السوري» الرفيع.. الذي منحه اياه رئيس الجمهورية السورية، وعلّقه على صدره وسط هتاف عال، وتصفيق حاد متواصل.

وكنّا اتخذنا احتياطات، وأقمنا مكبرات للصوت في الشوارع القريبة من مكان الاحتفال والمؤدّية إليه ـ لكي تتاح للجماهير المحتشدة في الخارج.. متابعة الحفلة، وسماع ما يقال فيها.

وعندما انتهت الحفلة.. خرج «الشيخ صالح العلي»، المحتفى به، بين الأمير «مصطفى الشهابي» محافظ اللاذقية، و«احسان الجابري» محافظها الأسبق، والشخصيات الكبيرة التي حضرت ذلك المهرجان الضخم.

وكانت الجماهير الغفيرة ممتدّة من «ساحة الشيخ ضاهر» إلى مبنى البلدية ـ حيث لا يجد المرء مكاناً لقدم.. والمسافة بضع مئات الأمتار. وكان أبناء مدينة اللاذقية قُد احتشدوا بشكل بهيج مشرف.. وباعث على الاعتزاز والتقدير. وانضم إليهم الكثيرون من أبناء الجبل والساحل ـ الذين لم يتح لهم الدخول إلى السينما التي اكتظّت بالناس إلى حدٍ لا مثيل له.

* * *

من المفارقات الغريبة.. أن «الشيخ صالح العلي» قد وُلد في منتصف شهر نيسان، ووفاته كانت في ١٣ نيسان، وحفلة تكريمه أقيمت في ١٧ نيسان ـ كما أنه كان قد شنّ الثورة على الأتراك في شهر نيسان أيضاً، ثم أتبعها بثورته ضد الفرنسيين منذ وطئت أقدامهم محافظة اللاذقية.

كل ذلك جرى في شهر نيسان. أوليس هذا من الغرابة بمكان؟!

حياة تبتدىء بربيع، وتنتهي بربيع.. هل هي إلاّ ربيعٌ في ربيع؟

وفي السنة التالية لاقامة المهرجان للشيخ المجاهد، جرى الاحتفال بجلاء

القوات الأجنبية عن سورية، وبنفس اليوم ـ ١٧ نيسان!

ويروي المفكر «الدكتور جورج جبور»، أنه كان تقرر أن يكون «عيد الجلاء» في ١٩ نيسان ـ ولكن.. كان ثمة أسباب اجتماعية حالت دون الاحتفال به في ذلك اليوم، بتلك السنة، فجُعل في ١٧ منه.. ثم أصبح تاريخاً محدداً ومؤكداً بعد ذلك.

* * *

«اليوبيل الذهبي» ـ للعلامة الجليل «الشيخ سليمان الأحمد»، وحفلة تكريم المجاهد الكبير «الشيخ صالح العلي»، ثم حفلة تأبينه بعد ذلك، كانت كلها.. من أهم الانجازات التي قمتُ بها في حياتي، وتغلبتُ فيها على العوائق والمثبِّطات، وقُدِّر لي فيها التوفيق والنجاح ـ رغم المكائد والدَّسائس والمؤامرات التي زُرعت في الطريق عن عمد وقصد!

وإنَّ حسن النيَّة وسمّو الفكرة.. هما وحدهما اللذان يسهّلان الصعوبات، ويزيلان العقبات.. ويكفلان النجاح لكل عمل نزيه وشريف.

ومع هذا.. فإن من جمع ما قيل في حفلة تكريم المجاهد الكبير «الشيخ صالح العلي»، وحفلة تأبينه.. ومن وضع كتاباً عن حياة العلامة الجليل «الشيخ سليمان الأحمد».. قد أغفلا، كلاهما، ذكري.. وأني وحدي صاحب فكرة تلك الحفلات.. ووحدي الذي قمت بأعبائها جميعاً ـ من الألف إلى الياء.

وهكذا فليكن الوفاء.. وتقدير المواقف من الأوفياء!!!

ومع ذلك.. فأنا أرضيت ضميري بما فعلته وكافحت من أجله.. وقد قمت بواجب حتّمه عليّ الواجب. ويكفيني فخراً واعتزازاً هذا.. وأن كثيرين من الذين شهدوا تلك الحفلات مايزالون أحياء.. وهم يعرفون صحَّة ما قلت ـ ويعترفون به ويؤكدونه.. والحمد لله، والشكر له.

وأمّا الجاحدون العاقّون.. فجزاؤهم عند الله ﴿ولا يحيق المكر السّيء إلا بأهله﴾. صدق الله العظيم.

* * *

واشتد الصراع بين السوريين والفرنسيين سنة ١٩٤٥ ـ وبدأت الاصطدامات

تجري في أكثر المدن، وتتطور بسرعة، وتحتدم بشراسة. وانسحب عدد كبير من الضباط السوريين، العاملين في الجيش الفرنسي، وانضموا لاخوانهم. واشتد الصراع داخل الثكنات ببعض المناطق، وامتدّ إلى خارجها. وبدأ طلاب الكلية العسكرية الفرنسية ينسحبون منها، ويلتحقون بالقوات السورية التي كان قوامها الدرك والشرطة، ثم بدأت تتكون فصائل من السوريين المنسحبين من الجيش الفرنسي.. وتكون نواة الجيش السوري الذي بدأ تكوينه.

وكان الضابط «عزيز عبد الكريم» في طليعة الضباط الذين انسحبوا من الجيش الفرنسي، وانضموا لاخوانهم، وكانت له مواقف مشرِّفة.. بتشجيع زملائه الضباط السوريين للالتحاق بالجيش السوري.

وقويتْ الاضطرابات داخل الثكنات.. مما حال بين الفرنسيين وخطتهم الرامية إلى تدمير المناطق التي كانت في مرمى مدفعيتهم. وقيل إنه كان لموقف الجنود الفرنسيين المغاربة، إلى جانب الجنود السوريين، أثر حازم ومشرِّف في بعض المواقف، وبعض المناطق.

ومع ذلك.. لم تسلم مدينة، توجد فيها ثكنة عسكرية للفرنسيين، من مهاجمتها بالمدافع والرشاشات ـ وإن اختلفت نسبة الأضرار من أمكنة لأخرى. وتطوّع كثير من المدنيين السوريين، إلى جانب قوات الدرك، للدِّفاع عن المدن وحمايتها.

ولبس «رياض عبد الرزاق»، نائب طرطوس، ثوب دركي، وحمل بندقيَّة حربية، وسلَّح عدداً من الشباب كانوا يطوفون معه طوال الليل، على مدى أسابيع طويلة، وذلك.. لحماية أحياء طرطوس الجنوبية ـ من الجنود الفرنسيين الذين يعسكرون في الثكنة العسكرية.. التي كانت تُوَجَّه منها القوات الفرنسية للهجوم على مناطق «الثورة» التي شنّها المجاهد الكبير «الشيخ صالح العلي».. وقد سُمِّيت باسمه بعد الاستقلال، بناءً على اقتراح تقدَّمتُ به للمجلس النيابي ـ كما سيجيء.

وذهبتُ للتطوع في كتائب الشباب التي بدىء بتشكيلها في دمشق. ولكن «سعد الله الجابري» رئيس الوزارة، وكانت تربطني به، وبأخيه «احسان» صلة وثيقة..

وقد قمتُ بزيارته، وأطلعته على رغبتي، فقال لي:

الأفضل.. أن تعود إلى محافظة اللاذقية ـ لأن عملك هناك، بين المواطنين، وتوعيتهم.. والتصدي مع اخوانك للدعايات الفرنسية ومؤيديها من الرجعيين والاقطاعيين.. هو أفضل بكثير من عملك هنا. فأنت هنا ستخدم كفرد ـ وأمّا هناك.. فإنك وإخوانك تشكّلون جماعة. وعملكم في منطقتكم أجدى، وأكثر فعالية من عملكم خارجها. فعدتُ لمحافظة اللاذقية لأداء واجبي القومي فيها ـ ولم تكن قد أحدِثتْ محافظة طرطوس بعد.

كانت قوات الحلفاء قد احتلت فرنسا كلها ـ بعد أن أجلت الجيش الألماني عنها.. وبدأت تُحكِم الطوق حول المانيا نفسها.. فيهاجمها الأميركان والانكليز وحلفاؤهم من الجنوب، والسوفييت يندفعون بجيوشهم الجرارة من الشّمال والشّرق.. بعد أن طردوا الجيوش النازيّة من بلادهم، ومن بلدان أوروبا الشرقية كلها. واستولى «ديغول» على السلطة داخل فرنسا.. وهو يحمل أفكاراً استعمارية رهيبة، بعيدة المدى! وأصرّ على تطبيق بنود المعاهدة التي عُقِدَتْ بين فرنسا وسورية سنة ١٩٣٦ ـ ثم ألغتها فرنسا، وعادت تحكم البلاد بالحديد والنار، والروح الاستعمارية الشريرة!

أصرّ «ديغول» على عودة المعاهدة الملغاة.. أو عقد معاهدة جديدة تتيح لفرنسا امتيازات عسكرية، وغير ذلك.. وهو ما لايتفق مع روح الاستقلال، ولا مع تعهّد الحلفاء بالموافقة عليه، وعدم المساس به.

وهدّد «ديغول» بعودة الجيش الفرنسي لحكم البلاد حكماً مباشراً ـ ولا حرية ولا استقلال! وكانت فرنسا وبريطانيا، إبّان الحرب، تشبهان لِصّيْن.. كلٌّ منهما يحاول الوصول إلى أكبر نصيب من الغنيمة. وقد صوّر «شوقي» واقع العرب في ذلك الحين أبلغ تصوير ـ وإن يكن يقصد الحرب العالمية الأولى، وهو يرثي «الملك حسين» الذي خاض معارك مع الحلفاء ضد الأتراك.. فكان نصيبه النفي إلى جزيرة قبرص، حيث مات فيها، ودفن في القدس بجوار «المسجد الأقصى»، قال «شوقي»:

قُمْ تحدّثْ ـ «أبا عليّ» إلينا	كيف غامرتَ في جوارِ الأراقِمْ
وتركتَ النُّيوب في الهامِ فُشْناً	وتمسّكتَ بالحواشي النَّواعِمْ
هاتِ حَدِّثْ عن العَوانِ وصِفْها	لا تُرَعْ في التُّرابِ.. ما أنا لائِمْ
كلّنا واردُ السَّرابِ.. وكُلٌّ	حَمَلٌ في وليمةِ الذِّئبِ طَاعِمْ
قد رَجَوْنا من الغَنائم حَظّاً..	وَوَرَدْنا الوَغى.. فكُنّا الغَنائِمْ

* * *

وفتحت فرنسا مدافعها ورشاشاتها.. وشرع جيشها يصبّ قذائفه على دمشق، وسائر المدن السورية. واستبسلت القوات الوطنية التي انسحبت من الجيش السوري، ومعها أسلحتها، تساندها قوات الدرك، والمتطوعون الأحرار من أبناء البلاد، كما أسلفنا، واستبسلوا جميعاً بالدفاع، ومقاومة الهجمات الفرنسية الوحشية الضارية.

ودخل الجنود الفرنسيون مجلس النواب يوم ٢٩ أيار ١٩٤٥ وقتلوا جميع أفراد الشُّرطة الذين كانوا يدافعون عن حرمة المجلس. وقد سُمّي شارع في دمشق ـ تخليداً لأولئك الشُّهداء.. هو شارع ٢٩ أيار. وكان «شكري القوتلي»، رئيس الجمهورية، مريضاً، وفي حالة خطيرة.. فاستدعى وزير بريطانيا المفوض وقال له:

إذا لم توقفوا اعتداء القوات الفرنسية على الشعب الذي أصدرتم بياناً باحترام استقلاله.. فسأنتقل، وأنا على فراشي، إلى«ساحة المرجة»، وأموت هناك مع أفراد شّعبي الذين يدافعون عن حريتهم واستقلالهم.

وعاد الوزير البريطاني، إلى مقرّ عمله، بالمصفحة التي جاء فيها.. لينقل النبأ إلى حكومته برقياً.

وكان «الوسطاء».. يزورون «القوتلي» ليقولوا له: إنّ فرنسا تريد ترضيةً معنوية ـ ولو بعقد معاهد شكلية.. فيجيبهم بصوته الجهوري:

من المحال.. أن أمضي معهم أيّة معاهدة، أو اتفاق ثنائي، ولو قُطعتْ يدي.

وأخيراً.. تدخل الجيش البريطاني ليوقف المعارك الضارية، بين الجيش

الفرنسي والشعب السوري.

وذهب «فارس الخوري» إلى مجلس الأمن.. يطالب بجلاء القوات الفرنسية والبريطانية معاً عن سورية. وكانت شخصيته الوقورة، وحجّته الدامغة، وحنكته السياسية، وحسن اتصاله بمندوبي الدول.. كان لذلك كله أثر كبير، وعامل قويّ، لاتخاذ قرار، من الأمم المتحدة، بوجوب جلاء القوات الأجنبية عن سورية. وتحدّد موعد جلاء آخر جندي في ١٧ نيسان ١٩٤٦.

ومما يروى عنه بهذا الصدد أنه جلس عن عمد بمقعد مندوب فرنسا في الأمم المتحدة.. ولما جاء المندوب الفرنسي أبدى امتعاضاً وغضباً من جلوس المندوب السوري في مقعده. فقال له «الفارس» بصوته الجهوري:

لقد جلستُ في مقعدك ٥ دقائق.. فلم تتحملْ هذا - فكيف استطعنا نحن تحمل وجودكم في بلادنا ٢٥ سنة؟

وضحك أعضاء المجلس وكانت نكتة، ذات دلالة قاسية، ما يزال يتندر بها الناس إلى الآن.

* * *

احتفلت سورية احتفالات رائعة.. بجلاء الجيوش الأجنبية عن البلاد - لأول مرة.. منذ مئات السنين. وغمرت الفرحة كل أنحاء القطر.. ولبست البلاد حللاً زاهيةً من الغبطة والفرح.. المنهمر مع شذا الربيع، وأريجه، ونفحاته الخُضر. وأعدت الحكومة برامج حافلة بتلك المناسبة السعيدة .. فدعت الأشقاء العرب لحضور الاحتفال، ومشاركة السوريين بهجة السرور التي غمرت نفوس العرب جميعاً.

وكان محافظ اللاذقية آنذاك «رشيد حميدان» - وهو قاضٍ كبير مرموق، مشهودٌ له بحسن الإدارة، والاستقامة والنّزاهة - قد شكّل وفداً شعبياً لتمثيل المحافظة في الاحتفالات الرسمية التي أُقيمت بالعاصمة دمشق. وكانت الحكومة السورية قد حددت أربعة مندوبين عن كل محافظة لتمثيلها رسمياً في مهرجانات الاحتفال. وكنتُ عضواً في ذلك الوفد الذي مثّل محافظة اللاذقية، وكان مؤلفاً من:

سامي شريتح. دبّاح الدندشي، جميل عرنوق، عبد اللطيف اليونس.

ووُجّهت إلى «الشيخ صالح العلي» دعوة خاصة ـ بصفته قائد أول ثورة سورية، وأول من جابه الفرنسيين بالسّلاح، طوال ثلاث سنوات ونصف.. وطلب منه رئيس الجمهورية إلقاء كلمة بالمهرجان الرسمي.

وقد تلطّف «الشيخ صالح»، وهو في طريقه إلى دمشق، فزارني في صافيتا ـ حيث أمضينا يوماً كاملاً في ظلّ عاطفته وإيمانه. وكان برفقته ابنا عمه «الشيخ عباس» و«الشيخ سليم»، و«الشيخ ابراهيم يوسف عيد» ومرافق «الشيخ» الخاص «سليم شاويش».

وعهد إليّ «الشيخ صالح» بإلقاء كلمته في المهرجان الرسمي.

وسافرنا إلى دمشق، وذهبنا إلى فندق «الشرق»، أوريان بالاس، وكان أفخم الفنادق آنذاك، وطلبتُ حجز جناح لـ «الشيخ» ومرافقيه.. واعتذر الموظف المسؤول ـ لأن الفندق محجوز بكامله للوفود من خارج القطر. فطلبتُ غرفةً واحدة لـ «الشيخ» فاعتذر.. وجاء المدير فكرر الاعتذار، وأخبرني أنه قد حُجِزتْ لـ «الشيخ صالح» غرفة في فندق آخر، من فنادق الدرجة الثانية، وقد حُجِزتْ غرفه كله لممثلي المحافظات.. فغضبتُ، وقلت لهم بانفعال:

إن المجاهد الكبير، قائد الثورة الأولى، لا ينزل بفندق من الدرجة الثانية ـ فإمّا أن يكون هنا. أو أن يعود.

واضطرب المسؤولون بالفندق، وكانوا قد أخلوه من كل نزلائه، وحجزوه للوفود العربية ـ ماعدا غرفة واحدة كان يحل فيها «الدكتور أمين رويحه»، فقد أبقوها له.. نظراً لشخصيته المرموقة، ولأنّ له في عالم الجهاد أثراً بارزاً، ومكانةً معتبرة.

وعاد المسؤولون للإعراب عن أسفهم، واعتذروا لعدم تمكنهم من الاستجابة. فاتصلتُ بمدير عام القصر الجمهوري، الدكتور «خالد شاتيلا»، وأخبرته بأن «الشيخ» سيعود ـ إذا لم تُحفظ كرامته ومكانته. فاهتمّ بالأمر كثيراً ـ لأنّ «سلطان باشا الأطرش» قائد الثورة السورية العام سنة ١٩٢٥، كان قد اعتذر عن الحضور ـ لأنه يريد مواكبة الاحتفال في «جبل العرب».

ولكن البحاثة الكبير «أكرم زعيتر» نشر أخيراً عدّة مقالات في جريدة «الشرق الأوسط» عن الاحتفال بعيد الجلاء في سورية. وذكر فيها أن «سلطان الأطرش» لم يحضر تلك الاحتفالات ـ لأنهم لم يخصّصوا لـه المقعد الأوّل إلى يمين رئيس الجمهورية.. بصفته قائد الثورة السورية العام.

لذلك اضطرب أمين عام القصر الجمهوري.. حينما أخبرته بأن «الشيخ» سيرجع، ولن يحضر الاحتفالات، إذا أنزلوه بفندق من الدرجة الثانية ـ وهو قائد أول ثورة ضد الفرنسيين. فاتصل الأمين العام بالدكتور «أمين رويحه».. وطلب منه إخلاء غرفته لـ «الشيخ صالح العلي».. تجنباً لحدوث مشكلة.. ومراعاةً لحرمة «الشيخ» ومكانته.

واستجاب «الدكتور رويحه».. وأخلى غرفته فوراً، وانتقل إلى بيت أحد أصدقائه ـ وهو مالم نعرفه إلا بعد ذلك.

وهكذا كان الدكتور «أمين رويحة» مثالياً في كل شيء. يرحمه الله.

كل هذا جرى.. و«الشيخ» جالس في احدى الصّالات، مع مرافقيه، وهو لا يعلم شيئاً مما يجري.

ووضعنا ثلاثة أسرّة في الغرفة التي حلّ بها « الشيخ » ـ لكي يبيت معه نسيباه اللذان مرّ ذكرهما .. وكانا من أبطال الجهاد بالثورة، ومن المجلّين فيها. وكان مرافقه «سليم شاويش» يسهر على باب غرفته طوال الليل، وهو جالس على كرسي ـ كما هي عادته حينما يرافق « الشيخ » في أسفاره. وكان هو و« عباس حبيب» من أخلص أتباع «الشيخ»، ومن أكثرهم وفاءً وأمانة، رحمهما الله.

ومن طريف ما جرى.. أن «سليم شاويش» لم يكن يصعد أو يهبط إلاّ في المصعد الكهربائي ـ مع أن غرفة «الشيخ» كانت في الطابق الأول! وكان يلبس عباءةً صوفيّة قصيرة، وسروالاً فضفاضاً أسود.. ويتمنطق في أعلاه بزنّار عريض، ويعتمر بكوفيّة فوق «لبّادة» عالية، ويحمل عصاً غليظة لا تفارق يده. ومرّةً.. كان في المصعد الكهربائي، وصدف أن وجد فيه «عبد الرحمن عزّام»، سكرتير الجامعة العربية، فسأل «سليم شاويش»: من حضرتك؟ فقال له:

أنا مرافق المجاهد الكبير «الشيخ صالح العلي»، قائد الثورة العلوية الشهيرة، وأول من أطلق الرصاص بوجه الفرنسيين.. وأنا أحد المجاهدين.. أنا أحد أبطال معركة «وادي ورور»، و«وادي جهنّم» التي سقط فيها مئات القتلى من الجنود الفرنسيين.. أنا موضع ثقة «الشيخ» ومرافقه الدائم.. أنا «سليم شاويش» مين حضرتك؟ فقال له:

خادمك سكرتير الجامعة العربية!

وقد ضحك «الشيخ» كثيراً، حينما نُقِلَتْ له هذه الحادثة ـ كما جرتْ.

تذكّرني هذه النادرة.. بنادرة شبيهة لها في العراق.. فقد أراد مرّة رئيس الوزارة العراقية «جميل المدفعي» أن يتصل هاتفياً بمتصرف لواء الحِلَّة. ولم يكن «المتصرّف» موجوداً. فتناول الهاتف البوّاب، ويُدعى هناك «فرّاش»، فسأله «المدفعي»: من أنت؟ فقال له: أنا رئيس فرّاشي متصرفيه «لواء الحِلَّة»، أنا كبيرهم ورئيسهم.. مين حضرتك؟ فأجابه: «خادمك رئيس الوزارة»!

* * *

في الحفلة الخطابية الرئيسية.. التي أُقيمتْ على مُدَرَّج جامعة دمشق.. ألقى رؤساء الوفود العربية جميعاً كلمات تحتوي على تقدير كبير لنضال الشعب السوري، وكفاحه عبر سنوات طويلة، حتى تحقّق له الظفر بالحرية، ونيل الاستقلال التام. وألقيتُ كلمة «الشيخ».. وقد قُوبِلت بالتصفيق الحاد ـ تقديراً لجهاد المجاهد الكبير.. وإكباراً لكفاحه المشرّف، ووقفته الصامدة، هو ورجاله الأشاوس طيلة اثنين وأربعين شهراً دون انقطاع.

وعندما انتهيتُ من إلقاء الكلمة، وقد استمرّتْ عشر دقائق، قام «شكري القوتلي» من مقعده، وتقدَّم نحو «الشيخ» يصافحه ويعانقه ـ وسط تصفيق الجمهور المحتشد، وحماسه البالغ.

كما أن «القوتلي».. في المأدبة التي أقامها للوفود في قريته «بَالاّ»، بالغوطة، وسط أشجار المشمش الباسقة، وغيرها من الأشجار الكثيفة المثمرة، تقدم «القوتلي» من «الشيخ»، ونحن إلى جانبه، وقال له:

(يا «شيخ صالح».. هذا يومك. فأنت الذي علّمتنا الوطنية، ودفعتنا إلى الجهاد ـ لأنك أول من أطلق الرصاص بوجه الفرنسيين. فالعرس عرسك، والعيد عيدك. وإننا إذ نحتفل بالجلاء.. فإننا نحتفل بك وبجهادك).

ودمعتْ عينا «الشيخ».. وهو يسمع هذه الكلمات المخلصة من رئيس الجمهورية، الذي كان يلفظها بصوت عالٍ.. استرعى انتباه الجميع.

* * *

كانت ثمّة خلافات مؤسفة.. قد حصلت بين «الشيخ» ووجهاء الطائفة الاسماعيلية الكريمة ـ نتيجة اصطدامات حصلت بين أتباع الفئتين إبان الثورة. وكثيراً ما يحصل مثل هذه الخلافات بين الأخوة في الثورات. وكان الفرنسيون يغذّون تلك الخلافات بين البسطاء باستمرار ـ وهذا شأن الاستعمار والمستعمرين في كل مكان وزمان.

ولفتُ نظر «الأمير مصطفى الشهابي»، محافظ اللاذقية، إلى ذلك الخلاف.. ورجوتُه بذل نفوذه لكي يزيله، ويعيد المياه إلى مجاريها بين الأشقّاء. فسُرَّ المحافظ كثيراً بالاقتراح. وطلب مني البحث مع «الشيخ» بذلك.. وتعهد هو بالبحث مع وجهاء الاسماعيليين في القدموس، وطرطوس، ومصياف.

وكان «الشيخ» رضيّ النفس، طيّب القلب، صافي السريرة.. فرحب بالفكرة، وأثنى عليها، وأبدى من جانبه كل استعداد لتحقيقها.

وتحدد موعد الاجتماع بمزرعته «رأس النبع»، قرب قرية «كاف الجاع» ـ التابعة لناحية القدموس.

وذهبتُ وموفد المحافظ ـ العقيد «محمد علي عزمة»، قائد الدرك في محافظة اللاذقية، وقتذاك، وقد أصبح، فيما بعد لواءً وقائداً عامّاً للدرك. وكان من أصدقائي الأعزاء، ولي ذكريات معه ـ سآتي على ذكر بعضها فيما بعد. ولمّا وصلنا بسيارته إلى مفرق القرية.. كان المطر ينهمر بغزارة لا مثيل لها، وكان عدد من أتباع «الشيخ» ينتظروننا، ومعهم خيول لنمتطيها إلى منزل «الشيخ» الذي يبعد عن المكان حوالي كيلومترين. ولم نكن قد احتطنا.. وأخذنا معنا

معاطف أو مظلات تقينا المطر.. فذهبنا تحت وابله المنهمر بكثافة لم أرَ لها مثيلاً! ووصلنا بعد معاناة لا حدّ لهـا، ولا يستطيع القلم وصفها.. والمطر ينسكب من جيوبنا وأحذيتنا كأنها مزاريب..

وبعد قليل.. وصل الأمراء الاسماعيليون، وبعض وجهاء الطائفة الكريمة. وكان استقبال «الشيخ» لهم مؤثراً حقاً. وقد بدا التأثر واضحاً في وجوههم من الحفاوة التي استُقبلوا بها ـ مثلما كان واضحاً من كلمات الشكر التي تدفقت من ألسنتهم، وتدفّق بريقها من أعينهم.

وألقى أحد الأمراء كلمة حافلة بالود، وصفاء النيّة، ونقاء السريرة.. والرغبة بتعاون مخلص مثمر في المستقبل ـ كما كان في الماضي.

وألقيتُ كلمةً باسم «الشيخ».. طلبتُ فيها طيَّ الماضي، وفتح صفحة جديدة من التعاون في المستقبل، وقلت:

ليس أحد منّا هو المسؤول عمّا جرى من سوء تفاهم، أعقبته أحداث مؤسفة.. وإنما الفرنسيون المستعمرون هم الذين دبّروا تلك المؤامرة، وصنعوا تلك المكيدة اللئيمة.. ونحن كلنا نستقي من معين قومي واحد، ونتّجه نحو هدف واحد. وأبلغتهم تحيات السيد المحافظ، وأن السيد رئيس الجمهورية قد علم بهذا اللقاء، فسُرَّ كثيراً به، وأعرب عن تأييده له.

وبعد أن تناولنا طعام الغداء، على مائدة « الشيخ » السخية، عدنا جميعاً تحت وابل من المطر المنسكب ـ كأن السماء تريد أن تبارك برحمتها الناس المتصافين على الأرض. ولكنها في تلك الفترة لم ترحمنا.. فقد قاسيتُ الأمرّين من حُمّى عنيفة ـ ولكنها كانت أقلّ ضراوةً وعنفاً من التي قاساها قائد الدرك.. إذ بقي في السرير عدة أسابيع. وحينما زرته، بعد شفائي مما ألم بي، قال لي بكل حسرة وألم:

يا صديقي.. كنتُ أحسب جسمي من حديد. ولكنّي تأكدتُ الآن أنه من لحم ودم.. وأن عليّ أن أحسب للمتاعب حسابها بعد اليوم.

* * *

تلقيتُ من الدكتور الشاعر «الأمير عارف تامر»، وجه الطائفة الاسماعيلية المشرق في «السلمية» بحثاً مطولاً حول ثورة «الشيخ صالح العلي»، هذه خلاصته:

«إن ثورة «الشيخ صالح العلي» اندلعت سنة ١٩١٨ ـ وقامت على أساس وطني.. يهدف يُعَدُّ للوقوف بوجه الاستعمار الفرنسي، ومنع جيوشه من العبور إلى المدن السورية الشرقية ـ عندما كانت هذه الجيوش على شاطىء البحر الأبيض المتوسط.. وكان هذا الاستعمار يتحفز لإرساء قواعده في بلادنا السورية، منذ أن وضعت الحرب أوزارها سنة ١٩١٨ ـ ففي ذلك العام.. احتلّ الفرنسيون «جزيرة أرواد»، وامتد الاحتلال ليشمل مدينتي طرطوس واللاذقية.. وفق مخطط استعماري يهدف أيضاً إلى ضمِّ جبل لبنان، ولوائي بيروت واللاذقية، بالاضافة إلى قضائي انطاكية واسكندرون.. وبهذا يكون قد تُرِك للحكم الفيصلي العربي ولاية سورية الداخلية فقط!».

«أمام هذا الواقع الرّاهن.. كان لابدّ للملك «فيصل»، وهو يوطِّد أقدامه، ويُرسي دعائم حكمه في دمشق. أن يمد يده، لهذه الثورة، ويدعمها».

ويتحدث «الأمير عارف» عن الخلاف الذي حصل بين الثورة، وأهالي بلدة «القدموس».. الذين اتُهموا ظلماً بالولاء للفرنسيين. وقد حاصر رجال الثورة بلدة «القدموس»، وشدد الحصار عليها فوج من الثوار كان يقوده: عزيز هارون، جميل ماميش، أحمد المحمود عدرة، كامل المحمود، أنيس أبو فرد، محمد الخدام، أحمد جمعة، فارس أبو كف، مصطفى الملّي، عثمان التميمي، غالب الشعلان، وضباط آخرون. وأخيراً.. تم الاتفاق على أن يجلو أهل «القدموس» عن البلدة حيث توزعوا بين مصياف والسلمية. وقد دخلها الثوار بعد أن جلا أهلها عنها. ثم يقول:

«في ذلك اليوم الرّهيب الأسود.. وفي غضون تلك الساعات الحالكة، وصل إلى «القدموس» المغفور له «الشيخ سليمان حرفوش»، من قرية «المقرمدة»، موفداً من قبل «الشيخ صالح العلي»، ومهمّته كانت توفير الحماية لـ «الأمير تامر

العلي» ولأسرته التي ظلّت وحدها معتصمة بالقلعة. وبالفعل تمكّن بهدوء ولباقة من الاتصال به».

ويتحدث بعد ذلك.. عن إيفاد «الشيخ صالح» بعض رجاله إلى مصياف ـ للاتصال بوالد «الأمير تامر العلي».. ويقول:

«لا يدري أحد كيف تمكّن من الوصول، واخترق أسوار البلدة المحاصرة، والمعزّزة بالمسلحين، والوصول إلى المنزل الذي يقيم فيه «الأمير تامر».. حيث سلّمه رسالة «الشيخ صالح»، وفيها يدعوه للحضور إلى قرية «الشّيحا» الواقعة في منتصف طريق مصياف ـ القدموس، وذلك لبحث قضايا ذات أهمية»، ويقول:

«كان هذا الطلب عسيراً وصعباً في تلك الأيام.. فالطرقات مغلقة، والأمن غير مستتبّ.. وحالة الحرب سائدة في كل مكان. ولكن ـ وبالرغم من معارضة الأهل وأصحاب الرأي، والأصدقاء في مصياف، فقد نفّذ «الأمير» طلب «الشيخ»، وقام بمغامرته، وتوجه إلى القرية المذكورة ـ حيث كان يقيم فيها قائد الثورة آنذاك. وهناك كان اللقاء مؤثّراً ساده جوّ من العاطفة والمحبة والإخاء. وبعد استراحة قصيرة.. افتتح «الشيخ صالح» الحديث قائلاً:

«لا يسعني إلا أن أشكرك على تلبيتك ندائي، وتجشمك مشاقّ السفر، ومخاطر الطريق. وأعتقد أنك الوحيد الذي يعلم موقفي وبراءتي من كل ما حدث.. ولا أريد أن أطيل عليك بما لا فائدة منه.. ولكني أقول:

«إن الغاية من اجتماعنا الآن.. هو عرض مشروع إعادة أهل «القدموس» إلى بلدتهم ومنازلهم». فنحن أصبحنا بحاجة لمساعدتك أكثر من أي وقت مضى. وكل ما نرجوه.. أن تُوَجِّه إليهم نداءً عاجلاً تطلب منهم العودة سريعاً إلى منازلهم. فأجابه والدي:

لا يسعني أمام هذه البادرة.. إلاّ أن أتقدّم منك، بالشكر الجزيل، ولكن ما تطلبه يبدو صعباً، ومستحيلاً. فأهالي «القدموس» أصبح أكبر عدد منهم في سلمية، وفي مصياف. وبعض العائلات ذهبت إلى أبعد من ذلك. فمن أين لي أن أجتمع بهم وأعيدهم إلى بلدهم؟ ولنفترض أن مشروعنا نجح، وتمكنّا من إرجاعهم إلى

وطنهم.. فمن أين يأكلون، ومن أين يشربون؟ وها هي بلدتهم، كما ترى، أصبحت فارغة.. فلا مال لديهم، ولا ما يحزنون! فقال «الشيخ»:

مادام الأمر كما تقول.. فلندع أهل «القدموس» جانباً الآن، ولننتقل إلى مشروع آخر.. فماذا عليك إذا عدت مع أسرة «الأمراء» إلى القلعة. وإني أتكفل بالحماية، وتوفير كافة المتطلبات، وتعويض الخسائر، وكلّ ما يتطلبه الموقف. فأجابه والدي بقوله:

«أتمنى ذلك من صميم القلب.. ولكن في مثل هذه الحالة.. من يضمن لي سكوت أهل القدموس؟ أفلا يحق لهم حينئذٍ اتهامي بالخيانة والتآمر على تهجيرهم وبيع بلدهم.. ثم العودة، بعد ذلك، للتمتع بها برغيد العيش مع عائلتي»؟

«كل ما أرجوه، من الأخ الكريم، إبقاء الأمور الراهنة على ما هي عليه.. والذي جرى جرى.. ولا يصحّ الرجوع إلى الوراء.. وكل ما علينا الآن هو الصبر ـ والصبر وحده». اهـ.

* * *

في تلك الأثناء توفي «يوسف الحامد»، نائب صافيتا، بعد مرض عضال قاساه، رحمه الله. وقد أحدثت وفاته تأثيراً عميقاً في نفوس أبناء المحيط كله ـ لأنه كان زعيماً موموق الجانب، طيب القلب، ليّن العريكة. وكان يُؤخَذ عليه.. أنه يتأثّر بالمقرَّبين منه، ويُصغي إليهم ـ وأحياناً يسيء بعضهم.. فيتحمل هو مسؤولية تلك الاساءات وعواقبها ونتائجها! وكان محاطاً بوجاهات من قومه ـ كأنها إقطاعات منفردة.. يتمتع كل منها باستقلال ذاتي، وسط دولة اتحادية! وفي ذلك التركيب الغريب. إضعاف للشخصية المهيمنة، وعامل يحدّ من نفوذها وسطوتها. ولكنّ الجميع كانوا يدينون له بالولاء والاحترام.

وأمّا «جابر العباس».. فقد سبق وتحدثنا عن تفكيره الواسع، وشخصيته المهيبة. وقد عمل لامتصاص الوجاهات، في الفئات المؤيدة له، وربطها به ـ من الوطن إلى المهجر. وكان يعرف كيف يعالج الأمور بدقة، وحكمة، وتروٍّ، وبُعْد نظر.

وأما «عزيز الهواش» ـ وقد سبق الحديث عنه أيضاً.. فقد امتاز على بقيّة الزعماء.. بالجرأة والإقدام.

أما «أمين رسلان».. فقد كان تفكيره قريباً من تفكير «جابر العباس»، وخططه كانت قريبة من خططه ـ لأنه كان حليفه الدائم. وكان «أمين رسلان» يتمتع بقوة تركيزه، وبروز شخصيته. وقد عرف كيف يتغلغل في نفوس الفئات المؤيّدة له.. ويجعلها ترتبط به ارتباطاً وثيقاً ـ إلا أن بعضهم بقي خارج الرباط المحكم.. فامتدت يده إليه واغتالته.

وما أريد أن أتطرق الآن لبعض شخصيات المحافظة.. التي كانت مرموقة في ذلك الحين، وذات نفوذ واسع.. فهذا حديث يطول، وقد أضطر للوقوف عنده في مكان آخر.

* * *

وأحدثت وفاة «يوسف حامد»، سنة ١٩٤٥، فراغاً.. فقد شغر مقعده النيابيّ، ولابدّ من ملئه خلال شهرين بموجب الدستور. وكانت الانتخابات، آنذاك، تجري على أساس منتخبين ثانويين، وليس على أساس انتخاب مباشر، كما هو الآن ـ أي أنّ الناخبين كانوا ينتخبون مندوبين عنهم.. واحداً عن كل مائة ناخب.. وهؤلاء يسهل التأثير عليهم وتوجيههم.. وهم ينتخبون المرشح الذي يريدون.. ولو كان ضدّ رغبة ناخبيهم.

و«آل العباس» ـ بذكائهم ودهائهم.. جعلوا ثلثي المنتخَبين الثانويين من أنصارهم ومؤيديهم.. والثلث الآخر من مؤيّدي «يوسف الحامد». وبهذا يستطيعون فرض المرشح الذي يريدونه، ولا يكون سواه! وثمة منتخبون مستقلون موضع تنافس الفئتين المتصارعتين.

في تلك الأثناء .. عيّن «مظهر رسلان» محافظاً للاذقية.. وزرته مع «عبد القادر شريتح» نائب اللاذقية حينذاك. وبحثنا معه موضوع المقعد الذي شغر بوفاة «يوسف الحامد».. وطلبنا أن لا يفلت من أصحابه الشرعيين.. فوعد بدعمنا ـ ضمن إمكاناته الدستورية.. وأكد لنا أنه يؤيد وجهة نظرنا ـ ولكنه لن

بعيد عن القانون، وأنه ضمن القانون.. سيدعمنا بكل طاقاته وامكاناته. وكان صادقاً بقوله، وباراً بوعده وعهده. رحمه الله.

وقمت بجولة في ناحية «المشتى».. وكان أخي «محمود» مدير الناحية.

واستطلعت آراء بعض «المنتخبين الثانويين»، غير المرتبطين بجهة معينة ـ فإذا ببعضهم يتطلع إلى المال.. وآخرين يأتمرون بأمر ذوي النفوذ.

وتقدّم «حامد المحمد» ـ شقيق المرحوم «يوسف الحامد» ـ بترشيحه للمقعد الشّاغر.. وأعلن ابن عمه «حَامد المحمود»، نائب طرطوس، تأييده له، ودعمه إيّاه. ورشّح «آل العباس ـ محمد أمين رسلان» الذي كان أُوقف في السجن عدة أشهر.. حتى برّأته المحكمة من التهمة التي وُجُهت إليه بقتل المتهمين بقتل والده، وحرق منازلهم. وقد أُدين بذلك بعض أنصاره المتحمّسين له، وبرِّىء هو.

وكان «محمد أمين» في مقتبل العمر.. ليس لديه خبرة كافية بالحياة، وبأساليب السياسة وألاعيبها. ولكنه مرشّح الذين يسيطرون على الموقف الانتخابي ـ كما أسلفنا! وحمي وطيس المعرْكة، واحتدم.. حتى أصبح حديث الناس في المحافظة كلها، وفي جميع أروقة السياسة.

في تُلك الأثناء.. أرسل «آل العباس» رجالاً مسلّحين.. تجوّلوا في ناحية «المشتى» كلها، وحملوا بعض «المنتخبين الثانويين» في السيارات إلى قرية «الطليعي» ـ مركز «آل العباس». وكانوا يطلقون الرصاص بعض الأحيان للإرهاب! وصدف أن كنت أمام منزل صديق.. فمرّوا أمامنا، وهم يطلقون الرصاص من مسدساتهم في الهواء، وبرفقتهم أحد «المنتخبين الثانويين» الذين اصطحبوه معهم.. وهم يهزجون ويهتفون..! وقد احتفظوا بعدد من الناخبين، بضعة أيام، في قرية «الطليعي» ـ خشية التّأثير عليهم، بواسطة إحدى «الوسائل» المعروفة في ذلك الحين!

وراجعنا «المحافظ».. فأبدى عطفه نحو قضيتنا ـ دون أن يتدخل علانيةً، ويعرّض كرامة الحكومة وسمعتها وحيادها للنيل والاتهام. وأكد لنا.. أنه يدعمنا ضمناً ـ دون أن تبدر منه أيّة بادرة تدخّل فعليّ. وأوفد رئيس الديوان «حسين

شعبان» ليشرف على عملية الانتخاب وهو من رجال الادارة المحنّكين.. وكان صديقي. وحلّ في بيت «تامر اسبر بشور» ــ سليل الأسرة العريقة المشهورة.. ووالده هو الوحيد الذي كان يحمل لقب «باشا» في ذلك المحيط كله.

وكانت الهيئة التي تُشرف على الانتخاب تتألف من المجلس البلدي، وكنتُ عضواً فيه، ومن أعضاء مجلس الإدارة لمنطقة صافيتا. ويبلغ مجموع الأعضاء مع رئيسهم القائمقام اثني عشر عضواً. وقال لي «حسين شعبان»:

إذا تغيّب سبعة أشخاص.. فإنه لا يكتمل نصاب الهيئة المشرفة على الانتخاب.. وحينئذٍ يؤجّل حتماً ــ لأنّ الأكثرية تكون غير مؤمّنة للإشراف على التصويت، والموافقة على نتيجته.

وكنت أزور «حسين شعبان» بعد منتصف الليل، وأتحادث معه، فيؤكّد لي عطف الحكومة على مرشحنا ــ دون أن تتدخّل بشأنه.

وكان لابدّ من عمل شيء.. وكنتُ المسؤول عن العملية سرّاً وعلناً.

وأحصينا الأشخاص الذين يشرفون على عملية الانتخاب، وهم اثنا عشر ــ كما ذكرنا.. فإذا ستّة، وأنا منهم، يؤيّدوننا، ويمتنعون عن الحضور، والستّة الآخرون.. يؤيّدون الآخرين، ومنهم القائمقام ــ مدير المنطقة، الذي لا يستطيع التّغيُّب بحكم عمله الرسمي، وضرورة محافظته على النظام والنزاهة. وبقي عليَّ أن أؤمّن تغيُّب شخص من أولئك.. وحينئذٍ لا يكتمل النِّصاب، فتُؤجَّل عمليَّة الاقتراع حتماً ــ ويكون ذلك نصراً لنا.

ودرسنا موضوع كلّ واحد، من الستّة المعارضين، على حدة.. فلم نجد أحداً منهم يمكن التّأثير عليه ــ إلا شخصاً، من قرية مجاورة لصافيتا، هو عضو في مجلس الإدارة، ومن مؤيدي «آل العباس» ــ رغم أنه ليس من الفئات المختصّة بهم.. وله مخزن تجاريّ ناجح في صافيتا، وقريته قريبة منها. وكان كل صباح يأتي ممتطياً دابّته، ويعود في المساء.. وطريقه أمام البيت الذي كنتُ أسكنه حينذاك ــ وهو لآل الصّايغ الكرام، في الحيّ الشرقي من صافيتا.

وصباح يوم الانتخاب.. جاء مبكّراً كعادته ــ وكان ثمة ناس ينتظرونه على

الطريق.. فأخبروه بأن اجتماعاً سيعقد في بيت «هاشم الحامد» ــ وكان مدير مركز الناحية بصافيتا ــ بقصد التوفيق، ومعالجة موضوع الانتخاب بالحسنى. وبما أن نفس ذلك الشخص كانت نزّاعة للخير، وبعيدة عن الأذى والشر.. فقد وافق على الذهاب معهم، والاشتراك في محاولة الاتفاق المزعوم. وهناك وُضِع في غرفة خاصة.. وأوضِحت له الحقيقة، وطُلِبَ منه الركون إلى الهدوء.. فاستكان، ولم تبدر منه أيّة بادرة غير حسنة ـ لأنّه كان إنساناً طيباً ومستقيماً.

وجلسنا نترقّب الأحداث في بيت «هاشم الحامد».. وثمّة جمهور محتشد داخل المنزل وخارجه.

ووقف «المنتخبون الثانويون»، المؤيّدون لـ«آل العباس»، أمام دار الحكومة، وهم خمسة أشخاص، من أصل ١٢ شخصاً .. وبحثوا عن الشّخص الغائب ـ وإذا به مفقود، وغير موجود. وبدأت تحريات الجانب الآخر، واتصالاتهم الهاتفية والبرقيّة ـ مع اللاذقية ودمشق .. وهم يحتجّون ويستنكرون، والسلطات تتنصّل من كل مسؤولية ـ وفعلاً لم تكن لها أية علاقة، بما حدث، على الإطلاق.

وبناءً على الشّكاوى، والاتصالات المستمرّة .. فقد لبّت السلطات طلبهم، وأرسلت مجموعات من الدرك للبحث، في بعض قرى صافيتا وطرطوس، عن الشّخص «المخطوف»! ووصلوا في تحرياتهم حتى «القمصيّة» ـ قرية المرحوم «أنيس محمد إسماعيل» ـ وجيه تلك الناحية الأول، وهي في منطقة «الشيخ بدر».

ولكنهم، رغم تحرياتهم الكثيفة، لم يعثّروا على ضالّتهم.. وهي على بُعد مئات الأمتار منهم ـ ولكنهم لا يدرون!

وكان الوقت صيفاً، والحرّ لاهباً، والناخبون متجمعون تحت شجيرات أمام السّراي.. يستظلون بها وينتظرون.. والعرق يتصبّب من جباههم.. وهم قلقون متذمّرون.

وأخيراً.. ظنّ الآخرون، بعد فشل التحريات في الخارج ـ أو أن أحداً أخبرهم بأنّ الشخص الغائب محتجز في بيت «هاشم الحامد»، ابن أخ المرشح «حامد المحمد»، المنافس لمرشح «آل العباس». وجاءنا قائد درك صافيتا «النقيب محمد

علي الجركسي»، وهو صديق لي، ويقول:

إن الجماعة يتهمونك بأنك أنت الذي خطفت الرَّجل.. وأنه محتجز عندكم هنا.. فقلتُ له: هذا اتهام باطل.. لا صحَّة له. فابتسم وسكت.. ولم يكن عليه إلا أن يفتح باب الغرفة التي وراءه.. ليجده فيها ـ ولكنه لم يفعل.. وإنما احتسى فنجان قهوة، وانصرف. وحينما خرجتُ أودِّعه.. ضغط على يدي، وهو يبتسم.

رحمه الله. لقد كان وقوراً، كريم الخلق والشمائل. وهو شركسي، من أسرة عريقة النبالة في مدينة «القنيطرة». وله عندي أيادٍ كثيرة، وأنا في مطلع حياتي السياسية، لن أنساها ما حييت.

وبعد فترة، من ذهاب قائد الدرك، سمعتُ ضجَّةً أمام البيت، وكان ثمة جمهور من أنصارنا يعسكرون حوله، فأطللت من الشرفة ـ وإذا بابن الشخص الموجود عندنا في البيت يصرخ بأعلى صوته: أبي، أبي .. فتجمَّع الموجودون خارج الدار محاولين إسكاته، وهو يمعن بالصُّراخ والمناداة. ولمّا لم يسكت حاولوا الاعتداء عليه.. بنفس اللحظة التي أطللتُ فيها، فصرخت بهم، وزجرتهم.. ثم نزلت مسرعاً، وأخذته بعيداً، وأنا ألاطفه وأهوّن الأمر عليه برقَّة. ومكّنته من الانصراف دون أن أُمكِّن أحداً من الإساءة إليه.

وبعد وقت قصير جاء «قحطان الهواش».. وصلتي به وثيقة، ومتينة، وكنّا دائماً نلتقي ونتصارح في كثير من الأمور، وكنت أحسن به الظّنَ، وأحسب أنه كان كذلك ـ بالنسبة لي.

واستقبلتُ «قحطان» بوجه باسم، وقابلني هو، على غير عادته، بوجه عابس متجهم، وقال لي: أريد الشّخص ـ وهو من أنصاره المقربين، وجلستُ إلى جانبه أحادثه وألاطفه، وأسرّي عنه.. حتى استكان قليلاً. وقلتُ له: سوف أذهب معك إلى عنده لتراه.. ولجأت إلى «الأسلوب» الذي أعرف أنه يرضيه.. فسكت، وتغدّى معنا، وبقي جالساً إلى الساعة الرابعة بعد الظهر، وهو الوقت المحدد لنهاية الاقتراع، ففتحت الباب، وقلت له:

هذا هو.. خذه معك. فذهبا معاً، وسار وإيّاه في شارع صافيتا الذي غصَّ

يتفرّجون على الشخص «المختطف».. الذي أُطلِق سراحه بعد انتهاء فترة التّصويت ـ وقد شغل الدولةَ طوال يوم كامل.. وأدّى اختطافه إلى تعطيل عملية التصويت.. وتأجيلها لموعد آخر.

وهكذا أُجِّل الانتخاب.. وربحنا جولةً سياسية تعادل المركز النِّيابي، وقد تزيد عليه. ولم نبالِ بعد ذلك بالاقتراع الذي تَمّ بعد شهرين، والذي نجح بموجبه «محمد أمين رسلان».. بعد أن باع نصف أملاكه، رحمه الله.

ويكفينا أننا أثبتنا وجودنا وفعاليتنا في الجولة الأولى ـ وذلك، وحده، كان ربحاً سياسياً ضخماً.. لا يستطيع نكرانه أحد.

وأذكر أنّ المرحوم «محمد سلمان عباس» ـ وكان من وجهاء قرية «كرتو» ومحيطها.. ومن أصدقائي المخلصين، هو وأنسباؤه، وأنجاله وأنجال أخيه، قال لي:

«هذا العمل السياسي الذي أنجزته اليوم.. قد ارتفعتَ به إلى الأوج، وسيظل الناس يذكرونك ما داموا أحياء».

وبالفعل.. كان ذلك العمل الذي قمتُ به وحدي، وكنتُ المسؤول المباشر عنه ـ من الألف إلى الياء.. كان منطلقاً مُشرقاً لمستقبل حافل مشرق.

وأنا وإن كنت غير مقتنع بتاتاً بذلك الأسلوب.. ولكن الضرورات تبيح المحذورات، كما يقال. ومن أعماق قلبي أقول: إني جد آسف ومتألم لذلك الذي حصل.

* * *

بعد ذلك ـ بفترة وجيزة.. كنتُ أزور «مظهر رسلان»، محافظ اللاذقية، في فندق «الشرق» بدمشق. وبينما أنا جالس معه.. جاء من يخبره بأنّ مجلس النواب أصدر قانوناً، في جوّ حماسي رائع، ألغى فيه الاستقلال الماليَّ والإداريَّ لمحافظتيْ اللاذقية وجبل العرب ـ لأنه كان يرمز إلى وضع طائفي، لا يرضى عنه الشعور الوطني ـ بينما الشعب السوري ينطلق، بكامل فئاته، في مجالات قومية.. سامية الغاية، نبيلة الشعور، كريمة الهدف.

ولو أنّ المحافظات السورية بكاملها.. كانت تتمتع باستقلال مالي وإداري، كما هي الحال الآن، لكان ذلك معقولاً ومقبولاً.. وأما أن يقتصر «الاستقلال» الماليّ والإداريّ.. على محافظتين تسكنهما طائفتان معيّنتان.. ويرمز إلى مركز الطائفتين المعروفتين.. فهو أمر لا يقرّه الوجدان القومي، ولا العُرْف الوطني.. ولا وحدة الهدف والغاية والشعور.

لذلك باركنا حينذاك قرار المجلس النيابي.. بإلغاء الاستقلال المالي والإداري ـ الذي وضعه الفرنسيون.. وأرادوا به تمزيق وحدة الوطن الأم.

والتفت إليَّ «مظهر رسلان» وقال: الآن انتهتْ مهمتي في محافظة اللاذقية ـ إذ من غير المعقول أن أبقى «محافظاً» ـ كموظّف إداري.. أرجع بكل قرار إلى وزارة الداخلية، والوزارات الأخرى. وكان استقلال المحافظة المالي والإداري.. والصلاحيّات الواسعة التي يتمتع بها المحافظ.. تشجعني على قبول المنصب، والبقاء فيه. وأما الآن.. فلا، وسوف أعود إلى ممارسة واجباتي النيابيّة ـ وكان نائباً عن حمص ـ وإذا أردتُ قبول منصب محافظ عادي.. فباستطاعتي أن أكون في بلدي، وليس في مكان آخر.

وأخبرني بأنه كان ينوي تشكيل مجلس إدارة جديد للمحافظة.. وأن اسمي كان مدرجاً في التشكيلة الجديدة. وقال لي:

إني أتنبأ لك بمستقبل باهر.. فتابع نشاطك، ولا تأبه لمعارضيك ومنافسيك، فأنا أعرفهم، وأعرف مدى غناهم، واتّساع نفوذهم.. ولكنك حتماً ستنتصر عليهم.

فودّعته ـ شاكراً مودته وعاطفته ومعونته.

وقد قابلته على مواقفه النبيلة مني.. بأن طلبتُ من أصدقائي، في محافظة حمص، تأييده في الانتخابات النيابية ـ هو والحاج سليمان المعصراني. يرحمهما الله.

وكان نفوذي قد بدأ يتسع.. حتى أن قسماً كبيراً من أبناء الجبل الذين نزحوا إلى حمص وحماة، وريفهما، كانوا يراجعونني في الكثير من أمورهم وقضاياهم. وكنتُ في الانتخابات النيابية أوجههم نحو الأشخاص الذين أريد دعمهم.

وهكذا.. استطعت أن أردّ إلى «مظهر رسلان» بعض الأيادي الكريمة التي منحني إياها.. وأقابله على مواقفه النبيلة مني.. والتي كان لها أثر في انطلاقتي، ومجابهة الخصوم والمعارضين. وأحسب أنه كان شاكراً دعمي إياه في حمص ــ وهذا ما كنت ألمسه منه، وأسمعه عنه.

* * *

وارتفعت دعوتي للإصلاح.. قويةً مدوّيةً مجلجلة. وكانت الجعالات التي يتقاضاها الزعماء الإقطاعيون، من المواطنين البؤساء، لا حد لها! فوقفتُ ضدها وناديتُ بإلغائها.. وأعلنتُ أنَّ بيتي وقلبي مفتوحان للجميع ـ لكل مراجع، ودون أي مقابل.

وبدأ الكثيرون، من المضطهدين والمستعبدين، يلتفّون حولي، ويراجعونني بكل مشاكلهم وقضاياهم. وكان من البداهة.. أن يتضامن الرجعيون والإقطاعيون ضدّي. ولكن دعوتي للتحرُّر والإصلاح، والانعتاق والانطلاق.. كانت أكثر دويّاً، وأقوى أثراً وتأثيراً في النفوس.

وكانت السلطات الوطنية تدعمني وتساندني ـ وأعترف بهذا .. وأعرب عن جزيل شكري وتقديري إياها.

ورُخَص الدخان، في ذلك الحين، كانت محتكرة لذوي الاقطاع وحدهم.. ولفئة معينة من محاسيبهم وأنصارهم!

وزراعة الدخان.. وسيلة ناجحة لمقاومة الحاجة.. ومساعدة الفئات الفقيرة التي لا تملك إلا مساحة محدودة من الأرض. وبذلتُ جهوداً مضنية.. من أجل تعميم هذه الزّراعة في منطقتيْ صافيتا وطرطوس ـ وكانت محرومتين منها ــ إلا لذوي النفوذ، كما ذكرت.

وقد استطاع المتنفّذون في شمال المحافظة: اللاذقية، وجبلة، والحفّة، وبانياس، أن يقنعوا السلطات الفرنسية، وبعدها الوطنيّة، بأن مناطق الشمال محرومة من الزيتون ـ بعكس مناطق الجنوب، صافيتا، وطرطوس، وتل كلخ، التي توجد فيها أشجار الزيتون بكثرة. فكان ذلك ذريعةً لأن يجعلوا زراعة الدخان

محتكرة لهم وحدهم.. ويحرموا مناطق الجنوب منها ـ ما عدا الإقطاعيين ومن يريدونه.

وقد استطعتُ ـ بعد مراجعات مضنية.. أن أُلغي ذلك الاحتكار. وبدأتُ أسعى لتلبية الطلبات التي كانت تنهال عليّ من كل حدب وصوب.. وألاقي من المسؤولين استجابة تدعو إلى التقدير ـ لأنهم كانوا يؤمنون بأني أخدم لمجرد الخدمة، ولرفع مستوى العامل والفلاح والفقير.. ومساعدتهم للتخلص من كابوس الفقر، وعبودية الرجعية والإقطاعية.

وهذا ما كان يؤمن به كرام المسؤولين.. ويعتبرونه رسالتهم الأولى ـ وهي الرسالة نفسها التي اعتنقتها، وآمنت بها، ووقفت حياتي لخدمتها، والدفاع عنها، ورفع سويتها.

ومثلما كانت رخص زراعة الدخان مصدر راحة فكرية لي.. فقد كانت، بالوقت نفسه، مصدر إزعاج وتعب ومشقّة ـ إذ كان يجب عليّ الحصول على أرقام هائلة كل عام! ثمّ عند التخمين.. عليّ أن أسعى لتخفيضه، ورفع الإجحاف عن المزارعين!

وعند تسليم الدخان، إلى الدائرة المختصة، كان عليّ أن أتدخّل مع الموظفين المختصين لرفع أسعاره، وإعفاء بعض المتخلّفين عن تسليم الكمية المفروض عليهم تسليمها كلها! ثم تغاضيَ المسؤولين عن رداءة الدخان ـ إذا كان المقدَّم للدائرة من النوع الرديء! ويا لها من معضلة.. إذا لم نجعل ثمن الرديء كالجيد تماماً!

وقد أُمِّمَت شركة الدخان، وبقايا مخلفات الشركات الفرنسية، في مطلع الخمسين.. ولكن «أديب الشيشكلي»، حينما استلم السلطة، أوقف تأميم شركة التبغ والتنباك.. إلى أن انتهى هو، وعهده، فنُفِّذ قرار التأميم.

وهكذا وقفتُ نفسي، وطاقاتي كلها، لقبول مراجعات الناس في أمورهم ومشاكلهم.. ثم فضّ الخلافات فيما بينهم. وهذا ما كان يستأثر بأكثر وقتي ـ لأنّ الخلافات والمنازعات في القرى، وفي تلك البيئة المتخلّفة آنذاك، كانت

مستشرية ـ وليس لها حدّ.. مع الأسف!

وكان «أحمد حيدر» قائمقام ـ مدير منطقة صافيتا يقول: أنه يجتمع يومياً من الناس عند «عبد اللطيف اليونس» أكثر مما يجتمع عندي، وعند قاضي الصلح، ومدير الشرطة.

وربما كان في هذا القول الكثير من الصحة. فمنذ الصباح الباكر، وحتى ساعة متأخّرة من الليل.. لم يكن يخلو بيتي من المتقاضين والمراجعين وذوي الحاجات. هؤلاء لأجل الدخان.. وهؤلاء لهم بنات مستخدَمات في المدن، وقد انتهت مدة عقودهن، ولا يريد المستخدِمون إعادتهنّ إلى أهلهنّ! وهؤلاء.. لهم دعاوى في الجمارك ودوائر أخرى! وهؤلاء.. طلاب وظائف، وهؤلاء.. يريدون تبديل مختار قريتهم، وهؤلاء.. يطلبون نقلهم من أمكنتهم إلى أماكن أخرى. وهؤلاء.. يوجد لهم موقوف ويطلبون إطلاق سراحه، وهؤلاء.. يطلبون أن أكتب لذويهم في أمريكا ـ كي يرسلوا لهم مساعدات، وهؤلاء.. يوجد بينهم خلافات ـ وما أكثر هذا النوع من المراجعات! وو... الخ ـ ومما لا حد له ولا حصر، وهيهات!!

وهكذا.. كانت أوقاتي كلها مليئة .. حيث لا أجد دقائق فراغ! وكثيراً ما كنت أُضطر للسفر إلى مدينة قريبة، أو بعيدة، لأجل المراجعة بقضية، أو قضايا، لا تُحلّ برسائل أو هواتف، وذلك دون أن أتقاضى أي شيء ـ من أيّ كان.. وإني أتحدّى من يقول عكس ذلك.

وكل الذين كانوا يعرفونني، بتلك الفترة، وكثيرون منهم ما يزالون أحياء.. يعرفون أنيّ أصوِّر واقعاً، وأقول حقيقة.. ويعترفون بصحة ما أقول.

كما أني ـ أتحدّى من يزعم أني سألت يوماً أحد المراجعين.. عن طائفته، أو أسرته، أو ميله السياسي.. فقد نذرتُ نفسي لخدمة الناس جميعاً ـ دون استثناء ووقفتُ طاقاتي، وإمكاناتي كلها، ووقتي كله، لمجرد الخدمة البريئة النزيهة، وفي سبيل الله، والنَّفع العام. كما أتحدّى من يقول إني طلبتُ من أحد أجراً، أو نفقات سفر ـ حينما يكون ثمَّة موضوع يستوجب السفر.. بل كنت أحياناً أصطحب معي بعض ذوي الحاجة.. وأدفع أجرة السيارة عني وعنهم.

أقول هذا صادقاً وجاداً ولا أدّعيه.. وأشكر الله كثيراً عليه. وكل الذين عايشوني يعرفون هذا عني، ويعترفون به. وحتى الخصوم أنفسهم.. فإنهم لم يكونوا يجرؤون على تناول هذه الناحية ـ لأنّ الجميع يعرفونها، ويقرّونها، ويقدرونها.

* * *

وكنت، في بعض الأحيان، أضطر للسفر إلى أماكن بعيدة لفضّ خلاف بين متنازعين.

وحدث مرّة.. أن أحد المواطنين في ريف حمص ـ ويُطلَق عليه اسم «جفتليك».. قد اصطدم مع أحد رجال البدو من قبيلة «الشيخ تامر الملحم» الذي كان نائباً في المجلس النيابي، وعضواً في «الكتلة النيابية» التي كنتُ أمين سرها.

وذهبنا معاً ـ «الشيخ تامر»، وأنا ـ إلى البادية، وإلى مسافة بعيدة من الحاضرة. ودخل «الشيخ تامر» لإجراء صلح بين ذوي المقتول، وذوي القاتل.. واستعمل دالّته على أبناء قبيلته لفضّ ذلك النزاع. وكانت العوائد السارية المفعول.. أن تُوزّع «الدِّيَة»، المخصّصة لأهل الضحية، هكذا:

ثلث للورثة، وثلث لشيخ القبيلة، وثلث يُوزّع على أبناء القبيلة. وأعلن «الشيخ تامر» تنازله عن نصيبه من «الدِّيَة».. وأنه سيستعمل دالّته على أبناء عشيرته.. فيتنازلون أيضاً عن حصتهم من المبلغ. وبقي فقط الثلث لأهل المغدور ـ وقال: إن هذا إكرام لمجيء صديقي «عبد اللطيف».

وبعد أن تمّت المصالحة.. رفع علم أبيض على سارية «الخيمة» التي كنا نجلس فيها ـ وهو اعلان عن انتهاء الخلاف، وأنه لم تعد هناك مطالبة بالثأر. ثم مُدّت الموائد العامرة، وعليها الخِراف الشّهية.. وتناولنا طعامنا بالأيدي ـ ولا ألذّ، ولا أشهى!

ومنذ فترة وجيزة.. تلطّف «الشيخ تامر الملحم» فزارنيَ هو وأخوه «الشيخ عبد العزيز»، عضو مجلس الشعب، برفقة الصديق النبيل الدكتور «محسن بلال».

واستعدنا ذكرى «تقطيع دم القتيل» في البادية.. وشهامة وأريحيّة «الشيخ تامر» الذي تنازل عن حصتّه، وهي الثلث، وحصّة قبيلته، وهي الثلث أيضاً، وأكبرنا هذا الموقف، وقدّرناه.

وأخبرنا «الشيخ تامر».. بأنه، من ذلك الحين، رفض أخذ شيء من «دِيَّة» قتيل، كما رفض أن تأخذ قبيلته أيضاً ـ وقال: إنّ بعض رؤساء القبائل المجاورة.. قد اقتدى بنا، واتّبع خطّتنا هذه ـ فكان له بذلك فضل اتباع سنّة حميدة، وأسلوب كريم.

* * *

ولا شكّ أن وضعي ذاك ـ كما أسلفت.. وإقبال الناس عليّ، وجلجلة اسمي وخدماتي لكل من يقصدني.. قد أوغر صدور الإقطاعيين والرجعيين.. فتألّبوا علي ـ كما تألّبوا عند بدء حياتي السياسية. ولكنّ تألّبهم هذا.. كانت له أهمية خاصة.. وهم يرونني أفضّ مشاكل أتباعهم، وأقضي حوائجهم، وأساعدهم على التّحرُّر من ربقة العبودية والظلم.. إلا أنني لم آبه لهم ـ لأنّ سمعتي قد انتشرت بشكل واسع، ونفوذي قد بدأ يتسع ويعمّ ـ وذلك بفضل الله ونِعَمِهِ.

وكنتُ أجد من المسؤولين كل دعم ـ كما سبق وذكرت. وللإيمان بالواقع، والإقرار به، أقول: إنّ ذلك لم يكن لمجرد شعور وطنيّ فحسب ـ عند جميع الموظفين.. وإنما كان أيضاً للأسلوب الذي أتّبعه معهم، والصلات الوثيقة التي كانت تربطني بهم وبرؤسائهم.. والطريقة التي كنتُ أعالج بها قضايا الناس، وأعرضها على المسؤولين. فليس النفوذ وحده.. هو الذي يزيل العقبات، ويذلّل الصعوبات، ويسهل المراجعات، ويضمن لصاحب الحق حقّه.. وإنما اللياقة واللّباقة، واتّباع الأساليب الناجعة، عند المراجعة.. وطريقة العرض والإقناع ـ ذلك كله.. هو الذي يساعد على تمهيد السُّبُل، وإزالة العقبات.. ويكفل تحقيق الأمل المرجوّ، والغاية المتوخّاة.

وكنت دائماً أعمد إلى تقوية صلاتي بالموظفين.. وبمختلف المجالات، والوسائل والمناسبات ـ إذ من النادر أن يخلو أحدهم من مشكلة، له أو لذويه،

وأحياناً كثيرة مشاكل. وكنتُ أحرص كلّ الحرص على تقوية علاقاتي الشخصية بهم ـ لأنّ ذلك يكفل لي الدعم القويّ منهم.. وتحقيق مطالب المراجعين، ورفع الظلم عن مظلومين.

ومن الإنصاف أن أعترف.. بأنّ بعض الموظفين كان يندفع لتأييدي، وإنجاز الأمور التي تهمُّني، اندفاعاً صادقاً مخلصاً ـ لعامل وطني بحت ـ إذ أنهم كانوا يرونني دائماً في الخط الوطني القويم، وسبيله المستقيم.. لم أتزحزح عنه، ولا تأخرت عن القيام بواجبي نحوه.. ولا تقاعستُ عن أداء أية مهمة وطنية.. أُوكِلَتْ إليّ، واعتُمِدَ بها عليّ. ثم إنهم كانوا يقدِّرون مواقفي الجريئة المخلصة.. وأني تعرَّضتُ في عهد المستعمرين الفرنسيين للموت ـ لولا رحمة الله ورأفته.. حتى اضطررتُ للجوء إلى العراق.. الذي لجأ إليه سنتذاك عدد من الشخصيات السورية المرموقة.

لقد قاسيتُ في سبيل واجبي الوطني ما قاسيت، وعانيتُ ما عانيت، وتحملت من الأذى ما تحملت.. وأنا لا أبرح السبيل القومي، ولا أتقاعس عن أي عمل كان يدعوني إليه الواجب الوطني ـ وإني لا أقول هذا مباهاةً، وأعوذ بالله من ذلك ـ ولكن.. بما أنني أروي قصة حياتي.. فلابدَّ من أن آتي على مختلف جوانبها ـ وهذا من حقّي ـ بل إنه بُدٌّ لابُدَّ منه.

ثم وقفت حياتي كلها لخدمة المُضطَهَدين والمظلومين.. وكل ذلك لوجه الله، ودون أي مقابل ـ كما سبق ذكره. ومن نِعَم الله أنه قد عُرِف هذا عني، واشتُهِرتُ به.. فكان باعثاً قوياً لاقتناع الوطنيين المخلصين بضرورة دعمي وتأييدي.. وبذل أي جهد في هذا السبيل.

ولم أكن ذا سَعَة ـ بل كنتُ مُجْهَداً، ولستُ في حال كما يجب من اليُسْر.. مما تراه يتَّفق وقول الشاعر «بشار بن برد»:

إنَّ الكريمَ ليُخْفِي عنك عُسْرَتَهُ حتّى تَراهُ غَنِيّاً وَهُو مَجْهُودُ

ومعذرة.. فإني لا أريد مدح نفسي، وإطراءها، وأعوذ بالله من ذلك.. وإنما هو قول لابدَّ منه، ونحن في هذا السياق.

وبنعمة الله وفضله.. لم تكن مائدتنا تخلو من ضيوف ـ يتعاقبون عليها باستمرار. وفي أكثر الأيام.. كانت والدتي، رحمها الله رحمة واسعة، تدخل المطبخ هي وزوجتي «جميلة»، رحمها الله، ولا تغادرانه إلا في ساعة متأخرة من الليل.

وإلى جانب ما ورثته عن والدي، تغمَّده الله برحمته، كنت أنفق مما لدى زوجتي، ودخلها حينذاك كان يوازي دخلنا ـ الأمر الذي ساعدنا في مصروفنا البيتي.. أنا، وأخي محمود، حينما كنا نسكن معاً.

* * *

وعلى ذكر الموظفين.. وحسن سلوكهم، وسلوك الناس معهم.. أذكر هذه الحادثة ـ وقد رويتها لصديقي «نجم الدين علي» ـ حينما كان مدير فندق «الكازينو»، بمصيف صلنفة الشهير، وهو يستقبل الناس ويودعهم ببشاشته، وبابتسامته اللطيفة التي تأخذ طريقها إلى قلبك، وتشدك إليه.. فطلب تسجيلها ـ لأنَّ فيها عبرة وعظة، وها أنا أفعل:

«حليم دانيال»، وكان مدير مصرف اللاذقية بطرطوس، سرَّح أحد الموظفين ـ وكان أميناً للصندوق. وراجعني الموظف.. فسألت «حليماً» عن السبب.. فأثنى كثيراً على كفاءته وأمانته واستقامته، وقال: سرَّحته وأنا متألِّم.. لأنه لا يبتسم للزبائن. فقلتُ: هذا أمر سهل.. نجعله يبتسم. فقال: وإني أمهله شهراً آخر ـ لأني لا أريد الاستغناء عنه. فقلت للموظف:

في أوروبا وأمريكا مدارس.. تعلِّم الناس كيف تأكل، وكيف تجلس وتتحدَّث، ثم كيف تبتسم. وأنت ضع أمامك مرآة.. وتعوّد على الابتسام. فتعهّد بأنه سيبتسم من كل قلبه.. وقد سُرَّ لموقف «حليم» الإيجابي منه.

ومررت بالمصرف، بعد فترة، وإذا بالموظف غير موجود. فقلتُ لـ «حليم»: ماذا حدث للرجل، وقد تعهد بأن يبتسم من كل قلبه؟

فقال: صحيح.. صار يبتسم.. ولكن ابتسامته تبدو «تكشيرة».. وهي أسوأ من الأولى. فكان لابدَّ من الاستغناء عنه.

* * *

في تلك الأثناء، وبعد استقالة «مظهر رسلان»، عُيِّن «عادل العظمة» محافظاً للاذقية. وكانت الحكومة السورية قد فرضت على «سلمان المرشد» إقامةً إجبارية في دمشق، وكان نائباً عن منطقة «الحفّة»، وهو المركز التّمثيلي الذي شغله منذ عهد الفرنسيين إلى أن قُضي عليه. وفي ليلة ليلاء عاد إلى قريته «الجوبة» ليعتصم فيها. فجرَّدت الحكومة حملةً بقيادة «العقيد محمد علي عزمة»، قائد درك المحافظة، وهاجمت معاقله، وتصدَّى لها رجاله.. فتغلبت قوى الدرك عليهم، واحتلَّت «الجوبة»، واعتقلت «سلمان المرشد».. الذي كان، قبل ذلك، وباليوم نفسه، قد أطلق النار على زوجته «أم فاتح»، وقتلها ـ لأنها أمرت بالمقاومة، دون علمه، وقال إنه لم يكن يريد الاصطدام مع السلطة، وإنما كان يريد التفاهم معها.

وقد شُكِّلت محكمة خاصة، برئاسة القاضي «فؤاد محاسن»، وحكمت على «المرشد» بالإعدام، بتهمة قتل زوجته. وقد نُقِلَ إلى دمشق، وأُعدِم.. بعد صدور الحكم بأيّام قليلة. وبعد إعدامه.. بدأ «عادل العظمة» يظهر التّعالي والزهو، ويعلن أنه أنقذ البلاد، وفرض هيبة الحكم!

وقد ضاعف ذلك من شموخه وتعاليه! وكان يكره الوساطة، ويشجِّع مرؤوسيه على عدم قبولها.. وعدم فسح المجال للوسطاء ـ وذلك كي يزيح من الطريق كل صاحب نفوذ، ويبقى هو وحده!

وعرف بعض الموظفين «الأذكياء».. كيف يستغلون اتجاهه ورغبته ـ لكي تقوى صلاتهم به، ويتعزز مركزهم عنده! وأحد هؤلاء.. كان مدير منطقة ـ قائمقام ـ وقد تلقّى من والده بطاقة توصية بأحد المواطنين.. فرفع تقريراً إلى المحافظ ضد والده، وضمن التقرير البطاقة التي أرسلها إليه!

وصار «عادل العظمة» يتباهى أمام زائريه.. بأن موظفيه أصبحوا مثله «مثاليين»!! وأن أحدهم شكا والده إليه ـ لأنه توسط عنده لأحدهم.. ثم يطلعهم على بطاقة الوالد.. وتقرير ولده به!!!

شيء مضحك! ويبعث على الأسف والسخرية!

ومـرّة قـال لـي «عـادل العظمـة»: قل لصديقك «محيي الدين المرهج» أن لا يقاطعني حينما أتكلّم.. ولا يرفع صوته أمامي، وإلاّ.. فلن أستقبله أبداً!

ونقلت لـ «الدكتور محيي الدين» هذا، وسألته عما جرى بينهما.. فأجابني بصراحته المعهودة، وقال:

يا أخي، أنا محام.. وكلما ذهبت إليه من أجل قضية.. يبدأ الحديث من أول لحظة، ويستمرّ إلى آخر لحظة.. وبموضوع لا معنىً له، ولا موجب - إلاّ الإلهاء، وإنهاء الوقت حتى تأتي القهوة! وبعد احتساء القهوة.. ينهض ويمسك بيدي مودّعاً! وهكذا أخجل منه، وأخرج دون نتيجة! وتكرّرت هذه الحال مرات عديدة! وفي المرة الأخيرة.. ذهبت إليه من أجل قضية هامة، فبدأ الحديث كعادته، وكما تعرفه.. فقلت له: أرجوك عندي قضيّة هامة جئتُ لأجلها.. فدعني أشرحها لك أولاً، وتتلطف بقضائها.. وبعدها تبدأ الحديث. فقال: كيف تقاطعني؟ قلتُ: إني مضطر، فأنا محام، وفي كل مرّة آتي وأعود دون نتيجة! فقال: لا أسمح لك. وصرخ وصرخت، ووقف ووقفت.. وقلت له بصوت حادّ: تقضي حاجتي أولاً.. ثم تكلّم بعد ذلك بما تشاء. فجلس، وجلستُ أذكر حاجتي، وأطلب قضاءها. فتناول الهاتف، وأوعز إلى الموظف المختص بانهائها، وقال لي: شكراً، فقلتُ له: وشكراً أيضاً.. وخرجت من عنده دون تناول فنجان قهوة ـ ولكن حاجتي قُضيت. ولو لم أفعل ما فعلته.. لما قُضيت أبداً.

أجل.. كان «عادل العظمة» كثير الكلام إلى حد الإفراط - وهذا ما كان يعيبه، ويُؤخذُ عليه!

وإلى جانب هذا.. فإنّ من الإنصاف الاعتراف بأنه كان مستقيماً ونزيهاً. وفي بعض المواقف.. كان يؤثر الحق على سواه.. ويندفع بخدمة ما يؤمن به إلى آخر مداه.

هذه صفات.. أعترف له بها - رغم مآخذي الكثيرة عليه.

ولكن زهوه، وعنفوانه، وتعاليه.. واعتداده، وإعجابه بنفسه إلى حد بعيد.. قد طغى ذلك كله ـ على كل صفاته الأخرى!

ولقد وصل اعتداده بنفسه.. إلى حدّ الاستهانة بالآخرين ـ وأيّاً كانوا.. كأنه لا شأن لهم، ولا وزن! والويل لمن يعارضه، أو يعترضه، ويرفع صوته أمامه، أو يقاطعه وهو يتحدث.. وحينئذٍ تكون الطّامّة الكبرى، والويل والثبور، ولسعة «الدبور»!

وكنتُ من النادرين.. الذين استطاعوا النفاذ إلى نفسه، وقضاء حاجة منه ـ لأنّ صلتي به كانت منذ كنت «لاجئاً سياسياً» في العراق.. وكان هو أيضاً «لاجئاً سياسياً». ثم لم تنقطع صلتي به بعد ذلك. وإلى جانب هذا.. فقد كنت أعرف مداخل نفسه، وطرق التأثير عليها، وتحقيق ما أريده منها. وأعرف شموخه وزهوه.. فأتحاشاهما، ولا أصطدم بهما.

* * *

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥ أفرج البريطانيون عن «الدكتور أمين رويحه».. وكانوا قد أرغموا الطائرة التي يستقلها، من بغداد إلى القاهرة، سنةَ ١٩٣٩ على الهبوط في فلسطين، واعتقلوه ونفوه إلى جزيرة «سيشل» في المحيط الهندي.. حيث شوهت الحشرات بلذعاتها السامة.. وجهه الوسيم.

وفور عودته.. قرر زيارة مسقط رأسه مدينة اللاذقية. وذهبت عشرات السيارات تستقبله عند حدود المحافظة، وكنتُ من جملة مستقبليه ـ تقديراً لمواقفه البطولية، وجهاده المستميت في خدمة القضية العربية.. ولِمَا له عندي من أيادٍ كريمة في العراق.

وتوقف الموكب في بانياس، وأُلقيَ أمام المجاهد الكبير عددٌ من الخطب.. وكنتُ أحد المتكلمين. ورافقناه إلى اللاذقية.. حيث خرج أبناء المدينة بكاملهم لاستقبال المناضل الذي رفع اسم مدينته عالياً.. وأحاط سمعتها بهالة من النور والمجد.. مثلما عزّز بجهاده ونضاله الاسم العربي، والكرامة العربية.

* * *

في صيف سنة ١٩٤٧ حُدِّد موعد الانتخابات النيابية ـ لأن المجلس النيابي كانت قد انتهت مدّته ـ وهي أربع سنوات. وقبل انتهاء مدته.. عُدِّل قانون

الانتخاب.. وأصبح النواب يَنتَخِبون مباشرةً من الشَعب ـ وليس بواسطة «المُنتَخَبين الثانويين».. وبذلك انتهى عهد، وبدأ عهد. وأصبح المواطن ينتخب المرشَّح الذي يريده ـ دون أن يكون هناك «منتخبون ثانويّون» ينوبون عنه.. فيتصرفون كما يشاؤون، ويعطون أصواتهم لمن يريدون ـ ولو كان ضد إرادة الناخبين الأوَل.

والمجلس الجديد.. هو الذي سينتخب رئيس جمهورية جديد ـ حينما تنتهي مدة الرئيس الحالي. ولم يكن الدستور، آنذاك، يسمح بانتخاب رئيس جمهورية مرّتين متواليتين. وإذن.. فلابدَّ من انتخاب رئيس آخر، أو يعدَّل الدستور حتى يمكن إعادة انتخاب «القوتلي» مرة ثانية.

وتقدَّم عدد من النواب بطلب تعديل الدستور، وإلغاء المادَّة التي لا تسمح بإعادة انتخاب رئيس الجمهورية مرَّة ثانية.

وتنص أحكام الدستور.. على وجوب مرور ستة أشهر على تقديم طلب تعديله.. قبل أن يصوِّت المجلس عليه، ويتخذ قراراً بذلك ـ بعد أن تكون اللجان المختصة قد درست الاقتراح، وأعطتْ قرارها. وكنتُ بين «النُظّارة»، في المجلس النيابي، حينما قدَّم «الفتيح»، نائب دير الزور، اقتراح التعديل إلى رئيس المجلس، وكان «محمد العايش» ـ وهو نائب دير الزور أيضاً ـ فتناول الطلب، ورفع الجلسة فوراً. وحينذاك علتْ أصوات النواب المعارضين.. واستمروا فترةً وهم يضربون بأيديهم المناضد التي أمامهم ويصرخون، مندِّدين برفع الجلسة، وعدم تمكينهم من إبداء ملاحظاتهم حول طلب التعديل.

وقال لي نائب معارض مرموق وقتذاك: لم نكن نعارض، من حيث المبدأ، فكرة تعديل الدستور، وإعادة انتخاب «شكري القوتلي» رئيساً للجمهورية ـ ولكن كان يجب أن يُبحث الموضوع معنا، نحن المعارضة، حتى يأتي القرار إجماعياً. وأمّا أن يقتصر البحث مع النواب الموالين وحدهم، وهم الأكثرية طبعاً، فإنه لابدَّ أن يكون لنا موقفنا العنيف الذي يجب أن نقفه.

في تلك الأثناء.. تمَّ تشكيل «الحزب الوطني».. منبثقاً من «الكتلة الوطنية»

الأم ـ التي كانت تضم جميع العاملين بالحقل القومي، في العشرينات والثلاثينات، وحتى وسط الأربعينات، وحلّ «الحزب الوطني» محلها.. وانفصلت عنه فئات ضخمة شكلت «حزب الشعب» الذي كانت مدينة حلب قاعدته ومنطلقه، وانتُخِب «رشدي كيخيا» رئيساً له. وكان من أبرز أعضائه في حلب: الدكتور ناظم القدسي، والدكتور معروف الدواليبي، والدكتور رزق الله أنطاكي، والدكتور عبد الوهاب حومد، وأحمد قنبر. وفي حمص: فيضي الأتاسي، وهاني السباعي، وراتب الحسامي. وفي دمشق: زكي الخطيب، وعلي بوظو، ورشاد جبري. وأوجِدت له فروع بمحافظات أخرى.

وكان ثمة حزب سياسي آخر.. هو «عصبة العمل القومي» ـ التي كانت تضمّ فئة خيِّرة من الشباب المثقف الواعي ـ إلا أنها كانت مقتصرة على هذه الفئة من المثقفين ـ وكان «زكي الأرسوزي» أبرزهم. ولم يكن لـ «العصبة» ركائز شعبية ـ لأنّ أركانها كانوا يعتمدون على وعي المواطنين الذين ملّوا السياسيين التقليديين.. ويريدون وجوهاً جديدة لمستقبل مفعم بالأحداث، وحافل بها.

وتُعْتَبَر «عصبة العمل القومي».. النواة الأولى لحزب «البعث العربي الاشتراكي».. الذي استهوت مبادئه ومثاليته فئات واعيةً متحررةً متحمسة.. من الشباب المؤمنين بطاقات أمتهم الخالدة.. وبقدرتها على العطاء والإبداع والتفوّق ـ إذا أُحسِن توجيهها، وارتفع مستوى الشعور القومي في العاملين لها.

ولذلك بدأ «البعثيون» يعملون بدقة وتروٍّ وحكمة ـ وبالوقت نفسه.. باندفاع وعزيمة وإيمان.. حتى تحقق لهم، ولمثاليتهم، الحلم الذي يحلمون به، والهدف الذي يعملون له ــ وهو تطبيق منهاجهم القومي. وأصبح حزب «البعث» هو الرائد والقائد في سورية. وبُدِىء بتنفيذ برنامجه التقدمي والتحرري، والداعي بعمق عقيدة إلى الإصلاح والانطلاق والتفوق.

وكان ثمة حزب آخر يعمل، آنذاك، بصمت وتستُّر وكتمان ـ هو «الحزب الشيوعي».. الذي لم تستهوِ مبادئه إلا الفئة العاملة، وبعض المثقفين الذين يؤمنون بالاشتراكية منهجاً وهدفاً ووسيلة. لذلك.. كان مقتصراً على فئات معينة

محدودة ـ لكنها شديدة الترابط والتماسك.. والتقيُّد بمنهجية العمل ودقته. وكذلك «الحزب السوري القومي» الذي مرَّ ذكره معنا، وكان نشاطه قد بدأ على نطاق واسع.

* * *

وحمي وطيس المعركة الانتخابية في سائر أنحاء البلاد.. وكثر المرشحون الذين يحلمون بزحزحة الأصنام. وكسر نير العبودية والرجعية والإقطاعية.

وكان من البدهي أن أخوض المعركة الانتخابية. فأصدرتُ بياناً حافلاً.. حدّدتُ فيه المهامَّ التي سأسعى لإنجازها فيما إذا انتُخبتُ نائباً. وبيّنتُ أن مهمتي الأولى.. هي تحرير المواطنين من ربقة الذل والعبودية.. والسير في اتجاهٍ قوميٍّ شريف.. والعمل لايجاد مجتمع متجانس تسوده العدالة، والشعور الوطني، والاتجاه القومي. وهذا أهم ما جاء في ذلك البيان. وعنوانه:

أعلنها ثورة جارفة.. على الجهل، والفقر والمرض.

أعلنها معركة تحريرية.. ضد الرجعيّة والإقطاعيّة والتعصب.

أيُّها الشعب الكريم:

هذه أول مرة ـ في تاريخك الحديث.. تشعر فيها بسيادتك المطلقة على نفسك.. ويُتاح لك فيها أن تعبر عن مشاعرك ـ وأنت طليق من كل قيد، متحرر من كل ضغط، بعيد عن كل تأثير.

وهي أول مرة تمارس فيها أعمالك الانتخابية.. في جوٍّ لا يرتفع فيه إلا علم بلادك، ولا تسمع إلا صوت أبناء أمتك.. ولا تلمح في آفاقه الرحبة ظلاًّ لأجنبي دخيل، ولا أثراً لاستعمار بغيض. وهي أول مرة أرشّح فيها نفسي للنيابة.. بعد أن رأيتَني متمتّعاً بثقتك، وحائزاً على تأييدك، وظافراً بنعمة حبّك وعطفك وإيثارك.

أيُّها الشعب الكريم:

إن هذا الاستقلال الذي منَّ الله علينا به، ومنحنا إياه جهادك الطويل، وكفاحك المستميت.. لا يمكن أن تصونه مُهج لا تعمر بالإيمان، وأفئدة لا تصبو للإصلاح، وعقول لا تتحرَّر من الفكر السقيم، والتعصب الذميم.. ولا يمكن أن تقوى دعائمه، وترسخ أسسه، وتثبت أصوله، وتنطلق شعاراته.. إلا بعد أن تزول الطائفية من النفوس، والعشائرية من العقول، والتعصب من الأذهان.. وإلاَّ بعد القضاء على الجهل والفقر والمرض، ورفع مستوى الفضيلة، وقطع دابر الرذيلة.. وهو ما سأعمل له جاهداً - بكل ما يسعفني العمل، ويمكّنني الجهد من تحقيق الأمل.

أيُّها الشعب الكريم:

هذا موعد الوعود الخلاَّبة، والكلام المعسول.. والدسائس المريبة، والدعايات الغريبة.. والتواضع المصطنع، والتملُّق الزَّريَ. وهم الآن يشعرون بحاجتهم إليك — بعد أن تنكروا لك زمناً طويلاً.. وإنَّها حاجة عابرة، تفرضها ظروف قاهرة!

إنهم يتظاهرون الآن بالوفاء لك، والحَدَب على حالك! فلماذا لم يُظهِروا هذا الوفاء والحَدَب - حينما كنت تقصدهم.. فتُقفل دونك الأبواب وتُوصَد الآذان والقلوب؟!

بربك، أيها الناخب الكريم، سَلْهم.. أين كان هؤلاء المتواضعون، المتملِّقون، الواعدون؟! أين كانوا منذ سنين - بل منذ أشهر؟! إنهم أنفسهم الذين كانوا يمتنعون عن استقبالك.. حينما كنتَ تطلب مقابلتهم - لتشكو إليهم ظلامة، أو تطلب منهم معونة! ويترفعون حتى عن توجيه التحية إليك، أو ردّ السلام عليك! إنهم هم أنفسهم الذين كانوا يأبون أن يصغوا لندائك - وأنت تستغيث.. أو يرثون لحالك - وأنت تستجير.. أو يرفقوا بك - وأنت تتألم.. أو يشعروا بشعورك - وأنت تتبرم، وأنت ضحية الفقر والجهل والمرض.

إنهم يحاربونني - لأني أسعى لرفع شأن المواطنين، وأصغي لندائهم، وأسرع لقضاء حوائجهم.. مندفعاً من غير تمنّع، ومتطوّعاً من غير ترفع.

ولو عرف جلادو الأمس، ومتواضعو اليوم.. أنهم يقدرون على سَوْقك بـ

«العصا» ـ كما كانوا يفعلون من زمن قريب.. لما رأيتَ منهم هذا التواضع المُبْتَدَع، والتودّد المُصْطَنَع!

إنهم يعرفون.. أن زمنَ «العصا» قد ولّى.. وأن أصغر فلاح يقف اليوم، أمام أي مسؤول، موقف النِّد للنِّد.. له ماله، وعليه ما عليه ـ له ما لـذاك من حقوق، وعليه ما عليه من واجبات. ويعرفون أنك لن تصغي إلاّ لصوت الضمير، ولا تستمع إلا لنداء العقل.. ولن تكون اليوم مع جلاديك ـ كما كنتَ بالأمس.. مهما كلّفك هذا من متاعب ومصاعب، وتضحيات ونوائب.

أيُّها الشعب الكريم:

أعيذُها نظراتٍ منك صائِبَةً | أن تحسبَ الشَّحم فيمن شحمُهُ وَرَمُ

إنَّ أمامك سجلاً ضافياً لأعمال الأشخاص، وتاريخ كلٌ منهم ـ فافتحْ هذا السِّجل.. ودلّني على مأثرة اجتماعية واحدة لهؤلاء الواعدين المتواضعين المتملِّقين!! بل دلّني على خدمة اجتماعية واحدة.. لمن قدَّمتهم في السابق ـ إلى المجالس النيابية السابقة! بل دلني على عمل إصلاحيٍّ حقّقوه، أو مشروع عمرانيّ أنجزوه، أو مبدإ لا طائفيٍّ عاضدوه وناصروه!

هل بنوا مدرسة؟ هل عبّدوا طريقاً؟ هل شيدوا مستشفى؟ وهل وهل؟

اللهمَّ.. إن الجواب مرتسم على جبين الأفق.. وعلى هذا «الجبل المريض»، الثاكل الجريح.. والوسط الاجتماعي المُدمّى.

اللهمَّ.. إنك تلمح الجواب في عيون الأيَامَى، وذلّ اليتامى.. وضعف الضعفاء، وبؤس البؤساء، وفقر الفقراء.. وذلك لعمري هو أصدق جواب ـ لأصرح نداء.

دارُ النيابةِ قد صُفَّتْ أرائكُها | لا تُجْلِسوا فوقها الأحجارَ والخشَبَا

أيُّها الشعب الكريم:

إني أتقدم إليك بطلب النيابة.. وبين يديَّ ذكرى سنوات من التَّشريد، وأنواعٌ مختلفة من الأذى والاضطهاد.

إني أتقدّم إليك.. بطلب تمثيلك ـ وأنا أشعر بوحيٍ يهتف بي للنهوض بهذه المسؤولية القومية ـ وبإحساس قويٍّ يشجّعني عليه، ويدفعني إليه.

أتقدم إليك.. تدفعني عاطفة عُرِفَتْ، في جميع المناسبات والظروف، بحَدْبِها على الفقراء، ونصرها الضعفاء.. واندفاعها في سبيل المظلومين، وإيثارها البائسين والمكلومين.

أتقدّم إليك.. وبين يديّ صفحةٌ من الجهاد المتواضع ـ بمساعدة كلّ فقير، وإغاثة كلّ ملهوف، وإعانة كلّ مضطهد، والتضحية في سبيل كلّ ذي حاجة ـ ولا فرق عندي بين فئة وفئة، ولا بين طائفة وطائفة.. ولا ميزان أزن به ـ إلا ميزان الحق.. ولا سبيل أسلكه إلا سبيل الصدق.. ولا طريق أتّبعها ـ إلا الطريق المترفّعة عن مزالق الطائفية والعشائرية والعائلية. وأنت تعرف ذلك عني.. وأنه دستور حياتي، وشعاري في تصرفاتي. تعرف ذلك، وتؤمن به ـ رغم دسائس الداسين، وغرض المغرضين، وافتراءات المفترين.

أقول هذا.. وأعوذ بالله من تزكية المرء لنفسه.

أيُّها الشعب الكريم:

إني أتقدم إليك.. لكي يُتاح للنفر المؤمن من أبنائك ـ النّاهدين لمستقبلٍ أفضل، وغدٍ أجمل.. والمتحررين من ربقة الإقطاعية والرجعية ـ كي يجدوا في إقدامي هذا.. وسيلة للتعبير عن مكنون أنفسهم، وسبيلاً لإرضاء شعورهم وضمائرهم.

أتقدّم إليك .. وأنا أستوحي شعور القوة ـ من شعورك بالحاجة إلى مصلحين، والرغبة في تأييد العاملين المخلصين .. وفي تحرير ضميرك مما علق به من أوضار التقاطع والتّنابذ، والتفرقة والعصبيات.

أتقدّم إليك بطلب تمثيلك ـ لأن النيابة لم تعد كما كانت، في عهد الاستعمار الفرنسي، زعامةً وسطوة.. بل أصبحت في عهد الاستقلال أمانةً وخدمة.

وأخيراً.. فإني أتقدّم إليك بطلب النيابة.. معلناً الثورة التحررية على الظلم والإقطاع، والعبودية والطائفية.. وأنا واثق بأني إن لم أجنِ من ذلك.. إلا إعلان الثورة المتحرِّرة.. لكان لي في ذلك كبير الفخر، وفي استجابتك لهذا النداء كبير الشرَف.

أمامـك فـاعرفْ أيَّ نهْجَيْكَ تنهـجُ   طريقـانِ شتَّى.. مستقيمٌ وأعــوَجُ

أيُّها الشعب الكريم:

إنَّ البرنامج الانتخابي ـ الذي أخوض المعركة علـى أسـاس تحقيقه، والنضـال حتى النَّفَس الأخير في سبيل إنجازه.. هو صفحة من جهادي المتواضع.. قُدِّر لـك أن تتعرف عليه، وعلى نضـالي المستمر فـي سبيل تحقيقـه.. وهـو يتلخـص فـي مبادىء عامة، وكلمات محددة.

١ ـ صيانة الاستقلال، وصيانة النظام الجمهوري.

٢ ـ محاربة الإقطاعية والرجعية ـ في شتّى الوسائل، وشتّى الميادين.

٣ ـ تحرير العامل والفلاح من عبودية الفكر والإقطاع.

٤ ـ منع الفوارق الاجتماعية بين فئات الشعب، وتحقيق المساواة بين الجميع.

٥ ـ منع الإتاوات، والـجعالات والـرَّشاوَى.. و « الفريقـة السـنوية »، وغـير السنوية التي يجبيها «الزعماء» من أتباعهم.

٦ ـ محاربة كل فكرة رجعية.. ترمي إلى تمركز النِّير على عاتق العامل والفلاح.

٧ ـ ايجاد وسائل تعاونية لمحاربة البطالة.

٨ ـ صيانة المصنوعات الوطنية، وإيجاد أسواق خارجيَّة للفائض منها ـ وخاصـة الحرير العربي.. وإيجاد معامل له في «المشتى» و«الدريكيش».

٩ ـ تعميم المدارس في سائر أنحاء الريف، وبناء أبنية خاصة بها.

١٠ ـ العمل على انشاء مناطق سياحة واصطياف.

١١ ـ تعبيد الطرق الحالية وتزفيتها.. وشقّ طرق جديدة في الأماكن التـي تتطلـب ذلك.

١٢ ـ مساعدة الفقير، أيًّا كان.. ومعاضدة الحق أينما كان، ومع أيٍّ كان.

هذه نقاط من برنامجي الانتخابي.. أقدِّمـه بيـن يـدي، الشـعب الكريم، مرشِّـحاً نفسي على أساسه.. ومتعهِّداً بالعمل الدائب لأجـل تحقيقـه وانجـازه. وإن لـي من واقعي بالخدمة العامــة.. مـا يُقنِـع كـل ذي ضمـير حـرّ، وغايـة نبيلـة. واللـه وَلِـيّ التّوفيق، وهو المؤمّل المُرتَجى.

أيُّها المواطن الكريم:

إنها لحظات قصيرة.. يتوقف عليها مصيرك، ومصير أمتك وبلادك.

إنك ستكتب صكَّ حريتك بيدك.. فحذارِ أن تستبدل العبودية بالحرية، والقيد بالانطلاق.

واعرفْ كيف تختار المدافعين عن حقوقك، الذّائدين عن حياضك، الناذرين أنفسهم لك، والواقفين جهودهم لخدمتك.

إنّها لحظات.. تتوقف عليها وحدة الكلمةِ، والخُطَى، والمصير.

حَقِّقُوا الوحدةَ.. لا تُفسِدُها نَزَعاتُ الرّأي والمعتقَدِ
أنا عاهدتُ على أنْ لا أرَى فُرْقَةً.. هَاكُم على ذاك يدي

* * *

وكان لهذا البيان.. صدى بعيد المدى ـ لأنه أول بيان انتخابي يصدر عن مرشح في المحافظة كلها.. لذلك كان له أبعد الأثر في نفوس المواطنين الواعين.. المتحررين من ربقة العبودية والإقطاع.

وقال يومئذٍ المفكّران الناضجان: «الدكتور اسكندر»، وأخوه «الدكتور ميخائيل بشور»، أمام جمهور من أبناء صافيتا: «هذه أول مرة.. يحترم فيها مرشَّح أبناء الشعب، ويتوجه إلى الناخبين ببيان.. يعلن فيه برنامجه الانتخابي، ويتعهد بالعمل على تنفيذه. فعلينا جميعاً أن ندعم «عبد اللطيف» بكل قوانا.. وبذلك نضمن التطور في المجتمع، ونبرِّىء أنفسنا من التبعية السياسية. رحمهما الله.. فقد كانا يتّسمان بصدق الكلمة، وحرية الرأي، وصفاء الرؤية، وكنتُ أقدِّرهما، وأحترم نُضج أفكارهما، وبُعْدَ نظرهما، وصفاءَ ولائهما.

* * *

وكان قد حُدِّد لصافيتا حينذاك ثلاثة نواب: مسلمان، ومسيحي. ولم تكن قد أُلغيت الطائفية التي اصطنعها الفرنسيون للتفريق والتمزيق، وإيجاد تصدّع في بناء المجتمع.

ورأى الأصدقاء والأنصار أن نتّفق و«عزيز الهواش» ـ لأنّ عنده طاقةً

انتخابيةً مرموقة. وكانت صلتي به وثيقة - رغم أن تفكيرنا، وأسلوب تعاملنا، مختلفان. ولكننا كنا معاً نتمسك بقول الشاعر:

اختلافُ الرأيِ.. لا يُفسِدُ للودِّ قضيَّة

وذهب وفد من أصدقائي يزوره، ويعرض عليه فكرة الاتفاق. فكان جوابه: سندرس الموضوع.

ثم التقينا.. ودرسنا موضوع اللائحة الواحدة.. فطلب مني إثبات طاقتي الانتخابية، وجمع ٣ آلاف بطاقة هوية من المواطنين الذين يؤيدونني.. ليتأكد من قدرتي على خوض معركة انتخابية ناجحة. ولم يكن ذلك أمراً سهلاً - بل كان عسيراً جداً.. ويتطلَّب جهوداً مضنية - إذ ليس من السهل أن يعطي كل مواطن هويته، ويجرد نفسه منها إلى حين. ثمَّ.. إن التنقُّل في القرى، القريبة والبعيدة، يتطلب وقتاً طويلاً - فضلاً عن الإرهاق والتكاليف.

ومع ذلك.. اندفع الأصدقاء والأنصار، من تلقاء أنفسهم، يجمعون الهويات، ويقدمونها لي - لأحتفظ بها. وحينما انتشر النبأ.. كان كثيرون يجيئون، ويقدِّمون هوياتهم بأنفسهم.. حتى تجمع لدينا، خلال فترة وجيزة، أكثر من ألف بطاقة.

وبينما عملية الهويات مستمرة.. إذا بـ «عزيز الهواش» يتفق و«هاشم الحامد»، ويفاجئنا بتشكيل قائمة مشتركة منهما، ومعهما «نقولا جبرائيل بشور».

وكان نجلاه الكريمان «جهاد» و«قحطان»، راضيين عن فكرة اتفاق والدهما معي - ولكن كان رأي أبيهما عكس رأيهما.. وله الكلمة الأولى والأخيرة بالطبع. وأنا أقدِّر هذه الأسرة، «آل هواش»، وأعتبرها.

وقد سبق ونشرتُ صورة الكتاب الذي أرسله «اسماعيل الهواش» والد «عزيز الهواش» إلى عمي «الشيخ ياسين عبد اللطيف» وهو يدل دلالة واضحة على غيرته، والدفاع عن مصلحة الشعب وكرامته.

ولكنْ.. لكل امرىء هدفه واتجاهه!

• • •

زرتُ المحافظ «عادل العظمة» لأستطلع رأيه.. وأطلعتُه على موقف «عزيز

الهواش» مني.. فبدت علائم الانشراح على محيّاه، ولفظ كلمات غير كريمة بحقّه...!

وعلمتُ، فيما بعد، أنه كان قبل يومين مجتمعاً به، واختلفا اختلافاً حاداً.. ولا يمكن أن ينسجم أحدهما مع الآخر ـ لأنّ كلاً منهما يغضب بسرعة، ويثور بسرعة.. ولا يقبل أية معارضة لما يفكّر به، ويرتئيه! لكنّ «عزيز الهواش».. كان أنقى سريرةً، وأصفى طويّةً، من «عادل العظمة» ـ إلا أنه كان مثله قاسي الطبع، حادّ المزاج!

وأخبرت المحافظ أني قررت الاتفاق مع «الشيخ كامل صالح ديب».. فسألني عن طاقته الانتخابية.. قلت: إنّ لأسرته مكانة محترمة جداً.. ورصيده الشخصي جيد.. ويمكن أن ننجح معاً. وحينما ذكرت له امكانية النجاح.. رأيتُ أساريره تنقبض وتنكمش! وسألني عن المرشح المسيحي الذي سيكون معنا.. فأخبرتُه أني لم أتفق مع أحد بعد. وسأسعى للاتفاق مع مرشح يتمتع بشعبية حسنة وسمعة كريمة. فقال: طيِّب، الله يوفق. وسألته إذا كان بالإمكان الحصول على دعم منه.. فغمغم، ولم يجب!

وعدتُ إلى صافيتا.. حيث وثّقتُ عرى الاتفاق مع «الشيخ كامل صالح ديب».

وذهب «الشيخ كامل» إلى ناحية «الدريكيش» ـ حيث تقيم أسرته المرموقة. وبدأ حملته الانتخابية في الأماكن المؤيِّدة لهم ـ ومناطق نفوذهم.. ونفوذ «آل الهواش» واحدة.

وعرضتُ على «أديب الطيار» أن يرشح نفسه على قائمتنا، وهو مناضل عربي شريف، كما مرَّ بنا.. فاعتذر، ولم يُبْدِ السَّبب. وقد علمتُ من بعض أصدقائه، فيما بعد، أنه لم يكن يحسب أن لي تلك الطاقة الانتخابية التي فاجأت الجميع ـ عند ظهور نتائج التصويت، وقد اعترف بخطئه ذاك.. وندم عليه. ولم يُقدَّر لنا، بعدئذٍ، أن نلتقي على صعيد انتخابي واحد ـ لأن الأحداث باعدت بيننا. وأما صداقتنا.. فقد ظلت في صفائها ونقائها إلى أن انتقل إلى رحمة الله.

وأردتُ الاتفاق مع «الدكتور اسبر حنا» ـ وكان طبيباً شاباً، نقيَّ السمعة.

وجاء إلى منزلي برفقة عدد من الأصدقاء ـ منهم: الدكتور صادق الطيار، وهو صديق قديم، له ذكرى كريمة بنفسي. واتفقنا على العمل في لائحة واحدة:

«الشيخ كامل صالح ديب»، و«الدكتور اسبر حنا»، وأنا. واستُدعيتُ للهاتف.. فدخلتُ مكتبي، حيث أمضيت بضع دقائق، وعدت إلى الصالة أصطحب معي أوراقاً نعلن اتفاقنا عليها، ثم نوزّعها على مؤيدينا. ولما عدتُ.. فوجئتُ بمغادرتهم المنزل ـ لأنّ ثمة نبأ تسرب إليهم في تلك اللحظات، وهو.. أن «منير العباس» قد نقض اتفاقه مع «جرجس مطانيوس بشور» واتفق مع «شفيق البيطار».. فلم يريدوا معارضة «البيطار» ومنافسته، وهو صديقهم وأليفهم، فانسحبوا دون أن ينتظروني، ويعتذروا مني!

ولا شكّ أنه قد كان لـ «شفيق البيطار» شعبية ملحوظة في مدينة صافيتا. وكان بيته ملتقى الفئات الواعية المثقفة.. وهذا ما دفع «منير العباس» للاتفاق معه في لائحة واحدة ـ فضلاً عن يُسْر «البيطار» واستعداده للبذل والتضحية.

وبعد فترة وجيزة.. جاء من يخبرني بأن «تامر اسبر بشور» مستعدّ لترشيح نفسه. وفوجئتُ بالنبإ، وسررتُ به ـ لأنه كان صديقي، وله ماضٍ مجيد بالعمل الوطني، والخدمات العامة ـ فضلاً عن أنه ابن أسرة نبيلة عريقة.

وفي ساعة مبكرة، من اليوم الثاني، ذهبت للالتقاء به في داره، والتحدُّث معه بشأن الانتخابات.. فوجدته مستعداً لترشيح نفسه، فاتفقنا. وأشهد أنه كان شريفاً باتفاقه معي، ولم يتراجع كغيره ـ رغم أن «شفيق البيطار»، المرشح على اللائحة المناوئة، هو زوج شقيقته.

وبعد أيام قليلة.. وتنقلات المرشحين، بين الناخبين، على قدم وساق، كما يُقال، ومعركة الدعايات والمناورات محتدمة مضطرمة.. جاء من يخبرني بأن «الشيخ كامل الصالح» هو الآن موجود بدار الحكومة، وقد قدم انسحابه من الترشيح! واضطربت للنبأ.. ولم أصدّق، وأرسلتُ رسولاً يستطلع الخبر وصحته، ويتصل به، ويطلب منه أن يتصل بي. وقَبِل، بعد إلحاح الرسول، أن يتصل بي هاتفياً. فسألته عما يشاع عن انسحابه.. فأكده لي! فألححتُ عليه أن نجتمع

لنبحث الموضوع معاً. فقال لي.. إنه مسافر إلى «الدريكيش»، ويمكنني انتظاره على الطريق العام عند بيتي ـ الذي يقع مباشرةً على تلك الطريق!

وانتظرتُه.. ولما جاء دعوته للدخول إلى البيت، فاعتذر ـ لأنه خشي أن يعلم «المحافظ» فينقم عليه! وأخبرني أن المحافظ «عادل العظمة» اتصل به هاتفياً.. وطلب منه سحب ترشيحه فوراً! فاضطرّ لذلك.. حتى لا يصطدم مع رئيسه فينقم عليه. ومضى، والتأثر بادٍ على وجهه.. وهو شديد الخجل ـ مما فعل.

في ذلك اليوم نفسه.. اتّصل بي ناس من بيت «محمد أمين رسلان» يريدون التّحدّث معي، وكنت خارج المنزل. ولما عدتُ.. أخبرني بهذا الاتصال «سعيد الرشيد» ـ وهو من ركائز جبهتنا، ومن عقلائها ومفكريها.. وكنتُ شديد الاعتماد عليه. وكان «محمد أمين» ناقماً لأنّ «منير العباس» أخذ على لائحته عمه «علي».. وأهمله ـ بناءً على ضغط المحافظ وإصراره.

وكان من رأي «سعيد»، أبي غسان، أن اتّصل بـ «محمد أمين» وأُجري اتفاقاً معه ـ إذا رغب بذلك. ولكن الآخرين قد علموا بهذا الاتصال.. فسارعوا لتدارك الأمر وتطويقه قبل أن يفلت من أيديهم .. فيضعف موقفهم، وتتمزّق وحدتهم .. لذلك حالوا دون اجتماعنا، ودون خروج «محمد أمين» من صفّهم.

وعصر ذلك اليوم.. زارني «الدكتور محيي الدين المرهج»، وهو صديقي، وصلتي به لم تنقطع ـ منذ انتهاء دراسته في باريس، وعودته إلى سورية، واستقراره فيها.. وكنّا دائماً على وفاق وتلاقٍ، وعمل سياسي مشترك.

كان طيب القلب ـ وربما أكثر مما تتطلبه الطِّيبة.. ولذلك كان ينقصه التركيز والجدية والعمق.. وحتماً كانت نوازع الخير في نفسه.. تتغلّب على النوازع الأخرى وتسمو عليها.

وأبدى «محيي الدين» رغبته بترشيح نفسه.. ولم أكن أعتقد أنّ عنده مثل هذا الإقدام ـ خاصة وأن عمه «الشيخ جابر المرهج» من أقوى ركائز «آل العباس» في «الدريكيش»، وله وجاهة مرموقة في المحيط كله ـ مثلما له تأثيره القوي على ابن أخيه الشاب.. الذي يحمل شهادة «الدكتوراه» بالحقوق من جامعة

«السوربون» بباريس.

ورحّبتُ بصديقي «الدكتور المرهج» وأعربتُ له عن موافقتي على أن نكون في قائمة واحدة. وطلب بعض المال.. لينفقه في المعركة الانتخابية - لأنه لا يوجد معه ما يكفيه. ورغم حاجتي الماسّة للمال - في ذلك الظّرف الانتخابي الرهيب.. فقد استعرتُ من بعض الأصدقاء، وقدّمتُ له ما طلبه. وتعاهدنا.. على أن يلتزم كلٌّ منّا بواجبه نحو الآخر. وسافر للقيام بجولة انتخابية في محيطه. وهكذا أصبحت القوائم ثلاثاً:

منير العباس، علي رسلان، شفيق البيطار.

عزيز الهواش، هاشم الحامد، نقولا جبرائيل بشور.

عبد اللطيف اليونس، محيي الدين المرهج، تامر اسبر بشور.

ووقف «خليل أنيس بشور» مني موقفاً نبيلاً. فقد تبرَّع بمبلغ من المال - مساهمةً منه في نفقات الانتخاب.. وكان من ذوي الأريحية والمروءة، وسخاء قلب ويد. كما أن بعض أنصارنا الكرام قد تلطف وتبرع أيضاً للحملة الانتخابية. والتبرع للحملات الانتخابية.. أمر متعارف عليه في كل أنحاء العالم.

* * *

في تلك الأثناء.. توفي «سعد الله الجابري» - ذو التاريخ الحافل بالنضال والجهاد، في سبيل حرية سورية واستقلالها.. وله أثرٌ ضخم في تاريخها الحديث. وقد أجمعت الألسنة والأقلام.. على أنه كان من أنزه السياسيين، وأشدهم صلابةً في المواقف الوطنية، وأكثرهم اندفاعاً وتضحية. وكان لنبأ وفاته وقع أليم في سائر أنحاء البلاد.

وقررنا أن يذهب وفد يمثّل صافيتا للاشتراك في جنازته. وألّف الوفد من السادة: تامر إسبر بشور، الدكتور ميخائيل بشور، الدكتور زاكي بشور، محمد الأنيس، وأنا.

وركبنا سيارتي الخاصة.. وقبل أن تنطلق بنا دُعيتُ إلى الهاتف، ولما عدتُ وجدتُ أحد الأصدقاء قد جلس مكاني. وكعادتي - ومعذرة - فقد كرهتُ أن أطلب

منه النزول.. ولم يكن من الممكن أن نجلس أربعة في المقعد الخلفي.. وقد جلس اثنان في المقعد الأمامي، قرب السائق. فعدتُ إلى الهاتف وطلبتُ سيارةَ أجرة ركبتُها وأربعة أصدقاء آخرين، وانطلقنا.

وكان تشييع الجنازة مهيباً ــ وفي مقدمة المشيعين: رئيس الجمهوريةِ، ورئيس مجلس الوزراء، والوزراء، وكبار الشخصيات، وجماهير غفيرة ـ لا حصر لها. وقد دفن جثمان «الجابري» إلى جانب ضريح «ابراهيم هنانو».

وبعد أن قمنا بواجب التعزية لأخوته: فاخر، واحسان، وفؤاد، وبقية أفراد الأسرة، عدنا إلى صافيتا بنفس اليوم ـ لنتابع حملتنا الانتخابيةَ.

* * *

رأى الأصدقاء أن أدعو لاجتماع انتخابي، يُعقد في صافيتا، كي يطّلع الناس على مدى الشعبية التي أتمتّع بها ـ بنعمة الله وفضله.. وباخلاص هذا الشعب الوفي النبيل.. وليكون الاجتماع بمثابة دعاية، ومنطلقاً انتخابياً مؤثّراً. وقد حضره جمهور كبير، وألقيتُ فيه بعض القصائد والخطب.. وكلها تدعو إلى مقاومة الإقطاعية والعشائرية، والتحرر منها.

وكان من بين الشخصيات المرموقة التي حضرت ذلك الحشد الكبير.. «رياض عبد الرزاق»، نائب طرطوس.. وقد بدا عليه الابتهاج والارتياح ــ وهو يرى دعوتنا للتحرر والإصلاح قد أينعت، وبدأت تعطي ثمارها.

وبعد الغداء.. ذهب «رياض» لزيارة «محمد الجواد»، وأخيه «مصطفى الجواد»، في قرية «المتراس» ــ وهو موضع تقديرهما واعتبارهما.

و«الجوادان»: «محمد» و«مصطفى»، وآلهما، كانا من سراة القوم، وكرام الناس.. ولم تكن تخلو دارهما من زائرين ومنتجعين. ومائدتهما دائماً حافلة.. وكرمهما وسخاؤهما معروفٌ ومشهورٌ.. وبقيتْ صلتي بهما، طوال عملي السياسي، وثيقةً متينة. وكان لزيارة الصديق «رياض عبد الرزاق» أثر بذلك ولا شك.

ووقفا إلى جانبي حينذاك، وبعد ذاك، موقفاً كريماً ــ رغم تدخل المحافظ،

وإيعازه وتوجيهاته، بأن يكونوا إلى جانب منافسينا.

ولآل «الجواد» تأثير كبير على مئات الناخبين في قرى «التركمان» ـ وقد هاجر آباؤهم من تركيا إلى سورية.. حيث كانت نفتهم السلطات العثمانية، لأسباب سياسية، وهم من أصل عربي.

وقد بلغ من تحيّز المحافظ «عادل العظمة» الفاضح.. أنه عمد إلى نقل أخي «محمود»، وهو مدير ناحية المشتى، إلى ناحية «البسيط» ـ وهي أقصى ناحية في المحافظة، تقع بالقرب من «كسب».

* * *

وحمي وطيس المعركة، واشتدّت ضراوتها. وقبل ظهر اليوم الأول من الانتخاب أعلن «عزيز الهواش» انسحابه ـ إثر مشادّة بينه وبين مدير ناحية «الصفصافة».. متّهماً «عادل العظمة» بتدبير عمليات التزوير. وعلى أثر انسحابه.. سحب «نقولا جبرائيل بشور» ترشيحه أيضاً. وبقي «هاشم الحامد» مستمراً ـ والأصحّ.. حملوه على الاستمرار.. كي يفوّت عليّ فرص النجاح.

ثم حملوا الفئات التي تأتمر بأمرهم، وتسير وفق أهوائهم ومخططاتهم، على وضع اسم «علي رسلان» مكان «عزيز الهواش» ـ حتى لا يُترَك لأعوانهم أي مجال لوضع اسمي! ولكن أعوان «الهواش» في بلدة «الصفصافة» كانوا نبلاء.. فقد انتخبني الذين لم يكونوا قد انتخبوا بعد ـ وذلك بتوجيه من الأريحيين الكريمين «علي المحفوض»، و«محمد ابراهيم» - بارك الله بهما.

وقد كان لآل رستم «الكرام» ـ أولاد «مصطفى رستم» وأحفاده، وأبناء عمّهم مواقف مشرّفة.. فقد رفضوا الاصغاء لبعض أنسبائي وإلحاحهم الشديد كي يضعوا اسم «علي رسلان» بدلاً من اسمي. وقد أُصبحوا فيما بعد، من خيرة الفئات التي أعتمد على عاطفتها وإخلاصها ومودتها.

* * *

في الساعات الأولى، يوم الانتخاب، جاءني هاتف من «الدريكيش».. أن «الدكتور محيي الدين المرهج» يطلب سيارة لينتقل فيها بين مراكز الاقتراع.

فأرسلتُ له فوراً سيارتي الخاصة «كريزلر» ـ لأن باقي سيارات الأجرة.. كانت موزعة جميعها مع الوكلاء.. المشرفين على صناديق الاقتراع.

وحوالي الظهر.. كنتُ في مركز اقتراع «كفريخا» ـ حيث أن أكثر سكان تلك القرى تؤيّدني وتعضدني.. وبينما كنتُ أقف مع الرسولين اللذين أرسلهما المجاهد الكبير «الشيخ صالح العلي» لدعوة الناخبين لانتخابي.. جاءني رسول من «الدريكيش» يخبرني بأن الناخبين في «حاموش رسلان»، وأكثرهم من مؤيدي «علي رسلان»، قد اعتدوا على سيارتي وحطموها ـ بينما كان السائق بانتظار «الدكتور مرهج» ليمتطيها.

واستشطت غيظاً وغضباً.. وركبتُ سيارة «باص» كبيرة تتسع لأكثر من ٤٠ شخصاً.. وقد امتلأت بمؤيديّ وأنصاري الذين كانوا أكثر غضباً وغيظاً مني.. وانطلقنا إلى الدريكيش ـ ونحن في حالة من الهياج والانفعال لا حدّ لها.

ولمّا وصلنا «الدريكيش» ـ المشهورة بمياهها الناجعة العذبة.. وجدنا جمعاً كبيراً من أبنائها الأشاوس ومن بعض القرى المجاورة بانتظارنا.. وكانوا أكثر منا هياجاً وغضباً وحماساً. وبينما نحن على وشك الانطلاق إلى «حاموش رسلان».. فوجئنا بمدير الناحية «محمد سليمان العلي» يقف على الطريق العام، ومعه رئيس المخفر وبعض الدرك، وطلب مني الدخول إلى مكتبه لأمر خاص وهام. ولبيتُ رغبته.. وهناك أفهمني، بلباقة ورقة، أن الوضع لا يسمح بمتابعة سفرنا ـ لأن المنطقة هناك.. هي مركز أخصامنا الرئيسي، وأنصارنا فيها قلة مبعثرة في قرى عديدة.. وأخبرني بأن المحافظ اتصل به، وطلب منه اقناعي بعدم الذهاب ـ حفظاً على الأمن، ومنعاً لحصول اشتباكات لا تُعرف نتائجها.. وحتماً ستكون العاقبة وخيمة. وهدأ من روعي، وسكّن من غضبي.. وكان لطيفاً.

واختلى بي عدد من وجهاء «آل شمسين» الكرام، وهم من أطيب الناس وأخلصهم، وأبانوا لي خطورة الموقف وحراجته.. وطلبوا مني عدم الذهاب ـ تفادياً لحصول مجزرة رهيبة لا تُعرف نتائجها.

* * *

ولـ «آل شمسين» مكانة مرموقة في نفسي، ومودّة وتقدير عميقان. فقد وقفوا إلى جانبي ـ منذ بدأت انطلاقتي. وكانوا كعادتهم نبلاء، ومخلصين أوفياء. وأنا مدين لأبناء تلك الأسرة الكريمة بالكثير الكثير ـ ولا أستثني أحداً منهم. كما أن لتلك الأسرة العريقة فضلاً على المحيط كله ـ منذ عشرات بل مئات السنين.. إذ لا يوجد «وقفٌ» في محافظة طرطوس ـ لأيّ عمل خيريّ.. إلا ولهم يد طولى فيه، وأثر بارزٌ ما يزال بعضه يحمل اسمهم إلى الآن.

وحتى مدينة طرابلس، نفسها، فقد شملها عطاؤهم وسخاؤهم ـ إذ أنهم وقفوا قرية «أرزونة»، بمنطقة صافيتا، ومساحتها تزيد على ٦٠٠ هكتار، وقفوها لـ «الجامع الكبير» في طرابلس.

وحينما نشب خلاف.. بين أهالي القرية و«المجلس الإسلامي الأعلى» في لبنان ـ الذي يتولى الإشراف على الأملاك الموقوفة للمساجد، والأعمال الخيرية الأخرى، زارني في صافيتا «الشيخ شفيق يموت» «رئيس المجلس الإسلامي الأعلى»، ومقرّه بيروت، ومعه «محمد علي عكاري»، مدير أوقاف طرابلس، وهو صديقي، وقد مرّ بنا ذكره .. ومعهما عدد من الشيوخ المشرفين على الأوقاف الإسلامية، بقصد التوسّط بينهم وبين المزارعين، وإنهاء الخلافات التي كانت مستشرية ـ وهو ما عملتُ له بجدّ وإخلاص.

وقد أطلعني «الشيخ يموت» على السَّنَد الأساسي لوقف القرية للمسجد الكبير ـ وهو موقَّع من المالكين، «آل شمسين». رحم الله الماضين منهم، وحفظ الباقين.

* * *

وعدتُ ورفاقي إلى صافيتا، وكانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد الظهر. وقد انتشر بسرعة نبأ الاعتداء على سيارتي.. فضاعف من حماس أنصاري، وزاد من هياجهم واندفاعهم. وكان أثر ذلك الاعتداء بالنسبة لنا، إيجابياً.. لا سلبياً.

واعتُقِل بضعة أشخاص من مرتكبي ذلك الحادث الإجرامي ـ ثم أطلق سراحهم بعد بضعة أيام بكفالة. وحُكموا بعد ذلك بالسجن، وبمبلغ أربعة آلاف ليرة سورية قيمة الضرر الذي حلَّ بالسيارة. وجاءني ذوو المحكومين ـ الذين أقدموا على تلك

الفعلة الشنعاء.. واعتذروا، وطلبوا مني السماح. وكعادتي بالتسامح والتّساهل ـ فقد سامحتهم بالمبلغ كله.. مما كان له أثر في نفوسهم، ونفوس الناس.

وبعد عودتي من «الدريكيش» إلى صافيتا.. تلقيتُ هاتفاً من بعض أنصاري، في «المشتى» يطلبون ذهابي إليها. فتابعتُ سفري دون توقف. ولما وصلتها قيل لي: إن رئيس مركز الاقتراع يقدّم القرى المؤيّدة لمنافسينا ـ حسب التوجيهات المعطاة من المحافظ ـ ويؤخّر القرى المؤيدة لنا!

وكان وكيلنا هناك «الشيخ ابراهيم حسين خدّام»، من قرية «كفرون حيدر»، وكنت أعتمد عليه، وعلى نجله الأديب المناضل، والمربي المعروف، «محمود خدام»، وعلى أشقائه، وأنسبائه جميعاً. وقد أطلعوني على التحيّز الواضح بتسيير عمليات الاقتراع.

وكدتُ اصطدمُ مع «منير العباس»، داخل غرفة الاقتراع، فأمسك بيدي أخوه «شوكة»، بكل رقّة ولطف، وانتحى بي جانباً خارج القاعة، وقال لي ـ وهو يهدّىء ثائرتي:

لا أريد أن أجرح إحساسك.. ولكني أقول لك بصراحة: إنه ما تزال بينك وبين «منير» مسافة ـ بالنسبة للأنصار والمؤيّدين، وبروز الشخصية.. وأن اصطدامك، وإيّاه، يعود عليك بمتاعب.. أكثر مما يعود عليه. فاهدأ، وأنا أعمل لك ما تريد.. ولا تعمل لنفسك ولنا مشكلة.

وهكذا كان «شوكة العباس» دائماً: واعياً ورصيناً. وفعلاً أثّرت بي كلماته، وهدأت من روعي.

ولكن خبر المشادّة الكلاميّة ـ التي حصلت بيني وبين «منير العباس» في مركز الاقتراع قد طار بسرعة البرق إلى قريتي «بسدقين» و«البارقية»، التابعتين للمشتى ـ وأهلهما في طليعة المؤيّدين لنا.. وكلهم من ذوي الغيرة والأريحية والشهامة. وما هي إلا ساعة، وبعض الساعة، والشمس على وشك المغيب.. وإذا بجمهور من أبنائهما الأشاوس، ومعهم بعض اللبوءات من نسائهم، يندفعون جميعاً نحو «المشتى».. وهم يحملون العصي، وبنادق الصيد، والفؤوس ومناجل

الحطب! فأسرعتُ لملاقاتهم، وأكّدتُ لهم أن شيئاً ما.. لم يحدث على الإطلاق. وبقيتُ ألاطفهم، وأهدّيء من روعهم حتى استكانوا. وأراد بعضهم أن يحطم سيارة «منير» ـ وقد بلغهم الاعتداء على سيارتي، وهم منفعلون وثائرون، فأسكنتُ روعهم، وشكرتُ عاطفتهم وغيرتهم وحماستهم. وسألت عن سبب حملهم الفؤوس والمناجل.. فقالت احدى اللبؤات:

كل ضربةٍ.. بـ «قرعة»! ـ أي كل ضربة تقطع رأساً!

وقد رفضوا جميعاً أن يعودوا إلى منازلهم.. إلاّ بعد أن رافقوا سيارتي إلى خارج «المشتى»، ولمسافة بعيدة.

وهكذا.. فلتكن الشهامة والغيرة والمروءة ـ وإلاّ فلا.

وهذا الاندفاع المثالي المشرّف.. كنت أجده من جميع الناس المؤيدين لنا.

جزى الله تلك الفئات المخلصة الغيورة التي كانت تؤيدني، والتي كانت تحسن الظن بي ـ جزاها خيراً على حسن ظنها وثقتها وتأييدها. وقد بقيتُ طوال حياتي مقدّراً صنع الناس الطيبين الذين وقفوا إلى جانبي، مندفعاً في خدمتهم بقدر ما أستطيع ـ وأحياناً كثيرةً.. فوق ما كنتُ استطيع.

* * *

ومن أخلص المخلصين.. كانوا أتباع وأقرباء وأنسباء «الشيخ صالح العلي»، وأنصاره، وبقايا سيوفه.. فقد وقفوا جميعاً إلى جانبي منذ انطلقتُ في العمل العام ـ وذلك بتوجيه من «الشيخ الجليل» الذي عرف إخلاصي له، ومودّتي وتقديري. فكان أنسباؤه أوفياء لي ـ بقدر وفائي له ولهم، واندفاعي الصادق نحوه ونحوهم.

وتشهد الوقائع والأحداث.. بأن أنسباءه هم من أطيب الناس، وأصدقهم، وأبعدهم عن الشر والأذى.

ولقد أمضيت سنوات طويلة.. ومشاكل الناس تُعرض عليّ يومياً بالعشرات والعشرات.. وما أذكر أبداً.. أن أحداً جاء يشكو من اعتداء أحدهم على أرضه، أو أنه أكل حقه.

هم ناس أتقيـاء.. عندهـم صفـاء نوايا، وصفـاء قلـوب.. لا يـؤذون أحـداً، ولا يرضون أن يؤذيهم أحد. لا يتدخلون بشؤون غيرهم، ولا يريـدون أن يتدخـل أحـد بشؤونهم. يندفعون نحـو كل عمـل خيـر ـ وبكـل ايمـان ورغبـة. يحـافظون علـى شعائرهم وشعاراتهم، ويتقيدون بها. لا يحبون المجاملة ـ إلا بقدر ما يوجبـه أدب الحديث ويقتضيه.. لا يعرفون الخداع والمكر ـ ولو عرفوهما.. لما اتبعوهما.

ولْيَعذرني القارىء.. إذا وقفتُ طويـلاً عنـد ذكـر أقربـاء «الشـيخ الصـالح» أو أطريتهم، فإن الواجب، وصدق القول، يفرض عليّ ما قلته، وأقوله.

والشيء الذي يبعث على الاعتزاز والتقدير.. أن الأبنـاء يسـيرون علـى غـرار الآباء.. وينهجون منهجهم، ويقتفون أثرهم.

وأحمد الله، وأشكره، أني ما قصرتُ يوماً عن خدمـة أيٍّ منهـم، ولا تقاعسـتُ عن أداء واجب نحوهـم.. بـل كنـتُ أهتـمُّ بـأمورهم، وأُعنَى بقضايـاهم.. وأندفـع لقضـاء مصـالحهم وحوائجهـم ـ بقدر طاقـاتي وإمكانـاتي.. وبكـل مـا أسـتطيع. والأحياء منهم يعرفون هذا.. ويعترفون به.

ومشـائخهم.. «آل رمضـان» الكرام: «الشيخ ابراهيم»، و«الشـيخ يونـس»، و«الشيخ أحمد»، و«الشيخ عبد اللطيف»، وأبناؤهم الأفـاضل، تغمـد اللـه برحمتـه من مضى منهم، ومدّ في عمـر مـن بقـي.. وأبنـاء عمهـم «الشيخ صـالح علـي»، الصومعة، وإخوانه، وبقية أنسبائهم الكـرام.. هـم جميعـاً بنفـس الخُلـق، والاتجـاه الكريم القويم. وكذلك كافة مشائخهم في محافظـة طرطـوس كلهـا، وفـي أي مكـان يوجدون فيه.

وليثـق القـارىء.. بـأني لا أقـول عنهـم، ولا عـن سـواهم، إلاّ حسـب قنـاعتي، وحسب ما يفرضه عليّ شرف القول ـ إذ لم تعد لـي أيـة علاقـة بالسياسـة.. وقـد أدّيتُ دوري فيها، ثم تخلّيتُ نهائياً عنهـا.. ولـم تبـق لـي أيّـة صلـة بهـا ـ لا مـن قريب ولا من بعيد.. إلا مـا يفرضـه علـي الواجـب القومـي ـ بصفتـي مواطنـاً.. وليس بأية صفة أخرى.

* * *

ومعذرة من أصدقائي الكثيرين، في عشرات وعشرات القرى.. التي كنتُ موضع ثقة أهلها وتأييدهم، واندفاعهم الصادق المخلص. وإني أقدّر لهم جميعاً صنعهم الجميل معي، ومواقفهم الكريمة مني.

وأنا لا أذكر قريةً، أو جماعةً، أو أحداً.. إلا إذا كان السِّياق يقتضي ذكر وقائع معينة، واستعراضها، والوقوف عندها.

ويعرف جميع الذين ناصروني وأيّدوني.. أني أُضمر لهم جميعاً كل ودٍّ وتقدير، وأحفظ لهم في نفسي أجمل الذكريات وأغلاها وأحلاها.

ولو أردت أن أستعرض أسماء كثير من القرى، وآتي على مواقف أبنائها ونضالهم المخلص معي.. لاقتضى ذلك مجلدات كثيرة.

فمعذرةً منهم جميعاً، وتحية، وشكراً لهم، جميعاً.

* * *

وبينما أنا في «المشتى».. دُعيت إلى دائرة الهاتف لتلقي مخابرة من صافيتا. وذهبتُ ـ وإذا بهم يخبرونني بأن «الدكتور محيي الدين المرهج» قد سحب ترشيحه! فراعني النبأ فعلاً.. وكدتُ أن لا أصدقه ـ لأني أعرفُ شجاعته، وجرأته بالانطلاق والتحرر.. ولكن دالّة من له دالّة عليه.. جعلته يرضخ ويستسلم!

فقلت لمن كان يتحدث معي، وينقل إليَّ النبأ.. أن يخفي هذا النبأ ويكتمه.. حتى لا يحصل تشويش في صفوفنا.. مع أن تأثير «محيي الدين» الانتخابي، حينذاك، يمكن أن يكون في محيطه هو... وأما خارج محيطه.. فإن تأثيره لا أثر له في وجه «آل العباس» مطلقاً.

وأوعزت إلى أنصارنا أن يظلوا يتابعون وضع اسمه في التصويت كالمعتاد. ولكن النبأ .. كان قد انتشر ـ لأن المناوئين لنا أعلنوه وأذاعوه.. فأحدث الأثر السَّيء الذي كنتُ أحذره وأخشاه.

وبما أنَّ عدد الناخبين لم يصل في اليوم الأول إلى ٥١ بالمائة.. لذلك أُجل الانتخاب إلى اليوم الثاني ـ كما ينص قانون الانتخاب.

أما في دمشق.. فقد أعلنت النتيجة من اليوم الأول... وفشل «نبيه العظمة»

وأعضاء لائحته جميعاً. ولم يحصل «نبيه» نفسه.. إلاّ على عدد ضئيل من الأصوات لم يتجاوز الألفين ـ إلا قليلاً. وفاز بعض المستقلين، وبعض المرشحين الذين كان يدعمهم رئيس الجمهورية «شكري القوتلي».

وبفشل «نبيه العظمة» في الانتخابات.. خاب أمل أخيه «عادل» وتبخّر حلمه، وتبعثرت أمانيه.. إذ كان أمله أن ينجح أخوه وقائمته ويكون مرشحاً لرئاسة الجمهورية.. ولهذا دعم ناساً معينين في محافظة اللاذقية ليقفوا إلى جانب أخيه وينتخبوه!

وصباح اليوم الثاني.. اتصل بي «عادل العظمة» ـ بعد أن خابت مناه «بنجاح أخيه».. اتّصل بي، وأبدى أسفه لحادث السيارة، وقال:

«شدّ حيلك» ولا تخف.. فقد أخبرني القائمقام أن الناس تلهج بذكرك في كل مراكز الاقتراع. وأنت تستحق ذلك ـ نظراً لجهادك وتضحياتك ومواقفك وو.. الخ!

فشكرته، وتساءلتُ بيني وبين نفسي: ماذا يريد مني الآن؟ هل هي «عقدة الذنب» استيقظت فيه؟ أم أنه يئس من تبنّي ناس، ومقاومة ناس ـ بعد فشل أخيه في انتخابات دمشق؟ أم أنه يريد التظاهر بأنه ساعد الوطنيين المتحررين في محافظة اللاذقية، وساندهم؟

كل هذه الأمور.. موضع تأمل وتقدير!

وقد تأكد لي، فيما بعد، أنه كان يحفظ لنفسه خطّ الرَّجعة ـ وهذا هو الأرجح.

وقد طلب مني أن أذهب لزيارته، بعد الانتخابات.. ولكني لم أفعل. وقد ذهبت إلى منطقة «الأرز» في لبنان لقضاء بضعة أيام للراحة.

* * *

وبنتيجة الاقتراع .. حصلتُ على ٤٤٢٧ صوتاً ـ رغم مؤامرة المحافظ ومناوراته. وحصل «تامر بشور» ـ الذي استمر حتى اللحظة الأخيرة.. على ٣٢٢٠ صوتاً. وفازت لائحة «منير العباس»، كلها.

لقد خسرتُ تلك الجولة ـ لأني خضتُ المعركة الانتخابية وحيداً.. وليس معي حليف من المسلمين العلويين، له شعبيته، وذو تأثير فعال. وتلك كانت خطة

«عادل العظمة» التي ترمي إلى انجاح اللائحة المنافسة للأسباب التي مرَّ ذكرها. وكان موقفه في بعض مناطق المحافظة.. يشبه موقفه في صافيتا ـ وربما أكثر قسوةً وعنفاً! وقد نقلته السلطات بعدئذٍ من اللاذقية، وأعادته إلى دمشق ليُعيَّن مديراً في وزارة الداخلية. ولم ألتقِ به بعد ذلك إلا في مناسبات عامة. أما أخوه الأكبر «نبيه» فقد انتُخِب رئيساً «للحزب الوطني»، ثم استقال بعد سنة ونيِّف في بيان مقتضب جداً ـ وظلَّت صلتي به وثيقة طيلة حياته.

* * *

لقد خسرتُ تلك الجولة الانتخابية.. ولكنها بما أسفرت عنه من نتيجة.. كانت نواة لنجاحي في المعارك الانتخابية الثلاث ـ التي خضتُها، فيما بعد، ونجحتُ فيها كلها.. ونجح رفاقي معي باللائحة التي كنتُ أشكِّلها ـ كما سيجيء.

وبعد ظهور نتيجة الانتخاب.. زارني عدد كبير، من وجهاء المنطقة والمحافظة، لتهنئتي بالحصول على هذا العدد الكبير من الأصوات ـ رغم المقاومة الشرسة، والمناورات والمؤامرات التي جوبهتُ بها. وكانت تلك النتيجة مفاجأةً للجميع ـ وحتى لـ «عادل العظمة» نفسه.. الذي أبدى استغرابه لحصولي بمفردي على ذلك الرقم الذي لم يكن يُتوقعه ـ رغم كل العراقيل والمعوّقات والمثبطات التي وضعها في طريقي. ورغم المبالغ التي بُذلت من الجانب الآخر، حسب الطُّرُق المعروفة!

وزارني «عزيز الهواش» مهنّئاً إياي بحصولي على ذلك العدد الكبير من الأصوات وحدي.. وأعرب عن أسفه العميق لأنه لم يتفق معي، وقال:

لو كنا معاً.. كنا نجحنا ـ رغم أنف «عادل العظمة».

وقد نجح سنتئذٍ نجله «جهاد» في مصياف، كما نجح «رياض عبد الرزاق» و«أنيس اسماعيل» في طرطوس. ونجح بعض المتحررين من سلطة الرجعية والإقطاع.

وبعد يومين من ظهور نتيجة الانتخاب زارني «الدكتور محيي الدين المرهج» معتذراً عن موقفه.. ولاضطراره للانسحاب تحت ضغط أقربائه وأنسبائه.. وأعلن

أسفه.. لما حصل من اعتداء على سيارتي بسببه. وكان اعتذاره صادقاً، وأسفه جاداً ومخلصاً. وأعاد لي المبلغ الذي أخذه مني.

ولكن الأنسباء والأصدقاء الذين كان يغص بهم المنزل قد استشاطوا غيظاً وغضباً حينما رأوه.. واحتدّ أحدهم، وثارت ثائرته.. فانتحيتُ به جانباً في غرفة مجاورة، وجعلتُ ألاطفه، وأرجوه أن يستكين، وينسى موقف «محيي الدين» - لأنه مهما تصرّف معي.. فسيظل أخاً وصديقاً. ومن أعماق قلبي سامحته على موقفه ذاك.. وسنبقى متعاونين ضد الرجعية والإقطاعية ـ كما كنا.. وسنبقى في كفاحنا ونضالنا ضدهما. وهذا ما كان.

* * *

بعد الانتخابات.. كثرت مراجعات المواطنين والزائرين وازداد حجمها.. حتى صارت تأخذ عليَّ كل وقتي.. ولا تترك لي فرصةً للراحة أو المطالعة. وكان البيت يزدحم بالناس، وباستمرار، طوال ساعات النهار، وبعض ساعات الليل. والمراجعون والزائرون أكثرهم ذوو مصالح ومطالب، ومشاكل لابد من حلها قبل أن تستشري وتستفحل ـ كما مرّ بنا وأسلفنا.

وكان من عادة سكان الريف .. أن يراجعوا مرجعهم بكل صغيرة وكبيرة ـ من مشادّة كلامية.. إلى شجار ينجم عنه حدث رهيب! وحتى إذا اختلف الزوجان في الليل.. يكونان صباحاً عندنا في «المنزول».

وحينما أغيب.. يكون أخي «محمود مكاني. وعندما تشغله وظيفته.. يحلّ محله بعض الأنسباء والوجهاء الذين كان يغصّ بهم البيت يومياً.

* * *

سنة ١٩٤٧ ألّفتُ تاريخ ثورة «الشيخ صالح العلي». وكنتُ أخذت المعلومات من «الشيخ» عن مجرياتها، ومختلف مراحلها. كما زرتُ كثيرين من المجاهدين، وحصلتُ منهم على معلومات نسّقتُ بينها، وبدأتُ التأليف.

ولمّا كانت ساعات النهار كلها، مع بعض ساعات الليل مكتظّةً بالزائرين والمراجعين ـ كما سبق وأسلفت.. فلم أكن أتفرغ للكتابة إلاّ بعد الساعة الثامنة،

وأحياناً العاشرة، مساءً.. وأستمر حتى الساعة الثالثة صباحاً. وصدف أن حصل إحصاء عامّ خلال ذلك الأسبوع.. اضْطُرَّ الأهلين إلى أن يبقوا في بيوتهم لا يغادرونها.

وفي ذلك اليوم زارني صديقي «محمد علي عكاري» قادماً من طرابلس، فاغتنمتُ مناسبة وجوده طوال ذلك اليوم، وأمليتُ عليه - وأنا أتمشى أمامه ٤٦ صفحة أتممتُ بها الكتاب. ولاشك أن الإملاء أسرع من الكتابة. لأنّ الكاتب مضطر إلى أن ينقّل بصره، ويشرد هنا وهناك.. وأما من يُملِي، وخاصة إذا كان معتاداً على «الارتجال»، فإنه لا شيء يعوقه، أو يؤثّر في تسلسل أفكاره.

ومن البداهة.. أن رؤوس الأقلام عن الثورة هي معي.. وأنا أستند إليها فيما أكتب أو أملي. فهي الأساس، وهي المرجع. ولم يبق إلا أن تسبكها في قالب التأليف.

ولم تستغرق كتابة ذلك التاريخ إلا أسبوعاً واحداً فقط، وهو مؤلف من ٢٢٣ صفحة من الحجم الكبير. وقد طُبع الكتاب في مطبعة «الفداء» بحماة، وتمّ طبعه وتوزيعه قبل الانتخابات، ثم أعادت طبعه وزارة الثقافة والإرشاد القومي، في مطابعها بدمشق. وجاءت الطبعة الأخيرة سليمةً من الأخطاء المطبعية - لأني أشرفتُ على تصحيحها بنفسي. وقد سميتُ الكتاب في الطبعة الثانية «ثورة الشيخ صالح العلي»، وكانت الطبعة الأولى تحمل عنوان «الثورة العلوية - وقائدها المجاهد الكبير الشيخ صالح العلي».

ولقد غيّرتُ العنوان في الطبعة الثانية.. وسميتُ الكتاب باسم «الشيخ» قائد الثورة ورائدها، وقلتُ في المقدمة: لا أريد أن تحتلّ الطائفية واجهة التاريخ.

وهذا الكتاب هو أول مؤلفاتي المطبوعة ــ وذلك بعد كتابي «الجبل المريض»، وقد سدّ فراغاً كبيراً، واستطعت به أن أخلّد الثورة - وأنا أكتب تاريخها بدقة وشمول.

وكل ما كُتِب عن تلك الثورة، أو كُتب حولها، إنما يستند إلى التاريخ الذي وضعتُه لها - إذ لم يكن ثمّة مرجع آخر على الإطلاق. ولو لم يُكْتَب في حياة

«الشيخ»، وقد استقيتُ المعلومات منه، لكانت ضاعت.. أو دخل عليها تشويه وتشويش لا حدّ لهما.

وحتى في زمن «الشيخ».. كان بعض الروايات عن بعض الأحداث متناقضاً.. فكيف لو أُهمِل تسجيلها في ذلك الحين؟

وبلغ من حرص «الشيخ صالح» على دقّة المعلومات.. أنه جمع عدداً من المجاهدين الذين كانوا تحت لوائه.. وصاروا جميعاً يتذكّرون الوقائع والمواقع وأنا أسجل. وقبل طبع الكتاب أخذتُه لـ «الشيخ» وأطلعتُه عليه، فوافق عليه، وأذن بطبعه.

وأحدهم.. نشر روايةً حول أحداث الثورة.. وقدّم لي نسخةً من الكتاب. وفي عبارة الإهداء.. يعترف بأنه استقى المعلومات الواردة في مؤلّفه من التاريخ الذي وضعتُه للثورة. أجل.. ذكر هذا الاعتراف في النسخة التي أهدانيها.. ولم يذكره في صلب الكتاب ـ حتى ولم ينوّه بالمصدر، أو يشر إليه.. مما دفع أخي «محمود» لأن يفكر بإقامة دعوى عليه.. لأنه استقى معلومات روايته من كتابي عن الثورة، دون أن يشير الى المصدر.. وهذا يعاقِب عليه القانون، ويعتبره «سرقة»! ولكني رجوتُ أخي أن لا يفعل، وقلتُ له : نحمد الله أن بعضهم يسرقنا.. ونحن لا نسرق
أحداً. فوافق! وعدل.

* * *

ووصلتْ أنباء حركتنا الإصلاحية، ونهضتنا التحررية إلى المهجر. وجاءتني رسائل تأييد من عدد من المغتربين - وفيها حضٌ لي على القيام بزيارة لبعض البلدان الأمريكية. وكان ابنا عمي «غانم» و«عبد اللطيف الياسين» داعيين لتلك الزيارة ومتحمسين لها ـ الأمر الذي شجعني على القيام بها.. وقضاء فترة استجمام بين أنسباء ومواطنين كرام.

وذهبت إلى دمشق لزيارة «الرئيس القوتلي»، رئيس الجمهورية، وعرضتُ عليه موضوع سفري إلى المهجر. وقد استقبلني، كعادته، بكل بشاشة وترحاب.

وكان قد أعيد انتخابه مرة ثانية رئيساً للجمهورية. وقال لي إنه أطّلع على نتائج الانتخاب الذي جرى في صافيتا.. وأنه يتنبأ لي بمستقبل مشرق.. نتيجة إخلاصي لوطني، وكفاحي الطويل ـ حسب تعبيره النبيل. فشكرتُ تلطّفه بتلك الكلمات.. وعرضتُ عليه فكرة سفري إلى المهجر. واتّصالي بالمغتربين في البرازيل والأرجنتين، وغيرهما. فرحّب بالفكرة، وحبّذها، وتلطف وقال:

أريد أن أضفي على رحلتك هذه صفة رسمية، وأحمّلك تبعة الدعاية للقضية الفلسطينية خلالها، وإلقاء محاضرات بشأنها. واستدعى أمين عام القصر الجمهوري «فؤاد محاسن»، وقال له أن يكتب رسالة إلى وزير سورية المفوض في البرازيل ـ وكان حينذاك مظهر البكري ـ يعلمه بأني موفد من رئيس الجمهورية، لأجل الدعاية للقضية الفلسطينية، بين أوساط المغتربين.

وكان في تلك الرسالة.. تأكيد للوزير المفوض، وأركان البعثات السورية، من أجل مساعدتي في مهمتي، وبذل الجهود لتسهيلها. كما أن فيها عبارات كريمة عن مواقفي الوطنية، وماضيّ الحافل بالنضال. ولا شك أنه قد كان لهذا الكتاب أثر كبير بنجاح تلك الرحلة.

وكان لذلك الموقف النبيل، من «شكري القوتلي»، أثر عميق في نفسي، وأنا من الذين لا يضيع معهم معروف ـ بفضل الله ونعمته. وقد أصدرتُ سنة ١٩٥٩ كتاباً عنه، وعن نضاله وكفاحه، وإيمانه بالوحدة العربية.. وأنه استقال سنة ١٩٥٨ من رئاسة الجمهورية في سبيل وحدة البلدين: سورية ومصر. وعنوان الكتاب: «حياة رجل في تاريخ الأمة» ـ وسيأتي الحديث عنه فيما بعد.

كما زرت بعض المسؤولين الذين كان لي رصيد من التقدير عندهم، ولهم أياد بيضاء عندي، ومنهم وزير الخارجية «الدكتور محسن البرازي».. الذي أعرب عن أسفه العميق لما حصل لي في الانتخابات، وأكّد لي أنّ رئيس الجمهورية نفسه قد تأثّر من تصرّف المحافظ «عادل العظمة».

وحصلتُ لأخي «محمود» على اجازة استيداع مدّة غيابي ـ لكي يبقى بين المراجعين يفضّ مشاكلهم، ويُعنى بقضاياهم.. وكان قد تمرّس بذلك خلال وظيفته.

* * *

قبل سفري إلى أمريكا.. أصدرتُ بياناً أودّع فيه أصدقائي إلى حين.. وأطلبُ منهم متابعة الطريق التحررية - من الإقطاعية والرجعية.. وعدم التهاون بذلك، أو التغاضي عنه. وقد نشرتُ ذلك البيان في كتابي «بين عالمين».. وأُعيد نشره هنا - لأنه يعطي فكرةً عن تلك الفترة التي غادرت فيها الوطن.. متجّهاً إلى المغتربات. وهذه خلاصة ذلك البيان:

- أيُّها الأخوة الأعزاء:

إنّ ظروفاً قاهرة - لا قِبَل لي بردِّها، ولا قدرةَ على صدّها.. تضطرّني للقيام برحلةٍ إلى أمريكا الجنوبية.. وترغمني على مفارقتكم أشهراً ليست طويلةً.. ولكنها مع ذلك ستكون قاسية على نفسي، شديدة الوطأة عليها - مثل قسوتها على أنفسكم، وشدّة وطأتها عليكم.. كما أعتقد وأحسب.

ولكن إخواننا هناك، في المهاجر الأمريكية، في تلك البلاد السحيقة النائية.. هم أيضاً بحاجة إلى من ينقل إليهم رسالةَ التحرُّر — وبعضهم كان أول من آمن بها، ودافع عنها، وهاجر بسببها، وكان من ضحاياها، وإنّ من الوفاء لهم، ولمبادئهم، أن ننقل إليهم أخبارها، ونطلعهم على آثارها.. وقد كانوا من أقوى بُناتها، وأخلص دعاتها.

كما أنّ من الوفاء لهم ولجهادهم أن نتفقّد شؤونهم، وندرس أحوالهم.. ثمّ نتوفَّر على خدمة مصالحهم في الوطن الأمّ.. ونقف جهودنا لخدمة من رفعوا اسم بلادهم عالياً - فوق كل أرض وطؤها، وتحت كل سماء استظلّوها.

ثم.. إنّي بحاجة إلى قسط من الراحة والاستجمام - بعد نضالنا التحرري العنيف الذي لم يشهد هذا الجيل مثيلاً له منذ قرون عديدة. وما أحسب أنكم تبخلون عليَّ بهذا الوقت القصير.. أستعيد فيه صحّتي، وأجدّد نشاطي.. ثم أتوفّر في غضونه على تأدية رسالتكم الجديدة، في العالم الجديد، بين صفوف إخواننا المغتربين، وأنسبائنا النازحين.

أمس - أيها الإخوة - جلستُ على شاطئ البحر، في غمرة من ضوء القمر.. وفي حرم شجرة وارفة الظِّلال.. تُسبِل غلائلها الخُضر على مقعد خشبي... في

ذلك الجو الهادىء والمنعش الممتع، نبشتُ دفائن الذكريات.. وبدأتُ على ضوئها أحاسب نفسي ـ وأنا أترك مصيراً معلوماً، وأُسلِمها لمصير مجهول. وكنتُ، شهد الله، دقيقاً في البحث، متشدّداً في الحساب.

وما أكتمكم، أيّها الإخوة الأعزاء، أني خرجتُ من تلك المحاسبة الطويلة.. مطمئنّ الفكر مرتاح الضمير.. فقد خُيّل إليّ ـ وأرجو أن يكون تَخَيُّلي صحيحاً.. أني قد قمتُ بواجبي بقدر ما استطعت وأستطيع، وتمكنتُ وأتمكن. كما خُيِّل إليّ.. أنه ليس بميسور أحد أن يفعل أفضل مما فعلت، ويعمل أحسن مما عملت ـ في ظرف كهذا الظرف، وبيئة كهذه البيئة.

وخُيِّل إليّ.. أني قد حققتُ فكرة التحرر من الجهل والتعصب والإقطاع.. وثبَّتُّ أسسها، وقوَّيتُ دعائمها، ونشرتُ تعالمها في كل ناحية من نواحي الجبل الأشمّ.. وأعطيتُ البرهان الأكيد على أن التعصب العشائريّ يمكن زواله، والإنحراف الطائفيّ يمكن مَحْوُه.

ثم خُيِّل إليّ.. أني استطعت أن أذهب بتحقيق هذه الفكرة على نطاق واسع، وإلى مدىً بعيد.. وأني أول مرشَّح، في هذا الجبل، كان له مؤيّدون من جميع العشائر، ومناصرون من جميع الطوائف ـ رغم تباين اتجاهاتها، واختلاف ميولها ـ ولا أستثني واحدة منها. وأني المرشَّح الوحيد الذي لم يشترِ «صوتاً»، ولم يستعمل «سوطاً». ومع ذلك.. فقد اندفع الناس، بعقائدهم ومبادئهم، إلى حيث تقودهم العقيدة، ويدفعهم المبدأ. وجاءت نتائج الانتخابات ـ كما شهدها الناس.. برهاناً أكيداً على قوة الفكرة التي ندعو لها.. وعلى تمسك الناس بها، والتفافهم حولها، وإيمانهم بضرورتها وقدسيتها وسمُوّها.

وما أبرِّىء نفسي ـ إنّ النَّفس لأمَّارة بالسوء.. فقد تكون بدرتْ مني أخطاء ـ لكنها، ويشهد الله، كانت عن غير قصد أو عمد. وإني أعتذر من كل من أخطأتُ تجاهه ـ أو خُيِّل إليه، أني أسأت إليه.

وقد كان بإمكاني أن أنتقم من بعض المسيئين إليَّ.. ولكن روح التسامح كانت، ومازال، هي المسيطرة على منهجي وأعمالي. فأنا أدين بمبدأ النفع، لا الضَّرر..

والخير، لا الأذى. وقد عرف ذلك مني، كلّ من عرفني.. وخبره كلّ من خبرني. فليَحِلّني المنصفون من أخطاء غيري ـ لأني غير مسؤول عن أعمال الآخرين.. وهل من الإنصاف أن أكون؟

إني لم أحارب الأشخاص ـ وإنما حاربتُ الأفكار المناهضة لمبدإ الوطنية والتحرّر.. ولم أقاوم الأفراد ـ وإنما قاومتُ الاتجاهات الرجعية التي تمتهن الفقير، وتضطهد الضعيف، وتستعبد المسكين. وهدفي ليس محاربة بعض الناس ـ لغايات شخصية، ومقاصد ذاتية.. وإنما محاربة كل من يبني كيانه على أساس الاضطهاد والاستعباد، والظلم والاستبداد.. أو يحاول أن يفعل.

وإني مستعدٌ، دائماً وأبداً، لأن أضع يدي في يد كل مؤمنٍ بحق بلاده، وعاملٍ على رفاه أبناء أمته.. وكل من يحارب التعصب، ويقاوم الظلم، ويعمل في سبيل خير الجميع ـ دون تفريق وتمييز.

هذا أنا.. وهذه مبادئي التي نذرتُ لها نفسي، ووقفتُ عليها جهدي. وإنّ نظرةً واحدةً إلى ماضيّ وحاضري.. كافيةٌ للتثبت مما أقول، والاقتناع بما أقول.

أيها الأخوة الكرام البررة:

يا رجال الأفكار التحررية، وأنصارها ودعاتها.. إنه ليعزّ علي أن أترك ساحة النضال حيناً من الدّهر، أو بعضاً من الوقت.. وقد عوّدتكم على أن أكون بينكم ومعكم في كل ميدان، وأشترك وإياكم في كل موقف.. وأن أشاطركم بأساء الحياة وتأساءها، ومشقتها وعناءها.

ولكني سأترككم بعض الوقت.. وأنا واثق من أنّ دعايات واسعة سيروّجها المغرِضون، ويلفّقها المبغضون.. زاعمين أني قد هجرت الساحة ـ إلى حيث الهناء والراحة.. وإلى حيث الإقامة الطويلة، في تلك البلدان الجميلة. فاضربوا بدعاياتهم عرض الحائط، وثقوا بأن الشّقاء قربكم.. أحبّ إليّ من السعادة وأنا بعيدٌ عنكم. وأني قد نذرت نفسي للكفاح معكم، والنضال إلى جانبكم، حتى نحرّر الفلاح من العبودية، والعامل من التبعية، ونجعل الجميع ينعمون بالتحرر والحرية.

أيها الأصدقاء الأوفياء، والرِّفاق الأعزاء:

لا أقول لكم: وداعاً ـ وإنما أقول لكم: إلى اللقاء.

فبعد بضعة أشهر.. سأعود إليكم، بإذنه تعالى، وأنا أشد إيماناً، وأثبت جناناً، وأكثر أنصاراً وأعواناً، والله وليُّ التوفيق. ورحم الله «ابن زريق» الذي قال:

ودَّعتُه.. وبودّي لو يودِّعني صفوُ الحياة.. وأني لا أوَدِّعُهُ

* * *

هذه المذكرات.. لا تشمل مذكراتي عن المهجر ـ وإنما بعض الأحداث التي يقتضيها السياق. وأنا أدوِّن النقاط البارزة في حياتي.

فذكرياتي عن المهجر ـ إبَّان زياراتي له.. والفترة التي أقمتها فيه.. إنما تتطلب كتاباً مستقلاً، وتستوجب ملاحم عديدة.. لما فيها من كثرة الأخبار، والدراسات، وغناها، وأثرها في نفسي ـ بتلك المرحلة الدقيقة الحافلة.

ولأني، إلى جانب هذا، حريصٌ على أن أعرض قصّة حياتي، وتجاربي في المغترب، والأحداث التي مررتُ بها ومرّتْ بي.. والأشخاص الذين عرفتُهم وخبرْتُهم، ورافقوني ورافقتُهم.. ووقفوا مني مواقف كريمة، مشرِّفةً مخلصةً نبيلة.

وفي الكتاب الذي سأصدره قريباً.. وعنوانه «من ذكريات الغربة».. سوف أذكر الأسماء والمواقف والمواقع بالتفصيل ـ وذلك في الرحلات الثلاث التي قمتُ بها إلى المغترب سنة ١٩٤٧ و ١٩٥٣ و ١٩٦٤ والتي نتج عن بقائي في الأخيرة عشرين سنة ونيِّفاً من الزمن.. وما أزال أوالي السفر إليه، وبقائي فيه فترة من الوقت ـ بإذنه تعالى.

فصلتي بالاغتراب والمغتربين.. لم تنقطع ـ ومن المحال أن تنقطع.

وإني، وأنا في وطني الذي أعتزّ به وأزهو، ماتزال صفة الاغتراب تهيمن عليَّ، وستظل.. وأنا غير نافر منها، ولا مبتعد عنها ـ بل إني مرتاح إليها، ومعتزٌ بها.

ولعليّ في مذكراتي القادمة عن الغربة.. سأؤدي خدمة وطنية واجتماعية ـ لأني سأستعرض فيها أوضاع المُغْتَرَب والمغتربين: بواقعية وجدية، وتجرّد

ونزاهة، ودراسة دقيقة عميقة.. ولعلي أؤدي بذلك واجب الوفاء للذين آزروني وعاضدوني، وأكرموني وأيّدوني.. وقاوموا معي الأحداث، وجابهوا الخصوم. وأنا جدّ شاكر لهم، وممتنّ منهم، وفخورٌ بهم.

* * *

قبل أن أستقلَّ الطائرة من مطار بيروت إلى أمريكا.. قررتُ أن أذهب إلى مصيف عاليه بلبنان، لأزور الحاج «أمين الحسيني» ـ الشخصية الفلسطينية الكبيرة.. وكنتُ قد تعرّفتُ عليه في بغداد، أيام كنتُ لاجئاً سياسياً في العراق، وكان هو كذلك. وصحبني في تلك الزيارة «محمد وفا» رئيس «الجمعية الاسلامية» في مدينة سان باولو ـ البرازيل. وكنتُ التقيتُه صدفةً في بيروت، وأحبَّ أن يرافقني لزيارة «الحاج أمين» الذي سأله عن تبرعات الجالية العربية. ولما ذكر له الرقم.. انتفض «المفتي» غاضباً، وقال له:

بهذا المبلغ الزهيد تريدون أن تدعموا الحرب ضد العدو الصهيوني؟ وهل يُعقل، وأنتم جالية ضخمة، أن يكون تبرعكم لا يوازي واحداً من عشرة ـ من تبرع شخص يهودي واحد؟!

ثم شرع يؤنّب ويأسف، ويبدي تأفّفه لأنَّ العرب لم يرتفعوا إلى مستوى قضيتهم، ولم يعوا الخطر المحدق بهم. وكانت ملاحظاته جدَّ وجيهة، وواقعية وصحيحة.. وذات صلة وثيقة بالمفهوم القوميّ، وواجباته، وضرورة التقيُّد بها.

وطلب مني «المفتي» أن أنقل رسالة منه إلى «أكرم زعيتر» الذي كان يطوف البلدان الأمريكية ـ للدعاية للقضية الفلسطينية.. قبل طرح مشروع التقسيم على التصويت. وكانت «الجامعة العربية» قد شكلت وفداً رسمياً لهذه الغاية:

أكرم زعيتر ـ فلسطيني، وتوفيق اليازجي ـ سوري، ونصري المعلوف ـ لبناني.

سافرتُ أولاً إلى «أورغواي». ومن عاصمتها «مونتفيدايو» اتصلتُ «بأكرم زعيتر» في «بوينوس ايرس» هاتفياً، وأخبرته عن الرسالة التي أحملها إليه. فطلب مني إرسالها في البريد إلى عنوان حدده. وقد استلم الرسالة قبل أن يغادر

الأرجنتين.

* * *

رحم الله «الحاج أمين الحسيني».. فقد كان من الذّكاء والدّهاء فوق ما يخطر على بال انسان. وأذكر أني كنتُ عضواً في وفد رسمي زار القاهرة. وفي مأدبة عشاء أقامها لنا «الرئيس جمال عبد الناصر»، وقبل العشاء.. كان جمهور من المدعوين محتشداً في القاعة الواسعة.. وكنتُ، مع بعض أعضاء الوفد، نقف في مكان بارز، وخلفنا الجدار، وأنظارنا في مواجهة الجمهور، وقد التفّ حولنا عدد من المدعوين. وجاء «الحاج أمين الحسيني» يصافحنا، ثم وقف في الحلقة معنا. ولكنّ ظهره كان إلى الجمهور، وهو مالا يريده ولا يستسيغه، وإنما يريد أن يكون دائماً في الواجهة.. ومركزه وشخصيته يحتمان ذلك. وشرع يتحدّث إلينا، وبين الفينة والفينة.. يدفع أحد الواقفين إلى جانبه ـ ليخطو خطوةً نحو الجدار. وظلّ يدفع مَنْ على يمينه .. حتى أصبح واقفاً بيننا، ووجهه إلى الجمهور، وظهره إلى الجدار.

كان ذا شخصية قوية مهيبة، وصاحب مبدأ وعقيدة لا يساوم عليهما، ولا يتنازل عنهما. وكانت شخصيته وقورة.. تضفي عليها عمته مهابةً وجلالاً. وكان العاملون معه.. يشكون من تشبُّثه برأيه، وفرض إرادته على من حوله. ولا شكّ أن مظهر الزعامة والقيادة كان بادياً عليه ـ فضلاً عن مكانته الدينية الرفيعة.

ويوم أعلن «رشيد عالي الكيلاني»، رئيس الوزارة العراقية، الحرب على الانكليز.. كان مفتي فلسطين، «الحاج أمين»، يستقطب كبار الضباط الذين كانوا يشرفون على الجيش، ومنه يتلقون التعليمات والتوجيه. وقيل إنه كان وراء حركة الانقلاب التي أطاحت بالملك «فيصل الثاني»، ووليّ عهده «عبد الإله».. وكانت تهدف إلى القضاء على الوجود البريطاني في بلاد الرافدين.

و«المفتي نفسه».. كان قائد الكتيبة السورية ـ اللبنانية ـ الفلسطينية إبّان تلك الحرب ـ كما أسلفنا.

* * *

ما إن حطّت بنا الطائرة في مطار «مونتيفيداو» عاصمة «أورغواي».. حتى فوجئتُ بوجود ابن عمي «عبد اللطيف الياسين» بانتظاري.. وقد جاء خصيصاً من بوينوس ايرس لاستقبالي، وتمهيد دخولي إلى الأرجنتين. وتعانقنا، وامتزجت الدموع ببعضها.. وذهبنا إلى الفندق، وأمضينا فيه بضعة عشر يوماً، ريثما تمت معاملة السفر ـ بفضل توسط قنصل لبنان الفخري «رزق الله نفّاع» رحمه الله.

في مدينة «مونتيفيداو» ـ عاصمة أورغواي ـ دعيتُ لحضور احتفال في «النادي اللبناني» بمناسبة عيد استقلال لبنان. فذهبتُ، وابن عمي «عبد اللطيف» برفقة قنصل لبنان الفخري. وقد أُلقيَ فيه عدد من الكلمات، وكنتُ آخر المتكلمين.

تحدثتُ في كلمتي عن قضية فلسطين، والأخطار التي تحدق بها، وواجب العرب نحوها، وأنها القضية التي يتوقف عليها الكيان العربي، والمصير العربي.. وأنّ على كل من يؤمن بعروبته، وقضيتها العادلة ــ سواء بالوطن الأم، أو المغتربات.. أن يقف طاقاته كلها لخدمة هذه القضية، والدفاع عنها، والتضحية في سبيلها، وو.. الخ.

ثم تحدثتُ عن لبنان.. وكيف انتصر سنة ١٩٤٣ على العدوان، واستطاع وشقيقته سورية، أن يحققا استقلالهما، ويظفرا بحريتهما ــ بفضل تضامن شعبيهما، واتفاق حكومتيهما.. وانسجام سياستهما، ووحدة كلمتهما، في وجه الفرنسيين المحتلين.

وصفّق القوم طويلاً.. وهتفوا بحياة سورية ولبنان وفلسطين.

وانصرف الجمهور، بعد ذلك، إلى الغناء والرقص. وبعد فترة وجيزة جاء من يهمس في أذني: بأنّ «الأمم المتحدة».. قد اتّخذت الآن قراراً بتقسيم فلسطين! فاضطربتُ، ووقفتُ عل كرسي، وصرختُ بأعلى صوتي:

أيها الأشقاء، أيها الأصدقاء، يا أبناء لبنان العربي الحر:

أستحلفكم بأرومتكم العربية، وبالدم العربي الذي يجري في عروقكم، وبعظام آبائكم وأجدادكم في الأراضي المقدسة.. أن تتوقفوا عن الغناء والرقص.. وأن لا ترقصوا على «جثة» فلسطين.

فجمدت الأقدام، وصمتت الموسيقى، وخيّم على الجمع المحتشد سكون رهيب. وكان تجاوبهم مع شعورهم القومي: مشرّفاً ونبيلاً.

* * *

ليس في أورغواي جالية سورية كثيرة العدد ـ كبقية البلدان الأخرى. وإنما عددها لا يتعدّى المئات. ومن أبرز السوريين الموجودين حالياً فيها «الدكتور حسان معماري» ـ وهو يحمل شهادة الآداب من «جامعة السوربون» الفرنسية الشهيرة، ويدرِّس اللغة العربية، والأدب العربي، بكفاءة ملحوظة، في جامعة «مونتيفيداو».

في مطلع الخمسينات أراد صديقي «الدكتور عفيف حداد»، وهو مواطن كريم من «صافيتا»، أن ينقل عيادته من «بوينوس ايرس»، عاصمة الأرجنتين، إلى «مونتيفيداو» عاصمة «أورغواي» ويقيم فيها. وجاء إلى دمشق، وطلب مني التوسط لتعيينه «قنصلاً فخريًاً» في «أورغواي». وكان «فيضي الأتاسي» وزيراً للخارجية حينذاك، وصلتي به جدّ وثيقة. فتلطّف وسلّمني قرار تعيينه وأنا في مكتبه. وصعدتُ إلى القصر الجمهوري حيث وقعه رئيس الجمهورية «هاشم الأتاسي» وأنا عنده. وسلّمت المرسوم باليوم نفسه للدكتور «عفيف حداد»، وفي اليوم الثاني استلم من وزارة الخارجية الأوراق والتعليمات والأدوات اللازمة ـ لكنه لم يستمر طويلاً.. لأن ظروفاً خاصة اضطرته للعودة إلى الوطن، والاستقرار فيه.

* * *

وغمرتنا موجة من الألم والحزن.. لدى سماعنا نبأ تقسيم فلسطين. ولكن كنا نؤمن بأن الأمة العربية ستقف صفّاً واحداً متراصّاً.. لإلغاء ذلك القرار، وتحطيم الحلم الصهيوني الرهيب.

وكانت معركة فلسطين، في ذلك الحين، امتحاناً قاسياً للأمة العربية.. والتاريخ الذي لا يرحم. ولكن بعض قادة العرب لم يرتفعوا إلى المستوى الذي يجعلهم محطّ الأمل القومي، والمُنى الشريفة!

فملك مصر.. كان يهمه شراء أسلحة، مهما كان نوعها ليستفيد شخصياً من عمولتها ـ كما نشر كتّاب مصريون مقالات مطوّلة بعد الثورة التي قام بها «جمال عبد الناصر». ولو أن الثورة المصرية.. كانت قبل معركة فلسطين الأولى.. لكان لتلك المعركة اتّجاه آخر.. ولما كانت اسرائيل بقيت واستمرت.

والعراق ـ وبالأحرى «عبد الإله» وليّ العهد، و«نوري السعيد» رئيس الوزارة ـ كانا مرتبطيْن مع الانكليز، ويسيران وفق تخطيطهم وتوجيههم! والانكليز.. هم الذين خلقوا اسرائيل، وقد مهّدوا لها منذ إعلان «بلفورهم» وعده المشؤوم.. إبّان الحرب العالمية الأولى، وظلّوا يدعمونها ويفتحون الأبواب لهجرة اليهود إليها. وكان عددهم في فلسطين ـ حين صدور «وعد بلفور».. ستين ألفاً فقط.. وعند صدور قرار الأمم المتحدة بقيام اسرائيل.. كان عددهم ٦٥٠ ألفاً. وفي إحدى المعارك طُلِبَ من قائد الجيش العراقي أن يشارك بهجوم القوات العربية، فقال ـ وهو يبكي:

«ماكو أوامر»!!

وموقف «الملك عبد الله».. وكان اشتراطه لدخول جيشه المعركة.. أن يكون هو القائد العام للجيوش العربية ـ وإلا فإنه لن يدخل المعركة! وقائد جيشه هو الضابط البريطاني المعروف باسم «أبو حنيك».. وهل ينتظر من ضابط انكليزي غير تنفيذ مخطط دولته التي أوجدت اسرائيل؟ وقد استجاب المسؤولون العرب لطلب «الملك عبد الله».. وكان ذلك أول فصول المأساة!

والجيش السوري كان عتاده الحربي محدوداً ـ ومع ذلك.. فإنّ «جميل مردم»، رئيس الوزارة، وقف في المجلس النيابي وقال: سنحارب في الجو، وعلى الأرض، وفي البحر، وصفّق له النواب طويلاً! وقد وقف الجيش السوري وقفة بطولةٍ مشرّفةٍ لا مثيل لها.

والشاعر «عبد الحميد علي» يذكر موقف الجيش السوري الباسل، ويصوّر بطولته وحماسته واندفاعه، في قصيدته الرائعة عن معركة فلسطين، ويقول:

غيرُ جيشِ الشّآمِ لم يُلهبِ الثأرَ ولم يرهقِ العدوَّ الدخيلاَ

جيشُها الصَّامدُ المجرّبُ والمِقْوَارُ ليــن يُلقِــيَ السِّــلاحَ الثّقيــلا
حــاملاً وحــده.. لــواءَ فلســطينَ عزيــزاً، وظِلّهــا والقَلِيــلا
صــامداً وحــده.. يكــرمُ تاريخــاً ويســقي هجــيرُه السلســبيلا
معلِنـاً للسماء والأرض.. لم يركـعْ ولــم يتّخِــذْ «فلانــاً» خليــلا

أما الشاعر «جابر خيربك».. فإنه يبدي ألمه لتقاعس «الأسياد». وتهاونهم - مما أدى إلى هذه المأساة التاريخية الرهيبة:

«أسـيادُنا» زوّروا فينــا رجولتنــا وسلّموا الغاصب الشُطآن والسُفُنَا
وخلّفوا القدسَ تشكو عهرَ غاصبها يدنِّس البيـتَ والمِحـرابَ والرُكُنـا
تحــت الخيــامِ ملاييــنٌ مشــرَّدةٌ تقاسموا الألـم المحـزونَ والإِحَنَـا
توزّعوا في أقاصي الأرض كُلُّهُـمُ وودّعوا الأهل والأحباب والسكنا
خمسون عاماً مـن التشريد مزّقهم فيها الأسى، واكتوى بالنار مَنْ رَكَنَـا

* * *

مأساة فلسطين.. لا تستطيع يراعة - مهما أوتيت من البلاغة والإبداع.. أن تُلِمّ بأهوالها وأخطارها.. ونتائجها الأليمة، وعواقبها الوخيمة.. التي لا يقف هول مأساتها وخطره عند حدّ - وهيهات! فقد وضعت العرب على فوهة بركان.. أو على حافة منحدر لا يعلم نهايته إلا الله!

وإنّ تهاون العرب بقضيتهم، واختلافهم مع بعضهم.. وعدم إدراكهم الواقع الذي يعيشونه، والخطر الرهيب الذي يتعرّضون له.. إنهم بتهاونهم المؤلم، وتقاعسهم المعيب.. إنما يضعون مستقبل أمتهم في مهبّ الريح!

فعدوُّهم الحاقد اللئيم - وبالأحرى أعداؤهم الحاقدون اللؤماء.. قد انصبّت طاقاتهم كلها لنصرة الباطل الصهيوني، ضد الحق العربي - لأن الامبريالية والصهيونية، والرُّوح الاستعمارية التي ما تزال تعشّش في نفوس الكثيرين من الأوروبيين.. كانت، وماتزال، توحي إليهم القيام بأعمال اجرامية - ضد الأمة العربية.. وضد كل الشعوب المتخلِّفة - التَّوَّاقة إلى حياة كريمة.

أما نحن - ووا أسفاه من هذه «النّحن»! - فإننا ما نزال أطفالاً لم نكبر بعد..

ولا نعرف متى نكبر ونبلغ سنّ الرشد.. فنطوي خلافاتنا مع بعضنا.. ونعود بلداً واحداً متراصّاً ـ من المحيط إلى الخليج ـ كما كنا في غابر السنين.

فمتى يتحقق هذا الحلم.. ويصبح حقيقة ملموسة ـ ونعود سادة أنفسنا، وسادة العالم كما كنا ـ وكما يجب أن نكون؟

مأساة فلسطين المريرة.. كان خليقاً بها أن تعيدنا شعباً واحداً.. منسجماً متراصّاً.. له علمٌ واحد، وهدفٌ واحد ـ وبغير هذا.. لا يمكن أن نستخلص أرضنا من عدوّنا، ونعيد استمرار تاريخنا، وحقيقتنا، ومسيرتنا.. وننتصر.

والإنسان العربي.. قد أوجعته مأساة فلسطين، وآلمته وجرحته في الصّميم ـ وسيظل هذا الجرح ينزف دماً، ويهيج ألماً.. إلى أن تتحرر الأرض المغتصبة، ويُلقى بالصهاينة وأتباعهم في الجحيم.

فينا عملاء ـ يجب أن لا نرأف بهم.. وفينا خونة ـ يجب أن نجتثّ جذورهم، ونكون قساة وغير رُحماء في معاملتهم.

الضابط «فؤاد مردم» ـ الذي أوفدته سورية لشراء السلاح.. وتهاونه وتقاعسه حتى استولى اليهود على بارجة السّلاح الذي كنّا، ونحن في قلب المعركة، بأمسّ الحاجة إليه.. قد أعطى العالم فكرة غير كريمة عنا.. وعن تقاعسنا وإهمالنا، وتهاوننا بقضيتنا.. والإتاحة لعدونا أن يستولي بسهولة على أسلحتنا!!

موضوع الضابط «فؤاد مردم»، حريٌ بأن يوضع إلى جانب اسمه أكثر من علامة استفهام، وعلامة تعجب! وحريٌ بكل قارىء أن يطلع على ما ورد في مذكّرات «راشد الكيلاني» من صفحة ٨١ إلى ٨٣ عن قصة «فؤاد مردم»، والباخرة التي استولى عليها الصهاينة.

وقد اطلع ابن عمي المحامي «أحمد طاهر عبد اللطيف» علَى هذه المذكّرات قبل نشرها، وكان مفتشاً سابقاً بوزارة المالية في دمشق، فكتب لي يقول:

(«الضابط فؤاد مردم».. عندما قُدِّم للمحاكمة كانت الصحف تنقل وقائع كل جلسة، وما جرى فيها. وفي اليوم التالي للجلسة الأخيرة.. جرى انقلاب «حسني

الزعيم»، فلم نطّلع على النتيجة التي آل إليها ذلك الضابط آنذاك. وأثناء عملي بالتفتيش في دمشق.. علمتُ أن «فؤاد مردم» قد أنشأ شركة لتوزيع البترول.. كان مقرها لبنان)، ثم تساءل المحامي الذي يريد معرفة الواقع من الوقائع، والحقيقة من مجرى الأحداث، ثم من أفواه الناس، فقال:

«والسؤال الذي يتبادر إلى الذّهن: لماذا بعد انقلاب «حسني الزعيم» لم تستمرّ محاكمة الضابط مردم؟ بل لماذا طُمِسَ الموضوع تماماً.. ولم تتعرض له الصحف بعد ذلك بتاتاً؟!».

سؤال المحامي «أحمد الطاهر» حريٌّ بالاهتمام، والوقوف عنده طويلاً.

* * *

قيل.. إن فرنسا حينما اضطرت للانسحاب من سورية سنة ١٩٤٦ أرادت أن تبيع السلاح الموجود بحوزتها في الأراضي السورية.. للقوات السورية ـ حتى تبقي صلتها مع سورية.. ولأنّ ذلك السلاح كان عتيقاً لا يصلح لنقله إلى أوروبا ـ لكنه، مع ذلك، كان ضرورياً للجيش السوري الناشىء.. الذي لا يملك سلاحاً في ذلك الحين. ولكنّ الملحق العسكري، في السفارة البريطانية، قال لرئيس الأركان «عبد الله عطفه»: نحن نبيعكم سلاحاً جديداً ـ بدلاً من السلاح الفرنسي العتيق. فاستجاب له رئيس الأركان السوري وعدل عن شراء السلاح الفرنسي! ولكن بريطانيا الخادعة الماكرة رفضت بيع سورية أسلحة تستعملها ضد اسرائيل. فضاعتْ الفرصة! وهكذا كنّا دائماً أطفالاً!!

وغضبتْ دمشق .. وأرغمت رئيس الوزارة «جميل مردم» على الاستقالة ..

وانتصرت لكرامتها، وللسّلاح الذي فقدناه ـ بل ضيّعناه!

جرح فلسطين ما يزال ينزف دماً ـ وسيظلّ ينزف وينزف.. إلى أن نستعيد القدس والنّقب، وحيفا ويافا.. ونجعل جراح الصهاينة هي التي تنزف وتنزف.. حتى تتلاشى أرواحهم، ويغرق بالوحل طماحهم.. ويختفي من سماء فلسطين أثرهم وخبرهم.

كنتُ في أمريكا يوم حدوث المأساة. وكانت رحلتي كلها معبّأة لأجل فلسطين.. والدعوة لها، والعمل لنجدتها.

وواخجلاه.. من تلك الآذان التي كنتُ أؤكد لها بأننا سننتصر.. وأنّ عدونا سيندحر!

واخجلاه منها..!

لكن.. ورغم جميع العوائق والصّعوبات، والتّخاذل والجبن.. ورغم خيانة الخائنين، وتآمر المتآمرين، وإهمال المهملين ـــ رغم ذلك كله.. فإني ما أزال أؤمن بأننا سنفوز، وبأنّ سورية هي التي ستقود جحافل الفوز. ورحم الله شاعر الأمة العربيّة الكبير «بدوي الجبل» الذي يقول:

يا مَنْ يُدِلّ علينا في كتائِبهِ نَظَارِ.. تطلُعْ على الدنيا سَرَايَانا

* * *

ودَّعنا أصدقاءنا في «مونتفيدايو» الذين أكرمونا وأقاموا لنا سلسلةً من المآدب. ولمّا لم نعثر على مقعد في طائرة.. اضطررنا للسفر إلى «الأرجنتين» في باخرة من عاصمة «أورغواي» إلى عاصمة «الأرجنتين». وقد عبرت بنا الباخرة نهر «لابلاتا» الشهير ـ الذي يبلغ عرضه ما ينوف على مائة كيلو متر، وبعضهم يزعم أنه يقارب المائتين، وربما. وقد ركبنا في الباخرة، ابن عمي «عبد اللطيف» وأنا، الساعة السابعة مساءً من مرفأ «مونتيفيداو» عاصمة «أورغواي» إلى «بوينس أيرس» عاصمة «الأرجنتين»، ووصلت الساعة السابعة صباحاً وقد سارت في خط مستقيم بين الشاطئين.

ونهر «لابلاتا» ينحدر من ينابيع بعيدة، وليس في مياهه شيء من الملوحة ـ لذلك يطلقون عليه اسم نهر.. والواقع أنه أشبه ما يكون بالبحر.. حيث تمخر فيه أساطيل ضخمة، وسفن كبيرة باستمرار... ثم يندغم عند «بوينس أيرس» بالمحيط الأطلسي.

وحينما وصلنا مرفأ «بوينس أيرس».. وجدنا جمهوراً بانتظارنا ـ في مقدمته: إبن عمي «غانم ياسين»، وعدد من أنسبائنا النازحين منهم: الشيخ حسن عبد

الهادي ـ الوجيه الأول في توكومان، والشيخ عبد الحميد عمار، والشيخ محمود الحامد، والشيخ غانم الأحمد، والسيخ ياسين الأحمد، والشيخ محمود عبد الهادي، والشيخ علي محمد يونس، وآخرون من وجهاء الجالية وكرامها ـ في طليعتهم «يوسف الرشيد»، و«علي أحمد عباس حَجّي». وكان المطر ينهمر بغزارة... فارتجل ابن عمي «غانم ياسين» بيتين من الشعر ـ هما:

جئتمـــــا معـــــاً ... أنـــــت والمطــــــرْ
يــــا لهــــا فرحـــــةً .. تُنعِـــــشُ البصـــــرْ

وكانوا قد حجزوا لي بفندق فخم. وبعد أيام قليلة.. انتقلت إلى دار «أحمد عباس حَجّي» ـ حيث لقيت منه، ومن أسرته الكريمة، كل عناية ورعاية. وكانت داره العامرة تمتلىء يومياً بالزائرين الذين كانوا يأتون لزيارتي من كل حدب وصوب.

ورحّبت بي الصحف العربية التي تصدر بالعاصمة ترحيباً حاراً. ونشرت كثيراً من الرسائل التي وردتها من مختلف المناطق للترحيب بي. وقد تلطف الكاتب الكبير الأستاذ «نعمان حرب»، فنشر بعضها في الكتاب الضخم الذي كتبه عن مؤلفاتي، وسيرة حياتي، وضمنه عدداً من المقالات التي نشرتُها في صحف الوطن والمهجر. فكانت براعته كريمة وسخية ـ مثل كرم قلبه، وسخاء روحه، مدّ الله في عمره. وقد ألقيت في العاصمة الأرجنتينية عدداً من المحاضرات ـ كما أقيمت لي عشرات المآدب والحفلات. وكنت في كل منها أتحدث عن فلسطين، وواجب المغتربين بالدعاية لها والتبرع لأجلها. ثم أدليتُ بأحاديث كثيرة للصحف الأجنبية، وكتبت عشرات المقالات في الصحف العربية التي كانت تصدر في «بوينوس أيرس» حينذاك ـ وهي: «المواهب»، و«الجريدة السورية اللبنانية»، و«العلم العربي»، و«السلام» و«الاستقلال»، و«الرفيق»، وغيرها من الصحف العربية والأجنبية.

وقمت بزيارة بعض الولايات منها: «توكومان»، «سلطا»، «سانتافة»، «مندوسا»، «سان جوان»، «روساريو»، وغيرها. وألقيتُ عدداً من المحاضرات

في كل منها. كما زرت أكثر المدن التابعة لولاية «بوينوس أيرس». وقد لقيتُ من الجالية الكريمة استقبالات حافلة، وحفاوةً بالغةً كانت بمثابة تظاهرات وطنية، وتقديراً للرسالة العربية التي أؤديها ـ أكثر مما كانت تكريماً لشخصي.

وفي «الأرجنتين».. تعرّفتُ بشخصياتٍ كثيرة توطدت بيني وبينها عُرى المودة والصداقة ـ من هؤلاء: المطران «نيفن سابا» راعي أبرشية «زحلة» بلبنان، وكان سيادته يحرص على حضور المحاضرات التي كنت ألقيها، وأكثر المآدب والحفلات التي أُقيمت لي. وقد تلطف وأهداني رسمه الكريم، وكتب تحته هذه الأبيات:

سألتُ اللُّطفَ عن شهمٍ أبيٍّ ... كريمِ الخلقِ ذي أدبٍ ظريفِ
خطيبٍ في المنابرِ ألمعيٍّ ... و«يونسُ» بالتليدِ وبالطّريفِ
وللأوطانِ مِفْوانٍ وفيٍّ ... على الأعداءِ صمصامٍ مخيفِ
أجاب، وقد تبسّمَ عن معانٍ ... تترجمُ عن مدى فكرٍ حصيفِ
أنا لطفٌ بمبناه ـ ولكن.. ... بمعناه: أنا «عبدُ اللطيفِ»

ومنهم الشاعر «جورج صيدح».. وكان يقيم في «فنزويلا»، وله أعمال ناجحة فيها، ثم ذهب إلى «الأرجنتين»، واستهواه المناخ الأدبي.. فأقام بها سنوات طويلة، أسس خلالها «الرابطة الأدبية».. وكان أعضاؤها يجتمعون على مائدته في «النادي اللبناني» نهار الأربعاء كل أسبوع.. وبعد الغداء يبقون ساعات.. يتناشدون الشعر، ويتداولون في أحاديث أدبية جادة ـ حتى اقترح أحد الأدباء تسمية تلك «الندوة»: «ندوة الأربعاء». وفي الخمسينات عاد «صيدح» إلى بلده «دمشق» ليقيم فيها، ثم انتقل إلى «بيروت»، ومنها إلى «باريس» حيث توفي فيها رحمه الله. وكتاب «صيدح» عن الأدب والأدباء المغتربين، من أضخم وأروع ما كُتب في هذا السياق. ويُعتبر في طليعة المؤلفات عن أدب الاغتراب.

وفي اجتماعات «الرابطة الأدبية» توطدت عُرى الصداقة والمودة بيني وبين أعضائها: «يوسف الصارمي» صاحب مجلة «المواهب»، والشاعرين «الياس»

و«زكي قنصل»، اللذين أنتجا الكثير من الشعر والنثر. وقد انتقلا إلى جوار ربّهما. ومنهم «عبد اللطيف الخشن» الذي كان إلى جانب وطنيته الصارخة، من أظرف الأدباء وأقربهم إلى النفس. ومنهم «جواد نادر»، و«يوسف العيد»، و«أمين قسطنطين»، و«دلال كبّاس» ذات اليراعة الملهمة ـ والتي لا أروع من أسلوبها النقي المشرق، ولا أبدع ولا أحلى.. وشقيقاها: الشاعر «عزيز كبّاس»، والمربي «نقولا كبّاس».

وبعد أن غادرت الأرجنتين.. كتب لي ابن عمي «عبد اللطيف الياسين» أن أصدقائي في العاصمة، «بوينوس أيرس»، قد تلطفوا وقرروا تأسيس جمعية سموها: «جمعية أصدقاء عبد اللطيف اليونس»، وقد سُجل فيها عدد كبير من المغتربين الكرام، واستمرّت فترة غير قصيرة.. حتى طلبت منهم أن يصرفوا النظر عنها، ويكتفوا بالجمعيات الأخرى.. وألححتُ عليهم بصورة متواصلة ـ حتى اقتنعوا واستجابوا لطلبي وإلحاحي.

ومن يعرفني.. يعرف أني انسان متواضع، أحبُّ العيش بعيداً عن الزهو والمباهاة، وحبّ الظهور.

وكم أنا مدين لأولئك الناس الكرام بأمريكا ـ الذين أغدقوا عليّ من نبل عواطفهم، وكريم مواقفهم، ما جعلني أسير ذكرهم وذكراهم ـ ما حييت.

* * *

بعد انتهاء زيارتي «للأرجنتين».. سافرتُ وابن عمي «غانم ياسين» إلى «البرازيل». وكان قد صفّى أعماله، وقرّر العودة إلى الوطن الأم.. ليستقرّ فيه ـ بعد غياب عشرين عاماً ونيفاً.

وذهبنا في باخرة من «بوينوس آيرس» إلى «ريو دي جانيرو»، عاصمة «البرازيل» حينذاك، ورغم أننا كنا في الدرجة الأولى، وفي غرفة مريحة جداً.. فقد انتابتني حالة من «القيء» استمرت يومين كاملين.. وكانت حالة عنيفة لا تطاق. ولم أرتح إلا في اليوم الثالث. وفي اليوم الرابع وصلنا مرفأ «ريو دي جانيرو»، وكان باستقبالنا جمهور من أبناء الجالية الكريمة.

وصباح اليوم الثاني.. ذهبتُ، مع وفد من أبناء الجالية، إلى السفارة السورية لزيارة الوزير المفوض «مظهر البكري»، وكنت قد أرسلت إليه رسالة رئيس الجمهورية مع مستشار السفارة «توفيق اليازجي»، حينما التقيتُ به في «الأرجنتين» ـ كما مرَّ بنا. وكان قد عاد من «الأرجنتين» إلى «البرازيل» ـ دون أن يتابع الرحلة إلى بقية الجمهوريات مع «زعيتر» و«معلوف».

وفوجئت باعتلال صحة السيد «البكري»، الوزير المفوض، واعتكافه في داره. وقيل لي: إن حالته خطيرة. وحينما دخلتُ عليه في منزله بكى كثيراً.. وقد انهارت قواه إلى حد مخيف. فوددتُ لو أني لم أره في تلك الحالة المحزنة المؤلمة. وعبثاً حاولتُ أن أسرّي عنه، وأدفع الطمأنينة إلى نفسه. ولكنه كان يعرف وضعه الصحي السيء.. فيزداد بكاءً ـ مما دفعني للبكاء معه. وبعد أيام نقلوه إلى «الولايات المتحدة» للمعالجة، وتوفي فيها، رحمه الله. وأقيمت له حفلة تأبينية ضخمة اشترك فيها الشاعران الكبيران: القروي، وفرحات، وتكلمتُ فيها.

وقد توثّقت عرى الصداقة والمودة بيني وبين الشاعرين «القروي» و«فرحات» اللذين كانا في طليعة الناطقين باسم القومية العربية، والمدافعين عنها في المغتربات.

وكان «الشاعر القروي» قد حضر المأدبة الإكرامية التي أقامتها لي الجالية في «النادي اللبناني»، وألقيتُ فيها محاضرة عن فلسطين، والأخطار المحدقة بها. وقد أبدى «القروي» انشراحه وهو يسمعني أخطب بطلاقة، وعفوية وإيمان ـ مما جعله يعرب عن شعوره في القصيدة التي ألقاها بالحفلة الإكرامية التي أقامتها لي السفارة السورية بدار السفارة.. وحضرها وزير لبنان المفوض، ورؤساء الأندية والجمعيات العربية، وجمهور من أبناء الجالية الكريمة. وهذه هي قصيدة «القروي»:

من رأى الأُسْدَ على الريح نسوراً	تملأُ الجوَّ نُعاقاً وزئيرًا
مرحباً بالليث، بالغيثِ، الذي	فاضَ في النادي بياناً وشعورا
لم نجدْ قبلك صقراً.. أجْدَلاً	يُخجِلُ البلبلَ شدواً وصفيرا

غادر الوكرَ الذي عزَّ به / واليمامات تيَمّمن الغديرا
باحثاً عن مُغربٍ من سِربِه / جاوزوا في طلب المجد البحورا
أرْسِ يا «يونُس» باسم الله في / بلدٍ ما زال للحق ظهيرا
أنت كاليؤيؤ في عين المُنى / فاغمضِ الجفنَ على الحُلم قريرا
لك في الذكرى سَمِيٌّ بطلٌ / لبسَ الحوتَ إلى القوم نذيرا
حملَ الأمْنَ على راحتِه / مؤمناً خاض إلى الخلد السعيرا
وجرى العاصفُ رَهواً سَلِساً / لرسولٍ جاءَ بالحقِّ بشيرا

* * *

جَنَّدَ البُطْلُ سيوفاً وقفتْ / دونها أبطالُ «سوريةَ» سورَا
ومشى «لبنانُ» مع إخوانه / يمزجان الدَمَ قُدْسِيّاً طَهُورا
فليدوما في ظلالِ العهدِ / ولْيَكْلاِ اللهُ من الضّرُّ «الوزيرا»

* * *

بعد انتهاء زيارتي لمدينة «ريو دي جانيرو» ذهبتُ إلى مدينة «سان باولو»، كبرى المدن بالبرازيل، وبأمريكا كلها. وتُعتبر عاصمة المغتربين ـ نظراً لكثرة عددهم الذي يبلغ فيها وحدها مئات الألوف.. فضلاً عن طاقاتهم الاقتصادية، والثقافية، والعلمية.. التي لا حدّ لها، وهم في الذّروة منها.

وتبنّت «لجنة الدفاع عن فلسطين»، وكان قد شكلها وفد «الجامعة العربية»، من أركان الجالية المرموقين، تلطّفت تلك اللجنة.. وهيأت لإقامتي برنامجاً حافلاً، واختارت أربعة أشخاص من وجهاء الجالية ــ في مقدمتهم «عبد الكريم حداد» رئيس «النادي الحمصي» الشهير، وذلك لمرافقتي في تنقلاتي، وتهيئة الوسائل الكفيلة بتنفيذ البرنامج الذي وضعته لهذه الغاية. واعتبرتني اللجنة ضيفاً عليها ــ مع رفيقيَّ: ابن عمي «غانم ياسين»، و«جميل ربيع» الذي رافقني طيلة إقامتي بالبرازيل.. وحجزت لنا جناحاً بفندق فخم.

وكان البرنامج يتضمن زيارة الأندية والجمعيات العربية ـ حيث تحدثتُ في كل منها عن الوضع العربي، والقضية الفلسطينية التي هي قضية العرب الأولى،

وكنت أفيض بذكر المخاطر التي تلمّ بها، والمستقبل المظلم الذي يترصّدها - إذا لم تتوفر جهود الغيارى المخلصين، ويتعاونوا ويتكاتفوا لدرء الأخطار المحدقة بها، والحؤول دون وقوعها. ثم أتحدث عن واجب المغتربين العرب، وضرورة تكاتفهم وتلاحمهم لأداء رسالة القومية، والتصدّي لدعايات الإمبريالية والصهيونية، والعمل لتوعية الجماهير.. وإطلاعها على حقيقة الوضع، والخطر الذي يتهدد الإنسانية كلها ـ إذا استطاع الصهاينة تحقيق أهدافهم الشرسة اللئيمة بالسيطرة على العالم كله، بعد السيطرة على «فلسطين». وكنتُ أتلو عليهم مقاطع من «بروتوكولات حكماء صهيون» ـ التي وضعها «حاخامات» اليهود في مطلع القرن الحالي... والتي ترسم الطريق للصهاينة حتى يفسدوا العالم كله، وينشروا فيه الفوضى، ويقضوا على الديانتين المسيحية والإسلامية ـ كما جاء صراحةً في تلك «البروتوكولات».. ويعملوا لتفشي الأخلاق الفاسدة بين الناس جميعاً.. بواسطة وسائل الإعلام التي دأبها محاربة الفضيلة، والعمل على انتشار الرذيلة!

وكنتُ أحثّ المغتربين لتدارك خطر الصهيونية المجرمة، والتبرع للقضية الفلسطينية ـ بواسطة اللجان الشعبية التي شكلها وفد الجامعة العربية.

وكانت محاضراتي.. تلقى إقبالاً كبيراً من أبناء الجالية الكريمة ـ حتى أن الواقفين، في بعض المناطق، كانوا أكثر عدداً من الذين أتيح لهم الجلوس.

وقد أقيمت لي مآدب كثيرة.. في طليعتها المأدبة التي أقامتها لي «القنصلية السورية العامة» في «سان باولو»، والحفلة التي أقامتها «لجنة الدفاع عن فلسطين».. وألقيت فيها كلمات وقصائد من أدباء وشعراء ـ منهم: المطران حريكة، والشاعر «القروي»، «رشيد سليم الخوري»، وشاعر عبقر «شفيق معلوف»، و«نصري سمعان»، و«حسني غراب»، و«نظير زيتون»، وغيرهم.

ولم تقم لي أية حفلة إكرامية في جميع المدن التي زرتها، إلا وألقي فيها عدد من القصائد والخطب.. ومازلت أحتفظ بأكثرها، وهي جديرة بأن تنشر في أكثر من كتاب ـ وهو ما يعمل له حفيدي الغيور المهندس «ماجد يونس».

جزى الله أولئك الأخوة الكرام خيراً.. وأعترفُ بأني كلما ذكرت تلك المواقف

الشريفة المخلصة - سواءً في «البرازيل» أو «الأرجنتين»، وسواهما، والتي كانت تبدو بحماس ورغبة واندفاع.. كنت أذكر قول الشاعر العربي - وكثيراً ما ردّدته:

يظنُّ الناسُ بي خيراً.. وإني لَشَرُّ الخلقِ - إنْ لمْ تعفُ عنّي

كما أذكر أني دُعيت لإلقاء محاضرة أخيرة في مدينة «سان باولو» عند انتهاء رحلتي، وقبل عودتي بأيام قليلة إلى الوطن الأم. وقد أصابني انحراف صحي عنيف قبيل إلقاء المحاضرة بساعات.. رافقه إسهال شديد - كان يضطرني للدخول إلى الحمام بين كل ١٥ و ٢٠ دقيقة.

واضطرب أصدقائي، واللجنة المكلفة بمرافقتي. وروّعت إدارة «النادي الحمصي» التي كانت دعت جمهور المغتربين لتلك المحاضرة. وأخيراً.. قرروا أن أقف وأعتذر، ثم أعود إلى الفندق.. بينما يتعاقب أدباء وشعراء على المنبر كل الوقت، لِيَسدّ الفراغ. ولكنّي بعد أن وقفتُ على المنبر، ونظرتُ إلى الجمهور المحتشد – وعدد كبير منه وقوف في زوايا القاعة الواسعة، والأروقة المتّصلة بها.. أحسستُ برغبة عميقة تدفعني إلى البدء بالمحاضرة مُرتجلاً طبعاً، وجميع محاضراتي وخطبي، بفضله تعالى، مرتجلة.. فما شعرتُ بنفسي إلا وأنا أندفع وأسترسل.. حتى بقيت ساعةً ونصف الساعة، دون انقطاع. وقد زايلني الألم الذي كنتُ أشكو منه.. ومدّني المولى بقوة وعزم وإقدام. وحينما نزلتُ عن المنبر زال عني المرض، وشُفيتُ تماماً، بفضله تعالى.

يبدو أنّ لتركيز الذهن، كما يقول علماء النفس، أثراً كبيراً في التغلب على الأعراض التي يشكو منها الإنسان. وهذا ما حدث لي - وهو من أغرب ما مرّ بي.

وظلّ «أبو الهدى الجندي»، وكان قد انتخب رئيساً للجمعية الإسلامية، في «سان باولو»، ظلّ طوال حياته يتحدّث عن تلك الحادثة الغريبة – وهو معجب ومستغرب رحمه الله.

* * *

وقد أقام لي ملك الصحافة الأرجنتينية – الذي كان يمتلك ٣١ صحيفة – ما بين يومية وأسبوعية.. موزّعة في عدد من المدن البرازيلية، إلى جانب عدد من

الإذاعات ومحطّات التلفزيون، ومن المؤسف أنـي نسيتٍ اسمه.. أقام لـي مأدبـة غداء ـ كان الدافع لها صديقه المغترب اللبناني الكبير «الياس عـاصي».. الذي زار سورية، فيما بعد، وحصلتُ لـه على وسـام استحقاق سوري درجـة أولـى ـ تقديراً لشخصيته ومكانته في المغترب.

وقد دعـا ملك الصحافة لحفلته الواسعة تلك.. رؤساء الأندية والجمعيات، وعدداً من أركان الجالية ـ فضلاً عن قنصلـيْ «سورية» و«لبنان». وتلطـف فحيّاني بكلمـة لطيفـة.. ذكر فيها أثر الجالية العربيـة فـي تقـدم «البرازيل»، وتطوّرها. وقد أجبتُه عليها بكلمةٍ قلت فيها:

إننا نشكرك من صميم قلوبنـا ـ وبالوقت نفسه.. نؤكد لك أن سطراً واحداً تكتبه في صحفك دفاعـاً عن قضيتنـا العادلـة ـ قضية فلسطين، ضد الامبرياليـة والصهيونية.. هو عندنا أفضل من أية حفلة تكريم تقيمها لنا.

ووقف المدعوون جميعاً .. وصفقوا طويلاً لهذا القول. واندفع صاحب الدعوة نحوي، وقد تُرجِم له ما قلته، وعانقني وأكّد لي .. أن صُحُفَه وإذاعاته ستهتمّ بالقضايا العربية وتؤيّدها.

وعلمتُ أنه كان عند عهده ووعده.

* * *

وحينما أزف وقتُ الرحيل.. عدتُ إلى الوطن ـ بعد أن زرتُ عدداً من المدن البرازيلية الهامة ـ منها «كوروتيبـا»، و«بورتواليكري»، و«كـامبرغراندي»، وغيرهن. وأرسل معي بعض المغتربين أمانات إلى ذويهم فـي الوطن الأم ـ تبلغ عشرات ألوف الدولارات، وقد سلِمت كلها إلى أصحابها، والحمد لله.

وبعضهم أرسل معي كميةً من الليرات الذهبيـة.. ضقتُ ذرعاً بحملها ـ نظراً لكثرتها وثقلها.. فأودعتها الحقائب التي أودعت فيها الحاجات والأمتعة، والهدايا التي قدّمت لي، وأُرسلت عن طريق البحر.. وقد وصلت كلها، وسلّمت لأصحابها.. مع الأمتعة الكثيرة التي أرسلت معها.

حينمـا وصلنـا «باريس»، ابن عمي «غانم» وأنا، كانت الطائرة التي نستقلها

إلى دمشق.. قد أقلعت قبل وصولنا ولم يكن معداً لها إلاّ رحلةً واحدة في الأسبوع. فانتظرنا إلى موعد إقلاعها في الأسبوع الثاني. وكنتُ راضياً عن هذا التأخير ومغتبطاً به، لأنه أتاح لنا أن نقضي بضعة أيام في «باريس»، حيث كانت الأمم المتحدة تعقد اجتماعاتها بكامل هيئاتها، بقصر «شايو» الضخم.

ومن المؤسف.. أن صوت مصر، في مجلس الأمن، هو الذي رجّح الكفة إلى جانب الولايات المتحدة ـ كما جرى الاقتراع على المكان الذي يكون مقر الأمم المتحدة الدائم: «نيويورك»، أو «جنيف» ـ «بسويسرا» حيث كانت «عصبة الأمم» سابقاً. وكان عدد أعضاء مجلس الأمن حينذاك أحد عشر، ومصر عضوة فيه. وتساوت الأصوات ـ ٥ نيويورك، و٥ لجنيف، وصوت مصر هو المرجّح.. فأعطته للولايات المتحدة. حيث وكر الصهيونية العالمية الخبيثة.. بدلاً من أن تعطيه لسويسرا ـ الدولة الحيادية بين الشرق والغرب. ولكن حدث هذا.. حينما كان «فاروق» ملك مصر هو الآمر الناهي! ومعروف عنه ارتباطه بالعجلة الأمريكية.. وتقيده بتوجيهات «البيت الأبيض».

وفي باريس حللتُ، وابن عمي، في فندق فخم، قرب «الكي دورسيه» ـ مقر وزارة الخارجية الفرنسية. وكنا نتنقّل باستمرار في أروقة الأمم المتحدة، ونجتمع بكبار السياسيين العرب.. وأبرزهم جميعاً «فارس الخوري» ـ بشخصيته الوقورة المهيبة التي تفرض احترامها على الجميع، و«الأمير عادل أرسلان» ـ بقامته المنتصبة، وشموخه الروحي، ووسامته النبيلة. و«رياض الصلح» بقسوة شخصيته، و«طربوشه» المائل دائماً إلى اليمين. والتقيتُ غيرهم من السياسيين العرب.. وليس ثمة مجال لذكرهم جميعاً.

وبدا «فارس الخوري».. أكثر الجميع تشاؤماً بالمستقبل، وعدم الاطمئنان لما ستتمخض عنه الأحداث. وعلى مائدة غداء، دعوته والسيدة حرمه إليها، صارحنا بصوته الجهوري، النافذ إلى الأعماق، بأن العربَ لم يرتفعوا بعد إلى مستوى قضيتهم... ويوم يرتفعون إلى هذا المستوى.. تصبح اسرائيل خرافة ـ مهما كانت قوتها، ومهما جرى لها من دعم وتأييد.

وكان «الفارس» يحتدّ وهو يأسف لأن العرب لم يرتفعوا إلى مستوى قضيتهم.. ولذلك أضاعوا فلسطين.

أما «الأمير عادل أرسلان» ـ وأيضاً على مائدة غداء دعوته إليها ـ فقد كان أقل تشاؤماً من «فارس الخوري».. ولكن أكثر تهجماً على بعض الزعماء العرب الذين كان يسميهم بأسمائهم.. ويتهمهم بالخيانة والمروق. وقال عن أحدهم.. إن زوجته يهودية. كما أخبرنا أنّ مندوب الاتحاد السوفياتي طلب الاجتماع بالوفود العربية أكثر من مرة.. ليبحث معهم موضوع التصويت على قرار التقسيم.. ويُنسق وإياهم الجهود للحؤول دون صدور القرار.. ولكنهم كانوا يرفضون! وذكر لنا أن أحد أولئك ـ وهو أمير.. ـ قال له بعصبية:

إن الروس أخطر من الصهيونية بكثير!!!

وهكذا... أُقِرّ قرار التقسيم.. وضاعت فلسطين بأكثرية ٥ أصوات فقط! ودعوتُ «رياض الصلح» للغداء أيضاً.. حتى نطلّعَ على وجهة نظره بالأحداث، فاعتذر ـ بحجة أن عنده مواعيد كثيرة.. لا يستطيع التملص منها! وكنت لقيته في بيروت أكثر من مرة. وحينما ألححت عليه أن يُبدي رأيه في مجرى الأحداث الدولية وأثرها في الأوضاع العربية.. فهز رأسه وقال:

ولو أنّ قومي أَنْطَقَتْني رماحُهمْ نطقتُ.. ولكنَّ الرِّماحَ أجَرَّتِ

وكان «اسماعيل الأزهري»، الزعيم السوداني المعروف، يحضر اجتماعات الأمم المتحدة ضمن الوفد المصري الرسمي ـ لأن السودان لم يكن قد استقل بعد. وكان ينزل بنفس الفندق الذي نزلنا فيه.

وكنتُ، وابن عمي «غانم ياسين»، نستعمل بطاقته، وبطاقة زميله أكثر الأحيان للدخول إلى أروقة الأمم المتحدة، والتجول فيها، وحضور بعض جلسات «اللجنة السياسية». وفي أحاديثه معنا.. كان يبدي تأففه من الموقف العربي ويقول:

لو أنّ العرب هدّدوا أمريكا وبريطانيا بمقاطعتهما.. وأيقنت هاتان الدولتان العدوتان أن العرب جادون بتهديدهم ووعيدهم.. لما انحازوا هذا الانحياز الفاضح

إلى جانب اليهود.

و«الأزهري».. ـ رئيس «حزب الاتحاد» الذي يدعو إلى وحدة السودان مع مصر، وخاض الانتخابات في الخمسينات، على أساس وحدة وادي النيل ـ أي مصر والسودان ـ وفاز حزبه بالأكثرية المطلقة، وأصبح أول رئيس وزارة بعد أن استقل السودان، وجلت بريطانيا عنه. وكان للرئيس «جمال عبد الناصر» يدٌ طولى بذلك، وفضل كبير.

وسنة ١٩٥٥ عُقد «مؤتمر باندونغ الشهير» ـ الذي اعتُبِر مؤشّراً على طريق الحرية، وأول خطوة فعّالة ونافذة لتحرير الشعوب من الاستعمار.. والنواة الأولى لمؤتمر «عدم الانحياز» ـ الذي ما يزال يوالي اجتماعاته، ويصدر قراراته البنّاءة.. ويثبت وجوده وفعالياته. وكان «جمال عبد الناصر»، و«نهرو» و«تيتو»، و«سوكارنو» ورئيسة وزراء «سيريلانكا»، هم الداعون لمؤتمر «باندونغ» التاريخي.

وحضر «اسماعيل الأزهري» المؤتمر بصفته رئيس وزارة السودان، ورئيس وفده للمؤتمر.. وقد انتُخب رئيساً للجنة السياسة ـ وهي أهم لجان المؤتمر.

* * *

وأريد أن أستبق الأحداث فأروي هذه الواقعة:

حين عقد مؤتمر «باندونغ» مرّ بعض أعضاء الوفد السوداني بدمشق، والتقوا «الشيخ عبد الرزاق حسّو»، نائب القامشلي، فدعاهم للعشاء في منزله، ودعاني معهم. وطوال تلك الجلسة.. كانوا يتحدثون عما جرى معهم في «باندونغ»، وهم متأثرون ومنفعلون ـ لأن «الرئيس جمال عبد الناصر» لم يرتح لانتخاب «الأزهري» رئيساً للجنة السياسية! ـ إذ كيف يتقدم، حسب ما قالوه، على مصر.. وهو محسوب عليها، وعلى رئيسها!

وزعموا أنّ «عبد الناصر» قد أبدى غضبه من ذلك التصرف ـ مما جعل السودانيين يعتبرون هذا نيلاً منهم، وإهانةً لهم.. ثم يجعلهم يتمسكون بإقليميتهم، وبشخصيّتهم.. ويعودون من المؤتمر بروح انفصالية ـ وهي غير الروح التي

قادتهم إلى الانتخابات، وجعلتهم يظفرون بالأغلبية!

من ذلك الحين.. بدأ «الأزهري» اتجاهاً مغايراً للاتجاه المصري! ثم توالت الخلافات، بعد ذلك، وتفاقمت!!

وأفٍّ للكرسي.. فإن كثيرين حينما يجلسون عليها، ويتمتعون بالسُّلطة والسلطان، ينسون مبادئهم.. ويتنكرون لشعاراتهم، ووعودهم وعهودهم.. ويتجهون اتجاهاً ذاتياً بحتاً – ولا يأبهون!

و«الأزهري - اسماعيل».. منذ مجيء «عبد الناصر» إلى الحكم وهو يحمل جواز سفر مصريّاً، ويتنقل بموجب مخصصات مصرية. و«عبد الناصر».. إلى جانب مطالبته بالجلاء عن مصر.. كان يطالب بجلاء الانكليز عن السودان – بل إنه ربطهما ببعضهما.. واعتبرهما موضوعاً واحداً، وقضية واحدة.

ولولا مصر.. والجهود التي بذلتها، والأموال التي أنفقتها.. لما استطاع حزب «الأزهري» أن يتغلب في الانتخابات على «حزب الأمة» – الذي يرأسه «المهدي».. وكان يرشح نفسه ملكاً للسودان... وقد وعده «تشرشل» بذلك، إبّان الحرب العالمية الثانية لكي يضمن وقوف الشعب السوداني إلى جانب بريطانيا.

بل قيل إن «المهدي».. كان يرى نفسه أهلاً لأن يكون «خليفة المسلمين»، وهو من سلالة الرسول ﷺ – وليس ملك السودان فحسب. وكان أنصار «المهدي»، حسب وسائل الإعلام العالمية، ينوف عددهم على ثلثي سكان السودان ومع هذا.. فقد استطاعت مصر، بواسطة وسائلها الإعلامية المتعددة أن تجعل حزب «الأزهري» يفوز بالانتخابات النيابية، ويشكل حكومة يساندها «علي الميرغني»، زعيم الطائفة المناوئة «للمهدي»، ومنافسه التقليدي، وهو حليف مصر في ذلك الحين.

وبكثير من اللباقة والحذر.. تعرضتُ إلى كل هذه الأمور – في حديثي مع الوفد السوداني. ولكن أجوبتهم كانت عنيدة ومسدَّدة. وقد وجهوا إليّ أخيراً دعوةً لزيارة السودان كي أطلع على واقع الحال فيه. فشكرتهم، ووعدتهم بتلبية دعوتهم الكريمة حينما تسمح الظروف بذلك.

وإن نفسي تواقة جداً لزيارة السودان، وبقية الدول العربية التي لم أتمكن من زيارتها، حتى الآن، وهي: مراكش وموريتانيا في المغرب العربي، وقطر، والبحرين والإمارات العربية المتحدة، وسلطنة عمان، واليمن، في المشرق العربي. وعسى أن أوفّق لذلك قريباً. أمّا مراكش فقد أتيح لي أن أبيت ليلة في احدى مدنها وأنا في طريقي لأمريكا.

* * *

وسافرنا إلى الوطن ـ بعد أن استمتعنا بباريس التي كانت قد نفضت عنها آثار الحرب العالمية الثانية.. وعادت ترتدي حلّتها القشيبة الزاهية.. وبعد أن ملأنا جعبتنا معلومات عن السياسة العربية ومخابئها، وقصورها عن اللحاق بالسياسة العالمية ـ في ذلك الحين ـ رغم وجود بعض السياسيين العرب الأفذاذ.. الذين يندر وجود مثيل لهم في العالم كله.

وحينما وصلنا دمشق.. زرتُ رئيس الجمهورية «شكري القوتلي»، ورئيس مجلس الوزراء «جميل مردم»، ووزير الخارجية «محسن البرازي» ـ وكنتُ أحمل له رسالةً من السفارة السورية في البرازيل.. وقد تلطفوا جميعاً وشكروني، وقدّروا جهودي بالدعاية للقضية العربية في أمريكا.

* * *

وثمة حادثة جرت معي في الفندق الذي نزلت به في باريس.. أحب أن أسجلها هنا ـ ولو ضحك القراء عليّ.. مثلما ضحكت أنا من نفسي.

في احدى الليالي أقيمت حفلة راقصة، بقاعة الفندق الواسعة، حضرها جمهور كبير. ووقفت في احدى زوايا القاعة أتفرج على الراقصين والراقصات. وتقدمت مني فتاة وسحبتني بيديها إلى وسط الحلبة.. وبدأت تدور حولي، وتدور بي حولها.. ولم يصدف أن رقصتُ مرة واحدة في حياتي قبل ذلك. ودست على قدمها شبه العارية. ويبدو أن «الدوسة» كانت قوية.. لأنها صرخت بشدة، فتوقف الجمهور عن الرقص، وتطلع إلينا.. فانحنيت، واندفعت للهرب، وأنا أشقّ الصفوف المحتشدة بصعوبة حتى خرجت من الفندق، وشرعت أسير بسرعة تشبه

الركض حتى وصلت إلى حديقة قريبة، فجلست على أحد مقاعدها وأنا أضرب على ركبتيَّ بيديَّ، وأضحك ـ مما استلفت نظر المارة واستغرابهم ودهشتهم.

وفي جريدة «الوطن» التي أصدرتها في الأرجنتين ـ كتبت «زاوية» بامضاء «لطفي» عنوانها: رقصت مرتين.. ذكرت فيها هذه الحادثة، ثم أنني رقصت مرة ثانية في بيت صديقي «عبد الكريم بلال»، بقرية «البرغلية»، وكان قد أقام مأدبة عشاء على شرف الأمين العام المساعد «عبد الله الأحمر» وانتظم الجميع بحلبة رقص، واضطروني لأن أكون بينهم. فجعلت أعلو وأهبط مما جعلني مدعاة لضحك الجميع، الأمر الذي مكنني من الهرب، والضحك على نفسي.

* * *

وفي جميع المناسبات والمواقف الرسمية، كان المسؤولون السوريون يوجهون لي عبارات الشكر للجهود التي بذلتها من أجل الدعاية للقضية الفلسطينية بين أوساط المغتربين. وقد علموا ذلك من الدبلوماسيّين السوريّين الذين يوافون وزارة الخارجية بكل ما يحدث.

ودُعيت للمآدب الرسمية التي أُقيمت تكريماً للمغترب «يوسف اليازجي» ـ الذي بنى جناحاً خاصاً، في جامعة دمشق، من ماله الخاص. وقد حضرتُ الاحتفال الرسمي بوضع حجر الأساس، لذلك الجناح، وحضر رئيس الجمهورية نفسه ذلك الاحتفال.

وما أن وصلتُ صافيتا.. حتى رأيتُ أخبار.. تلك الرحلة المثمرة قد سبقتني إليها.. والناس يتحدثون عما لقيتهُ من حفاوة كبرى فيها. وقد كتب كثيرون من المغتربين لأنسبائهم في الوطن الأم عنها... مما كان له ضجة واسعة في المحيط كله. وظلت الوفود تترى تتوالى للزيارة والتهنئة خلال أيام طويلة. وبدأ المؤيدون يزدادون ويتكاثرون.. وبدأتُ أقتحم معاقل كانت مغلقةً في وجهي.. وأعمّم فكرة التحرر من الإقطاعية والرجعية.

* * *

قبل وصولي لصافيتا بيومين اثنين.. حدث حادث مروع ينذر بشرّ خطير ـ إذ اغتيل «قسطون بشور» في مزرعته ـ وهو شقيق الطبيبين «اسكندر» و«ميخائيل بشور»، وهما من أعز أصدقائي. ووُجِّهت التهمة إلى أحد وجهاء المنطقة الذي توجد له أملاك مجاورة لأملاك «آل بشور».. ولكنه بُرِّىء من التهمة.. بعد أن سُجن طوال مدة المحاكمة. ويوم صدور الحكم ببراءته.. مرّ وأقرباؤه في مدينة «صافيتا»، وحلّوا بدار «محمد أمين رسلان» الذي يقع في الشارع العام. وما أن انتشر خبر وجودهم.. حتى التهبت مشاعر أقرباء المرحوم «قسطون»، ومشاعر الأهلين في المدينة.. فهجموا على بيت «محمد أمين» بضراوة وعنف. ولو لم يسرع رجال الشرطة، ويحاصروا البيت لحمايته من المهاجمين.. لحصل ما لا تُحمد عقباه.

وكان خطأ من المتَّهم ـ حتى ولو أنه بُرىء من التهمة.. أن يمر وأنسباؤه في مدينة «صافيتا» ـ حيث أسرة المغدور وأنسباؤه.. والجرح لم يندمل بعد!

وخطأ من أبناء مدينة «صافيتا» أيضاً.. أن يُقدِموا على ما أقدموا عليه ـ حيث حرقوا السيارة التي استقلها المتهم المبرأ ورفاقه.. كما حرقوا سيارة «محمد أمين» ـ وكأنَّ القدر قد انتقم لسيارتي التي حطمها أنصاره إبان الانتخابات سنة ١٩٤٧.

ووُجد من أشعل نار الفتنة ـ أو حاول إشعالها في القرى المجاورة «لصافيتا».. فاندفع الأهلون، وقد روعهم حادث الهجوم على البيت، واحراق السيارتين.. فقطعوا الطريق الموصلة إلى المدينة، وأقاموا حواجز عليها.. وبدأوا يترصدون الخارجين منها، والداخلين إليها ـ بشكل ينذر بالخطر، ويهدد بوقوع مأساة! كانت الحالة تنذر بأوخم العواقب، وأشدها وأقساها.

ولما وصلتُ إلى مقربة من «صافيتا».. كانت بقايا الحجارة على الطرقات، ورماد النيران التي أُشعلت حولها.. ما يزال ينفث دخاناً!

وحين وصولي. ذهبتُ إلى دار الدكتورين «اسكندر» و«ميخائيل بشور» أهدىء ثائرة جراحهما لمصرع شقيقهما، وأقدِّم التعازي لهما. وكانا ناضجين

حكيمين يضعان سمة الوعي والاتزان فوق أي اعتبار آخر.

وفوراً.. بدأتُ باستدعاء أصدقائي وأنصاري، من القرى المجاورة... ليعملوا معي على تهدئة الحال، ومنع الاصطدامات والفوضى... ووجوب المحافظة على حسن الجوار، والتعاون المخلص مع أبناء المدينة.. وجميعنا مواطنون متعاونون منسجمون.. ويجب أن نظلّ هكذا ـ وإلى الأبد.

وقد لقيت رغبتي ونداءاتي استجابةً من أهل القرى المجاورة.. الذين كانوا دائماً مندفعين نحو الواجب والحق، والعاملين في سبيل الخير والاصلاح.

وبعد يومين.. ذهبتُ و«خليل بشور»، و«دعاس بشور»، إلى دمشق ـ للعمل على تلافي الإجراءات العنيفة التي اتخذتها السلطة ضد أبناء المدينة، وأبناء القرى المجاورة الذين أقاموا الحواجز وأشعلوا النيران.. حتى لا تؤدي تلك الإجراءات إلى تعميق الجراح.. وتطورات أكثر أذى وخطورة.

وكان «فارس الخوري» قد عاد إلى دمشق فزرناه في مكتبه بمجلس النواب.. وأطلعناه على واقع الحال. كما زرنا بعض كبار المسؤولين.. وحققنا الأمل المرجوّ، والرّغبة المتوخاة المبتغاة.

كانت تلك الحوادث.. مقدمة لإثارة فتنة طائفية مخيفة. وبفضله تعالى، ومعونة الغيارى المخلصين، تمكنا من معالجتها وتلافيها.. وخنقها في مهدها ـ دون أن نجعلها تتضاعف وتتمادى، وتترك آثاراً وخيمة في النفوس.

* * *

خلال تلك الفترة، بعد جلاء المستعمرين عن البلاد، تعاقب عدد من الوزارات على الحكم. وعُدِّل الدستور، وانتُخب «القوتلي» رئيساً للجمهورية مرةً ثانية، وأصبح «جميل مردم» رئيساً لمجلس الوزراء.

وقويت المعارضة في وجه «مردم» بعد مأساة فلسطين. وثبت أن فشل الدول العربية باحتلال فلسطين، والقضاء على الصهاينة المجرمين.. لم يكن من الضّعف ـ بقدر ما كان من الإهمال، وعدم التهيئة والتنسيق.. ثم من خيانة بعض المسؤولين العرب! وقد ذكرتُ ذلك صراحةً في كتابي «من صميم الأحداث» الذي

طُبع في البرازيل سنة ١٩٦٨ ـ وأن التاريخ سيكشف فيما بعد حقيقة ما جرى، وتآمر بعض المسؤولين العرب لتنفيذ ما كان مقرراً، وحصول ما قد حصل!!

واتّهم «مردم» باستغلال الخطط العسكرية لأغراض خاصة!! وأنه، وهو المدني، يتدخل بأمور عسكرية بحتة إبان الهجوم السوري - حتى إنه اصطدم مرةً مع «العقيد توفيق بشور»، وهو من ألمع ضباط الجيش السوري، حينما أراد أن يضطره للقيام بعمل عسكري ـ من أجل قرى صديقه «الأمير فاعور الفاعور».. وعارضه الضابط «بشور» بقوة.. وأفهمه أن الخطط العسكرية هي غير الخطط الخاصَّة، والمصالح الشخصية. وكاد أن يحصل بينهما، ما لا تحمد عقباه ساعتئذٍ.. لولا تدخل الموجودين، والحيلولة دون تطور الموقف.

لقد كان «جميل مردم» ذكيّاً وداهية. ولكن ذكاءه ودهاءه كانا في المناورات السياسية.. وما يلزمها، ويتصل بها. وما نريد أن نتجنّى عليه ـ وقد انتقل إلى جوار ربه ولكننا نأسف.. لأن الذّكاء والدَّهاء لم يثبتا وجودهما في كيفية التنبه للخطر المحدق، والاستعداد المحكم للوقت العصيب!

وإنه لمن الجناية.. أن نضع المسؤولية كلها على عاتق «مردم» وحده، ونبرىء الآخرين من المسؤولية.. فهم كلهم متساوون أمامها، ومسؤولون أمام التاريخ.

والمسؤولية في ذلك الحين.. هي مسؤولية القادة.. وليس الشعب العربي الذي لم يكن له حول أو طول فيما يجري من أمور. وإنما كان شأنه في ذلك كما قال الشاعر:

ألقاه في اليَمِّ مكتوفاً، وقال له: إيّاك إيّاك أنْ تبتلَّ بالماء!

ونعود لتكرار القول: إن مأساة فلسطين .. هي آلم وأخطر ما مرَّ في التاريخ العربي كله منذ بدئه إلى الآن ـ لأنها تهدد الكيان العربي، والوجود العربي، والمصير العربي ـ تهديداً لم يسبق أن شهدت أمة من الأمم أعنف منه، ولا أقسى! ولولا تراخي القادة العرب، وتهاونهم.. لما حصلت المأساة.. وكان من المحال أن تحصل.

ويتحمل الشعب الفلسطيني جزءاً ضخماً من المسؤولية.. ولا يستطيع أحد من المؤرخين المنصفين أن يحرره منها.

ومرَّةً.. كنا في زيارة «جميل مردم» بمصيفه في «صوفر»، بلبنان.. وجرى حديث المأساة.. فعمل على تبرئة نفسه، وإلقاء التبعة... على المسؤولين العرب. وأذكر أننا كنا جريئين في بحثنا معه.. مما جعله يظهر امتعاضاً وارتباكاً ـ وهو من الدهاة الذين يستطيعون التغلب على مشاعرهم.. والظهور بمظهر يتلاءم مع الحديث والمحدثين.

* * *

وبعد استقالة «جميل مردم» كلَّف رئيس الجمهورية «رشدي كيخيا»، ثم «ناظم القدسي» بتأليف الوزارة، فاعتذرا كلاهما. فاستدعي الرئيس «هاشم الأتاسي» من حمص وعهد إليه بتأليف الوزارة.. فبقي ثلاثة أيام يحاول مع السياسيين الذين كانوا يرفضون، فاعتذر وعاد إلى حمص. وعهد رئيس الجمهورية إلى «الأمير عادل أرسلان» بتشكيل الوزارة. وبينما كان يعمل جاداً لتشكيلها ـ وهو سياسي مستقيم، نقيّ السمعة، كريم الأسم.. استُدعي «خالد العظم» من باريس بالخفاء، وكان قد عُيّن سفير سورية فيها، وطُلب منه أن يمكث في داره لا يبرحها.. حتى لا يعلم أحد بوصوله.

يقول «العظم» في مذكراته ـ التي ننقل عنها، ولا نثق بكل ما يرد فيها.. ! يقول إن رئيس الجمهورية «القوتلي»، طلب منه أن يبقى في داره لا يبرحها، وأن لا يجعل أحداً يعلم بوصوله.. حتى تحبط خطّة تكليف «الأمير أرسلان»، ويعلن فشله بتشكيل الوزارة.. وحينئذٍ يكلفه ـ أي العظم ـ بتشكيلها، ويهيء له الوسائل التي تضمن له النجاح. ثم يقول: إن «شكري القوتلي» ضرب بيده على صدره وقال: أنا بطل الجلاء.. وأنا أعرف كيف أتصرف!

واعتذر الأمير «عادل أرسلان» وشكّل «العظم» الوزارة، واشترك «الأمير أرسلان» وزيراً للخارجية فيها.

وجاء «حسني الزعيم»، رئيس الأركان العامّة، إلى السراي لمقابلة رئيس

مجلس الوزراء «خالد العظم».. وبقي في مكتب رئيس الديوان أكثر من ساعتين حتى «ظفر» بالمقابلة، وسُمح له بالدخول! ويقال أنه خرج شاحب الوجه، بادي التأثر. وبعد أيام من تلك المقابلة.. قام «الزعيم» بانقلابه المعروف، واعتقل رئيس الجمهورية، ورئيس الوزارة، وعدداً من الوزراء. وقد أُرسِل «القوتلي» إلى المستشفى ـ لأنه كان بحالة صحيّة غير مرضية، وأُرسِل بقية المعتقلين إلى السجن!

لم تكن مقابلة «الزعيم» لـ «العظم» هي سبب الانقلاب العسكري. فالفكرة ـ كما عُرف بعد ذلك ـ كانت تُعدّ في الخفاء منذ وقت غير قصير! وثمّة بواعث كثيرة للانقلاب الذي جرّ وراءه عدداً من الانقلابات، فيما بعد.

ومن تلك البواعث ما عُرف، أو خيّل للناس أنهم عرفوه.. ومنها ما كان للتكهنات عملها به. حتى أوشكت الحقيقة أن تضيع بين ركام التكهنات، والاستنتاجات، والتخمين والتساؤلات! ومنها ما ظلّ مخفياً لا يعرفه أحد، ولا يطلع على حقيقته إلا ناس معدودون.. رحل أكثرهم إلى الدار الآخرة.

ومن البواعث والأسباب التي أدّت إلى ذلك الإنقلاب ـ أو يُعتقد أنها أدّت إليه ما يلي:

١ ـ قيل إن السفير الأميركي زار رئيس الجمهورية «شكري القوتلي»، وطلب منه الإسراع بالتصديق على اتفاقية «شركة التابلاين» الأمريكية لتمرير خط البترول عبر سورية إلى لبنان. وكانت تلك الاتفاقية، مع اتفاقية تمديد خط شركة البترول العراقي «الآي بي سي» من كركوك إلى بانياس، كانتا معاً في المجلس النيابي موضع دراسة دقيقة.

فأجابه الرئيس.. بأن ذلك من صلاحيات المجلس النيابي، وأنه رئيس دستوري لا يتدخّل بشؤون السّلطة التشريعية. فخرج السّفير غاضباً، وقال لأمين عام القصر الجمهوري الذي خرج يودعه إلى الباب الخارجي، حسب البروتوكل المتّبع، قال له:

«قلْ للرئيس.. إذا لم تُصدّقْ الاتفاقية، خلال خمسة عشر يوماً، فسيأتي رئيس

غيره.. ليعمل على تصديقها»!!

وقدّمت الحكومة السورية احتجاجاً رسمياً على ذلك التصريح الوقح، والتهديد الغريب المريب!

وكان الأحرار السوريون يخشون أن يكون مرور خط الأنابيب الأميركي، في الأراضي السورية، مدعاةً لتدخل الولايات المتحدة في الشؤون السورية عند نشوب أي خلاف حول ذلك الخط.

٢ ـ وقيل إن «محسن البرازي»، وكان سكرتير الجمعية الكردية العالمية ـ وقد أثبت صفته هذه.. في مقال كتبه بمجلة «المقتطف»، في الثلاثينات، دفاعاً عن الفكرة الكردية التي تحلم بإقامة «دولة كردية».. تضمّ الأكراد في تركيا وسورية والعراق وإيران، وأن هذا الحلم.. هو الذي دفعه لتشجيع «حسني الزعيم» للقيام بانقلابه واستلام السلطة، وكلاهما كردي، ليكون الحكم في سورية سنداً لتلك الفكرة ومنطلقاً لها.

ومما شجع الناس على الاعتقاد بأن «محسن البرازي» كان وراء الانقلاب.. هو أنه بعد خروجه من السجن الذي ظلّ فيه ثلاثة أيام فقط.. عيّنه «حسني الزعيم» مستشاراً له ثم رئيساً للوزارة بعد فترة وجيزة.

ومن الإنصاف.. أن أذكر بأن «الرئيس القوتلي» لم يقل لي شيئاً من هذا ـ رغم إلحاحي الشديد لمعرفة دور «البرازي» بالإنقلاب. إذ كنت أُعِدّ كتابي المعروف عن «القوتلي»، والذي طبعته «دار المعارف المصرية» سنة ١٩٥٩ وعنوانه «حياة رجل في تاريخ أمة» وكان «القوتلي» يقول لي كلما ألححتُ عليه بالسؤال: يا أخي، الله أعلم.. ولا يزيد. وأمّا حرمه السيدة «أم حسّان».. فكانت تتهم «البرازي» ـ محسن ـ علناً وتشتمه، وتطلق عليه اسم: العقوق الخائن. وقد طلبت زوجة «محسن البرازي» مقابلتها، فرفضت استقبالها.

وإني، شخصياً، أحتفظ لـ «محسن البرازي» بذكرى كريمة. فقد زرته بعد عودتي من أمريكا، ولقيتُ منه وداً وتقديراً، وقد تأثرتُ لما حصل له. وعلمتُ من أحد الذين أشرفوا على عملية الإعدام.. أنه توسّل إليهم ليبقوا عليه ـ لأن له

أولاداً من زوجته الأولى.. لا تحبُّهم زوجته الثانية، فلم يصغوا لرجائه وتوسلاته.

٣ ـ وقيل أن طموح «حسني الزعيم» جعله يستثمر نقمة الجيش على السلطتين التنفيذية والتشريعية معاً.. وذلك بعد الحملة العنيفة الضارية التي شنها النائب «فيصل العسلي» على الضبّاط، ورئيس أركان الجيش.. واتّهمهم اتهامات غير سليمة ولا كريمة!!

وكان «العسلي» ـ «فيصل» ـ قد أسس حزباً سياسياً في دمشق.. اتّسم بطابع شبه عسكري.. مما جعل السلطة تراقبه مراقبةً دقيقة ـ لأنها اعتبرت طموحه يتعدّى الواقع! وعُلم.. أن الرئيس «القوتلي»، حينما دخل ضباط لاعتقاله قال: عملها «فيصل»!

وقد أذيع عقب الانقلاب بلاغ جاء فيه: «إن الدافع إلى الحركة التي قام بها الجيش هو الهجمات المتكررة والإهانات الموجَّهة إليه ـ داخل المجلس النيابي وخارجه».

وقيل إن «حسني الزعيم» جمع كبار ضباط الجيش، في مقر قيادته «بالقنيطرة»، وحدّثهم عن خطورة الوضع، بالنسبة لقادة الجيش.. فوافقوه على فكرة الإنقلاب العسكري واستلام السلطة من المدنيين. وحينما حصل الانقلاب.. كان في طليعة المعتقَلين «فيصل العسلي».. وقد قسوا في معاملته، وحلّقوا شعر رأسه الطويل!.

وكان الضباط قد تقدَّموا بمذكرة احتجاج على تهجم «فيصل العسلي» على الجيش. وحمل «المذكرة» الضابط «بهيج الكلاس» إلى رئيس الجمهورية. ومع أن «المذكرة».. كانت تتضمن ما يشبه الإنذار النهائي.. عن عدم تحمل الجيش تلك الحملات المهينة في المجلس النيابي.. فقد نقل عن «القوتلي»، بعد استلامه مذكرة الضباط، أنه قال: إن الضباط يتصرفون مثل مخاتير القرى في تقديم العرائض!

٤ ـ وقيل إن نقمة الشعب على السلطة بعد مأساة فلسطين،.. والنكسة القومية الحادة التي مُنيت بها الأمة العربية.. واتهام القادة، في ذلك الحين، بالتقاعس،

وأشياء أخرى لا مجال لذكرها.. كانت تلك النقمة العارمة الضارية.. من جملة الأسباب المشجعة للانقلاب!

٥ - وقيل إن ازدراء رئيس الأركان والاستهانة به ـ عندما طلب مقابلة رئيس الوزراء، قد أوجد استياءً في نفسه، ونفوس الضباط الذين اعتبروها إهانة للجيش.

٦ - وقيل، بعد هذا، وربما قبله.. إن في طليعة أسباب الانقلاب ـ كما يذكر «باتريك سيل» في كتابه «الصراع على سورية» ـ كان موضوع السَّمْن الفاسد.. حينما زار رئيس الجمهورية الجبهة الأمامية، ونقاط التموين فيها.. وشعر أنّ رائحةً غير كريمة تنبعث من مطبخ الميدان. وحينما استفهم عن ذلك.. علم أنها رائحة سمن يُغلى به. فطلب أن تُفتح أمامه صفيحة سمن جديدة.. وتُقلى بيضة من سمنها. وانبعثت حينذاك رائحة تزكم الأنوف. وبعد أن تذوق الرئيس السَّمن حكم عليه برداءة النوع. وأُرسِلَتْ عينات منه للفحص.. وتبين أنه ليس سمناً من الحيوان.. وإنما هو مأخوذ من بقايا العظام! وحينما ظهرت نتيجة الكشف المرعبة..أمر رئيس الجمهورية باعتقال مدير تموين الجيش، وتقديمه للمحاكمة.

وكان «حسني الزعيم» حينما عُيِّن رئيساً للأركان.. قد أجرى تعديلات في عدد من المناصب الأولية.. وعيّن «العميد أنطون بستاني»، رفيقه بالمدرسة، مديراً للتموين، وبدلاً من أن يضعه في السجن ـ كما طلب الرئيس القوتلي ـ وضعه في وزارة الدفاع. وعلم «القوتلي» بذلك.. فأمر بنقله إلى سجن المزّة فوراً..

وسرت شائعة السمن الفاسد بين الناس.. فكان لها أثرها في النقمة العارمة التي شملت الأوساط جميعاً.

وقيل إن «البستاني»، مدير التموين قد أرسل من السجن إلى «حسني الزعيم» من يخبره أنه إذا كان هناك ثمة استجواب ومحاكمة.. فسيضطر لقول كل شيء..! وخشي «الزعيم» رئيس الأركان من هذا التهديد.. فأسرع بالانقلاب لينقذ نفسه ـ وليس لينقذ البلاد، كما كان يدّعي!

وكتاب «الصراع على سورية».. يشير إلى أن سجل رجل الانقلاب ليس

بالنظيف! ويروي أنه عندما تقدّمت القوات البريطانية وقوات «ديغول»، سنة ١٩٤١ لاحتلال «سورية» و«لبنان»، وإقصاء القوات الفرنسية التابعة لحكومة «فيشي»، ويرئسها الماريشال «بيتان».. عهدت هذه إلى «حسني الزعيم» بتنظيم عمليات فدائية ـ ضد البريطانيين والديغوليين الغُزاة.. ووضعت تحت تصرفه مبلغ ٣٠٠ ألف ليرة سورية. ولكن حينما اضطربت الأحوال، وبدت قبضة «الفيشيين» ميؤساً منها. توارى «الزعيم» والأموال معه. وبعد انتهاء الحملة القصيرة الأجل.. فضح «الفيشيون» هرب تابعهم «حسني».. وأعلنوا موضوعه في نداء إذاعي وجهوه إلى خصومهم قوات «فرنسا الحرة» وإلى المواطنين.. فقُبِض عليه، وقُدِّم للمحاكمة ـ حيث حُكِم عليه سنة ١٩٤٢ بالسجن عشر سنوات، مع الأشغال الشاقة. ولكن «القوتلي» أطلق سراحه بعد نهاية الحرب.

هذا ما ورد في كتاب «الصراع على سورية» ـ وذلك استناداً إلى تصريحات بعض السياسيين السوريين.. ونحن نورده دون التعليق عليه.. ولا نستطيع الجزم بصحة ما ورد في ذلك الكتاب، عن البواعث للانقلاب ـ وإن يكن، كما يدّعي مؤلفه، مستقىً من جهات مطّلعة، ومصادر معروفة لأنّ جميع الذين ذكرهم، واستند إلى أقوالهم كانوا ضالعين في السياسة.. وهم يرغبون بتسجيل وجهات نظرهم، وفق اتجاهاتهم وميولهم.

ومن المؤسف أن نكون هكذا... ولكنّ واقعنا المؤلم هو هكذا..!

ويقول «اللواء راشد كيلاني» في مذكراته ص ١٠٣ ما يلي:

«يذكر زملاء «حسني الزعيم»، ومعارفه، أنه كان مدمناً على لعب القمار.. وأنه عندما كان قائد سرية في لواء الإسكندرون، أيام الانتداب الفرنسي، لعب في احدى الليالي حتى خسر كل ما معه من دراهم. وفي اليوم التالي ـ عندما قبض رواتب جنوده من المصرف جاء بها إلى مكان اللعب وأخذ يلعب بها ــ علّه يستعيد ما أضاعه. فخسر جميع رواتب السّريّة.. ولم يجد سبيلاً إلا توزيع السلاح على جنوده والذهاب بهم إلى اللاعبين ليستولوا على كل ما في حوزتهم! وقد أعلم جنوده بأن هؤلاء الأشرار.. هم الذين سرقوا رواتبهم»!

* * *

هذا العرض الطويل للانقلاب العسكري الأول، والأسباب التي قيل إنها أوجبته وأدت إليه.. كان لابد منه، ولا غِنىً عنه ـ لأن الانقلاب حدث بفترة مررنا بها، ولها أثرها في مجرى حياتنا.. وفي الأحداث التي أعقبته، وكان مقدمةً لها، ومنه منطلقها.

وقد جاء في مذكرات «خالد العظم»:

(.. أما الأسباب الحقيقية لانقلاب «حسني الزعيم».. فتنحصر في كونها حركة طائشة.. قام بها رجل أحمق متهوِّر، هو «حسني الزعيم»، أراد حماية نفسه من العزل والإحالة على المحاكمة ـ بتهمة الاشتراك في صفقات مريبة وخاسرة تعاقدت عليها مصلحة التموين في الجيش، مع بعض الملتزمين، «المتعهدين»، والذين قدَّموا بضاعة فاسدة، وقبضوا ثمنها مضاعفاً. إلا أني لا أُستبعد الدور الذي قامت به بعض الدول الأجنبية في تحضير الانقلاب، وفي تشجيع «حسني الزعيم» على الاقدام عليه). ا.هـ

* * *

وكان أخصام «شكري القوتلي» يتهمونه بأنه وراء «الشركة الخماسية»، وأنه مساهمٌ بها وباحتكاراتها. وكان لتلك الشركة استثمارات واسعة بالإسمنت، والسكر، والصابون، والقطن، والزجاج، والبترول، وصناعة الأنسجة المختلفة، ولم يكن لـ «شكري القوتلي» أية علاقة بها، وقد تأكدتُ من هذا ـ حينما وضعتُ كتابي عنه. وإنما كانت تربطه بأصحابها الخمسة صلات عائلية، وصداقة شخصيَّة ـ ليس أكثر. ومن غير المستبعد أن يكون أخصامه هم الذين أطلقوا هذه التهمة.

ومن البداهة.. أنّ أولئك «الأقطاب» كانوا يعرفون كيف يستفيدون من الصداقات الشخصية والعلاقات الخاصة.. ومن غير المستبعد أن يكون «القوتلي» قد لبّى طلباتهم.. فلحقت به تلك التهمة ـ التي لا أساس لها من الصحة.

ومن الانصاف للحقيقة والتاريخ أن أروي هذه القصة:

قبل أن أرحل إلى أمريكا سنة ١٩٦٤ لقيني «فؤاد محاسن» الأمين العام السابق للقصر الجمهوري، وقال لي: منذ فترة وأنا أبحثُ عنك ـ لأنَّ في جعبتي

قصة أحب أن أرويها لك.. وكان يجب أن أطلعك عليها قبل نشر كتابك عن «شكري القوتلي». فدخلتُ وإياه إلى مكتب صديق له، وشرع برواية القصة المثيرة، قال:

بعد أن قام «حسني الزعيم» بانقلابه العسكري ـ وكنتُ قد نُقلت من الأمانة العامة بالقصر الجمهوري، إلى الأمانة العامة بوزارة الداخلية، وعُيّنت رئيساً لبلدية دمشق بالوكالة. وكنتُ أشغل الوظيفتين ـ وهو ما لم يُتح لأحد قبلي شغلهما معاً. وبعد ثلاثة أيام من انقلاب «حسني الزعيم» اتصل بي شخصياً، وقال لي:

فؤاد.. لقد عينتُك رئيساً للمحكمة التي ستحاكم الخائن «شكري القوتلي». فطلبتُ منه أن يخصّص لي موعداً لمقابلته، فقال: تعال الآن. فذهبتُ، وشكرتُه على ثقته بي، ثم اعتذرتُ عن قبولي المهمة ـ لسببين:

أولاً: لأنّ لـ «شكري القوتلي» أيادي كثيرة عندي، وأنا مدينٌ له بها.

ثانياً: لأني أعتقد ببراءته مما يُنسب إليه ـ كما أعتقد أنه أنزه شخص تولّى الحكم في هذه البلاد قبل الآن. وهو طوال وجوده في رئاسة الجمهورية لم يتقاض ليرةً واحدة من راتبه.. وإنما كان ينفقه على أسر الشهداء. وعندنا في القضاء.. أن القاضي متى أعرب سلفاً عن رأيه بقضية.. فليس من حقه حينئذٍ النظر بها ـ مهما كان نوعها.

لذلك.. فإني أعتذر عن قبول المهمّة التي تكلفني بها. وما أنهيتُ كلامي ـ يقول فؤاد محاسن ـ حتى استند «حسني الزعيم» على ظهر مقعده، وشرع يضحك ضحكته «الهستيرية» المعروفة: هأهأهأ.. ! وقال:

ولَكْ فؤاد.. أنت مجنون! إذا كنت تعتقد أن «شكري القوتلي» هو أنزه رجل في هذه البلاد.. فأنا أقول: أنه أنزه رجل في الأمة العربية كلها. واسمع ما جرى لي معه:

كنتُ ضابطاً في الجيش الفرنسي وسُرِّحت منه، وأصبحتُ دون عمل. ومرَّ وقت ليس معي ما يُطعمني. فكنتُ أنتظر قرب مطعم لأرى شخصاً أعرفه يدخل

إليه، فأدخل وراءه، وأجلس إلى مائدته ليدفع عني ثمن الطعام. وكثيراً ما كنت أدخل أحد المقاهي وأتصفح الوجوه.. حتى أرى من أعرفه لأجلس إلى جانبه كي يضيفني فنجان قهوة وسيكارة! وهكذا كانت حالي ذلك الوقت. وخطر لي أن أرسل إلى «شكري القوتلي» رسالة في البريد أعرض له وضعي، وما أنا فيه من حاجة وضيق. وفي اليوم الثاني جاء شرطي يبحث عني، ويطلب مني أن أذهب إلى القصر الجمهوري. وذهبت، فأحالوني إلى «أمين الصندوق» الذي أخبرني بأن الرئيس قد خصص لي من راتبه ٢٥٠ ليرة سورية شهرياً. وعيّنني بعد ذلك مديراً للشرطة، ثم رئيساً للأركان.

«ولك فؤاد».. «شكري القوتلي» أشرف إنسان عرفته في حياتي. ولكن.. بماذا نبرر عملنا ـ وقد اعتقلناه، ووضعناه في السجن، وأخذنا الحكم منه؟ وماذا نقول لهذا الشعب؟ ـ ولفظ كلمات بذيئة وحقيرة.. بحق الشعب!! وبماذا نبرر عملنا إذا لم نتهم «القوتلي» بالخيانة والسرقة، ونحاكمه ونُدِنْهُ، ونجد لأنفسنا مبرراً أمام الناس ـ لما قمنا به ضده، وما فعلناه؟!

هذا ما رواه لي «فؤاد محاسن»، وهو ما يزال حياً، وأقسم بالله، ووضع يده على صدره.. مؤكداً أن هذا ما جرى معه، وما سمعه من «حسني الزعيم». وأنا أنقله عنه وأنشره ـ كما سمعته منه.

في كتاب «ملفات السويس» ـ للصحفي الكبير المعروف «محمد حسنين هيكل» ـ جاء ما يلي:

«لقد تأثر التاريخ العربي الحديث ـ ليس فقط بسيطرة الشركات العملاقة الكبرى، على المنطقة واحتكاراتها لثرواتها، وإنما تأثّر بالصراعات على الامتيازات فيها. وقد كان الصراع بين شركة البترول البريطانية ـ العراقية، وشركة «أرامكو» الأميركية هو المحرك الأساسي لسلسلة من الانقلابات العسكرية وقعت في سورية سنة ١٩٤٩».

«وقد بدأت السلسلة بانقلاب في دمشق» قام به «الزعيم حسني الزعيم».. وتبين بعد قليل، أن الانقلاب من ورائه «شركة أرامكو».. التي وقّع لها «الزعيم»

على امتياز بمدّ خطّ لأنابيب البترول ـ بين مناطق الانتاج في السعودية، وموانىء البحر الأبيض المتوسط عبر سورية «خط التابلاين».

«وما هي إلا أسابيع.. حتى وقع انقلاب ثانٍ قاده «سامي الحناوي»، وتبيَّن، بعد قليل أيضاً، أن القوّة المحركة هي شركة البترول البريطانية ـ العراقية، وكان أول قرار اتُّخِذ بعهد «الحناوي» هو الغاء اتفاق خط الأنابيب ـ بين السعودية، والبحر المتوسط»! انتهى.

* * *

بعد الانقلاب حاول «حسني الزعيم» تبرير عمله الذي يتعارض مع نصوص الدستور، ويتنافى مع الديموقراطية وسُبُلها وتعاليمها. ففاوض النواب لتشكيل حكومة جديدة في ظل الانقلاب. ورفض «فارس الخوري» تكليفه لتشكيل الوزارة، كما رفض «الحزب الوطني»، و«حزب الشعب». وكان موقف «رشدي كيخيا» رئيس حزب «الشعب» وزعيم المعارضة، جريئاً وشريفاً، ومنسجماً مع حرمة الدستور الذي أقسم اليمين على صيانته والتّقيد بأحكامه. وأبى حتى مجرَّد البحث معه في هذا الموضوع.

ولكنّ جريدة «حزب الشعب»، بعد تعطيلها أسبوعاً، أعلنت تأييدها التام لـ «الزعيم»، وأطرت نظام حكمه في بيان جاء فيه: «.. إنَّ هناك كل دليل على أن سورية قد دخلت عهداً جديداً أوجده الزعيم «حسني الزعيم». وإذا كان قد قُدِّر للعرب أن يتمتعوا ثانيةً بالمجد.. فلسوف يحتل «الزعيم» مكاناً بارزاً في صفحات التاريخ» ا.هـ.

«أكرم الحوراني».. كان وراء أكثر الانقلابات التي حدثت سنة ١٩٤٩ وقد عيّنه «حسني الزعيم» مستشاراً له في وزارة الدفاع، وخصّص له مكتباً في الأركان.

قال «محمد كرد علي»: لقد تولّى الجيش السلطة.. وبدأ ينظّف سراي الحكومة القذرة بطرد أولئك الذين ليست الجمهورية بحاجة إليهم ــ وهم الدّجّالون، والموظفون المرتشون، وغير الأكفاء! إنّ «الزعيم» وضع حداً للاستبداد، «ومنع

تحلّ الجمهورية السورية»!

و«ميشال عفلق».. أصدر بياناً حلّ فيه «حزب البعث».. وطالب بتشكيل حكومة مؤقّتة، ومحاسبة المسؤولين عن فضائح الحكم الماضي!

و«إحسان الجابري».. أبرق مؤيداً «الزعيم»!

و«صبري العسلي».. أعلن أن « الحزب الوطني» قرر التّعاون مع «الزعيم»! و عُرِف عنه أنه شارك في وضع دستور «الزعيم» - بصفته رجل حقوق، محامياً، وقبض مبلغاً من المال لقاء أتعابه!

و«نبيه العظمة».. قال لي مرةً إنه قال للزعيم: إن البلاد بحاجة إلى زعيم ويمكن أن تكون أنت «الزعيم»!

و«فارس الخوري».. قال لي عن «حسني الزعيم»: إنه زعيم مضروب بثلاثة: زعيم بالكنية، وزعيم ـ عميد ـ بالرتبة، وزعيم الشعب!

وهكذا.. ثبت أن الشخصيات السورية، في ذلك الوقت، لم تكن بمستوى المسؤوليات الدستورية ـ كما كان يجب أن تكون! وأنّ نقمتها على الحكم في عهد «القوتلي».. لا تبرر تنكّرها للدستور، وتأييدها أولئك الذين عبثوا به.

ونشرت الصحف حينذاك.. أن «فارس الخوري» ـ وهو من هو.. من حيث الطاقة العلمية والخلقية، والنضال الشريف في سبيل الاستقلال.. نشرت أنه أفتى بشرعية الانقلاب، وأنه لا يتعارض مع أحكام الدستور. وقد أعطى بذلك تصريحاً للصحف جاء فيه: «إنّ الانقلاب قد كفل للرجال الخيّرين عصراً من الاستقرار الدائم طالما تاقوا إليه... يقوم على مبادىء العدالة مع الدَّعم الشعبي للحكومة. والأمل يملأ فؤادي بأن «الزعيم» سيتقدم. بحزم وسلام حتى يقيم حياة دستورية، وحكماً جمهورياً يتفق وإرادة الأمة»!

وكان ما نشر عن لسانه غريب جداً، ويستدعي وضع أكثر من علامتي استفهام وتعجب، في تاريخ الرجل الكبير الحافل بالمفاخر والمآثر والأمجاد.

ـ ومع هذا.. فإنه غير مبّرر للرجل الكبير الكبير على الإطلاق.

ومن الإنصاف للحقيقة والتاريخ.. أن ننشر هنا ما نُشِر، في الصحف العراقية،

عن لسان «عوني الخالدي»، المبعوث العراقي وقتذاك لسورية، وهو ما يتنافى مع التصريحات السَّابقة للشخص المرموق «فارس الخوري».

قال الخالدي:

إن الانقلاب في نظر «فارس الخوري» أعظم كارثة حلّت بسورية منذ تصفية جماعة «تركيا الفتاة». وأنه أي فارس الخوري ـ لا يستطيع الآن، بعد هذه الفترة من الحياة العامة الكريمة، التعاون مع حكومة غير شرعية. وأضاف: أنه لا خطّة لدى «حسني الزعيم» سوى كنس الساسة القدامى، وطرح دستور جديد».

وهذا القول يتعارض تماماً مع البيان الذي نشرته الصحف السورية، عن لسان «فارس الخوري».. والذي كان، على ما يبدو، موعزاً به لإحلال صفة الشرعية على الانقلاب.

وكلمة من «فارس الخوري» لها أثرها وتأثيرها، وصداها البعيد.

* * *

وأخيراً.. حلّ «الزعيم» مجلس النواب، وأخرج «محسن البرازي» من السجن، ويقال إنّه ـ أي البرازي ـ هو الذي أصرّ على إدخاله إليه... للتغطية على موقفه من الإنقلاب. وبعد إخراجه من السجن عيّنه مستشاره الخاص.

وألفّ «الزعيم» وزارة برئاسته.. محتفظاً لنفسه بوزارتي الدفاع والداخلية، واشترك معه فيها: «عادل أرسلان»، «فيضي الأتاسي»، «حسن جبارة»، «أسعد كوراني»، «خليل مردم»، «مجد الدين الجابري»، «فتح الله الصقّال»، «نوري الأيبش». وعرض على الوزراء اتفاقية «التابلاين»... فانتقدها «فتح الله الصقّال»، واعتبر نصوصها ماسّة بسيادة البلاد. وأيّده بعض الوزراء.. ويقال إن «حسني الزعيم» كان يتمشّى في القاعة، وهو يستمع لآراء الوزراء. وأخيراً سأل وزير الخارجية «عادل أرسلان» رأيه.. فأيّد ملاحظات زملائه، فتناول «حسني الزعيم» الإتفاقية من أمامهم ووقّع عليها، وقال لهم: أنا أراها صالحة!

كما وقّع على اتفاقية تسمح لشركة «إي بي سي» فتح خط جديد لها عبر الأراضي السورية إلى الشاطىء السوري. وصادق على اتفاقية النقد مع فرنسة

وكانت الاتفاقيات الثلاث.. موضع أخذ ورد، في عهد «القوتلي» مع الدول الثلاث: أمريكا، وبريطانيا، وفرنسة.

وحدّد يوم ٢٦ حزيران ١٩٤٩ موعداً لانتخاب رئيس الجمهورية باستفتاء شعبي، والتصويت على الدستور المقترح. وانتُخِب «حسني الزعيم» رئيساً للجمهورية.

وبعد ظهور نتيجة الانتخابات كلّف «محسن البرازي» بتأليف الوزارة.

* * *

وللأنصاف، وإقرار الواقع التاريخ، نعترف بأن «القانون المَدني» الذي يُعتبر من أفضل ما وُضِع.. إنما أُقِرَّ في عهد «الزعيم»، وكذلك «القانون الجزائي». وهو أول من اعترف للمرأة بحق الانتخاب ـ وإن يكن جعله مقصوراً على المتعلمات منهنّ. وأدخل على مناهج «جامعة دمشق»، ونظامها، كل ما هو عصريّ وحديث.. ومنع ألقاب «باشا»، و«بيك»، و«أفندي». وفي عهده صُفيت «الأوقاف الذريّة»، وأُلغي تشريعها.

ولا شك أن عهده القصير الذي لم يستمر إلا أربعة أشهر وبضعة عشر يوماً، قد تميّز بجوانب من الإصلاحات القانونية والسياسية والاجتماعية. ويُعزى ذلك إلى معاونيه في الحكم، وفي طليعتهم: «الأمير عادل أرسلان»، و«محسن البرازي»، و«حسن جبارة»، و«فتح الله الصقّال» ـ لأن «حسني الزعيم» كان محدود الذّكاء والتّفكير.. كما يعرف ذلك كل من عرفه.

وقد زرتُه، في مطلع عهده، مع المربّي الكبير «دعاس بشور» ـ الشقيق الأكبر للواء «بديع بشور»، وللصديق الصدوق «سعد الله بشور». وقد كوّنت عنه آنذاك فكرة ـ وهي أنه سطحي وعادي. ولكن نفسه لا تخلو من طيبة.

ولكن.. إلى جانب الإصلاحات الداخلية.. فقد اتّسم عهده بفوضى سياسية لا حدّ لها ـ إذ أنه اتجه في الأيام الأولى إلى العراق والأردن.. وطلب بإلحاح عقد اتحاد معهما! ثم اتّجه بعد ذلك إلى السعودية ومصر، وأدار ظهره لبغداد وعمّان.. وأغلق الحدود مع الأردن والعراق.. وهدّد كل من يتحدث عن العراق بالسجن

ست سنوات!

وأشيع أنه سيعقد معاهدة مع فرنسا، واتفاقاً مع اسرائيل.

وقد أدّى سعيه للتّقارب مع تركيا.. وطلبه بعثة من الجيش التركي لتدريب الجيش السوري.. أدّى ذلك.. إلى نقمة الشعب السوري الذي يحقد على الأتراك أعداء العروبة ومغتصبي لواء «اسكندرون»..

وأُشيع عنه.. أنه أمر مدير مكتبه العسكري بوضع الخطط من أجل تنظيم حرس خاص من المسلمين البوغسلافيين.. يقسمون يمين الولاء له فقط!

وقد وصل به التعالي والغرور إلى حد لا يطاق ـ حتى أشيع أنه قال لزوجته مرّة: ستصبحين «ملكة» قريباً!!

وقال «الأمير عادل أرسلان» عنه بعد عودته من مصر، واتفاقه مع فاروق: لقد عاد من مصر.. وهو يعتقد أن الدنيا في قبضة يده! ورُوِي عنه أنه قال: سأشنق كل من يتحدث عن العراق.

وقال لي «حسن جبارة»، وزير المالية في عهده، إنه كان ينوي إقصاء «محسن البرازي» ـ لأنه كان يعارضه في بعض تصرفاته.. كما أقصى نسيبه «حسني البرازي» من محافظة حلب، ووضعه في السجن.

ومن أسوأ ما قام به «حسني الزعيم» من عمل.. تسليمه «أنطون سعادة» زعيم «الحزب السوري القومي» إلى السلطات اللبنانية التي أعدمته ـ مع أنه هو نفسه الذي دفعه للقيام بثورة ضد الحكم اللبناني، وأعطاه مسدسه الخاص، ثم سلّمه إلى الحكومة اللبنانية التي أعدمته! وكتب «المطران حريكة» حينذاك مقالاً افتتاحياً في جريدة «القبس» عنوانه: «لقد استضعفوك فوصفوك».. ومُنِعت الجريدة من الصدور فترة طويلة!

ولا شكّ أن ذلك التصرف المشين مع «سعادة» كان مأساة مؤلمة، وموقفاً مزرياً ومعيباً.

وكثر توسط الزعماء العرب في ذلك الحين لإطلاق سراح «شكري القوتلي». ولكن لم يُطلَق سراحه إلا بعد أن استقال من منصب رئاسة الجمهورية. وقد كتب

الاستقالة، على ورقة صغيرة ـ كما ورد في كتاب «هاني الخيّر»: «طرائق وصور من دمشق» وهذا نصها:

«أقدم إلى الشعب السوري النبيل.. استقالتي من رئاسة الجمهورية، راجياً لـه العزّ والمجد».

* * *

بعد أربعة أشهر ونيف.. من استيلاء «حسني الزعيم» على السلطة.. قام الضابط «سامي الحناوي» بانقلاب مفاجىء. وأُلقي القبض على «حسني الزعيم» و«محسن البرازي»، وأُعدما بنفس الليلة. وأمّا مستشاره، ورسوله للأقطار العربية «نزيه فنصة»، فقد كان خارج البلاد.. ولذلك نجا. وقيل إنّ «محسن البرازي» توسل لمعتقليه أن يبقوا على حياته ـ لأن زوجته الثانية لا تحب أولاد زوجته الأولى.. ومن أجل أولاده توسل للابقاء عليه. ولكنهم لم يصغوا لتوسُّله ـ لأنهم اعتبروه مسؤولاً عن أكثر أعمال «حسني الزعيم» ـ وربما كان الواقع عكس ذلك.

وكان من أبرز الذين تعاونوا مع «الحناوي» وكان لهم شأنهم حينذاك.. «محمد معروف»، قائد الشرطة العسكرية التي لعبت دوراً رئيسياً بالانقلاب.

وحينما بلغ الضابط «بديع بشور» خبر الانقلاب، وكان حينئذٍ رئيس المخابرات العسكرية، اندفع إلى مقر رئاسة الأركان، وجعل يناقش الضباط بلهجة غاضبة. ويقول لهم: إن وضع البلاد لا يتحمل انقلاباً، عسكرياً آخر... ولكنهم لم يتعرّضوا له ـ نظراً لسمعته الكريمة في الجيش، ولما كان يتمتع به من محبة وتقدير.. وإنما طلبوا منه أن يعود إلى منزله ويبقى فيه. وأعلنوا له أنهم لا يريدون الإساءة إليه.. لأنهم يقدرونه ويعتبرونه.

ودعا زعيم الانقلاب الجديد رجال السياسة لتشكيل حكومة جديدة، واتفقوا فيما بينهم على أن يرئسها «هاشم الأتاسي»، القطب السياسي الكبير، وموضع احترام الفئات والاتجاهات جميعها. وقد اشترك في حكومته تلك: «خالد العظم»، «رشدي الكيخيا»، «ناظم القدسي»، «فيضي الأتاسي»، «مجد الدين الجابري»، «سامي

كبّارة»، «ميشال عفلق»، «أكرم الحوراني»، و«فتح الله أسيون»، و«اللـواء عبد الله عطفة»، و«عادل العظمة».

وامتنع «الحزب الوطني» عن الاشتراك بالوزارة ـ لأنه كان يطالب بعودة رئيس الجمهورية «شكري القوتلي» إلى منصبه، والمجلس النيابي لممارسة صلاحياته، وعودة الحياة الدستورية كما كانت ـ وهو ما لم يوافق عليه رجال الانقلاب، ولا السياسيون الذين استُدْعوا للتشاور وتشكيل وزارة.

وأقرّت الحكومة الجديدة فكرة الاتحاد مع العراق، بموافقة سائر أعضائها ما عدا «خالد العظم». وبعضهم قَبِل ذلك.. بعد أن عارضها وقاومها بشدة ـ ومن هؤلاء «أكرم الحوراني» الذي كان يتهم الداعين إليها بالخيانة والتآمر مع الانكليز! ولكنه وافق مع زملائه على الاتحاد مع العراق آنئذٍ. ثم قرروا تأجيل التنفيذ إلى أن يتم انتخاب جمعية تأسيسية تضع دستوراً جديداً للبلاد يتضمن النص على الاتحاد مع العراق.

وأعلن «صبري العسلي» موافقته على الاتحاد مع العراق .. ثم عاد عن قراره ـ كما عاد عنه «أكرم الحوراني».

وظلّ أقطاب «حزب الشعب»، وممثلو دير الزور، والجزيرة، ونواب آخرون، متمسكين برغبة تحقيق فكرة «الاتحاد» طوال العهود النيابية.. وذلك لأن لمناطقهم صلات تجاريةً واسعة مع العراق ـ اضافةً إلى شعورهم القومي الذي كانوا يجاهرون به.

ويُعرَف منذ القديم، أن محافظتي دير الزور والجزيرة كانتا ضمن الحدود العراقية، وكانت محافظة الموصل ضمن الحدود السورية. ولكن بعد الحرب العالمية الثانية جرى التفاهم بين الدولتين المستعمرتين، بريطانيا وفرنسا، على تعديل الحدود بين سورية والعراق. فألحقت الجزيرة ودير الزور بسورية، والموصل بالعراق. ويقال إنّ الإنكليز الخبثاء كانوا متأكدين من وجود البترول في جبال الموصل، لذلك أجروا هذا التعديل.

* * *

وجرى تحديد موعد لانتخاب «جمعية تأسيسية» تضع دستوراً جديداً للبلاد. كما حُدِّد عدد المقاعد النيابية. وقد خُصص لصافيتا مقعدان: واحد للمسلمين، وآخر للمسيحيين. وكانت الانتخابات، حتى ذلك الحين، ما تزال تجري على أساس طائفي. وبلغ عدد النواب المحدَّدة مقاعدهم ١٠٨ يمثّل واحدهم ٣٠ ألفاً. وأعطيت المرأة حق التصويت ـ كالرجل تماماً. وحذف الشرط الذي كان يفرض أن تحمل الشهادة الابتدائية ـ على الأقل.

لقد أحرجنا بتخصيص مقعد واحد للمسلمين.. وهناك فئات وتجمُّعات محلية عدة. ولكن الإحراج لمناوئينا.. كان أقوى ثمن الإحراج لنا.

فأنا.. لم أكن مقيَّداً بأي التزام عشائري، مهما كان نوعه ومصدره.. بعكس الآخرين الذين كانوا ملتزمين باتفاقيات والتزامات عشائرية.. يرونها واجباً وملزماً!

وما أنكر أني أفدتُ من البيئة التي كنتُ فيها، والتي كانت تحيط بي.. وهذا شيء بدهي وطبيعي لكل من يعمل بالسياسة في أي مكان وزمان. وأمّا تأثري بالعشائرية، وانطلاقي منها.. فإنه لم يدخل في برنامج حياتي طوال حياتي ـ لا قبل ذلك ولا بعده.. وهذا ما يعرفه الجميع عني، ويعترف النزهاء المخلصون به. لذلك.. لم أكن مقيداً بالاتفاق مع أحد.. وبامكاني الحصول على أصوات من مختلف الفئات ـ لأن قلبي وبيتي مفتوحان دائماً للجميع، ودون استثناء.

وأمّا الآخرون .. فإن زعاماتهم كانت تقتصر على مناطق نفوذهم، وبيئتهم الانتخابية، وصداقات شخصية لا تعادل الكفة، ولا تحافظ على التوازن!

وأعرب لي «خليل أنيس بشور» عن رغبته بترشيح نفسه، وخوض معركة الانتخابات معي. وكان مغترباً في أفريقيا. وله عندي يد بيضاء في انتخابات سنة ١٩٤٧ حيث وقف مني موقفاً نبيلاً ـ نوّهت عنه في حينه.

ولا شك أن الوفاء كان يقتضيني الاتفاق مع «تامر بشور»، حليفي بالانتخابات السابقة ـ وقد وقف معي موقفاً صامداً صلباً.. ولم يتراجع ـ كما فعل سواه.. وإنما استمرَّ بالمعركة إلى آخر لحظة.. وأثبت شخصيته وانسجامه مع نفسه،

والتزامه بالموقف معي ـ مما كان له أثر كبير في نفسي.

ولكن «شوكة العباس»، وهو مرشح «آل العباس» ـ لأن أخاه «منير» كان في زيارة لأمريكا الجنوبية، قد أعلن اتفاقه مع «نوفل الياس»، وهو من خارج منطقة صافيتا، ولكن له رصيداً انتخابياً فيها ـ وإن يكن محدوداً.. إلا أنه يملك ثروة طائلة تمكنه من التضحية والانفاق.

واتفق «آل بشور» على ترشيح «خليل أنيس بشور»، وأصبحت لائحتا الانتخاب هكذا:

«شوكة العباس» و«نوفل الياس» لائحة واحدة.. و«خليل بشور، وأنا» اللائحة الأخرى.

وقبل ذلك.. زرتُ «قحطان الهواش»، وهو صديقي وعنده، طموح لترشيح نفسه، وله رصيد انتخابي ملحوظ، وبحثتُ الموضوع معه ملياً.. وكنتُ صريحاً معه.. وأبنتُ له الواقع الانتخابي، وأنه لا يستطيع أن يضمن لنفسه النجاح ـ لأن الفئة التي يرتكز إليها.. لا تضمن له الفوز وحدها، ومن المحال هذا. ثم أطلعته على واقعي.. وهو يعرفه جيداً، ويعلم أن باستطاعتي الاعتماد على فئات من جميع الجهات، بعكسه هو ـ مع تقديري لشخصيته وكفايته. فأقرّ ذلك، واعترف به. وتدخل وسطاء خير.. فوافق على الانسحاب من المعركة، وأعلن تأييده لنا ـ بعد أن تقاضى المبلغ الذي صرفه تهيئةً للانتخابات.

لقد كنتُ أحب «قحطان الهواش»، ـ لأنه كان مهذباً، وصادق الكلمة والوعد.. وأنا أوثر هذا النوع من الناس، وألتذُّ برفقتهم وصداقتهم. وقد آلمتني وفاته كثيراً، وشعرتُ أني خسرت صديقاً. رحمه الله.

وأخوه الأكبر «جهاد» مثله ـ بالرقة والتهذيب. وفيه شمائل تقرِّب الناس منه ـ وإن كانوا بُعداء عنه.

وبقي «هاشم الحامد» مصرّاً على خوض الانتخابات ـ رغم المحاولات التي بُذِلت لاقناعه بالعدول عن ذلك. ولكن تشبُّثه بالترشيح والاستمرار.. كان بدافع من غيره ـ أكثر مما كان منه ـ لأنه كان في حياته ايجابياً، أكثر مما كان سلبياً.

فهو انسان طيب مسالم، يستمع إلى من حوله. ولو تُرِك لتفكيره وحده.. لما اتجه ضدي ذلك الاتجاه. وأنا لا أضمر له ولأسرته النبيلة إلا التقدير والود. وكل من يعرفني.. يعرف أني لا أضمر السوء لأحد، ولا أفكر بأذى أحد. وقد وقفتُ إلى جانب عمّه «حامد المحمد» يوم رشّح نفسه لمقعد أخيه المرحوم «يوسف الحامد».. موقفاً حازماً مخلصاً يعرفه الجميع، وقد مرّ ذكره.

ولكن.. رغم موقف «هاشم الحامد» مني.. فإنّ العلاقة بيننا لم تَسُؤْ ـ وإنما ظلّت على صفائها ومتانتها طيلة حياته، رحمه الله.

* * *

كان مدير منطقة صافيتا في ذلك الحين، «مصطفى الحوراني»، وقد أشرف على الانتخابات بقوة وحزم. ورغم عنفه في إدارة الدفّة ـ حتى لا يفسح مجالاً للإخلال بالأمن وتعكيره.. فقد كان لبقاً مع الجميع، دون استثناء، يطبق القانون بدقة، ويفرض احترامه على سائر الفرقاء.. وهذا ما ساعد على اجراء الانتخابات في جو مشبع بالسكينة والهدوء والتجرد.

وقد جرت الانتخابات في جوٍّ من الحرية التامة.. ولم يقع فيها أي حادث معكر للأمن ـ كما لم يوجد للفئة المناوئة أي مجال للاعتراض والشك بتدخل السلطة. وحين انتهاء عملية التصويت، وقبل ظهور النتائج، وقّع المرشح «شوكة العباس» على وثيقة تثبت صحة الانتخابات، ودقتها ونزاهتها، وعدم تدخل السلطات المسؤولة بها. ومع ذلك.. فإن رفيقه باللائحة «نوفل الياس» تقدَّم باعتراض يطعن بصحة الانتخابات... ولكن اللجان المختصة أسقطت اعتراضه، وأقرّت صحة الانتخاب.

وبعد أشهر من الانتخابات.. سعيتُ لتعيين «مصطفى الحوراني» محافظاً للاذقية ـ مكافأة له على نزاهته وحياده، وحتى تستفيد المحافظة كلها من حنكته وخبرته فعُين محافظاً ـ ولكن في «الحسكة» أولاً، ثم نُقل إلى اللاذقية.

ولمّا كانت الأحوال قد ساءت بيني وبين زميلي «خليل بشور» ـ كما سيجيء ـ وكان ذا صلة قوية بـ «مصطفى الحوراني». فقد حال دون اعادة أخي «محمود»

إلى صافيتا. وكان قد نقله منها «عادل العظمة»، كما مرَّ بنا ـ الأمر الذي شجع الصائدين بالماء العكر على الدسّ بيني وبين مدير المنطقة، والإيحاء إليه بأني وراء نقله من صافيتا.. والقاء الستار على ذلك بتعيينه محافظاً للتخلص منه بأي شكل كان ـ مما أوجد فتوراً بيننا.. أوشك أن يصل إلى حد القطيعة ولكني لم أفسح مجالاً لذلك.. بل كنتُ أزوره، في بيت صديقه «متّى بشور» كلما جاء إلى «صافيتا». وحينما انتقل إلى اللاذقية، وكان لي مسعى بهذا، وإن أنكره المنكرون.. فقد عمد إلى نقل أخي من المحافظة إلى محافظة أخرى!

رغم ذلك كله.. ورغم مواقفه الأخيرة معي.. فإنّ له ذكرى كريمة في نفسي لا تموت بموته. رحمه الله.

* * *

لم تشهد محافظة اللاذقية معركة ضارية.. كالتي شهدتها صافيتا في تلك الآونة: مناورات، وتضحيات، وتَحَدٍّ! ولكن شعب «صافيتا» واعٍ.. فلم تحدث أية حادثة تعكّر الأمن مطلقاً. وإنما كان يوم الانتخاب متسماً بالهدوء.. فقد زاول كل فرد صلاحيته الانتخابية بمنتهى الحرية، وبدافع من قناعته ومصلحته وضميره. وكانت المعركة حادة.. والاقبال على الانتخاب منقطع النظير. ووقف أبناء مدينة «صافيتا» الكرام موقفاً متراصاً.. وأعلنوا تأييدهم للائحتنا، وتبنيهم إياها.

وبلغ الحماس بالفئات التي تؤيدني ذروته. وكان الواحد منهم يعتبر نفسه أنه هو المرشح، وأنه هو الذي سيفوز. وكان ذلك الاندفاع والحماس ملفت الأنظار. وهكذا كان تأييد الفئات المؤيدة للائحة المنافسة، والتعاطف معها. وانتهت الانتخابات بفوزنا الساحق، وحصلت قائمتنا على ٢٢٧٠ صوتاً زيادة على القائمة المناوئة. وكان لذلك الفوز دويّ كبير في سائر أنحاء البلاد ـ إذ كان مفاجأة للكثيرين من المسؤولين وسواهم. وزارتني وفود كثيرة من المحافظة ومن خارجها. وحتى من لبنان.. زارني بعض الشخصيات الكريمة للتعرف على الشخص الذي تغلب على الذين لم تستطع السلطة نفسها التغلب عليهم ـ في بعض المواقف. وتلقيت مئات البرقيّات من الوطن والمهجر ـ ومن أبرزها جميعاً

برقية شعرية معبّرة ـ من الشاعر الكبير «نديم محمد» هي:

تهنئتي لا بالّتي أخذُها وتركُها.. سِيّانِ عند الرّجالْ
لكنْ.. لِدرْسٍ بالغٍ وحده لقّنْتَه، وحدك، أهل الضّلالْ

* * *

دُعينا لاجتماع «الجمعية التأسيسية».. حيث أقسمنا اليمين الدستورية، وتمَّ انتخاب «رشدي كيخيا» رئيساً، ثم انتخاب أعضاء المكتب، ورُفعت الجلسة إلى اليوم الثاني.

صباح اليوم الثاني.. فوجئنا بالموسيقى العسكرية، وبيان يعلن حدوث انقلاب عسكري في الليل. وكان انقلاباً أبيض.. لم تُرق فيه نقطة دم. وأعلن المنقلبون أنَّ انقلابهم ضد فئات من الجيش.. وأنه لا علاقة له بالسياسة.

وأبطال الانقلاب هم ستة عقداء في الجيش، «عزيز عبد الكريم»، و«توفيق نظام الدين»، و«أمين أبو عساف»، و«بهيج كلاّس»، و«علم الدين قواص»، و«أديب الشيشكلي» ـ الذي كان مديراً للشرطة، ثم قائد موقع حوران. وقد استدعيَ من مركزه بعد نجاح الانقلاب، واعتقال «الحناوي» وبعض معاونيه. ولم يكن لـ «الشيشكلي» علاقة بما جرى ـ حتى ولا علم له به.

وحين قرَّر «العقداء» إذاعة بيان مقتضب عن حركتهم.. وأنه لا علاقة لها بالسياسة ـ وإنما ترمي لتصفية الأوضاع في الجيش.. طلبوا من «عزيز عبد الكريم» أن يُلقي البيان باسمه، لأنه أقدمهم رتبةً، وأكثرهم شهرةً بين أوساط الجيش والمواطنين، فاعتذر، واقترح أن يلقي البيان «أديب الشيشكلي» باسمهم، فامتعضوا جميعاً. ولكنَّ كلمة «عزيز» كانت فاصلة، ولا تُرَدّ.

قال لي مرة «توفيق نظام الدين» ـ وقد أصبح رئيس الأركان في الخمسينات: صاحبك «عزيز عبد الكريم» هو الذي دفع البلاد إلى الهاوية ـ حين اقترح أن يلقي البيان «أديب الشيشكلي»!

ومن يُلقِ البيان.. يكنْ هو سيّد الانقلاب، وسيد الموقف، فيما بعد.. وهذا ما جرى!

في الليل الذي جرى فيه الانقلاب.. كنتُ في بيت «العقيد عزيز عبد الكريم»،
وبقيتُ عنده إلى الساعة الحادية عشرة ليلاً، ثم ودّعته وعدتُ إلى الفندق.
ومساء اليوم الثاني زرته وقلتُ له: إن الناس يقولون أنّ «أديب الشيشكلي» هو
سيّد الانقلاب، فضحك، ومدّ يده إلى جيبه، وأخرج بطاقة دعوة إلى عرس،
وأرانيها.. وإذا على ظهرها مسوّدة البيان المقتضب الذي أعدّه «عزيز» وأذاعه
«الشيشكلي»!

وعاتبت «عزيز عبد الكريم».. لأني كنتُ عنده مساء اليوم الذي جرى فيه
الانقلاب، ولم يخبرني عنه.. وقد أكد لي أنه هو صاحب الفكرة، والذي دعا إليها.
فقال لي: نحن نقسم اليمين على الكتاب المقدس، وإلى جانبه مسدس، بأن أحداً
منا لا يفشي سرّ الانقلاب لأحد، ولا يتحدث عنه مع أيٍّ كان - لأن السر لو
أفشي.. لجابهنا خطر السجن، وربما الموت! فكيف باستطاعتي أن أخبرك، ولو
أنك صديقي، ولي ثقة بك.. ونحن نبقى في بيوتنا حتى لا نستلفت إلينا الأنظار،
إلى الساعة المحددة للقيام بالعملية، ثم نجتمع، وننطلق. فليس من حقك أبداً أن
تعتب عليّ لأني لم أخبرك. ووثقتُ بكلامه، واعتذرت منه.

* * *

كان الهدف الأساسي لضبّاط الانقلاب الستة.. هو الحؤول دون اقامة اتحاد بين
سورية والعراق - وهو ما كانت ترمي إليه الحكومة في عهد «سامي الحناوي» -
ما عدا واحداً منهم - كما مرّ بنا. والاعتبارات، الذاتية والشخصية كان لها أثرها
الملزم في ذلك الحين! وتأكيداً لتأثير الاعتبارات الذاتية.. أروي هذه الحادثة:
حينما احتدم النقاش في مجلس النواب حول القطيعة مع لبنان سنة ١٩٥٠
كان «خالد العظم» رئيس مجلس الوزراء هو الذي تبنّى الفكرة بكل قوة
صرامة! وكنتُ - إلى جانب شعوري القومي المُلزم.. أمثّل منطقة على حدود
نان مباشرة.. ولا تبعد مدينة «صافيتا» عن الحدود اللبنانية إلا عشرين
لومتراً.. وحدود منطقتنا تتصل مباشرةً مع حدود لبنان، ولا يفصل بينهما إلا
ول صغير - كما قال مرة المحامي «أميل لحّود»... وهذا يعني أن منطقتنا

سوف تتأثر إلى، حد بعيد، بالقضاء على الوحدة الاقتصادية بين سورية ولبنان.. بما يفرض بعد ذلك اقامة حواجز جمركية وأمنية بين البلدين. وألوف العمال السوريين يعملون في الأراضي اللبنانية، ويتنقّلون بين القطرين الشقيقين دون أي عائق أو حاجز.

لذلك كنتُ ملزماً ـ إلى جانب الاعتبار القومي.. الذي يفرض على كل عربي أن يعمل في سبيل وحدة الأقطار العربية، سياسياً واقتصادياً، كنتُ ملزَماً إلى جانب هذا الاعتبار، أن أعبّر عن مشاعر أبناء منطقتي، ومصالحهم وقضاياهم.. وأن أبدي حماساً واندفاعاً لبقاء الوحدة الاقتصادية مع لبنان، وضدّ «القطيعة» كما كانت تُسمّى.

وأذكر أني وقفتُ مع «خالد العظم»، خارج قاعة المجلس، أحاول إقناعه، وأطلب التخفيف من لهجته الحادة.. وقلتُ له ـ فيما قلتُ:

إذا انحرفنا اقتصادياً عن لبنان.. فإلى أين يا تُرى سينحرف هو؟ فقال لي: لكن «رياض الصلح».. يقف في المجلس النيابي اللبناني، ويمدح «جميل مردم»، ويقول: «ردّ الله غربته»! وسترى.. كيف سأجعله هو بعيداً عن لبنان ـ حيث لا تُردّ غربته.. لا هو ولا «جميل مردم»!!

قلتُ له: ولكن متى كنا، في سورية، نقدّم المواضيع الخاصة، على المواضيع العامّة؟.

فقال: دعنا من هذا الكلام الفارغ.. ومضى!

إني لا أتجنّى على الرجل.. فهذا ما قاله، وما جرى معه.

وهكذا ـ كما أسلفنا ـ كانت الاعتبارات الخاصة، في كثير من المواقف، تفرض نفسها.. وتتقدم على الاعتبارات العامة ـ مع ألف أسف وأسف!

* * *

اجتمعت «الجمعية التأسيسية» بعد يومين من الانقلاب.. وبعدما تأكد لها أن الانقلابيين لم يتعرّضوا لها.. وإنما كانوا عند وعدهم ببيانهم ـ أنه لا علاقة لحركتهم بالسياسة.. وأنها لا تنوي شلّ الحياة النيابية.

واتّفق النـواب علـى دستور موقّت، مؤلّف من بضع مواد، انتُخِب بموجبه «هاشم الأتاسي» رئيساً للدولة طيلة فترة وضع الدستور.

وألحّ «عدنان الأتاسي» و«فيضي الأتاسي»، ومعهما بعض النـواب، علـى أن توضع في الدستور المؤقت عبارة: «إن رئيس الدولـة يعيّن الـوزراء ويقيلهـم». وعند كلمة «ويقيلهم». جرى نقاش حادّ حول هذه الكلمة التي تعنـي معنىً عميقـاً وواسعاً ـ تطلق يد رئيس الدولة بإقالة الوزراء دون العودة إلى الهيئة التشريعية. ولكن الأكثريّة الساحقة، في الجمعيـة التأسيسـية، أصـرّت علـى حـذف كلمـة «ويقيلهم». كما رفضت الهيئة التشريعية إعطاء الحكومة «حقّ التشريع». ونشـب جدال عنيف أيضاً حول جملة في القسم، وهـي: «وأعمل لتحقيق وحـدة الأقطـار العربية». وأُقرّ القسم كما هو:

«أقسم بالله العظيـم أن أحترم قوانين الدولـة، وأحـافظ علـى اسـتقلال الوطـن وسيادته وسلامة أراضيه، وأصون أموال الدولــة، وأعمـل لتحقيق وحـدة الأقطـار العربية».

وفي النتيجة، وبعد جدال عنيف، تمّت الموافقة على الدستور المؤقّت، وانتُخِب «هاشم الأتاسـي» رئيسـاً للدولـة ـ حتـى يصـدر الدستور الـذي تضعـه «الجمعيـة التأسيسية».

وكلّف الرئيس الأتاسـي «الدكتـور نـاظم القدسـي» بتشـكيل الـوزارة، وشـكّلها، وصدر المرسوم الجمهوري، وأذيع في الإذاعة.

وبنفس اليوم.. طلـب «القدسـي» الاجتمـاع بـالعقداء السـتّة، أبطـال الانقــلاب وسألهم رأيهم بالوزارة.. فقال له «عزيز عبد الكريم» بصراحته المعهودة.

إنها أضعف وزارة عرفتها البلاد!

فذهب «القدسـي» فوراً إلى القصر الجمهوري، واعتذر من رئيس الدولة الذي استدعى «خالد العظم» وكلّفه بتشكيل الوزارة التي تألفت من:

«فيضي الأتاسي»، «هانـي السباعي»، «معروف الدواليبي»، «سـامي كبّـارة»، «أكـرم الحـوراني»، «عبـد الباقي نظام الدين»، «فتح الله أسيون»، «عبد الرحمن

العظم»، «محمد المبارك».

وكان خطأ من الدكتور «ناظم القدسي» سؤاله الضباط عن رأيهم بوزارته ـ لأنه أفسح لهم المجال للتدخل في الشؤون السياسية التي أعلنوا في بيانهم أنهم لا يتدخلون بها.

ثم كان خطأ من رئيس الدولة، حينما كلّف «القدسي»، أن لا يكلّف شخصاً من دمشق ـ لأنه من غير المعقول ولا المقبول، والواقع كان ما يزال له أثره وتأثيره، أن يكون الرؤساء الثلاثة: رئيس الجمهورية، ورئيس الجمعية التأسيسية، ورئيس الوزارة، كلّهم من خارج دمشق ـ إذ لم يكن ثمّة بدّ من أن يكون أحدهم دمشقياً.. كما روعي ذلك في جميع العهود، قبل وبعد.

ولكنّ أكثريّة النواب كانت من «حزب الشعب» ومؤيديه، وقد اتخذوا قراراً بذلك.. ورضخ رئيس الجمهورية للقرار ـ وابنه «الدكتور عدنان» كان من أقطاب «حزب الشعب»، وله تأثيره القويّ على والده.. ويُقال أنه كان الرئيس الفعليّ، وليس لوالده إلا الاسم والتوقيع!

* * *

وخلال شهر أيار، من تلك السنة ١٩٥٠ أصدرت دول أمريكا وبريطانيا وفرنسا «البيان الثلاثي» الذي أعلنت بموجبه رفع حظر توريد الأسلحة إلى الشرق الأوسط. ومن البداهة.. أنّ ذلك القرار إنما كان يهدف لخدمة اسرائيل، وفسح المجال لها لشراء السلاح وتكديسه في ثكناتها ـ رغم ما ورد فيه من تأكيد أنه لا يجري بموجبه سباق للتسلح.. وأنّ الدول الثلاث تتعهد بحماية حدود كل دولة وصيانتها.. ولكن البيانات شيء وما وراءها شيء آخر. فالغاية أولاً وأخيراً، هو منع الدول العربية من شراء السلاح، وإمداد اسرائيل سراً به.

واجتمعت «اللجنة السياسية ـ للجامعة العربية» وأصدرت البيان التالي:

«إن الدول العربية ليست أقلّ حرصاً من غيرها على استقرار السلام في المنطقة ـ لكنّ تأمينه يقع على عاتقها وحدها.. أما ما تستورده من سلاح.. فإنه يُستَعمَل في سبيل الدفاع عن نفسها ـ لا العدوان على أحد. وهي تعتبر «التصريح

الثلاثي»، من وزراء خارجية بريطانيا وأمريكا وفرنسا، بمثابة توزيع لمناطق النفوذ في الشرق الأوسط.. وهي ترفض أيّ تدخل أجنبي في مسائلها الداخلية».

وخلال شهر واحد، بعد تصريح الدول الثلاث، عقدت دول «الجامعة العربية» جلسةً طارئة.. أقرّت فيها «معاهدة الدفاع المشترك». وكانت هذه «المعاهدة».. ردّاً على تصريح الدول الثلاث.

* * *

وفي وسط شهر أيار استقال «أكرم الحوراني» من الوزارة ـ وكان يتولّى وزارة الدفاع، واشترط لعودته أن يخرج من الوزارة «سامي كبارة» و«محمد المبارك».

وبينما كان «خالد العظم» في القاهرة.. أرسل له «فيضي الأتاسي» برقيّاً استقالته، وقد جاء فيها:

«أتقدم إليكم بكتاب استقالتي ولو في غيابكم ـ لأني لا أعرف متى تنتهي الرّوحات والغدوات والدّلَج.. وركوب متون الأجواء واللُّجج»!

و«لفيضي الأتاسي».. أسلوب فريد بالتعابير والألفاظ، يتميّز به على سواه.. وقد كان يتعمده للإثارة والتندر!

وفي ٢٩ أيار سنة ١٩٥٠ قدّم «خالد العظم» استقالته من رئاسة الوزارة. فكلّف «الدكتور ناظم القدسي» بتأليفها.. وقد تمّ تشكيلها من الوزراء:

«رشاد برمدا»، «شاكر العاص»، «فرحان الجندل»، «جورج شلهوب»، «زكي الخطيب»، «حسن جبارة»، اللواء «فوزي سلو» ـ الذي عُيّن وزيراً للدفاع.. وكانت المرة الأولى التي يتولى فيها ضابط عسكري وزارة الدفاع، وقد أُفرج عن «الحناوي»، قائد الانقلاب ضد «حسني الزعيم»، في ٧ أيلول من السنة نفسها.. وسُمح له بالذهاب إلى بيروت، حيث اغتاله شخص يدعى «أحمد حمشو البرازي» في ٣١ تشرين الأول ـ انتقاماً لمقتل ابن أخته «محسن البرازي»، وقد حكم عليه في محكمة بيروت العسكرية بالاعدام، ثم خُفّف الحكم إلى ١٨ سنة، و٢٥ ألف ليرة لأسرة «الحناوي».

* * *

وقبل تشكيل الوزارة اتصل بي هاتفياً «العقيد عزيز عبد الكريم»، ولم يكن قد صار «لواءً» بعد، وكنت في فندق «الأموي» وقال لي:

لقد تمَّ الاتفاق على أن يؤخذ وزير من محافظة اللاذقية، ولم تكن طرطوس صارت محافظة، وحصر الاختيار بك وبزميلك.. فلان ـ لا أريد أن أسميه وقد انتقل إلى رحمة ربه ـ فاتّفقا مع بعضكما على أحدكما، ولا تدعا هذه الفرصة تفلت من أيديكم. فقلت له فوراً:

أنا مسرور جداً بمركزي النيابي، ولا أريد الوزارة بتاتاً.. فخذوا ذلك الشخص، وأنا موافق تماماً تماماً.

فقال لي «عزيز عبد الكريم»، وكان صديقي، لا تستعجل، وتروَّ بالأمر.

فقلت له: إني مصمم على عدم القبول، وأمامي، بإذن الله، مجالات واسعة.

وبعد فترة وجيزة.. جاءني ذلك الشخص المرشَّح معي للوزارة ـ على أن يُؤْخَذَ أحدُنا.. وقال لي: أنا محام، وتفيدني الوزارة كثيراً... فأرجوك أن تتنازل لي هذه المرة. وهم سيأخذون أحدنا إذا اتفقنا.

فمسكت سماعة الهاتف وطلبت العقيد «عزيز عبد الكريم»، وقلت له إن الشخص الثاني المرشح معي، على أن يكون أحدنا وزيراً، موجود عندي الآن فأرجو أن تتلطف وتقول له ما قلته لك بأني تخليتُ له عن المنصب. وسلّمته السّماعة فأخبره سيادة «العقيد عزيز عبد الكريم» بأني أتخلى له عن المنصب. فشرع يقبِّلني بحرارة، وقد اغرورقت عيناه بالدمع ويقول: لن أنسى لك هذا الفضل ما حييت.

وشُكِّلت الوزارة، ونشرت الأسماء، ولم يكُ اسم ذلك الشخص بينهم. وسألت عن السبب.. فقيل لي صراحة: إن كبار المسؤولين قالوا عنه إنه لا يمشي قَدَماً مع انسان.. قبل أن يأخذ «أجراً».. وهم لا يريدون هذا الطراز من الناس ـ بينما أنت، ويعنونني، معروفٌ عنك عند الجميع أنك تخدم الجميع، وتضحي من جيبك، ولا تتقاضى درهماً من انسان. وقالوا: إنهم كانوا يجهلون هذا عن ذلك الشخص حتى جاء من يثقون بهم وأكدوا لهم ذلك، فعدلوا عنه.. وبما أنك أنت قد رفضت

بداهةً الوزارة، فلم يكن بالإمكان أخذ سواك.

إني أروي هذه الحادثة وسيادة «اللواء عزيز عبد الكريم» ما يزال حياً والحمد لله، مدّ الله في عمره، ولا شك أنه يذكر هذه الحادثة جيداً.

* * *

وهكذا اختلس «أديب الشيشكلي» الانقلاب الثالث، ومهره باسمه وتولّى «مكتب شؤون الضباط» ـ وهو الذي يُعِدّ قوائم نقل الضباط أو تسريحهم! وقد عمل على تقوية نفوذه داخل الجيش، وبدأ بتجميع أصدقائه ووضعهم في المراكز الهامة، وإقصاء مناوئيه عنها، وقد استعمل دهاءه إلى أبعد حدّ.. حتى استطاع التأثير على «عزيز عبد الكريم» و«توفيق نظام الدين».. فكان إذا دخل مكتب أحدهما يبدو وكأنه جندي صغير أمامهما! وبهذا الأسلوب المعروف عنه، والمشهور به.. تمكّن من تنفيذ غايته داخل الجيش.. فحشد أصحابه في الأماكن الهامّة، وأقصى الآخرين عنها! وصار بعدئذٍ يعطي أوامره لرئيس الأركان ومعاونه.. ولا يأبه لهما! وصدق من قال: اتّقِ شر من أحسنت إليه!

* * *

وكان «العقيد محمد ناصر» من ألمع ضباط الجيش، وأكثرهم جرأةً، وشجاعة. و من يعرف قدرته العسكرية، وذكاءه الحادّ، يعتبره من ألمع الضباط العرب جميعاً ـ وهذا ما سمعته من كثيرين من الضباط. وحينما حدث الانقلاب الأخير.. كان خارج سورية، ولذلك لم يشترك به. ولمّا عاد.. وجد قادة الانقلاب قد عيّنوه «آمر سلاح الطيران»، وهو ضابط مشاة.. لا يفقه شيئاً من أمور الطيران ـ إلا معلومات عامة، كما قال لي. وقد أخبرني أنه عكف على دراسة كل ما يتعلق بالطيران.. حتى أصبح، بعد بضعة أشهر، وكأنه متخرج من «كلية الطيران». وكان يقول لي:

إني أعطي الآن كل وقتي واهتمامي لموضوع الطيران، والإلمام به، وبكلّ جزئياته. إذ كيف أستطيع مناقشة مهندس بشأن طائرة.. وأنا لا أفقه شيئاً منها؟.

ثم سعى لتزويد الجيش بطائرات نفّاثة حديثة.. لم تكن قد عُرفت في الدول

العربية قبل ذلك الوقت. وأذكر أن جماهير غفيرة قد احتشدت في شوارع دمشق لمشاهدة «الصّحون الطائرة» التي لم يكن يبدو منها إلاّ ذيل طويل من لدخان الأبيض.. وكانت تحلّق في مستوىً عالٍ، وبسرعةٍ غريبة. وفي ذلك المساء كنتُ أزور «عزيز عبد الكريم»، معاون رئيس الأركان، فسألتُه إذا كان شاهد «الصحون الطائرة».. فضحك وقال: أيّ «صحون طائرة»؟ هذه طائرات صديقك «العقيد محمد ناصر» النّفّاثة، وهي لم تُعرَف في الأقطار العربية قبل الآن.

لقد كان «ناصر» شعلةً من الذكاء. ولم يكن ضمناً من مؤيّدي ذلك الانقلاب، ولا من محبّذيه. فهو يؤمن بالديموقراطية.. ويريد إبعاد الجيش عن السياسة.. ليتفرغ إلى مهمته الأساسية ـ وهي الدفاع عن حرمة الوطن.

وكان في مواقفه عنيفاً جداً.. وجريئاً إلى أقصى حدود الجرأة. وكثيراً ما اصطدم مع «أديب الشيشكلي» في مجلس القيادة، وأحرجه وتحدّاه ـ دون أن يخشى عاقبة ذلك أو يحذره.

والتفّ عدد كبير من الضباط حول «العقيد ناصر» واستقطبوه، وبدؤا يلتقون في داره، وفي مكتبه ـ مما أوغر صدر «الشيشكلي»، وزاد في حقده وضغنه.

وكان «مدير المخابرات» في تلك الفترة، «ابراهيم الحسيني».

وفي مساء ١٩٥٠/٨/٣١ وكانت الساعة العاشرة ليلاً. اتصل أحد العاملين في المطار العسكري بـ «العقيد محمد ناصر»، آمر سلاح الطيران، يطلب حضوره لمعالجة مشكلة طارئة. ورغم أنه قد حُذِّر كثيراً من مؤامرة تحاك ضده، فإنه لم يبالِ.. بل ركب سيارته وسار بمفرده إلى المطار، وهو لا يرتدي إلا قميصاً أبيض وبنطلوناً. وفي الطريق إلى «المزّة» ـ حيث المطار العسكري.. اعترضته سيارة، ونزل منها اثنان أطلقا عليه النار وبكثافة.. وأردياه قتيلاً!

في المستشفى العسكري ـ وكانت ما تزال فيه بقيّة من حياة.. جاء المدعي العام العسكري «عبد الوهاب الأزرق»، وكان صديقي، ومن خيرة القضاة نزاهةً وجرأة، وسأله عن القاتل.. فأدخل إصبعه في فمه ـ حيث كان الدم يسيل منه بغزارة.. وكتب على قميصه اسم شخصين. وسأل المدعي العام.. هل أنت متأكد

أنهما هما؟ فأومأ برأسه بالايجاب.

وفاضت روحه إلى خالقها.. تشكو ظلم الإنسان لأخيه الانسان؟ واعتُقل الشخصان فوراً. وأودعا «سجن المزّة» للتحقيق. وقد صُلي على جثمان «ناصر» في «الجامع الأموي»، ثم شُيّع تشييعاً مهيباً.. تواكبه جماهير غفيرة من «الأموي» إلى ساحة «السبع بحرات».. والحزن والكآبة يخيّمان على رؤوس الجميع.

وهناك.. وقف «أديب الشيشكلي» ـ هو نفسه! ـ يتقبل التعازي باسم الجيش، وإلى جانبه «العقيد توفيق بشور» الذي لم تكن له أية صلة بتلك الجريمة المنكرة، ولكن لأنه من أبرز ضباط الجيش.. فقد وقف يتقبّل التعازي مع المتّهَم بأنه الدافع للقتل!

يا للعار وهل تردت المُثُل.. وانحطّت إلى مثل هذا المستوى، وانحدرت إلى الحضيض!! يا للعلي..! ولولا نفحةٌ من تُقىً وإيمان، لقلتُ يا للشيطان.. أيمكن أن يقف مُتّهَم بأنه الدافع للجريمة.. ويتقبل التعازي بضحيته؟!!!

ويا للعلي! هل أصبحت القيم.. وكأنه لا خير فيها ولا قيمة لها..!؟

مُتّهم بأنه الدافع للقتل.. يقف أمام نعش القتيل، ويتقبّل التعازي من المعزّين..! وهل من المعقول أن يحصل هذا ـ ولكنه حصل!!!

ولم يكن ينقص ذلك الموقف .. إلا أن يأتي القاتلان، ويقفا معه، ويتقبّلا التعازي! فيا لسخرية القدر.. وهُزْءِ الشياطين، والأعداء الشامتين!

* * *

ونُقل جثمان «العقيد محمد ناصر» إلى حمص، ووضع في الثكنة العسكرية إلى صباح اليوم الثاني.. ومن هناك نُقِل إلى قرية الشهيد في منطقة «جبلة».. حيث كان الألوف بانتظاره، ومظاهر النقمة والألم تغمر الجميع.

ذلك اليوم ـ يوم تشييع الجثمان من دمشق... كنتُ مدعواً للغداء عند سفير الأرجنتين، فاتصلتُ به شاكراً ومعتذراً. وبنفس اليوم.. كان موعد انعقاد جلسة بمجلس النواب. وكان ابن عمي «غانم ياسين»، و«سعيد الرشيد» في دمشق،

فطلبا مني، وبإلحاح، أن لا أتعرض لموضوع اغتيال «العقيد ناصر».. وهما يقدّران خطورة الموقف وضراوته ورهبته، ويخشيان أن يصيبني أذىً من القَتَلة المجرمين، ومَنْ وراءهم من المتآمرين السفاكين.

ولكني فُطِرت على الجرأة منذ طفولتي.. ولقد وقفت مواقف عديدة كان يترصَّدها الموت، وأقدمتُ غير هيَّابٍ ولا وَجِل.. فأنقذني القدر، وحماني ورعاني.

وكان من عادتي.. أن ألقي خُطبي في المجلس، وأنا في مكاني لا أبرحه ـ ما عدا المواقف الهامة التي تستدعي الصعود على المنبر، والخطابة من فوقه. وطلبتُ الكلام من الرئيس، وكان «رشدي كيخيا»، وصعدتُ على المنبر، وحملتُ حملة شعواء على المؤامرة المجرمة التي ذهب ضحيتها «الضابط محمد ناصر»، وأبنتُ مدى خسارة الجيش السوري ـ بل خسارة سورية كلها.. بهذه الفاجعة الأليمة. وحملتُ على القتلة، وقلتُ ـ فيما قلته:

إن الذين دبَّروا هذه الجريمة الشَّنعاء.. سيعملون لطمسها وإخفائها، وتبرئة المجرمين. وخاطبتُ زملائي النواب بقولي: كلّ واحد منّا أصبحت حياته مهددة ـ إذا ما رُفع صوته.. معترضاً على ما يجري! وإن الديموقراطية التي نمثّلها هي الآن في خطر ـ إذا لم نقف الموقف الحازم الذي يفرضه علينا واجبنا الدستوري، وواجبنا القومي، وواجبنا تجاه ناخبينا الذين أرسلونا إلى هنا.. لندافع عنهم ـ وقد أصبحوا مهددين بحكم دكتاتوري طاغٍ يزحف عليهم ـ وهذه الجريمة الشنعاء احدى بوادره وطلائعه.

ولم يشترك أحد من النواب، بالموضوع ـ إلا «راتب الحسامي» الذي وقف وقال: علينا أن ننتظر حتى تظهر نتيجة التحقيق! ووافق الرئيس والنواب على انتظار نتيجة التحقيق، ورُفعت الجلسة.

وسافرتُ إلى حمص.. حيث رافقتُ الجثمان، مع مئات من المشيعين. وأمام ضريح العقيد الشهيد، في قريته «عين شقاق»، بمنطقة «جبلة» وقفتُ وأبّنْتُهُ بكلمات عنيفة ضارية جاء فيها:

إذا كانت الحكومة عاجزةً عن الانتقام للقتيل من قاتليه، ومن يختبىء

وراءهم.. فإننا نحن، أصدقاءه وذوي قرباه، لسنا عاجزين عن ذلك.. وسنعرف كيف ننتقم له، ونأخذ بثأره. وإننا أبداً له نهدأ، ولن نستكين حتى نرى العدالة قد أخذت مجراها.. من الخونة المجرمين الذين يتآمرون على من هم دروع الوطن.. لإزاحتهم من طريق «الدكتاتورية» المتآمرة.. التي تتحفَّز لاقتناص الحكم، وإغراق البلاد كلّها بجرائمهما وظلمها واستبدادها.

ويُخطيء من يعتقد أن هذا التهديد مجرد كلام ويمضي. بل إنه تصميم جازم للانتقام، ثم الانتقام. (وسيرى الظالمون أيَّ منقَلب ينقلبون).

وقال لي، بعدئذٍ أحد الضباط الذين رافقوا الجثمان، وأذكر أنه الضابط الذي حلّ محل «ناصر» في قيادة الطيران، قال لي:

«كنتُ وأنا أسمعك تخطب أمام جثمان «العقيد ناصر» مهدِّداً متوعِّداً.. أنتفض من رهبة الموقف! لقد كانت جرأةً لا مثيل لها ـ وحقاً كانت كذلك».

وظللتُ ألاحق المتهمين، ومن وراءهم، بالتصريحات للصحف، وللإذاعات، وفي المجلس النيابي. وكنتُ أجد عطفاً وتقديراً من أكثر النواب ـ ما عدا الفئة الضئيلة التي كانت لها صلة قوية بـ «الشيشكلي»، والمتآمرين ـ خوفاً من أن يتعرَّضوا للاغتيال.. انتقاماً للعقيد الشهيد «ناصر».

وكان «أكرم الحوراني» متفقاً مع «أديب الشيشكلي» ومؤيداً اياه.. وهو يأمل أن يكون شريكه في الحكم. ولكن الطاغية استأثر بالحكم وحده... وأبعد «الحوراني» ورفاقه عن البلاد ـ لأن للسيارة مقوداً واحداً، ولا يسوقها إلا سائق واحد. وكان «حسني البرازي» يصرّح دائماً: «كل شيء.. شكلي ـ ما عدا الشيشكلي»!

ولولا تمتّعي بالحصانة النيابية... كانوا اعتقلوني بتهمة التعرّض للجيش! وبلغني من مصادر موثوقة أنهم درسوا الموضوع مليّاً، ثم أحجموا عن الإقدام ـ لأنهم كانوا يخشون أن لا يستجيب المجلس لطلب رفع «الحصانة». ثم لأنهم يخشون أثر الضجة التي يحدثها اعتقالي.

وأذكر مرةً.. أني كنتُ في مقهى «الروضة» بحمص، ومعي بعض الأصدقاء،

وإذا ببائع صحف يصيح: «اعتقال النائب عبد اللطيف اليونس»! فناديناه، وسأله أحد الأصدقاء: أتعرف من هو الذي تصيح أنه اعتُقِل؟ قال: لا. قال له: هذا هو، وأشار إليّ، فتأملني بائع الصحف مليّاً وقال: هذا هو المكتوب في الصحف.. وبعضها بالخط الكبير في الصفحة الأولى.. فما ذنبي أنا؟ وذهب ينادي على صُحُفه، وذكر على مسامعنا أخباراً أخرى.

وصدف أن انتقلنا إلى صيدلية النائب «الحاج سليمان المعصراني» ـ وكان من أعز أصدقائي رحمه الله... وإذا بالبائع نفسه يعاود الصياح عن اعتقالي. وناديناه، وقلتُ له: مالك تعاود الصياح بالنبأ المختلق! فقال: أرجوك لا تؤاخذني فأنا بائع، والخبر المثير يجعل الناس تتهافت على شراء الصحف، ولم يبق معي إلا بضعة نسخ.. ومتى نفدت سكتّ. فضحكنا جميعاً، واشترينا النسخ المتبقية معه ـ لكي يسكت.

ومرتّ فترة، غير قصيرة، كنتُ معرَّضاً خلالها للاغتيال كل لحظة. وقد تلطف «العقيد عزيز عبد الكريم» ـ الذي أصبح «لواءً» فيما بعد... فوضع جنديين لحراستي ومرافقتي، وهما يلبسان لباساً مدنياً. وظلّ هكذا.. حتى رجوته بعد مدة أن يستعيدهما ـ لأني لم أعد أحتمل المرافقة المستمرة.. وأنا مؤمن بقوله تعالى: ﴿قلْ لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ صدق الله العظيم.

وبعد ذلك.. كنتُ مرةً أسير في الشارع الموازي لبناء بلدية دمشق، وأنا أحاول عبوره إلى الجانب الآخر. وبينما أنا قرب الرصيف... شعرت بحركة ورائي، فصعدتُ إلى الرّصيف فوراً.. وإذا بسيارة جيب عسكرية مسرعة. ولم يكن بيني وبين أن «تدهسني» إلا ثوان معدودات، والأعمار بيد الله. وتطلّعتُ من فوق الرصيف إلى من فيها. وإذا بهم يلوّحون بأيديهم مهدّدين متوعّدين. وكان ذلك بعد الغروب بقليل.

وكنتُ في ذلك الحين أحلُّ في «الفندق الأموي»... وما أذكر أنه مرّ يوم، خلال بضعة أسابيع ـ بعد اغتيال «العقيد ناصر» إلا وأتلقّى هواتف بالتهديد والوعيد.. وبعضها يحوي كلمات شتم بذيئة. وكنتُ أغلق الهاتف دون أن أجيب. ومرة فقدتُ

صبري.. واستشطتُ غيظاً وغضباً، وشرعتُ أسبُّ المتكلم ومن وراءه.. وقلتُ له: يا ابن كذا وكذا.. أنا موجود في الغرفة رقم كذا.. فتعال، وجرِّب شجاعتك إذا كنت تستطيع.. وانهلت عليه بالسباب والشتائم.. فأغلق هو الهاتف، وأنا أقذف الحمم من فمي. وبعد ذلك.. لم أتلق هاتفاً من هذا القبيل على الإطلاق ـ مما يؤكد ويثبت.. أن الجهة التي كانت تتولَّى تلك الهواتف، كانت واحدة. وحينما تلقت درساً قاسياً صمتت.

مثل ذلك.. جرى معي في مدينة «سان باولو»، بالبرازيل ـ وكنتُ أُصدر فيها جريدة «الأنباء» الأسبوعية. وطبعاً كانت صفحاتها تحفل دائماً بالحملة على الصهيونية والإمبريالية. وكان الموظفون الذين يعملون بمكتبي... يتلقون هواتف فيها سباب وشتائم وتهديد ووعيد. ومرةً التقطتُ أنا المخابرة.. فانهلتُ بالسبّ والشتم على الصهاينة وتوراتهم وأنبيائهم... ولم أخرج مرةً عن طبعي وخلقي... مثل تلك المرة، وقد تحولت فيها إلى انسان آخر ـ مثلما حصل معي قبل ذلك في دمشق. وكما خرس أولئك السابون الشتامون، والمهددون المتوعدون، في دمشق حينذاك. فقد خرس أولئك ـ الصهاينة في «سان باولو» ـ بالبرازيل.

وحتماً.. فإن السكوت الدائم على أدنياء الخلق.. يشجِّعهم على الاستمرار باتباع طرق الدناءة والانحطاط وصدق «المتنبي»:

وَوَضْعُ النَّدى في موضع السيفِ بالعُلَى مُضِرٌ كوضع السيف في موضعِ النَّدىَ

واغتنمتُ مناسبةً الجو الذي أوجدته في «المجلس النيابي» ـ حينما أثرت موضوع اغتيال «العقيد ناصر»، فتقدمتُ باقتراح يتضمن:

١ ـ اعطاء أسرة الشهيد «العقيد محمد ناصر» راتباً تقاعدياً برتبة «عميد».. لأنه اغتيل، وهو ذاهب إلى المطار للعمل.

٢ ـ تعليم أبنائه على نفقة الحكومة، في المدارس الرسمية، وفي الجامعة، حتى نهاية مراحل التعليم.

ولم يعترض على مشروع القانون، حين عرضه على المجلس، إلا «معروف الدَّواليبي» نائب حلب. ورغم اعتراضه.. فقد أُحيل إلى اللجان المختصة التي

وافقت عليه. وأعادته إلى المجلس حيث أُدرج في جدول الأعمال ـ نفس الجلسة التي سيجري فيها التصويت على الثقة بالوزارة التي رئسها «الدكتور ناظم القدسي».

وكانت «الكتلة الجمهورية» ـ وهي تضم ٣٦ نائباً، كنتُ أحدهم، قد امتنعت عن الاشتراك بالوزارة، وقررت مقاطعة الجلسة التي تُطرح فيها الثقة ـ وهي نفس الجلسة التي أدرج في جدول أعمالها مناقشة البيان الوزاري. وكنتُ أمين سرّ «الكتلة الجمهورية» بعد أن استقال منها «حامد الخوجة» حين اشتراكه بالوزارة، فدعوتُ أعضاء «الكتلة» إلى اجتماع.. عرضت عليهم فيه موضوع القانون الذي يكفل لأسرة «الشهيد محمد ناصر» راتبه التقاعدي، وتعليم أبنائه على نفقة الدولة وأخبرتهم بأنّ أعضاء «حزب الشعب» قالوا لي صراحةً.. إنني إذا لم أحضر، وأصوّت إلى جانب الوزارة.. فإنهم سوف يردّون مشروع القانون، ويسقطونه. وكانوا قد عرضوا عليّ الاشتراك، بالوزارة، عند تشكيلها، فاعتذرتُ ـ لأنّ من غير المعقول أن أخرج على رأي «كتلتي» وأشترك بوزارة رفضتْ هي الاشتراك بها.

وقد قدّر زملائي تلك الظروف، وشكروني لرفضي الاشتراك بوزارة يعارضونها، وتركوا لي حرية التصرف. فحضرت الجلسة، واقترعتُ إلى جانب الوزارة بإعطائها الثقة ـ دون أن ألقي كلمةً بتلك الجلسة. وكانت هي المرّة الوحيدة التي لم أشترك فيها بمناقشة بيان وزاري.

وبعد التصويت على الثقة بالوزارة.. طُرِح مشروع القانون المتعلق بأسرة الشهيد «محمد ناصر»، فأُقِرّ بالاجماع.

وقبل التصويت على مشروع القانون وتشكيل الدكتور «ناظم القدسي» الوزارة ـ وكان وقتئذٍ رئيساً للمجلس.. اصطحبتُ نجليْ «العقيد ناصر» «نضال» و«صبا»، وهما طفلان وسيمان، وقدمتهما إلى «القدسي» فتأثر كثيراً.. وكان لطيفاً جداً حيث أغرقهما بكلمات عطف ومحبة، وقدّم لهما علبة حلوى، وودّعهما وهو بادي التأثّر والحزن لمصرع والدهما. وأدخلتُهما معي الصالة التي يجتمع

فيها النواب عادةً ـ حين لا يكون المجلس منعقداً. وبحثتُ عن الدكتور «معروف الدواليبي»، وقدمتهما إليه ـ فسألني: من هما؟ قلتُ له:

هذان نجلا «العقيد محمد ناصر».. اللذان تريد أن تقطع عنهما، وعن والدتهما، وشقيقتيهما، لقمة العيش.. وقد اعترضتَ وحدك على مشروع القانون الذي يمكّن هذه الأسرة المنكوبةَ من الحصول على تقاعد معيلها الذي استشهد برصاص الخيانة والغدر.

فتجهّم وجهه، وبدا التأثُّر عليه. وسكت ولم ينبس. وحينما ودّعاه، قبّلهما بحرارة وعطف. ولما عُرِضَ مشروع القانون في المجلس، سكت ولم ينبِس.

* * *

كان علينا أن نوكّل محامياً للدخول في الدعوى ضد المتهمين بالقتل، والمودَعين في السجن. وذهبت أستشير القاضي «زهير عقيل» ـ الذي تربط عقيلته صلة نسبة بعقيلة «العقيد ناصر» التي هي من كرام الأُسر الحمصية. وكان رأيه أن نوكّل المحامي «هاني البيطار» ـ وهو من أعز أصدقائي، ومن ألمع المحامين، وأكثرهم شهرةً، ودويَّ اسم.

وذهبتُ أعرض عليه توكيله بالدّعوى. فاضطرب، وصمتَ فترةً.. وهو يحدّق عبر النافذة بالأفق البعيد. ووقف وقال لي:

منذ ساعة.. جاء الطّرف الآخر، ووكّلني بالدعوى، ودفع لي خمسة آلاف ليرة سورية. وفتح درج مكتبه، وأخرج منه رزمةً مالية، وقال: هذه هي.

ثم عاد يحدّق في وجهي، وهو بادي التأثُّر والألم وقال: لا أستطيع أن أتوكّل في دعواكم ـ لأنَّ الطّرف الآخر جاء ووكّلني، ودفع لي. ولكني سوف أعتذر عن هذه الدعوى لسببين:

١ ـ لأني لا أريد أن أدافع عن باطل ضد حقّ.

٢ ـ لأنك صديقي، ومن المحال أن أكون في موقف ضد موقف صديقي.

ثم قال:

إني أشكرك ـ لأنك أرحتني من هذا المأزق، وساعدتني على التخلص منه..

وبذلك أرحتَ ضميري.

وأعاد المبلغ، ورفض الوكالة عن المتهمين بالقتل. وحينئذٍ ذهب الطَّرف الآخر ووكل المحامي اللبناني الشهير: «أميل لحُّود».

وقد علمنا، بعد ذلك، أن الطرف الآخر قد استشار قضاةً عمن يوكلونه في دعوى اغتيال «العقيد محمد ناصر».. فأشاروا عليهم جميعاً بتوكيل المحامي «هاني البيطار» الذي يُعتَبر من ألمع المحامين العرب ـ وخاصةً في موضوع الجنايات، فضلاً عن نزاهته واستقامته. وهذه الواقعة.. هي أقوى دليل على ذلك، وأكبر برهان عليه.

وهكذا.. فليكن الناس الشرفاء ـ وإلا.. فلا.

وعلمنا أنّ «الشيشكلي».. قد أخرج عضوَيْ المحكمة التي ستحاكِم المتهمين بالقتل، وعيَّن مكانهما عضوين آخرين من أنصاره.

وحينئذٍ.. وبعد استشارة عدد كبير من أولي الرأي، رأينا أنه لا فائدة من توكيل محامٍ.. واكتفينا بملاحقة النيابة العامة للمتهمين ـ ونحن واثقون من نزاهة النائب العام، وصلابته واستقامته.

وكتبنا بياناً أعلنَّا فيه بعض الوقائع.. ليطّلع المواطنون على ما جرى ويجري.. ووضعنا مئات النسخ في البريد ـ ولكن «الأيدي المعروفة».. امتدتْ إليها وصادرتها كلها! كما وُجِدَ من صادر نسخ البيان ـ حتى من صناديق النواب، في المجلس النيابي نفسه، فتأمل!

وبهذه الصورة.. كانت المؤامرة محاكةً من البداية إلى النهاية!

وطلب المدعي العام «عبد الوهاب الأزرق» إدانة المتهمين بالقتل، والحكم عليهما بالإعدام.. وهذا ما أقرَّه وطلبه رئيس المحكمة نفسه. ولكنّ العضوين اللذين عيَّنهما «الشيشكلي»، وهما بالطبع من أنصاره في الجيش.. قد اتخذا قراراً بتبرئة المتهمين بالأكثرية!

وهكذا ضاعت الجريمة.. وذهب «ناصر» إلى خالقه يشكو ظلم الإنسان لأخيه الإنسان!

ووقفتُ في مجلس النواب، بعد صدور حكم البراءة للمتهمين بالقتل، بالأكثرية، أقول:

إذا كان دم «الشهيد العقيد محمد ناصر».. قد خسر عدالة البشر، فإنه لن يخسر عدالة القدر. «وسيرى الظالمون أيَّ منقلَب ينقلبون».

وبعد حوالي عشرين عاماً.. ذهب أحد أبطال «بني معروف» الأشاوس، وهو ضابط متقاعد من «جبل العرب»، اسمه «نوّاف غزالة»، وقتل «أديب الشيشكلي» في البرازيل ـ انتقاماً منه لقتله عشرات الأبرياء، «من أبناء جبل العرب»، بالأسلحة الفتاكة، وبقنابل الطائرات ـ كما سيجيء.

* * *

منذ أن خرج «ابراهيم الحسيني» من السجن.. جاء من يخبرني بأنَّ أخاه مسجون في «سجن المزة» بتهمة «التجسس» لاسرائيل منذ سنتين. وحتى الآن لم يُحَل للمحاكمة، فتقدَّمتُ باستجواب للحكومة.. أسأل عن شقيق «ابراهيم الحسيني» الموجود في السجن منذ سنتين بتهمة «التجسس».. وحتى الآن لم يُحل للمحكمة.. فلماذا؟!

وجاء الجواب، من وزارة الدفاع، يؤكّد صحة النبأ.. ويُعرِب عن الأسف.. لزج اسم «كريم»! في هذا الموضوع.. وأنه كان يجب الاكتفاء بالاستفهام عن السجين، دون التعرض لذكر اسم آخر معه ـ ويقصدون أخاه «ابراهيم الحسيني».. فتأمل!!

ومرَّةً.. أردتُ الذهاب إلى لبنان، وكان قد حُلَّ «المجلس النيابي»، واستولى «الشيشكلي» على السلطة.. ولم يكن ثمَّة بدٌّ من الحصول على اذن من مديرية الشرطة.. فذهبتُ ومعي استدعاء قدَّمته للموظف المختص، فصعد به إلى المدير لأخذ موافقته ـ وكان «ابراهيم الحسيني» قد عُيِّن مديراً عاماً للشرطة.. بعد تبرئته من تهمة القتل! وعاد الموظف يقول لي: المدير العام يريد أن يراك.

وطبعاً لم يكن بامكاني الرفض ـ وأنا في دائرة رسمية.. فصعدتُ إلى عنده، وكان عنده «احسان قوّاص»، و«فؤاد جبارة»، وهما صديقان كريمان لي، وحينما

دخلتُ مكتبه.. تقدَّم واستقبلني وسط الغرفة، وحنى رأسه قليلاً، وقال: «ابراهيم الحسيني»، ولم أحنِ رأسي، وقلتُ: «عبد اللطيف اليونس»، وجلس وجلستُ.

وأشهد أنه كان لطيفاً ـ وأكثر من المعتاد. وقال لي: في أي وقت تريد الذهاب إلى لبنان.. فالتأشيرة جاهزة. قلتُ له: كنتُ أريد السفر مع صديق غداً.. ولكن، وأنا بانتظار عودة الموظَّف، جاءني الصديق طالباً تأجيل السفر إلى موعد آخر. ولذلك عدلتُ الآن، وشكرتُه، ونهضتُ. فقام من وراء مكتبه وودّعني عند الباب.

وبعدئذٍ قال لي «فؤاد جبارة»، رحمه الله، ومدّ في عمر «احسان قواص»، قال لي: بمقدار ما كان لطيفاً معك: كنت جافاً معه. وهذا ما حصل.

وما أن خرجتُ من الباب الخارجي لمديرية الشرطة، وابتعدت قليلاً حتى لحقني الموظف مسرعاً، وهو يناديني، فوقفتُ.. وإذا به يقدِّم لي «التأشيرة» إلى لبنان ممضاةً من المدير العام «ابراهيم الحسيني».

وأنا أذكر هذه الواقعة.. لأني أحب أن أثبتَ في هذه «المذكرات» ما هو لي، وما هو عليَّ.

ولا شك في أن «ابراهيم الحسيني» كان في مركز القوّة وقتذاك.. ولم تكن لي أيّة صفة رسمية بعد حل «مجلس النواب». وقد كان في ذلك الموقف ـ رغم كل مواقفي العنيفة الصارمة ضده ـ أكثر لباقةً ومسايرةً مني. أقول هذا.. وأعترف.

وبعد فترة، من ذلك التاريخ، عيّنه «الشيشكلي» ملحقاً عسكرياً في السفارة السورية بايطاليا ـ لأنه خشي أن يقوم بحركة انقلاب ضده. ويروي اللواء «راشد كيلاني» في مذكراته أن «الدكتور عبد الوهاب حومد» قال له:

في حديث بيني وبين «ابراهيم الحسيني» في روما عام ١٩٥٢ حرَّضني مع أعضاء «حزب الشعب»، على الانقضاض على «الشيشكلي»، وطلب مني ابلاغ «رشدي كيخيا» و«ناظم القدسي» رسالةً بهذا المعنى. وقال: أنا لا أطمع بالحلول محله.. ولو كنتُ أرغب في ذلك.. لكان من السهل عليَّ، وأنا واقف خلفه، أن أضع في رأسه خمس رصاصات!

ويقول «اللواء الكيلاني» ـ وكان قد عُيِّن قائداً للطيران، بعد اغتيال «العقيد

محمد ناصر» ـ إنّ «ابراهيم الحسيني» قد عاد إلى دمشق، عقب الانقلاب الذي جرى على «أديب الشيشكلي».. وبشكل سري ـ لم يطلع عليه إلاّ صهره «توفيق حبوباتي».. فهتف له رئيس الأركان، وطلب منه اعتقال «الحسيني» من الطائرة، وإعادته من حيث جاء.

* * *

كانت مهمة «الجمعية التأسيسية» وضع دستور للبلاد.. يحلّ محل الدستور الذي وُضِعَ في مطلع الثلاثينات ـ إبّان الانتداب الفرنسي. وفضلاً عن أن ذلك الدستور لم يكن معبّراً، كل التعبير، عن آمال الشعب، وطموحه وأمانيه.. فإن الزمن قد تجاوز بعض أحكامه ـ وكذلك الأحداث المتعاقبة، وتطلعات الشعب نحو أفق عربي مشرق.

ونص الدستور المؤقت.. الذي وُضِعَ عند اجتماع «الجمعية التأسيسية»، كما مرّ بنا، وهو مؤلف من بضع موادّ.. على أن تضطلع «الجمعية التأسيسية» بصلاحيات «المجلس النيابي» مدة وجودها.. وعند الانتهاء من وضع الدستور، وإقراره.. تنتهي مهمتها، ويُدعَى إلى انتخاب مجلس جديد ـ ما لم تتحوّل هي إلى مجلس نيابي.. بموافقة ثلثيْ أعضائها، وهذا ما حدث.

وانْتُخِبتْ « لجنة الدستور »، وهي مؤلفة من ثلاثة وثلاثين عضواً ـ كنتُ أحدهم. ثم انتخبت اللجنة «الدكتور ناظم القدسي» رئيساً لها، و«الدكتور عبد الوهاب حومد» مقرراً.

وشُكِّلت لجنة صغرى، من اللجنة العامة، سُمّيت «لجنة النّص» ـ أي تهيئة نصوص المواد التي تُعرَض على اللجنة العامة لدراستها وإقرارها. وحينما كانت ترد المواد التي تقرّها «لجنة النص»، إلى اللجنة العامة لدراستها وإقرارها، كنت أحياناً أبدي بعض الملاحظات على الصياغة وقواعد اللغة ـ وأنا شديد الدّقة بذلك.. مما استلفت نظر رئيس اللجنة، «الدكتور القدسي»، فطلب مني الانضمام إلى «لجنة النص».. فاعتذرت ـ لأن مراجعة الناس كانت من الكثرة والكثافة.. بحيث لم تكن تترك لي أي مجال لأعمال اللجنة المصغرة.. التي كانت تتطلب

التفرّغ لها، وقصر الوقت كلّه عليها.

وطلب «الشيخ مصطفى السباعي»، وكان عضواً في اللجنة العامة، أن توضع في صلب الدستور مادّة: «دين الدولة الإسلام». وأثار هذا الاقتراح نقاشاً طويلاً وحادّاً داخل اللجنة، طوال أسابيع عديدة ـ ما بين مؤيّد ومعارض. ولكن المعارضين كانوا أكثر من المؤيدين. وحمي النقاش ـ حتى كاد يتطور، في بعض الجلسات إلى مواقف غير كريمة!

ونشط «الاخوان المسلمون»، ومؤيّدوهم، لجمع التواقيع من سائر أنحاء البلاد.. بتأييد اقتراحهم ـ حتى بلغت البرقيات والعرائض التي حملوا مواطنين كثيرين على توقيعها.. أرقاماً خيالية!

وعقد المسيحيون مؤتمراً في دمشق، للمطالبة بأن يكون الدستور علمانياً لا طائفياً.. تمشياً مع روح العصر، وتطوّر الزمان. وقدّموا لرئيس «المجلس التشريعي»، ولرئيس الجمهورية، اعتراضاً على اقتراح «الاخوان المسلمين». وصرّح «فارس الخوري» للصحُف بقوله: «الدين لله، والوطن للجميع».

وكان موقف «حزب البعث»، ويمثّله «جلال السيد» في اللجنة.. عنيفاً وصارماً في مقاومة اقتراح «الاخوان المسلمين» ومؤيديهم.

وأخيراً.. وبعد جهود مضنية، استمرّت عدّة أشهر، تمكن «رشدي كيخيا» من اقناع «السباعي» بوضع فقرة «دين رئيس الدولة الإسلام» ـ بدلاً من «دين الدولة الإسلام». ووُضع في مقدّمة «الدستور»: «الفقه الإسلامي» هو المصدر الرئيسي للتشريع، و«الأحوال الشخصية.. لجميع الطوائف مصونة ومرعية».

وجاء في مقدمة «الدستور» أيضاً: «ولما كانت غالبية الشعب تدين بالإسلام.. فإنّ الدولة تعلن استمساكها بالإسلام ومُثُلهُ العليا».

وهبطت شعبية «الشيخ مصطفى السباعي»، بين رفاقه، وهو «المرشد العام للاخوان المسلمين» حينذاك.. وهاجمه أخصامه بشكل عنيف ـ بعد موافقته على الفقرات المارّ ذكرها، وطيّ اقتراح «دين الدولة الإسلام». واعتلّت صحته.. وقيل إن وفاته المبكّرة جاءت بسبب الحملات الضارية التي شنها عليه معارضوه!

وكنّا في «لجنة الدستور».. قد طلبنا من سفاراتنا في العالم أن ترسل كل منها نسخة من دستور البلد الموجودة فيه. وقد تجمّع لدينا عدد ضخم من الدساتير.. تُرجِم الأجنبي منها إلى اللغة العربية، ووُزِّعَتْ كلها على أعضاء اللجنة. وكنّا بذلك نطلّع على دساتير الشعوب الأخرى، بكل مادة ندرسها، ونقابل بينها وبين ما ورد في تلك الدساتير، فنطلع على وجهات نظر الآخرين بالمواضيع ذات المبادىء العامة.. التي تهتمّ بها كل الشعوب، والتي هي مبادىء أساسية لحريتها وتعاملها وانطلاقها.. ونقرِّر ما يتفق وأوضاعنا وواقعنا ومتطلباتنا.

والدستور للشعب ـ كل شعب.. هو أشبه ما يكون بالثوب للإنسان.. يُفصَّل على قدر جسمه ـ أو هذا ما يجب أن يكون.

وبعد أكثر من عشرة أشهر من الدراسة العميقة الدقيقة، أحالت اللجنة مشروع الدستور إلى «الجمعية التأسيسية» لدراسته وإقراره. وبعد أن تمّت دراسة كل مادة على حِدَة.. تمّ إقرار المشروع، بعد ادخال تعديلات طفيفة عليه ـ من حيث الصياغة، ونواح أخرى.

واقترح «حسني البرازي»، و«منير العجلاني» إضافة مادة تمنع تدخل الجيش بالسياسة. ولكنّ الاقتراح رُفِض.. ولم يُوافق عليه ـ لأن ذلك من الأمور البديهية المسلّم بها.. سواء وُجِدَ نصّ أو لم يوجد.

* * *

كان الدستور مثالياً ـ من حيث نصوصه ومبادئه وأحكامه. وقد نصّ على أنّ الشعب السوري جزء من الأمة العربية. وجاء في المقدمة:

«إن الحريات العامة.. هي أسمى ما تتمثّل فيه معاني الشخصية، والكرامة الإنسانية».

وضمنت عشرون مادة. الحقوق المحدّدة للمواطن السوري - وهي الضمانات المدنية ـ مثل: التوقيف الاحتياطي، وافتراض البراءة لكل متّهم حتى يدان، وصيانة المساكن، وكفالة حرية الرأي، والصحافة، والإقامة، والإجتماع، واللجوء السياسي. كما أوجد ضماناتٍ اقتصادية واجتماعية واسعة.

وكانت المادة ٢١ ثورية ـ لأنها حدَّدت الملكية حسب طبيعتها ـ بعامة وخاصة.

وقضت المادة ٢٢ بسنّ تشريع خاص يؤدّي إلى تحقيق استثمار الأرض بصورة صالحة، وعودة ملكية الأراضي المهملة للدولة، وتعيين الحدّ الأعلى لحيازة الأرض حسب المناطق ـ على أن لا يكون له مفعول رجعي.. وتوزيع الأراضي على الفلاحين.

وثار جدال، استمر بضع ساعات، حول أن يكون تعيين الحد الأعلى لحيازة الأرض.. له مفعول رجعي أو لا يكون. وأخيراً.. كان التصويت هكذا: مع النص الوارد من اللجنة.. أن لا يكون له مفعول رجعي ٤٥ صوتاً ـ مقابل ٤٣ صوتاً مع التعديل في أن يكون له. وبذلك سقط اقتراح التعديل.

وقضى الدستور.. بتكافؤ الفرص لجميع المواطنين، وأنّ العمل حقّ لكل مواطن، وواجب يمليه الشرف.. وأن الدولة ستوفره للجميع.. وأن لكل مواطن الحقّ في أن تكفله الدولة، وتكفل أسرته في حالات الطوارىء، والمرض، والعجز، واليُتم، والشيخوخة، والبطالة المتعمَّدة.. وأن التعليم حقّ لكل مواطن ـ وهو مجّاني وإلزامي، وموحد البرامج.

وهناك موادّ.. تتعلق بالسلطات التشريعية، والتنفيذية، والقضائية، والتقسيمات الإدارية، والشؤون المالية، وكيفية تعديل الدستور.

وثمّة مواد انتقالية لفترة معينة.. تبطل عند تحقيقها منها: القضاء على الأميّة خلال عشر سنوات، وتحضير البدو تدريجياً.

وكانت مسوّدة الدستور تتضمن ١٧٧ مادة. ولكن عند دراسته وإقراره، في المجلس، هبط الرقم إلى ١٦٦ مادة.

وبناءً على اقتراح عشرة نوّاب، كما تنص أحكام الدستور في مواده الانتقالية، فقد تمّ تحويل «الجمعية التأسيسية» إلى «مجلس نوّاب».

* * *

بعد أن تحولت «الجمعية التأسيسية» إلى «مجلس نواب».. انتخب النواب «هاشم الأتاسي» رئيساً للجمهورية. وكان «خالد العظم» رئيس الوزارة، وقتذاك..

وقد قاطع الجلسة التي تمَّ فيها انتخاب رئيس الجمهورية ـ رغم أن «هاشم الأتاسي» قد زاره في مكتبه، بدار الحكومة، صباح يوم الانتخاب، وقبل أن يتوجَّه إلى «المجلس النيابي». ولكن «العظم» كان يطمح لأن يكون هو الرئيس المُنتَخب! فوقف موقفاً نابياً جعله موضع نقد شديد، وحملات مكثفة ضده.

ولم يكتفِ «العظم» بمقاطعة جلسة الانتخاب شخصياً.. وإنما حمل الوزراء، وهم أعضاء في المجلس النيابي، على التضامن معه.. ومقاطعة الجلسة! وقد اعتصموا بمكتب رئيس الوزارة في «المجلس».. حتى تمَّ انتخاب رئيس الجمهورية، فدخلوا جميعاً قاعة المجلس!

وبعد أن تم انتخاب «الرئيس الأتاسي».. هنَّأه ممثلو الكتل النيابية بكلمات ألقوها. وهنَّأتُه باسم «الكتلة» التي كنت «أمين سرها»، وختمتُ تهنئتي له بالبيت الشهير الذي وجّهه الشاعر «الحُطَيئة»، إلى الخليفة «عمر بن الخطاب»، رضي الله عنه، وهو:

لم يؤثروك بها.. إذ قدّموك لها لكنْ لأنفسهمْ.. كانتْ بك الأَثَرُ

وكان قد هُيِّىء للرئيس «الأتاسي» مقعد إلى جانب المنصّة.. فنهض وعانقني، وشكرني وقال: وهو بادي التأثُّر: هذا البيت من الشعر.. هو من أعظم ما قيل.

وعهد «الأتاسي» إلى «ناظم القدسي» بتأليف الوزارة. وقرَّرت «الكتلة الجمهوريّة» عدم الاشتراك بها ـ لأن أكثرية أعضائها كانوا يؤيدون «خالد العظم» وقد عُرِضَ عليّ، وبإلحاح، أن أكون عضواً بالوزارة فاعتذرتُ. وسبق أن نوّهتُ بهذا. وقلت للدكتور «منير العجلاني»، وكان مكلفاً بإقناعي: كيف تريد مني أن أشترك معكم بوزارة قررت «الكتلة الجمهورية» مقاطعتها وأنا أمين سرها؟. «فقال لي: دعك من هذه المثالية.. لو لم أشترك أنا بالوزارة في عهد «الشيخ تاج» لبقيت مهملاً إلى الآن!

وفي وزارة «القدسي» هذه.. جرى تأميم عدد من الشركات الاستعمارية.. وكان لها فضل السبق، في الشرق الأوسط كله، بقرارات التأميم ـ فقد استولت على شركات الماء والكهرباء الفرنسية في حلب وحمص، وشركات الكهرباء

والنقل في دمشق، وإدارة حصر التبغ الفرنسية ـ التي كانت في محافظة اللاذقية.. دولةً وسط دولةٍ!

* * *

حفلت سنتا ١٩٥٠ و ١٩٥١ بفوضى تشكيل وزارات واستقالتها. وكان معدّل العمر الوسطي، لكل وزارة، أشهراً قليلة. و«الشيشكلي».. كان وراء ذلك كله ـ لأنه لا يريد الاستقرار.. وإنما الفوضى ـ حتى تكون له بمثابة ركيزة لتحقيق طموحه واستبداده بالسلطة! وكان يؤيِّد «خالد العظم» ـ لأنّه كان مطواعاً له.. وينفِّذ مآربه ومطالبه. وقد أقام «العظم» لـ «الشيشكلي» مأدبة تكريمية ضخمة.. حينما رُفِّع إلى رتبة «عميد» ـ والأصح هو رفَّع نفسه، ورقّى نفسه! وألقى «العظم» كلمةً أثنى فيها على الدكتاتور.. واعتبره من كبار المصلحين!!

واحدى الوزارات التي شكلها «خالد العظم».. رفض «حزب الشعب»، ومؤيدوه، الاشتراك بها، وهم الأكثرية في المجلس، وقرروا معارضتها. واصطنع «الشيشكلي» معركة «عرب البقّارة» مع العدو.. وقد ذهب عشرات القتلى في تلك المعركة المصطنعة التي كان هدفها تسهيل مهمّة «العظم» بتأليف الحكومة! وبذلك وُضع «حزب الشعب» أمام الأمر الواقع ـ لأنّ من غير المعقول إسقاط الوزارة.. والمعركة مستمرة على الحدود! وهكذا اضطرّ أعضاء «حزب الشعب» للتغيّب عن القاعة.. لكي يتحاشوا التصويت ضد الوزارة.. وفسح المجال لعشرة نواب فقط، من أعضاء «حزب الشعب»، بالحضور.. لكي يكتمل النِّصاب القانوني للجلسة، ويمتنعوا عن التصويت!

وحينما اضطر «العظم» للاستقالة ــ لأنّ أكثريّة المجلس ضده.. كُلِّفَ «ناظم القدسي» بتأليفها، فألّفها.. وأعلن أسماء أعضائها في مكتب رئيس المجلس، وهو آنذاك «الدكتور معروف الدواليبي».. وكان قد مضى على الأزمة الوزارية أيام طويلة. وتفاءلنا بانتهائها ـ وكنتُ ذلك اليوم مدعوّاً للغداء عند السفير المصري.. وفي الطريق أخبرني أحد الزملاء أن «القدسي» صعد إلى القصر الجمهوري، واعتذر. وأول ما قاله لي السفير: أهنئكم بانتهاء الأزمة

الوزارية. وحينما أخبرته عن اعتذار «القدسي» بآخر لحظة.. صُعِقَ ودُهِشَ.

لقد كان «ناظم القدسي» طيب القلب نبيلاً.

والطِّيبة.. إن زادت على حدّها المألوف.. تصبح عبئاً على صاحبها، وليست سَنَداً له.

وأعترف بأن طيبة القلب.. هي مرضي الدائم.. وقد سببتْ لي مصاعب ومتاعب كثيرة ـ وما تزال!

وكتبتُ مرّةً لصديقي «شاعر غلواء» ـ «زكي قنصل» عن طيبة قلبي، وأنها مَرَضي الدائم.. فكتب لي يقول: «هذا مرض.. لا عافاك الله منه» ـ ويبدو أنني لن أُعافى!

وهكذا.. كان «ناظم القدسي» طيِّباً أكثر مما يجب. ورغم أن ثقافته واسعة.. فإنّ أكثر أعماله وتصرفاته كانت مرتجلة.. لا تنم عن دراسة عميقة، وتهيئة مسبقة، وتفكير منسّق!

ومرةً.. طلب رئيس الجمهورية، هاشم الأتاسي، من «الكتلة الجمهورية» أن تشترك مع «القدسي» بالوزارة ـ وكان قد عهد إليه أمر تشكيلها.. لتكون وزارة تمثّل المجلس كله، وتستطيع مجابهة الأحداث وهي مستندة على اجماع المجلس ـ وليس على «حزب الشعب» ومؤيديه وحدهم.

وذهبتُ إلى «الرئيس الأتاسي»، وكنتُ أمين سر «الكتلة الجمهورية» وقتئذٍ، لأبلغه قرارها بعدم الموافقة على الاشتراك بوزارة «القدسي» ـ لاعتبارات ذكرتُها له.. ولكني تعهدتُ باسم «الكتلة» أن لا تعارضها في المجلس.. وإنما نتغيّب عن الجلسة عند التصويت على الثقة ـ كما فعل نواب «حزب الشعب» مع الوزارة السابقة التي كنا نؤيدها. وأذكر أن «الأتاسي» قال لي ـ وهو بادي الألم والتأثّر:

«إبني.. أنا موقّف «ناظم القدسي» على رجلين من قصب»!

فتصور ذلك الشيخ الطاعن بالسن، رئيس الجمهورية، يوقف رئيس الوزارة الكهل على رجلين من قصب!

ولا يُخيّل للقارىء أني بهذا القول أحاول النَّيل من شخصية «ناظم القدسي» ـ

وأعوذ بالله من هذا.. فأنا أودّه وأقدّره إلى أبعد حد. لكنني ـ وأنا أدوّن ذكرياتي عن تلك المرحلة.. لا أستطيع إلا أن أكون صادقاً مع نفسي فيما أشعر، ومع الناس فيما أقول.

وانسياقاً مع هذا القول والشعور.. فإني أسجّل الأمور الهامة التي عشتُها وعايشتُها ـ بكل تجرد ونزاهة وسموّ غاية. والله وراء القصد، وهو العليم الخبير.

* * *

بعد اغتيال «العقيد ناصر».. قويت النقمة العارمة على «أديب الشيشكلي»، من أكثر ضباط الجيش، وكل منهم يخشى على نفسه ومستقبله ـ من الرجل الذي لا يتورّع. فتحلّقوا حول «العقيد عزيز عبد الكريم»، و«العقيد توفيق نظام الدين» ـ الذي كان موقفه في وجه «الشيشكلي» حازماً وصلباً. ولمّا شعر هذا بازدياد النقمة عليه، والتألّب ضده، واستقطاب أكثرية الضباط «العقيد توفيق نظام الدين» ليحل محله.. طلب «الشيشكلي» من «ناظم القدسي»، رئيس الوزارة، أن يعيّنه سفيراً في الخارج ـ لكنه اشترط تعيين «نظام الدين» سفيراً أيضاً، قائلاً: لا يمكن أن أخرج أنا من البلاد.. ويبقى «نظام الدين» فيها ـ ولفظ بحقه كلمة بذيئة نابية!

وبدلاً من أن يغتنم «القدسي» هذه الفرصة الذهبية.. ويُبعِد «الشيشكلي» عن الجيش.. وينقذ الديمقراطية والبلاد كلها من أثره وخطره ـ بدلاً من ذلك.. قال له فيها:

بل أجمعكما معاً، وأوفّق بينكما ـ وهذا ما حصل! فقد جمعهما في بيت رئيس الأركان «أنور بنّود»، وجعلهما يتصافحان، ويطويان خلافاتهما!!!

وهكذا فُسِح المجال من جديد لـ «أديب الشيشكلي» كي يحقق طموحه دون المجابهة مع أحد من الضباط الكبار. ويستمرّ بحوك المؤامرات والمناورات التي جرّت البلاد بعدئذٍ إلى ما عانته من ويلات، وقاسته من نكبات!!

أما «عزيز عبد الكريم».. فقد كان رجلاً مسالماً.. لا يبني طموحه إلا على

أسس من الواقعية والخلقية والاستقامة.

وكان «القدسي»، بموقفه ذاك، يريد أن يستعين بـ «الشيشكلي» على «الحزب الوطني».. ويتّخذ من الجيش، حسب اعتقاده، درعاً يقيه من خصومه ومعارضيه! وكان يريد أيضاً.. أن يجعل «الشيشكلي» يقف إلى جانبه ـ بدلاً من وقوفه إلى جانب «خالد العظم». ونسي أن هناك «أكرم الحوراني» الذي كان يقف إلى جانب «الدكتاتور» المقبل.. يستغلّه، ويحقّق بواسطته طموحه ـ حسبما كان يأمل ويحلم.. فيحطّم «حزب الشعب»، و«الحزب الوطني»، بواسطة «العظم» و«الشيشكلي» ـ ولكن هذا.. كان أكثر حنكةً، وأدقّ مؤامرة من ذاك! فجعل يستغلّه، ويستثمر نشاطه، ومناوراته، حتى استتبّ له الأمر.. فتنكّر له، واستقل بالحكم وحده ـ كما سيجيء!

* * *

وقام «ناظم القدسي»، مخلصاً، بالسّعي للتوفيق بين الزعماء العرب، ومحاولة تقريب وجهات النظر فيما بينهم، وخاصةً زعماء مصر والسعودية والعراق.

في مصر.. بارك «النّحاس» مساعيه وجهوده. وفي السعودية.. كان «الملك سعود» جافّاً معه ـ لأنه يعرف ميله نحو العراق، فلم يستقبله.. وإنما أوعز إلى «الشيخ يوسف ياسين»، مستشاره المقرّب، أن يستقبله هو.. ويعرب له عن أسف الملك لعدم تمكنه من مقابلته!

وحينما كان رئيس الوزارةُ السورية في المطار السعودي.. ليستقلّ الطائرة عائداً إلى دمشق.. كان «الملك سعود» نفسه في المطار أيضاً مسافراً إلى جهة ما! ومع ذلك.. فإنه لم يقابله ولم يلتقِ به ـ ممّا أثار غيظ الأوساط السياسية بسورية إلى حدٍّ بعيد.

ولا شكّ.. أن موقف السعوديين ذاك.. كان ناجماً عن شعورهم بميل «حزب الشعب» نحو السياسيين في بغداد ـ وهم يعرفون جيداً هذا.. وقد عملوا كثيراً لإحباط خطط «الشعبيين» بالاتحاد مع العراق ـ لذلك وقفوا مع «الدكتور ناظم القدسي» هذا الموقف!

* * *

سنة ١٩٥١ اعتلّت صحة المجاهد الكبير «الشيخ صالح العلي».. مما اضطرّه لدخول مستشفى «أوتيل ديو» في بيروت، ثم انتقل منه إلى مستشفى «الأهالي» في طرابلس. وكنت أزوره دائماً في المستشفى. ثم انتقل، بعدئذٍ، إلى دار «محمد الحامد» في طرطوس.

وعلمتُ بوجود طبيب ألماني مختص بالقلب، وهو من مشاهير الأطباء. وكان يحلّ في مستشفى أحد تلامذته، فأسرعتُ لزيارته، وطلبتُ منه التلطُّف بمرافقتنا لعيادة «الشيخ» ومعالجته، فقال إنه جاء بقصد الاستجمام.. وأيامه محدودة جداً، واعتذر. فاتصلتُ بصديقي «الدكتور أمين رويحه»، وكان «نقيب الأطباء»، وأخبرتُه عن مرض «الشيخ صالح»، وأني زرتُ الطبيب الألماني ورجوته الذهاب لمعالجته، فاعتذر، وسألته إذا كان بامكانه التوسُّط معه واقناعه، فقال لي:

هل تستطيع أن تطلب من رئيس الجمهورية أن يطلب منه هذا..؟ وحينئذٍ لن يمتنع أبداً.

فذهبتُ إلى القصر الجمهوري.. وقابلتُ «الرئيس هاشم الأتاسي» ـ وكان يقدِّر «الشيخ صالح» كثيراً، ويُكبر جهاده ونضاله. ولم يصدف أن ذهبتُ لمقابلة رئيس الجمهورية، سواءً كان «الأتاسي»، أو «القوتلي»، أو «القدسي».. إلاّ واستقبلني فور خروج الزائر من عنده ـ إلا إذا كان ثمّة موعد مع زائر أجنبي، وعرضتُ على «الرئيس» موضوع مرض «الشيخ صالح»، وكان على علم بذلك ـ وقد أرسل له معي مرّة، إلى المستشفى تحية، ومعها هدية.. وطلبتُ أن يتلطف ويوعز إلى الطبيب الألماني كي يذهب معنا لمعالجته. فاستدعى أمين عام القصر الجمهوري، الدكتور «خالد شاتيلا»، وطلب منه الذهاب باسمه، إلى عند الطبيب الألماني، وتكليفه الذهاب معي إلى طرطوس لمعالجة «الشيخ صالح». وحينئذٍ لم يتردد الطبيب الألماني.. بل وافق على السفر فوراً، وبرفقته الطبيب الذي لا أريد ذكر اسمه ـ لأنه قد حصل منه، بعدئذٍ، مالا يسوغ أن يحصل.. وسآتي على ذكر ذلك.

وتلطّف «الدكتور رويحة» وتعهد بالبقاء في مشفى الطبيب الدمشقي، مدة

غيابه ـ وكنا بأمّس الحاجة لسفره معنا، ليكون ترجماناً للطبيب الألماني، واسمه الدكتور «كارل كورت».

واستأجرتُ سيارة أجرة.. وذهبنا فوراً عن طريق لبنان، وتناولنا غداءنا في «شتورا»، ثم تابعنا السفر إلى طرطوس، ووصلناها قبل غروب الشمس بقليل.
وكانت دار «محمد الحامد»، والفضاء المحيط بها، يغصان بالناس الذين توافدوا لزيارة «الشيخ» الذي رحّب بالطبيب الألماني، وشكره لتجشّمه مشقة السفر في سبيله. وقال له:

طالما أنكم ضد اليهود.. فأنا أطمئنكم بأن ألمانيا ستنتصر، وتستعيد مكانتها ومجدها. وقد تأثر الطبيب الألماني من كلام «الشيخ»، وخرجنا والتأثُّر بادٍ على محياه.

وذهبت بالطبيب الألماني ورفيقه إلى اللاذقية ـ لأن المبيت في فندق «الكازينو» الفخم باللاذقية أفضل من المبيت في مكان آخر.

* * *

لقد أَخذَ الطبيب الألماني بروعة الساحل السوري، وإطلالة الجبال عليه، وقال: إنه لم يرَ أروع من هذه المناظر الخلاّبة، ولا شبيهاً لها.

فهذه الطبيعة الساحرة.. تستبدّ بك، وتجذبك إليها.. وتجعل بصرك وفؤادك وقفاً عليها.. ومنسكبين فيها، ومن هذا الغامض المجهول الذي نسميه «القدر».. ونحن لا نعرف شيئاً عنه.. إلا أنه «قَدَر»، وأنه لا يعلم ما هو.. إلاّ هو!

ومن المؤسف.. أن ندَّعي المعرفة، ونزعم أننا نعلم ـ مع أننا لا نعرف شيئاً، ولا نعلم!

وحتى أنفسنا، وحتى ذواتنا.. فإننا لا نعرف شيئاً عن حقيقة تكوينها.. ولا كيف بدأت، ولا أين ستنتهي!

فمن الجهل ننطلق ـ ونحن صرعى حقيقة، وضحايا واقع!

وحسبنا.. أننا نشعر بجهلنا ـ وإن كنا لا نُقِرُّ بهذا.. ولا نعترف!

ومن أعظم ما قرأتُ في حياتي.. قول مكتشف «الجاذبية» ـ «نيوتن»:

«إنني جاهل! والحقيقة الوحيدة التي أعرفها - هي: أنني جاهل»!

ولندَع هذه السوانح والخواطر جانباً.. ونطرحها ـ إن استطعنا.. وقد نعود إليها، ومن الخير أن نعود.

فحسبنا الآن مأساة «شيخنا» ـ أو مأساتنا بمرض «شيخنا».

* * *

وصباح اليوم الثاني عدنا إلى طرطوس، وعاد الطبيب يفحص «الشيخ» ويدقِّق بفحصه من جديد. وأعطاه حقنة ثانية.. وخرج ـ وعلائم التأثُّر والحزن بادية عليه.

وقبل أن أخرج مع الطبيب.. قبّلتُ يد «الشيخ»، وأنا مضطرب وحزين، فأمسك يدي وقال لي:

بارك الله فيك يا بني. وأسأل الله أن يوفِّقك، ويأخذ بيدك، ويكون دائماً عوناً لك. فلو لم تكتب تاريخ «الثورة» في حياتي.. لكانت ضاعت أخبارها واندثرت ـ لأنَّ المبغضين والحاسدين، وهم مرضى بعقولهم، وضعاف بإيمانهم، قد تنكروا لها، ووصموها وأنا حي.. فكيف بعد رحيلي من الدنيا؟ وكرر دعاءه لي.

ولمحتُ دمعةً تتلألأ في عينيه.. وأنا أحاول أن أكفكف الدموع التي انهمرت من عينيَّ، وقبّلتُ يده، وأسرعتُ بالخروج ـ وأنا لا أكاد أبصر طريقي من التأثر والدموع.

ودرجتْ بنا السيارة، ومضينا. وما أذكره ـ ولن أنساه ما حييت ـ هو أنه ما إن درجتْ بنا السيارة.. حتى انطلقت.. الدموع من عيني الطبيب الألماني وانهمرت. واستغربتُ ذلك.. وسألته عن الدافع لبكائه، فقال:

«الشيخ في طريقه إلى النهاية .. والقلب على وشك التوقُّف .. ولا حيلة لي بعمل شيء لأجله أكثر من إعطائه «حقنة» قوية.. تساعد القلب على الاستمرار بعض الوقت» ثم أردف:

«أنا عاتبٌ عليك ـ لأنك أتيتَ بي لمعالجة هذا «الشيخ».. الذي لم أرَ في حياتي وجهاً وقوراً كوجهه.. ولا طلعةً مهيبةً كطلعته. وأنا عاجزٌ عن عمل أيّ شيء له.

واستمرّت الدموع تنهمر من أعيننا ـ هو، وأنا».

وصمَمتُ على أن أنهي بعض أموري في دمشق بسرعة، وأعود إلى طرطوس ـ للبقاء في جوار «الشيخ» إلى أن يأذن الله. ولكن قضاء الله وقدره كان أسرع. وكانت تلك اللحظات التي مرّت.. آخر العهد به. نضّر الله ذكره وذكراه، وأكرم في الآخرة مأواه ومثواه.

* * *

وانطلقنا إلى دمشق. وقد ذهب معنا «الشيخ كامل العيسى»، أحد الأوصياء الخمسة الذين عيّنهم «الشيخ» لتنفيذ وصيته وهي:

بناء مسجد في «الشيخ بدر»، ومستوصف، ومدرسة ثانوية، ومأوى للعجزة، واعطاء معونات لأسر المجاهدين، والفقراء والمعوزين.

والأوصياء هم: الشيخ ابراهيم يوسف عيد، الشيخ أحمد محمد رمضان، الشيخ صالح بدر، الشيخ كامل العيسى، الأستاذ سلمان محمد سليمان.

وكان قد دوىّ في المحيط كله.. نبأ مجيء الطبيب الألماني لمعالجة «الشيخ صالح العلي».. فاتصلتْ بي من صافيتا، إلى اللاذقية، أسرة «خليل مطانيوس»، وكان يشكو مرض القلب، وهو طريح الفراش منذ وقت طويل، وطلبتْ مني إقناع الطبيب بالمجيء لمعالجته. واستطعتُ اقناعه، والطبيب الدمشقي المرافق له. وبدلاً من العودة إلى دمشق عن طريق بيروت ـ حيث هي، آنذاك، أفضل وأصلح، فقد عدنا عن طريق صافيتا ـ حمص.

وبعد معاينة المريض.. قال الطبيب لأسرته: إذا نفّذتم التعليمات التي أقولها لكم بدقّة.. فإن مريضكم سيعيش عشر سنوات ـ وهي أن تَزِنوا ما تعطونه إياه باليوم الواحد كيلو غرام فقط ـ من مأكل ومشرب.

ونفّذوا تعليمات الطبيب. وفعلاً عاش المريض عشر سنوات ــ كما ذكر الدكتور. ثم انتقل إلى رحمة الله.

وفي دمشق.. عرضتُ على «الدكتور كارل كورت» مبلغاً من المال ـ مقابل رحلته، ومعاينته «الشيخ المجاهد». وبكل كرم نفس وإبائها ونبالتها.. رفض

رفضاً باتاً قبول أي شيء.

وأما مرافقه الدمشقي.. فقد أرسل، بعد ذلك، رسالة إلى «الشيخ أحمد محمد محمد رمضان».. يطلب لنفسه، مقابل سفره مع الطبيب الألماني، مبلغاً ضخماً من المال! وأطلعتُ «الدكتور أمين رويحه» على رسالته، فتأثر كثيراً.. واتصل بذلك الطبيب هاتفياً، وأنّبه، وقال له: لقد أغلقتُ عيادتي يومين، وابتعدتُ عن مرضاي، وبقيتُ في مشفاك أعالج مرضاك.. فهل طلبتُ منك شيئاً مقابل ذلك؟ فخجل الطبيب الدمشقي، واعتذر.

* * *

في ساعة مبكّرة، من صباح اليوم الثاني، اتصلوا بي هاتفياً من طرطوس، ونقلوا لي نبأ وفاة «الشيخ»، فأسرعت وأخبرت «الشيخ كامل العيسى» بذلك.. وذهبنا معاً بسيارة «نجيب الصايغ» إلى طرطوس. وطلبنا منه أن يسرع.. لنصل قبل نقل الجثمان إلى «الشيخ بدر» - مدينة «الثورة».

وما أعرف.. إن كان، يومئذٍ، قد طار فوق الطريق ـ أو أنه سار عليها بسيارته، ولكنّ الذي أعرفه جيداً.. أنه وصل إلى طرطوس في أقلّ من ثلاث ساعات ـ رغم وعورة الطريق وأخاديده والتواءاته في ذلك الحين!

كان أهالي طرطوس.. قد أغلقوا متاجرهم، وهرعوا لتشييع جثمان «شيخ الجهاد والمجاهدين»، وأول من أطلق الرصاص بوجه الفرنسيين، وطافوا به شوارع المدينة محمولاً على الأكتاف.. مبتدئين من عند الثكنة العسكرية التي سُمّيتْ باسمه، فيما بعد، كما سيجيء.. إلى آخر حدود المدينة من الناحية الشمالية.. حيث وُضع الجثمان الطاهر في السيارة التي تُقلّه إلى «مركز الثورة» ومنطلقها - ليدفن هناك.

في اللحظة.. التي كان يوضع فيها «النّعش» الذي يحوي الجثمان الطاهر.. وصلنا.. وواكبناه، مع عشرات السيارات التي تدفّقت من سائر الجهات.

وفي عاصمة الثورة - «الشيخ بدر».. كانت جماهير غفيرة تنتظر الجثمان الذي حملته على الأكف إلى قرية «الرستن» المجاورة ـ حيث كان مقرّ «الشيخ»

في أكثر فصول السَّنة. وفي اليوم الثاني.. دُفِنَ إلى جانب المسجد الذي بناه، ولم يحضر أحد من المسؤولين عند دفنه ـ سوى مدير الناحية، ومعه رئيس مخفر الدَّرك، ودركيان! وقد أُلقيتْ قصائد عديدة وكلمات ـ كان من أبرزها كلمة المحامي «أحمد المحمود».. وكنتُ أحد المتكلمين، وقلتُ، فيما قلت:

يوم نرتفع إلى مستوى الجهاد.. نعرف قيمة مجاهدينا الكبار: الشيخ صالح العلي، سلطان باشا الأطرش، إبراهيم هنانو، وبقية المناضلين الذين أدّوا دورهم كاملاً في ميادين التضحية والكفاح. وقلتُ:

إن «الشيخ صالح العلي».. هو سِفْرٌ نفيسٌ في تاريخ نضال هذه الأمة ضد المستعمرين والمحتلين.. ثم انصرافه عن مغريات الحكم، ومباهج الحياة ـ بعد أن أدّى دوره كاملاً في ميادين الجهاد.. هو وحده دليلٌ على سمّو روحه، وطهارة نفسه، ونبل عقيدته.. وأنه رمز من رموز الكرامة والشرف، وبارقٌ مُشِعٌّ من النَّزاهة والطِّيبة والقِيَم الرفيعة. ثم تساءلت: أين كبار المسؤولين الذين يجب أن يكونوا الآن هنا ـ ليثبتوا أنهم يعرفون قدر الجهاد، وقيمة المجاهدين.. وأنهم أهلٌ لأن يستلموا مقاليد الحكم والسلطة.. ويكونوا في مقدمة الصفوف؟ وقلت:

إنّ هذا الإهمال من المسؤولين.. لا يضير «الشيخ المجاهد»، ولا ينال من قيمة جهاده، ومن كرامته ومركزه الرفيع.. وإنما يضير أولئك المتربعين في دست الحكم، وينال منهم هم.. فقدْر «الشيخ صالح»، وقيمته، هما في العلاء.. وسيظلاّن في العلاء ـ إلى الأبد.

وفي اليوم الثاني.. كان موعد انعقاد المجلس النيابي. فأسرعت بالذَّهاب إلى دمشق.. وحينما دخلتُ باب قاعة المجلس .. سمعت الرئيس، وكان «رشدي كيخيا» يعلن رفع الجلسة .. ونهض من كرسيه، ونهض الوزراء والنواب والنّظّارة.. فصحتُ بأعلى صوتي:

أرجوك ـ سيادة الرئيس.. يوجد أمرٌ هامّ أريد إطلاع المجلس عليه. فعاد وجلس، وعاد الجميع وجلسوا.

وصعدتُ على المنبر، وقلتُ ـ وأنا في حالة هياج شديد:

أمس.. انتقل إلى جوار ربه المجاهد الكبير «الشيخ صالح العلي» ـ أول من أطلق الرصاص بوجه الفرنسيين.. والذي استمرت ثورته، كما هو معروف، ثلاث سنوات ونصف السنة دون انقطاع. وبالوقت الذي احتشد فيه أبناء الجبل والساحل، لوداع قائد الثورة.. لم نر مسؤولاً واحداً بين المشيِّعين ـ سوى مدير الناحية ورئيس المخفر ودركيين! فلو كان المُتَوَفَّى مختار أحد أحياء دمشق.. لسار رئيس مجلس الوزراء، وبعض الوزراء، في موكب تشييعه ـ لأنَّ لهم مصلحة انتخابية من وراء ذلك.. وأما شيخ الجهاد والمجاهدين.. فإنهم لا يشعرون بواجبهم نحوه ـ لأنه ليس لهم مصلحة انتخابية بذلك: وصحتُ بأعلى صوتي:

أهذا هو الشعور القومي؟ أهذا هو الواجب الوطني؟ أهكذا يقدِّر المسؤولون مسؤولياتهم؟ واندفعتُ بشكل عنيف صارخ.. أهاجم وأؤنِّب.

ونهض «الدكتور سامي كبّارة»، وزير الداخلية، وهي المرّة الأولى التي يحضر فيها المجلس، منذ أسابيع عديدة ـ لأنه كان أصيب بنوبة قلبية حادّة.. كادت تقضي عليه، وقد زرته، إبّان مرضه، أكثر من مرة، لأني كنتُ أودُّه وأقدِّره ـ وإن كان يفتقر في بعض تصرفاته إلى كثير من الجدية، والعيش في ظلال الواقع.. وقف، وصاح بعصبية وحدّة بالغتين، وهو يرتجف، وقال:

يا أستاذ: إذا كنتَ تريد مهاجمة الحكومة.. فليس في هذا الموضوع: فأنا كنت مريضاً، كما تعلم، وهذه أول مرة آتي بها إلى المجلس.. منذ فترة طويلة: فلماذا هذه الحملة القاسية على الحكومة؟ أتريد أن تتخذ من وفاة «الشيخ صالح العلي» وسيلةً لمهاجمتنا؟ وجلس وهو يرتجف! فقلتُ:

أعرف أنك كنتَ مريضاً.. وقد زرتُك في دارك. ولكن هل كل الوزراء، والأمناء العامين، والمحافظين، وكبار الموظفين، كانوا مرضى؟ وبدلاً من أن تقف وتعتذر عن تقاعس الحكومة، وإهمالها، تقف وتهاجم!

ووقف حينئذٍ «خالد العظم»، وكان رئيس مجلس الوزراء، وقال:

لقد كنتُ في مصر ـ كما تعلمون. وحينما وصلتُ بيروت قرأتُ في الصحف

اللبنانية نبأ وفاة «الشيخ صالح العلي»، فأرسلتُ برقيةً تعزيـة من بيروت فوراً. وأنا آسف لتقاعس المسؤولين عن القيام بواجباتهم نحو «الشيخ المجاهد».

وعندئذٍ وقف «زكـي الخطيب»، نـائب دمشق، وألقى كلمـة كريمـة حسم بهـا الموقف، وطلب الوقوف دقيقتين ــ لا واحدة.. كما هي العادة ـ تحيّةً لـروح المجاهد الكبير «الشيخ صالح العلي».

وفي الجلسة التالية.. تقدَّمتُ باقتراح رسمي.. يتضمن المواد الآتية:

١ ـ تسمية «الثكنة العسكرية» في طرطوس باسم «الشيخ صالح العلـي».. وهي التي كان ينطلق منها الجيش الفرنسي لمهاجمة معاقل الثورة.

٢ ـ تسميةُ شارع باسمه في العاصمة دمشق، وبسائر المدن السورية.

٣ ـ تسمية مدرسة باسمه في كل محافظة.

٤ ـ اطلاق اسمه على دبابة ومصفحة في كل كتيبة بالجيش.

٥ ــ وضـع تمثـال لـه فـي مدينـة الثورة، «الشـيخ بـدر»، وآخـر أمـام الثكنـة العسكرية التي تحمل اسمه في طرطوس.

٦ ـ إعطاء زوجاته، وبناته، والمجاهدين الذين ناضلوا وكـافحوا تحـت قيادتـه، وما يزالون أحياء، راتباً لكل منهم مدى الحياة.

ووافق المجلس على الاقتراح بالإجماع.. وحوّله إلى الحكومـةَ لتنفيـذ مـا جـاء فيه.

ثم قرّرتُ إقامة حفلة تأبينية كبرى لـ «الشيخ»، فـي مدينـة اللاذقيـة، بمناسـبة مرور أربعين يوماً على وفاته. وكان «العظم» قد استقال، وتولّـى رئاسـةَ الـوزارة «الدكتور ناظم القدسي». فزرتُه في مكتبه برئاسة مجلس الـوزراء، وطلبتُ منـه مشاركة الحكومة في حفلة التأبين، فاندفع قائلاً:

إنّ الحكومة ستتولى نفقات الحفلـة بكاملهـا. وسـأحضرها شخصياً ـ إذا كنـتُ موجوداً في سورية حين إقامتها. ثم قال لي جاداً:

إني أذكر جيداً.. حملتك على الحكومة حين وفـاة «الشـيخ»، وإنـي أقـول لـك: نحن معك ـ بكل ما تطلبـه وتريـده. وإذا حصل قصور بموضوع الحفلة.. فسـأقف

بمجلس النواب وأقول إنك أنت المسؤول عنه.

فشكرتُه، وأعربتُ عن تقديري لهذا الموقف الكريم. وإني أروي ما يحدث ويجري بكل دقّة وأمانة.

ودعوتُ للحفلة.. وطبعتُ بطاقات الدعوة باسمي. وأقمنا الحفلة في احدى دور السينما باللاذقية - وفاتني أن نقيمها بالثكنة العسكرية في طرطوس نفسها. ولو فعلنا.. لكان لها معنىً أضخم وأعمّ.

وصدف يوم الحفلة.. أن كان رئيس الوزارة، «ناظم القدسي»، خارج سورية.. فحضرها، نيابةً عنه، نائب رئيس مجلس الوزارة «زكي الخطيب»، وألقى فيها كلمة قيّمة. كما حضرها بعض الوزراء، وعدد كبير من النواب. وقد قاطعها أعضاء «الحزب الوطني» - لأن وزراء من «حزب الشعب» سيحضرونها! وهي حجّة واهية، وموقف غير كريم!

وأُلقِيَتْ في الحفلة قصائد وكلمات، من شعراء وأدباء - سوريين ولبنانيين.. وكان من أبرز الشعراء «الحوماني».. وقد طلبتُ منه الاطلاع على قصيدته. وكان فيها حملة قاسية على الحكومة.. فرجوتُه، بناءً على طلب المحافظ، «الأمير مصطفى الشهابي»، وإلحاحه، أن لا يُلقَى في الحفلة، ما يسيء إلى الحكومة - وهي ممثّلة بها رسمياً، وتقوم بنفقاتها. وكان «الأمير الشهابي» نفسه هو المحافظ حين حفلة التكريم، وحين التأبين.

واستجاب «الحوماني» لطلبي.. ووعد بعدم قراءة الأبيات التي فيها تعريض بالسلطة. ولكنه حينما وقف على المنبر، ووصل إلى الأبيات التي فيها نيل من السلطة وتعريض بها.. صارح الجمهور بطلبي منه، وسأله إذا كان يلقي الأبيات الصريحة أو لا يلقيها ..! وارتفعت أصوات تُطالب بالقائها. فالتفت نحوي، وأنا على المنبر، وقال:

أسمعت يا أستاذ.. إنّ الجمهور يريد سماع هذه الأبيات، وحتماً سأستجيب لرأي الجمهور، ومعذرة منك! وألقى الأبيات العنيفة.. فغاص «زكي الخطيب» في كرسيه، بينما شمخ المعارضون برؤوسهم إلى أعلى! أما «علي بوظو، وزير

الداخلية، فقد اصفرّ لونه، وغطّى وجهه بيديه، وفعل مثله بعض الوزراء. وأما «كامل مروه» صاحب جريدة «الحياة».. فقد كانت كلمته رصينة متزنة واعية. و«محمد علي الحوماني» من أقدر الخطباء الذين سمعتهم في حياتي.

* * *

أحد المواطنين، ولا أريد ذكر اسمه، كان قد طلب مني إلقاء قصيدة في الحفلة. ولكن ضيق الوقت لم يسمح بإلقائها ـ هي والكثير من أمثالها. وكنتُ حرصتُ على أن يمثِّل الخطباءُ سائر المحافظات السورية، والمناطق اللبنانية. ولذلك اعتذرتُ منه ـ ومن العشرات غيره. فنقم حضرته، واستولى على القصائد والخُطَب التي ألقيت في الحفلة، وبعض ما لم يُلْقَ.. ونشرها في «كُتَيِّب»، وأغفل ذكر اسمي ـ وحتى مجرد ذكر ـ مع أني الذي وجهت الدعوة لحضورها، وبطاقات الدعوة مهرتها بامضائي وحده. وأنا الذي رعيتُها وتبنَّيتُها من ألفها إلى يائها ـ كما يعرف الجميع. وكنتُ المسؤول المباشر عنها ـ تجاه السلطة، وتجاه الرأي العام. وقد بلغ حرصي على إنجاحها.. أني كنت «العرِّيف» الذي يقدِّم الخطباء ـ مع أنه كان يُفْتَرَضْ، وأنا صاحب الدعوة، أن أعهد بمهمة التعريف إلى شخص آخر.. ولكني رغبت أن أكون المسؤول المباشر عن كل شيء ـ كما كنتُ المسؤول المباشر عن الحفلة التكريمية التي أقمتُها لـ «الشيخ المجاهد» سنة ١٩٤٥ ـ وهي أضخم حفلة عرفتها محافظة اللاذقية.. بعد «اليوبيل الذهبي» للعلاَّمة الجليل «الشيخ سليمان الأحمد».

والناس.. يعرفون جميعاً مدى صلتي بـ «الشيخ صالح»، وقوّتها وعمقها.. وأنّي كنتُ من أقرب الناس إليه، وأخلصهم له ـ وقد وصلتْ ثقته بي.. إلى حدّ أنه فوّضني، وهو مقيم في الجبل، وبعيد عن مجرى الأحداث ـ وأنا في صميمها.. فوّضني أن أرسل برقيات تأييد وشجب باسمه.. في كل موضوع قوميّ يتطلب ذلك. وكنتُ أرسل له صورةً عن كل برقية أرسلها ـ ليكون على علم بها. وأني لو لم أكتب تاريخ ثورته لضاعت، وأُمّحَى أثرها ـ كما قال سماحته.

رغم هذا كله.. فقد أغفل واضع ذلك «الكُتَيِّب» ذكر اسمي ـ حتى مجرَّد

ذكر!!! وهكذا تظلُّ النفوس المريضة مريضة.. وتظل الأنانية الرعناء، والحقد الأعمى، مسيطرين عليها، ومؤثِّرين فيها!.

* * *

في تلك الأثناء.. أصابتني حُمّى عنيفة، وأنا في صافيتا - فنُقِلتُ إلى حمص، وأنا في حالة خطر شديد.. حيث أُجريت لي عملية «الزائدة» في أحد المشافي الخاصة. ومثل هذه العملية تستغرق عادةً نصف ساعة ــ وربما أقلّ. ولكن الأطباء بقوا أكثر من ثلاث ساعات حتى تم استئصال «الزائدة» التي كانت قد انفجرت، والتصقت بالأمعاء. وقيل لي، فيما بعد، إن اليأس كاد يتغلب على الأطباء.. فيعلنون عجزهم، ويغلقون الجرح. ولكن «الدكتورة ميليا بشور»، و«الدكتور نقولا بشور» الذي كان تلطف ونقلني بسيارته الخاصة إلى حمص، وقد حضرا اجراء العملية، كان يُصرّان على متابعة الجهد - حتى تمّ القصد، وتحققت النجاة، والأعمار بيد الله.

وأُشيع، وقتئذٍ، أني في حالة خطر شديد، وأنا في وضع غير مريح ولا سليم - مما اضطر إدارة المستشفى إلى وضع دفتر خاص يسجّل فيه الزائرون أسماءهم.. وحالوا بيني وبين استقبال أحد خلال خمسة أيام.. كانت تُعطى لي خلالها إبر «بانسلين» باستمرار. ووردت إلى المستشفى برقيات وهواتف كثيرة من مختلف الجهات. وقد اتصل «الدكتور ناظم القدسي»، رئيس الوزارة، هاتفياً من القاهرة للاطمئنان عني، وكان في زيارة لمصر.

وكنتُ أشكو دائماً التهاب اللوزتين، ويصرُّ الأطباء المختصون على استئصالهما، وأنا أرفض - مخافة أن يؤثر ذلك على صوتي وأنا أخطب. وبعد أن أُغرقتُ بإبر «البانسالين»، وغير ذلك من الأدوية ضد الالتهاب، فإنني لم أعد أشكو، بفضل الله، من التهاب اللوزتين أبداً. وصدق من قال: رُبَّ دواءٍ نافع لدائين.

* * *

سنة ١٩٥٠ عقدت «جامعة الدول العربية» اجتماعاً هامّاً في دمشق - إثر

معركـة «الحولـة» آنـذاك. وكــان الصهاينــة المجرمــون.. قـد هـاجموا المواقـع السورية، واستشهد بعض الجنـود السـوريين، وقُتِل عـدد كبير مـن جنـود العدوّ الغادر الماكر.

تقدّمتُ، حينذاك، بمذكّرة رسمية ـ عن طريق «مجلس النـواب» ـ طلبتُ فيها من الدول العربية تأميم البترول، والغاء جميع الاتفاقات والمعاهدات مع دول الغرب التـي تسـاند اسرائيل وتدعمها وتتبناها ـ وهـي فرنسـا، وبريطانيـا، والولايـات المتحدة الأمريكية.

وطلبتُ في «المذكّرة» عقدَ اتفاقات اقتصادية وسياسية وعسكرية مـع الاتحـاد السوفييتي ـ لأنه الدولـة الوحيـدة التـي يمكـن الاعتمـاد عليهـا للوقـوف فـي وجـه أمريكا، والدول الاستعماريّة كافّة.

وكان صوتي أول صـوت يرتفـع، فـي الشـرق الأوسط، بتلكَ المطـالب البالغـة أوسع مدىً بالجرأة والتحدّي. كمما كنتُ أول نـائب يتقـدّم بمذكّـرة رسـمية مطالبـاً بتأميم البترول ـ وحتى قبل «مصدّق» البطل الإيراني الشهير نفسه.

وقد نَشَرْتُ تلك «المذكّرة» في كتابي « بين عالَمَيْن » الذي صدر سنة ١٩٥٥ـ كما نشرها البحّاثة الكبير الأستاذ «نعمان حرب».. في الكتاب النّفيس الذي تلطّـف وأصدره عني.. وقد بلغت صفحاته ٥٢٢ من القطع الكبير ـ مستعرضاً به حياتي الحافلة منذ نشأتي، ودارساً مؤلفـاتي الثمانية المطبوعـة، حتـى الآن، إلـى جـانب بعض ما قيل فيَّ من شعر ونثر، وبعض مقالاتي في مختلف المواضيع والبحـوث. وقد أولاني الأستاذ «حرب» من قلمه المترف السّيّال، أكثر مما أستحق. فله جزيل شكري، وتقديري وامتناني.

وأرى مـن الـواجب نشر تلك «الـمذكّرة» في «مذكراتي» هذه ـ لأن لها صفتها التاريخية.. ولأنها مــن أهـم الأعمـال الجريئـة البنـاءة التـي قمتُ بهـا فـي حياتي السياسية ـ ولم يكن غيري من السياسيين، كما أعتقد، يجرؤ على القيام بهـا فـي ذلك الحين. وقد كان وقعها، آنذاك، عالَمِياً ـ وليس فقط محلياً ـ واسـعاً، وضخمـاً جداً.

وحينما تلطَّف الأستاذ «نعمان حرب» ونشر «المذكَّرة» في الكتاب المنوّه عنه قدّم لها بهذه الكلمة اللطيفة:

«المذكّرة».. التي قدمها «اليونس» إلى ممثلي الدول العربية الذين اجتمعوا في دمشق لحضور اجتماع مجلس «الجامعة العربية» الذي عُقِد فيها في ربيع سنة ١٩٥٠ ـ وقد كان لهذه «المذكّرة».. ضجّة كبرى، ودويّ ضخم، في العالم كله، لما تضمنته من آراء جريئة لم يسبقه أحد عليها، وهذه هي:

يتشرّف «عبد اللطيف اليونس»، عضو مجلس النواب السوري، بتقديم تحياته إلى حضرات أصحاب الدولة والمعالي، ممثلي الدول الشقيقة في «جامعة الدول العربية»، وينتهز فرصة اجتماعهم في «دمشق» ليقدّم لهم هذه «المذكرة» ـ مشفوعةً بصادق تقديره واعتباره:

إنّ الدول الراقية ـ ذات السيادة الثابتة، والأهداف القومية الموحّدة، إنما تبني سياستها العامة على أساس الواقع والمصلحة والخبرة والفهم.. فإذا خسرت معركةً ما، سياسية أم عسكرية، تعكف على دراسة الأسباب التي أدتْ إلى ذلك الخسران.. والاستفادة من الأخطاء التي ارتكبتها، ووقعتْ فيها.

وكان حَرِيّاً بالدول العربية، وقد خسرتْ معركة فلسطين: سياسياً وعسكرياً.. أن تدرس بواعث الفشل الذي مُنِيتْ به - على ضوء التجارب القاسية التي مرت بها، والأخطاء الكثيرة التي ارتكبتها.

ويبدو من دراسة الحوادث التي رافقت قضية فلسطين، في السنوات الأخيرة، أن أسباب الفشل الذي مُني به ساسة العرب، وجيوشهم النظامية المحاربة، تنحصر في عدة نقاط رئيسية أهمُّها:

١ ـ الخلاف بين الدول العربية!

٢ ـ نقص الأسلحة والذخائر!

٣ ـ الاستهانة بالعدوّ، والاكتفاء بالخطب والتصريحات!

٤ ـ الاعتماد على «الأمم المتحدة».

٥ ـ تآمر بريطانيا، وفرنسا، والولايات المتحدة الأمريكية، على العرب.

٦ ـ الموقف السلبي الذي وقفته الدول العربية من الاتحاد السوفييتي.

أمَّا الخلاف بين الدول العربية ـ وهو علّة العلل، وأساس المشاكل، فيبدو أنه ما يزال في مكانه.. لأن أحداً من الزعماء العرب لم ينبرِ لِحَلّهِ بروح التجَرُّد، والصَّراحة، ومجابهة الواقع. وسيظل هذا الخلاف السَّبب الأول، والمباشر، لجميع المصاعب التي تعترض العرب في تحقيق أهدافهم، والدفاع عن أنفسهم.. ما لم يُعَالَجْ بروحٍ من الجرأة والصراحة، والتّضحية والنّزاهه.

وأما نقص الأسلحة.. فنرجو أن تكون الحكومات العربية قد تداركته ــ لا بالنسبة لاستعداداتها الماضية فحسب.. وإنما بالنسبة لاستعدادات اليهود الحاضرة.. وأن تكون الحكومات العربية قد أدركت، بعد سُباتها العميق، أن الذي ينام على الثقة.. سوف يفيق على الندامة، وسوء المصير!

وأما الاعتماد على «الأمم المتحدة».. فقد أصبح ضرباً من السُّخْف ـ لأنها فشلت فشلاً كاملاً في تحقيق المبادىء التي بَشَّرتْ بها في «سان فرانسيسكو»، وأضحت ألعوبة بأيدي الدول الاستعمارية.. التي توجِّهها الصهيونية العالمية المجرمة! ورغم هذا.. فإن الحكومات العربية ما تزال تثق بهذه المؤسسة الفاشلة، وتعتمد عليها! ويدلّ على ذلك.. الاستنجاد بها في كل مناسبة.. وتصريحات الساسة العرب عن تمسكهم بقراراتها، وإزعانهم لإرادتها.. بينما لا يعبأ اليهود بقرارات الأمم المتحدة ـ إلا إذا كانت إلى جانبهم، وموافقة لمطامعهم ومصالحهم!

وأما الحكومات البريطانية والفرنسية والأميركية.. فإنها ما تزال تنصر باطل اليهود على حق العرب.. وتُمعِن بالكيد للشعب العربيّ، خدمةً للمصالح الصهيونية والامبريالية، وتسعى لإضعاف الدول العربية ماديّاً ومعنويّاً.. ودعم اسرائيل وتسليحها، وتشجيعها لابتلاع أراض عربية أخرى ـ متجاهلةً كل حقّ مشروع، وعدالة مقدسة، وضمير انساني حرّ! بينما تمعن الدول العربية، من جانبها، بالتودّد للدول الامبريالية.. والذهاب في مناصرتها إلى أبعد مدىً ضد «الاتحاد السوفييتي»، صديق الشعوب، والذي سبق أن وقف إلى جانب مصر وسورية

ولبنان ـ حين عُرِضَتْ قضاياها القومية على الأمم المتحدة، وأيّدها وعاضدها.. ولم تقابله الوفود العربية إلا بمواقفها السلبية، في جميع الميادين السياسية، والتنكّر له ـ مماشاةً لسياسة الحلفاء الغربيين ضدّه! وهكذا بدأنا بمعاداة من لم يُسيء إلينا..! وبقينا متمسكين بصداقة الذين لم تأتنا منهم إلا الشرور والويلات! وهذا لعمر الحقّ.. تصرّفٌ لا يقرّه منطق سليم، ولا يتّفق مع الخلق الإنساني والقومي ـ فكيف مع غريزة حبّ البقاء؟!

ومن حقّ بريطانيا وفرنسا وأمريكا.. أن تستخفّ بالدول العربية، وتستهين بها ـ لأنها لم تقابلها على عدائها لها، وتآمرها عليها، إلا بالمودّة والتسامح.. كأنّ اليهود لم يأتوا! وكأنّ فلسطين لم تضع! وكأن مليونين من أبنائها العرب لم يُشَرَّدوا! وكأنّ الأقطار العربية الأخرى غير مهدّدة بالضياع والدمار.. والذّوبان في بوتقة الأطماع الصهيونية الشريرة؟!

ولو أن بريطانيا وفرنسا وأمريكا.. كانت تخشى على شركاتها البترولية في البلاد العربية من التأميم، وعلى بضائعها من المقاطعة، وعلى سياستها من المعاكسة والمشاكسة، لما أقدمت على مساعدة الصهيونية المجرمة.. ولما كانت مأساة فلسطين.. ولا كان وجود العدوّة اسرائيل.

ولو أنّ الدول العربية تخطو هذه الخطوات الجريئة اليوم.. وتتبعها بخطوات أكثر جرأةً واندفاعاً وإقداماً.. لغيّرت من نظر العالم نحوها، ولبدّلت من رأيه فيها.. ولحسبت لها الدول الكبيرة كل حساب.. ولاتجهت معركة فلسطين اتجاهاً آخر.. في طريق سويّ آخر ـ يكون أحسن مسلكاً، وأسلم عاقبةً، وأضمن نتائج.

ويجتمع ممثلو الدول العربية الكريمة، في دمشق، اليوم.. للنظر فيما عسى أن يقفوه من اعتداءات اليهود، على حدود سورية الجنوبية ـ حيث يحتشد، الجيشان السوري والصهيوني، ليخوضا في المستقبل، القريب أو البعيد، معركة فاصلة حاسمة.

ويتطلّع العالم إلى هذا الاجتماع التاريخي.. وإلى الموقف الذي ستقفه الدول العربية من هذه الدولة النكراء، ومن الدولتين العدوتين: بريطانيا وأمريكا.. اللتين

تشجعانها وتحميانها، وتمدانها بالمال والسلاح والخبراء.. وتُعِدّانها للسيطرة على البقاع العربية المجاورة لها ـ في حين يصرح أحد المسؤولين في اسرائيل: «حدودنا.. هي التي نصل إليها»! وفي حين يُرسَم على مدخل «الكنيست» ـ البرلمان ـ بتل أبيب خارطة: اسرائيل «من الفرات إلى النيل»!

فإمّا أن تتخذ دول «الجامعة العربية» موقفاً صريحاً جريئاً حازماً حاسماً.. مستمداً من صميم مصلحتها وتجاربها وأهدافها، وحبّها للبقاء.. وإمّا أن تصفي أعمالها، وتنهي حياتها، وتقضي على آمال العرب بالعمل متّحدين.. وتترك لكل بلد عربي أن يجابه المعتدين وحده ـ وضمن طاقاته وإمكاناته.. ويبقى بعدئذٍ للتاريخ أن يروي، للأجيال القادمة، فصول هذه المأساة القومية الرهيبة.. ومسؤولية كل واحد من أبناء الأقطار العربية عنها.

ولكنّي مؤمن بأن الوعي القومي الصّحيح.. سيهيب بأعضاء الوفود العربية الكريمة، للعمل متّحدين لجمع الكلمة، ولَمّ الشّعث، وتوحيد الخُطى، وتركيز الجهود، ودفع غائلة العدو الجائح، ومن يدفعه ويحميه، وأنكم ستعالجون القضايا القومية بعقلية جديدة متحرِّرة، وبأسلوب عملي واقعي وجدّي.

ولهذا.. فإني أقترح على اللجنة السياسية، لجامعة الدول العربية، أن تتّخذ المقرّرات التالية:

١ ـ بحث الخلافات بين الدول العربية بروح من الصراحة والواقعية والتضحية، وحلّها بصورة سريعة وحاسمة.

٢ ـ الشروع بتنفيذ «الميثاق العسكري العربي» فوراً.. واتخاذ الخطوات اللازمة للسير في طريق «الوحدة العربية»، المتحرِّرة من الاستعمار والأحلاف والتبعية.

٣ ـ رصد ٦٠ بالمائة من موازنات الدول العربية للتأهّب للجولة الثانية، والحاسمة، بين العرب واليهود.

٤ ـ تطبيق نظام «التجنيد الإجباري»، في جميع البلدان العربية، وتدريب القادرين على حمل السلاح.. وإنشاء جيش من اللاجئين الفلسطينيين..

تساهم بتسليحه كافة الدول العربية، ويكون النّواة الأُولى لانقاذ فلسطين.

٥ ـ تأميم شركات البترول الانكليزية والأميركية والفرنسية في جميع البلاد العربية، وكذلك تأميم سائر شركاتها الأخرى التي تمتصُّ الطاقات العربية.

٦ ـ مقاطعة البضائع الأميركية والبريطانية والفرنسية.

٧ ـ عدم الاعتماد على الأمم المتحدة.

٨ ـ إنشاء علاقات وديّة مع الاتحاد السوفياتي، وعقد اتفاقات سياسية واقتصادية.. وحتى «أمن متبادل» معه.

٩ ـ الاتفاق مع الشعوب الإسلامية، في جميع أقطار العالم، على مقاطعة بريطانيا وفرنسا وأمريكا، واعتبارهن حاضنات الصهيونية المجرمة، وأعداء العرب والإسلام.

١٠ ـ إلغاء جميع المعاهدات والاتفاقات، المعقودة مع بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية، إلغاءً تاماً. ودمتم محترمين.

عضو مجلس النوّاب السوري

عبد اللطيف اليونس

دمشق في ٢٠ ـ ٣ ـ ١٩٥٠

* * *

كان لهذه «المذكرة» ضجة كبرى في العالم كله ـ ولا أغالي ـ لأنها أول صوت يرتفع من مؤسسة سورية رسمية داعياً لتأميم البترول العربي، وجميع الشركات الأجنبية التّابعة للدول الامبريالية.

وإبّان تلك الفترة.. زار «الملك سعود» سورية، ودُعيتُ لمأدبة العشاء التي أقامها له رئيس الوزراء «خالد العظم» ـ الذي كان يقف عند مدخل «قصر العظم» يستقبل المدعوين، ولمّا وصلتُ .. كان إلى جانبه عدد من الأشخاص، وتقدّمتُ لمصافحته.. فأمسك بيدي وقال لي بصوت عالٍ:

من أعماق قلبي أشكرك لتقديم هذه «المذكرة».. التي دلّتْ على حيويّتنا ونقمتنا.. وقد لفتت إلينا أنظار العالم، وبدأت الدول الكبرى تشعر بوجودنا ـ بعد

أن سمعت صوتاً نيابياً يرتفع ضدها، ويطالب بتأميم شركاتها. وإني، بصفتي رئيس مجلس الوزراء، أهنئك على شجاعتك هذه، وأشكرك.

ومثل هذا القول.. يصدر من «خالد العظم» ـ الذي لا يعرف أن يثني على أحد، ولا أن يعترف لأحد بقصب السَّبق.. يُعتبر غريباً حقاً ـ وهذا ما كتبه «نجيب الريِّس» في جريدته «القبس» حينذاك، وعلّقتْ عليه الصُّحف الأخرى تعليقاتٍ واسعة.

ولكن «خالد العظم» ـ هذا.. ينسى أن يُشير في «مذكراته» إلى هذا الموضوع التاريخي، أو يتناساه ـ مع أنه في حينه كان حدَثاً تاريخياً هامّاً! ولله في خلقه شؤون.

واذكر أن سفير مصر في سورية قال لي: أنت لست نائب سورية وحدها.. بل أنت نائب الأمة العربية كلها. وقد ذكّرني بكلمته تلك في القاهرة، وبإحدى المناسبات الرسمية، وأضاف: سيذكرك التاريخ بكل تقدير وإعجاب.

وزارني «رفيق العشا»، القائم بأعمال السفارة السورية في واشنطن حينذاك، وما يزال حيًّاً، والحمد لله، زارني في «المجلس النيابي» وقال لي على مسمع عدد من النواب:

«جئتُ أشكرك لـ «مذكرتك» الجريئة التي قدَّمتها لـ «الجامعة العربية».. فقد جعلتنا موضع اهتمام الذين لم يكونوا يهتمّون بنا. ولقد كنّا نطلب مقابلة مدير البروتوكول.. فيحيلنا لأحد الموظفين! وأما بعد «مذكرتك» الجريئة.. فقد بدأوا يهتمون بنا كثيراً.. وصار معاون وزير الخارجية نفسه يطلب مقابلتنا له، ويحدثنا في شؤون الشرق الأوسط ـ لأنهم اعتبروا «مذكرتك» حدثاً هاماً، ودليلاً على تطور سياسي خطير في البلدان العربية، والشرق الأوسط»، وقال لي «رفيق العشا»:

بصفتي، القائم بأعمال السفارة السورية، في واشنطن، فإني أعرب لك عن جزيل شكري وتقديري، لموقفك الجرىء هذا.

وطلب مقابلتي عدد من مراسلي الصحف والوكالات الأجنبية.. وأخذوا مني

أحاديث وتصريحات عن «المذكرة».. وبواعثها وأهدافها.

وزارني «عبد الرحمن عزام»، سكرتير الجامعة العربية، في الفندق الذي كنت أحل فيه ولم أكن موجوداً، فوضع لي بطاقته، وعليها كلمة تقدير وتحية.

* * *

وكانت لي اقتراحات كثيرة وبنّاءة.. حظيت باهتمام الأوساط الرسمية، والشعبية، آنذاك، منها اقتراحي بتوحيد اللباس في سورية، والقضاء على المظاهر المتباينة، في حياتنا الاجتماعية، والتي تشير إلى تباين واضح في تفكيرنا ومشاعرنا ـ لأن المظهر... إنما يعطي فكرةً عن الجوهر، وينِّم عليه. واختلاف المظاهر.. إنما يدلُّ على اختلاف العقلية والمفاهيم... وأن ثمة فجوات عميقة في تكويننا الاجتماعي، وبين أبناء المجتمع الواحد ـ ذي السلالة الواحدة، والمجرى التاريخي الواحد.

وبعد أن نشرت الصحف ذلك الاقتراح.. جاءني وفدٌ من أبناء دمشق، مؤلف من بضعة أشخاص.. يحتجُّون على ذلك الاقتراح، ويقولون: ماذا نفعل بألبستنا هذه؟! أنحرقها؟!

ويبدو أن ذلك الوفد قد شُكِّل عن عمد.. من أرباب الألبسة المختلفة المتباينة.. ليشيروا، حسب زعمهم، إلى استحالة تطبيق قانون توحيد اللباس! وكان منظرهم مضحكاً حقاً.. ورؤيتهم بتلك الأزياء المتنافرة.. تؤيد اقتراحي وتدعمه ـ فقد كان أحدهم يرتدي سروالاً طويلاً، وآخر يرتدي قنبازاً، والثالث جلاّبية، والرابع عباءة طويلة، والخامس عباءة قصيرة مزركشة مشدودة بزنار عريض يغطي نصف صدره وعجزه، وو.. الخ!.

أما أغطية الرأس.. فكانت أيضاً مضحكة! بعضهم يرتدي عمّة، وآخر يرتدي طربوشاً دون عمّة! وثالث كوفية ملونة، ورابع «عجمية» بيضاء فوقها عقال، وخامس «لبّادة» طويلة، وسادس غطاء على رأسه يشبه غطاء النسوة، وو.. الخ!

ويبدو أنهم قد جاؤوا بتلك الأزياء المختلفة.. ليثبتوا استحالة تنفيذ اقتراح

القانون!

فقلت لهم: إن منظركم هذا.. يؤيد اقتراحي، ويؤكد أنه من الضروري القضاء على هذه المظاهر المتباينة. وكيف يعتقد السّياح الأجانب أننا شعب متحضّر.. يؤلّف مجتمعاً واحداً منسجماً.. وهو يرى هذه الأزياء الغريبة المتنافرة؟!.

فقال أحدهم: ولكن يا حضرة النائب هكذا كان آباؤنا.. أفتريد أن نخرج على سنّة آبائنا؟

قلتُ له: ذاك جيل، وهذا جيل. آباؤكم.. ما كانوا يرسلون بناتهم إلى المدارس ـ فلماذا ترسلونهن أنتم؟ وآباؤكم كانوا يركبون الخيول والجمال، والحمير والبغال ـ فلماذا تركبون أنتم السيارات والطائرات؟ وآباؤكم كانوا يتناولون الطعام بأصابعهم.. ليضعوه في أفواههم ـ فلماذا تستعملون الشوكة والسكين؟

ولم يجيبوا.. لكنهم انصرفوا غير مقتنعين. وطلبوا مقابلة رئيس المجلس، الدكتور «ناظم القدسي»، وهو ـ رغم لباقته ونعومته.. كان جادّاً معهم وحازماً، وقال لهم:

يجب أن نأتي بمصوّر كي يأخذ لكم صورة ـ وأنتم في هذه الألبسة الغريبة المتباينة.. ونربط الصورة مع مشروع القانون الذي تقدم به النائب «اليونس».

فانصرفوا غاضبين!

وطبعاً.. كنتُ تركت في مشروع القانون مهلة سنة ـ حتى يتم تنفيذ اللباس المُوَحَّد.

ولكن المجلس لم يطل أمده.. واللجان المختصة أبطأت في دراسته واقراره. ونُسِب إلى «محمد كرد علي» قوله: «إذا أردتَ أن تقتل مشروعاً.. فأرسله إلى لجنة» ـ لكن حفيدي المهندس «ماجد يونس».. يؤكد أن هذا القول.. هو مثل فرنسي.

وصدر، بعدئذٍ، في عهد «الشيشكلي»، قرار بتوحيد لباس رجال الدين.. وحصره في الذين يجيز لهم «المُفْتُون» فقط. وقد أُلغي هذا القرار، فيما بعد،..

«وعادت حليمة إلى عادتها القديمة» ـ كما يقول مثل شعبي!

* * *

في مطلع سنة ١٩٥١ ذهبتُ مع صديقي «محمد الفرا» نهار جمعة لتناول طعام الغداء في أحد مقاهي «دُمّر» القريبة من دمشق. وبعد وقت قصير تذكّرتُ أني مرتبط بموعد يقتضيني العودة إلى دمشق بسرعة. فاعتذرت من صديقي، وأسرعنا بالعودة. وكان ذلك قبل منتصف النهار بقليل.. وبعد حوالي نصف ساعة من عودتنا.. مرّ موكب «أديب الشيشكلي»، تحرسه سيارات أمامه وخلفه، فتعرّض له كمين كان يترصده، وأُطْلِقَتْ عليه النار بغزارة.. وردَّ الجنود على النار بمثلها، وجُرِح بعضهم ـ أما «الشيشكلي» فلم يصب بأذى.

ومن حسن الحظ.. أننا كنّا غادرنا المنطقة، قبل ذلك بقليل، وإلا لكانت التهمة وجّهت إلينا ـ مثلما وُجّهت إلى «الدكتور أمين رويحه».. وقد ألقي القبض عليه وأودع سجن المزة، ثم اعتقل الضابط المتقاعد «حسن الخير»، و«المحامي يوسف تقلا»، وكان لكل منهما مواقفه الجريئة الصلبة المتّسمة بالصراحة والنزاهةُ والتجرّد وهو مالا يتفق والنظام الدكتاتوري الشرس!

وفي أحد الأيام.. تلقيتُ منهما رسالةً مستفيضة من السجن ـ حملها إليّ شخص موثوق كان يزور أحد أصدقائه هناك.. وفيها يذكران القسوة التي يعاملان بها، وتهديد حياتهما بالخطر. وجاء في رسالتهما.. أن أحد المسؤولين في سجن المزّة طلب منهما التّهيّؤ للهرب.. وأنه سيسهّل لهما وسيلته. وجاء في رسالتهما:

إننا متأكدان من أنهم يريدون خروجنا من السجن.. ثم يلاحقوننا ويطلقون علينا النار خارجه ـ بحجة أننا فارّان.. والأعراف المتبعة، في السجون، تقضي بملاحقة الفارّ وقتله.

وفي أول جلسة بالمجلس النيابي.. وقفتُ على المنبر، وذكرتُ المؤامرة التي تحاك ضد «الخيّر» و«تقلا».. والمعاملة السيئة التي يعاملان بها، ومعهما «الدكتور أمين رويحه»... وتلوتُ فقراتٍ من الرسالة المستفيضة.. وكنتُ عنيفاً جداً في حملتي الصارخة تلك، وتساءلتُ:

هل نحن في عهد ديمقراطي.. أم أننا في عهد دكتاتوري، أو استعماري؟!

وكان وزير الدفاع، وقتذاك، «اللواء فوزي سلو».. وكنتُ أشهد منه دائماً: وُدّاً وتقديراً. وهو إلى جانب ذلك.. انسان رقيق الحاشية، لطيف. وخاطبته بصوت عالٍ، وبلهجة عنيفة حادّة، قائلاً له:

إني أحمّلك يا وزير الدفاع، مسؤولية كل شعرة.. تسقط من رأس «أمين رويحه»، و«حسن الخيّر»، و«يوسف تقلا».

ونهض «اللواء سلو» من مقعده.. وأعرب عن أسفه للمعلومات التي وصلتني، وقال.. إنه سيحقق في صحتها غداً.

وطلبتُ حينئذٍ من المجلس تشكيل لجنة ـ لدرس أوضاع المعتقلين في سجن المزّة. وشُكّلت اللجنة فوراً.. على أن تبدأ زيارتها للسجن في اليوم الثاني. وألحّ عليّ كثير من الأعضاء للاشتراك بها، فاعتذرتُ ـ لأني صاحب الاقتراح.. ولكي لا يقال إن وجودي في اللجنة كان له تأثير باتخاذ قرارها.

وعلمنا.. أن المسؤولين عن السجن.. قد نشطوا، منذ الصباح الباكر،.. في اليوم الثاني، لكنس أرضه، وتنظيف غُرَفه. وقد أخرجوا «الدكتور رويحه» و «الخيّر» و «تقلا» من غرف تحت الأرض.. إلى احدى القاعات وسط السجن ـ حيث بقوا فيها إلى أن أُفرِج عنهم.

وحينما أُفرِج عن «الخيّر» و«تقلا».. تلطّفا، فور خروجهما من السجن، وأرسلا لي برقيةً يعربان فيها عن شكرهما العميق لموقفي منهما. وأوردا في برقيتهما اللطيفة كلمات ثناء نبيلة، وعبارات تقدير وامتنان.

وأحمد المولى.. أني استطعتُ خدمتهما، وخدمة الحق والعدل بواسطتهما.

وأذكر أنه بعد انتهاء جلسة المجلس النيابي، تلك.. خرجتُ والزميل «علي بوظو»، نتمشى بعد تلك الجلسة، فقال لي:

إنك تغامر بمستقبلك السياسي .. بهذه الحملات الضارية التي تشنّها على السلطة ـ وأنت تعرف اثرها وخطرها. وإن حملتك الآن على وزير الدفاع، بهذه اللّهجة القاسية.. لا يمكن أن يُقْدِم عليها رجل سياسي يحسب حساب المستقبل.

قلتُ له:

إني أعرف جيداً هذا.. وأنا أحمل دمي على كفّي منذ اغتيال «العقيد محمد ناصر»! وكرّرتُ قوله تعالى: ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتبَ الله لنا﴾. صدق الله العظيم.

أما «الدكتور رويحه» .. فقد طلبت المملكة العربية السعودية اطلاق سراحه، وألحّت بالطلب.. مما اضطر «الشيشكلي» للاستجابة ـ إذ أن صلاته بالسعودية كانت وثيقة وعميقة. وحينما أُطلق سراح «رويحه» من السجن.. غادر وعقيلته الألمانية دمشق، وانتقلا إلى بلدة «حمّانا» بلبنان.. حيث اشترى مزرعة تفاح واسعة.. أتقن بناء جدرانها، وترتيب اغراسها.. فجعلها نموذجية بشكل يلفت الأنظار. وقد زرتُه فيها، وأبديتُ إعجابي الشديد بها.. وعرض عليَّ بإلحاح، أن أقيم معه فترةً من الزمن أتفرغ فيها للكتابة والتأليف ـ مبتعداً عن السياسة ومشاكلها ومساوئها. فشكرتُه وأنا آسف لأنّ ظرفي الخاص لم يسمح لي بذلك.

* * *

وأريد أن أستبق سير الأحداث.. فأتوقف قليلاً عند موضوع الدعوى التي أقامها المدعي العام العسكري، بحق «الدكتور أمين رويحه»، بتهمة محاولة اغتيال «الشيشكلي» وقد حُكِم عليه بالاعدام غيابياً.

وبعد انهيار حكم «الشيشكلي»، وعودة الحياة النيابية إلى مجراها الطبيعي.. أخذتُ توقيع أكثر من مائة نائب على عريضة ـ بشأن اصدار عفو خاص عن «الدكتور رويحه». ولكنّي فوجئتُ، بعد تقديمها لرئيس الجمهورية، بأن قانون العقوبات لا يسمح باصدار عفو.. إلا بعد أن يمثل المحكوم عليه غيابياً أمام المحكمة.. فإمّا أن يُبَرأ، أو يدان.

وقد زرتُ «الدكتور رويحه» في حَمّانا.. وأكّدت له أن اجراءات تبرئته ـ أو اصدار عفو من رئيس الجمهورية، لا تتعدى أياماً معدودة. وألححتُ عليه بالحضور إلى دمشق، وتسليم نفسه للقضاء ـ وحينئذٍ تتمُّ الاجراءات الرسمية لتبرئته.. أو اصدار عفو عنه. فرفض المثول أمام المحكمة.. وآثر البقاء في

لبنان ـ بصفة «لاجيء سياسي».. إلى أن انتقل إلى رحمة الله، بعد أن أصدر عدداً من المؤلّفات النفيسة في الطّبّ.

* * *

بالفترة النيابية، سنة ١٩٥١، زار رئيس أركان الجيش اللبناني دمشق. وقد أجرى له «أديب الشيشكلي» استقبالاً حافلاً ـ لأنه يعلّق أهمية على تعاون اللبنانيين معه ضد معارضيه.. حينما يستقلُّ بالحكم.

وأقام الوزير «عبد الباقي نظام الدين»، وكنّا نعمل معاً في كتلة نيابية واحدة، مأدبة غداء ضخمة على شرف الضابط اللبناني الكبير.. وطلب مني إلقاء كلمة ترحيب باسمه. فوقفت وألقيتُ كلمةً موجزة ـ ولكنها كانت معبِّرة ومستوفية النواحي التي يتطلبها ذلك الموقف. ونقل إلي «نظام الدين» عن لسان «الشيشكلي» كلمات ثناء، وأنه أخذ عني فكرة جميلة.

* * *

وكثرت الأزمات الوزارية سنةَ ١٩٥٠ و ١٩٥١ ـ كما مرَّ بنا.. لأنّ «الشيشكلي» كان يمهّد لاستيلائه على السلطة.. وهو يدعم «خالد العظم» ـ لأنه ينسجم معه في أفكاره، ويماشيه في طموحه. وكان في سبيل ذلك. يحضر بعض اجتماعات «الكتلة الجمهورية» ليحملها على اتخاذ قرار بتأييد «العظم».. حين تكون «الكتلة» ميّالة لتكليفِ سواه.

واستقال «رشدي كيخيا» من رئاسة «المجلس النيابي»، بعد اقرار «الدستور» ـ احتجاجاً على تدخّل الجيش في شؤون الحكم.. وأصرّ على استقالته، وشرع يجلس بين النواب، ويدير الجلسات نائب الرئيس «سعيد حيدر» طوال عدة أشهر. فاقترحت انتخاب رئيس جديد ـ ما دام «الرئيس كيخيا» يرفض ممارسة صلاحياته.

واستجاب المجلس لاقتراحي، وانتخب «الدكتور ناظم القدسي» رئيساً ـ لكنه اضطُرَّ للاستقالة حينما كُلِّف بتشكيل وزارة جديدة. فانتُخِب «الدكتور معروف الدواليبي» مكانه. وقد نافسه «عبد الباقي نظام الدين».. لكنه لم ينجح.

* * *

استقال «القدسي»، من رئاسة الوزارة، بعد أشهر قليلة، وكُلِّفَ «خالد العظم» من جديد. ولم يشترك معه «حزب الشعب» ولا مؤيدوه من المستقلين. ولم يكن مضموناً ظفر «العظم» بثقة المجلس ـ لأنّ الأكثرية النيابية ضدّه. وحاول بعد تكليفه إقناع رئيس الجمهورية بحل المجلس، واجراء انتخابات جديدة. ولكن الرئيس رفض طلبه.

في تلك الفترة.. حصلت معركة «الحولة» بين الجيش السوري، والجيش الصهيوني. وسرت إشاعات ـ لم تكن بعيدة عن الصحة.. أنَّ «الشيشكلي» قد اصطنع تلك المعركة، كما اصطنع سابقتها، وقد مرّ بنا ذلك.. واستُشهد في كلتيهما، عدد من أفراد الجيش السوري.. وذلك كي يُضْطَرَّ النواب لمنح «العظم» الثقة التي كان من المحال أن يفوز بها.. لولا اصطناع تلك الأحداث المصطنعة!.

وهكذا.. حينما كانت تُشكَّل الوزارة من «حزب الشّعب».. يعارضها الجيش ـ والأصح يعارضها «الشيشكلي» الذي أصبح القيِّم عليه.. ويضع العراقيل أمامها! وإذا كانت الوزارة من «الكتلة الجمهورية»، أو من تؤيّده، تعارضها الأكثرية النيابية ـ وقوامها «الشعبيّون» وحلفاؤهم!

لذلك.. حفلتْ تلك الفترة، خلال سنتي ١٩٥٠ و ١٩٥١ بفوضى الحكم، وفوضى السياسة! وكانت المأساة بذلك وطنية ـ أكثر مما هي سياسية.

وأُثيرت بتلك الفترة.. مطالبةَ الموظفين بزيادة رواتبهم. وأعلن ١٧٥ ألف موظف إضراباً عامّاً شاملاً ـ مطالبين بزيادتها وتحسين أحوالهم. وفي الأسبوع الذي أضرب فيه الموظفون، بسائر أنحاء البلاد، قُطِعتْ اتصالات سورية مع العالم الخارجي.. وفي الدّاخل لم تُنجَز أية معاملة لأيّ مواطن! ورغم حراجة الموقف ودقّته.. فقد استقال «خالد العظم»، من رئاسة الوزارة في اليوم الأول الذي أعلن فيه الموظفون إضرابهم الذي استمرّ أسبوعاً!

وهكذا.. أصبحت البلاد دون وزارة، والدوائر دون موظفين!

واعتُبِرت استقالة «العظم» تهرُّباً من المسؤولية، وعدم الجرأة في مجابهة الموقف!

ولم يوافق «حزب الشعب» على تشكيل الوزارة ـ لأن اصطدامه مع «الشيشكلي» كان مؤكَّداً، ولا مفر منه. فطلب «الشعبيّون» من رئيس الجمهورية أن يكلِّف «حسن الحكيم» بتشكيلها ـ لأنه في اتجاه واحد مع «الشعبيين» بالعمل للاتحاد مع «العراق» و«الأردن». وسبق أن شكَّل وزارة أردنية حينما كان «لاجئاً سياسياً» في عمَّان، بعد الثورة السورية سنة ١٩٢٥.

وقد جرى تكليف «الحكيم» في ٣٠ تموز سنة ١٩٥١ ـ وشُكِّلت الوزارة بسرعة.. لتلافي اضراب الموظفين الذي شلّ الأعمال الرسمية شَلَلاً تاماً. واشترك بالوزارة عدد من الوزراء الشعبيين، وجابهت الوزارة اضراب الموظفين بشدة وعنف، وحصلت من المجلس النيابي على قانون، بتسريح كل موظف لا يعود إلى عمله فور صدور ذلك القانون.. الذي عارضتُه، مع عدد من الزملاء، بقوة. ولكنه ظفر من المجلس بأكثرية محدودة.

واستقال «حسن الحكيم» ـ ولم يكن قد مضى عليه في الحكم إلا أقلّ من أربعة أشهر. وجاءت استقالته بعد أن استقال من الوزارة وزيران شعبيان ـ هما «فيضي الأتاسي» و«رشاد برمدا». وقد صرح «الأتاسي» للصحف بأن رئيس الوزارة، «حسن الحكيم»، لا «حسن» ولا «حكيم»! وإنه، حسب تعبيره، «يُسَرْنَديها» و «يُفَرْنَديها» ـ أي أنه دائماً بين حالم ونائم!

وهكذا كان «فيضي الأتاسي» ـ كما أسلفنا.. يعمد إلى التعابير الغريبة غير المستعملة.. وبعضها يفتقر إلى المعاجم لتفسيره!.

وفي ٢٠ تموز سنة ١٩٥١ اغتيل «الملك عبد الله» في «المسجد الأقصى» بالقدس. وأشيع وقتئذٍ أنه بنفس اليوم الذي اغتيل فيه «عبد الله» علّق على صدر حفيده «حسين» ـ الملك الحالي ـ وساماً رفيعاً.. وهو يتمثّل بقطعة «برونزية» كبيرة، واصطحبه معه إلى «المسجد». وأُطلقت على الحفيد رصاصة موجَّهة إلى قلبه.. فأصابت الوسام، ولم تخترقه.. ونجا «الحسين».

هي اشاعة.. تناقلتها الصحف حينذاك، وسرت على ألسنة الناس، ولا نستطيع الجزم بها، ومعرفة مدى صحتها.

* * *

وكلّف «الرئيس الأتاسي» النائب «سعيد حيدر» بتشكيل الوزارة.. وهو شخص حيادي لا ينتمي لحزب، ولا لكتلة نيابية، ومن المجاهدين القُدَامَى المعروفين.

وبعد شهر من المشاورات والاجتماعات تَمَّ تشكيل الوزارة ـ وكنتُ فيها وزيراً للمعارف ـ وهي وزارة التربية والتعليم الآن. وكانت هي المرّة الأولى والأخيرة التي قَبلتُ فيها الاشتراك بوزارة، وتولّي منصب وزير. وكان «سعيد حيدر» صديقي، وقد ألّح علي.. فقبلتُ، وكنتُ قبل ذلك.. قد عُرِضتْ عليّ الوزارة أكثر من مرّة.. فرفضتُ. وأُعِدّ مرسوم تشكيل الوزارة، ووقّعه الرئيس. وأُرسِل إلى الإذاعة. ولكنّ «الشيشكلي» منع إذاعته.. وذهب إلى القصر الجمهوري، وقابل الرئيس، وأعلن معارضته، باسم الجيش، للوزارة التي تمّ تشكيلها.. وأنه لا يوافق عليها، ولا يسمح باذاعة الأسماء، ونشرها في الصحف!.

وكان «أكرم الحوراني» متفقاً مع «الشيشكلي» لعرقلة تشكيل حكومة.. حتى تتفاقم الأزمة، وتكون وسيلةً لتوليهما السلطة!.

وعادت الأزمةُ الوزاريةُ من جديد! وبلغ السّيل الزُّبى ـ من مجابهة المجلس، وتحدّي «الشيشكلي» السّافر! وعاد «حسني البرازي» لترديد قوله الساخر: «كل شيء شكلي ـ ماعدا «الشيشكلي»! وأصر «كيخيا» و«القدسي» على عدم موافقتهما بتشكيل وزارة.. إلا إذا تولى وزارة الدفاع شخص مدني.

وأخيراً ـ وبعد تفاقم الأزمة.. عهد الرئيس إلى «الدكتور معروف الدواليبي» تأليف الوزارة، بعد أن كلّف «زكي الخطيب»، فحاول.. ولم يتمكّن. أمّا «الدواليبي» فقد ألّفها بسرعة، وتولّى وزارة الدفاع «عبد الله التامر». وكانت الوزارة مؤلفة من:

«معروف الدواليبي»، «منير العجلاني»، «هاني السباعي»، «أحمد قنبر»، «محمد مبارك»، «شاكر العاص»، «عبد الرحمن العظم»، «علي بوظو»، «محمد الشّواف»، «جورج شاهين»، «عارف قرطقجي»، «حسني البرازي»، «عبد الوهاب حومد»، «رشاد جبري»، «عبد الله التامر».

وما أن أعلن تأليف الوزارة في مساء ٢٨ تشرين الثاني حتى ثارت ثائرة

«الشيشكلي» بشكل «هستيري»! وقد أثار حفيظته أكثر وأكثر.. أنّ وزارة الدفاع قد تولاها مدني، وكانَ يصرّ دائماً على أن يتولاها ضابط من الجيش ـ هو«اللواء فوزي سلو»! وبنفس الليلة التي أذيعت فيها الأسماء.. استنفر الجيش، وقام بانقلابه. واعتقل رئيس مجلس الوزراء والوزراء وبعض النواب، ومنهم «ناظم القدسي» وأودعوا جميعاً «سجن المزّة».

في تلك الليلة.. كنتُ أزور الضابط «عزيز عبد الكريم» في منزله. وأخبرني أنّ الجيش مستنفَر.. وأنه يجب أن أذهب إلى بيروت حالاً. وقال لي: إنّ موجدة «الشيشكلي» عليك معروفة.. وقد لا تنجو من الاعتقال. فشكرتُه، وصممت على البقاء في دمشق.. منتظراً ما يحتمه القدر.. وبقيتُ في الفندق لا أبرحه. ولم يتقدّم أحد لاغتيالي.

وثاني يوم الانقلاب.. قرأتُ في الصحف أن صحفيًّاً لبنانياً سأل «أديب الشيشكلي» عن سبب اعتقاله أخصامه السياسيين، فأجاب:

لو كان الموضوع موضوع خصومات شخصية.. لكنتُ اعتقلتُ «النائب عبد اللطيف اليونس» قبلهم جميعاً..

وبهذا التصريح.. اثبت أنه لم يعتقلني حينذاك.. لكي يثبت أن تلك الاعتقالات لا علاقة لها بالخصومات، وإنما جرت لاعتبارات سياسية ـ لا شخصية!

وأراد «الرئيس الأتاسي» أن يتلافى الأمر ـ بأناته وصبره، المعروفين عنه.. فاستدعى «حامد الخوجه»، وعهد إليه تشكيل الوزارة. وطلب منه أن يتصل بي فوراً.. للعمل معاً، واعداد أسماء الوزارة.

واتصل بي «حامد الخوجة»، ولمّا التقينا.. طلب مني الاشتراك معه، ومساعدته مع أعضاء «الكتلة الجمهورية» للاشتراك بها. وقد سبق أن ذكرتُ أنه كان «أمين سرها».. وأني حللتُ محله عندما أصبح وزيراً باحدى الوزارات، وبقيتُ «أمين سرها» إلى نهاية العهد الدستوري، وقلتُ لـ «الخوجة»:

إني أعتبر دعوتك إياي.. للاشتراك معك في الوزارة إهانةً سافرة لي! فهل يُعقَل أن أشترك بوزارة ـ بينما رئيس المجلس النيابي، وعدد من النواب، ورئيس

الوزارة والوزراء في السجن؟!

وذهبتُ إلى رئيس الجمهورية.. وقلت له بصراحة:

إنّ حياتك السياسية.. هي من أشرف وأنقى صفحات تاريخنا الحديث. فكيف ترضى بأن تشكّل وزارة جديدة. ورئيس الوزارة التي شُكِّلتْ أمس، وأعضاؤها جميعاً، في السجن ـ فضلاً عن رئيس المجلس، وعدد من أعضائه؟!. فقال:

يا بني.. أنا أعرف هذا، وأدركه جيداً. ولكن علينا أن نعمل لملافاة الموضوع وتداركه.. حتى نخرج بحلّ سليم، ونحافظ على الحياة الديمقراطية، وحرية المواطنين. ولو تركنا البلاد دون حكومة. لتَمَادى «الشيشكلي» في غيّه.. ولا نعرف ماذا يحدث بعد..

قلتُ: وهل من المنتظر أن يحدث أسوأ مما حدث؟

لكنه لم يقتنع برأيي.. بل طلب مني وألحّ عليّ، أن أشترك بالوزارة مع «الخوجة»، وأساعده في اقناع أعضاء «الكتلة الجمهورية».. للاشتراك معه، فاعتذرتُ.

وكان النائب «علي بوظو» يردّد دائماً: إن موقف «عبد اللطيف» كان من أشرف المواقف، وأجرئها. وكثير من الزملاء كان يردد ذلك.

وزار الرئيس «الأتاسي» عدد من النواب.. فكرّر على مسامعهم نفس القول الذي قاله لي!

ولم يفلح «حامد خوجه»، وينجح بمساعيه ـ لأن أكثر النواب ارتفعوا فوق مستوى الذاتية. ورفضوا دعوته للاشتراك معه. فقدّم اعتذاره للرئيس.

وفي نهاية الشهر.. قبض «الرئيس الأتاسي» راتبه، وأرسل إلى مجلس النواب كتاب استقالته من رئاسة الجمهورية، وسافر إلى حمص. وكان ذلك في ٢ كانون الأول سنة ١٩٥١.

وأخبرني «عزيز عبد الكريم».. بأن «الشيشكلي» جاء إلى مكتبه وهو ممتقع الوجه، بادي الاضطراب، وأخبره بأن رئيس الجمهورية قد استقال.. وطلب منه أن يسافر فوراً إلى حلب، ويعمل بحزم لضبط الأمن فيها ـ وكانت المظاهرات قد

بدأت بشكل صاخب في مدينة «الشهباء».. وقد سقط عدد من القتلى عند اصطدام المتظاهرين بالجيش. ولكن «عزيز عبد الكريم» بحكمته، ومعالجته الأمور بتعقّل ووعي.. قد استطاع أن يهدّىء الحال، ويحول دون اصطدام الجيش بالأهلين الذين قدروا موقفه، وأكبروا نزاهته.

لقد كان «الشيشكلي» يخشى نقمة الشعب وانتفاضته ضد اجراءاته. ولمّا لم يرَ أحداً تحرك إلا في حلب.. وقد سقط عدد من القتلى قبل أن يصل الضابط «عزيز عبد الكريم» إليها، ويهدّىء الحال فيها ـ لمّا رأى ذلك.. وأن الأمن مستتبّ، والشعب قد استكان، واستسلم للأمر الواقع.. وأنه تلقى تأييداً من حزب «أكرم الحوراني»، وحزب «فيصل العسلي»، و«الحزب السوري القومي»، وبعض الأشخاص المستقلين.. أيقن أن الساحة قد أفرغت له، فعمد إلى تعيين «فوزي سلو» رئيس دولة، وعيّن نفسه بعد ذلك رئيساً للوزارة.. وأدخل أشخاصاً من بطانته فيها.. وعرض على شخصيات كريمة الاشتراك بالوزارة، منهم قسطنطين زريق، فرفضوا. وبعد فترة وجيزة.. حلّ الأحزاب السياسية كلها ـ ومنها حزب «أكرم الحوراني» نفسه، وعطّل الصحف المناوئة لعهده.. ثم سجن «أكرم الحوراني»، و«ميشال عفلق»، و«صلاح البيطار»، والعميد «محمود شوكة» و٧٠ ضابطاً!

وأراد «الشيشكلي».. أن يستثمر الخلاف بين «الحزب الوطني» و«حزب الشعب».. فاتّصل بالوطنيين لكي يتعاونوا معه ضد «الشعبيين».. فرفضوا التعاون مع الحكم الدكتاتوري المداهم. وكان موقفهم النبيل هذا.. يشبه موقف «حزب الشعب» حينما دعاهم «حسني الزعيم».. فأبوا الاستجابة، ورفضوا الطلب.

وبقي السياسيون المعتقلون في «سجن المزة» فترة طويلة.. حتى أفرج عنهم، وأُطلق سراحهم.

* * *

كان «أديب الشيشكلي».. قد حلّ الأحزاب جميعاً، كما ذكرنا، وعطّل الصحف،

ما عدا الموالية له، فعمد في شهر تموز سنة ١٩٥٢ إلى تشكيل حزب جديد.. أطلق عليه اسم «حركة التحرير» وكان المنتسبون إليه من الانتهازيين الذين يغتنمون الفرص والظروف لمنافعهم! ولم يكن الانتساب إلى «حركة التحرير» فردياً، وبعد التحقيق والتدقيق ـ كما هي الأحزاب العقائدية والنظامية.. وإنما كان جماعياً، «ممن هبّ ودبّ» كما يقال!

وحينما زار «الشيشكلي» مدينة اللاذقية.. حشد أتباعه، ورجال مخابراته، والموظفين العاديين، وفئة من الانتهازيين الذين لا شأن لهم ولا وزن.. حشدوهم في «ساحة الشيخ ضاهر»، وقرأ أحد الموظفين قسم «حركة التحرير».. فردّده المحتشدون بصوت واحد!! وهكذا أصبحوا أعضاء في «الحزب»، وقد حمل كلٌّ منهم بعدئذٍ بطاقته ـ وهم لا يعرفون شيئاً عنه!!!

* * *

في شهر آذار سنة ١٩٥٣ استدعاني «الشيشكلي» إلى مكتبه، وقال لي: إنه قرّر أن يعهد إليّ بأمانة سر حزب «حركة التحرير». وذكر كلمات ثناء وجّهها إليّ! وقال: لابد أنك ستقضي فترة العيد في صافيتا ـ ولم أعد أذكر أي العيدين: رمضان أو الأضحى ـ وبعد العيد نجتمع.. وتتولّى المسؤولية والمباشرة بالعمل.

فشكرته على ثقته، وخرجتُ.

وفكّرت طويلاً بالأمر ـ متسائلاً بيني وبين نفسي عن السَّبب الذي دفعه لهذا.. وليس ثمة صلة بيننا، ولا تعاون مسبقاً.

وأخيراً، وبعد تفكير طويل.. أيقنتُ أنه من وراء هذا التكليف يريد أن يجهز عليّ معنوياً ـ لأنه هو رئيس الحزب.. ولابدّ لي في جميع المواقف من اطرائه، وكيل المديح له.. وهذا ما يتنافى مع مواقفي السابقة منه.. ومع ما يعرفه الناس فيّ ـ من المحافظة على السمعة والكرامة وشرف الاسم.. وهم يعرفون رأيي به، ومواقفي منه. وحتماً.. فهو سيحاول امتصاص سمعتي وطاقاتي.. ثمّ يتخلّى عني ويعود لعدائه لي.. كما فعل مع الكثيرين ـ ومنهم «عزيز عبد الكريم» الذي أعدّه لهذا المنصب، كما سبق وذكرنا، ثم تكليفه إياه بعد ذلك.. لتهدئة الحال في حلب.

وبعد أن تمَّ له استغلاله، وامتصاص طاقاته سرّحه من الجيش، وأحاله على التقاعد!

وبالنظر لطيبة «عزيز عبد الكريم»، وصفاء قلبه، فقد دخل إلى مكتبه يودّعه.. فقال له بكل وقاحة: «هَيْك بدّك تتركنا.. يا «عزيز»؟!

أليس قوله هذا.. من الأمور المضحكة.. والباعثة على الهزؤ والسخرية؟!

ولكنّ مثل هذا الموقف.. لا يقفه إلا «الشيشكلي» نفسه، ومثل هذا القول.. لا يحسن قوله سواه!

وأمّا بعد أن قويت النقمة على الدكتاتور، وأصبح شبه معزول من العاملين في الحقلين الاجتماعي والقومي.. عاد إلى «عزيز عبد الكريم» ليستثمر سمعته في الجيش، وبين أبناء الشعب، وعرض عليه منصب سفير فرفض، «ثم قَبِلَ منصب محافظ ـ لأنه ربّ أسرة كبيرة».. ومن الصَّعب نقلها كلها إلى الخارج..

بعد تفكير عميق ـ ورغم أن وضعي الاقتصادي كان يستوجب القبول.. فقد صمّمتُ على الرفض، والابتعاد عن سورية ـ طوال تلك الفترة المظلمة التي كان «الشيشكلي» مسيطراً فيها.

وصمّمتُ على الفرار بكرامتي وسمعتي ـ كما فرَّ «البهلول» من «هارون الرشيد».. وقد أراد تعيينه قاضياً، فأبى. وسأله «الرشيد» عن سبب رفضه.. فقال: «لأني إن حكمتُ بالحق أغضبتك، وإن حكمتُ بالباطل أغضبتُ الله». وأصرّ عليه «الرشيد» ليقبل.. وهدده بالسجن والتعذيب إن لم يفعل. فاستمهله إلى اليوم الثاني.

وفي اليوم الثاني قيل لـ «الرشيد» لقد جُنَّ البهلول: فقد رآه الناس يركض في الأسواق، وبين رجليه قصبة طويلة ويصيح: اذهبوا من طريقي وإلاّ رمحتكم ـ أي ضربتكم بالرمح! فبكى «الرشيد» وقال: لا والله لم يُجَنَّ «البهلول».. وإنما فرَّ بدينه منّا!

وهكذا قرّرتُ أن أفرَّ بسمعتي وكرامتي من «الشيشكلي» ـ كما فرَّ «البهلول» من «هارون الرشيد».. مع الفارق الكبير بين الرجلين والعصرين.

* * *

بعد انقضاء فترة العيد.. ذهبتُ إلى حلب، وكان محافظها «هاني الرّيس»، وهو صديقي ـ منذ كان رئيس محكمة في اللاذقية، ومحافظها بعض الوقت. زرتُه في مكتبه، وتلطّف ورحب بي كثيراً. وأخبرتُه أنّي بحاجة لمراجعة الطبيب الفرنسي الشهير «فريشّو»، وإن الوصول إليه يقتضي الانتظار أياماً طويلة، وأَخْذَ موعد مسبق.. وهذا مالا أستطيعه.. وطلبتُ منه التوسط عند الطبيب كي يستقبلني ذلك النهار. فأرسل معي مدير مكتبه، وبسيارته الخاصة، إلى عند الطبيب الفرنسي الذي استقبلني فوراً ـ وكان قد خرج من عملية جراحية استمرّت ساعات، ويستعدّ لاجراء عمليّة ثانية.. وقد وضع رجليه في إناء مملوء بالماء الساخن. فأخبرتُه أني مصاب بالتهاب حادّ في أنفي، وأني بحاجة لمراجعة طبيب اختصاصي في باريس. وطلبتُ منه أن يعطيني كتاب توصية لطبيب يثق به. فاستجاب للطلب، وكتب لي رسالتين لطبيبين، وعلى كلّ غلاف عنوان كلٍّ منهما. وقال لي: إذا لم تجد أحدهما.. فإنك ستجد الآخر.

والطبيب الفرنسي، «فريشّو»، كان من أشهر أطباء جراحة العظام. وحينما ثار الشعب السوري ضد الفرنسيين الذين تمّ اجلاؤهم عن البلاد كلها، عسكريين ومدنيين سنة ١٩٤٦، قامت مظاهرات صاخبة في مدينة حلب، تطالب ببقاء «فريشّو» الذي كان يُمضي نصف الأسبوع في حلب، والنصف الآخر في بيروت. واستجابت السلطات السورية للنداءات الملحّة.. وبقي هذا الطبيب.

وبعد أن حصلتُ على طلبي منه.. عدتُ إلى عند المحافظ حيث تناولتُ طعام الغداء على مائدته، وشكرتُه، واعتذرتُ منه.. وسافرتُ بنفس اليوم إلى دمشق.

في صباح اليوم الثاني زرتُ أمين عام وزارة الداخلية، «عبد الحميد الخليل»، وأخبرتُه عن وضعي الصحي الذي يتطلب معالجة عاجلة في فرنسا. وأطلعتُه على رسالتيْ «الدكتور فريشو» لطبيبين في باريس. وكان «الخليل» لطيفاً جداً ـ وهو من أبناء حوران، ومن الأشخاص الذين يعتمد عليهم «الشيشكلي».. فأرسل موظفاً يهيىء لي جواز السفر. وبقيت في مكتبه.. حتى جيء بالجواز وسلّمني إياه، فشكرتُه وخرجتُ.

ولولا تلك الحيلة.. والاستعانة برسالتي «الدكتور فريشو»، لما كنتُ استطعت الحصول على جواز سفر، والسَّفر إلى أمريكا. وكان محظوراً على السياسيين، في ذلك الحين، الخروج من سوريةَ ـ إلا بإذن خاص من السلطات الرسمية.

* * *

بعد أيام قليلة: غادرتُ البلاد إلى أمريكا الجنوبية ـ حيث أمضيتُ بضعة أشهر في «البرازيل» و«الأرجنتين». وكان الشاعر الكبير «عمر أبو ريشة» هو سفير سوريةَ في «الأرجنتين» وقتذاك. وهو دنيا من الطيبة والمُرُوَءة والنبالة. وقد انتقل إليها من «البرازيل» ـ بعد أن أمضى في هذه عدة سنوات... وفي كل مكان وُجِد فيه.. أعطى فكرةً كريمةً مشرقةً عن الأمة العربية، وجلالها وسموِّها، وتفوّقها التاريخي ـ في سائر مجالات العلم والحضارة.

وإني كلما ذكرتُه شكرتُه ـ لأنه وقف مني مواقف نبيلة في «الأرجنتين» و«البرازيل». وكان حريصاً، والسيدة حرمه، على أن يحضرا أكثر محاضراتي، والموائد التكريمية التي كانت تقام لي من الجالية الكريمة. وكان يُقدمني في بعض محاضراتي إلى الجمهور، ويتلطّف فيثني على مواقفي الصلبة.. ونضالي في سبيل الحرية والديمقراطية. وهو الذي حملني على تنشق الهواء النَّقِيّ، بعد أن أزفر الهواء الفاسد، وأنظّف الرئة منه من ٢٠ إلى ٣٠ دقيقة، صباح كل يوم ومساءه ـ على أن أحبس الهواء النقيَّ في رئتي ما استطعت.

ولهذا الزَّفير والتَّنشُّق فضل كبير.. فيما أشعر به من حيوية ونشاط.. وأنا مثابرعليهما يومياً صباحاً ومساءً منذ أن أشار عليّ بذلك سنة ١٩٥٣ ـ وإني أطلب من كل امرىء أن يثابر على استعماله.. لأنه هو الذي يحفظ الصحَّة والعافية ـ بل إنه «هو الحياة».. كما قال لي طبيب لبناني في «البرازيل».

* * *

بينما كنتُ في مطار «توكومان» ـ «بالأرجنتين»، وأنا في طريقي إلى «مندوسا».. وقد تجمَّع جمهور من أبناء الجالية العربيّة لوداعي، كما حصل في جميع المدن التي زرتها، وذلك بفضل الله ونعمه، وبفضل تلك الجالية النبيلة،

وعاطفتها وطيبتها، وأريحيتها التي لا تُضاهى.. بينما أنا على وشك الصعود إلى الطائرة.. جاء من يسلّمني برقية، من «بوينوس أيرس»، تفيد بأن برقيةً وصلت من أخي «محمود».. يطلب مني فيها العودة بسرعة، ودون أي تأخير.

ونظراً لثقتي بوعي أخي، واتّزانه، فقد أيقنتُ أنه لو لم يكن هناك سبب هام يستدعي عودتي بسرعة.. لما أبرق إليّ مؤكداً ضرورة العودة.

ولكن الجالية في «مندوسا» كانت بانتظاري.. وكان لابد من الذهاب إليها، وقد أعدّت برنامجاً حافلاً لزيارتي لها ـ وهي في طليعة جوالينا بالمغتربات: مكانةً ونفوذاً، وحماسة للوطن الأم، واندفاعاً في سبيله.. ولم أستطع المكوث في «مندوسا» إلا يومين كانا حافلين باللقاءات، والحفاوة والتكريم. وكان من برنامجي زيارة «تشيلي»، وهي على حدود «مندوسا». ولكني اضطررت لإلغاء تلك الزيارة.. وتابعتُ سفري إلى «بوينس ايرس»، ومنها إلى «سورية».

* * *

في «دمشق».. علمتُ أن سبب استدعائي السّريع كان لأجل الانتخابات النيابية ـ ولكي أقدِم ترشيحي قبل انتهاء المدة المحددة.

وكان أخي «محمود» قد التقى محافظ اللاذقية، في منزل القاضي الكبير «رفيق عزيز بشور» ـ الذي أصبح في العهد الدستوري سنة ١٩٥٥ عضو «المحكمة العليا»، وعضو «مجلس القضاء الأعلى»، إلى جانب عضوية «محكمة التمييز». وفي ذلك اللقاء أبدى المحافظ رغبته بالإبراق إليّ كي أعود، وأقدّم ترشيحي للمجلس النيابي الذي كان قد أُعلِن عن الترشيح له.. وكانت الانتخابات على وشك الحدوث. ومن البداهة .. أنّ هذا الطلب من المحافظ لا يمكن أن يحدث.. لو لم تكن ثمّة رغبة من الجهات العليا، أو ايحاء بذلك.

وفي دمشق ـ حينما وصلتُها.. اتّصلتُ ببعض الفئات الوطنية التي تربطني بها أواصر قوية، وتعاون مشترك. فعلمتُ أنّ ذوي الفعاليات الوطنية، جميعاً، قد قرروا مقاطعة تلك الانتخابات مقاطعةً تامة ـ رغم المحاولات المكثّفة التي بُذِلت لإقناعهم، أو اقناع بعضهم بخوضها. وكان موقف السياسيين حينذاك مشرّفاً ـ

رغم جميع المُغْريات التي بُذِلت لحملهم على الغاء قرارهم.

وكانَ من البدهي.. أن أتّبع الأسلوب نفسه، وأمتنع عن خوض تلك الانتخابات. ولمّا وصلتُ «صافيتا»، أعلنتُ هذا لأصدقائي الكُثُر الذين كانوا بانتظاري على بُعد ما يزيد على عشرين كيلومتراً منها.

وكان اعلاني عدم خوض معركة الانتخابات مفاجأة كبرى لهم.. وصدمةً كانت أعنف مما أتصوره.

وألحّ عليّ الأصدقاء والأنصار.. أنْ لا نترك الساحة للآخرين. وبعد دراسة الموضوع طويلاً.. قرّرنا ترشيح «الدكتور صلاح أحمد».. وهو أستاذ جامعي مرموق.. مشهود له في الأوساط الجامعية بالكفاية النادرة ـ فضلاً عن أنه ذو عقيدة شريفة، وفي مستوىً عالٍ من الخلق والطيبة. ثم ترشيح «الدكتور صادق الطيار»، وهو من وجوه «صافيتا» المشرقة، ومنفّذ «الحزب السوري القومي» فيها.

وأعلنتُ قراري هذا ـ لأنصارنا كافّة. وكانوا يأتون إلى بيتنا جماعات جماعات ـ لتهنئتي بالعودة.. ثم لأخذ التوجيهات بالانتخابات.

وبعد أيام.. زرتُ مدير المنطقة «عبد الحميد المقيّد»، وكانت لي ثقة به، فأفهمني صراحةً.. أن أمر «الزعيم»، ويقصد «الشيشكلي»، سيُنَفّذ ـ وهو نفس التعبير الذي قاله لي!

وأدركتُ.. أنه ليست هناك حرية انتخاب.. وإنما ستفرض لائحة «حركة التحرير» على الناخبين.. وأن الانتخاب ما هو إلا صورة.. وقد أُعِدّت الأسماء سلفاً ـ وهي التي سيعلن فوزها ـ مهما كانت النتائج.

وكان مرشحا حزب «الشيشكلي» «أحمد العباس»، و«ابراهيم الخوري». وهما انسانان كريمان، لا يخلوان من كفاءة وطيبة ـ إلا أنهما مرشّحا السلطة الحاكمة.. ونحن والسلطة الحاكمة لسنا على وفاق.

وفي تلك الأثناء.. زارني عدد من الشخصيات المرموقة، في المحافظة، وطلبوا مني مقاطعة الانتخابات ـ للإعراب عن النقمة العارمة ضد «الشيشكلي» وعهده..

وتَمَشّياً مع روح المقاطعة التي كانت قد عمّت القطر السوري كله.

ودعوتُ عدداً من الأصدقاء والوجهاء لدراسة الموضوع.. وبعد استعراضه، من جميع جوانبه، قرّرنا المقاطعة التامة للانتخابات، وتعميم هذا القرار على أنصارنا ومؤيدينا.

ولما كان منزلي يحفل دائماً بالزائرين والمراجعين.. فقد كان من السّهل، كما مرّ، الايعاز إلى جميع الجهات للتّقيد بقرار المقاطعة. وفعلاً.. فإن الكثير من دوائر الاقتراع لم تشهد إلا آحاداً من المقترعين.. وبعضها اقتصر على أعضاء اللجنة وحدهم ـ فحسب!

وقد سحب «الدكتور صلاح أحمد» ترشيحه ـ حينما أدرك أن الكرامة الوطنية تقضي بهذا.. وأنّ الانتخابات ليست إلا تمثيلية هزيلة.. فكان نبيلاً ـ كعهد الناس به دائماً.

هذا.. مع أن قرار المقاطعة.. لا علاقة له بشخصية مرشحي «الشيشكلي» ـ وإنما هو قرار يتعلق بالوضع العامّ، وموقفنا منه.

واستمرّ «الدكتور صادق الطيار» إلى النهاية ـ رغم اقتناعه بعدم جدوى المعركة. ولكن «جورج عبد المسيح»، المسؤول عن ادارة «الحزب السوري القومي»، وقتئذٍ، كان مذعناً لإرادة «الشيشكلي»، ومؤيداً سياسته تأييداً مطلقاً! ولذلك.. اضطرّ «الدكتور صادق» للاستمرار.. حتى يوهم الناس بأن ثمّة معركة انتخابية بين متنافسين.. وأنّ المقاطعة اقتصرت على فئة معينة فقط! ولكن إحجام الأكثرية الساحقة من الناخبين.. قد فضح اللعبة، وأكّد حقيقة المقاطعة التي لا تقبل الجدل.

وكان « الشيشكلي »، قبل ذلك، وفي ١٠ تموز ١٩٥٣ قد رشّح نفسه لرئاسة الجمهورية، وفرض نفسه على الشعب الذي قاطع الانتخاب ـ كما قاطعه، بعدئذٍ، عند انتخاب النواب الوهمي الذي حددهم بـ ٨٢ نائباً! وقد أحال «فوزي سلو» على التقاعد، وحلّ محله، وعيّن «شوكة شقير» رئيساً للأركان. ووضع دستوراً جديداً، وأجرى استفتاءً وهمياً للموافقة عليه ـ إلى جانب انتخابه رئيساً

للجمهورية.. وأبعد من دستوره منصب رئيس مجلس الوزراء الذي كان موجوداً في جميع العهود السابقة ـ وحتى عهد الفرنسيين نفسه.. وجعل الوزراء مسؤولين أمامه وليس أمام المجلس النيابي!

وقد أصدر عدد من كبار الشخصيات بياناً وقّعه هاشم الأتاسي، ورشدي كيخيا، وسلطان الأطرش، وغيرهم من الزعماء البارزين.. أعلنوا فيه معارضتهم لدستور «الشيشكلي» الذي يعطيه صلاحيات لم يحصل عليها أيّ حاكم في أيّ عهد سوري!

ولا شك أنه وُجِد بين النواب أشخاص كرام قلّة ـ منهم «محمود حبيب» نائب بانياس، وهو موضع ثقة عارفيه جميعاً. وقد جيء بهم لتغطية الانتخابات الوهمية، والأشخاص النكرات الذين تمّ اختيارهم.

كما أنه وُجِد بين الوزراء الذين عيّنهم بعض الشخصيات الكريمة ـ منهم «أسعد هارون» الذي عُيّن وزيراً للعدل بعد استقالة «أسعد محاسن» من الوزارة. وقد أعلن «أبو نزار»، لمراسلي الصحف، أنه قبل الاشتراك بالوزارة للعمل على تقريب وجهات النظر ـ بين «الشيشكلي» والوطنيين ـ حفاظاً على وحدة الصفّ في تلك الظروف الحرجة. ولكن مسعاه الدّائب لم يفلح.. بل أوجد فجوةً بينه وبين زملائه في «الحزب الوطني» الذي رفض أعضاؤه التعاون مع الدكتاتور..

وكان «أديب الشيشكلي» ـ كما هو معروف عنه.. مدمناً على الخمرة بشكل غريب معيب! وفي احدى المرات ـ وهو رئيس وزارة.. ظل ٢٦ ساعة على موائد الخمر.. متنقلاً بين مطعم الرّيس، ومطعم الشرق، ومطعم المطار! وكان ندماؤه ورفاقه يذهب بعضهم، ويأتي البعض الآخر! كما أن الموظفين، كما نُقِل إلينا، كانوا يأتونه بالمعاملات المستعجلة.. فيمضيها لهم على مائدة الخمر!

ولكن الغرابة، كما يروي سُمّاره، أنه كان دائماً حاضر الذهن.. وأن السُّكْر لم يكن يفعل به بالقدر الذي كان يفعل بالآخرين ـ وربما لتأصّل العادة فيه، ولكثرة المتابعة والمثابرة.. حتى أصبحت الخمرة وكأنها جزء منه، أو أنه جزء منها! وكان يسخر من وزرائه، ويهزأ بهم في حلقات سكره ـ كما كان يفعل ذلك

«ستالين» في مجالس عبثه، وازدراده «الفودكا» بنَهَم! وقيل إنّ نقمة «خروشوف» عليه، وحذف اسمه من كل مظاهر الاتحاد السوفياتي ـ لأنه كان يجعله يرقص كالدّببة في مجالس سُكْره ولَهْوه.. فيكون مدعاةً لضحك «ستالين»، وسخرية جلسائه وندمائه!

* * *

في تلك الفترة.. ذهبت إلى العراق لزيارة أصدقائي، واستعادة ذكرياتي ـ أيام كنت «لاجئاً سياسياً» فيه.. ثم للانتساب إلى احدى جامعاته، والحصول على الشهادة الجامعية التي كنتُ أحلم بها.. ولكن عوائق وقفت في الطريق.. ولم يستطع أصدقائي تذليلها لي.

وظلت الشهادة الجامعيةُ حلمي الدائم.. إلى أن قُيض لي الحصول على شهادة «دكتوراه» من احدى جامعات «الأرجنتين»، وأنا في أواخر عمري ـ كما سيجيء.

وفي زيارتي العراق قابلتُ «الأمير عبد الإله»، ولي العهد، و«الملك فيصل» الذي كان يحمل لقب «الملك» فحسب ـ وأما صلاحيّاته.. فكانت كلها منوطةً بخاله ووليّ عهده «عبد الإله».. ورئيس وزرائه «نوري السعيد» الذي كان موضع ثقة الانكليز، واعتمادهم، إلى حدٍّ ـ لا حدّ له! وكذلك أكثر السياسيين العراقيين!

وكان «عبد الإله» مدمناً على الخمرة.. وقيل أنه كان يتناولها في مكتبه أيضاً. وحينما زرتُه قال.. إنه «منَشّل» ـ أي مصاب بزكام. وما أعرف إذا كان ما تناوله جرعة دواء، أم جرعة خمر!

وكان لطيفاً جداً باستقبالي، وسؤالي عن الأمر الذي يهمني في العراق ليقضيه لي. وكنت صارحتُ صديقي «صبيح الغافقي» بأني سأطلب من «ولي العهد» الإيعاز إلى رئيس الجامعة لتسهيل انتسابي إليها. ولكنّ صديقي «الغافقي» أصرّ على ألاّ أفعل.. وكنت أثِقُ به، وبحسن تقديره للأمور ـ رحمه الله. لذلك شكرتُ «الأمير» للطفه، ولم أطلب منه شيئاً.

واستقبلني «الملك فيصل» بمنتهى الوداعة واللطف والأُنس. وأعترف بأني تأثرت لقتله عند الانقلاب الذي قام به «عبد السلام عارف»، ضد السلطة

الغاشمة ـ التي كانت مطيّة للأميركان والانكليز. وقد اغتبط العراقيون لتخلصهم من أعوان الامبريالية وأتباعها.. ولكنهم تأثروا لمقتل «فيصل» ـ لأنه كان «جاهلاً».. و«الجاهل»، بالعُرْف العراقي، هو الطفل البريء.

والانقلاب العراقي.. كان قام به «عبد السلام عارف».. ولكنّ «عبد الكريم قاسم» اختلسه، واستقلّ به، وبسلطته ـ مثلما فعل «أديب الشيشكلي» واستقلّ بالانقلاب الذي قام به «عزيز عبد الكريم» و«توفيق نظام الدين» ورفاقهما!

وزرتُ أصدقائي «العانيّين». وأعتقد أن سروري برؤيتهم.. لم يكن أقلّ من سرورهم برؤيتي. وقد التفوا حولي طوال تلك الفترة، حيث اغتبطتُ كثيراً برؤية «السيد طه» وأخيه «السيد مصطفى»، ونسيبهما «السيد عبد الجبار العاني»، وبقيّة أنسبائهما الكرام. كما سررتُ برؤية أبنائهم وأقربائهم ـ الذين سأبقى مديناً لهم مدى الدهر.

واجتمعت بـ «السيد عبد الوهاب الصافي».. الذي أنقذني من الموت ـ كما مرّ بنا.. ولن أنسى يده البيضاء ما حييت.. ومن المحال أن أنسى ـ فهي دين في عنقي، وإلى الأبد. مد الله في عمره، وحفظه من كل سوء.

كما زرتُ صديقي «السيد محمد رضا شرف الدين».. مدير مكتب رئيس «مجلس الأعيان السيد محمد الصدر».. الذي ضمّني إلى صدره ـ كما لو أنني ابنه الذي كان غائباً وعاد. وطوال مدة اقامتي في بغداد.. ظللتُ أتردّد على مكتبه، وعلى داره العامرة التي كانت تغص بالزائرين عصر كل يوم ومساءه.

لقد كان السيد «محمد الصدر».. زعيم زعماء العراق ـ بلا ريب. والجميع يجلّونه ويحترمونه. وقد رئس وزارة انقاذ وطني بعد ذلك.

والتقيتُ كثيرين من أصدقائي الأدباء، وقد رحّبت بي أقلامهم الكريمة، وكتبتْ مطوّلاً عني. وأمضيتُ سهرات طويلة، وجلسات عديدة مع رفاق الأمس.. الذين احتضنتني عواطفهم ومروءاتهم ـ طوال فترة لجوئي السياسي إلى العراق. ونعمتُ بجلسات لطيفة هانئة على شاطىء نهر دجلة.. واستمتعتُ بأكل السمك «المزقوف» ـ الذي لا ألذّ منه، ولا أمتع، ولا أشهى.

آه.. لتلك الأيام ـ ما كان أروعها وأجملها، ورحم الله أصدقائي الذين مضوا، وحفظ الباقين.

* * *

وقويت المعارضة في وجه «الشيشكلي»، وعقد أقطاب الأحزاب السياسية مؤتمراً في حمص، بدار الرئيس «هاشم الأتاسي»، حضره زعماء «الحزب الوطني»، و«حزب الشعب»، و«حزب البعث»، و«الحزب الشيوعي»، وبعض المستقلين. وناب عن «سلطان باشا الأطرش» وفد من «جبل العرب» حضر المؤتمر.. وهو يحمل كتاباً من قائد الثورة السورية، تلاه «فيضي الأتاسي»، وقد جاء فيه:

«لقد رأينا من واجبنا القومي أن نشارككم العمل ـ كما سبق وشاركناكم الرأي.. وقد انتدبنا اخوان الجهاد: أبا «أحمد يوسف العيسمي»، وأبا «يوسف حسين مرشد»، وأبا «حسن فضل الله جربوع»، لينوبوا عنا بابداء وجهة نظرنا، وبيان رغبتنا. وبانتظار جهودكم.. نبارك مؤتمركم، راجين أن يوفِّق الاخوان في تحقيق أماني البلاد، وإعادة الحريات والحياة الدستورية الصحيحة».

وقد تمَّ خلال ذلك المؤتمر.. تشكيل جبهة وطنية وضعوا ميثاقها الذي تضمَّن: عدم الاعتراف إلا بالحكم الديمقراطي وما يصدر عنه، اطلاق الحريات العامة وضمانها، حماية الاستقلال من المُؤامرات الداخلية والخارجية، والجيش ملك الشعب، وعليه واجب تقويته واعداده لمهمته المقدَّسة في الدفاع عن البلاد.

وقرر المؤتمرون مقاطعة الانتخابات التي دعا إليها «الشيشكلي»، وحدَّد موعدها في تشرين الأول من ذلك العام ١٩٥٣ ــ كما قرّر تشكيل لجنة مركزية للتنظيم والمتابعة وتوجيه الشعب.. وأن يتهيّأ أبناء كل محافظة لمجابهة الحكم الدكتاتوري إذا لم يستجب لمطالبهم ــ على أن يبدأ العمل الثوري في «السويداء»، ثم تتبعه بقية المناطق.

وكانت مطالبهم:

١ ـ تشكيل وزارة ائتلافية.. تدخلها الأحزاب كلها ـ ما عدا حزب

«الشيشكلي»: «حركة التحرير العربي». وهذه الوزارة يُطلَق عليها اسم «حِلف وطني».. وهي التي تُجري استفتاء على الدستور الجديد الذي تضعه.

٢ ـ إطلاق حرية الصحافة، والأحزاب السياسية.

واتّخذ المؤتمرون قرارات صارمة.. لإعلان العصيان المدني الذي يبدأ في «جبل العرب». وصحافي مصري فَكِه.. شبَّه بيان حمص بالحساء ـ الشوربا، وقال: «الوطنيون» هم اللحم، و«الشعبيون» الأرز، و«المستقلّون» البقدونس، و«حزب البعث» النار التي أنضجت الحساء!

لكنّ «الشيشكلي» لم يستجب لمطالب المؤتمر.. بل سارع لإعلان حالة الطوارئ، وشنّ حملة واسعة على «جبل العرب» ــ واعتقل الشخصيات السياسية التي حضرت المؤتمر، وقد جرت الاعتقالات في ٢٤ كانون الثاني ١٩٥٣ ـ وهذه أسماء بعضهم:

«رشدي كيخيا»، «صبري العسلي»، «فيضي الأتاسي»، «عدنان الأتاسي»، «الأمير حسن الأطرش»، «علي بوظو»، «عبد الوهاب حومد»، «شاكر العاص»، «رزق الله أنطاكي»، «ميشال عفلق»، «صلاح البيطار»، «منصور الأطرش»، «منير العجلاني»، «أكرم الحوراني» ــ الذي ساءت العلاقة بينه وبين «الشيشكلي» ـ لأنه لم يشركه معه في الحكم. كما شملت الاعتقالات أشخاصاً آخرين! وفُرِضَتْ على «هاشم الأتاسي» الإقامة الإجبارية في داره.

وكان «الحوراني» يقول عن «الشيشكلي» إنه عميل وخائن. ويتندَّر بـ«الشيشكلي» في مجالسه، وبأسلوبه التهكميّ اللاذع.. ويذكر اتهام «الحوراني» له بالعمالة والخيانة ويقول: «أنا وأكرم رفاق عُمْر.. وقد تعاونتُ وإياه في كل مراحل حياتي فإذا كنتُ خائناً.. فهو أيضاً خائن ـ لأننا عملنا معاً».

وكان «بدوي الجبل» من جملة الزعماء السياسيين المطلوب اعتقالهم.. ولكن محافظ اللاذقية، آنذاك، «سعيد السيد».. حينما تلقّى هاتفاً بوجوب اعتقال «البدوي» أسرع ليلاً إلى داره، واصطحبه معه في سيارته إلى الحدود اللبنانية حيث نجا من الاعتقال. وهكذا كان «سعيد السيد»، شقيق «جلال السيد»، دائماً

شهماً ونبيلاً.

وشكّل «الشيشكلي» محكمة خاصة لمحاكمة الزعماء المعتقلين. بتهمة الخيانة العظمى، والتعاون مع العدو! وسارع لإعلان الأحكام العرفية.. بموجب «دستوره»!

وكنتُ حينذاك، في العراق.

وكان الدكتاتور يقول: «أعدائي كالأفعى.. رأسها «جبل الدروز»، ومعدتها «حمص»، وذنبها «حلب» ـ فإذا سحقتُ الرأس.. ماتت الأفعى»! ويردّد قول الشاعر:

لا تقطعنْ ذنب الأفعى وتتركها

إنْ كنتَ شهماً.. فأتبِع رأسها الذَّنَبَا

ولذلك.. سارع بشنّ هجوم وحشي على «جبل العرب».. واحتلت قطعات من الجيش بعض مدنه وقراه.. وأغارت، الطائرات الحربية تلقي قذائفها على الآمنين في مختلف أنحاء الجبل.. وحدثت اصطدامات بين جيش «الشيشكلي» والمناضلين. واضطر «سلطان الأطرش» للنّزوح من «الجَبَل» مرّةً ثانيةً ـ حرصاً على عدم إراقة الدماء. وعلى وحدة الجيش، ووحدة البلاد ـ كما قال لنا. ولم يعد إلى عرينه، بعد نزوحه الأوّل، إلاّ بعد أن نالت سورية استقلالها، ورحل الغاصب المحتلّ عنها. وكذلك لم يعد إلى «الجبل» ـ عندما اضطرّ للنزوح عنه مرة ثانية.. إلاّ بعد انتهاء عهد الدكتاتور، ورحيله إلى غير رجعة. وقد جرى «لسلطان باشا» استقبال رسمي حافل، عند عودته، اشترك فيه عدد من الوزراء وكبار المسؤولين.

وبعد عودة الحياة النيابيّة... ذهبتُ وعدداً من الزملاء، نوّاب محافظة اللاذقية، لزيارة «الباشا ـ سلطان» في قريته «القرَيّة».. حيث أمضينا معه وقتاً أنيساً حافلاً... وتغدّينا على مائدة «الأمير حسن الأطرش» في «السويداء» ـ وكان بعد عودة الحياة الدستورية، قد عُيِّن وزيراً للزراعة.

والزملاء الذين زرت وإيّاهم «سلطان» في عرينه هم: «أحمد علي كامل»،

«محمود أحمد حبيب»، «بهجة نصور»، «عبد الهادي عباس»، وأنا.

وكانت هجمات طائرات «الشيشكلي» وجنوده، على «جبل العرب»، ثم اعتقاله سياسيين مرموقين، هو السهم الأخير الذي أجهز على الدكتاتور. فقد أصدر بعض الشخصيات السياسية بياناً باسم «الجبهة الوطنية» أهابوا، بالشعب أن يهبَّ للخلاص من الحكم الدكتاتوري. وأذاعت نقابتا المحامين، في دمشق وحلب، بيانات تتضمن احتجاجات حادّة.. تندّد بتلك الاعتقالات. وبعث «الرئيس الأتاسي» برسائل إلى الملوك والرؤساء العرب.. يطلب منهم التدخل لانقاذ سورية من الحكم الدكتاتوري. وشكّل العقيد «محمد صفا» حكومة سورية حرّة في «بغداد»، وكان «الشيشكلي» قد عيّنه ملحقاً عسكرياً في السفارة «بواشنطن»، ثم سرّحه من وظيفته.

* * *

حينما عدت من العراق ـ وكنت أطلتُ اقامتي فيه.. ذهبتُ إلى محافظة الجزيرة، وكان لنا مشروع زراعي فيها. وبعد أيام قليلة من عودتي منها إلى صافيتا.. فوجئتُ بأنباء تمرد كتائب الجيش السوري الموجودة في محافظة حلب، بقيادة العقيد «فيصل الأتاسي». وبدأت قوات الجيش في المنطقة الشمالية زحفها إلى دمشق. وأعلن الرّائد «مصطفى حمدون»، باسم «العقيد الأتاسي»، بيان الجيش الزّاحف.. وأنهم لن يتوقفوا حتى تعود الحياة الديمقراطية إلى البلاد. وجاء في البيان:

هذا ليس ببلاغ.. ولكنه اعتراف، وعهد ونداء. إنه اعتراف بحالة أوصلت الجيش والشعب إليها حفنة من الرجال الأشرار... وهو عهد يمحو الخزي والعار اللذين لحقا بالجيش، واستعادة طهارته ونبالته.. لكي يعود إلى ثكناته بنظام... وأخيراً نداءً لحمل السلاح، ونداءً للشرف».

وأعلن «العميد أمين أبو عسّاف»، قائد اللواء الثالث في «دير الزور»، تأييده، لـ «العقيد الأتاسي».. وتضامنت ألوية أخرى مع الجيش الزّاحف من الشمال. وأراد «الشيشكلي» تجميع قوى الجنوب حوله.. واتصل بقائد موقع «حوران»،

فأعرب عن تضامنه مع «الأتاسي»، ثم اتّصل بقائد موقع حمص «محمود شوكة»، وسأله رأيه فيما يجري.. فأجابه بصراحته وجرأته المعروفتين:

ضباط الجيش كلهم متفقون على أنه يجب أن تتنحّى. فقال له: فهمت، وأغلق الهاتف.

ولما تأكد «الشيشكلي» من أنه لم يعد ثمّة مجال... حزم حقائبه وهرب إلى لبنان ـ بعد أن أرسل كتاب الاستقالة لمجلس نوابه . وقيل أنه حلّ في بيروت بمنزل السفير السعودي، وكان ذلك في ٢٥ شباط سنة ١٩٥٤ ـ لكن النقيبين: «عبد الحقّ شحادة»، قائد الشرطة العسكرية،... و«حسين جِدّة» أحد قادة المدّرعات.. رفضا قبول ما حصل، واندفعا بقواتهما إلى «دمشق»... كما اندفعت كتيبة من الدبابات كانت تعسكر في منطقة «الجولان» على الحدود، وقائدها من أعوان «الشيشكلي»، واعتقل هؤلاء رئيس الأركان «شوكة شقير»، وأصدروا بياناً باسمه فيه دعوة إلى ثورة مضادّة.. واتصلوا بـ «الشيشكلي» هاتفياً.. طالبين منه العودة، وزاعمين أن الجيش الموجود على الجبهة مؤيّد له! وقيل أنه حاول العودة ـ ولكن ضباط الانقلاب، وقد بلغهم نبأ ذلك الاتصال الهاتفي، اتصلوا بقيادة الجيش اللبناني.. وطلبوا منها عدم السماح لـ «أديب الشيشكلي» بالعودة إلى سورية.. فاستجابت لهم، وحالتْ دون عودته. وعلم أنه بعد فشل تلك المحاولات.. ذهب إلى «الرياض» بطائرة سعودية خاصة.

وفي مساء اليوم الذي ذهب فيه «أديب الشيشكلي» إلى غير رجعة.. ذهب العميد «شوكة شقير» إلى سجن «المزّة» وأطلق سراح الموقوفين السياسيين.

وفي اليوم الثاني.. أُذيع بيان، باسم «العميد شقير»، بصفته رئيس أركان الجيش.. يعلن فيه دعمه للدكتور «الكزبري»، رئيس مجلس النواب.. الذي يُعتَبَر، بموجب أحكام الدستور، القائم بأعمال رئاسة الجمهورية ـ في حال خلوّ سدّة الرئاسة. وقيل إن «حسين جِدّة»، و«عبد الحقّ شحادة»، كانا وراء ذلك البيان الذي اعتُبِر ثورةً على الثورة!

ودعا «الدكتور مأمون الكزبري» مجلس النواب للانعقاد.. فاجتمع منهم ٤٦

نائباً. تلا عليهم كتاب استقالة «الشيشكلي».. وأعلن أنّ الدستور يقضي بأن يقوم رئيس المجلس النيابي بأعمال رئاسة الجمهورية. إلى أن يُنتخب رئيس جديد. وصعد فوراً إلى القصر الجمهوري لاستلام مهام الرئاسة.. تاركاً رئاسة المجلس لنائب الرئيس.

ولمّا علم «العقيد الأتاسي»، ورفاقه الثائرون، بتلك الخطّة.. أرسلوا طائرات تلقي مناشير تحتوي على هجوم عنيف على «الكزبري» و«شقير»، والمتعاونين معهما... وتطلب من الشعب الوقوف في وجه الذين يريدون القضاء على الثورة.

وفي اليوم التالي.. اجتمع المجلس النيابي برئاسة «سعيد اسحاق» نائب الرئيس. ولكنّ المتظاهرين طوّقوا المجلس، واقتحموا مبناه.. ولم ينسحبوا منه حتى تأكدوا من أن النواب قد حلّوا مجلسهم.

وبذلك انتهت تلك المأساة الرّهيبة التي جرحت البلاد في كرامتها وعزّتها وسمعتها، وأوشكت أن تؤثر حتى على كيانها.

* * *

لكن «الشيشكلي» - وقد فقد رفاهية الحكم، ولذّة السلطة والسيطرة، وحنّ إليهما.. أجرى اتصالاً بالمخابرات الأمريكية.. طالباً منها تسهيل عودته إلى الحكم في سورية ـ متعهداً لها بتنفيذ سياستها في الشرق الأوسط. ورتّبت له المخابرات الأمريكية سبيل العودة ـ بشكل سرّي.. وجعلته يحلّ في دمشق بدار السفارة الباكستانية.. حتى يكون بمأمن من السلطات السورية، وبعيداً عن الشبهة والملاحقة!

وبادر الاتصال بأعوانه الذين بقوا على ولائهم له! واكتشفت المخابرات السورية ذلك.. وراقبت اتصالاته الخفية مراقبةً دقيقة. وانتشر رجالها حول السفارة المذكورة. ولمّا علم أسياده الأمريكان أنّ الأمر قد فُضِح.. عمدوا لاخراجه ليلاً بثوب امرأة محجّبة، مع عدد من أركان السفارة، وذهبوا به إلى المطار.. حيث كانت طائرة ذاهبة إلى أوروبا، وقد حجزوا له فيها، باسم مستعار. وهكذا سدل الستار عليه نهائياً.

ومن أوروبا سافر إلى البرازيل ـ مصطحباً معه حسناء ألمانية، واشترى مزرعةً بالقرب من العاصمة «برازيليا»، في منطقة غويّانا ـ أنا بولس، وسكن فيها مع الألمانية، وأحد أولاده الذي كان قد لحق به إلى هناك.

ولكنّ ضابطاً متقاعداً من «بني معروف» الأشاوس، اسمه «نوّاف غزالة» كان يرصد تحركاته وتنقّلاته.. وقد اعترضه مرّةً على الطريق، وهو سائر وحده، ولم يباغته بإطلاق النار، ويأخذه غدراً.. بل صاح به:

«أديب».. هيّا إلى «جبل العرب» ـ حيثُ تحاكم على جرائمك وقتلك الأبرياء. فسحب «الشيشكلي» مسدسه، ليطلق عليه النار.. ولكنّ البطل «الدرزي» كان أسرع منه، فأطلق عليه بضع رصاصات وأرداه قتيلاً.. ثم توارى عن الأنظار بضعة أسابيع.. وبعد ذلك سلّم نفسه للقضاء البرازيلي، حيث حُكم عليه بالسجن.. وبعد خمس سنوات أطلق سراحه.

وسألت الحكومة البرازيلية السفارة السورية عن «الشيشكلي» وصفته الرسمية، وكيفية تشييع جثمانه ـ وكانت أسرته قد طلبت نقل جثّته إلى سورية لدفنها فيها. وكان الدبلوماسي المعروف، «جهاد الهواش»، هو السفير ـ وقد استقال من النيابة ليُعيَّن في السلك الدبلوماسي، فأبرق إلى وزارة الخارجية السورية بسؤال وزارة الخارجية البرازيلية، وجاءه الجواب:

«أديب الشيشكلي».. ضابط متقاعد وليس له أية صفة رسمية.

وكان قد صدر قانون من المجلس النيابي اعتبره «مغتصب السلطة».. وعرّاه من جميع الصفات الرسمية ـ كما سيجيء.

وحينما نُقِل إلى مدينة «ريو دي جانيرو» ليُنقل منها إلى سورية.. عُرِض على احدى الجمعيات العربية، في عاصمة البرازيل السابقة، إيواء جثّته فيها.. إلى أن يتمَّ نقلها بالطائرة إلى دمشق.. فرفضت ذلك ـ لأنها كانت قد أطلعت على قرار «المجلس النيابي السوري» بأنه «مغتصب السلطة»، ولذلك رفضت. فنقلها «المطران جورج الحاج»، راعي الطائفة الأرثوذكسية، إلى حرم الكنيسة... حيث صلى على الجثّة، وبقيت فيها إلى أن تمَّ نقلها إلى المطار بصورةٍ عادية ـ ودون

أي تشييع رسمي.

* * *

بعد أن انتهى عهد «الشيشكلي» وأُطلق سراح السياسيين المعتقلين.. تنادى الزعماء السوريون للاجتماع في قصر الرئيس «هاشم الأتاسي» بحمص. وكنت قد عُدتُ من الجزيرة إلى «صافيتا»، كما مرّ بنا، فاتصلتُ بالعميد «محمود شوكة»، قائد موقع «حمص»، وكان صديقي، فقال لي:

يجب أن تأتي ـ للمساهمة مع إخوانك في دراسة الأمور التي يجب اتخاذها وكان السياسيون السوريون قد بدأوا يتجمعون من سائر أنحاء سورية: فذهبتُ إلى «حمص» فوراً.

وحينما اكتمل تجمّع الشخصيات السورية.. جرتْ مناقشة واسعة حول الأسلوب الذي يجب أن يُتّبَع بعد انتهاء عهد الدكتاتورية. فاقترح «صبري العسلي» عودة المجلس النيابي الذي حلّه «الشيشكلي»، وعودة رئيس الجمهورية، الأتاسي، لممارسة مهامه الدستورية.. ويعقد مجلس النواب جلسة ينتخب فيها رئيسه وأعضاء مكتبه، ثم يقدّم «الدواليبي» استقالته لرئيس الجمهورية الذي يعهد بتشكيل الوزارة إلى من يُتّفق عليه.. وبعد أن تظفر الحكومة بثقة مجلس النواب.. يصدر قرار بحلّه، وتجري انتخابات جديدة، في جوٍّ ديمقراطيٍّ سمح. وتمّ الاتفاق على ذلك.

واتفق المجتمعون.. على أن يُشكّل وزارة الانتخابات «صبري العسلي»، رئيس «الحزب الوطني»، ويكون وزير الداخلية والدفاع من «حزب الشعب» ـ وهما: «علي بوظو»، و«معروف الدواليبي». واشترك في الوزارة أعضاء من الحزبيين، وبعض المستقلين. ورفض «البعثيون» الاشتراك فيها ـ لأنّ «الحوراني» طالب بوزارة الدّاخلية فلم تُعط له. ولكنّ حزب البعث تعهّد بعدم معارضة الوزارة.

وعاد «الرئيس هاشم الأتاسي» إلى قصر الرئاسة، في اليوم الأول من شهر آذار سنة ١٩٥٤ ـ لممارسة صلاحياته الدستورية. وقالت عنه إذاعة لندن، المشهورة بخبثها ولؤمها: لقد أخرجوا «الأتاسي» من بين «النفّتَلين».. وذهبوا

به إلى «قصر المهاجرين»!

* * *

عاد «المجلس النيابي» الذي حلّه «الشيشكلي» إلى الاجتماع في ١٥ آذار سنة ١٩٥٤ وكانت أولى القرارات التي اتّخذها.. اعتبار عهد «الشيشكلي» عهد اغتصاب السلطة.. وأنّ كل ما جرى فيه مخالف للدستور وملْغىً. وفرض القانون وجوب استعادة جميع الرواتب والمخصّصات التي تقاضاه الوزراء والنواب، في تلك الفترة.. وحُجزت أملاك الكثيرين منهم. أما الموظفون الذين عُيّنوا في مناصب عالية، أو رُقّوا إليها، فإن القانون لم يتعرّض لهم.. وإنما اقتصرت أحكامه على من له صفة سياسية فَحسب. ولكن شُنّت حملة عنيفة لتطهير الدوائر الحكومية من أعوان الدكتاتور.

ولم يتعرض القانون للشؤون المالية.. ولا للقوانين التي صدرت بها.. وكذلك الاتفاقات الدولية ـ لأنها أمور تتعلق بالدولة، ولا علاقة لأسلوب الحكم بها.

وحلّت الحكومة «حركة التحرير العربي» ـ وهو الحزب السياسي الذي شكله «الدكتاتور». وكان طُلب مني أن أضطلع بمنصب أمين السر، وكان يعادل منصب وزير، فقررتُ الرفض، وسافرت إلى أمريكا، كما ألمعنا.

وحُلّتْ «المحكمة العليا» التي أُنشئت في عهد «اغتصاب السلطة» ـ وكان من أبرز أعضائها القاضي «أنيس بشور»، رئيس احدى غرف محكمة التمييز، وهو من كبار القضاة ومشاهيرهم.

وعند بدء انعقاد المجلس النيابي.. تقدمتُ باقتراح يحوي احدى عشرة فقرة للتحقيق بالأعمال المنافية للقوانين والأعراف ـ في عهد اغتصاب السلطة. وكنتُ قد بدأتُ البحث عنها في مختلف الدوائر.. وساعدني أصدقائي الكُثر في الحصول عليها. وقد حظي ذلك الاقتراح باهتمام أعضاء المجلس، وأعضاء الوزارة.

ثم تقدمتُ باستجوابات حول الأموال التي اختلسها «الشيشكلي» وأعوانه. وقد أحال المجلس تلك الاستجوابات إلى اللجان المختصة لدراستها، واقتراح ما يجب عمله بشأنها.

أما الاقتراح.. الذي تقدّمتُ بشأن اعادة «القصر» الذي كانت الدولة قد بنته وقدّمته إلى «سلطان باشا الأطرش»، قائد الثورة السورية العام ـ تقديراً لجهاده، وتضحياته، وقد صادره «الشيشكلي» وجعله مكاتب لأعوانه، فقد اقترحت اعادته لـ «سلطان باشا». ووافق المجلس بالإجماع على ذلك الاقتراح. وأحاله إلى الوزارة لتنفيذه. ونُفِّذ فوراً.. وعاد القصر «للباشا ـ سلطان».

* * *

وقوي ضغط المعارضة لتشكيل حكومة حياديّة ليس فيها أحد الأحزاب السياسية. فقدّم «صبري العسلي» استقالته بعد أن أمضى في الحكم ثلاثة أشهر ونيّفاً. وكانت وزارته مزيجاً من اتجاهات سياسية متباينة. وقيل إن من أسباب استقالته.. صدور قانون يسمح لوزير الدفاع بتسريح ضباط الجيش.

وكانت قد بدأت تظهر، داخل الجيش، تكتلات ـ قوامها أنصار «الحوراني»، وبقايا أنصار العهد البائد ـ وفي مقدمة أولئك وهؤلاء: «مصطفى حمدون»، و«عبد الحميد السراج».

وكُلِّفَ «سعيد الغزّي» بتشكيل الوزارة.. وكان معروفاً بالنزاهة والاستقامة، وأنه ليست له أيّة صفة حزبية، أو تكتّلات فئوية. واشترك في وزارته «القاضي اسماعيل قولي»، و«نهاد القاسم» رئيس مكتب تفتيش الدولة. وعند التصويت على الثقة.. لم يحضر إلا ٦٨ نائباً، وتغيّب الباقون! وحُدِّد موعد الانتخابات النيابية في ٢٠ آب ١٩٥٤.

وعند تعديل قانون الانتخابات.. طلب «رشاد برمدا» السماح «للحزب الشيوعي» بترشيح بعض أعضائه ـ وكان «الشيشكلي»، وقبله «حسني الزعيم»، قد حالا دون ذلك. وقد أيّدتُ اقتراح «برمدا» كما أيَّده النائب «علي بوظو»، وتمت الموافقة. وبنتيجة الانتخابات التي جرت، بعدئذٍ، انتُخِب «خالد بكداش» أمين عام الحزب، نائباً عن دمشق.

* * *

بعد عودة الحياة الديمقراطية إلى البلاد.. ذهب وفد شعبي إلى مصر، اشتركت

فيه شخصيات سياسية ودينية زارت «شكري القوتلي» في الاسكندرية، حيث كان يقيم في منزل ابنته، وطلبوا منه العودة إلى سورية ـ بعد أن ذهب شبح الطغيان عنها.

ولكن بعض الطلاب.. قاموا بمظاهرات صاخبة.. يهتفون ضد «القوتلي»، والذين ذهبوا يطلبون منه العودة. وهذه حال الدنيا ـ معك أو عليك!

وكان بعض أعضاء «الحزب الوطني» يؤيد عودته، وبعضهم يعارضها. أمّا «الشعبيون» فكانوا ضمناً لا يرغبون بعودته.. ولكنهم لايتظاهرون بذلك. ولم تبدُ من ضباط الجيش أيّة حركة.. تدلّ على عدم رضاهم ـ وذلك لصلة «القوتلي» الوثيقة بالعهد الجديد في مصر، وكرهه التقليدي لنظام الحكم في العراق والأردن ـ وهو ما يتفق مع اتجاه أكثرية الضباط.

واستُقبل «القوتلي» حين عودته استقبالاً شعبياً كبيراً. دلّ على أن دمشق تتوق دائماً لأن تكون لها زعامة قوية في وجه الزعامات الأخرى. وأجرى «القوتلي»، بعد عودته، اجتماعات واسعة في بيته.. لتوحيد القوائم الانتخابية، منعاً للاصطدامات ـ كما كان يصرّح. وحضر تلك الاجتماعات جميع الفرقاء ـ ما عدا حزبي «البعث» و «الشيوعي».

* * *

كان، مع الأسف الشديد، قد حصل جفاء.. بيني وبين زميلي وصديقي «خليل أنيس بشور».. وهو ما آسف له، وأبداً لم أكن مسؤولاً عنه ـ وإنما هناك رجال سوء.. هم الذين عكّروا جوّ الصفاء والإخاء بيننا.. وأوجدوا بدسائسهم وتلفيقاتهم خلافاً حادّاً استشرى... حتى وصل إلى حدّ المقاطعة التامة بيننا!

و« خليل ».. كان من أطيب الناس، ومن أكثرهم سماحة كفٍّ ونفس. ولكن.. مثلما كانت طيبة قلبه مصدر قوته.. فقد كانت مصدر ضعفه ـ حيث استطاع دعاة التفرقة والسوء.. النّفاذ إلى قلبه بسهولة!

أولئك المغرضون.. استطاعوا التأثير على الزميل «خليل» وأوهموه بأن نجاحي، وعدمه، في يده هو.. ولولاه ليس لي أي مجال آخر! وأنه إذا لم يكن

معي.. فإنهُ من المحال أن أنجح! واقتنع هو بهذا.. وكان يجاهر به!

واتفق «خليل» مع «منير العباس»... وأعلن، في أماكن كثيرة، أنه يضع ثروته كلها في المعركة حتى لا ينجح «عبد اللطيف اليونس»!

وكان يُنقل إليّ هذا القول.. فأقول: سامحه الله. ولم يسمع أحدٌ مني كلمة سوء بحقه على الإطلاق ـ وإني أتحدّى من يدعي عكس ذلك.

وحاول «العقيد حسن الخيّر» وهو صديق خيّر ونبيل، أن يوفِّق بيننا، «منير العباس» وأنا، ولكنه لم يفلح ـ لأن «منيراً» كان يحسب أنّ ثراء «خليل بشور» سوف يضمن الفوز لهم، وازاحتي من الطريق! وكان «منير العباس» يقول عن خليل إنه «بذَّال» أي كثير البذل والعطاء ـ وهذا في عرفه يضمن لهم النجاح والفوز.

ومن البداهة.. أن «خليلاً» كان يرفض الاتفاق معي ـ لأنه كان يريد إظهار قوته وضعفي.. وأني لولاه ما نجحتُ سابقاً، ولن أنجح لاحقاً!

و«منير العباس».. له زعامته، ومركزه ووزنه. وقد انتُخِب نائباً، قبل ذلك، عدة مرّات.. كما عُيّن وزيراً، في عهد «الشيخ تاج»، واستمرّ ما يقرب من ثلاث سنوات. وله قاعدة شعبية في صافيتا، وسائر مدن المحافظة، وخارجها. وكان يُقال عنه إنه يحيط زعامته بأبّهة وزهو ـ شأن بقية الزعماء.. في ذلك الحين.

وحينما عرفتُه بعد ذلك، واتفقت وإيّاه.. وجدته غير ما كنتُ أعرفه عنه، وأسمعه. فقد وجدتُه مهذّباً، ذا خُلق ودين. ولقد أكبرتُ فيه تلك الشمائل، وأحببته. وتعاونّا معاً بصدق واخلاص ـ وكأنّ شيئاً لم يحصل بيننا قبل ذلك.

خطأ «منير» أنه لم يفتح باب بيته لسائر الناس ـ مثلما فعلت.. وأنّ خدماته كانت مقتصرة على فئات معينة.. لا تتعدّاها.

أما أنا ـ وأعوذ بالله من كلمة أنا.. فقد كان بيتي مفتوحاً للجميع، ومثله قلبي، والناس يأتونني من كل حدب وصوب، وفي ساعة مبكِّرة، إلى ساعة متأخرة... ويجدونني دائماً مستعدّاً لاستقبالهم، والترحيب بهم، وقضاء حوائجهم.

ولم يُعْرَف عني.. أني أحجمت عن خدمة أيّ امرىء قصدني، وطلب

مساعدتي ـ ومعاذ العلي أن أفعل. وهذا شيء لم يكن يعرفه الناس بأحد من الزعماء قبلي.. ولم يألفوه بأي شخص بارز ذي نفوذ. فقد كان المواطنون.. يقصدون المرجع الذي اعتادوا أن يراجعوه وحده ـ وليس ثمة آخر سواه!

واني بهذا القول.. لا أتجنّى على أحد، ولا أحاول اتهام أحد، أو النيل من أحد.. وإنما أسرد حقيقةً وواقعاً يعرفهما الجميع، ويعترفون بهما.

وحتماً... كان لأسرتي قاعدة شعبية أفدتُ كثيراً منها ـ وهذا أمرٌ لا يخلو من اعتباره أيّ كان، في أيّ زمان ومكان.

ولكن... لم تكن قاعدة أسرتي هي منطلقي ومعتمدي.. وإنما القاعدة الأساسية التي كنتُ أعتمد عليها، وأستند إليها، وأدّخرها للملمّات.. هي ثقة الناس بي.. واعتقادهم بأنهم في أيّ وقت يحتاجونني يجدونني. فقد كنتُ بنعمة الله وفضله، مرجعاً يقصدني الناس لقضاء حاجاتهم، وفضّ النزاعات فيما بينهم ـ وكثيراً ما كان ذلك مستشرياً في القرى، ومتفاقماً ومخيفاً!

ولكن.. لا قاعدة «آل العباس» الضخمة، ولا مكانة أسرتي المرموقة.. كان كافياً، أي منهما، للنجاح بالانتخابات، والفوز بها. وإنما هناك فئات أخرى.. لها قواعد شعبية ـ وإن تكن أضأل حجماً، وأقلّ أثراً وتأثيراً.

هناك كثيرون.. لا تربطهم بأحد المرشحين إلا رابطة المصلحة.. وهؤلاء لا يمكن اطراح التفكير بهم ـ لأنّ لهم أثرهم بين الفئات المتنازعة المتصارعة.. وهم، إلى حدٍ بعيد، يتأثّرون بمن يُعْنَى بمصالحهم وقضاياهم، ويهتمّ بها وبهم.

وهناك فئة ـ وإن كانت قليلة العدد، ومحدودة التأثير، ومتناثرة الخُطَى.. إلا أنها ذات أهمية لا يمكن إغفالها وإهمالها ـ لأن الواحد منها يتّجِه حسب ما يوحي إليه ضميره وتستوجبه قناعته بأن هذا المرشح هو أفضل للبلد، وأصلح للمصلحة العامة. وهؤلاء لا يتخذون من الماضي عبرةً للاتجاه إلى المستقبل ـ وهم مثقفون وحياديّون.

وفي يقيني.. أن الواحد من هؤلاء يعادل مجموعةً من الذين يتجهون اتجاهاً عشائرياً، أو طائفياً، أو عائلياً، أو اقليمياً.. فهم وحدهم عصب الشعب وعماده ـ

أو هذا ما يجب أن يكون. وكثيراً ما كنت أهتمّ بهم، وأستمع إليهم.

وهناك فئة انتهازية.. تتّجه دائماً نحو الشخص الأقوى الذي يُضمن نجاحه! وهؤلاء يتأثرون، إلى حد بعيد، بالدعايات.. وبعضهم يغيِّر رأيه وهو في طريقه للاقتراع! وهم لا يحكمون على الشخص من حيث كفاءته، وطاقته، والأمل المرجوّ منه.. وإنما من حيث امكانية نجاحه، أو عدمها! وهم دائماً يميلون نحو الأكثر نفوذاً وقوة! والنفاذ إلى هؤلاء ليس بالأمر السَّهل... فالسَّبيل إليهم ليس مستقيماً، ولا شريفاً.. ولهم سماسرة معينون، ووسطاء خاصون، وأساليب تتفق ونفوسهم الجشعة المريضة!

وأعترف بأني كنتُ، دائماً بعيداً عن هذه الفئات.. وأكره التعامل معها. ولكنّ بعض أنصاري.. كان يعرف كيف يسلك السَّبيل إليها، ويؤثّر في بعضها. وللحملات الانتخابية دائماً وسائلها الخاصة.. وأساليبها وطرقها ومؤثراتها!

* * *

أذكر أني في احدى جولاتي على الناخبين... قال لي أحد المواطنين:

أنت يا أستاذ.. تحتاجنا كل عدّة سنوات مرّة. وأمّا نحن.. فقد نحتاجك كلّ يوم - فكيف لا نكون معك، ومع الذي تأخذه بلانحتك؟

ومرةً جائني أحد الأشخاص من قرية «بقعو» - أذكر جيداً اسم القرية.. ولكني، مع الأسف لا أذكر اسم الشخص - وقال لي بصراحة ابن الريف وطيبته وبساطته:

أنت لك مواقف كريمة منّا.. فقد قصدناك مرات عديدة، ولّبيت حوائجنا، وقضيتَ مصالحنا.. وأوجدتَ لنا «شعبة بريد» في القرية، وبعد أيام قليلة تجري الانتخابات، ونحن محرجون جداً.. فمعنا بعض قطع أراض، لبعض الملاكين في القرية، ونحن بأمس الحاجة إليها.. وقد هددنا أصحابها بأنهم سيأخذونها منا - إذا لم نصوّت معهم، إلى جانب المرشح الذي يدعمونه، وهم من الفئة الموالية له.. ونحن الآن في موقف حرج.. فنحن لا ننسى أياديك، ولكننا لا نستطيع التخلي عن قطع الأرض التي في أيدينا.. فماذا نعمل؟

فشكرته لصراحته وطيبته، وقلت له:

تصوّت معهم بمنتهى قناعتي ورضاي لأن رسالتي في الحياة.. هي نفع الناس ـ لا ضررهم، وأن أفيدهم ولا أكون سبباً في أذاهم، وأهلاً بك، وبكل أفراد أسرتك، حينما تكونون بحاجة إليّ... فبيتي وقلبي سيظلان دائماً مفتوحين لكم، ولكل أبناء الشعب. فخرج ذلك الرجل الطيب من عندي.. وهو يبكي.

وبلغني أن «منير العباس» سمع بالقصة.. فتأثر كثيراً وقال: الآن عرفت.. لماذا تغلّب «عبد اللطيف» علينا. وقيل لي.. أنه أوعز لأنصاره أن يسمحوا للرجل كي يقسم الأصوات بيني وبينه.

ومرّةً في احدى المعارك الانتخابية، طلب مني صديقي «رياض عبد الرزاق» أن نذهب معاً لزيارة «الشيخ محمد سليمان»، في قرية «بحنَين»، التابعة لطرطوس وكنتُ طلبتُ منه، كما أسلفنا، أن يتلطّف ويزور «محمد الجواد»، و«مصطفى الجواد» ـ الوجيهين المرموقين في قرى «التركمان»، بمنطقة صافيتا، وهما من كرام الناس وفضائلهم.. ويدعوهما لنصرتي، فلبّى، واستجابا. وكان من البداهة أن ألبّي طلبه، وكنّا نتعاون معاً في خدمة المنطقة ومنافعها. وذهبنا إلى «بحنّين» مع مجموعة ضخمة من الناس والسيارات.

و«الشيخ محمد سليمان».. مرجعٌ دينيٌّ مرموق. ومن أهل التُّقى والفضيلة والصّلاح. وكانت داره محطة الزائرين، ومقصد القاصدين. ولم يسبق لي أن زرتها قبل ذلك الوقت. ولكني التقيتُ «الشيخ محمد سليمان» أكثر من مرة في دار المجاهد الكبير «الشيخ صالح العلي»، بقرية «الرِّسْتَن» في منطقة «الثورة».

واستقبلنا نجله الأديب المثقف الأستاذ سلمان، وهو قَبَس مُشِعٌ من طهر والده، وطيبته وتقاه. وجلسنا أمام الدار على «مصطبة» واسعة. وخرج من البيت الشيخ الجليل يطفح من وجهه صفاء الايمان ونقاؤه. ورحّب بنا. ولما علم أن الغاية من الزيارة هي دعم «رياض عبد الرزاق» في الانتخابات، والتصويت إلى جانبه.. طلب أن يُنادَى في القرية ليجتمع أبناؤها عنده. وغصّ الفناء الواسع أمام تلك الدار بالأهلين. ووقف الشيخ الوقور، وخاطبهم بقوله:

هل صدف، قبل الآن أن تدخلتُ بأيّة انتخابات؟ فصاح الجميع لا. فمسك لحيته

الطاهرة بيده، وقال:

أما الآن.. وقد جاء «عبد اللطيف اليونس» إلى بيتي.. ولم يحتجنا مرة واحدة ـ إلا هذه المرة.. ونحن دائماً بحاجة إليه، ونكلّفه بمصالحنا وقضايانا.. فكل من يكرّم هذه «اللِّحية».. ينتخب الجهة التي يريدها «عبد اللطيف».. وأطلب منكم أن تنقلوا رغبتي هذه إلى أبناء المحيط كله.

وانهمرت الدموع من عينيّ ـ وأنا أتساءل بيني وبين نفسي: يا ربي.. أحقاً أستأهل هذا كله.. من هذا الشيخ الوقور الوَرِع؟ وخرجتُ من تلك الدار.. والدموع تملأ عينيّ وقلبي. وقد أثّر بي ذلك الموقف إلى أبعد حدٍّ يتصوره عقل. ويذكر أصدقائي جميعاً.. أني ما ذكرتُ أمام أحد منهم هذه الحادثة.. إلا وبكيت ـ كما أبكي الآن وأنا أدوّنها.

* * *

وفي انتخابات سنة ١٩٥٤ حُدِّد مقعدان للمسلمين، وواحد للمسيحيين في «صافيتا» ـ كما كان الحال قبل الانقلابات العسكرية المعروفة.

وزرتُ «قحطان الهواش».. الذي تربطني به، وبأخيه الأكبر «جهاد»، صداقة قوية، وإلفة متينة العرى ـ كما سبق وأسلفت ـ رغم اختلاف وجهات النظر فيما بيننا بعض الأحيان. ولهما، وهما نجلا الزعيم المعروف «عزيز الهواش»، قاعدة شعبية لها أثرها وتأثيرها. وعرضتُ على «قحطان» أن نشترك معاً في لائحة واحدة.

وكان «قحطان» طريح الفراش حينئذٍ... وقد فرض عليه الأطباء البقاء هكذا.. بضعة أسابيع، وكنت أزوره باستمرار. فشكا لي وضعه الصحي، واعتذر وأعرب عن تأييده لي، وأكد أنه سيوعز إلى أنصاره بأن يقفوا إلى جانبي ـ لكنه اشترط عليّ.. أن لا آخذ في لائحتي، أحداً من أشخاص أشار إليهم.. واقترح عليّ أن أتفق مع «محمد أمين رسلان». وكان قصده من ذلك.. حتى لا أتفق مع أحد من مناوئيه!

وفي الانتخابات ـ التي نحن بصددها... نجح أخوه «جهاد» في مصياف ـ لكنه

استقال بعد سنتين، كما أسلفنا، ليعيّن سفيراً في «تركيا»، ثم في «البرازيل».
وانتُخب «قحطان» مكان أخيه في تلك المنطقة - حيث ثمّة قاعدة شعبية ضخمة لهما فيها.

وأما «محمد أمين رسلان».. فقد كان والده حليفاً دائماً لـ «آل العباس»، منذ عهد بعيد.. وسار هو على منهج والده، واتّبع طريقته وخطته. ولكن.. كان في نفسه شيء من الموجدة على حلفاء أبيه ـ وقد مرّ بعضه معنا، والبعض الآخر لا مجال لذكره هنا. وقد التقينا به في منزل أحد الأصدقاء، وعرضنا عليه أن نشترك معاً في لائحة واحدة، فطلب مهلة.. حتى يستطلع رأي أنصاره. وبعد أن طاف عليهم، والتَقَاهم، وحصل على موافقتهم، أعلن انضمامه إلينا.

وذهب «آل العباس» إلى «قحطان الهواش»... واستعانوا بحليفهم الجديد «خليل أنيس بشور»، وكان صديقه أيضاً، واستعملوا كل وسائل الاقناع والإغراء... حتى أقنعوه بأن ينضمّ إلى لائحتهم، ويكون المرشّح الثاني فيها.. وبذلك ضمنوا طاقته الشعبية إلى جانب طاقتهم.

و بقي المرشّح المسيحي.. وقرّرتُ أن يكون «رفيق جبرائيل بشور»، وكان سنئذاك رئيس محكمة الاستئناف في «حمص». وله في المجتمع، وفي عالم القضاء، اسم بارز وسمعة شريفة.. ثم توجد بين أسرتينا آصرة قوية، ووِدّ قديم ـ منذ عهد قديم. وأصبحت الجبهتان ـ أو شكلت اللائحتان هكذا:

١ ـ منير العباس، قحطان الهواش، خليل أنيس بشور.

٢ ـ عبد اللطيف اليونس، محمد أمين رسلان، رفيق جبرائيل بشور.

ولكنّا فوجئنا بعد فترة وجيزة، بتعيين «رفيق بشور» محافظاً «لدير الزور»، وقد اضطر لأن يرسل وكالة رسمية لأحد أشقائه حتى يتقدم بإعلان ترشيحه للسلطات الرسمية ـ حسب الأصول المتّبعة. وكان المحافظون، آنذاك يتولون رئاسة البلديات في مدن المحافظات.

وفي قانون الانتخاب نصٌ يمنع رئيس البلدية من ترشيح نفسه لمقعد نيابي ـ إلا إذا استقال من رئاسة البلدية قبل ستّة أشهر.. حتى لا تُتاح له فرصة استغلال

سلطته في البلدية لمصلحته الانتخابية ـ وهذا شيء عادل ومعقول. ولكنّ الغاية من ذلك. أن لا يُرشّح نفسه في البلدية التي هو رئيسها ـ حتى لا يستمر نفوذه فيها.

ولكنّ «رفيق بشور».. هو رئيس بلدية في غير المنطقة التي ترشّح بها. ومع ذلك.. فقد أصرّ مدير منطقة صافيتا على عدم قبول ترشيحه ـ متمسكاً بالنّص.. ومعرضاً عن روح القانون التي هي أسمى غايةً، وأبعد مدىً من النصّ.

وقبل طلوع الفجر.. كنّا في طريقنا إلى دمشق ـ «رفيق عزيز بشور»، القاضي الكبير المعروف، وأنا. وكان ذلك اليوم الأخير لتقديم الترشيح. وكان علينا أن نعود إلى «صافيتا»، قبل انتهاء الدوام الرّسمي.. ومعنا موافقة وزير الداخلية على قبول ترشيح «رفيق جبرائيل بشور» ـ عن منطقة «صافيتا». وقد أشرقت شمس الصباح علينا.. ونحن بين حمص والنّبك. فأخرجتُ الاستدعاء الذي كنتُ أعددتُه لتقديمه إلى وزير الداخلية، وأطلعتُ «القاضي رفيق» عليه.. فوافق على ما جاء فيه ـ دون أن يضيف إليه كلمة واحدة.

وقبل الساعة الثامنة.. كنّا في بيت «اسماعيل قولي»، «وزير الداخلية»... وكان صديقي، ولي عليه دالّة، ولولا ذلك لما طرقنا بابه في ذلك الوقت المبكّر. ووافق على وجهة نظرنا.. وكتب على الاستدعاء حاشية مطوّلة.. تُلزِم مدير المنطقة بقبول ترشيح «رفيق جبرائيل بشور» ـ لأنه، كما جاء في حاشيته، يرشّح نفسه في غير المنطقة التي هو رئيس بلديتها.. فالنص القانوني لا ينطبق عليه.

وعدنا إلى «صافيتا» فوراً ـ لنصلها قبل انتهاء الدوام الرسمي. ولكنّنا، في الطريق، سمعنا في الإذاعة نبأ يعلن بأن الانتخابات التي كان حُدِّد موعدها في ٢٠ آب.. قد تأجلت إلى ٢٧ أيلول بالسنة نفسها ١٩٥٤.

وكان سبب التّجيل.. هو القرار الذي اتّخذه «حزب الشعب» بمقاطعة الانتخابات ـ وذلك في المؤتمر الذي عقده بمدينة «بعلبك» بلبنان. ولكن بعد أن أصدرت الوزارة قراراً بالتّأجيل ـ عاد «الشعبيون» عن قرارهم. وقيل إن خشيتهم من أن تخلو الساحة للأحزاب اليسارية، فتحصل على الأكثرية.. كان هو سبب

عودتهم عن قرار المقاطعة.

وقبل الموعد الجديد، لتقديم طلبات الترشيح.. كان مدير المنطقة، صديق المرشّح «خليل بشور»، قد نُقل من «صافيتا».. وعُين مكانه «صدر الدين الأتاسي» ليشرف على الانتخابات بروح حيادية. وفعلاً كان مثال الاداري الحازم والمستقيم.

* * *

واحتدمت المعركة الانتخابية بعنف وضراوة كما لم تشهد البلاد مثيلاً له، في أي مكان، أو أي عهد! وليس في هذا القول شيء من المبالغة ـ لأنّ شخصية «منير العباس» لم يكن يستهان بها.

و«خليل بشور».. ثريّ وسخيّ. وقيل إنه أنفق أكثر من نصف مليون ليرة سورية ـ ولا غاية له إلا «اسقاط عبد اللطيف اليونس».. وكان يصرح بهذا! سامحه الله، ورحمه الله.

وقال أحد وكلاء الجبهة المنافسة أمام ناس: لو نزل «الرّب» من السّماء.. لما استطاع اسقاط جبهتنا ـ لأني من مكتبي، وكان محامياً، وزّعت وحدي أكثر من ٣٠٠ ألف ليرة!

ولما نُقل إليّ هذا القول.. قلتُ: ما داموا قد ذكروا «الرب».. فإن الموضوع قد خرج من أيدينا وأيديهم، وإرادتنا وإرادتهم.. وليفعل «الرّب» ما يشاء.

أمّا جبهتنا.. فلم تنفق أكثر من ٢٤ ألف ليرة سورية لعشرات السيارات.. التي بقيت تحت تصرفنا، وتصرُّف وكلائنا وأنصارنا، أيّاماً طويلة ـ إلى جانب بعض النفقات التي لا بُدَّ منها. وكان بعض الأصدقاء والمناصرين قد تبرّعوا لنا بسيارات طوال فترة الانتخابات.

وكنّا قد أعفينا زميلنا «محمد أمين رسلان» من مصروف الانتخاب ـ نظراً للظرف المادي القاسي الذي كان يمر به ـ حسب قوله.

وأذكر.. أن بعض وجهاء القرى، المعروفة بتأييدها العلني لي، قد أخبروني بأن وكلاء المرشحين المناوئين.. يعرضون عليهم مبالغ طائلة لكي ينسلخوا عني،

ويصوّتوا لهم! وسألوني إذا كنتُ أوافق على أن يأخذوا منهم المال المعروض ويجلبوه لي ـ حيث أغطي نفقات الانتخاب منه، وأحتفظ بالباقي!

فرفضتُ ذلك.. رفضاً باتاً، وقلتُ لهم: منذ مسيرتي.. سرتُ على مبدأ الاستقامة والشّرف ـ ولن أحيد عن هذه الطريق ما حييت. فأعرضوا عنهم، ولا تأبهوا بهم. وليثق القارىء الكريم: بأنّ هذا ما جرى.

ورغم عنف الانتخابات، وضراوتها وشدّتها، فقد جرت في جوٍّ هادىء.. ولم يقع أيّ حادث عكّر صفو الأمن ـ ذلك.. لأنّ الرأي العام، في مدينة «صافيتا» ومنطقتها، واعٍ.. ومشهور بالاتّزان وحسن التقدير، وتلافي الأمور المخلّة بالأمن.

وكان المجاهد الكبير «الشيخ صالح العلي» قد أوعز إلى مؤيّديه ومناصريه بوجوب تأييدنا ومناصرتنا. وقد أرسل بعض أتباعه إلى صناديق الاقتراع في «صافيتا» و«الدريكيش» لهذه الغاية. قدّس الله روحه الطاهرة، ونضّر ذكره وذكراه.

وقد تضامن معي أبناء قريتنا تضامناً متيناً.. ووقفوا إلى جانبي بكل حماس واندفاع وتحدٍّ.. وأنا أسجل لهم، ذلك الموقف، بكل تقدير وامتنان.

وفازت جبهتنا فوزاً ساحقاً.. ممّا كان له صدىً بعيد في أنحاء القطر السوري كله، وحتى في لبنان. وظلّ أنصارنا يقيمون المهرجانات والاحتفالات، في أكثر القرى، عدّة أيام. وأعترف.. بأن ذلك كان ضدّ رغبتيْ ـ لأني أكْرَه الضّجيج، وأحبُّ الهدوء والسكون. ولكن.. كان من المحال إخماد لهيب الفرح.. المتأجج في صدور المؤيّدين لنا... وهم منتشرون في سائر أنحاء المنطقة، وفي مناطق أخرى.

وكان أنصار اللائحة المنافسة لنا.. يقيمون الأفراح والزينات، قبل أن تظهر نتيجة الانتخابات ـ لاعتقادهم أنها ستكون لصالحهم حتماً.. وبعد أن ظهرت النتيجة، وكانت حوالي الساعة ٤ صباحاً.. عاد وكلاء منافسينا إلى قراهم.. حيث المئات من أنصارهم يتجمعون في كثير من الأمكنة، ويعقدون حلقات رقص واسعة على أنغام الطبول والزمور ـ لاعتقادهم، كما أسلفنا، أن لائحتهم هي الناجحة..

وأنَّ المنافسين، سيفشلون، ويُمْنون بهزيمة قاسية.

ولكنَّ الوكلاء، حين وصولهم إلى قراهم، كانوا يصرخون بالرّاقصين والهازجين، ويُسكتونهم، ويقولون لهم: أنتم تحتفلون بنجاح «عبد اللطيف اليونس».

وكان ذلك ـ بالنسبة لهم جميعاً: مأساة!

وزميلنا «رفيق بشور».. كان في مدينة «دير الزور»، على بعد ستمائة كيلو متر من «صافيتا»، وقد سمع نبأ نجاحه من الإذاعة.. فاستقال من وظيفته فوراً، وعاد إلى «دمشق» ليضطلع بأعباء مهمته التشريعية.

وكانت الانتخابات في صافيتا قد انتهت باليوم الثاني. وأمّا في بعض المناطق ـ ومنها «دمشق» و«جبلة».. فإنه لم يقترع ٥١ بالمائة من المسجلين في لوائح الانتخابات، فأرجىء الانتخاب أسبوعاً، كما ينصّ القانون، ثم أعيد من جديد ـ حيث ينجح من يحصل على أكثرية الأصوات.

وكنت مضطرّاً للذهاب إلى «دمشق» لمراجعة رئيس الوزارة ـ في أمر يتعلق بإعادة الانتخاب في منطقة «جبلة»، وكان الشاعر الكبير «بدوي الجبل» قد رشّح نفسه فيها، وسيعاد الانتخاب ـ لأن الواحد وخمسين بالمائة المفروضة، لم تتوفر في الاقتراع باليوم الأول.

وكانت صلتي بـ «سعيد الغزي»، رئيس الوزارة وثيقة. ووجدته مضطرباً، وفي قسمات وجهه بوادر يأس وأسى. وقال لي: بما أني لم أنجح في الجولة الأولى، وقد تنكرت لي دمشق، فإني عزمت على سحب ترشيحي.

وقلت له: إن أبناء دمشق سيعودون إلى ضمائرهم، ويحاسبون أنفسهم.. ولا شكّ أنهم سيدركون خطأهم، وسترى. ولكن.. لنفترض، لا سمح الله، أن ما حصل في الجولة الأولى.. سيحصل في الثانية، وأنك لن تنجح.. فإن ذلك سيصبح شهادةً لك ـ لا عليك.. وحينئذٍ سيذكرك التاريخ بكل إكبار وتقدير.. ويسجل لك أنك أدرت الانتخابات في جو من الحرية والديمقراطية لا مثيل له، إذ أنك لم تتدخّلْ حتى من أجل نفسك. ويكفيك شرفاً وفخراً هذا.

فافترّ ثغره عن ابتسامة رضى وغبطة، وقال لـي: صدقت، ولقد هوّنت علـيَّ، جزاك الله خيراً.

وفـي الجولـة الثانيـة.. نجـح «سـعيد الغزي» فـي «دمشـق»، وغريّد العروبـة «بدوي الجبل» في «جبلة».

وكان عدد النواب ١٤٢ نائبـاً، موزّعيـن بيـن الأحـزاب والكتـل النيابيـة هكـذا: «الكتلـة الدسـتورية» ٣٧، «حـزب الشـعب» ٣٦، «حـزب البعـث» وأنصـاره ١٧، «رجال الدين» ٥، «السوريون القوميـون» ٢، «الحـزب الشـيوعي» ١، والبـاقون مستقلون.

* * *

ورغم حرية الانتخابات وسريتها.. وحرص المسؤولين، كافـة، علـى أن تتوفّـر وسـائل الحريـة للمواطنيـن جميعـاً. ورغـم المراقبـة الدقيقـة، مـن المرشـحين ووكلائهم، في سـائر مراكز الاقتراع ـ رغم ذلـك كلـه.. فقد تفنّـن محـامو الفئـة الفاشلة، فـي «صافيتـا»، بـاختلاق مزاعم وأبـاطيل، لا أسـاس لهـا مـن الصحـة.. وتقدّموا بطعن، إلى «المحكمة العليا»!

وأرسلت لنا المحكمة صورة عن «الطّعن» المُقَدّم.. وعلينـا أن نجيـب عليـه خلال أيام محـدّدة ـ وكـان ذلـك يوم خميس. ونـهـار الجمعـة.. طلبـت مـن إدارة الفندق أن تعتذر لـي مـن جميـع الزائريـن والمراجعيـن، وأن تمنـع عنـيَ الهـاتف. وأغلقتُ عليَّ بـاب غرفتـي، وشـرعتُ بكتابـة الـردّ علـى الطعن ـ وأمـامي قـانون الانتخاب، وبعض المراجع التي أستند إليها. وفي مساء ذلك اليوم.. أتممـتُ كتابـة الرّدّ. وصباح السبت أخذتُه إلى المحامي الكبير «هـاني البيطـار»، وهـو صديقـي، ومن أقدر المحامين العرب، وطلبتُ منه أن يدرس لائحـة «الطعـن» المقدّمـة مـن المرشحين الفاشلين، وردّي عليها، ويُبدي رأيه. وصباح الأحد أعادهما إليّ.. ولـم يُضف إلى ردّي الذي كان مؤلفاً من ٤٠ صفحة إلا سطراً واحداً فـي آخـره. وقد وافق مُوَافقةً تامة على ما جاء فيه كله.

والقـاضـي الـذي كلّفتـه «المحـكمـة العليـا» بالـتحقيـق فـي صحـة انتخابـات

«صافيتا».. هو من دمشق، وكنيته «المالح» ـ ولم أعد أذكر اسمه الأول. وكان هادئاً متّزناً رصيناً، ودقيقاً في عمله وتحرياته ـ إلى أقصى درجات الدّقة والتحريّ. وقد تنقّل بين القرى، واتّصلبكثير من الأهلين ـ زاعماً أنه «سائح». وكان يسأل كل من يراه في طريقه عن الانتخابات، وكيف جرت. ويقول في تقريره.. إنه لم يسمع شخصاً واحداً يطعن بصحة الانتخابات وحريتها. وبحث عن الاتهامات.. وأجرى تحقيقاً واسعاً بها فثبت له أنها مختلقة، وأنه لا صحّة لها مطلقاً. ورفع تقريره، بما سمع ورأى إلى «المحكمة العليا» التي صدّقت على عملية الانتخاب وصحتها.. ورفضت «الطعن» المقدم بشأنها.

وكانت «المحكمة العليا» قد أبطلت الانتخاب في بعض مناطق «حلب» و«اللاذقية»، وقضت بإعادتها. ومن المناطق التي أبطلت الانتخابات فيها منطقة «طرطوس» ـ ولم تكن قد أصبحت محافظة بعد.

وفي المرّة الأولى.. فازت لائحة «أنيس اسماعيل» بطرطوس.. وحينما أعيد الانتخاب من جديد.. فازت لائحة «رياض عبد الرزاق»، ومعه «الدكتور محي الدين المرهج» الذي انتُخب نائباً لأول مرّة.

* * *

والشعب السوري واعٍ.. يعرف كيف يختار مرشَحيه، وينتقيهم. ولا شك في أن المصلحة الخاصة، والتأثر العاطفي، يلعبان، دوراً هاماً بكل انتخاب ـ كما هي الحال في سائر أقطار الدنيا.. وليست الكفاية والأهلية هما وحدهما اللتان تفرضان وتفوزان. ولكن التأثّر بالمصلحة العامة، والنظر إليهما من زاوية وطنية بحتة.. هي أيضاً ذات أثر كبير في قناعة الناخب وتصميمه وإقدامه.

ومن البداهة.. أن أشخاصاً ليسوا في مستوى الأمانة والرسالة.. يمكن أن يُنتَخبوا فيخيِّبون الأمل، ويضيِّعون الثّقة التي مَنحوها، والتأييد الذي أعطُوه.

ولا شك أن سمعة المرشح، وسيرته، وتَتَبُّع أخباره.. ذلك كله له أثر كبير في تأثّر الناخبين، وقناعتهم، وإعطاء أصواتهم. وربما كانت ثمّة حادثة واحدة.. ذات فاعليةٍ أقوى من أي تأثير آخر. من ذلك.. ما حدث، في دمشق، لقاضٍ اسمه

«محمد آقبيق» قُدِّم له، إبَّان الحرب العالمية الثانية، موظف موقوف بتهمة سرقة عشرة كيلوات سكَر، فكان قرار الحكم هكذا:

بما أن السرقات الكبيرة تختفي.. ولا تظهر إلا السرقات الصغيرة ـ لذلك.. برّأتك المحكمة.

وسرى نبأ هذا الحكم في دمشق بسرعة البرق.. واستثار إعجاب الناس وتقديرهم. وفي أول انتخابات تشريعية سنة ١٩٤٣ رشَّح نفسه ذلك القاضي النزيه الجريء.. وحصل على أكبر نسبة من الأصوات، وأصبح نائب «دمشق»، وأحد شخصيَّاتها الأولى المرموقة.

ولا شكَّ.. أنَّ بعض أبناء الريف يتأثرون باعتبارات: طائفية، وإقليمية، وعشائرية، وعائلية.. وهؤلاء لا يمثِّلون الشعب السوري ـ المشهور بوعيه وادراكه، وحسن تقديره الأمور.. وإنما يمثِّلون أنفسهم وأنانياتهم، ومرضهم الروحي. أما الفئات الواعية.. فإنها تتأثَّر بالاعتبارات القومية.. أكثر من تأثرها بأي اعتبار آخر.

* * *

عندما عقَد مجلس النواب أولى جلساته.. بُدِئ بانتخاب «مكتب المجلس» ـ كما ينص النظام الداخلي. وانتُخب «الدكتور ناظم القدسي» رئيساً، و«رفيق بشور» نائباً للرئيس، وانتُخِبتُ أنا «أميناً للسر». وفي السنوات التاليات كان يُجدَّد انتخابنا معاً كل عام. كما انتُخِبتُ رئيساً لـ «لجنة الشكاوى والعرائض»، وعضواً في «لجنة الشؤون السياسية»، ولجان أخرى.

وكنتُ أشترك في عضوية بعض اللجان التي كان يوفدها المجلس النيابي، للتحقيق في الشكاوى الهامة التي يتقدَّم بها مواطنون ـ منها: التحقيق في تصرفات «آل المرشد»، ولجنة التحقيق في كيفيَّة التصرُّف بأملاك الدولة في محافظة الحسكة.. والقضايا المثيرة التي يثيرها بعض النواب.. والمتعلِّقة بتصرفات الحكومة المنافية لروح الدستور ونصوصه ـ وما أشبه من الأمور التي تدخل في صميم صلاحيات المجلس ـ بالإشراف على السلطة التنفيذية ومراقبتها.

كما اشتركتُ بوفود رسمية عديدة.. زارت بلداناً عربية وأجنبية، كما سيجيء.

وقد تقدَّمتُ في حياتي النيابية باقتراحات كثيرة بنّاءة.. وعالجتُ مواضيع بالغة الدقة والأهمية. ويعرف كل من عاش تلك الفترة.. أن صوتي لم يكن خافتاً في المجلس النيابي ـ وإنما كان في الطليعة جلجلةً ودوياً. ولم أكن أراعي المسؤولين ـ فيما أعتقد أنه واجب وحق ـ رغم الصداقة التي كانت تربطني ببعضهم.. والصلات الودية بأكثرهم. وأبداً.. لم أكن أهادن وأجامل فيما أراه واجباً يدفعني إليه الواجب، وحقيقةً أؤمن بها، وقد كرستُ حياتي لها.

وكانت تأتيني الشكاوى والعرائض من كل حدب وصوب.. فأهتمّ بها، وأسعى بكل طاقاتي لدفع ظلامة، وإنصاف مظلوم ـ دون أن أعرف أحداً منهم، أو تربطني به أيّة صلة.

واصطدمتُ أولاً بالروتين المتّبع ـ وهو الأسلوب الذي يُسَار عليه، وخلاصته.. أن الشكوى التي ترد من أحد المواطنين، بحقّ أحد الموظفين، أو احدى الدوائر الرسمية.. كانت تحال إلى الجهات المسؤولة لاجراء التحقيق بها، وانصاف الشاكي.. ورفع الظلامة عنه. وكانت الدائرة المسؤولة تحيل الشكوى إلى الجهة المشكوّ منها.. فتُجيب هذه بما يتفق ومصلحتها، ودفع التهمة عنها! ويردنا الجواب: إنه ثبت بعد التّحقيق أنّ الادعاء باطل، وغير صحيح! وتُرسِل اللجنة هذا الجواب إلى المدعي.. فيخيب أمله، ويُهدر حقه! وبهذا يصبح الشّاكي متّهَماً، والمُتّهَم بريئاً!!

وأثرتُ القضية في المجلس النيابي. وأقرّ الزملاء وجهة نظري ـ بأنه يجب اتخاذ وسائل فعّالة لإنصاف الشاكين، ورفع الظلامة عنهم.

واتّصلت بـ «نهاد القاسم» ـ رئيس مكتب تفتيش الدولة ـ واتفقتُ معه.. على إحالة القضايا ذات الأهمية إليه.. للتحقيق بها، وإبلاغنا النتيجة.. فنتّخذ نحن الوسائل اللازمة لاحقاق الحق، وإنصاف المظلومين.

وقبل اتخاذ أيّ اجراء بشأن ذلك.. كنتُ أتصل بالمرجع المختص، لانهاء الموضوع بالحُسنَى ـ وإلاّ.. فسنضطر لاتباع الأسلوب الذي يكفل المحافظة على

حق المواطنين. وكرامتهم.

وبهذا استطعنا انصاف كثيرين.. وجعل عمل اللجنة مجدياً وفعّالاً.

وقد تلقيتُ شكوى من أحد باعة «الكازوز» بأن وزارة «الاقتصاد» قد أعطت شركة «الكوكا كولا»، الأميركية، رخصة لإقامة معامل لها في سورية! ولم أتّبع أسلوب الكتابة والسؤال والجواب.. وإنما أثرتُ الموضوع في المجلس بشكل حادّ وعنيف.. وحملتُ حملة شعواء على وزير الاقتصاد، وكان «الدكتور رزق الله أنطاكي» وهو صديقي ـ ولكنّ الصداقة، مهما كانت وثيقةً، فإنها لا يمكن أن تحول دون قيام المرء بواجباته، والنهوض بتبعاته ومسؤوليّاته.

وسألتُ الوزير: كيف يرضى وجدانك الوطنيّ.. أن تسمح لهذا الأخطبوط الاستعماري الرهيب.. بإقامة مشروع له في البلاد ـ حيث يقضي على ألوف الأسر التي تعيش من صنع «الكازوز» المحلي؟!

وحميَ الجدال بيني وبين الوزير.. الذي كان يدافع عن وجهة نظره ـ من حيث أنّ الخزينة ستستفيد من المشروع! وانتصر لي بعض أعضاء المجلس، كما انتصر له آخرون ـ وخاصّة نائب دمشقي مرموق.. كان وراء الصفقة! ولكنّي استطعتُ أخيراً.. أن أحصل من المجلس على قرار بمنع التّرخيص لشركة «الكوكا كولا» الخطيرة.. بعد نقاش حادّ استمرّ عدة ساعات.. وقد صفّق لي النظارة أثناء النقاش مراراً. وجاء وفد منهم، في اليوم الثاني، إلى مكتبي بالمجلس لتهنئتي وشكري.

وحينما خرجنا من القاعة.. قال لي ذلك النائب الدمشقي، الذي كان وراء تلك الصفقة المريبة، قال لي وهو ممتقع الوجه، بادي الاضطراب:

خربتَ بيتي.. وخسّرتني مليونيْ دولار. ولو سكتّ، وبتعبيره الحرفي، «لو سكّرت تمّك».. لكان لك نصيب من المبلغ! فقلتُ له:

إني أعرف هذا.. ولكنك، مع الأسف، لا تعرفني! فالاعتبار الوطني.. هو عندي فوق كل اعتبار، وكل مستوى. فأدار ظهره وهو يقول:

«دعنا منك.. ومن اعتباراتك الوطنية»!

وقد دام الجفاء، بيني وبينه، فترة طويلة بعد ذلك!

ومرة زارني الثَّريُّ اللبناني الكبير «عبود عبد الرزاق»، وقال لي إن له دعوى إرث ابنه «محمد»، النائب والوزير اللبناني المعروف، عند أحد القضاة ـ وكان نسيبي.. وسألني: كم تريد لتنجزها لي؟ فقلت له: لستُ من الناس الذين يتقاضون أجوراً من أحد. فقال لي ـ بلهجته العكّارية المشهورة:

«عمي: عندنا في لبنان.. هَيْدَا لي، وهَيْدَا لك.. وبصراحة.. قلْ لي: كم تريد؟ ألا تكفي خمسون ألف ليرة؟».

وهذا المبلغ في ذلك الحين.. يعادل الآن ملايين.

فعدتُ أؤكد له.. أننا في سورية لا نتقاضى أجوراً. وقلتُ له: أنا لست محامياً.. حتى آخذ أتعابي.

ورغم محاولاتي الكثيرة لإقناعه.. فإنه لم يقتنع بل قال لي: أنت تريد مساعدة أخصامي.. ولا تريد مساعدتي! وحمل عصاه، وخرج «يفصع»!

وستأتي قصّة ذلك الشاب الذي عرض عليّ ١٠ آلاف ليرة سورية ـ مقابل تأييدي المشروع الأمريكي لإقامة مصفاة بحمص، وكيف أهنته ورفضتُ المبلغ بإباء ـ مع أنني كنتُ بأمسّ الحاجة إليه.

ومثل هذه العروض.. حصلتْ لي في كثير من المناسبات.. وكنتُ أُعرِضُ عنها بإباء ـ رغم وضعي المادي السّيّء. ولكنني، بنعمة الله وفضله، لم أخرج عن قاعدة النّزاهة والشّرف.. حتى ولا مرّةً واحدة ـ رغم حاجتي الشديدة المُلِحّة.. وسأبقى متمسكاً بمبدأ النّزاهة والاستقامة، ما حييت.

وثمة أشخاص كتبوا لي سندات بقطع من الأراضي وقدّموها لي هديّة، وبعضهم كتب لي كل ما يملك، فاحتفظتُ بالسندات وسلّمتها لأبنائهم. ومن هؤلاء شخص من قرية «الأسقف»، وآخر من قرية «بيت الشيخ يونس».

وكثيرون.. هم الذين كانوا يختلفون مع آخرين على أرض لهم.. ويقولون خذ ثلثها أو نصفها، إذا «حصّلت» لنا حقّنا. وكنت أسعى لايصالهم إلى حقوقهم.. وإني أتحدّى من يقول أني أخذت «دونماً» واحداً من أيّ كان ـ رغم كثرة

العروض عليّ. والحمد لله على نعمة القناعة والإيمان.

ومعذرة من القارىء.. فأنا لا أقصد مدح نفسي وإطراءها.. وإنما هي مواقف لا بدّ من ذكرها.. وأنا أدوّن مذكّراتي، وأسجّل ما مرّ معي وحولي. والذين يعرفونني.. يعرفون أني أكره الادعاء والزّهو وحبّ الظهور.. وأبتعد دائماً عن الأنانيّة والعطرسة وتمجيد الذّات.. وحسبي هذا. وإني أحمد الله وأشكره على ذلك.

* * *

ومرةً.. تلقيتُ رسالة من شاب في حمص، اسمه «عبد الله الأحمد»، وفيها يخبرني أنه صنع هيكل طائرة صغيرة تتسع لبضعة أشخاص.. وقد كتب لكثيرين، من المسؤولين، فلم يصغوا إليه! فاتّصلتُ فوراً بوزارة الدفاع، وطلبتُ ارسال لجنة خبراء لفحص تلك الطائرة، وكتابة تقرير عنها، وإرساله إلى المجلس النيابي.

وجاءني التّقرير من اللجنة ـ التي رئسها مهندس مصري كان يعمل في مطار دمشق الدولي.. وأكّد في تقريره أن جهاز الطائرة سليم، وأن التوزان بين الجناحين تام ـ وهو أكثر ما يُؤبَه له، ويُدقّق فيه.. وأنه لا يعوز تلك الطائرة إلا محرّك لتطير. وكان «عبد الله الأحمد».. قد طلب، إدخاله مطار دمشق ليتابع تجاربه، وفسح المجال له من أجل ذلك. وتابعتُ طلبه.. حتى أُدخِل مطار دمشق.

ولكن بعد فترة وجيزة.. تلقيتُ رسالةً منه يخبرني فيها أنهم وضعوه في المطار بقسم «التنظيف»!.. فاستولى عليه اليأس، وعاد إلى حمص ـ حيث حطّم الطائرة التي صنعها بفأس.. وبدأ يعمل في معمل خفّان، بعد أن استولى عليه اليأس!

وهكذا.. فإننا بدلاً من أن نُعنى بنوابغنا ونشجعهم.. فإننا ندمّر آمالهم وطموحهم!

وقد تأثرت كثيراً لما حصل له.. وكتبتُ عنه في الصحف أكثر من مرّة.. وأعلنتُ في الإذاعة السورية نبأ صنع شاب سوري هيكل طائرة. ولو أننا أخذنا

بيد هذا الشاب العبقري، وهو في البداية، فإلى أين سيصل به المطاف؟

ومرّت سنوات.. وإذا بي ألتقي به، بشكل مفاجيء، بفندق «الفيصل» في «الزّبداني»، حيث كنتُ أصطاف.. ثم في مكتب الصّديق النبيل «الدكتور محسن بلال» ـ وإذا بالعبقرية قد أبتْ إلا أن تلمع وتبرز ـ ولكن أخيراً في ميدان السياسة.. وليس في ميدان العلم والاختراع. كما كان يُؤمل ويُرتقب!

* * *

وعلى ذكر عباقرتنا الذين كتبت عنهم كثيراً وأذعتُ عنهم كثيراً، وراجعتُ من أجلهم كثيراً ليس في سورية وحدها.. وإنما بمصر أيضاً في عهد «الوحدة» ـ هو «سليمان علي» من قرية «رويسة الحايك» ـ صافيتا.. وقد صنع، وهو طالب، آلة خياطة... عُرِضت في معرض دمشق الدّولي.... وحازت على إعجاب الجميع، ودهشتهم. ثم صنع «آلة إذاعة».. لا يسمحون لها بأن تذيع إلا في أيام الأعياد فقط ـ حيث يُجَلجِل صوتها، ويُسمع في أماكن بعيدة: «هنا رُوَيسة الحايك»! ثم أوقف مرةً سيارة ـ بآلة صغيرة صنعها.. أوقفها وهي تنحدر من هضبة قرية «المعوانة»! وأوقف سيارة عسكرية في «الجولان» على بعد مئات الأمتار ـ كما قيل لي. وحدثتُ وزير التربية عنه ـ وما أُريد أن أسميه ـ فقال غير مبالٍ: «هوه... طلاّب كثيرون يصنعون مثل هذه الآلات»! وكان ذلك في أواخر الخمسينات! فرجوتُه أن يُدْخِله مدرسة صناعية بقسم الكهرباء، فأوعز بإدخاله. ولكن... لم يمض أسبوع حتى عاد «سليمان» يائساً ـ لأنهم أدخلوه في قسم «النجارة».. وليس في قسم الكهرباء كما يريد! ومثلما حصل مع «عبد الله الأحمد» حصل معه ـ مع ألف أسف وأسف! وبقي هذا العبقري النابغة في قريته.. يصنع بالوسائل البدائية، كثيراً من الأعمال الغريبة المعجزة! من ذلك.. أنارته قريته بالكهرباء، وصنعه «درّاسات» للتبن ـ وقد أكد كل من رآها.. أنها أفضل من الدّرّاسات الأجنبية، وأكثرها دقّة.

وزارني أخيراً. ومعه سيارته التي صنعها بمعمله العادي، وجعلها تسير بطاقة الهواء والكهرباء ـ وهو ما يسعى إليه العلماء، ويترقّبه العالم كلّه!

ولكنَّ هذا المخترع النابغة، «سليمان علي»، لا يبالي به أحد! وفي يقيني.. لو أن الدولة تبنّته وساعدته، لكان «أديسن» الشرق. وأنا مؤمن كل الإيمان بهذا القول. وصدق شاعر الأمة العربية الكبير «بدوي الجبل»، بقوله:

ما قلَّ فينا النّابغون وإنّما عددُ الأُلى قدروا النّبوغ.. قليلُ!

وثمّة عبقريان من دمشق: «ميشال خوري»، و«جورج خوري»، صنعا «درّاسة» حنطة وشعير، من مخيّلتهما، ودون الاستعانة بخبير أجنبي، وثبت نجاحها وصلاحها. ولكن الحكومة لم تتّخذ إجراء صيانة.. فتمنع دخول «درّاسات» أجنبية قبل أن ينفد المصنوع منها محلياً.

ووردتنا شكوى منهما إلى المجلس النيابي، فأثرت الموضوع بالمجلس، وطلبتُ من وزير الاقتصاد أن يمنع دخول «دراسات» أجنبية حتى تنفد الدّرّاسات المصنوعة بسورية. وتساءلتُ: كيف يمكن أن نشجّع صناعاتنا الوطنية دون أن نوفّر لها الحماية اللازمة؟ وأيّد موقفي عدد من الأعضاء. واضطُررنا وزير الاقتصاد لأن يتعهد بفرض الحماية اللازمة، واتّخذ قراراً بذلك.

جرى هذا.. دون أن أعرف الشخصين المخترعين.. ولكنني قمتُ بواجبي النيابي، وبصفتي رئيساً «للجنة الشكاوى والعرائض».

وصدف أن رأى «سليمان علي» ـ الذي مر ذكره ـ أن رأى «الدّرّاسة» التي صنعها «آل الخوري»، فصنع مثلها بتمويل شخص من «آل الطيار» «بصافيتا». وقدّم عليهما «ميشال وجورج خوري» دعوى لدى محكمة صلح «صافيتا»، بتهمة تقليد صناعة. وبذلنا جهوداً بين الفئتين حتى تمَّ اسقاط الدعوى.

وتمتاز درّاسة «سليمان علي» بخصائص تفوق الدّرّاسة الأجنبية. فتلك تجعل «التبن» بشكل واحد. وأمّا درّاسة العبقري النابغة «سليمان».. فإنها تكيّفه قِطَعاً قِطَعاً حسب رغبة الفلاّح ـ إلى جانب ميزات أخرى يتحدث عنها المزارعون بكل إعجاب وتقدير.

* * *

منذ مطلع الخمسينات.. أرادت الولايات المتحدة وحلفاؤها، جرَّ سورية للدخول

في «حلف عسكري».. كثرت التسميات له ـ من «مشروع ايزنهاور»، إلى «الدفاع المشترك»، إلى «حلف المتوسط»، إلى «الأمن المتبادل»، إلى «الحلف الإسلامي»، وأخيراً.. «حلف بغداد»!!!

وكل تلك التسميات... كانت تهدف إلى واقع واحد ـ وهو ربط دول الشرق الأوسط بعجلة الإمبرياليّة الأمريكية.

وكان «الشيشكلي» يخشى ازدياد نقمة الشّعب عليه.. فلم يوافق على الدخول بحلف عسكري. وأمريكا لم تصرّ على موافقته.. لأنها تعلم أنه يعمل في الأفق الأميركي، ويسير وفق المخطط الذي تضعه لدول الشرق الأوسط ـ سواءً ارتبط بأحلافها أو لم يرتبط!

ولكنّ الضغط الأمريكي على سورية.. قد ازداد بشكل صارخ بعد عودة الحياة الديمقراطية.. ووثوق «البيت الأبيض» بأن الذين يمثّلون الشعب، تمثيلاً صحيحاً، لا يمكن أن يخضعوا للضغوط.. وربما كانت لهم اتجاهات سياسية مغايرة لسياسة الأحلاف العسكرية، والداعين إليها.

ووقف المجلس النيابي موقفاً صامداً مشرّفاً.. في وجه تلك المحاولات والتهديدات. واضطرت الحكومات المتعاقبة ـ رغم ميول بعض أعضائها نحو الغرب. إلى أن ترفض الطلبات المغرية، والتهديدات المخيفة. وحشدت الحكومة التّركية جيشها على امتداد الحدود السورية ـ التركية (وهي حوالي ٨٠٠ كيلومتر)، بانتظار أول بادرة أو إشارة لتهجم. وقد مرّت أسابيع. ونحن نترّقب الهجوم التركي بين ليلة وأخرى ـ ومع ذلك.. فإن سورية لم تضعف، ولم تتراجع عن موقفها الصائب المشرّف. وقد كان لإعلان السوفيات دعمهم لسورية ـ إذا تعرضت لاعتداء.. أثر كبير في منع الهجوم عليها.

وكانت سورية في تلك الفترة المخيفة، مُحَاصَرة من أعوان أمريكا وأتباعها! فمن الشمال تركيا! ومن الشرق «عبد الآله» و«نوري السعيد» في العراق! ومن الجنوب العدو الصهيوني، ثم جيش «الجنرال كلوب» ـ أبو حنيك ـ في الأردن! ومن الغرب «كميل شمعون» في لبنان، ثم الجيش البريطاني في قبرص ـ ولم

تكن قد استقلّت بعد!

كان الوضع خطيراً ومخيفاً.. ومع ذلك، فقد ظلّ الشعب السوري متماسكاً متّحداً وصامداً يتحدّى... مما أحبط مؤامرات الأعداء ومناوراتهم، ومكائدهم ودسائسهم.

ولا شكّ في أنّ موقف الشعب السوري الصامد.. كان سنداً لسورية، ودعماً قويّاً لها. ولقد حاولت الامبريالية الأميركيّة جرّ مصر إلى مخططها السياسي والعسكري ـ ولكنّ شجاعة «عبد الناصر» المثاليّة... قد أحبطت تلك المحاولات جميعاً.

وقال لنا مرة «نوري السعيد» ـ وكنّا وفداً رسمياً في العراق: كان «عبد الناصر» يريد أن يكون «حلف القاهرة» ـ وليس «حلف بغداد» و لذلك عارضه! وهذا القول افتراء على الحقيقة والواقع ـ لأنّ قائد ثورة مصر.. إنما جاء ليحرّر بلاده من الاستعمار، فهل يُعقل أن يزجّ بها في أتونه من جديد؟! ولو تغيرت الأسماء والمسمّيات.. فالاستعمار هو هو ـ مهما تنوّعت أشكاله، وتباينت ألوانه التشريعية، أو العسكرية. أما السلطة التنفيذية.. فقد كان فيها من يؤثر العمل مع الدول الإمبريالية على الابتعاد عنها! ولكنّ تلك الأصوات.. كانت خافتة ـ لا تجرؤ على الظهور أمام الرأي العام الذي يعارض الأحلاف العسكريّة ويقاومها.

وفي المجلس النيابي. كان ثمّة أعضاء، وبعضهم له وزنه السياسي، يرغب في الاستجابة لطلب الدول الغربية، والدول «المجاورة» ـ على حد تعبيرهم! ولكن الاندفاع الصارخ ضد الأحلاف ـ داخل المجلس النيابي، وخارجه، كان يحول بينهم وبين الإعراب عن وجهات نظرهم ـ إلاّ في الخفاء.

ومرّةً.. دُعيتُ لمقابلة رئيس الجمهورية، «هاشم الأتاسي» بصفتي أمين سر «الكتلة الدستورية»، وليس لها رئيس، وسألني رأيي في عرض قُدِّم إليه مباشرة، من الرئيس الأمريكي.. للالتقاء مع بقيّة دول الشرق الأوسط، ما عدا اسرائيل، في حلف «يضمن الكيانات السياسية» القائمة، ويحول دون الاعتداء على أيٍّ منها في المستقبل ـ ومن أيٍّ كان. وقد دعا رئيس الجمهورية ممثلي

الأحزاب، والكتل النيابيّة، كافّة. للاطلاع على آرائها في هذا الموضوع. وكان ذلك سنة ١٩٥٥، وقلت له:

هذا الموضوع.. لم يُعرض على «الكتلة الدستورية»... وأنا لا أستطيع إعطاء رأي باسمها.. قبل الرجوع إليها، وعرض الموضوع عليها. وأما رأيي الشخصي.. فهو معارضة هذا الاقتراح معارضةً تامة ـ لأنه كالعروض السابقة.. يهدف إلى زجّ سورية في أتون «حلف عسكري».. يقودنا من جديد إلى العبوديّة ـ وبالتّالي.. يمكّن اسرائيل من تحقيق مطامعها التوسعيّة في المدى البعيد!

وعدتُ إلى «الكتلة الدستورية» وأطلعتُها على رأيي.. فكان هذا هو رأيها بالإجماع.

* * *

بعد محاولة اغتيال «عبد الناصر»، وهو يخطب في حشد جماهيري كبير بالقاهرة.. وملاحقة «الاخوان المسلمين» الذين وُجّهت إليهم التّهمة بذلك الاعتداء.. نقل هؤلاء نشاطهم إلى سورية ـ بعد أن كانوا متمركزين في مصر لينطلقوا منها. وقد هال «عبد الناصر» تمركز نشاطهم في دمشق.. فدعا «سعيد الغزّي»، رئيس وزارة الانتخابات حينذاك لزيارة القاهرة. وذهب «الغزّي»، وبرفقته «شوكة شقير» الذي أُعيد تعيينه رئيساً لأركان الجيش السوري.. وجرى البحث معهما للحدّ من نشاط «الأخوان المسلمين»، والحؤول دون تفاقم خطرهم، وتنفيذ مخططهم بالعمل لاشراك سورية في «الحلف الاسلامي» الذي ضمّ تركيا، وباكستان، وإيران، والعراق، والأردن.

ووعد «الغزّي» بالعمل للحدّ من نشاطهم وتأثيرهم ـ ولكنه لم يفعل ـ لأنّ وزارته كانت انتقاليّة.. مهمتها اجراء انتخابات حرّة، ولأنه كان يخشى من تألّبهم هم وأنصارهم ضدّه، وهذا ما حصل فعلاً... ممّا حال دون نجاحه في الجولة الأولى، كما سبق وذكرنا.

وشنّت «المنار» ـ الجريدة التي كانت تنطق باسم «الأخوان المسلمين» ـ

حملات واسعة ضدّ «عبد الناصر»! وأرسلت القاهرة مخبرين سريّين لمراقبة نشاطاتهم التي لم تتوقّف علانيتها.. إلا بعد أن عُيّن «أحمد قنبر» وزيراً للداخليَّة ـ إذ استطاع أن يهدىء تأثيرهم، وينتزع من مسؤوليهم تعهداً وقّعوا عليه بعدم التّعرُّض لمصر.. والكفّ عن حملاتهم ضد «عبد الناصر». ومقابل هذا التعهد.. لم تتعرض لهم السلطة.

في منتصف تشرين الأول سنة ١٩٥٤ قَبِل «الرئيس الأتاسي» استقالة «سعيد الغزّي»، وكلّف «خالد العظم» بتشكيل الوزارة ـ لكنّه لم يظفر بالثقة إلا بزيادة صوتين.. وبعد عشرة أيام استقال.

وكلّف رئيس الجمهورية «فارس الخوري» بتشكيل الوزارة.. فشكّلها في ٢٩ تشرين الأول، واشترك فيها «بدوي الجبل»، وقد نالت وزارته الثقة بأكثرية ٨٤ صوتاً ـ مقابل ٤٨.

ويوم جلسة الثقة.. قامت مجموعة من الطلاب، المعروفين بنزعتهم... أمام «مجلس النواب» تطالب باستقالة «الخوري»! وكان موقفاً مخجلاً ومعيباً.. دفع بعض النواب الذين كانوا يعارضون الوزارة.. إلى التّصويت لها، وإعطائها الثقة ـ ردّاً على تلك المظاهرة المعيبة. وقد اتّبعت حكومة «الخوري» في السياسة الخارجية، حداً معتدلاً ـ رغم ميل بعض أعضائها نحو الغرب.

وفي أواخر تشرين الثاني سنة ١٩٥٤ اجتمع «فارس الخوري»، في بيروت، بالملك «فيصل» و«عبد الآله» و«نوري السعيد».. مما أثار «عبد الناصر» واعتَبَرَ الاجتماع خطوة نحو تقوية العلاقات مع العراق. وفي مطلع شهر شباط سنة ١٩٥٥ قدّم «الخوري» استقالته ـ بعد أن استقال منها بعض أعضاء «الحزب الوطني».. وبعد أن رفضت «لجنة الموازنة» التي كان يرئسها «أكرم الحوراني».. التّصديق على الموازنة لعام ١٩٥٥ ـ بقصد احراج الوزارة للاستقالة! وكُلّف «صبري العسلي» بتشكيل الوزارة.. ولم يشترك بها «حزب الشّعب».

في تلك الأثناء زار وفد سوري القاهرة.. يحمل اقتراحات بتعديل «الضمان

الجماعي»، في ميثاق «الجامعة العربية»، وجعله ملزماً للدول الأعضاء ـ في الشؤون العسكرية والسياسية والاقتصادية، والتّنسيق بالسياسة الخارجيَّة.. وأيّدت مصر الاقتراح السوري... ولكنّ أكثريّة دول «الجامعة» عارضته ـ مع أنه كان اقتراحاً بَنّاءً.. يتوقف عليه، إلى حدٍّ بعيد، مصير «الجامعة».. بل مصير العرب كلهم.

* * *

ذكرنا، فيما سبق، محاولة اغتيال «الرئيس عبد الناصر»، في «ميدان التحرير»، وهو يخطب. وقد حُكِمَ بالإعدام الستة الذين اتُّهِموا بأنهم كانوا وراء المؤامرة ـ وفي مقدمتهم العالم الشهير «سيِّد قُطب»! وكان لذلك الحكم.. ضجَّة كبرى في العالم الإسلامي ـ نظراً لما كان لذلك العلاَّمة من تقدير كبير في نفوس متتبعي نشاطه العلمي التَّوجيهيّ.

ودعا النواب المتعاطفون مع الاتجاهات الإسلامية ـ وفي طليعتهم: الدكتور معروف الدواليبي، والدكتور مصطفى الزَّرقا، والشيخ عبد الرؤوف أبو طوق، والدكتورُ محمد مبارك.. دعوا إلى اجتماع خاصّ في المجلس النيابي.. ولبَّى كثيرون من النواب تلك الدعوة. وطلب النواب الشيوخ... تشكيل وفد يذهب إلى القاهرة للتوسّط مع « الرئيس عبد الناصر»، لكي يحوِّل الحكم على الستة إلى السجن بدلاً من الاعدام.

ورأى المجتمعون.. أن يذهب وفد إلى السفارة المصرية في دمشق أولاً.. لطلب الإبراق مسبقاً عن مهمة الوفد النيابي الذي سيقابله ـ فإذا كان ثمَّة استعداد لقبول الوساطة السورية... يحدِّد الرئيس المصري الموعد، ويذهب الوفد فوراً!

وقرَّر المجتمعون... أن يذهب «الدكتور مأمون الكزبري»، وأنا، لمقابلة السفير المصري، «محمود رياض»، وعرض الأمر عليه. وذهبنا فوراً... إلى السفارة المصرية لعرض الموضوع على السفير ـ الذي كان لطيفاً جداً.. واستقبلنا بكل حفاوة وترحيب. وطلبنا منه أن يتلطف ويُبرق إلى «الرَّئيس عبد الناصر» فيما نحن بصدده. فكتب البرقيَّة، أمامنا، وطلب من أحد الموظَّفين

إرسالها فوراً. وقال: أعتقد أنّ الجواب سيأتي غداً قبل الظهر ـ لأنّ البرقيّة ستُعرَض على الرئيس هذا المساء. وكان ذلك في خريف سنة ١٩٥٤.

وفي صباح اليوم الثاني... سمعنا في الإذاعة نبأ إعدام «سيد قُطب» ورفاقه! وكان الخبر مفاجأةً مؤلمة ـ لأن «سيد قُطب»، بصرف النظر عن وضعه السياسي والديني، فهو في طليعة العلماء العرب، والباحثين في ذلك الحين! وإنّ إعدامه... كان خسارةً للعلم ـ قبل أن يكون خسارةً للهيئة الدينية التي ينتمي إليها. ومن هذا المنطلق وحده، كنّا تحمّسنا للتوسط بشأنه، والعمل على دفع العقوبة عنه.

وقد شعرنا بعد سماع نبأ إعدامه ـ صباح اليوم الثاني لطلب التوسط ـ شعرنا بـ «عقدة الذّنب».. وخشينا أن يكون توسّطنا قد كان سبباً للإجهاز عليه بسرعة ـ لأنّ «عبد الناصر».. كان يسعى، بكل قواه، لإبقاء سورية ضمن المخطط الذي يعمل له في الشرق الأوسط. فإذا رفض وساطة النواب السوريين.. يكون قد عكّر صفاء العلاقة معهم. وبما أنه لا يريد الإبقاء على «سيد قُطب».. لذلك أسرع بالإجهاز عليه!

ما تزال ضمائرنا مثقلةً بالألم.. عندما نشعر بأنّنا قد عجّلنا بالقضاء على ذلك العلاّمة، والبحّاثة الكبير! ويا لها مأساةً مروّعة ومحزنة ـ تلك المأساة.

وأريد أن أستبق التاريخ والأحداث فأورد ما يلي:

بعد بضعة أشهر، من ذلك التاريخ، زار وفد سوري القاهرة ـ بدعوة من الرئيس «عبد الناصر»، وكنتُ أحد أعضاء الوفد. وتناولنا طعام العشاء في دار الرئيس بالاسكندرية ـ كما سيجيء. وفي حديثه المسهَب.. تعرّض لموضوع «الإخوان المسلمين»، وقال: «لم أستطع تأديبهم. إلاّ بعد أن ذبحتُ ستة ـ سبعة منهم»!

وكأنه بهذا القول.. أراد الاعتذار منا عن عدم قبوله وساطة وفد نيابي سوري بهذا الشأن. وقد أجمعنا كلنا، على أنّ تعرّضه لذكر «الأخوان المسلمين»، وإعدامه المحكوم عليهم بالإعدام، ومنهم العلاّمة الجليل «سيد قطب»، إنما كان للاعتذار، وتبرير موقفه من قيام وفد سوري لزيارته بهذا الشأن! ولله في خلقه

شؤون!

أحد الأصدقاء الذين أقدّرهم وأعتمد على آرائهم.. زعم أن «سيد قطب» قد أعدم في الستينات، واتصل بي وأكد ذلك. ورغم ثقتي التامة بدقة المعلومات المدونة عندي.. فقد اتصلت هاتفياً بالدكتور «أحمد اسماعيل»، الملحق الثقافي في السفارة المصرية بدمشق، ورجوته اخباري عن السنة التي أعدم فيها «سيد قطب» فاستمهلني بضع دقائق ليطلع على وثائق رسمية عندهم، ثم تلطف واتصل بي مؤكداً أنه أعدم سنة ١٩٥٤.

* * *

من المؤسف.. أن السلطة الأردنّية كانت ميّالة للغرب، وسائرةً في الاتجاه الذي يسير فيه ـ وبكل تحدٍّ واندفاع!

واغتيل «الملك عبد الله» في «المسجد الأقصى» بالقدس.. وكان يردد دائماً: «في الأردن مَلِك بلا مملكة.. وفي الحجاز مملكة بلا مَلِك»! وبعد أن دعاه «الملك عبد العزيز، آل سعود» لزيارة الحجاز، وأكرم وفادته كثيراً... لم يعد يردّد قوله ذاك! وحينما نشر مذكراته.. نشر فيها رسم «الملك عبد العزيز» مع عبارات ثناء وإطراء كثيرة!

وانتقل الحكم بعد اغتيال «الملك عبد الله» إلى ابنه «طلال» ــ الذي أُصيب بمرض عضال.. اضطر المسؤولين الأردنيين لأن ينحوّه عن العرش، وينقلوه إلى أحد المشافي في تركيا ـ حيث تُوفي فيها. وعقب تنحيته.. أصبح نجله «الحسين» وليّ العهد، هو ملك الأردن.. وقد بلغ سن الرشد سنة ١٩٥٣.

وفي أواسط سنة ١٩٥٥ أذاعت الأنباء العالمية أنّ «الملك حسين» قد أقال قائد جيشه «الجنرال كلوب» الذي أنعم عليه «الملك عبد الله» بلقب «باشا»!

و«كلوب» ذاك.. الذي كان يُعرف في الأوساط الشعبية بلقب «أبو حنَيْك»... هو من أخطر عملاء الانكليز في الشّرق الأوسط، وهو صاحب المؤامرة الرهيبة سنة ١٩٤٨ ــ إذ أنّ «الملك عبد الله»، كما أسلفنا، أصرَّ على الدول العربيَّة، حينذاك، أن يكون هو القائد العام للجيوش العربيَّة التي اقتحمت فلسطين، بعد

صدور قرار التقسيم - للحؤول دون تنفيذه.. ولبسط السّيطرة العربيّة على كل الأراضي الفلسطينية. واضطرت الحكومات العربية، حينذاك، للموافقة حتى لا يحصل تصدّع في الجبهة العربية، وتنفّذ الاميريالية والصهيونية مشروعهما الرّهيب.. الذي نفّذتاه!

وكان «الباشا - كلوب»... هو قائد الجيش الأردني - بل هو الحاكم الفعلي للأردن، طوال وجوده قائداً للجيش... الذي كان أكثر جنوده من البدو الرُّحّل!

وذلك الجنرال الانكليزي الخطير، خليفة «لورانس» الشهير، كان يعارض في إنشاء أيّ معمل، أو مؤسّسة، في الضفة الغربية، بعد أن ضُمّت إلى الأردن.. وأصبحت جزءاً منه - مؤكداً أنها ستكون من حظّ اليهود في المستقبل، عاجلاً أو آجلاً! وكان يردّد، وهو ضليع بالمؤامرة التي حاكها قومه الانكليز ضد عروبة فلسطين، وضدّ العرب جميعاً.. يردّد، وبكل وقاحة وصراحة، قوله:

لماذا نخسر المال ونبدّده في الضّفة الغربية.. وغداً ستحتلها اسرائيل، وتستثمر الأموال التي نكون قد أنفقناها فيها!!

بتلك الوقاحة والتّحدي.. كان يقول الضابط الانكليزي المجرم هذا، ولا يأبه - ومن أين له أن يأبه.. وهو يعبّر عن رأي بلاده العدوّة اللّدودة بريطانيا، ويطبّق سياستها الحاقدة اللئيمة.. ويفرضها على الحكومة الأردنيّة والشعب الأردني معاً، والويل لمن ينتقد أو يعارض!

كان الانكليز يقدّمون سنوياً للأردن عشرة ملايين جنيه. وتلك الملايين العشرة.. كانت من أقوى الذرائع التي تتمسك بها بريطانيا لابقاء نفوذها.. بواسطة ضابطها «الباشا» - كلوب، والجيش الذي يقوده!

وقد بلغ الحقد - بذلك البريطاني الصهيوني الغادر اللئيم.. أنّه حينما وضع كتابه «أزمة الشرق الأوسط».. قال عن العرب إنهم ليسوا أمةً واحدة.. بل مجموعة أمم! وقد أراد بذلك.. التّفريق والتّمييز بين العربي، وأخيه العربي! وهو كمعلّمه ومدرّبه «لورانس» - الجاسوس الانكليزي في الحرب العالمية الأولى... الذي شتم العرب في كتابه «أعمدة الحكمة السبعة»، واتّهمهم بأنهم غير قادرين

على الارتقاء فوق أحاسيسهم.. وبالتالي لم يبلغوا سن الرشد.. حتى يستطيعوا استخدام عقولهم في صنع حياتهم ومستقبلهم!

وبلغت قلّة الحياء.. بالجاسوس البريطاني «لورانس».. أنه ذكر في كتابه المنوّه عنه أعلاه، أنّ بعض العرب راوده، عن نفسه.. فكتب إلى أسياده، في لندن، يسألهم عمّا يجب أن يعمل..! وجاءه الجواب: إذا كان ذلك في مصلحة بريطانيا فاستسلم لهم! ويقول إنه استسلم لهم ـ من أجل مجد بريطانيا... التي كانت تعتمد على «اللِّواط».. مثلما تعتمد على الأساطيل!! ومنذ سنوات.. أصدرت قانوناً يبيح «اللِّواط» ويُجيز زواج الذَّكر بالذَّكر.. ولم تستحِ! ـ كما أنّ جاسوسها «لورانس» لم يستحِ أن يقول في كتابه.. إنّ سبعة أشخاص قد وطئوه في ليلة واحدة! وصدق من قال: إذا لم تستحِ.. فاصنع ما شئت ـ أو فقل ما شئت! ولم يستحِ الجاسوس البريطاني.. فصنع، وقال!!

ولهذا.. كان إقصاء «كلوب» أبو حنيك ـ بادرة وطنية رائعة من ملك الأردن الشاب «حسين».. وبدايةً حسنةً للتحرُّر من التّأثُّر الانكليزي، والاتجاه الغربي الامبريالي.

وقد صفّق أحرار العرب لاقصاء «كلوب»، واخراجه مخفوراً من الأردن. وساد جوٌّ من الإعتقاد... بأنّ عهداً جديداً من التّعاون المخلص المثمر قد أطلّ... وبدأه الملك الشّاب بتلك الخطوة الجريئة الشجاعة البنّاءة.

وكان علينا في سورية أن نرحِّب بتلك البادرة الجميلة، ونشجِّعها ونحيّيها.. ثم نغتنمها مناسبةً لمدّ جسور التّعاون بين البلدين الشقيقين.. المرتبطة مصالحهما ببعضها ارتباطاً قويّاً متيناً منذ القديم.

وقرّرنا في «لجنة الشؤون السياسية» ـ وكنتُ عضواً فيها، طوال حياتي النيابية، أن نقوم بزيارة «الملك حسين»، وتهنئته بتخلصه من الضابط الانكليزي الخطير. ورئيس الوفد المجاهد الكبير «احسان الجابري» ـ رئيس اللجنة التي ضمّت إليها عدداً من الوزراء ورئيساً سابقاً للمجلس النيابي.

وسافرنا بالسيارات، وجرى لنا استقبال حافل على الحدود، وفي جميع

المناطق المأهولة التي مررنا بها.. حيث كانت الجماهير تصطفّ على جانبي الطريق لتحية الوفد السوري الذي يزور الأردن، بعد قطيعة طويلة بين البلدين. وعند مدخل العاصمة «عمّان».. كان باستقبالنا رئيسا مجلسيْ النواب والأعيان، ورئيس الديوان الملكي، ورئيس مجلس الوزراء والوزراء.

واستقبلنا «الملك حسين» في مكتبه، وكان لطيفاً وأنيساً، وقد بدت علائم الغبطة والانشراح على وجهه. وتحدَّث معنا حديثاً يشعرنا بالصفاء والأخوّة والمودّة. وأقام لنا مأدبة غداء في القصر الملكي.. حضرها عدد من كبار رجال الدولة، والمبعوثين الدبلوماسيين.

ويبدو أن البروتوكول المتّبع في الأردن... يقضي بأن يبقى المدعوون واقفين أمام مقاعدهم حول المائدة.. حتى يحضر «الملك» ويجلس في مقعده! وهكذا بقينا وقوفاً بضع دقائق.. حتى شرّف «جلالته» وجلس.. وجلسنا!

وقد استغربنا ذلك الموقف، وعجبنا منه ـ لأننا في جميع الدَّعوات المماثلة، بقصور ملوك ورؤساء دول، كنّا نجلس في أحد الصالونات، حيث نتناول المرّطبات، إلى أن يجيء الملك، أو رئيس الدولة.. فندخل معاً إلى قاعة الطعام. وكثيراً ما كان بعض أولئك يجلسون معنا في الصالون، إلى أن يحين موعد الدخول إلى المائدة المعدَّة.. فندخل جميعاً معاً.

ولكن يبدو أن البروتوكول، في القصر الملكي بعَمان، مختلف عن سواه في البلدان الأخرى إلا إذا تغيّر الآن... عمّا كان. ويبدو أنه مأخوذ عن البروتوكول البريطاني!

وبدا الملك على المائدة منفتحاً منشرحاً.. إلى أن حدث ما عكّر الجوّ على المائدة.. وأدّى إلى اكفهراره.. بشكل مفاجىء وسريع ـ إذ أنّ زميلنا نائب حلب، «حسين الشّعباني».. دفعه انفتاح «الملك»، وتجاوبه بالحديث معنا.. عن وحدة الصف العربي، ووجوب اتخاذ خطوات حاسمة ـ ضد العدو الصهيوني.. ذلك الجو المنفتح، والأحاديث البنّاءة التي دارت فيه.. دفعت النائب «الشّعباني» إلى أن يتوجّه إلى الملك بالقول:

لماذا لا تتفقون مع بعضكم، وتتنازلون لبعضكم، وتعملون دولةً عربيةً واحدة؟
وفجأةً اكفهرّ الجو.. وكأنّ طلقاً ناريًاً مدويّاً قد أُطلق فيه!

وامتقع وجه الملك، ووجوه الأردنيين كافّةً.. وبدا عليهم جميعاً الانزعاج والتّبرُّم من ذلك القول!

ومرّت لحظات رهيبة.. وخيّم على المائدة جوٌ مكفهرّ كئيب ـ بعد ذلك الانفتاح والانشراح.

وخلال دقائق.. لم ينبس أحد أحد بكلمة ـ بعد تلك الكلمة!

وكان رئيس الوفد السوري يجلس مقابل الملك، وإلى يمينه رئيس مجلس النواب الأردني، وأجلس أنا إلى يمين هذا ـ بصفتي أمين سر مجلس النواب السوري. وهكذا كنتُ في مواجهة الملك. فاستلمت الحديث، وانطلقتُ به، وخاطبتُ العاهل الأردني بقولي:

إنّ زميلنا يعرف مقام الأسرة الهاشميّة بالنسبة للتاريخ العربي، والواقع العربي... وقد انطلق في كلامه من هذا الشعور، والإيمان به. ثم قرأتُ قول الإمام «الشافعي»:

يا «آلَ بيتِ رسول الله»... حُبّكمُ فرضٌ مِنَ الله في القرآنِ أنزلهُ
يكْفِيكُمُ من عظيمِ الذِكْر... أنّكمُ من لم يُصَلّ عليكمْ.. لا صلاةَ لهُ

وقرأت له مقاطع من رثاء «شوقي» بـ «الملك حسين»، ورثاء «بشارة الخوري» بـ «الملك فيصل الأول»، ورثاء «بدوي الجبل» بـ «الملك غازي»، ورثاء «ابراهيم طوقان» بـ «الملك عبد الله»، وقد جاء فيه:

أيُكُمْ يا «آل بيتِ المُصْطَفَى» ما قَضَى مُسْتَشْهِداً منذ «علي»

وظللتُ طوال فترة الغداء أتحدّثُ وحدي ـ وخلاصة حديثي عن «الهاشميين» ومواقفهم، وتضحياتهم في سبيل العرب كافّة.. وأنهم في طليعة بُنَاة «الوحدة العربية»، والعاملين في سبيل تحقيقها.. وأن زميلنا قد انطلق من هذا الاعتبار الذي نقدّره جميعاً ونُجِلّه.

وانفرجت أسارير «الملك حسين»، وأبدى غبطةً وارتياحاً وسروراً.. لما سمعه

من شعر وتعليق.. وقد تلطّف ووجّه لي عبارة ثناء وشكر على المائدة. ثم عندما ودّعناه قال لي: آمل أن تتكرر زيارتك للمملكة. ولكنني لم ألتق به بعد تلك الزيارة.

وأذكر أنه حينما انتهت زيارتنا للأردن، وقد استمرت ثلاثة أيام، ووُضع لها برنامج حافل ـ سنأتي على ذكره، فيما بعد، كان في وداعنا خارج العاصمة كبار المسؤولين الأردنيين ـ مثلما كانوا عند استقبالنا. وشدّ على يدي «بهجة التّلهوني»، رئيس الديوان الملكي آنذاك، وقال لي:

جزاك الله خيراً، وبارك بشعورك، فقد لطّفت الجوّ بما تلوته من شعر عن الأسرة الهاشمية.. وبما سردت من حوادث، وذكرتَ من مواقف عنها.. ووجّه لي عبارات شكر كريمة ثم قال:

إن ما قاله زميلكم.. كان له أثر سيءٌ في نفس «الملِك».. فكأنه يطلب منه التّخلّي عن منصبه لسواه.. وهذه إيماءة مؤثّرة ومُسيئة.. فقلتُ له:

دعنا نتحدّث بصراحة.. إنّ كلمة زميلنا لا تحمل أيّة فكرة تنطوي على إثارة أو إساءة.. وإنما تحمل معنىً قومياً لا يُعنَى بالرسميات، ولا يأبه لها. إنها عاطفة مواطن عربيّ.. أبداها، بعفوية وبراءة، أمام ملك عربي.. وليس فيها ما يهين أو يشين، أو يدعو للتأفّف والتّذمُّر. إنها كلمة.. لا تعدو كونها مباسطة جرّ إليها حديث. وقد دفعه لذلك.. تصريح الملك «حسين» منذ أيام، وقد تناقلته الإذاعات العالميّة، وخلاصته.. أنه مستعد للتنازل عن عرشه في سبيل الوحدة العربية. فهذا التصريح النبيل المخلص، من جلالته، قد يكون هو الذي دفع زميلنا لقول ما قاله. هذا ـ مع العلم.. أنه لم يطلب من «الملك» أن يتنازل عن عرشه.. وإنما ذكر الموضوع بصفة عامة.. وقوله لا ينطوي أبداً على أية اشارة مباشرة.

فقال لي: هذا صحيح. ولكن كان عليه أن يذكر الموضوع بغير الشّكل الذي ذكره به. ثم تلطّف وكرّر كلمات شكر لي ـ لأني، حسب تأكيده، وتكرار ما قاله، قد لطّفتُ الجوّ، وتلافيتُ الموقف. وقال: كان «الملك» مسروراً جداً مما ذكرته عن الأسرة الهاشميّة، وتلوته من شعر عنها.

* * *

ومن المؤسف أنّ رجالات العرب.. قد استغلوا ذلك الموقف ـ لأنهم يريدون الصيّد بالماء العكر.. ولا يرغبون بوجود اتفاق بين قطرين عربيين، أو اتحاد بينهما ـ وخاصة سورية والأردن!

وعقب زيارتنا الأردن.. أرسل أحد الأمراء السعوديين برقيةً إلى «الملك حسين» جاء فيها: «بلغنا أنّ وفداً سورياً زارك في عمّان، وطلب منك التّنازل عن عرشك.. وأنهم سيعينونك «محافظاً لحوران!» نهنئك بمنصبك الجديد»!

ويقال أنّ «الكحيمي»، سفير السعودية بالأردن، كان وراء تلك الإثارة.. والأحداث التي أعقبتها!

* * *

في اليوم الثاني من زيارتنا للأردن، عقد مجلسا الأعيان والنواب جلسةً مشتركةً، خُصِّصتْ لاستقبالنا، وألقى عددٌ من الشيوخ والنواب كلمات ترحيب بنا مظهرين اغتباطهم بزيارتنا، ومعلقين آمالاً كباراً عليها، وعلى ما ينجم عنها من خير للبلدين: حاضراً ومستقبلاً. وكانوا كرماء بعواطفهم، أسخياء بمشاعرهم وترحيبهم.. مخلصين بذلك الموقف التاريخي المُشرّف.

وكنتُ مُكلّفاً من رئيس الوفد، وموافقة أعضائه، بالاجابة على الخطب التي تُلقَى أمامنا ـ لأني، حسب قولهم، أستطيع الارتجال في أي موقف وأي موضوع، ودون أي توقف أو تلكّؤ. وهذا من نِعَم الله، وفضله.

وبعد أن انتهى الأعيان والنواب الكرام من خطبهم.. ألقيتُ كلمةً تضمنت التّقدير الكبير لما لقيناه من حفاوة وتكريم، وقلت:

إننا سعداء جداً بهذا اللقاء الأخويّ التاريخي الذي سيترك آثاره العميقة بين بلدينا الشّقيقين.. اللذين يجمعهما، ماضٍ مشترك، ونضال ضدّ العدوّ المشترك، ومستقبل بإذن الله مشترك. وقلتُ: إنّ جلالة الملك حسين يستمدُّ من سيرة آبائه وأجداده... ومن إيمانه بقوميته وعروبته، حافزاً قوياً للسير مع الركب العربي الزّاحف إلى الأمام.. والمتطلّع دائماً وأبداً لاستعادة ماضيه المجيد، وسيرته المشرّفة، وتاريخه الخالد. وقلتُ ـ فيما قلت:

إنّ سورية شعباً وجيشاً وحكومةً.. تتطلّع دائماً وأبـداً لتوحيد الصف العربي، وقيام وحـدةٍ عربيـة شاملة. وإنّ هدفنـا.. هـو ايجـاد تضـامن وتعـاون، وثيقيـن ودائمين، بين بلدينا الشقيقين: سورية والأردن ـ لتحقيق غايتنا القوميّة الشريفة.

وحيَّيت أولاً وأخيراً، رئيسي المجلسين الكريمين، وأعضاءهما الكرام.

وكان في البرنامج الحافل الـذي أُعِّد لنـا.. القيام بجولـةٍ واسـعة فـي «الضّفّـة الغربيّة». وقد خرجنا من عمّان وقت انبلاج الفجر.. ومع طلوع الشمس كنا في مدينة «نابلس» بدار أحد نوابها المرموقين.. وقد أُعِدَّت لنـا، ولمرافقينـا، مـائدة إفطار حافلة ـ وفي مقدمتها «الكنافة» النابلسية الشـهيرة. ووقفـتُ أمـام المـائدة، وقلتُ بصوت جهوري:

والله... لا تمتدُّ أيدينا إلى هذا الطعام، ومعذرةً من الزملاء الكرام، إلا بعد أن يحضر المجاهد الكبير «أكرم زعيتر».. ويشاركنا بتناوله. وهـل يُعقَل، ونحـن فـي بلد «زعيتر»، أن نأكل أو نخطو خطوةً واحدةً، دون أن يكون معنا؟

وأسرع ابن صاحب الدّار بالسيارة، إلى بيت الأستاذ «أكرم زعيتر» وأيقظه من فراشه، وعاد وإياه. وبعد أن تناولنـا الإفطـار أراد الأسـتاذ «أكـرم» أن يودعنـا.. فأمسكتُ يده وأصررتُ على أن يرافقنا في زيارتنا للضفّة الغربيّة ـ التي استمرت من الصباح إلى منتصف الليل. وقد تلطّف واستجاب.

* * *

لقد كان يوماً حافلاً من أيام العمر التي لا تُنسى.

في مدينـة «طـولكـرم».. احتشدت جماهير غفيرة، وهي تهتف لـوحدة سورية ولبنان وفلسطين.. وكان الموقف مؤثراً، وأعين الكثيرين تغمرها الدموع. وصعدنا إلى مبنى البلدية.. حيث أُلقيت خطب ترحيبية.. تحمل مشاعر قوميّة، وعواطف لا أنبل منها ولا أسمى. وكما ذكرتُ آنفاً.. فقد كنـتُ أجيـب علـى الخطـب التـي تُلقـى أمامنـا، وفـي جميـع المواقـف. وقـد حييتُ فـي كلمتـي العاطفيّـة الصارخـة.. تلـك المشاعر النبيلة التي تطفـح مـن الأعيـن والقلـوب.. المنبعثـة مـن نفـوس صادقـة العقيـدة، قويّة العزيمـة، صافية الإيمان. وقلتُ ـ فيما قلتُ ـ وأنا أخاطب الجماهير

المحتشدة، أمام مبنى البلدية، ونحن نطلّ عليهم من شرفتها الواسعة، قلتُ:

إن قضية فلسطين.. هي قضية كلّ عربي يؤمن بعروبته، ويقدّسها ويعيش لها. وإن بدء تحرير فلسطين الفعليّ.. كان في الساعة التي عُزِل فيها «كلوب»، وطُرِد خارج البلاد. ولو تمّ عزله قبل مأساة فلسطين ـ لما كانت هذه المأساة. ثم حييتُ «الملك حسين»، وخطوته الشجاعة، وموقفه البطولي.

وزرنا مدينة «القدس» وصلينا في «المسجد الأقصى».. ووقفنا طويلاً أمام «الصخرة المقدّسة» التي عرج منها النبي «محمد» إلى السماء. وانتابنا شعور غريب.. ونحن نعود بأفكارنا القهقرى إلى تلك الأيام البعيدة.. التي قاسى فيها المسلمون، من مشركي قريش، ما قاسوا.. وعانوا من طغيان عَبَدة الأصنام ما عانوا... حتى نصر الله دينه، وأعزّ شأنه، ورفع لواءه في الخافقين.

والمرء الذي لا يعيش ماضيه.. ليس جديراً بأن ينتسب إليه. ومن يحاول الابتعاد عن الأحداث التي عاشها قومه ـ في تلك الأزمنة السّحيقة.. وما لاقوه وقاسوه وعانوه.. ليس أهلاً لأن يكون منهم.. ولا جديراً بأن يحمل اسمهم، ويتحلّى بصفاتهم وسماتهم.

والمسلمون الشرفاء.. هم الذين يعتزّون بهذه النفحة القدسيّة التي تسلسلت إليهم عبر القرون.. وعمرت قلوبهم بالإيمان، ونفوسهم بالتقى واليقين.

* * *

وطفنا في أرجاء «كنيسة القيامة» ـ وكأنها حيّ واسع، ضمن مدينة واسعة. والدّاخل إليها.. يشعر بأنه في رِحاب التاريخ، والنِّضال الأبديّ ضد اليهود.

روحانية صافية سامية نقيّة.. كانت تنهال علينا من عَلٍ ـ ونحن في حرمة «المسجد الأقصى»، و«كنيسة القيامة».. وتَتْثّال رهبةً وتقىً وخشوعاً.

في اللّحظات.. التي يعيشها المرء، وهو في رحاب التاريخ والإيمان، يشعر بأنه قد انسلخ من محيطه المادّي.. واندغم بالمثل الأعلى ـ وكأنه أصبح جزءاً منه!.

في تلك اللحظات وحدها.. يعود الانسان إلى انسانيته، وإلى ضميره المستمدّ

من ضمير الغيب.. إلى شعوره ـ بأنه انسان تافه.. إذا لم يعمّر قلبه الإيمان بالله، والانصياع لأوامره ونواهيه!

في تلك اللحظات.. يشعر المرء بصغره، وبحاجته إلى عطف إلهي، ورأفة سماوية.. ويوقن بأنه يخدع نفسه، ويخدع الآخرين، حينما يحسب أنه شيء ذو قيمة.. وهو لا قيمة له ولا شأن ـ إلا بمقدار ما يضطرم في نفسه من العواطف، وفي قلبه من التسامح والمحبّة والصدق.

في تلك اللحظات.. يرسم المرء لنفسه برنامجاً صافياً ونقيّاً. ويعاهد الله.. على أن يستأنف حياةً مستقيمةً خاشعةً بارّة... مؤمنةً متواضعةً ودودة.

ولكن.. إلى متى يستمرّ هذا الشعور مع المرء، ويبقى؟ وإلى متى يظل متقيداً بتلك الروحانية الصافية السّامية ـ التي ملأت قلبه خشيةً ورهبةً، وخضوعاً وخشوعاً؟ إلى متى؟ الله أعلم وأدرى!

وفي «بيت لحم».. وقفنا خاشعين، مطأطئي الرؤوس والقلوب ـ أمام السرير الذي قيل إن «السيد المسيح» قد وُضع فيه.. بعد أن وُلد تحت الشجرة. وقد جاء في القرآن الكريم ﴿وهُزّي إليك بجذعِ النخلة تُساقط عليك رُطَباً جَنِيّاً. فكلي واشربي وقرّي عيناً، فإمّا تَرينّ من البشر أحداً.. فقولي إني نذرتُ للرحمن صوماً، فلن أكلّمَ اليوم إنسيّاً﴾ صدق الله العظيم.

وإنّه لمن العبث ـ بل من المحال.. أن يستطيع المرء خنق ارتعاشته أو كتمانها، وهو يقف أمام جلال البطولة ـ بطولة «محمد»... وهو يجابه مشركي قريش.. وبطولة «المسيح»، وهو يزجر اليهود بصوته، ويضربهم بسوطه، ويطردهم من الهيكل.. صارخاً بهم: «لا تجعلوا بيت أبي مغارة لصوص».

ولكنهم، يا معلّم، قد عادوا إليه.. وجعلوه «مغارة لصوص»! وكفر بعض أتباعك بتعاليمك.. فأيّدوهم وناصروهم.. ومكّنوهم من الاستيلاء على بيت أبيك.. وجعله مغائر للأفّاكيين المجرمين!!

فأين «سوطك»، يا «معلّم» لترفعه من جديد، وتطرد به الصهاينة من جديد ـ بعد أن تقاعس أكثر العرب عن واجباتهم، وانصرفوا إلى ملذّاتهم.. ولم يعودوا

يأبهون إلا بتأمين مصالحهم، والمحافظة على كراسيهم ومنافعهم!! ولم يبق في الميدان.. إلا جيش سورية وصمود سورية، وبطولة سورية.

أين سوطك يا «معلّم».. والإنسانية تترقّبه وتنتظره ـ ليُجْلِيَ الصهاينة المحتلين عن فلسطين.. ويعيد الحق إلى أربابه، والأرض إلى أصحابها؟

* * *

ووقفنا على سور القدس القديم.. الذي بُنِي لمقاومة الصّليبيّين وصدّ هجومهم الاستعماري على البلدان العربية ـ باسم «الصّليب»، و«الصّليب» منهم براء!

وقفنا على ذلك السّور ـ وإذا في الجانب الآخر.. القسم الآخر من القدس يقيم فيه الصهاينة، محاولين جعله عاصمةً لهم.. وقد جعلوه!

ومن هناك.. أطللنا على الأفق البعيد الذي تظلّله السماء... وسألناها بكل حرقة وأسى:

إلى متى يظلّ الصهاينة يعبثون بمقدّساتك ويحرّفون آياتك، وينكرون رسالاتك.. ولا يقيمون وزناً إلا لـ «توراتهم» التي وضعوها في «بابل».. بعد ثمانمائة عام من عهد «موساهم»، وضمّنوها منهاجهم الزّمني الذي لا حدّ له.. وجشعهم المادي بأن يجعل البشر كلهم عبيداً لهم!

ويهزؤون من العالم كلّه ويسخرون ـ وهم يزعمون أن ما جاء في «توراتهم» من ارتكاب الموبقات، وتقديس المحرّمات.. وتشجيع على ارتكاب القتل والغدر والمكر.. واستعباد النّاس، كل النّاس.. إنّما هو كلام الرّب ـ ربهم هم ـ الذي يأمرهم، إذا دخلوا مدينةً.. أن لا يتركوا فيها «بائلاً على حائط»! فأيّ ربّ هو هذا..؟!

وإلى متى يظلّ هؤلاء الأفاكون يخدعون المتديّنين ـ وخاصة المسيحيين الشرفاء الأبرياء.. ويوهمونهم بأنّ «التّوراة» هي كلام «الرّب».. وهي ليست إلا كلام «حاخاماتهم» الذين حشروا فيها نزواتهم ونزعاتهم.. ثم رغباتهم بالتّسلّط والإجرام!

وإنه لمن المؤسف والمؤلم.. أن يطلق المسيحيون على هذه «التوراة» اسم

«العهد القديم».. وعلى «الانجيل» الشريف اسم «العهد الجديد».. وأن يجمعوا الكتابين في مجلد واحد!!! و«التوراة».. ممتلئة «أسفارها» بالنّهب والسّلب وسفك الدّم ـ بينما أسفار «الانجيل» الشريف.. تدعو كلها إلى المحبّة والاحسان والتّسامح ـ كما جاء فيه:

«أحبّوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، صلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم».

فكيف يمكن الجمع بين نقيضين.. والمؤاخاة بين فكرتين متعارضتين متباينتين؟!

ولقد سمعتُ «المطران الفرزلي».. يتعرّض لهذه النّاحية، البالغة الأهميّة، في الكاتدرائيّة الأرثوذكسية بمدينة «سان باولو ـ البرازيل»، وفي موقف ديني رسمي، ويعلن بصوته الجهوريّ.. «أنه لا علاقة للمسيحيين بالتّوراة.. فهي كتاب اليهود، ونحن كتابنا «الانجيل المقدس».. وروحانية «المسيح».. لا يمكن أن تختلط بتعاليم «التوراة» الدّاعية إلى العنف وسفك الدم».

وسألتُ الحبر الجليل، زعيم الطائفة الأرثوذكسية الكريمة.. بعد انتهاء «القداس»، ودخوله مكتبه، سألته إذا كان يسمح بنشر هذا الكلام الهادف البنّاء.. والذي يتعارض وما درج عليه المسيحيون واعتقدوه. فأجاب، وبكل حماس، «نعم.. انشره».

وحينما نشرتُه في جريدة «الأنباء» التي كنتُ أصدرها في البرازيل.. تلقيتُ ما لا يحصى عدده ـ من الهواتف والرسائل والبرقيّات.. وكلّها تؤيّد قول «المطران الفرزلي»، وتثني عليه أطيب الثناء.

ومثل هذه الرّوحانيّة الصّافية، والموقف المشرّف.. وقفه، ويقفه، «المطران كيرلّلس»، راعي الطائفة الأرثوذكسية الكريمة في الأرجنتين.. وعنده نفس الانفتاح، والتّعلّق بشمائل الروح، ومنطق العقيدة الطاهرة.. وروحانيتها السّامية.
وكلا الحبرين الجليلين.. ينطلق من تعاليم «الإنجيل المقدس» ـ لا من تعاليم «التوراة» التي وضعها حاخامو اليهود.. وليس «موسى»، ورب موسى!

فمتى ترتفع أصوات أخرى ـ مدوّية مجلجلة، شريفةً مخلصة، إلى جانب ذلك الصّوت النبيل البنّاء.. الذي انطلق من المهجر؟

* * *

في يوم واحد.. طفنا مئات الكيلومترات بالضفة الغربيّة ـ التي يبلغ طول حدودها ـ مع البقعة التي يحتلُّها العدوُّ الصهيوني ٦٥٠ كيلومتراً. وهي تعادل ضعفيْ الحدود السورية واللبنانيّة والمصريّة مجتمعةً، مع القسم الذي تهيمن عليه اسرائيل.

وكانت خاتمة المطاف في مدينة «أريحا».. حيث أُقيمت لنا مأدبة عشاء كان من المرتقب أن يحضرها «الملك حسين» ـ ولكن أمراً عارضاً ـ كما قيل لنا.. قد حال دون ذلك. ولكنّه حضر أكثر من مأدبة أُقيمت لنا ـ ومنها المأدبة التي أقامتها قيادة الجيش، في أحد المعسكرات، بعد مناورة ضخمة بالأسلحة الحيّة.. وهذا لا يكون إلا في المناسبات البالغة الأهميّة.

وكان «الحسين» يتمتّع بشعبيّة واسعة.. بعد إقصائه قائد الجيش «كلوب» ـ حتى إنَّ النّاس، في المدن التي زرناها، كانوا يتدافعون نحونا.. ويسألوننا بلهفة إذا كان «الملك» معنا.

وهذه هي الشعوب.. تستثيرها المواقف الوطنية البطوليّة، وتلهب حماستها وعاطفتها.. وتجعلها تضطرم كالأتون.

ومن يغيّر موقفه، ويتنكّر له.. يغيّر الناس موقفهم منه، ويتنكّرون له ـ وهذا هو واقع الحياة والناس.

* * *

وفي «أريحا» ودّعنا الأستاذ «أكرم زعيتر» عائداً إلى نابلس. وكانت له عندي يد بيضاء في العراق.. أتيتُ على ذكرها فيما سلف، ولم يُقدَّر لي أن ألتقي به، بعد ذاك إلى سنة ١٩٨٤ حيث زرته في مكتبه بعمّان.. وأحببتُ أن أساهم في طبع بعض مؤلّفاته.. فقدمتُ له مُغْلَفاً، ورجوته أن لا يفتحه إلا بعد مغادرتي مكتبه وهو رئيس «لجنة القدس»، وعضو مجلس الأعيان الأردني، وما يزال ـ بعد أن

شغل منصب وزير الخارجية الأردني، ووزير البلاط، وعُيِّن سفيراً في أكثر من بلد عربي وأجنبي.. وكان لامعاً وبـارزاً وذا فاعليَّة قويَّة ـ في جميع المراكز التي تولّاها، وحقق نجاحات هامة بها.

وحينما عدتُ إلى الأرجنتين.. فوجئتُ برسالة منه، وطيّها شيك بالمبلغ الذي كنتُ قدّمته له. وفي رسالته يذكر أنه في وضعٍ مادي مريح!. وقد تلطَّف وذكر عبارات شكر كريمة وهو يعيد المبلغ.

وهذا هو «أكرم زعيتر» المجاهد، والإنسان العفّ النبيل. وقد ذكرتُ مواقفه ونضاله في كثير من مواقفي، ومقالاتي ومحاضراتي، وبعض مؤلفاتي ـ قبل ذلك وبعده.. وما أزال. مدّ الله في عمره.

* * *

صباح اليوم الثالث ـ وقبل سفرنا وعودتنا إلى دمشق.. زارنا «سمير الرفاعي»، رئيس الوزارة الأردنيَّة، وشكا لنا وضع الأردن المالي المتردّي، بعد أن أعلنت بريطانيا حجبها إعانتها السنوية له ـ وهي عشرة ملايين جنيه استرليني، وأطلعنا على بعض الحقائق المؤسفة. الناتجة عن الوضع المالي القاسي. ووعدناه بدراسة الموضوع جدّياً.. واتّخاذ ما يمكن اتّخاذه من إجراءات.

وودّعتنا السلطات الأردنيَّة، والشّعب الأردني الكريم، بنفس الحفاوة التي استقبلنا بها، من عمان إلى الحدود.

وفي دمشق.. عقدت «لجنة الشؤون السياسيَّة» اجتماعاً خاصّاً لدرس موضوع الأردن المالي، والسُّبُل لإعانته ومساعدته. وحضر الاجتماع رئيس المجلس النيابي، ورئيس مجلس الوزراء، ووزراء الخارجية والماليَّة والاقتصاد، وأمين عام القصر الجمهوري. وتقرَّر بذلك الاجتماع.. تشكيل وفد لزيارة مصر، واطلاع «الرئيس عبد الناصر» على واقع الأردن.. ووجوب الإسراع لمدّ يد العون إليه.. ثم زيارة المملكة العربية السعودية للغاية نفسها. وكنت عضواً بذلك الوفد.

في مصر.. استقبلنا «الرئيس عبد الناصر» ـ وكان وقتذاك رئيساً لمجلس الوزراء، ولم يكن قد انتُخِب رئيساً للجمهورية. ورئس الوفد «الدكتور ناظم

القدسي» رئيس مجلس النواب. وحللنا ضيوفاً على الحكومة المصريّة بأحد الفنادق الفخمة.. وأُعِدّ لنا برنامج حافل ـ ولكنهم مع الأسف، وضعوا لتنقّلاتنا سيّارات أجرة «تكسي»! وليس ثمّة سيارة رسميّة واحدة ـ وحتى لرئيس الوفد، وهو رئيس مجلس النواب.. كما أسلفنا!

وقد أثار هذا التّصرّف ـ غير المعقول، ولا المقبول، شعور الأسى بيننا.. وأطلعنا مرافقينا المصريين على تأثّرنا من هذه المعاملة ـ وكان في طليعتهم «الدكتور عبد القادر حاتم» وزير الاعلام، وقلنا لهم بصراحة: إنه من غير المألوف.. أن تُقدّم لوفد رسمي سيارات أجرة يستقلها في زياراته وتنقّلاته!

ويبدو أن ذلك الإجراء المخجل... كان من أحد رجال الثورة.. الذين لا يقيمون وزناً للمجاملات والرّسميّات ـ وحتى لا يعرفونها! ولمّا علم «عبد الناصر» بما جرى.. تأثّر جداً، واعتذر منا، واستبدل بسيارات الأجرة سيارات رسميّة.

ولمّا عرضنا على سيادته موضوع مساعدة الأردن.. قال لنا: إنّ مصر مستعُدة لتقديم المبلغ الذي تحدّدونه. وصارحنا بأنه لا يثق بالملك «حسين» ـ لكنه قال: أمّا أن سورية تريد هذا.. فليكن ما تريده سورية.

وكانت العلاقات بين سورية ومصر.. قد اكتسبتْ طابعاً أخويّاً، بعد رحيل «الشيّشكلي»، وموقف سورية البطولي من الأحلاف العسكريّة، وصمودها في وجه الصهيونية والإمبرياليّة. كما أنّ استجابة سورية السريعة لحضور مؤتمر «باندونغ».. كان لها أثر كبير أيضاً بتقوية تلك العلاقات، وتنميتها بين البلدين الشقيقين ـ لأنّ «عبد الناصر» كان أحد الدّاعين إلى ذلك المؤتمر التاريخي.. الذي كان مُنطَلَقاً لتحرير البلدان المستعمرة.. ونقطة تحوّل في تاريخ الشُعوب التي بدأت تتطلّع إلى الحرية والاستقلال، والتّفلّت من سلطة الامبرياليّة.. وطغيانها واحتكاراتها.

وكما أن الانسجام التام بين وفدي البلدين، مصر وسورية، داخل المؤتمر، وعند تشكيل لجانه واتخاذ قراراته.. كان عاملاً لفتح صفحة جديدة من التعاون المشترك في المجالات العربيّة والدوليّة ـ مما أدّى إلى عقد اجتماعات مكثّفة من

أجل توحيد مناهج التّعليم، ورسم الخطط الكفيلة بقيام تعاون مثمر على نطاق واسع. وقد حفلت زيارتنا تلك بأبحاث جدّيّة... وبنّاءة.. لزيادة التعاون، وتقويته وتنميته.

وفي أحد اجتماعاتنا، بالرئيس «عبد الناصر»، قلتُ له.

هل هناك.. ما يمنع قيام اتحاد بين سورية ومصر؟

وأبدى «عبد الناصر» اهتماماً بالغاً بالسؤال. وشكرني لطرح الفكرة، وأثنى على العاطفة القومية التي دفعتني لإبدائها وقال:

موضوع الاتحاد.. هام جداً ـ ولكن لا يمكنُ التّسرع ببحثه قبل التّمهد له. وأضاف: أمس.. تمت الموافقة بين بلدينا على توحيد برامج التّعليم، وهذا شيء هام جداً، ونأمل أن نوفّق لايجاد «وحدة اقتصادية» فيما بعد. ونحن الآن نبحث واياكم سُبُل تنسيق سياسة بلدينا، وتعاونهما، على نطاق واسع وشامل. وبعد هذا... يمكن التفكير جديّاً بقيام «اتحاد» فيما بيننا. أما التّسرُّع.. فقد تكون عواقبه وخيمة!

بذلك القول.. كان وكأنه ينظر في الغيب، ويستشِفُ معالمه! رحمه الله.

وكان سؤالي ذاك.. يتضمن اقتراحاً حول «اتحاد» يُبقي لكل واحد من البلدين كيانه واستقلاله الذّاتي ـ وليس «وحدةً» يذوب فيها الكيانان.. ويصبحان كياناً واحداً ـ كما حصل فيما بعد.

و«الوحدة»... هي ولا شك هدف جميع الغيارى المخلصين من أبناء العروبة.

ولكنّ الطريق لتحقيقها ـ وثمّة معوقات كثيرة مع الأسف! ـ هو طويل وعسير وشاقّ.

ومع أن «الاتحاد» أكثر سهولةً، وأقلّ صعوبات، وتعرضاً للنكسات.. فإنّ «عبد الناصر» رأى التّأنّي بالتفكير به.. قبل الشروع باتخاذه.

وفي يقيني ـ وأنا على ثقة تامة بما أقول.. لو أنّ «الوحدة» التي حصلت، فيما بعد، بين البلدين... كانت «اتحاداً»، كما اقترحتُ، لما حصلت تلك النكسة الرّهيبة المؤلمة على «الوحدة»، ولكان من الممكن أن يستمر «الاتحاد» إلى الآن.

وفي اليوم الثاني... نشرتْ صحف القاهرة كلها، وما أزال أحتفظ ببعضها، النبأ التالي:

«لقد طرح النّائب وأمين سر المجلس النيابي السوري «عبد اللطيف اليونس»، عند اجتماع الوفد السوري بالرئيس «عبد الناصر» أمس، طرح فكرة قيام «اتحاد بين سورية ومصر». وقد رحّب الرئيس بالفكرة، وحبّذها، وأثنى عليها. ولكنّه طلب التّأني، وعدم التّسرّع باتخاذ قرار بهذا الشأن.. إلى أن تكون الظروف ملائمةً، وبعيدةً عن التّعقيد والمجازفة».

كانوا ـ كما ذكرت... قد أعدّوا لنا برنامجاً حافلاً لزيارة المدن الكبيرة، والأماكن الأثريَّة الشهيرة. ولم أكن زرتُ مصر قبل ذلك.

وحينما ضاق الوقت بنا.. انقسم الوفد إلى فئتين: رئيس الوفد، ومعه بعض الأعضاء، ذهبوا إلى حدائق «أنشاص»، وأماكن أخرى قريبة. وآثرتُ، وبعض الزملاء، أن نذهب إلى الاسكندرية ـ وكنتُ رئيس الوفد ـ بصفتي أمين سرّ المجلس النيابي.

وأقام لنا محافظ الاسكندرية مأدبة غداء حافلة. وكان أحد حضورها رئيس «الغرفة التجارية»... وقدّم لي بطاقته، وكتب عليها تحت اسمه: «باشا سابقاً»..! وحينما أريتها لزملائي.. انفجروا ضاحكين ـ وما يزال بعضهم يتندّر بها إلى الآن.

وقد علمتُ.. أنّ كثيرين من «باشوات» مصر.. يضعون على بطاقاتهم «باشا سابقاً» ـ لأنهم يعتزون كثيراً باللقب ويباهون.. وما يزالون يتخاطبون به ـ رغم إلغائه، وعدم السّماح باستعماله! وحتى إذا أراد أحدهم أن يبدي تقديراً للثاني يقول له: يا: «باشا»!. ويقال: إن الدكتور «طه حسين» عميد الأدب العربي، كان يحبّ أن يقال له: يا «معالي الباشا» ـ بعد أن عُيِّن وزيراً بعهد «فاروق» الملك، وأنعم عليه بلقب «باشا».

وبهذه المناسبة.. اذكر أن الناقد الشهير «مارون عبود» قد حصل على لقب «بيك» من السلطات التركية. وكان يضع على بطاقته الخاصة: «مارون بيك عبود»، ويضع إمضاءه على رسائله.: هكذا أيضاً! ولما عاب عليه أحد أصدقائه

هذا التّصرف.. أجابه بلهجته المَرِحة:

«ليش يا خيّ!! أنا دفعت ثمن لقب «بيك» خمسين ليرة ذهبية. فأعيدوا لي مصريّاتي.. وخذوا هذا اللّقب ـ لا بارك الله لكم به»!.

وذهبنا جميعاً.. إلى «الأُقصُر» و«أسوان». وهناك.. تجلّت لنا عظمة التاريخ وأبّهته، ومراحله المهيبة الرهيبة، والمبدعة الرائعة،

وفي «وادي الملوك».. حيث اكتُشِفت قبور فراعنة مصر، وما فيها من ثروات أثّرية دفينة ـ لا تستطيع براعة وصفها.. أو تحديد ضخامة ثمنها!.

هناك... وقفنا خاشعين أمام جلال التّاريخ وعظمته.. وقدرة الإنسان الذي استطاع أن يحتفظ بتلك الجثث المحنّطة سليمة. وإلى جانبها أطعمة وحبوب.. ما تزال كما كانت، منذ كانت ـ رغم ألوف السنين التي مرت عليها.. حتى إنّ المرء ينكر ما يقرؤه ويسمعه عنها إلى أن يراها!.

والفراعنة القُدامى.. كانوا في مصر العُليا يعتقدون أنّ القبور كلّما كانت أكثر عمقاً في الأرض.. يكونون أقربَ إلى السماء. ولذلك كان عمق قبورهم، وفي مدافنهم الخاصة، يصل إلى عشرات الأمتار ـ وذلك عكس «الفراعنة» الذي انحدروا إلى مصر السُّفلى... فقد تبّدلت نظرتهم للخلود، والصعود إلى السماء ـ إذ كانوا يعتقدون أنه كلما ارتفعت قبورهم إلى العلاء... يكونون أقرب إلى السماء! ولذلك بنوا «الأهرام» التي كانت قبوراً للفراعنة.. ومشيَّدة بشكل يحار العقل في كيفيّة تشييدها وبنائها.. وبما يحيط بها من أسرار وألغاز! ويوجد في أهرام «خوفو» الكبير بقعة من الأرض، تبلغ بضعة أمتار مربّعة، لو وضع فيها الطعام أشهراً عديدة، لما فسد ولا تغيّر لونه ولا طعمه! شيء كأنه خيال.. ولكنه حقيقة!.

* * *

بعد عودتنا من مصر، بأيام قليلة، سافرنا إلى السعودية للغاية نفسها ـ وهي مساعدة الأردن. وكان «إحسان الجابري» رئيس «اللجنة السياسية» هو الذي يرأس الوفد. ولكنه بعد أن صعد إلى الطائرة.. بدتْ على وجهه علائم الشُّحوب،

فاستُدعِيَ الطبيب فوراً. ولمَّا فحصه.. حال بينه وبين السَّفر.. فترأس الوفد «الدكتور معروف الدواليبي» ـ بصفته رئيس مجلس نيابي سابقاً.

وحينما وصلنا «جدَّة».. أُخبِرنا بأنَّ «الملك سعود» خارج البلاد. وكان يحضر اجتماعاً عُقِدَ مع «عبد الناصر» و«شكري القوتلي» في الاسكندرية. وفي اليوم الثاني لوصولنا.. عاد الملك واستقبلنا في مكتبه بنفس اليوم. ولمَّا عرضنا عليه موضوع مساعدة الأردن ماليّاً.. أحالنا إلى شقيقه «فيصل» ـ وليّ العهد، ونائب رئيس مجلس الوزراء، ووزير الخارجية.

لقد كان «فيصل» أميراً في ذلك الحين.. ثم أصبح ملكاً بعد تنحية أخيه «سعود» عن العرش.

وعقدنا اجتماعات متواصلة مع «فيصل» ـ طوال ثلاثة أيام متتابعة.. ونحن نحاول اقناعه بوجوب مساعدة الأردن، ودعمه مادياً.. وهو يعارض بشدّة ويمانع.. وله رأي غير كريم بالملك «حسين» ـ وليس ثمَّة موجب لذكره، أو الإشارة إليه بأكثر من هذا..!.

وكان «فيصل».. حينما ينفعل، وهو يتحدث ينزل عن كرسيه، ويضع ركبته اليسرى على الأرض.. وتبقى اليمنى مرتفعة، حيث يركِّز عليها يده، وهو يؤشِّر بحدة وعنف ـ رغم رصانته، وما عُرِف عنه من هدوء واتِّزان ووقار.

وعبثاً حاولنا زحزحته عن موقفه.. وإعطاءه فكرة كريمة عن «الملك حسين».. وخطوته البنّاءة ـ الجديرة بالتقدير والتشجيع.

عبثاً حاولنا اقناعه بوجهة نظرنا، وجعله يتراجع عن موقفه المتصلّب!.

ولما يئسنا من إقناعه.. قرّرنا العودة إلى دمشق. وأبلغنا مرافقنا «الشيخ يوسف ياسين»، وهو مواطن من اللاذقية ـ وهو في السعوديَّة كان يحتلّ مناصب عدة لجان: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» ـ التي تلاحق شاربي الخمر والدخان، وما أشبه! وكان هو الذي اقترحها كما قال لنا! وثمَّة صلاحيّات أخرى واسعة له. وقد أبلغناه، أننا قرّرنا العودة لسورية بذلك النهار. لأنَّ زيارتنا أخفقت في غايتها. وفعلاً.. طلبنا من السفير السوري الاتصال بدمشق لارسال طائرة

خاصّة تنقلنا ذلك النهار إليها. وقد بدأنا بتهيئة حقائبنا استعداداً للرَّحيل.

وكانت السعوديّة قد قدّمت لنا طائرةً خاصة.. حينما علمت برغبتنا في زيارتها. ولو علمت مسبقاً بالغاية من تلك الزيارة.. ربما كان لها موقف آخر.

وكلّ زائر يزور السعودية، بدعوة منها، أو رغبة منه.... يلاقي إكراماً وحفاوةً ـ من المحال أن يجد شبيهاً لهما، في أيّ بلد آخر.

ولمّا علم السعوديون بعزمنا على السفر.. جاء «فيصل» فوراً وأعلن موافقته على دفع المبلغ الذي نطلبه للأردن وقال:

نحن في سبيل سورية.. نضحّي بالمبلغ الذي تقرّرونه ـ وإن كنّا لا نؤمن بوجوب هذه التضحية.

وقرّرنا تحديد عشرة ملايين جنيه للأردن.. تُقدّم له سنوياً ـ بدلاً من المبلغ الذي كانت تقدّمه بريطانيا ـ مقابل إشرافها على الجيش الأردني.. بواسطة رجل مخابراتها «كلوب».

مصر تدفع أربعة ملايين، والسعودية أربعة ملايين، وسورية مليونين.

ووافق «فيصل» على ذلك.. وتعهّد بتقديم شيك، بالمبلغ المطلوب منهم دفعه.

وتمّ دفع العشرة ملايين جنيه للأردن في السنة الأولى. وأما السَّنة الثانية.. فقد توقّف الدفع ـ لأنّ خلافاً حاداً.. نشب بين السُّلطة الأردنية، والدول الثلاث: مصر وسورية والسعودية.. أدّى إلى التوقف عن تقديم الدعم المالي للأردن.

تلطّف السعوديون، بعد أن تمّ التفاهم معهم، وأعدّوا لنا برنامجاً حافلاً بالتّنقلات والزيارات والدّعوات. وقُدّر لنا، في تلك الرِّحلة، أن نزور عدداً من المدن السعودية، وأن نؤدي «العُمْرَة» ـ وقد ارتدينا ثيابها في «جُدّة»، وذهبنا بالسيارات «مُحرِمين» ـ مرتدين ثوب الإحرام ـ إلى مكّة المكرَّمة.. حيث أدّينا الشعائر كاملة.

طفنا حول «الكعبة» الشريفة سبع مرّات.. وفي كل مرّة كنا نلمس «الحجر الأسود» المقدس، ونتبرّك به ـ وهو لكثرة ما تلمسه الأكف، ملايين المرات في العام، أصبح أملس.. وداخل الحائط بضعة سنتمترات. وشربنا من «ماء زمزم»

الكائن قرب «الكعبة» المقدسة.. وسعينا بين «الصَّفا» و«المَرْوَة» سبع مرات مهرولين، وهما هضبتان مرتفعتان، اقتداءً بسيدتنا «هاجر» التي سعت بينهما سبع مرّات، وهي تنادي زوجها «ابراهيم الخليل».. الذي تركها هي وابنها «اسماعيل»، في ذلك الوادي السَّحيق، وعاد إلى زوجته «سارة».. التي كانت ألّحت عليه أن يبعد وصيفتها «هاجر» وابنها اسماعيل.. الذي بدأ يستأثر بعاطفة أبيه نحوه. وتقول «التوراة» إن اسماعيل عطش وبكى، وضرب الأرض بقدميه.. فانفجر ينبوع «زمزم». ومرّت قبيلة «جُرْهُم».. قرب ذلك الوادي، ورأت الطيور تحوِّم فوقه.. فأدركت أنه يوجد ماءٌ هناك.. فعسكرت فيه، وبنت «مكّة». ثم تقول «توراة اليهود» ـ التي لا أثق بها، ولا بما تقوله، تقول.. إن «سارة» ولدت «اسحاق» بعد ذلك.. فزَالت غيرتها من «هاجر»، وابنها «اسماعيل»، وطلبت من زوجها «ابراهيم» أن يذهب ويبحث عن وصيفتها وابنها حيث تركهما. ولما عاد إليهما.. ووجد ماءً، وبناءً، وناساً يسكنون قرب «هاجر».. رحل إليه، وأقام فيه، وبنى «الكعبة».

وزرنا «مِنَى» و«المزدلفة» وسهل «عرفات» ـ حيث أدّينا صلاة الظهر والعصر فيه.. وصعدنا إلى جَبَله، وهو هضبة ترتفع فوق ينبوع ماء عذب. وزرنا ضريح أبينا «آدم».. الذي يُقَال إنه هبط و«حواءه» على تلك الهضبة، ودُفِنا فوقها.

والتاريخ هو التاريخ. وثمّة فارق كبير.. بين التاريخ والأساطير.

روحانيّة نقيّة سامية.. ترافق المسلم ـ وهو يؤدي الشعائر المقدسة، ثم يعود بفكره إلى ذلك الماضي البعيد البعيد.. ويستعرض تلك الأيام السود.. وما تخللها من اضطهاد المسلمين، وعنت وإيذاء، ومقاومة شرسة حادّة.. وكيف صبرت تلك الفئة القليلة المؤمنة.. وتحمّلت بصبر عجيب ما لقيته من مشركي قريش، وعانته وقاسته.. حتى اضطُّر كثير من المسلمين للهجرة إلى الحبشة، والاحتماء بها من أذى مشركي قريش، وعدوانهم وطغيانهم!.

واضطُّر الرسول نفسه ـ ﷺ ـ للهجرة إلى مدينة «الطائف» كي يستجير بأهلها ويدعوهم إلى الاسلام.. لكنهم لم يستجيبوا.. وإنما وجّهوا صبيانهم إليه يلاحقونه

بالحجارة فعاد «محمد» إلى «مكة» خائباً. ثم اضطر بعد ذلك، إلى أن ينزح عنها ويهاجر إلى «يثرب» ـ «المدينة المنوّرة».. حيث استقبلته فئة مؤمنة من قبيلتي «الأوس» و«الخزرج» وحمته ورعته.. وكانت عوناً له في الحرب التي شنّها عليه مشركو قريش. وحتى ذلك الحين.. كان المسلمون يتلقون الاعتداءات، ولا يجيبون عليها بمثلها ـ إلى أن نزلت الآية القرآنية الكريمة: ﴿وأعِدّوا لهم ما استطعتم من قوّة﴾، ثم: ﴿ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه، إن الله لا يحبُّ المعتدين﴾. وحينئذٍ امتشق المسلمون أسلحتهم، وبدأوا يجابهون العدوان ويتحدّون.

لا يستطيع المسلم.. إلا أن يعيش فصول ذلك التاريخ الحافل العجيب، وهو يزور «مكة» المكرّمة، وقبر «الرسول» في المدينة المنورة «يثرب»، وقبور بعض أصحابه في «البقيع»، ويقف برهبة وخشوع.. أمام تلك العظمة، وذلك النضال الشريف ـ في سبيل المُثُل الانسانية العليا.. ويستعيد بذاكرته تلك الأحداث.. وما رافقها من آلام ومآس وتضحيات.. ثم ما نتج عنها، بعد ذلك، من نصر مؤزّر وفتوحات.. ومجد عربي زاهر ساد أكثر مناطق الدنيا، ورفع الأعلام العربية عليها.

ومما يشرّف ويبعث على الاعتزاز والزّهو، أن «الغساسنة» العرب، وهم «مسيحيون»، كانوا يقاتلون مع إخوانهم المسلمين العرب ـ مندفعين مستميتين. ولما سُئِل أحد قادتهم ـ وكان قد أُسِر قرب. مدينة «حمص»:

كيف، وأنت مسيحي، تقاتل مع المسلمين إخوانك المسيحيين؟! فأجاب: قبل أن أكون مسيحياً.. فأنا عربي.. وأنا أقاتل مع إخواني العرب.

- يا للعظمة والمجد والخلود! ويا لكبرياء النفس العربية.. وعزّتها وكرامتها! وهكذا.. فليكن مفهوم القوميّة والإيمان بها ـ وإلا.. فلا.

* * *

في أحد الأيّام.. كنا مدعوين للعشاء عند «الملك سعود»، في قصره الجديد

الفخم، بمدينة «جدَّة» وقد تمَّ تدشينه في حفلة العشاء التي أقيمت لنا. وطفنا بصالاته الواسعة التي تتسع لألوف وألوف.. وكلها مفروشة بالسجاد الفاخر.. وتزيِّن سقوفها عشرات الثُّريَّات الكبيرة الضَّخمة.. التي تكاد الواحدة منها تغطي سقف غرفة صغيرة! فيا للأناقة، والأبَّهة، والتَّرف!! والعظمة لله.

عصر ذلك اليوم ـ الذي كنا مدعوين فيه للعشاء على مائدة «الملك».. فتحتُ باب غرفتي بقصر الضيافة، وكانت في الطابق الرابع وإذا بـ «الشيشكلي» واقف على باب غرفته ـ الملاصقة تماماً لغرفتي. وحينما رآني.. أغلق الباب وتوارى خلفه.

واتَّصلتُ فوراً برئيس الوفد «الدكتور الدواليبي»، وببقيَّة أعضاء الوفد، وأخبرتُهم بوجود «الشيشكلي» معنا بقصر الضيافة. واتصل رئيس الوفد فوراً بـ «الشيخ يوسف ياسين»، مرافق الوفد، وسأله إذا كان «الشيشكلي» مدعواً للعشاء معنا على مائدة «الملك»، فأجاب بالإيجاب. واجتمعنا حالاً.. وقرَّرنا الاعتذار عن حضور مأدبة العشاء مع رجل صدر قانون، من المجلس النيابي السوري، باعتباره «مغتصب السُّلطة».. وهو ملاحق قضائياً من المحاكم السورية. وأبلغنا قرارنا إلى«الشيخ يوسف ياسين» الذي عاد إلينا، بعد قليل، يؤكد أنَّ دعوة «الشيشكلي» للعشاء قد أُلغيت.. ويسأل إذا كان ثمَّة مانع من حضور «فوزي سلو» معنا ـ وهو بعد أن أقاله «الشيشكلي»، من رئاسة الدولة، وحلَّ محلَّه. تعاقد مع المملكة العربيَّة السعودية للعمل فيها ـ بصفته مستشاراً عسكرياً.. فأجابنا بأن لا مانع عندنا ـ لأنه لم يكن رأس الأفعى، وإنما كان ذنبها.. وهو انسان غير لئيم، بل إنَّ نفسه كانت نزَّاعةً للخير. وعيبه الوحيد أنه عمل مع «الشيشكلي»، وكان ألعوبة بين يديه!.

وطوال زيارتنا.. التي استمرَّت بعد ذلك، بضعة أيَّام.. لم نر لـ «الشيشكلي» أثراً، ولم نسمع عنه خبراً. ويقال إنه منذ خروجه من سورية إلى حين اغتياله، كان يتقاضى من السعودية راتباً شهرياً ضخماً ـ وهذا شأنها، حتى الآن، مع جميع الذين يتعاطفون معها، ويؤيدون سياستها ومواقفها.

أُعِدَّت مائدة العشاء الحافلة التي أقيمت لنا، في صالة واسعة، وهي مؤلَّفةٌ من جناحين مستطيلين، يفصل بينهما «رأس» يبلغ طوله بضعة أمتار جلس في وسطه «الملك سعود» وحده! وجلسنا وبقيّة المدعوين ـ من رجالات المملكة، ومن أعضاء السلك الدبلوماسي العربي، على جناحيْ المائدة المستطيلة يميناً وشمالاً.

وطوال فترة العشاء... لم يجر أيّ حديث بيننا وبين الملك الذي ظلّ يصغي إلى موظّف وقف وراءه يتلو عليه الأنباء العالمية باللغة العربية. ويبدو أنه ـ أي الملك ـ كان متأثِّراً من اعتراضنا على وجود «الشيشكلي» معنا.. ولذلك بدا خشناً وجافاً!.

ولاحظنا.. أنه يوجد على المائدة طفلان، من أبناء «الملك»، لا يتجاوز عمرهما السّابعة والثّامنة، وهو أمر مستغرب جدّاً ـ في عالم البروتوكول.. أن يجلس طفلان على مائدة رسميّة.. لوفد رسمي!.

كما لاحظنا.. أن «الملك» مغرمٌ جداً بأبنائه. فقد دُعينا مرةً.. لمشاهدة سباق على الخيول ـ بين أبناء الأسرة المالكة وحدهم.. وعددهم مئات ومئات. وجلس طفلان إلى جانبيْ أبيهما الملك.. فكان ينحني ليقبّل أحدهما بلهفة ونَهَم.. ثم يلتفت إلى الآخر ليقبله بنفس النَّهم واللهّفة! وصدف أن سقط أحد المتبارين عن فرسه في مكان بعيد ـ بالساحة التي يجري فيها السِّباق.. ويبدو أنه كان ابن الملك الذي أظهر اضطراباً وتأثُّراً شديداً.. وبدت عليه علائم القلق المستفحل! ولم يستكن روعه.. حتى جاء أخوه «فيصل، وليُّ العهد»، وانحنى أمامه بما يشبه الركوع.. مطمئناً إيّاه بأنّ الحادث سليم. ومع هذا.. فإن اضطراب الملك لم يهدأ حتى جاء ابنه وهو يعرج قليلاً، فقبّله الملك كثيراً.. وأجلسه إلى جانبه ـ مكان أحد الطفلين الذي أجلسه في حضنه!.

* * *

طلب «الدكتور معروف الدواليبي» و«الشيخ مصطفى الزّرقا» من «الملك» أن يتوسط لنا عند «الشيخ محمد ابراهيم»، مفتي المملكة العامّ، وصاحب الكلمة التي

لا تُرَدّ ولا تُراجع كي يحدّد لنا موعداً لمقابلته. فاتّصل به «سعود» هاتفياً، ونقل إليه رغبةَ الوفد السوري بمقابلته، وطلب تحديد موعد لذلك. فحدَّد لنا الساعة الحادية عشرة من اليوم الثاني.

وكان من أعضاء الوفد أحد الأشخاص الذي رُئي أن «الشيخ» لا يرغب بمقابلته، وحضور مجلسه ـ لأسباب واعتبارات خاصّة.. لا مجال لذكرها هنا. فطلب «يوسف ياسين» من الشخص المنّوه عنه، أن لا يرافقنا. ولكنَّ زميلنا «فرزة المملوك»، نائب دمشق شجّعه على الذّهاب برفقتنا، قائلاً له: هذه فرصة العمر التي لا تُفَوَّت! فمضى معنا. ولم يدر به «يوسف ياسين» إلاّ وهو داخل البيت.. فامتقع وجهه، واصفرّ لونه.. ولكنه لم يعد يستطيع عمل شيء، وهو وسط المنزل.

كان «الشيخ» ضريراً!... وقد جرى الحديث بينه وبين «الدواليبي» و«الزّرقا». وخاض الثّلاثة أبحاثاً دقيقة بالفقه الاسلامي. وتجلّت سعة إطلاع «الشيخ محمد ابراهيم»، ودقّة معرفته ـ بشكل يبعث على الدهشة فعلاً... مما دفع ذلك «الشخص»، غير المرغوب فيه بذلك المجلس، إلى أن يقف ويقول بحماس بالغ:

من أين لك هذا العلم كله؟!

وعلم «الشيخ» هويّة السّائل غير المرغوب فيه.. فاضطرب، وانفعل، وتلفّظ بكلمات حادّة.. وصاح: يا غلام.. هات الطّيب.

ومجيء الطّيب.. يعني أن المقابلة انتهت! فخرجنا من مجلسه مضطربين خجولين.

أذكر الواقعة.. وأعتذر عن ذكر اسم الشخص.. والسَّبب.

وظلّ «الشيخ يوسف ياسين» ـ وهو من أقرب المقربين إلى الملك ـ فضلاً عن مناصبه العديدة، ومسؤولياته الواسعة.. ظلّ يبيت معنا في «قصر الضيافة»، ولا يجرؤ على الذهاب إلى بيته ـ إلى أن أطلعنا «الملك» على الواقعة.. وأن «يوسف ياسين» غير مسؤول أبداً عن ذهاب ذلك الشخص إلى عند «الشيخ».. فاتّصل

الملك به، وأكد له أن فضول الشخص ذاك وتطفله.. هما اللّذان دفعاه للذهاب ـ رغم تحذير «يوسف ياسين» إيّاه.. ولمّا اقتنع «الشيخ».. عفا عن «يوسف ياسين»، فعاد للمبيت في منزله.

وللدّلالة على مكانة «الشيخ محمد ابراهيم» الكُبْرَى في السعوديّة... فإن الأسرة المالكة أرادت تنحية «الملك سعود» عن العرش، بعد ذلك، لأنّ إسرافه وتبذيره أوشكا أن يؤديا إلى إفلاس الخزينة.. وكان قد استوفى دخل البترول، من الشركات المستثمرة، لثلاث سنوات مقبلة. ولكن الأمراء السعوديين لم يستطيعوا خلع الملك.. إلا بعد أن أصدر «الشيخ محمد ابراهيم» فتوى بذلك. وحينئذٍ حلّ أخوه «فيصل»، وليّ العهد، محله.

وفي احدى زياراتنا لأعضاء الأسرة المالكة.. زرنا الأمير «فهد» وهو الملك الحالي، في قصره ـ وكان حينئذٍ وزيراً للمعارف، وقلتُ له:

من عادتي.. حينما أزور بلداً أن أكتب عنه في الصحف، وقد ألقي محاضرة. وأحب أن أعرف عدد الطلاب في المملكة.. فقال:

الحمد للهِ.. عددهم كثير. وقد وصل هذه السنة عدد الطلاّب عندنا إلى سبعة عشر ألفاً.

وكان «يوسف ياسين» حاضراً، فقال لي مداعباً:

في المملكة سبعة عشر ألف طالب ـ أرضيت؟!.

وسكتُّ، ولم أُجب. ولكنه كرر قوله ـ وهو يتمايل زهواً كعادته! فاستأذنتُ «الأمير فهد»، وقلتُ له: أتسمح لي بأن أجيبه؟ فقال: أنت في بيتك.. تفضّل.

فقلت له:

يا «شيخ يوسف».. أنا نائب عن منطقة «صافيتا»، وربما تعرفها، ولا يزيد عدد سكانها على مائة ألف.. ومع ذلك يوجد فيها ما يزيد على ٢٥ ألف طالب. والمملكة السعودية عدد سكانها بضعة ملايين، ومع هذا.. لا يوجد فيها إلاّ ١٧ ألف طالب.. فكيف يمكن أن أرضى!.

وابتسم الأمير «فهد» وزير المعارف، وقال:

يا أخ «عبد اللطيف».. نحن نجابه وضعاً قاسياً من البدو الذين لا يريدون التّعليم ـ لأنهم لم يعتادوه. ولكن إذا أسعف الحظ.. وزرتنا بعد عدة سنوات.. فسوف ترى أنّ هذا الرقم قد أصبح أضعافاً مضاعفة، بإذن الله.

وفي احدى الليالي.. كنا في مأدبة عشاء أقامها أحد الأمراء ـ وجميعهم أسخياء بإكرام الضّيف، والاحتفاء به، وإبداء عواطف كريمة نحوه. وفي طريق العودة.. اصطحبنا «فهد» بسيارته إلى «قصر الضيافة» ـ كعادته في أكثر الأوقات. وكان يتلطّف ويجلس إلى جانب السائق. وجلست وزميلاً لي، في المقعد الخلفي. وفي الطّريق قلت له:

سموّ الأمير: معذرة.. إذا طرحتُ عليك سؤالاً فقال: تفضل.. كلنا اخوان. قلتُ: الإشاعات عن أولاد الملك كثيرة.. فهل لنا أن نعرف العدد الحقيقي ـ لنستطيع نفي الإشاعات المغرضة؟ فقال:

الحمد لله.. لقد رزقه الله أولاداً، ولكنهم كلهم جند للعروبة... ولم يزد. فسكتّ، وقد علمتُ أنه لا يريد الخوض في هذا الحديث!.

وصباح اليوم الثاني.. جاءت سيارة لتقلّنا، مع بقية أعضاء الوفد، إلى أحد الأماكن ـ وفق البرنامج الحافل الذي وُضع لنا. وفي الطّريق.. قال لي السائق:

سيادتك.. سألت الأمير أمس عن عدد أولاد الملك، ولم يجبك.. ألا تعلم أنهم يخجلون أن يذكروا لك عدد أولاده! قلت: ومن أعلمك أني سألت؟ قال: أنا سائق سيارة «الأمير فهد». وطبعاً لم أعرفه ـ لأن أكثر السائقين بالسعودية كانوا سود البشرة، فضلاً عن أننا كنّا في الليل، وأنا أجلس في المقعد الخلفي. قلت: وهل تعرف أنت عدد أولاد الملك؟ قال: طبعاً أعرف ـ لأني سائق في القصور الملكيّة. قلت: وهل لك إذن.. أن تطلعنا على الرّقم الصّحيح؟ قال: عدد أولاد الملك الذكور ١٨٧ والإناث ١٤٦ ـ وهذا حتى الساعة ٨ صباحاً، أمّا بعد الثّامنة.. فلا أدري كم! وقال: الملك نفسه.. حينما يدخل مكتبه في الصباح، يسأل سكرتيره: مَنْ مِنَ الحريم ولدت هذه الليلة؟

وسألتُ السائق: وكم عدد نساء الملك؟ فقال: الملكات أربع، والجواري أربع

وخمسون ـ وهذا الرّقم يزيد ولا ينقص!.

وسكتنا، ومضينا إلى حيث كان موعدنا مع «الأمير فهد».

ومن هذا الحديث.. يُستدلّ على أن هناك تياراً خفياً ضد الأسرة المالكة في المملكة.

وأعترف بأن «فهداً» ـ الملك الحالي ـ قد ترك في نفوسنا أثراً كريماً، وذكرى كريمة ـ نظراً لوداعته وأنسه ولطفه.. وإن خُيِّل إلينا أنه يمتاز بالعمق والدبلوماسية والدَّهاء.. مثل بقيّة اخوانه الأمراء السعوديين.

* * *

في ذلك الصيف.. ساءت صحّة والدتي، وكان لابدّ من عرضها على طبيب اختصاصي بالأمراض الداخلية في دمشق، وحينما عاينها الطبيب، وهو أستاذ بكلية الطب، في الجامعة، قال: إنها تشكو من تضخّم القلب، ولا أمل بشفائها. ولكني سأعطيكم أدوية للقلب تمكّنها من العيش شهرين أو ثلاثة. ولم يذكر هذا بصوت منخفض، وإنما قاله بصوت مرتفع. وسمعته والدتي.. فانهارت قواها. وكانت تحلّ في دار الأريحي النبيل «العقيد محمد علي اسماعيل»، قائد الدَّرك العام في سورية وقتذاك، وكانت داره تعلو عن الطريق بضع درجات: ولم تستطع صعودها إلا بالاستناد إلى أيدينا. ولكن لم نستطع شراء الأدوية حينئذٍ ـ لأنّ الصيدليّات مغلقة، وقت الظهر.

في ذلك الوقت.. زارني صديقي «المقدم جبور» في مكتبي بمجلس النواب، ووجدني بادي الاكتئاب والاضطراب، وسألني عن السّبب.. فأخبرته عن مرض والدتي، وعمّا قاله الطبيب، فقال: لماذا لا تأخذها إلى «الدكتور جان لحّام» لمعاينتها، وهو من كبار الاختصاصيين، وقد جاء حديثاً إلى دمشق، وكان أستاذاً بجامعة «السوربون» في باريس. فاتصلتُ به هاتفياً.. ورجوتُه أن يتجاوز المواعيد الموجودة لديه، ويتلّطف ويستقبلنا فور وصولنا.. وتلطّف ولبّى الطلب. وحينما اطّلع على مخطط القلب الذي أخذه الطبيب، الأستاذ في الجامعة، وأخبرناه عما قاله لنا، وعن خطورة الحالة.. ضرب المنضدة التي أمامه بيده، وصاح:

هو يأخذ «المُخَطّط».. ولا يعرف أن يقرأه! ـ نفس التعبير ـ وأخذ منّا «الروشتات» التي أعطانا إياها ذلك الطبيب لشراء أدوية للقلب، ومزقها.. وقال: خذوا هذه النفايات إلى ذلك الطبيب، وقولوا له.. يكفيه قَتْل مرضى. وأضاف: السيدة معها تضخّم رئة.. وهي التي تضغط على القلب، والقلب سليم مائة بالمائة.. فهذا الطبيب يعطي دواء للعضو السليم، ويترك العضو المريض يتفاقم خطره. وأنا أعطيكم أدوية على مسؤوليتي.. وتضخم رئة السيدة، من شرب الدخان، فامنعوها منعاً باتاً عنه. وسترون النتيجة سريعاً.

وشُفِيت والدتي بفضل الله، وفضل هذا الطبيب. وعاشت بعد ذلك ما يزيد على خمس وعشرين سنة. وكانت مولَعَةً بشرب «النارجيلية».. فتركتها.

وتوطدت صداقتي، بعد هذا، مع الدكتور «جان لحّام»، وكان يراجعني في الأمور التي يتعرّض لها.. وكنتُ أستجيب لطلبه ومعونته.

* * *

كان الوضع العربي، في أواسط الخمسينات، متردياً إلى أقصى حدود التردي! فالدعوة إلى الأحلاف العسكرية، مع الدول الامبريالية، آخذة في النشاط والضغوط والاستفزاز! وكل بلد عربي له، مع الأسف، ميوله واتجاهاته، وكانت الدسائس الأجنبية، والمؤامرات والمناورات، تلعب أدوارها الرهيبة.. وبعض العرب ينساق مع تياراتها المخيفة ـ إما عن قناعة ورغبة، وإنما عن جبن ورهبة!

وأذكر أنّنا حينما زرنا العراق ـ كما سيجيء ـ قال لنا «الأمير عبد الآله»، وليّ العهد، آنذاك، أنه يؤيد السياسة الانكليزية تأييداً مطلقاً وبَرَّر «تأييده المطلق».. بأشياء لا يُقرّها عقل ولا منطق! وبمثل هذا كان يجاهر «نوري السعيد»، وبقية الساسة المخضرمين! وحتى «صالح جبر نفسه» ـ الذي عقد مع الانكليز «معاهدة بورتسموث» التي سقطت بعد أن سقط مئات القتلى والجرحى في بغداد، بالمظاهرات ضدها.. وسُحبت الجنسية من عدد من الشباب المناضلين، وفي طليعتهم «صدر الدين شرف الدين»، صاحب جريدة «السياسة» التي كان يصدرها في بغداد. وقد نشر كُتيِّباً عن تلك المعاهدة المشؤومة.. بأسلوبه الرائع الفخم..

اعتبر حينذاك دستوراً للشباب المؤمن المتحرِّر المنطلق، وعنوانه: «سحابة بورتسموث».

وأما سورية.. فقد كان لها موقفها الصامد الحازم الجريء.. وانطلاقها الحر في الميادين الدوليَّة، وفي مجابهة الأُحداث وتحديها. وهو وحده سجل حافل في تاريخ الكفاح والنضال والتحدّي.. مما يبعث على الاعتزاز والزهو.. وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك في أكثر من مكان.

وإن بطولة السوريين... هي جزء من بطولة أمتهم العربية.. التي أثبتت قوتها وجدارتها في أكثر مراحل التاريخ ـ مما حقّق لها، في بعض الأزمنة، العِّزة والسيطرة، والمجد والخلود.

ولم يكن الساسة السوريون كلهم في اتجاه واحد ـ كما أسلفنا.. بل كانت هناك تيارات مختلفة متباينة!.

وثمَّة فئة من النواب كانوا يخفون ميولهم الغربيَّة، وتأثرهم بالدعاية الامبريالية... ولكنهم في المواقف التي تتيح لهم الجهر بآرائهم.. كانوا يجهرون بها، ويطلبون مسايرة الدول الغربيَّة.. والابتعاد عما يسيئها ويغضبها ـ بحجَّة تفادي نقمتها وانتقامها! ولكنَّ أصواتهم كانت تضيع وسط حماس النواب الأحرار، واندفاعهم الصارخ في وجه كل مشروع أمريكي امبريالي.

وكان النّواب السوريون الأحرار ـ في مواقفهم الجريئة المخلصة.. معبِّرين عن مشاعرهم الوطنية، وعن رغبات ناخبيهم.. ومندفعين مع التيار الشعبي، المندفع بحماس لا مثيل له ضد الذين خلقوا اسرائيل وتبنوها ودعموها ـ وما يزالون يتبنونها ويدعمونها.. ويدافعون عن أعمالها الوحشية، وتصرفاتها الاجرامية والهمجيَّة!! وليس ثمة مجال للاختيار.

فإمَّا أن نكون منطلقين من آمال الشعب وميوله ومصالحه، وتطلعاته إلى المستقبل ـ فضلاً عن المحافظة على كرامته وشرفه وعزّته، ثم مصيره.. وإمَّا أن نسير في الاتجاه المنافي للمصلحة الوطنيَة، والمعادي لرغبة الشعب وأمانيه وأهدافه، وحقّه في عيش كريم، واستقرار ثابت.

ومن غير الممكن.. أن يكون ذو ضمير شريف، وعقيدة نبيلة، إلا منسجماً مع نفسه وواجبه، وأهدافه القومية.

ووقف مجلس النواب موقفاً حازماً جريئاً ضد الدول الامبريالية، وأحلافها العسكرية.

* * *

موقف المجلس النيابي السوري من شركات البترول، ومن تأسيس مصفاة وطنية في حمص، كان دليلاً قوياً.. على أنّ سورية تسير في اتجاه تحرُّري سليم قويم.. وأسلوب جريء لحفظ مصالحها وحقوقها، وسيادتها ـ بالوقت نفسه.

ولابدّ من الوقوف قليلاً عند موضوع البترول.. وإعطاء القارىء ـ ولو فكرةً سريعةً عنه:

بعد أن ظفرت سورية بحريتها واستقلالها.. عهدت إلى شركة «اس. بي. سي» بالتنقيب عن البترول في الجزيرة.. وأصرّت على أن تبقى الآلات التي تنقّب بها الشركة، بعد انتهاء عملها، ملْكاً للدولة السورية، بصرف النظر عن نتيجة التنقيب ـ أكانت سلبية أم ايجابية. وفرضت الوزارة المختصّة قرارها.. ونجحت باصرارها الذي كان له أثره العملي، فيما بعد، كما سيجيء.

وبعد أن حفرت الشركة المرخّص لها عدة آبار.. أغلقتها، وأعلنت أنه لا يوجد بترول في الأراضي السورية. وتركت لسورية آلات التنقيب، حسبما اتُّفِق عليه، وانسحبت!

وجاء بعض الخبراء الدوليين.. يهمس في آذان المسؤولين السوريين.. بأنّ الموقع الذي جرى التنقيب فيه بمنطقة القامشلي، قرب الحدود العراقية لا يبعد عن مواقع البترول في الموصل إلا حوالي ثلاثين كيلومتراً. وبما أنّ الأراضي العراقية هي أعلى من الأراضي السورية.. فإنّ شركة «آي. بي. سي» صاحبة الامتياز بالعراق، خشيت أن يتسرَّب البترول العراقي إلى الآبار السورية ـ وهذا ما يضيرها.. فأوعزت إلى شركة «اس. بي. سي» ـ وهما شركتان شقيقتان، إن صحّ التعبير.. أوعزت إليها أن توقف أعمالها وتنسحب، وتعلن عدم وجود بترول في

الأراضي السورية. وشركات البترول الغربيّات.. كلهنّ متعاونات، مع بعضهن، ضد الدول الأخرى!.

وثبت للمسؤولين السوريين. أنّ الشركة التي رخّصوا لها بالتنقيب.. لم تكن صادقة في ادعائها ولا جادةً في عملها.

وقررت حينئذٍ سورية.. أن لا تعهد لأية شركةً غربية بالتنقيب عن البترول. وبدأت تبحث عن شركات حيادية.. لا تربطها بالدول الاستعمارية أيّة صلة.

وجاء رجل أمريكي، من أصل عربي، اسمه «مَنْهَل».. وادّعى أنه مُوفَدٌ مِنَ الجالية العربيّة من الولايات المتحدة الأمريكية، للتنقيب عن البترول في سورية. واعتنق الدين الاسلامي، وسمي نفسه «محمد منهل»، وتزوّج فتاة من دمشق. وبدأ التنقيب بالآلات التي نقّبت بها شركة «اس. بي. سي»... واحتفظت بها سورية ـ كما مرّ بنا.

ووجّه الدعوة لـ «لجنة البترول»، في «المجلس النيابي»، وكان رئيسها «هاني السباعي»، وكنتُ نائب الرئيس. واستأجر «منهل» طائرة سورية أقلتنا، مع بعض الوزراء، إلى القامشلي. وبينما كانت الطائرة تحاول الهبوط في المطار.. تمردت عجلاتها الثلاث اللواتي ترتكز عليهنّ عند الهبوط... وأبين التّحرُّك من أمكنتهنّ ـ رغم محاولات الطيار ومعاونه. وحينئذٍ... كان لابد من افراغ الطائرة من البانزين تماماً ـ وحتى آخر نقطة.. تحاشياً من انفجارها، وهي تهبط على الأرض اضطرارياً. وتمّ تحليقها فوق المطار، وحوله، فترةً طويلة... حتى نفد البانزين منها. وحينئذٍ هبط بها الطيار على أحد جناحيها في أرض زراعيّة قرب المطار، فغاص جناحها الذي ارتكزت عليه في التراب، عند الهبوط، أكثر من متر. وبفضل الله وعطفه، لم تنفجر... لأنها كانت قد أُفْرِغَتْ تماماً من الوقود الذي يسبِّب الانفجار. ونجا الجميع ـ إلا من جراح بسيطة في الوجوه أصيب بها بعض الزملاء ـ ومنهم «علي بوظو» وزير الداخلية.. وكنّا نجلس متجاورين. وبعناية الله ورعايته لم أُصب بأذى.

وكان كلٌّ منّا قد حزم نفسه جيداً بأربطة المقعد الذي يجلس عليه، وتشبَّث

بالمقعد الـذي أمامه. ولكن بعضنا لم يحترز.. فاصطدم رأسه بالمقعد المقابل وأحدث به جرحاً بسيطاً.

وثمّة جمهور كبير احتشد في أرض المطار. حينما شوهدت الطائرة تحوّم طويلاً في الفضاء.. فأدرك الناس أنّ هناك مشكلةً.. قد تنجم عنها مأساة. وغمر القلق نفوس الجميع ـ سواءً من كان في الطائرة، أو على أرض المطار.

وفي مثل هذه الحال... فليس كنعمة الايمان نعمة، وليس كرحمة الله رحمة. وخير ما يدَّرِع به الانسان، في ظرف كذلك الظرف، قوله تعالى: ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾.. وأن يستسلم المرء لمشيئة الله... وهو يعتقد بأنه لا رادّ لإرادته، ولا حائل دون تنفيذ مشيئته وقدرته.

وكان المسؤولون، في محافظة «الحَسَكَة»، قد اتخذوا الاحتياطات الممكنة لمجابهة ما قد يحدث.. وهيأوا لنا وسائل الانتقال إلى حقول النفط في «الرميلان» ـ إذا نزلنا سالمين من الطائرة.

وحينما تدفَّق البترول الأسود أمامنا.. وسال كينبوع ماء غمر الأرض المحيطة به.. بكى «منهل»، وأخذ حفنةً من البترول بيديه، وصبغ بها وجهه.. فأصبح كعبد أسود قادم من أفريقيا!

وقد تأثَّرنا جميعاً.. وبلغ بنا الفرح مداه.

* * *

اغتنم «منهل».. مناسبة اكتشاف البترول، وتدفُّقه من البئر الأولى أمام «لجنة البترول»، وبعض أركان الحكومة، فطرح في السوق مليون سهم، وجعل سعر السهم الواحد ليرة سورية واحدة فقط! وحدد ٥٠ سهماً لكل شخص من أبناء الشعب و ٢٥٠ سهماً لكل شخص من النواب والمسؤولين. وخلال يومين اثنين.. اشتُريت الأسهم كلها، وأصبح كل مالك سهم.. يمنّي نفسه بالحصول على ثروة طائلة خلال فترة وجيزة.

وثبت أنّ الغاية من طرحه الأسهم بهذا السعر الزهيد.. هي أن يقف مالكوها

إلى جانبه ـ عند طلبه التّرخيص له بالاستثمار. وحتماً سيشعر كل مالك سهم.. أنّ له نصيباً بالدّخل الكبير ـ وأنّ الليرة التي دفعها ثمن السّهم الواحد.. ستصبح، فيما بعد، عشرات الألوف!.

ولكن... ثبت، للسلطات السورية، أن بعض الشركات الأميركية هي التي أوفدت «منهل»، ودفعته لأن يعتنق الإسلام، ويتزوج فتاةً سورية، من أسرة كريمة!.

ودعاني مرة للعشاء، في منزله، كما دعا غيري من النواب، وذوي النفوذ.. وكان موجوداً عنده القاضي الكبير «فؤاد جبارة» ـ وعلمتُ وقتئذٍ أنه اختاره مستشاراً له ـ كما اختار شخصيات سياسية وقانونية. وعلى المائدة الحافلة.. التي أعَدَّتْها زوجته الدمشقية الحسناء.. شرع يحدّثني عن الأرباح الضخمة التي سنجنيها ـ من الأسهم التي اشتريناها ـ إذا حصل على عقد استثمار.

وكانت جلسةً مغريةً حقاً. ولكنّ الوطنية، والشعور بالمسؤولية القومية، هما أسمى من جميع المغريات ـ ولا أستثني. ومن المحال، وألف مرة من المحال، أن ينحطّا إلى مستوى المساومة، والمنفعة الذاتيّة ـ إلا عند ضعاف العقول، وصغار النفوس.

و«لجنة البترول».. كانت قد اتّخذت قرارها بتأييد قرار الحكومة ـ بحصر استثمار البترول بها وحدها.. وإعادة ثمن الأسهم لأصحابها، وإعطاء «منهل» ـ عفواً «محمد منهل»! ـ تعويضاً ضخماً.. تقديراً لأتعابه، وجهوده في اكتشاف البترول.

وكنتُ صريحاً معه.. بأنّ من العبث البحث في حصوله على الاستثمار ـ لأنّ الدولة هي التي ستتولّى هذا. ووافقني «فؤاد جبارة» على صراحتي معه... وعلى نصيحتي إيّاه بعدم البحث في الموضوع. وكانت الدموع تملأ عينيه.. حينما ودّعني عند الباب.

ومرّةً أخرى.. تغلبت الوطنية عند السوريين المؤمنين، على ما عداها. وأحبطت مؤامرات الشركات الأميركية التي كانت تعمل من وراء ستار.

وعاد «منهل» إلى أمريكا. وما أعرف إذا كان اصطحب معه «اسم محمد». أم أنه أبقاه في دمشق ـ مع الحسناء الدمشقية!.

* * *

شركة البترول «آي. بي. سي»، ومقرّها لندن ـ وهي ملك بريطانيا، وفرنسا، وهولاندا، وبلجيكا، وشخص أرمني له أربعة أسهم مقابل توسطه للحصول على ترخيص للشركة من أجل التنقيب عن البترول في العراق ـ هذه الشركة. مدّدت سنة ١٩٣١ خطاً أنابيب عبر الأراضي السورية إلى مرفأ لبناني قرب مدينة طرابلس.. وخطاً ثانياً إلى مدينة حيفا. بفلسطين الشهيدة ـ ومن البداهة.. أنّ هذا الخطّ قد أُلغي بعد قيام العدوّة «اسرائيل»..

وكانت فرنسا المنتدَبة على سورية، حينذاك تملك ٢٤ بالمائة من أسهم الشركة. وقد سمحت لها ـ وهي الحاكمة بأمرها.. بتمرير الخطين في الأراضي السورية، طول كل منهما ٦٥٠ كيلومتراً. ومقابل تمريرهما، والامتيازات التي تتمتع بها الشركة ـ والتي تجعلها دولةً فوق الدولة.. تدفع الشركة للخزينة السورية رسماً حددته الحكومة الفرنسية بـ ٥٠ ليرة سورية فقط لا غير! وهو رسم مجحف ومعيب جداً! وقد قالت فرنسا حينئذٍ عنه: إنه رسم رمزي! ولم تستحِ، ولم تخجل! وصحّ فيها قول القائل: حاميها حراميها!.

ومقابل تلك الليرات الخمسين.. تمتّعت شركة البترول الأجنبية بامتيازات غريبة.. نسجلها هنا للتاريخ ـ كما وردت في تلك الاتفاقية المخزية المعيبة:

«... وحيث أنّ الشركة ترغب، بقصد استثمار امتياز العراق، في انشاء خطٍّ واحد ـ أو عدة خطوط من الأنابيب.. تمتدّ من العراق، حتى نقطة نهائية تقع على شواطىء البحر المتوسط، فتخترق بذلك أراضي الدولة السورية. وأنها ترغب في أن تنشىء وتصون، على هذه الأراضي، مكاتب ومحطات للضّخ، وورشات ومستودعات، وصهاريج لخزن البترول والماء، وجسوراً، ومساكن للمستخدمين، وخطوطاً حديدية، وترامويات، وأسلاكاً، جرارات للنقل ـ جوية، أو تحت الأرض، وعوّامات، ووسائل نقل بريّة أو مائيّة أو جوية.. ومطارات، وأسلاكاً كهربائية ـ

جوية، أو تحت الأرض، وخطوطاً برقية وهاتفية، وتجهيزات لاسلكية ـ برقية أو لاسلكية هاتفيَّة، ومصافي، ورحبات للخزّانات، ومستشفيات، ومحطات لتوليد القوة المحرِّكة، وخطوطاً لأنابيب البترول والغاز والماء ـ ظاهرةً كانت مدفونةً أو مغمورة.. وأعمالاً أخرى مرتبطة بها، ومشابهة لها، سواء كانت من الأنواع المبيَّنة أعلاه.. أو لم تكن وو... الخ»!!!!.

هذا ملخَّص امتيازات تلك الشركة «آي. بي. سي» الواردة في تلك الاتفاقية! فكانت.. وكأنها دولة وسط دولة!!!.

وكل ذلك.. مقابل ٥٠ ليرة سورية فقط! ولا خجل، ولا حياء!.

وبقيت تلك الشركة.. تتمتع بهذه الامتيازات الغريبة ـ مقابل ذلك الرَّسم المخزي المعيب من سنة ١٩٣١ إلى سنة ١٩٤٩ ـ حتى جاء «حسني الزعيم» بعصا «الماريشالية»، وسعى وزير الأشغال في حكومته، «الدكتور مجد الدين الجابري»، لتعديل الاتفاق مع الشركة ـ من حيث الرسم فقط! وبعد مفاوضات مضنية.. وافقت الشركة على أن ترفع الرسم من ٥٠ ليرة إلى ١٧٥ ألف ليرة فقط! ولم تتوصل الجهود التي بُذِلت... إلا إلى هذا الرَّسم فحسب!.

وعقب انشاء الخط الجديد الذي يصبّ في شاطىء مدينة بانياس... ارتفعت العائدات سنة ١٩٥٢ إلى مليون ومائتي ألف ليرة سورية لا غير ـ يضاف إليها ستة ملايين أخرى فرْق القطع النادر، ومفتاحان ذهبيّان، ضمن علبتين ذهبيَّتين، لكل من «أديب الشيشكلي»، و«فوزي سلو» ـ عند تدشينهما الخط الجديد!.

وثمَّة أشياء أخرى.. لـ «الشيشكلي» ـ لا نستطيع الجزم بصحة الشائعات حولها.. وهذا مقابل السماح بانشاء الخط الجديد، والاكتفاء بذلك الرسم التّافه.

وسنة ١٩٥٥ طالبنا في مجلس النواب، بتعديل تلك الاتفاقية الجائرة واتخذنا قراراً بالإجماع يُلزم الحكومة الدُّخول بمفاوضات مع الشركة ـ لارغامها على الرضوخ للمطالب السورية الحقَّة.

واندفعت الجماهير، في سائر المدن السورية، تقوم بمظاهرات.. لدعم موقف الحكومة، ومجلس النواب.

واضطرت الشركة ـــ تحت عوامل الضغط الرسمي والشّعبي.. للدخول بمفاوضات لاقتسام الأرباح، الناتجة عن توفير النقل، مناصفةً بين الشركة وسورية. والموضوع هو هكذا:

ولولا نقل البترول، بواسطة أنابيب داخل الأرض، من شمال العراق إلى الشاطىء السوري، على البحر المتوسط، والمسافة ٦٥٠ كيلومتراً.. لكان يجب نقله من شمال العراق إلى الخليج، شرقي مدينة البصرة. وهذه المسافة. تضاهي المسافة بين منابع البترول، والشاطىء السوري ـ إن لم تزدها. ثم من خليج البصرة.. يُنقل بواسطة السفن، عبر الخليج العربي، إلى «قناة السويس» ـ حيث يدفع رسم العبور منها.. حتى يصل البحر المتوسط، ومنه إلى أوروبا وأمريكا وإذن.. فإن مروره عبر الأراضي السورية... فيه توفير بالوقت، وبأجور النقل ـ فضلاً عن الرسم الذي يُدفع في «قناة السويس».. وفضلاً عن التكاليف الباهظة لتمديد أنابيب البترول من شمال العراق إلى جنوبه.

وطلبت سورية ـ مقابل مرور البترول في أراضيها، هذه المسافة الطويلة.. وما يقتضيه من صيانة، ومحافظة على سلامة الخطوط.. طلبت أن تُعطى، على الأقل، نصف الوفر الذي تحققه الشركة من ذلك.

ورغم التساهل السوري ـ إلى هذا الحد.. فإن الشركة لم توافق إلا بعد اصرار سورية.. وتهديدها بإيقاف سيل البترول عبر أراضيها. فاضطرّتْ الشركةُ إزاء التهديد الذي أيقنت أنه جدّي، إلى الدخول بمفاوضات على أساس تقسيم التّوفير مناصفة بينها وبين الدولة السورية.

ولكن عقبة كأداء.. اصطدمت بها المفاوضات، واستمرّت المحاولات لتذليلها بضعة أشهر.. دون التمكن من الوصول إلى نتيجة!.

وتلك العقبة كانت حول طلب سورية الاطلاع على قيود الشركة.. للتثبُّت من صحة الأرقام التي تقدمها.. والتي يجري الحساب بموجبها.

ورفضت الشركة، رفضاً باتّاً، الموافقة على طلب سورية ـ مدّعية أنه ليس لدى سورية خبراء لدراسة القيود ومعرفتها.. وأنها ستستعين بخبراء أعداء.. لا

توافق الشركة على وضع قيودها بين أيديهم. فقال المفاوض السوري: إن سورية ستستعين بخبراء سويديين، أو سويسريين، معروفين بحيادهم.. فأجاب ممثلو الشركة بأنه قد يكون لهؤلاء ميول يسارية خفية! فقيل لهم: سنستعين بخبراء من بريطانيا نفسها.. ولكنّ ممثلي الشركة رفضوا، وأصروا على موقفهم المشين العنيد الصلّب.. ولم يتراجعوا عنه قيد أنملة!!.

ثم أعلنوا صراحةً.. أنهم لو قبلوا بإطلاع سورية على قيود الشركة... فإنّ عليهم أن يقبلوا بإطلاع الآخرين - في الدول الأخرى التي يستثمرون بترولها، ووضع قيودهم تحت مراقبتها... وهذا لا يمكن قبوله بأي حال من الأحوال!.

وهكذا... أثبت التعنّت الانكليزي المريب.. أنهم يحتالون وينافقون ويسرقون.. ولا يقدمون للدول المنتجة للنفط إلا أرقاماً وهميّة.. يجرون الحساب على أساسها! وتبقى الأرقام الحقيقية سريّةً.. لا يطلّع عليها أحد ـ إلا مسؤولو الشركة أنفسهم، وليس ثمّة جهة أخرى على الاطلاق!!.

واضطرت سورية أخيراً... إلى القبول بموقف الشركة المتعنّت - بعد مفاوضات مُلِحَّة.. استمرت بضعة أشهر، دون طائل!.

وعقدت اللجان النيابية المختصة اجتماعاً مشتركاً، وعدد أعضاء كل لجنة عشرون عضواً، وهنّ: «لجنة البترول»، وكنتُ نائب الرئيس، و«اللجنة السياسية»، وكنتُ عضواً فيها، ثم «لجنة القوانين المالية». وانتخبتني اللجان الثلاث «مُقرّراً» لها.

ومهمة «المقرر».. وضع التقرير الذي يُتّفق عليه بالأكثرية، أو الاجماع، والدفاع عنه في «مجلس النواب»، والاجابة على جميع الأسئلة التي تُطرح بموجبه.

وقد وضعتُ تقريراً تضمن صراحةً.. كل الأدوار التي مرّت فيها المفاوضات مع الشركة. وكان التقرير موضوع نقاش حادّ في المجلس الذي أقرّه أخيراً.

واستطاعت سورية، سنتئذٍ، أن تستخلص من بين أنياب الشركة الاستعمارية الضارية فروق السنوات السابقة.. وأن تحقّق لتلك السنة، وما يليها، دخلاً من

الدولارات.. يبلغ عشرات الملايين سنوياً.

ملاحظة: في كتابي «من صميم الأحداث» ـ من الصفحة ١٥٢ إلى ١٦٦ بحث مستفيض عن البترول العربي، واستغلاله من قبل الشركات الأجنبية. وهذا الكتاب ـ ٢٥٤ صفحة من القطع الكبير، طُبع في البرازيل سنة ١٩٦٧.

كما أكرِّر لفت النَّظر.. إلى «المذكرة» التي قدَّمتُها لمجلس الجامعة العربية، بواسطة مجلس النواب، سنة ١٩٥٠ ـ وفيها أطلب تأميم البترول، وتأميم جميع الشركات الأجنبية، وإلغاء جميع المعاهدات مع دول الغرب. وقد أحدثت تلك «المذكرة» دوياً في العالم كله حينذاك ـ كما هو معروف، وهي منشورة في هذه المذكرات.

* * *

قرّرت «اللجنة السياسية» في «المجلس النيابي»، القيام بزيارات لبعض الدول العربية ـ بقصد العمل لاتحادها، ودعم الوفاق فيما بينها.

وسورية.. تتمتّع بمكان بارز في الأقطار العربية جمعاء ـ بالنظر لموقعها الجغرافي المميز، ولكفاحها، الطّويل ضد الاستعمار... ووقوفها، بشجاعة وبسالة وتحدٍّ، في وجه اسرائيل العدوّة اللدودة للعرب جميعاً، ولأنّ الشعب السوري يؤمن بالوحدة العربية ايماناً صادقاً عميقاً.. ويسعى لتحقيقها بكل جدٍّ وتضحية وإيمان وإخلاص.

وإلى جانب ذلك كله.. بروز شخصيات سورية ضخمة ـ في مختلف مجالات العلم والأدب والسياسة... ولهم أثرهم في الوطن العربي، ومكانتهم المرموقة.

* * *

حين زيارتنا مصر.. بحثنا مع «الرئيس عبد الناصر» موضوع الدول العربيّة.. وأبدينا رغبتنا للعمل من أجل ايجاد وفاق بينها كافة.. والقيام بمسعىً لأجل اتحادها، ووقوفها صفاً واحداً في وجه الأخطار المحدقة بها. ولقينا منه، أخيراً، تجاوباً وتشجيعاً للقيام بهذه المهمّة القوميّة الشريفة. وأكد لنا أن مصر لا تضمر العداء لأحد... وأن هدف سياستها، الدّائم، هو وحدة الصف العربي... وجعل كلمة

العرب ـ كما عبَّر حرفيّاً ـ تنبع من داخلهم، وليس من ايحاء أحد. وأكد لنا.. أنه مستعد لتأييد كل مسعىً يهدف لتوحيد الخطى العربية... ومواكبته ودعمه.

وكان «عبد الناصر» ـ كعهد الناس به دائماً.. صريحاً، وواضحاً، ومخلصاً بما يقول.

* * *

أمّا «السعوديون» فكما هو معروف، حذرون.. لا يجابهون المواضيع الحساسة إلا بتروٍ وأناة وهدوء ـ وبعد دراسة عميقة وشاملة.. تتناول الموضوع من مختلف الجهات والاتجاهات. وحينما يرون في الموضوع ـ أي موضوع كان.. وجهات نظر متباينة متعارضة.. فإنهم يقفون على الحياد، ويرجون التوفيق للجميع. إنهم غير سلبيّين، وغير إيجابيّين.. وإنما يتخذون لكل موقف ما يلائمه ويناسبه.. فهم مترّوون ـ إلى أبعد حدود التروي، ومحافظون إلى أقصى درجات المحافظة. وإلى جانب ذلك.. فهم في سلوكهم، واتصالاتهم بالآخرين، جدّ لبقين، ومهذبين، وناعمين وحسني الأخلاق.

* * *

كان ملك الأردن.. في بدء اضطلاعه بأعباء الحكم.. قد استهلّ عهده بموقف جريء وحازم وشجاع.. فأقال الضابط الانكليزي «كلوب»، واتّجه اتّجاهاً تحرُّرياً بعث على الثقة والتفاؤل. ولكن.. كان إلى جانب «الملك حسين» من له صلة وثيقة بالسعودية، ويتّجه بالسياسة حسب اتجاهها وميولها! والملك نفسه.. كان ذا صلة متينة بأبناء عمّه في العراق ـ واتجاه أولئك نحو دول الغرب كان واضحاً.. وميولهم للتّعاون معها، والسير في ركابها، يجهرون به.. ولا يخفونه! ولكنّ اتجاه بعض السّياسيين نحو التّحرُّر ـ أمثال «أكرم زعيتر»، و«سليمان النابلسي» وأمثالهما.. أمر معروف أيضاً، ومشهود له. وهكذا كان اتجاه الأردن، في أول عهد الملكية، يترنّح بين الاعتدال والتّطرُّف، والمحافظة والتّحرُّر ـ إلا أنّ سياسته الأخيرة.. هي أكثر استقراراً وثباتاً واتّزاناً.

* * *

أما «الكويتيون».. فقد كان عهدهم بالتّخلُّص من الحماية البريطانية حديثاً. ولكن شيوخه كانوا دائماً في يقظة ووعي تامّين. وهم يدركون جيداً موقعهم الجغرافي وحساسيته، ووضعهم الاجتماعي ودقّته. وقد استقبلونا في المطار استقبالاً حافلاً. وكان على رأس المستقبلين «وليّ العهد»، حينذاك، «الشيخ عبد الله المبارك».. الذي نُحِّي من ولاية العهد لأنه أراد أن يتزوج المطربة المعروفة «صباح» ـ تماماً كما حصل للملك «إدوارد الثامن».. الذي أراد الزواج من امرأة مطلّقة مرتين، ويجعلها ملكة بريطانيا.. فأرغموه على الاستقالة والخروج من البلاد ـ كما أُرغم الكويتي بعد ذلك.

و«شيوخ الكويت».. يتجاوبون مع كل دعوة للوفاق ـ ولكنهم لا يسيرون في اتجاه معيَّن.. ولا يقيِّدون أنفسهم بخطة معيَّنة. وأذكر أننّا زرنا أمير الكويت في مصيفه بمدينة «شتورا» اللبنانية ـ بعض كبار المسؤولين السوريين وكنتُ معهم ـ وتناولنا طعام الإفطار على مائدته، في شهر رمضان المبارك، ودعوناه لزيارة سورية. وقد أكد ما قاله لنا، حينما زرناه في الكويت، قبل ذلك ببضعة أشهر، قال لنا آنذاك: إنهم لم ينحازوا إلى أي جانب عربي، ولا يدخلون في أية خصومة ـ مع أية جهة عربية. فهم مع جميع الأخوة العرب، ويسعون ضمن طاقاتهم وإمكاناتهم لإيجاد تفاهم بين الأشقاء جميعاً. وتشهد الأحداث.. أنهم ظلّوا، طوالَ الفترة الماضية، أوفياء لهذه الخطّة.. متمسّكين بهذا الشعار. ومن أروع وأسمى ما رأيناه وقرأناه ـ هو ما كُتِب على مدخل قصر «أمير الكويت»:

«لو دامت لغيرنا لما آلتْ إلينا».

وفي هذا القول.. عبرةٌ لمن يريد أن يعتبر، وعظةٌ لمن يريد أن يتَّعظ.

ولبنان، في السابق لم تكن له خطة سياسية معينة يرسمها مجلس النواب، وتتقيَّد بها الحكومة.. وإنما كان رئيس الجمهورية وحده.. هو الذي يرسم سياسته وخطّته واتجاهه ـ وأما الآخرون، من المسؤولين، فإنهم مستشارون فقط.. عند سيّد الموقف! وقد يأخذ بآرائهم.. أو يعرض عنها وعنهم! وثمَّة شخص، ذو صلة بالسلطة اللبنانية العليا، قال لي سنة ١٩٧١ إن كلّ المسؤولين

الذين تراهم.. هم موظّفون عند رئيس الجمهورية ـ الذي هو كل شيء! قلتُ له: وحتى رئيسا مجلس الوزراء، ومجلس النواب! قال: كلهم من الألف إلى الياء!.

ولكني أعتقد ان الشّخصيات التي تحترم نفسها، وتعرف مدى أثرها.. كانت تحتفظ بكرامتها، وتحافظ على صلاحياتها ومسؤولياتها، وتثبت وجودها ـ عندما يكون اثبات الوجود يستدعي ذلك... ومن هؤلاء «رياض الصلح»، و«عبد الحميد كرامي»، و«رشيد كرامي»، و«صائب سلام».

وكان «كميل شمعون»، رئيس الجمهورية في الخمسينات، وهو الضّالع بتبني السياسية الأمريكية ـ الانكليزية، والسائر في فلكها، قد أراد اثبات.. ميله إلى توحيد كلمة العرب، وتنسيق الصّف العربي.. فدعا لعقد اجتماع في بيروت.. حضره عدد من ممثلي الدول العربيّة. ولكن «عمالته» لدول الغرب، وتقيّده بسياستها، أبيا عليه إلا أن يعلن عن رأيه، ويجهر بأنه ليس من مصلحة العرب إلا السّير في الاتجاه الذي تسير عليه بريطانيا وأمريكا! وهكذا.. ظلّ في ذلك الاتجاه، والخط المرسوم طوال حياته! وأثبت أنّ تلك الدعوة، لذلك الاجتماع، كانت بإيعاز من لندن وواشنطن... من أجل الأحلاف العسكريّة التي كانت مطروحةً وقتذاك!.

ومرّةً.. قرأتُ في الصحف عزم رئيس الجمهورية اللبنانية، كميل شمعون، زيارة البرازيل والأرجنتين.. وأنا أعرف مدى الخلاف المستشري، حينذاك، بين الجاليتين السورية واللبنانية في كلا البلدين.. فذهبتُ إلى بيروت، واتصلتُ هاتفيّاً بالقصر الجمهوري، طالباً تحديد موعد لمقابلة الرئيس ـ بعد أن ذكرتُ اسمي، وأني أمين سر مجلس النواب السوري ـ وجاءني الجواب، في مكتب «جودة شبّوع»، من مدير مكتب الرئيس، قائلاً: تفضّل الآن.

وذهبتُ، وصديقي «جودة»، وقد استُقبلنا بكل ترحاب. وحدّثتُ «شمعون» بصراحة... عن خلاف السوريين واللبنانيين، الأشقاء، وإزالة الجفاء، والمشاحنات المؤسفة والمؤلمة من بينهم. وقد استطردتُ معه بالحديث... حول هذا الموضوع وكان يصغي باهتمام بالغ. وشكرني وأكّد لي أنه سيبذل جهده

لتوحيد الصَّفّ العربي. ومن الإنصاف أن أذكر بأن «يوسف اليازجي»، وكان من أبرز وجهاء الجالية السوريّة، في مدينة «سان باولو»، ـ بالبرازيل.. أخبرني بأن «كميل شمعون» كان في مواقفه يدعو إلى اتحاد كلمة السوريين واللبنانيين. ولكنّ «أحمد شاويش»، رئيس «الجمعية العربية» في مدينة «ماردل بلاتا»، المصيف المشهور في الأرجنتين، ذكر لي أنه ذهب وأعضاء «الجمعية» لزيارة «الرئيس كميل شمعون» حينما زار مدينتهم، فقال لهم: عليكم، أنتم اللبنانيين، أن تتّحدوا وتتضامنوا، وتكونوا يداً واحدةً في السَّرّاء والضَّرّاء. فقال له «أحمد شاويش»: ولكن يا فخامة الرئيس، نحن الذين أمامك.. سوريون، ولسنا لبنانيين. فامتقع وجه «شمعون»، وغيَّر الحديث.

ووضع لبنان الحالي.. هو غير السابق تماماً. فالحكم الآن ديمقراطي ـ وحتى طوال الأحداث الرهيبة المؤلمة التي ألمّت به خلال ستة عشر عاماً.. فإن المجلس النيابي ظل يمارس صلاحيّاته، ويجتمع لانتخاب رئيسه ومكتبه، وإصدار القوانين، ودرس الموازنة وإقرارها.. وانتخاب رئيس الجمهورية، ومناقشة بيان الوزارة واعطائها الثقة ـ ذلك كان يجري وسط الأحداث الدموية المؤلمة ممّا يشرّف فعلاً، ويدعو للتقدير والاعتزاز.

* * *

أمّا الساسة العراقيون، في العهد الملكي، فقد كانت سياستهم جدّ واضحة.. فهي تتّجه باتّجاه الغرب في جميع المواقف ـ وهذا ما أعلنه لنا صراحةً «وليّ العهد» «عبد الاله»، ورئيس الوزارة «نوري السّعيد».. وجاهرا به، ولم يخفياه! وكانا يعلنان ذلك.. بكل قناعة وتشدّد، وحماسة! وكان «عبد الإله» مرناً في حديثه، وابداء وجهة نظره وأما «نوري السعيد».. فقد كان خشناً وجافاً لا يعبأ ولا يكترث برأي أحد!

ووَجَّهتْ إلينا الحكومة العراقيّة دعوةً لحضور الاحتفال بوضع حجر الأساس لبناء «سدّ الثُّرثار» الضَّخم على نهر دجلة، شمال غربي العراق سنة ١٩٥٥ـ وقد أُعِدّت في السَّرادق الواسع منصّة مرتفعة، وضِع عليها مقعدان إلى جانب

بعضهما ـ أحدهما للملك، والثاني لوليّ العهد. وعلى بعد متر ونيّف، إلى يمين المنصّة، وُضِع مقعد منفرد لرئيس الوزارة «نوري السعيد». وبعده، بمترين ونيّف، مقاعد لنا نحن أعضاء الوفد السوري. وإلى الجانب الأيسر من المنصّة.. مقاعد للوزراء العراقيين، والأعيان، والنواب، ورجال السلك الدبلوماسي. وفي المقاعد الخلفية، من الجانبين، مئات المقاعد للمدعوين، من الشخصيّات العراقيّة المرموقة، وغيرها.

أما «عبد الإله».. فقد نزل عن كرسيه، الكائنة إلى جانب الملك، وترك المكان على المنصّة.. للملك وحده.

وأمّا «نوري السعيد»... فقد كان أكثر الوقت، يضع الرجل اليمنى فوق اليسرى، بشكل مستقيم، وقدمه بمواجهة الملك.. وهو غير مبالٍ!.

وفي منزل «نوري السعيد»، على ضفّة نهر دجلة، عقدنا جلسةً طويلةً معه ـ وقد دعا إليها رؤساء الوزارات السابقين.. الذين كانوا يتهافتون لتأييد كل كلمة يقولها ـ بشكل يدعو إلى الاستغراب والاشفاق! لقد ذابت شخصية كل منهم ولا أستثني أحداً منهم.. وصاروا يوافقون على كل كلمة يقولها «نوري السعيد» حينما يستشهد بهم، ويقولون له: صدقت يا باشا!.

وصدف.. أن «نوري السعيد» كان يتكلّم في موضوع.. فقال له أكرم الحوراني: لم أفهم.. يا «باشا» فأجابه بكل خشونة: «أنت لا تفهم.. وعامل حالك سياسي، وزعيم ومن حوران» واسم «أكرم الحوراني» جعله يحسب أنه من «حوران» وكان ذلك القول الوقح والشرس تحدّياً لنا جميعاً.. فنحن أعضاء وفد واحد ـ وإذا أُسيء لأحدنا.. فقد أسيء لنا جميعاً. ولاحظ «نوري السعيد» علامات الاستنكار والاستهجان والتجّهم ـ بادية بشكل صارخ في وجوهنا. فوقف واعتذر.. وقال إنه صار طاعناً بالسن، ولا ينتبه أحياناً لما يقوله. ورجانا السماح وعدم المؤاخذة. ومما قاله، في تلك الجلسة، إن «نهرو»، رئيس وزارة الهند آنذاك، زار العراق. فقال له «نوري السعيد».

أنت عندك تجارب كثيرة، في الهند وخارجها، فبماذا تنصحني؟ فأجابه

«نهرو»:

«أنصحك.. بأن تكون على وفاق مع جيرانك ـ لأنه لا شيء يزعج.. مثل الخلاف مع الجيران».

قلنا له ـ أي لـ «نوري السعيد»: إذن.. لماذا لا تتبع نصيحة «نهرو»، وتكون على وفاق معنا ـ نحن جيرانك السوريين.. وتترك دولاً أجنبية بينك وبينها آلاف الكيلومترات؟ فتظاهر بعدم الإصغاء.. ولم يجب! وكان البحث معه، للتخلي عن خطته ومسيرته، من العبث ـ لأنه منجرف مع السياسة الانكليزية إلى حد الانصهار والذَّوَبان! فلا نحن استطعنا اقناعه بالعدول عن سياسته التحالفيَّة مع دول الغرب... ولا هو استطاع إقناعنا بالسَّير في الاتجاه الذي تسير به بريطانيا وأمريكا.

وقد أُعد لنا برنامج حافل... كان من أقسامه زيارة أحد المواقع العسكرية الرئيسية.. حيث أُجريتْ أمامنا مناورة واسعة، بالأسلحة الحَّية حضرها «وليّ العهد»، ورئيس الوزارة، والوزراء.

وفي طريق العودة إلى العاصمة بغداد.. وُزِعَّت الدَّبابات والمصفَّحات والمدافع على طول الطريق ـ وذلك ليبرهن المسؤولون العراقيون على مدى استعداداتهم العسكرية.. وكثرة الأسلحة المتوفرة لديهم! ورحم الله «بدوي الجبل»:

يهــددُ بالسِّــلاح.. ويدَّعيــه   ومـا مَلَـكَ الجنـودَ، ولا السِّـلاحا!

وزرنا «كربلاء».. حيث احتشد الألوف الذين غصَّت بهم الشوارع والساحات العامة. وأُلقِيتْ أمامنا خطبٌ عديدة.. وقد تأثَّرتُ كثيراً بذلك الجوّ الروحيّ العاصف.. وبالاستقبال الحاشد الذي كانت تنبعث منه شفافية العاطفة، وصدقها وحرارتها.

وألقيتُ كلمةً باسم الوفد.. كنتُ أشعر بأنَّها لَهَب يتصاعد من صدري، وينطلق إلى آذان الناس وقلوبهم من قلبي. وكانت الأفكار المشوقة تنهال عليَّ من علٍ.. وتتسلسل إلى مقولي من ينابيع الإلهام ـ في ذلك المكان المقدَّس. وتغلَّبت عليَّ الحماسة المفرطة.. وأنا أمام مسجد «الحسين» سيّد شهداء الدنيا، فبكيتُ...

واندفع جمهور كبير نحوي.. وحملوني على الأكتاف... حتى أدخلوني «الحضرة» الشَّريفة ـ حيث ضريح «الحسين بن عليّ» عليه السلام.

يا لقدسيّة المكان، ورهبة الموقف، وجلال الذِّكرى!.

ويا لكبرياء الرجولة التي أبت أن تُذَلّ.. والبطولة التي أبت أن تتراجع، والإيمان الذي أبى أن ينحدر عن مستواه!.

ويا لعظمة الرسالة.. يؤمنُ بها حفيد «محمد» العظيم.. ويجاهد لأجلها، ويُستشهَد في سبيلها!.

ويا لزهو العقيدة.. التي تسلسلت من «النَّبي محمد» لحفيده «الحُسَين»، فانبعثت كأزهى ما تكون.. وأسمى ما تكون!.

وبينما نحن في زيارتنا العراق.. انتقل إلى جوار ربه الكريم «السيد محمد الصدر» ـ رئيس مجلس الأعيان، ورئيس مجلس الوزراء، وأكبر زعماء العراق قاطبة.. ورئيس مجلس الوصاية على العرش ـ حينما كان يغيب «الوصيّ».

وحينما حدثت الوفاة، وشُيِّع الجثمان الطاهر إلى مثواه الأخير، كنتُ مع أعضاء الوفد خارج بغداد ـ حيث كان أُعِدَّ لنا برنامج حافل ـ كما ألمعتُ. ولمّا عدتُ، وعلمتُ بالنبأ المؤلم.. هرعتُ إلى داره، وقدّمتُ التّعازي إلى ذويه الكرام.

رحمه الله، وطيَّب ثراه.. فإنّ له عندي أيادي، حينما كنتُ «لاجئاً سياسياً» في العراق، لن أنساها ما دمتُ حيّاً ـ وقد سبق التحدُّث عنها.

كما زرتُ صديقي «السيد مصطفى العاني» ـ وكان قد أُصيب بحادث اضطره لملازمة الفراش. وقد سررتُ لأنه كان رابط الجأش، صافي الذِّهن، متّقِد العاطفة والإيمان. كما زرتُ منزل أخيه «السيد طه» رحمهما الله، معاً، رحمةً واسعةً.

وكنتُ إبّان وجودي في بغداد.. أنتهز الفرص لأزور أصدقائي «العانيّين» في مكاتبهم ـ بحيّ «الصفافير» ـ وهي الأمكنة التي كنتُ أتردّد إليهم فيها. كما زرتُ الكثيرين من أصدقائي.

* * *

إنّ جولتنا في الأقطار العربية المذكورة.. كانت ذات فوائد ملحوظة في ذلك

الظَّرف ـ إذ أنها خففت من حدَّة التَّوتُّر فيما بينها.. وأوجدت سُبُلاً للالتقاء مع شخصيات عربيَّة.. ذات اتجاهات مختلفة في التفكير، متباينة في الاتجاه.

ومهما يكن.. فإن تبادل وجهات النظر ـ ولو كانت متغايرة.. فإنها لا تخلو من بعض النتائج المثمرة.. وقد تصبح ركيزة ومنطلقاً للتَّعامل البنَّاء في المستقبل.

* * *

«لجنة الشؤون السياسية»، بـ «مجلس السوفيات الأعلى»، وجَّهتْ دعوةً لـ «اللجنة السياسية» في «المجلس النيابي السوري»، لزيارة «الاتحاد السوفياتي».

وتقديراً لتلك الدَّعوة.. ذهبت اللجنة بكامل أعضائها العشرين ـ ما عدا «فيضي الأتاسي»، وزير الخارجية السابق، الذي اعتذر عن الذَّهاب.

وكان من المقرَّر أن يرئس الوفد «احسان الجابري»، رئيس «اللجنة السياسيَّة»، ولكنَّ ظرفاً قاهراً حال بينه وبين السَّفر. واقترح أحد الزملاء.. أن يرئس اللجنة أحد الوزراء السابقين من أعضاء اللجنة.. واقترحتُ أن يرئسها «رفيق بشور»، نائب رئيس المجلس النيابي، وكان قد قرَّر الذهاب معنا، وأصررتُ على اقتراحي، وأيَّدني بعض الزملاء ـ وهذا ما كان.

كانت تملأ الدنيا.. أنباء سورية وموقفها الصامد، في وجه الأحلاف العسكرية، والأسطول الأمريكي السادس... الذي تتجمع أكثر قطعه أمام الشاطىء السوري.. وتلقي طائراته المناشير داخل القطر.. فتبعثر بعضها الرِّياح، وتدوس أقدام الأحرار بعضها الآخر.

الموقف التاريخي المشرِّف ـ للشعب السوري البطل... ولروح النضال والكفاح التي عُرِفت عنه، والتي تتجلَّى في كل مناسبة وظرف.. كان موضوع اعجاب العالم وتقديره.

وكانت أنباء سورية.. تتصدَّر الصحف العالمية، وأعمدتها البارزة، وتملأ أسماع الناس الذين كانوا يسألوننا، صراحةً، عن عدد سكان سورية.. وحينما يعلمون أن عددهم، حينذاك، لا يتجاوز بضعة ملايين.. كانوا يتطلَّعون إلينا.. وفي أعينهم بريق دهشة وإعجاب وحبّ.

لقد كان موقف الشّعب السوري البطولي ـ ضد الدول الغربية، وأحلافهـا العسكرية، موضع تقدير العالم.. وباعثاً لدهشة واعتزاز. فلا الأسطول الأمريكي أرهبه، ولا الحشد التركي والاسرائيلي أفزعه، ولا تهديد أشقّائه العرب أحرجـه... بل ظلّ في موقفه الصامد يتحدّى ـ وما يزال حتى الساعة يتحدّى.. وبإذنـه تعالى سيظلّ.

وكانت زيارتنا للاتحاد السوفياتي.. إيذاناً بعهد جديد ـ لتعاون مثمر بين بلدينا. وكان وفدنا النيابي هو ثاني وفد عالمي يخترق الستار الحديديّ.. ويتجوّل في تلك البلاد المترامية الأطراف.. ذات الاثنين وعشرين مليون كيلومتر مربّع. والوفد الذي زار الاتحاد السوفياتي قبلنا كان وفداً فرنسياً.

وقلتُ في الكلمة التي ألقيتُها، باسم الوفد، في «يالتا» ـ المدينة التاريخية التي اجتمع فيها «ستالين»، و«روزفلت»، و«تشرشل»، واتخذوا موقفاً موحّداً لمتابعة الحرب ضد النّازية والفاشستية ـ قلتُ في ردي على كلمة التّرحيب التي ألقاها أمامنا في المطار أحد المسؤولين السوفيات:

«لقد كنتم حكماء.. . بفتحكم حدود بلادكم لشعوب العالم، فقد فتحتم حدود بلادكم للآخرين لكي يروا ما فيها من عظمة وقوّة وجمال.. وما في قلوبكم من طيبة ونبالة وصدق».

ومن عادة السوفيات.. أنّهم يرحبون بضيوفهم كثيراً.. ويرفعون الكؤوس على المائدة مرات عديدة.. ليشربوا نخب الضّيف الزّائر ـ ومع شرب النّخب، دائماً، كلمة.. وكلّ كلمة يجب أن يُجاب عليها بمثلها ـ كما تقضي اللياقة والذّوق.. والبروتوكول أيضاً!.

وكنا ثلاثة من أعضاء الوفد... نجيب على الخطب الرسميّة: الدكتور عبد الوهاب حومد، وراتب الحسامي، وأنا.

وكان يجري لنا استقبال رسمي وشعبي حافل ـ في جميع المدن التي زرناها ـ ومنها موسكو، وستالينغراد، ولينينغراد، وكييف، ويالتا، وغيرهنّ. ومن المحال أن يوجد شعب في العالم يتهافت مسؤولوه، وكافّة أبنائه، لتكريم ضيفهم ـ كما هم

السوفيات.. ولا مبالغة في القول، ولا مغالاة: فهم شعب طيِّب وبريء ومخلص ـ إلى أقصى درجات الطِّيبة والبراءة والإخلاص.

وكنّا نتساءل ـ بيننا وبين أنفسنا: أحقاً.. أن هذا الشعب الهادىء المسالم الأنيس هو الذي حطم الفاشيَّة والنازيَّة.. وداس غطرستهما وكبرياءهما بالنِّعال؟!.

شيء.. يبعث على التّساؤل والإعجاب ـ مثلما يبعث على الفخر والاعتزاز!.

وجرى لنا اجتماع مطوّل، في «الكرملين» ـ مركز الحزب والحكومة ـ مع «بولغانين» رئيس مجلس الوزراء، و«مولوتوف» وزير الخارجية.. استعرض فيه رئيس مجلس الوزراء، باقتضاب، المراحل التي مرَّ فيها الاتحاد السوفياتي من سنة ١٩١٧ إلى الآن. ثمَّ جرى عرض للضغوط الرّهيبة التي تمارس ضد سورية.. لزجِّها في حلف عسكري مع الامبريالية الأمريكيّة. وأعرب «بولغانين» عن تقديرهم لموقف السوريين البطولي الحازم، في وجه المؤامرات التي تُحاك ضدّهم.. وعن استعداد السوفيات للوقوف إلى جانب سورية، وتقديم كل عون لها في مجال التّسلح، وجميع المجالات الأخرى.

واجتمعنا في «الكرملين» بأمين عام الحزب الشيوعي «خروشوف».. وذلك إبّان حفلة أقامها «مجلس السوفيات الأعلى» للمناضل الفيتنامي الشهير «هوشي منى»، قائد الثورة الفيتناميّة وبطلها الأوّل... وقد دعينا إليها، وكانت مقاعدنا قرب المنصّة الرئيسية. وكان «خروشوف» لطيفاً جداً في حديثه معنا ـ ورغم أنه كان حديثاً قصيراً.. فقد أعرب خلاله عن تقديره لسورية، وموقفها الصّامد المشرّف.. وعن استعدادهم لدعمنا في مختلف الميادين.

وكانت عينا «خروشوف» كالزئبق.. تجولان في محجريهما الصّغيرين.

وأقامت لنا «لجنة الشؤون السياسية»، في «مجلس السوفيات الأعلى»، مأدبةً حافلة... حضرها بعض كبار المسؤولين. وجمهور من النواب السوفيات، ورجال السلك الدبلوماسي العربي والأجنبي.

وجُلنا في «الكرملين» وطفنا في أبهائه الواسعة ـ حيث الكنوز الأثرية

الضَّخمة.. التي تعجز آلة حاسبة عن تقدير ثمنها ـ الذي لا يُعَدّ ولا يُحصى!.

ومن أغرب ما استلفت نظرنا.. حرصهم على الاحتفاظ بملابس الامبراطور «بطرس الأكبر»، وسائر حوائجه المذَهَّبة التي كان يستعملها.. وهي من صنع يديه ـ كما قالوا لنا.

والسوفيات.. يفخرون به ويعتزون ـ أنه هو الذي وحَّد بلادهم، وقضى على أطماع مجاوريها بها. ويقال أنه زار البلدان الأوروبية متنكراً.. لكي يطَّلع على نواحي تقدّمها، ويطبقها في بلاده.

ولم تمنع السوفيات ثورتهم التي قامت على أساس تحطيم العهد الملكي، وما يتّصل به.. لم يمنعهم ذلك من الاحتفاظ بتراث «بطرس الأكبر»، والمباهاة به.

وهذه هي الشعوب الحيَّة.. التي لا تتنكَّر لماضيها الزَّاهي، وإنما تعتّز به وتزهو ـ لأنها تدرك جيداً.. أن رجالها الأُول هم بُناة نهضتها، وأساس تقدُمها وانطلاقها. وقد عبَّر عن ذلك شاعر الأمة العربية الكبير، «بدوي الجبل»، أبلغ تعبير، بقوله:

وإذا رقَّتِ الغصونَ اخضراراً فالذي أبدعَ الغصون الجذورُ

* * *

وخلال زيارتنا «الاتحاد السوفياتي».. اجتمعنا بشخصيَّات كثيرة وكبيرة ـ منها الكاتب الشّهير «إيليا أهرنبورغ» الذي طّبقت شهرته الآفاق.. وكان في طليعة الأدباء العالميين ـ ذلك الحين وقد وجدناه شيخاً طاعناً بالسّن، وكان حديثه معنا رقيقاً وعميقاً وهادفاً.

وقد ركّز في حديثه.. على وجوب التّفاهم مع اسرائيل، وإنهاء حالة الحرب معها.. لكي يحلّ السلام في الشرق الأوسط! وقد علمنا، فيما بعد، أنه يهودي ـ واليهوديّ هو هو... أينما كان، وفي كلّ مكان وزمان!.

وقد جاء «أهرنبورغ» بزجاجة فيها بقية من العرق اللبناني، وقال لنا... إنّ صديقه «الدكتور جورج حنا» قد أرسلها إليه من «رحلة»، وطلب منّا مشاركته بما بقي منها. ووُجِد، بين زملائنا، من شاركه فعلاً.

* * *

كانت زيارتنا لـ «الاتحاد السوفياتي»، وقد استمرّت عشرين يوماً، حافلة جداً... وكانوا يريدون أن تستمرّ أكثر.. حتى تتاح لنا زيارة «سيبيريا»، في الشّرق الأقصى... ولكنّنا اعتذرنا لضيق الوقت أولاً، ولشدة الحر ثانياً.

ومن الأمور الغريبة حقاً.. أنّ درجة الحرارة، في موسكو، بالصّيف.. قد تصل إلى ٤٠ درجة فوق الصفر... بينما تهبط في الشتاء أحياناً إلى ٤٠ درجة تحت الصفر.. فتأمّل!.

وإذا كان الحر في موسكو هكذا، وقد أرهقنا ــ وزيارتنا كانت في شهر آب.. فما قولك بسيبيريا التي لا يُحتمل حرّها في الصيف، ولا بردها في الشتاء؟! ولذلك اعتذرنا عن زيارتها ــ ونحن جد آسفين.

وقد أكْرِمنا في «الاتحاد السوفياتي».. إكراماً لا مثيل له. وكنّا مغتبطين، ومبتهجين، جداً بتلك الزيارة.. التي لم يعكّر صفوها، بعض الشيء، إلا تصرّف أحد زملائنا «فرزة المملوك»، نائب دمشق. ولا شكّ... أنّ «فرزة» حلو المعشر لطيف الرفقة، وأنيسها. ولكنّه ميّال لدول الغرب، مؤيّد لها، متحمس لسياستها! وكان يصرّح بذلك.. ويجاهر بأنه نصير الحرب ضد السلم! وحاولنا كثيراً أن نجعله يعدل عن تصريحاته تلك ــ لأنها تسيء إلى مشاعر القوم الذين يستضيفوننا.. فيأبى!.

والسوفيات.. إذا كانوا قد تركوا عبادة «الله»، وتخلوا عنها ــ كما يتّهمهم أعداؤهم.. فإنهم قد استعاضوا عن عبادة «الله» بعبادة «السّلْم»! وأينما ينتقل المرء في «الاتحاد السوفياتي».. يجد العبارات المؤيدة للسلم تزاحم صور «لينين» و«ستالين» ــ ذلك الحين. وأي تعريض بكلمة «السّلم».. إنما يعني التّعريض بكرامة «السوفيات» أنفسهم ــ أفراداً ومسؤولين. فالسّلم هو شعارهم الدّائم، وقاعدة سياستهم، وركيزة عقيدتهم.

لقد كان لليونان القُدامى.. إله للحرب ــ وأمّا «السوفيات».. فإنّ إلَههم هو السّلام!.

قال لنا رئيس جمهورية أوكرانيا: لا تعجبوا.. إذا سمعتمونا نردّد كلمة

«السّلام» دائماً.. لأننا قاسينا من ويلات الحرب ضد النازية.. ما لم تقاسه شعوب العالم كله في تلك الحرب. ولا توجد أسرة سوفياتية واحدة.. لم تنكب بابن، أو أب، أو أخ، أو نسيب، أو بهم جميعاً! وقد قدّمنا من الضحايا البشريّة.. أضعاف أضعاف ما قدمه الحلفاء مجتمعين ـ في الحربين العالميّتين: الأولى والثانية! فألوف القرى والمدن.. قد هُدمت كلّها تهديماً كاملاً ـ حيث لم يبق فيها جدار لم يتداع، وسقف لم يَنْهَدّ، وأسرة لم تُرَوَّع!.

وهذه حقائق... رأيناها في عيون أولئك الناس الطيبين.. ولمسنا آثارها الدّامية في ذلك المجتمع الواسع الأرجاء. وإن تكن آثار الخراب قد أُزيلت وأُعيد ما هدّمته الحرب من جديد ـ حتى إن الزّائر بعد عشر سنوات، لا يجد أي أثر لأي خراب.. إلا الذي تُرِك عن قصد.. ليظلّ عبرةً للأجيال القادمة. وكان السوفيات يُعْنَوْن بالمحافظة عليها.. حيث يتهافت الناس لزيارتها.. وفي القلوب غُصَص، وفي العيون أدمع، وعلى الألسن صلاة.

ومع ذلك.. ورغم المشاهد المؤلمة التي رأيناها، والأنباء المخزنة التي سمعناها، فإن زميلنا «المملوك» لم يقتنع.. وإنما ظلّ يشتم السلم، ويحيي الحرب!!.

وكانت مواقفه السّلبيّة.. قد بدأت في «موسكو»، ووصلت إلى الذّروة في «ستالينغراد» ـ حيث كنتُ أسجّل كلمةً في «السّجل الذّهبي»، عند قبر «الجندي المجهول»، فوق الهضبة المطلّة على نهر «الفولغا».. الذي كان هو وسيلة النّقل الوحيدة ـ للقوات السوفياتية المحاصرة في المدينة التّاريخية الخالدة «ستالينغراد».. التي شهدت أعنف المعارك، وأقساها وأدماها.. حتى أن الشّظايا، بعد نهاية الحرب، قد أُحصيت في المتر المربع الواحد على تلك الهضبة المطلة على النهر بـ ١٤٠٠ شظية ـ ما بين كبيرة وصغيرة! وقد استمرّت المعارك للاستيلاء على تلك الهضبة ستة أشهر كاملة ـ لأنّ من يسيطر عليها.. يجعل الملاحة في نهر «الفولغا» تحت اشرافه المباشر، ولصالحه. وهذا النهر هو شريان حيويّ للمواصلات في تلك الأنحاء الواسعة الأطراف. وكان الألمان

والسوفيات يستميت كلٌّ منهما لاحتلال تلك الهضبة والاحتفاظ بها. وأحياناً كانوا يتبادلونها أكثر من مرة في اليوم الواحد. وقد أجمع المؤرِّخون.. على أن بدء انهيار الجيش الألماني كان في ستالينغراد.

وهل من المعقول.. أن لا نمجِّد البطولة، وننحني أمامها خاشعين، ونحن في رحاب بسالتها وصمودها ـ في «ستالينغراد» التي دحرت العدوان النازي الشرس والرَّهيب؟.

وهل من الإنصاف.. ثم اللياقة واللَّباقة ـ فضلاً عن الشعور الإنساني الشَّريف... أن لا نحيِّي السلام، ونحن أمام مساوىء الحرب، وفظاعتها وبشاعتها ومآسيها؟.

ولكن زميلنا «فرزة»، رحمه الله، لا يريد.. وإنما تقدم نحوي يُحذِّرني، وأنا أمسك بالسجل الذَّهبي لأسجل كلمةً باسم الوفد.. وأعرب عن مشاعرنا نحو تلك البطولة الخالدة، وقال لي بصوت عالٍ:

إذا ذكرت «السلام» في الكلمة التي ستكتبها... فسأمزِّق الورقة التي كتبت فيها!! وتوقفتُ عندئذٍ عن الكتابة: فانتحى به الزميل «خالد بكداش».. وأخذ، يلاطفه ويهدِّىء من ثائرته... ويؤكد له أنه بمواقفه هذه يسيء إلى مشاعر السوفيات الذين يستضيفوننا ويكرموننا. وابتعد به عن المكان. واغتنمت فرصة ابتعاده.. فكتبتُ كلمةً سريعةً، حيّيتُ فيها بطولة الجيش السوفياتي الخالدة، وصمود مدينة «ستالينغراد».. حيث تحتل أنصع صفحات النضال في التاريخ وكتبت:

إن الضَّحايا الكثيرة التي سقطت على هذه الهضبة.. ستكون من أقوى ركائز السِّلم في المستقبل.

وحينما عاد الزميل «فرزة».. أراد أن يطلِّع على ما كتبتُ، وحاول أن يأخذ السِّجِّل من يدي.. ولكني تشبَّثتُ به، وساعدني الزملاء بهذا التَّشبّث.. وأبعدوه عن المكان.. فشرع يشتم، ويتلفظُ بكلمات قاسية نابية!.

وله في مدينة «كييف» عاصمة أوكرانيا، موقف غير سليم.. مما دفع «الدكتور

فيصل الركبي»، نائب حماه، لأن يهجم ليضربه، فسحبته من يده وأدخلتُه غرفتي، وأغلقتُ بابها.. وبذلك حُلتُ دون تفاقم المشكلة ـ وما تجرُّه من مآس.

ولكن.. في المؤتمر الصحفي الذي عقدناه في موسكو، قبل مغادرتنا إيَّاها، وألقى فيه «الدكتور عبد الوهاب حومد» بياناً باللغة الفرنسية.. تضمَّن شكرنا البالغ، للحفاوة البالغة، التي لقيناها من الشَّعب السوفياتي الصَّديق.. وتقديراً عميقاً لما رأيناه ولمسناه من اهتمام المسؤولين السوفيات بقضايانا.. وإعلانهم دعمنا في مختلف المجالات والميادين.

في المؤتمر الصُّحفي ذاك.. وقف «فرزة المملوك» وقال ـ مخاطباً السوفيات:

«لقد دخلتُ بلادكم عدوّاً.. وأخرجُ منها صديقاً».

فصفقنًا له بحرارة. واستقبل السوفيات قوله هذا.. بغبطة وسرور، ونشرته وسائل الاعلام في سائر الصُّحف، ومحطَّات الإذاعة والتلفزيون. كما أن الدول الاشتراكية، والأنباء العالميَّة، تناقلت تصريحه ذاك، وعلقت عليه.

في ذلك التَّصريح.. غطَّى على جميع مواقفه السابقة، ومحاها.. وأعطى فكرةً كريمةً عنه، وعن شعوره.

ولكنه في «براغ» عاصمة تشيكوسلوفاكيا، عاد إلى موقفه السابق ـ وكما يقول المثل العامي: «عادت حليمة إلى عادتها القديمة»!.

كنَّا دُعينا لزيارة البلدان الاشتراكية في أوروبا الشَّرقية: تشيكوسلوفاكيا، رومانيا، بولونيا، هنغاريا، بلغاريا، ألبانيا، ألمانيا الشرقيَّة. كما دُعينا لزيارة الصِّين، وكوريا الشمالية، ومنغوليا. وما زلتُ أحتفظ بتأشيرات هذه الدول كلها ـ على جواز سفر قديم.. كذكرى.

وكنا قد مررنا في «فرسوفيا»، عاصمة بولونيا، وأمضينا فيها بضع ساعات، ونحن في طريقنا إلى موسكو. وقد تجولنا في شوارعها وأحيائها التي أعيد بناؤها بكاملها ـ ما عدا بضعة أبنية مهدَّمة.. تُركت لتبقى للناس، وللأجيال القادمة، عبرةً وعظةً ـ كما هي الحال في كثير من مدن الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية الأخرى.

وكُلِّفتُ بترؤس الوفد إلى بقية الدول الاشتراكية ـ بعد أن اعتذر «رفيق بشور»، رئيس الوفد وبعض أعضائه، عن متابعة الرحلة... وقرروا العودة إلى دمشق.. بعد انتهاء زيارتنا لتشيكوسلوفاكيا التي استمرت ثلاثة أيام.. تجوّلنا خلالها في أكثر أنحائها، واطّلعنا على معالم نهضتها، وحيويّة شعبها. وأمضينا ليلةً في منتجع المياه المعدنيّة. بمنطقة «كرلسباد» ـ إذا لم تَخُنّي الذاكرة بصحة الاسم ـ حيث يتوافد إليه الناس... من سائر أنحاء الدنيا للاستشفاء والاستجمام.

وفي الحفلة.. التي أقيمت لوداعنا في الهواء الطّلق، على سطح أحد الفنادق الفخمة، في مدينة «براغ»، عاصمة تشيكوسلوفاكيا، جاءني «فرزة المملوك» يقول:

ستكون رئيس الوفد، والمتكلّم باسمه، في رحلتنا إلى بلدان أوروبا الشرقية.. ولكنّي أحذِّرك، من الآن، أن تذكر «السّلم» بكلمة واحدة في أحاديثك أو خطبك أو التّصريح للصحف ـ وإلاّ.. فسنعود لما حصل معنا في «كييف» و«ستالينغراد» وغيرهما!.

وعبثاً حاولتُ إقناعه بالعدول عن موقفه النابي ـ ولكن دون جدوى! ولمّا لم أستطع إقناعه عدلتُ عن السّفر. وحاول إقناعي سفير رومانيا في براغ، وكذلك الزّميل «خالد بكداش»، بالعدول عن تصميمي بعدم السفر.. فأصررتُ على رفضي ـ وأنا جدّ آسف ومتألّم ـ وذلك تجنّباً لحدوث مشاكل تسيء لبلدنا وسمعتنا وكرامتنا ـ لأنه من غير المعقول، ولا المقبول، أن لا نذكر كلمة «السّلم».. في بلدان تقدّسه وتعبده كما أنه من غير المعقول، ولا المقبول أن ندخل في مشاحنات مع بعضنا.. تسيء إلى اسمنا وسمعتنا وكرامتنا.

وكانت أسماء الوفد.. قد أرسلت برقياً إلى «بوخارست» عاصمة رومانيا واسمي في مقدمتها.

وخسرتُ رحلةً.. كنتُ أمنّي النفس بها ـ وما أزال. وذهب «فرزة المملوك»، و«خالد بكداش»، وحدهما.. واعتذر بقيّة الزملاء أيضاً.

وكان «فرزة المملوك» يقول في كل مكان، بالبلدان التي زارها في أوروبا

الشرقيةَّ:

أنا أمثِّل أقصى اليمين، والزّميل «بكداش» يمثِّل أقصى اليسار ـ وهذا صحيح.

ويقول «المملوك» في كتابه: «عشر مقالات» الذي أصدره عن تلك الرحلة:

«إنَّ رئيس مجلس نواب «رومانيا» استقبلنا في المطار، ووجّه خطابه إلى «عبد اللطيف اليونس» ـ بصفته رئيس الوفد... ولكنَّ الزميل «اليونس» كان قد عاد إلى دمشق.. واعتذر عن متابعة الرحلةَّ».

ولم يذكر السَّبب!.

ويقول في مكان آخر ـ بكتابه ذاك: «كنَّا في رحلاتنا.. كلَما أُحْرِجنا بموقف خطابي.. نذكر أنَّ الزميل «عبد اللطيف اليونس» موجود معنا.. فنطمئنّ، ونُسَرُّ، ونرتاح ـ لأنه يستطيع الإرتجال بشكل عفويّ، وفي أي وقت، وأيّة مناسبة، وأيّ موضوع».

والحمد لله على نعمه وفضله.

* * *

ولقد خصَّص السوفيات جائزة لدعاة «السّلم».. أطلقوا عليها اسم «جائزة لينين للسّلام».. تُمنَح كل عام، لأحد الأشخاص العالميين الذين يناضلون في سبيل السلام، ويكافحون ويستبسلون.

ومُنِحت ذلك العام ـ ١٩٥٥ ـ للمجاهد الشيخ «محمد الأشمَر».. أحد شيوخ دمشق المرموقين.. وله مواقف مشرِّفة بالنِّضال ضد الفرنسيين.. وقد حضر، أكثر من مرّة، بعض المهرجانات العالميَّة التي كانت تقام تأييداً للسِّلم ومناصريه.

ولهذا فقد مُنح الجائزة الكبرى التي خصّصها السوفيات ـ كما ذكرنا.

وأُقيم، بتلك المناسبة مهرجان ضخم في احدى دور السينما الكبرى بدمشق، دُعيت لحضوره.. وإلقاء كلمة فيه. وقد احتشد عدد كبير من الناس ـ داخل السينما وخارجها. وكان ثمّة وفد سوفياتي كبير.. جاء إلى دمشق خصِّيصاً لتلك المناسبة.. وتقديم الجائزة للشيخ المجاهد.

وكان «الدكتور مراد القوتلي»... قد زارني، في صافيتا، وطلب مني حضور

المهرجان، وإلقاء كلمة فيه: فحضرتُ، وألقيتُ كلمةً... تحدّثتُ فيها عن السَّلام الذي ينقذ البشريَّة من جرائم الحروب وويلاتها.. وأنَّ من واجب كل مواطن عالمي أن يدعو له، ويجنِّد طاقاته وإمكاناته كلها في سبيله. ثم تحدّثتُ عن زيارتنا للاتحاد السوفياتي. وعمّا لقيناه وشاهدناه.. وعن تأثرنا العميق بما لمسناه من إيمان السوفيات بالسلام، وتشبثّهم به. وقلتُ:

إن موقف السوفيات - الداعي للسَّلام.. ليس عن عجز، أو ضعف، أو خوف.. وإنما هو عن سموّ عقيدة وإيمان.. ورغبة حارَّة بإنقاذ الشعوب من مآسي الحروب، وويلاتها.. وجرائمها وفظائعها ومآسيها.

وكان لذلك الخطاب.. أثره في الجمهور المحتشد - داخل السينما، وخارجها.

وأحمدُ الله وأشكره.

* * *

في تلك الفترة.. اجتمعت هيئة من علماء المسلمين في «المسجد الأموي»، بدمشق، وقرّروا القيام بمظاهرة ضخمة تأييداً للثّورة الجزائريّة. وامتلأت الشّوارع بالناس - من «المسجد الأموي» إلى «المجلس النيابي». وكانت تلك المظاهرة.. من أضخم ما رأته دمشق قبل ذاك.

وكانت ثمّة سيارات تحمل مكبِّرات للصّوت.. وعشرات الخطباء يحملهم المتظاهرون على الأكتاف.. وهم يندِّدون بفرنسا، وبالمجازر الرّهيبة التي يرتكبها جنودها في الجزائر، ويعربون عن تأييدهم للثوار الجزائريين، ومواقفهم البطوليّة المشرّفة.. وأمام «المجلس النيابي»، من الناحية الشّرقيّة، صُفّت الكراسي حيث جلس عليها بعض النواب، وكبار الشيوخ الذين كانوا يسيرون في مقدمة المظاهرة. وألقى بعض المتظاهرين خطباً مفعمةً بالحماس أمام المجلس. وطلب مني «الرئيس ناظم القدسي» أن أجيب على خطب الخطباء.. باسم المجلس.

فوقفتُ وتحدّثتُ عن الشّعب العربي في الجزائر، وثورته القوميّة الكبرى.

فصرخت مئات الأصوات من المعمَّمين:

يا أستاذ: ليس هنا مجال التّحدُّث عن العروبة. الحديث عن الاسلام فقط..

وعن الثورة الجزائرية المسلمة. وردّدت ألوف الأصوات وراءها وهي تصرخ: الإسلام.. فقط الإسلام!.

ولم أرهب ذلك الصُّراخ الحادّ المرعب، ولم أخفه. وإنّما صحتُ بملء صوتي:

أنتم بموقفكم هذا.. تضعفون الثورة الجزائرية وتهدِّمونها! أنتم، من حيث لا تشعرون ولا تريدون، تؤيدون افتراء فرنسا وادعاءاتها! ففرنسا تزعم أمام أوروبا، وأمام العالم، أنّ الثورة الجزائرية.. هي طائفية ـ وليست قوميّة! إنها تريد أن تنفي عن هذه الثورة الجبّارة المؤمنة الوطنيّة.. وتَسِمَها بسِمَة التّعصّب الطائفي ـ حتى تستثير المشاعر الأُخرى نحوها.. ونحو أعمالها الإجراميّة، والفظائع الوحشية التي ترتكبها بحق الشعب الجزائري البطل!.

وأنتم هنا.. تريدون التّفرقة بين العروبة والاسلام. والله سبحانه وتعالى، حينما أرسل نبيّه «محمداً» (ﷺ)، هدىً ورحمةً للعالمين.. إنما أرسله في الأرض العربية، ولم يختر أرضاً سواها ـ لأنّه يعلم، جلّ جلاله، أنّ العروبة ستكون منطلقاً للإسلام... مثلما يكون الإسلام درعاً لها ومنطلقاً.

وقد قال «النّبيُّ محمّد»: أنا عربيّ، والقرآنُ عربيّ، ولغةُ أهل الجنّة، في الجنّة، باللسان العربي. وقال تعالى في سورة «يوسف»: ﴿إنّا أنزلناه قرآناً عربيّاً لعلكم تعقلون﴾. وقال جلّ وعلا في سورة «الرعد» ﴿كذلك أنزلناه قرآناً عربياً﴾. وقال في سورة «النّحل»: ﴿وهذا لسانٌ عربيٌّ مبين﴾. هذه آيات بَيِّنات.. تدلّ على أن الله قد اختار العربية لتكون لغة القرآن. ولذلك.. فمثلما هي لغة العرب، فهي لغة الاسلام والمسلمين.

وصمتت الجماهير. ثم ارتفعت من بينها أصوات تصيح: صدق الله العظيم. أحسنتَ، أحسنتَ. وأكملتُ كلمتي... طالباً دعم الثورة الجزائرية بالعمل ـ وليس بالخُطب وحدها.. وبالاندفاع للتّبرع بالمال والدّم لإخواننا المجاهدين الشجعان. ثم أبلغتُهم تحيّات رئيس المجلس، وتقديره لمشاعرهم النّبيلة... وطلبتُ منهم باسمه أن يتفرّقوا ـ بعد أن قاموا بواجبهم، وأدّوا رسالتهم. وهتف المتظاهرون طويلاً، وصفّقوا وتفرّقوا.

وفي اليوم الثَّاني.. جاءتني وفود من طلاَّب «جامعة دمشق».. يشكرون موقفي القومي، ويعربون عن تهنئتهم وتأييدهم.

وقد كان لذلك الموقف صدىً بعيد.. بين أوساط المثقَّفين كافَّة والحمد لله، والشكر له.

* * *

في تاريخ سورية الحديث.. أكثر من نقطة تحوُّل. ومصرع «العقيد عدنان المالكي».. كان احدى تلك النُّقاط، وربما من أبرزها ـ لأنه كان إيذاناً بعودة الجيش لتولِّي قيادة الأمن الداخلي.. بعد أن كانت، عقب الانقلاب على «الشيشكلي»، قد عادت إلى وزارة الداخليَّة... كما كانت قبل الانقلابات العسكرية ـ وهو شيء بدهيّ ومنطقيّ.

و«عدنان المالكي».. ضابط مرموق في الجيش، وله مواقف مشهودة. وهو ضابط شجاع.. فرض نفسه، وبدأ يتسلَّق القمة شيئاً فشيئاً. وكنتُ زرتُه مرَّةً في داره بدمشق.. ولقيتُ منه ترحيباً وتقديراً تركا أثراً كريماً في نفسي. وكانت أفكاره، وتطلعاته السياسية، تتلاقى مع «حزب البعث العربي الاشتراكي». و«رياض»، أخو «عدنان»، أحد أقطابه البارزين.

وبعد أن عاد «عدنان المالكي» إلى صفوف الجيش، وتسلَّم إدارة «الشعبة الثالثة»، جعل الجيش ينخرط مرةً أخرى في خضَّم الأحداث.. وبدأ يدعم كتلة «الحوراني ـ العسلي ـ العظم»، ويؤيِّد فكرة «الدفاع المشترك» مع مصر.. المناهض لـ «حلف بغداد»، وبقيَّة الأحلاف الاستعمارية.

وانطلقت رصاصات مجنونة ـ من رقيب في الجيش، بإحدى الحفلات الرسميَّة، وأردت الضابط المرموق «عدنان المالكي» قتيلاً!.

ولقي القاتل مصرعه فوراً، وقيل انه انتحر، وكان عضواً في «الحزب السوري القومي» ـ الذي تنصَّل أقطابه من تلك الجريمة النكراء وألصقوا مسؤوليتها بـ «جورج عبد المسيح»، وفصلوه من الحزب، فشكَّل لنفسه خلية منه ـ ما تزال إلى الآن. وقيل إنَّ السفارة الأمريكية كانت وراء التَّخطيط للاغتيال ـ تمهيداً

لانقلاب عسكري يدفع سورية إلى الأحلاف الامبريالية. كما هو دائماً وأبداً موقف «الولايات المتحدة» التي تريد الهيمنة على الشعوب واستعبادها!

يقول «اللواء راشد كيلاني» في مذكراته: «أُقيمت مباراة لكرة القدم في ٢٢/٤/١٩٥٥ بين فريق الجيش السوري، وفريق الجيش المصري، تحت رعاية «شوكة شقير» رئيس الأركان العامة.. وقد جلس في السُدَّة، وإلى جانبه «محمود رياض» سفير مصر، وجلس في الصف الأوَّل ـ وراءهما.. «عدنان المالكي، وإلى يمينه «أحمد الفتيِّح» أمين عام وزارة التربية، وجلستُ أنا، أي «الكيلاني» ـ إلى يساره. وبعد بدء المباراة، ببضع دقائق، سمعتُ صوت طلقة ناريَّة وكأنها تخترق رأسي. وعندما التفتُّ إلى الخلف.. رأيتُ رجلاً يرتدي لباس رقيب في الشرطة العسكرية.. يصوِّب مسدَّسه إلى الأمام، وعيناه غائرتان ـ وكأنه وحش مفترس. فرميتُ نفسي إلى الأرض.. خوفاً من أن تصيبني الرصاصة التالية.. فقد كان هذا المجرم يقف وراءنا تماماً ـ وهكذا فعل من كان بجوارنا.. وعندما نهضت، بعد توقُّف الرصاص، وجدتُ القاتل مرمياً على الأرض.. فقد قُتِل هو بدوره من قِبَل أحد المشتركين في هذه المؤامرة ـ بقصد إخفاء الجريمة، كما وجدتُ «عدنان المالكي» قد لفظ أنفاسه الأخيرة».

«وقد عُرِف القاتل، فيما بعد، أنه من شرطة الجيش، وينتمي إلى «الحزب السوري القومي».. الذي كان قد دخل في صراع مرير مع «عدنان المالكي» بسبب تسابقه مع «حزب البعث» للسيطرة على مقدَّرات الجيش. وقيل إنّ «المالكي» قد بدأ يستأصل، قبل مصرعه العناصر العسكرية الموالية للحزب القومي السوري.. ويُسرِّح خلاياه الحزبيَّة الموجودة في الجيش، والتي قُدِّرت قوتها بثلاثين ضابطاً، ومائة صف ضابط. وقيل إنه كان يعادي «المقدَّم غسان جديد»، ركيزة السوريين القوميين في الجيش، ثم سرّحه وعندما نُشِر قرار الاتهام ـ الموجه إلى ١٤٠ عضواً من أعضاء الحزب، خلال محاكمة قتلة «المالكي»، وُجِهّت إلى ٣٠ منهم اتّهامات بجرائم قتل عقوبتها الإعدام.

وكان اغتيال «المالكي».. يوم وقفة شهر رمضان المبارك.. ودُفِن في اليوم

الأوّل من شهر رمضان في مقبرة المهاجرين، ونُقِل جثمانه بعد ذلك... إلى الضّريح القائم حالياً في أعلى الشارع الذي سُمّي باسمه. كما أُقيم في السّاحة المجاورة تمثال له ـ احياءً لذكراه». انتهى.

أما العماد «مصطفى طلاس».. فإنه في مذكراته «مرآة حياتي»، قد كتب فصلاً مستقلاً عنوانه «مصرع النسر».. يتألف من ٢٢ صفحة. وفي هذا الفصل.. يبدي تساؤلاتٍ كثيرة عن القاتل، وموجّهي القتل، والمستفيدين منه. ومن هذه التساؤلات يقول:

«ومادام الحديث ذا شجون.. فما هو موقف جماعة «أكرم الحوراني» من الاغتيال؟ وللجواب.. لابدّ من أن ندخل على واحد من كبار المستفيدين ـ اسمه «أكرم الحوراني». فبعد سقوط «الشيشكلي».. حاول «أكرم» أن «يتسلطن» في القوات المسلحة.. ولكن «المالكي» ـ وهو يعرف «الحوراني» على حقيقته، ويعرف مناقبيته في الوصوليّة... لم يكن يسمع أو ينقاد. ولذلك.. كانت أعمال «الحوراني» تصبّ في طاحونة «محمود رياض»، و«عبد الحميد السّرّاج».

ويقول «طلاس» في الحاشية صفحة ٤٨١: بعد أن مضى على اغتيال «المالكي» قرابة عام.. استوقفني «النّقيب أحمد مظهر البرازي»، وهو رفيق حزبي من حماة، وقال لي هامساً: نحن نعرف محبّتك الشّخصية لـ «عدنان المالكي».. لكن الأستاذ «أكرم الحوراني» طلب إلي أن أبلغك شخصياً.. بأن «المالكي»، في آخر حياته، لم يكن ينصاع لتوجيهات الحزب. ولذلك.. فإن توجيهات «أكرم الحوراني» بأن تخفف من حماستك وعاطفتك تجاه «عدنان».

ويقول «طلاس»: ولم أفعل ذلك بالطّبع. وقد خلق هذا التوجيه أول شكوكي بـ «أكرم الحوراني». ثم يقول «طلاس»: بعدما حولّوا الأنظار عنهم جميعاً.. وجّهوها إلى «الحزب السوري القومي».. بقيادته مجتمعة ـ لا بأحد أعضائه «غسان جديد»، وأدواته المشتركة لايضاح أسباب القتل». ويقول بعد ذلك في الصفحة ٤٨٣:

«بقيت حادثة في الذاكرة.. ولابد من أن أرويها للقارىء، وهي: «بعد أن

شُيِّع» «المالكي» إلى مثواه الأخير، جاءت قيادة الجيش، وعلى رأسها رئيس الأركان العميد «شوكة شقير»، والرائد «عبد الحميد السَّرَّاج»، وآخرون، إلى منزل الأستاذ «رياض المالكي» شقيق الفقيد، وأحد القياديين في «حزب البعث».
وبعد أن جلس المعزّون.. التفت «رياض المالكي» إلى العميد «شوكة شقير»، وقال له: أنت قتلت أخي «عدنان»! وسكت الجميع.. وكأنَّ على رؤوسهم الطَّير!
وفي تفسيري لهذه الواقعة.. أن «العميد شقير» لو كان بريئاً من الحَدَث... لقال شيئاً ما ـ ولكنه صمت.. مع أن التُّهمة الموجّهة إليه... كانت أكبر من أن تُمتَصَّ بالخرس، أو باصطناع الحكمة والوقار».

وفي الحاشية ـ بنفس الصفحة.. يقول «طلاس»: روى لي أحد المسؤولين، في الحزب السوري القومي، أن احدى الرِّفيقات في الحزب، وكانت تعمل مربيِّة في منزل «العميد شوكة شقير»، سمعت سفير مصر «محمود رياض» يقول في احدى زياراته لبيت معلّمها: «الحمد لله الذي قُتِل في الملعب ـ إذ لو وقعت الحادثة على طريق دمشق ـ صيدا.. لعملت القصّة «زيطة وزنبليطة»! وهذا يدّلنا على أن المخططين للجريمة.. كانوا يفكّرون بأكثر من طريقة لإزاحة «المالكي» من الطريق». انتهى.

* * *

وكان لاغتيال «المالكي» دويّ كبير ـ ليس في سورية وحدها.. وإنّما في العالم كله.. لأنَّ الشَّهيد كان مهيَّأ ومؤهَّلاً للقيام بدور بارز على مسرح السياسة السورية والعربية. وقد أُثيرت قضيةُ اغتياله في المجلس النيابي السوري، وتكلّم عددٌ من النواب مطالبين إنزال أقسى العقوبات بالذين وجّهوا القاتل، ودفعوه لارتكاب تلك الجريمة الوحشية النّكراء.

وألقيتُ في تلك الجلسة، كلمةً نابعةً من أعماق قلبي.. وتحمل تأثراً من الفاجعة الرّهيبة المؤلمة.. التي أحاقت بالجيش وبالوطن وعدَّدتُ مآثر الفقيد.. وما كان يُؤمّل منه ويُرتجى.

وعلمتُ، فيما بعد، أنَّ بعض ذوي النوايا السيئة، والنفوس المغرضة، أرادوا

أن يتّخذوا من اغتيال «المالكي» سبباً لملاحقتي، والنّيل مني ـ لأنّ القاتل من صافيتا.. وكأني مسؤول عن جريمة يرتكبها شخص من البلد الذي أمثّله في المجلس النيابي!!!!.

ولكن كلمتي في رثاء الشهيد، والتأثُّر الصّادق العميق الذي بدا عليّ.. واللّهجة الحزينة المؤثِّرة التي تجلّت في كلماتي وعباراتي.. ذلك كلّه قد ترك انطباعاً ايجابياً في نفوس الجميع.. وأحبط تلك الخطة اللئيمة التي كانت تُحاك في الخفاء ضدي. وصدق الله العظيم: ﴿ولا يُحيقُ المكرُ السَّيءُ إلاّ بأهله﴾. صدق الله العظيم.

ولكن حقد ذوي النفوس المريضة.. لم ينته هنا ـ وإنما اتّخذ شكلاً آخر، وسبيلاً آخر! فكانت قد شُكِلّت «محكمة خاصة»، لمحاكمة المتهمين بمؤامرة اغتيال «المالكي».. وعُيِّن القاضي «بدر الدين علوش» رئيساً للمحكمة. وإبّان انعقاد جلساتها.. ورد إلى «المجلس النيابي» كتاب، من رئيس المحكمة، يطلب إرسال صورة عن الكلمة التي ألقيتُها في المجلس يوم اغتيال «المقدّم غسّان جديد» ـ وكان قد اغتاله أشخاص مجهولون أمام مكتب «الحزب السوري القومي» في بيروت. ونقل الموظفون المختصون في المجلس صورة حرفيّة عن كلمتي المنوّه عنها.. وأرسلوها للمحكمة.

وبعد أيّام قليلة.. التقيتُ رئيس المحكمة «بدر الدين علوش»، فسألته عن سبب طلبه نصّ كلمتي بالمقدّم «جديد» ـ والأصحّ أنه هو الذي بادرني بالقول: أتدري سبب طلبي ارسال صورة عن كلمتك؟ فقلتُ: أرجو أن تتلطف وتخبرني فقال:

إن الطّالب الجامعي «غ. ع» وهو من منطقة بانياس، جاء إلى المحكمة وطلب الاجتماع بي، وقال لي:

كنتُ بين النّظارة في المجلس النيابي.. حين وقف النّائب «عبد اللطيف اليونس» يهاجم ويهدّد، يوم اغتيال «المقدم غسّان جديد»، وهو من أخصائه، وقال «اليونس»: سنعرف كيف سننتقم... وممّن سننتقم.. ولن نرضى إلا بمن هو

أعلى رتبةً من «المقدّم جديد»، ومن المرموقين بالجيش!! وقال حضرة الطالب الجامعي: حينئذٍ وقف شعر رأسي.. وأدركتُ أنه ستُرتكب جريمة قتل لأحد كبار ضبّاط الجيش!!!.

وقال لي «القاضي علوش»، رئيس المحكمة الخاصّة، التي تحاكم المتهمين بمؤامرة اغتيال «المالكي»: لا شكّ أنّ هذا القول خطير.. ولم أستدعك إلى المحكمة ـ لأسألك عنه.. وإنما أحببت أوّلاً الاطلاع على كلمتك تلك. وحينما وردتني، بصورة رسميّة، لم أجد فيها أية كلمة، ولا أية إشارة، مما زعمه ذلك الشّاب ـ بل على النّقيض من هذا الادعاء.. كانت كلمتك تتضمّن عاطفةً وطنيةً مخلصةً.. تشير إلى مدى الخسارة القوميّة بفقدان ضابط من الجيش المُعَدّ للدفاع عن كيانه وأرضه وتاريخه. وقال لي:

إنّ بإمكانك أن تقدّم على هذا الشخص «دعوى افتراء».. وأنا مستعدّ لأن أشهد بما قاله لي. فقلتُ له:

لقد كنتَ قاضي صلح في صافيتا، وأنت تعرفني جيداً.. وانه ليس من عادتي، ولا من خلقي، الانتقام ممن يسيئون إليّ، ولكني واثق من أنّ الله سينتقم لي منه.

وقد علمت، بعد ذلك، أن ذلك الشاب قد سُجِن أكثر من عام ــ لتهجّمه على كبار المسؤولين. وهكذا ينتقم الله سبحانه وتعالى من الجُناة البُغاة.

وذلك الشّاب، كان نفسه، يزورني في مكتبي بالمجلس النيابي، من وقت لآخر، ويشكو لي وضعه الماليّ.. فكنتُ أصطحبه معي للغداء، وأعطيه معونةً ماليةً.. كل مرّةً.

والله يشهد أنّ هذا ما كان يحدث.

وأنا أروي ذلك ـ وإن يكن ليس من عادتي، ولا من خُلُقي، أن أتحدّث عن معونتي للآخرين أبداً أبداً.. وإنما أريد أن يكون في عقوق ذلك الشّاب، ونكرانه الجميل، واختلاقه قصّة من الخيال، وافترائه عليّ بذلك الشكل اللئيم المنحطّ.. أن يكون في ذلك عبرة لذوي النفوس المريضة.. ودرس لها ـ وليس ثمّة أكثر.

والذي علمتُه.. أنّ الشاب العقوق.. كان، في قرارة نفسه، ناقماً عليّ ـ لأني

في صافيتا «منافسٌ» لشخص يحبّه ويؤيِّده. وصدق من قال:

«اتّقِ شرَّ من أحسنت إليه».

ورحم الله «زهير ابن أبي سلمى»:

ومن يَصنعِ المعروف مع غيرِ أهلِهِ   يكــنْ حمــدُهُ ذمّــاً عليــهِ وينــدمِ

* * *

وحُكِم على ثلاثة من المتهمين بالتآمر على «المالكي» بالإعدام، وعلى آخرين بالسجن مُدداً مختلفة. ورفض «شكري القوتلي» التّصديق على حكم الإعدام ـ لأن والدته كانت قد طلبت منه أن لا يوافق على إعدام أحد. ولكنَّ «صلاح البيطار» وزير الخارجية، و«خليل كلاّس» وزير الاقتصاد، هدّدا بالاستقالة.. إذا لم يصادق رئيس الجمهوريّة على حكم الإعدام. وأخيراً.. طلب رئيس الجمهوريّة تشكيل لجنة من ثلاثة قضاة، وثلاثة ضبّاط، تتولّى دراسة القضيّة، وإصدار قرار بشأنها. وتعهّد بالموافقة على قرار اللجنة ـ التي أقرّت حكم الإعدام على اثنين، وتخفيض الحكم إلى السجن عن الثالث.

وقد سُرِّح عدد غير قليل من الطلاّب في «الكليّة العسكريّة»، المنتمين إلى «الحزب السوري القومي»، ومن الطيارين والضباط. وصدر قرار بحلّ الحزب، ومصادرة ممتلكاته.

* * *

كان اغتيال «المالكي»، كما أسلفنا، تحولاً خطيراً في الوضع العسكري والسياسي بسورية. وسبباً مباشراً لاستيلاء الجيش على الأمن، وربط قوى الشرطة والدَّرك به.. وتعيين ضبّاط من الجيش لقيادتها والإشراف عليها.

وقوى الأمن الداخلي: الشرطة، والدَّرك، وحرس البادية، كانت تابعة لوزارة الدّاخليّة، وهذا من الأمور البدهية.. ولكنّ «حسني الزّعيم»، عند انقلابه، فصلها عنها وألحقها بالجيش! وبقيت كذلك.. إلى أن أعيدت الحياة الدستورية سنة ١٩٥٤ فأصرّ النواب على اعادة قوى الأمن إلى ما كانت عليه قبل الانقلابات.. وهذا ما حصل ـ لأنّ من غير المعقول أن لا يكون لوزارة الداخلية، وهي المشرفة

على الشؤون الداخليَّة، أيَّة سلطة أو تأثير على قوى الأمن الداخلي.. وهو أمر مخالف للواقع والأصول، ولما يجب أن يكون.

وقبل اغتيال «المالكي».. كان «مجلس النواب» قد أصدر قانوناً خاصاً باعطاء حصانة نيابيَّة ضد النّقل والعزل لقائد الدرك العام «العقيد محمد علي اسماعيل». وقد اتفقت الحكومة والمعارضة، آنذاك، لإسقاط ذلك المشروع. ولكنَّ أكثريَّة النواب أقرّته ليكون قائد الدّرك، وقواه، في مأمن من تدخل السياسة بشؤونهم.. وتوجيه تلك القوى بما يتَّفق ومصالحها وأهواءها ـ خاصَّة وأن «العقيد محمد علي اسماعيل» يتمتّع بطيبة وكفاءة واستقامة.

وكنتُ قد أعددتُ مشروع ذلك القانون.. لعرضه على مجلس النواب. ولكني، حين عرضه، كنتُ مع وفد نيابي بزيارة للاتحاد السوفياتي.

وبلغني.. أنَّ «صبري العسلي»، رئيس مجلس الوزراء، قال للعقيد «اسماعيل» بعد الموافقة على مشروع القانون: الحكومة، والمعارضة، تتّفقان معاً على اسقاط المشروع الذي يعطيك «حصانة» لا سابقة لها.. وتستطيع أنت الانتصار علينا! استعنتُ عليك بالله، وبالروح القُدُس! وحين اغتيال العقيد «عدنان المالكي».. استُدعِيَ «العقيد محمد علي اسماعيل» قائد الدرك العام إلى رئاسة مجلس الوزراء، وطُلِب منه أن يستقيل من منصبه لكي يسهُل ضم الدرك إلى الجيش. وبما أنه انسان ايجابي.. فقد لبّى الطلب واستقال. ووعدوا بتعيينه سفيراً.. ولكنهم لم يبرّوا بوعدهم! وهذه حال الدنيا!

* * *

قال لي «صبري العسلي»، رئيس مجلس الوزراء مرّةً:

«أنا هنا بَصْمَجِي».. أوقِّع على كل ما يأتيني من ضبَّاط الجيش، وأدعهم وحدهم يتحمَّلون المسؤوليَّة!!.

ولقد تقيّد ذلك «البَصْمَجِي» بواجبه ذاك.. تقيُّداً تاماً، وأخلص له كلّ الإخلاص! ولم يكن «أبو شجاع» ـ وهو لقب «صبري العسلي» الشعّبي ـ شجاعاً في كثير من المواقف.. بل كان مسالماً على غير عهد الناس به في الملمآت والنائبات!

حتى إنه كان، أحياناً، يعقد مجلس الوزراء في داره، أو دار «خالد العظم» وزير الدفاع، كي يستطيع ضباط الجيش، ممّن ليسوا أعضاء في الوزارة، أن يحضروا الاجتماعات، ويشتركوا في المناقشات.. وهم الذين كانوا، بتلك الفترة، يسيِّرون دفة الحكم من وراء ستار ـ وفي طليعتهم رجل المخابرات المعروف.. «عبد الحميد السرّاج»!

و«صبري العسلي».. كان طيّب القلب. وفي كثير من المواقف.. كانت مصلحة الدَّولة تتغلب عنده على أي اعتبار آخر. لكنّه في تلك الفترة، وكانت حاسمة بالنسبة لمستقبل سورية، كان يذعن لمطالب أولئك الذين يريدون أن يجعلوا من الدَّولة منطلقاً لرغباتهم وطموحهم.. الذي كان يسخر من كل شيء.. ويحاول أن يجعل كلَّ شيء مطيّةً له!.

وطلبت تلك «الفئة» إعلان الأحكام العُرفيّة.. حتى يتاح لها اعتقال من تشاء، والتنكيل بمن تريد ـ متّخذةً من اغتيال الشّهيد «المالكي» وسيلة لتنفيذ أهوائها ورغباتها وطموحاتها! واستجاب «صبري العسلي»... وأعدَّ مرسوم إعلان الأحكام العُرفيّة.. وصعد به إلى «القصر الجمهوري»، وعرضه على رئيس الجمهوريّة «هاشم الأتاسي» للتوقيع عليه. وحينما قرأه «الرئيس الأتاسي» نهض من كرسيه وصرخ في وجه «العسلي» رئيس الوزارة، وقال له بصوت متهدّج غاضب:

«... وَلَكْ. أنتم تحبسون الناس وتعذّبونهم دون قانون... بدّك تحمّلني مسؤوليّة جرائمكم! وَلَكْ.. أنت بتطلع تدافع عنّي عند الله»؟!.

وهجم عليه.. وصار ذلك الشيخ الطاعن بالسنّ، وقد تجاوز الثّمانين، يدفع من أمامه، وبكلتي يديه، رئيس مجلس الوزراء، الضّخم الجُثّة، ويصرخ في وجهه، حتى أوصله إلى السلّم.. وهناك ارتمى رئيس الجمهورية العجوز على الأرض، وحدث معه انفجار في دماغه.

وكنتُ في وفد، مع بعض الزملاء، خارج البلاد. فاستُدعينا بسرعة.. لتدارك موضوع الرئاسة مع بقيّة النواب ـ لأن الرئيس الحالي لم يعد قادراً على ممارسة

واجباته الدستوريّة.

ومن عجائب القدر.. أن «الرئيس الأتاسي» قد شُفِيَ بعد عشرين يوماً، من حادث «الجلطَة الدماغيّة».. وعاد لممارسة أعماله، في القصر الجمهوري، كالمعتاد ـ وكأنّ شيئاً لم يحدث!.

حقّاً... إن للقدر تصرفاته الغريبة! وحقاً.. أن للنوايا الطاهرة أثرها وتأثيرها في مجرى حياة الانسان!.

وانتهت مدة رئاسة «هاشم الأتاسي»، وهي خمس سنوات، بعد بضعة أشهر من ذلك الحادث. وقد حُسِبت الفترة التي اغتصب فيها «الشيشكلي» السلطة.. من السنوات الخمس ـ كما حُسِبت مدّة المجلس النيابي أيضاً.

وطلب مني «الدكتور عدنان الأتاسي»، نجل «الرئيس هاشم الأتاسي»، أن أثير موضوع الفترة الزمنية التي اغتصب فيها «الشيشكلي» السلطة.. وأن لا تُحسَب من السنوات التي حددها الدستور لمدة الرئاسة ـ بحجة أنّ رئيس الجمهوريةً لم يمارس سلطاته خلال فترة اغتصاب «السلطة». لذلك يجب أن يستمرّ الرئيس سنتين أخريين بسدّة الرئاسة. وأكّد لي أن كثيرين من النواب.. يندفعون لتأييد اقتراحي، وتبنّيه.

ورغم تقديري العميق للرئيس «هاشم الأتاسي»... ورغم يقيني بأنه مثال التُقى والنّزاهة والعفّة.. فقد اعتذرت من ابنه ـ لأني لم أقتنع بوجوب إثارة هذا الموضوع الخطير، وتحمّل مسؤوليته أمام التّاريخ.

وأدركتُ.. أنّ ابنه «عدنان» لم يطلب اثارة الموضوع من أعضاء «حزب الشعب».. وهو أحدهم ـ لأنّ صفوتهم كانت تأمل أن تكون رئاسة الجمهورية لرئيس الحزب «رشدي كيخيا»، أو نائبه «ناظم القدسي». كما أنه لم يطلب ذلك من أعضاء «الحزب الوطني» ـ لأنهم كانوا يسعون لأن تكون الرئاسة المقبلة لـ «شكري القوتلي». وقد طلب مني «عدنان» ذلك.. لأنه يعرف صلتي الوثيقة بوالده، وتقديري إياه.. ثم يعرف جرأتي في عرض وجهات نظري، والدفاع عنها.

وفعلاً.. كانت ثمّة صلةٌ وثيقة تربطني بالرئيس «الأتاسي»، منذ سنوات طوال

وكان يأنس بي، ويطلب مني أن أزوره، باستمرار ـ وكنتُ أفعل.

وحينما تولّى الرئاسة.. كان يصدف أن أراجعه بقضايا تتعلق بمواطنين.. فيوعز فوراً لأحد مرؤسيه بتبنّيها.

وقد ألحّ عليَّ مرةً للاشتراك بالوزارة.. وأرسل «الدكتور منير العجلاني» لاقناعي، ولكني اعتذرتُ ـ لأن «الكتلة الجمهورية»، وكنتُ أمين سرها، كانت قد قرَّرت عدم الاشتراك بها. ونظراً لشدّة الالحاح عليَّ حينئذٍ، فقد ذهبتُ إلى لبنان، وبقيتُ فيه إلى أن تمَّ تشكيل الوزارة. وبلغني أنه هو الذي أوعز بوجوب اشتراكي بها، بعد الانقلاب على «سامي الحناوي» ـ فاعتذرتُ.. كما مرَّ بنا.

وطلب مني أن أمثّله بحفلة تكريم المجاهد العلاّمة «الشيخ عارف الزين»، صاحب مجلة «العرفان الشهيرة» ـ التي تُعتبر مدرسةً متنقلةً بالعلم والأدب. وحملتُ منه رسالة ألقيتُها باسمه في الاحتفال الضّخم الذي أقيم في بيروت، كما علّقتُ على صدر المُحتَفَى به «وسام الاستحقاق السوري» الذي منحه إياه.

وهذا كله.. يدلُّ على مدى تقديره إيّاي.. وعلى الصّلة المتينة التي تربطني به. وكان يطلب مني ابنه «عدنان»، وابن أخيه «فيضي» أن أوعز إلى أصدقاء كُثُر في محافظة حمص.. كانوا نزحوا إليها، من منطقة «صافيتا» وجوارها، وأقاموا فيها... أوعز إليهم أن يقفوا إلى جانبهم في الانتخابات النيابية.. فألبّي، وأوجههم نحوهم، ونحو آخرين ـ في طليعتهم «الحاج سليمان المعصراني» رحمهم الله جميعاً.

ورغم تلك الصلة الوثيقة.. فقد شعرتُ بأنَّ واجبي النيابي يقتضيني أن أكون متمسكاً بروح الدستور الذي أقسمتُ اليمين على مراعاته، والتقيّد بأحكامه. وإنَّ النصَّ الدستوريَّ يحدِّد مدة رئاسة الجمهورية بخمس سنوات ـ دون التّطرُّق إلى العوائق التي تحول بين الرئيس، وبين اضطلاعه بأعباء الرئاسة، طوال تلك المدّة كلها.

ولو كانت حُسِمتْ مدَّة حكم «الشيشكلي»، من المدة المحدّدة لرئيس الجمهورية، لكان يجب أن تُحسم أيضاً من مدّة مجلس النواب ـ وهذا ما لا يجوز.

لذلك.. اعتذرتُ من ابنه «عدنان» ـ وأنا جدّ آسف.

* * *

حينما حان وقت انتخاب رئيس الجمهورية، في المدّة التي حدّدها الدستور.. أعلن «خالد العظم» ترشيحه لمنصب الرئاسة.. كما أعلن ذلك «الدكتور ناظم القدسي» رئيس مجلس النواب.

أما «رشدي كيخيا».. فقد رفض ترشيح نفسه سنة ١٩٥٥ ـ مثلما رفض قبل ذلك سنة ١٩٥٠ وبعد ذلك سنة ١٩٦١ وفي المرّات الثلاث.. لو قبل أن يكون رئيس الجمهورية لكان.. لكنّه رفض رفضاً باتاً بحجّة تدخل الجيش بالسياسة. وقد التقيته مرةً في «حمّانا ـ لبنان»، بعد ذلك، وكنّا نصطاف معاً فيها، فأنحيتُ عليه باللوم.. لأنه رفض منصب رئيس الجمهورية في العهود الثلاثة.. وتحدثنا كثيراً عن تلك العهود.. وقلتُ له، مؤكّداً، لو أنه قَبِل أن يكون رئيس الجمهورية لكان غيّر مجرى الأحداث... لأنه صارمٌ في مواقفه، وعنيف بتحدّيه.. وأنه كان بإمكانه أن يضع الأمور في الاتجاه الصحيح. ولكنّ رأيه كان عكس هذا... فقد أكّد لي، وهذا ما أعرفه، أنه لم يكن عنده حد وسط.. فإما سلطة مستقلة لا تخضع في أمور تسيير الدولة إلى «جهات» أخرى... وإمّا الابتعاد عن السلطة نهائياً. وهذا ما حصل.

لقد كان «رشدي كيخيا» ذا نفس أبيّة ونبيلة.. متشبثاً برأيه، عنيداً صلباً ونزيهاً مستقيماً. وقد تُوفي أخيراً في «قبرص»، وأوصى بأن يُدفن فيها. رحمه الله.

* * *

وجلجل اسم «شكري القوتلي» مرشحاً للرئاسة الأولى.. وأقامت له الغرفة التجارية ، في دمشق، حفلة عشاء ضخمة في فندق «سمير اميس»، حضرها جمهور كبير غصّت به صالات الفندق. واعتُبرت تلك الحفلة بمثابة تمهيد لترشيح «القوتلي» لرئاسة الجمهورية.

لكنه في الكلمة التي ألقاها بذلك الحفل الضخم... أعلن عزوفه عن ترشيح

نفسه للرئاسة. وكان ذلك الاعلان صدمةً قويّةً للذين نظموا ذلك الاحتفال الكبير، واشتركوا به. وسمعتهُ يقول للدكتور «ناظم القدسي»، رئيس مجلس النواب، ونحن نهبط درج السّلّم: الآنَ ارتحت!.

وطبعاً ارتاح «القدسي» نفسه لذلك القول ـ لأنّ احدى العقبات الرئيسية قد انزاحت من طريقه لرئاسة الجمهورية".

ولكن الواقع.. أنّ تصريح «القوتلي» كان «ضربة معلم».. ودليلاً قوياً على أنه من السّاسة الذين يعرفون كيف يتصرّفون في أدقّ المواقف.. ويعلنون خلاف ما يبطنون ـ إذ أنه كان يوعز سراً لمؤيديه كي يستمروا بمساعيهم لانتخابه.. ولا حاجة للمرشّح لأن يتقدّم بترشيحه.. وإنما المجلس النيابي ينتخب من يشاء.

وإعلان «القوتلي» أنه لا يريد ترشيح نفسه.. كان لتفادي الصدمة القاسية إذا هو رشّح نفسه، ولم يتمّ انتخابه.

واستمرّ مؤيدوه ينشطون لانتخابه ـ كما نشط مؤيدو «ناظم القدسي»، و«خالد العظم».

ومرّةً.. كنتُ في «فندق الشرق»، بدمشق وكان يجلس نائب ينتمي لهيئة نيابية مرموقة.. تؤيّد ترشيح «خالد العظم»، وتدعو له. واخبرني النائب أنه آتٍ للاجتماع بالدكتور «القدسي»... كي يعلن تأييد الهيئة النيابية التي ينتمي إليها له. وأضاف بعفويّة طفل ـ وليس برزانة سياسي محنّك:

إننا سنعلن ظاهرياً.. تأييدنا لـ «ناظم القدسي» كي يستمر في المعركة ضدّ «شكري القوتلي»! وهكذا تتبعثر الأصوات المعارضة لمرشحنا «خالد العظم»، وبذلك نضمن نجاحه!.

ومن الصّدف الغريبة.. أنه كان يجلس خلف حلقتنا أحد أعضاء «حزب الشعب»، وسمع قول النائب... فذهب فوراً إلى «ناظم القدسي»، وهو في غرفته بالفندق، وأخبره بما سمعه.

وبعد دقائق استُدعيت إلى الهاتف.. وإذا بالدكتور «القدسي» يسألني عمّا قاله ذلك النائب لي. وفوجئتُ بالسؤال... وكان موقفي حرجاً جداً ـ إذ ليس من طبعي،

ولا من خلقي، أن أنقل حديثاً بقصد الإساءة والإثارة. وما أذكر أني فعلتُ ذلك مرةً، فيما أذكر، ولن أفعله. وإذا كان قد صدر مني شيء من ذلك ـ وأنا لا أنتبه إليه... فحتماً كان عن طريق الخطأ... وليس عن قصد. والله غفور رحيم.

سألني «الدكتور القدسي»، بالهاتف، عن قول النّائب مُلِحّاً.. وكانت له دالّة عليّ ـ إذْ كنتُ أضمر له حبّاً وتقديراً عميقين، وما أزال. وكان يبادلني هو نفس العاطفة والشعور والودّ. وقد اضطربتُ عندما سألني وتلجلج لساني، فقال لي: لا تحكِ.. فهمتُ كلّ شيء، وأحبّ أن أقول لك إن لي ثلاثين سنة أشتغل بالسياسة.. ويجيء هؤلاء الصّغار ليضحكوا عليّ! إني سأعرف كيف أتصرّف.

وأعلن «ناظم القدسي» انسحابه من الترشيح لرئاسة الجمهوريّة. وحينئذٍ أعلن «حزب الشعب» تأييده لـ «شكري القوتلي»... واندفع أعضاؤه بهذا التّأييد أكثر من أعضاء «الحزب الوطني» أنفسهم.

ولم ينجح «القوتلي» في الجولة الأولى من التّصويت ـ لأنه لم يحصل على ثلثي أصوات النّواب، كما ينصّ الدستور.. وإنما حصل على ٨٩ صوتاً، و«العظم» على ٤٢ صوتاً.

ورُفعت الجلسة للاستراحة.

وفي فترة الاستراحة.. عرض اليساريون على «الشّعبيين» أن يمتنعوا عن تأييد «القوتلي»، ويرشّحوا «ناظم القدسي».. وهم يتعهّدون بانتخابه. ولكن أعضاء «حزب الشعب» رفضوا هذا العرض.. واستمروا بتأييدهم لـ «القوتلي» الذي حاز في الجولة الثانية على ٩٥ صوتاً. وبذلك أُعلن انتخابه رئيساً للجمهورية.

في الجولة الثانية من الاقتراع، وكنتُ أنا أتلو الأسماء، ظهرت ورقة باسم «عبد العزيز بن زيد»، سفير السعودية بسورية ـ وكان موجوداً في شرفة الدبلوماسيين.. وكأنها ترمز إلى تأييد السعوديين لـ «القوتلي»! وورقة أخرى تحمل اسم «نوري السعيد».. وكأنها تنديد بـ «حزب الشعب» المعروف باتجاهه السياسي إلى العراق!.

* * *

في مساء اليوم الذي أعلن فيه انتخاب «شكري القوتلي» رئيساً للجمهوريَّة. تجمَّع عدد من الضباط الشباب، المؤيدين لـ «خالد العظم» والمتحمِّسين له، وامتطوا سيارة رُكَّاب كبيرة طافوا بها الشوارع.. وهم يهتفون ضد «القوتلي» ويُسقِّطونه.. وقد وقفوا أمام منزله يتلفَّظون بعبارات قاسية ونابية!.

وبلغ «الرئيس الأتاسي» ذلك، وكان في اجتماع خاص مع بعض الشيوخ الذين كانوا يجتمعون في بيت أحدهم أسبوعياً.. فصعد فوراً إلى «القصر الجمهوري»، واستدعى رئيس أركان الجيش، وقال له بشكل حازم:

إني آمرك.. أن تعتقل هؤلاء الضبَّاط الذين يتظاهرون ضد «القوتلي»، وتضعهم جميعاً في السجن، وإذا لم تفعل.. فإني سأصدر مرسوماً بإقالتك من منصبك فوراً!.

وفعلاً.. عمد رئيس الأركان إلى جمع أولئك الضباط.. وأُخِذوا إلى مبنى وزارة الدفاع، ووُضِعوا فيه.

ولا شك في أنَّ «القوتلي» في رئاسته الثالثة.. كان أقلَّ عنفواناً وشموخاً من رئاستيه السابقتين ـ وما أدري.. إذا كان للمظاهرات التي قام بها بعض عناصر من الجيش، والشَّباب المثقَّف ضده.. أثرٌ في تودُّده للمعارضة، وابتعاده عن المواقف المثيرة.. أم أن ما حصل له فيما مضى.. كان هو الباعث والدَّافع.. أم أنَّ السِّنّ، وتطوُّر الأحوال والأيام.. هو الذي فعل فعله، وأثَّر في شموخ «القوتلي»، وعنفوانه واستعلائه. من يدري!.

وعلى كلٍّ.. فإن شموخه في رئاسته الثالثة، لم يكن يتعدَّى المظاهر ـ وأمَّا عملياً.. فقد اتسمت رئاسته الأخيرة بالتودُّد لمعارضيه، والتَّساهل والمداراة إلى أبعد حدّ!.

وحينما تولَّى «القوتلي» مهام الرئاسة الأولى.. في الخامس من أيلول سنة ١٩٥٥ أجرى المشاورات المعهودة، مع رؤساء الأحزاب والكُتَل النيابيَّة، ثم كلَّف «ناظم القدسي»، رئيس مجلس النواب، بتشكيل الوزارة... فاعتذر، فكلَّف «سعيد الغزّي» الذي أتمَّ تشكيلها في ١٣ أيلول، واشترك بها ـ حزبا «الشعب»

و«الوطني» وبعض المستقلّين. وامتنع «حزب البعث» عن الاشتراك بها ـ كما امتنع «صبري العسلي».

ورفض الوزراء «الشعبيون» استلام مهامهم.. إذا لم تُسند إليهم وزارة الداخلية. فجرى تعديل سريع للوزارة وعُيِّن «علي بوظو» وزيراً للداخلية.

* * *

في ٢٠ تشرين الأول سنة ١٩٥٥ جرى التّوقيع في دمشق على ميثاق الدفاع السوري ـ المصري المشترك. وكانت ضغوط تركيا، وحليفاتها، لضمّ سورية إلى حلف بغداد.. قد بلغت مداها. ولمجابهة تلك التّحديات والتهديدات.. عُقدت تلك المعاهدة لتكون سياجاً تحتمي به سورية. وقد حبّذ الاتحاد السوفياتي عقد تلك المعاهدة، وأجرى ضغوطاً على تركيا لمنعها من القيام بأي عدوان على سورية. وأوعز السوفيات إلى تشيكوسلوفاكيا بيع سورية حاجتها من السلاح. وخلال شهر شباط سنة ١٩٥٦ أبرمت سورية اتفاقاً مع تشيكوسلوفاكيا لشراء أسلحة منها ـ وكانت مصر قد وقّعت اتفاقاً مماثلاً، مع الدول الاشتراكية، في شهر تشرين الثاني من العام السابق ١٩٥٥.

ولتمكين سورية من الوقوف بحزم، في وجه التهديدات الامبرياليّة، فقد تعهّد السوفيات بدعم سورية في مجالات الاقتصاد، إلى جانب بيعها الأسلحة التي تحتاجها. وبُذِلت جهود لضمّ السعوديّة إلى ميثاق الدفاع السوري ـ المصري.. وتمّ ذلك في شهر آذار سنة ١٩٥٦ حيث اجتمع في القاهرة «عبد الناصر» و«شكري القوتلي»، و«الملك سعود».. وبذلك أصبح الميثاق الثنائي ثلاثيّاً: مصر، وسوريّة، والسعودية. وصدر بيان مشترك تضمّن التّعاون بين البلدان الثلاثة في مختلف المجالات السياسية والعسكريّة والاقتصادية. ووُضِعت له صيغة مؤلّفة... من اثني عشر بنداً. وفي ذلك البيان وُضِعت فقرة خاصة لدعم الأردن ضد الضغوط الخارجية. وكانت عمّان قد بدأت تتجه في سياستها نحو مصر وسورية ـ التي أرسلت فرقاً من جيشها للدفاع عن الأردن في حال الاعتداء عليه.

ولكنّ حكّام بغداد.. استطاعوا، بوسائلهم المتعدّدة التّأثير على الأردن... وجعله

يطلب انسحاب القوات السورية... لتحلّ محلّها قوات عراقيَّة!.

وقد غضبت بريطانيا والولايات المتحدة.. لشراء سورية أسلحة من الدول الاشتراكية.. وأصدرتا بياناً ندَّدتا فيه بعقد تلك الصَّفقة، وقد جاء فيه:

«إنَّ تزويد الكتلة السوفياتيَّة دول المنطقة بالسلاح.. قد زاد من حدة التوتر في المنطقة، ومن خطر نشوب حرب. والدَّولتان تشجبان هذا الموقف الرامي إلى تعكير صفو الأمن!!».

هذا بعض ما جاء في بيان الدولتين العدوَّتين! ولكن لو أن بيع الأسلحة كان لاسرائيل.. لكانت بريطانيا وأمريكا قد هلَّلتا ورحَّبتا، وأثْنَتَا على الموقف!. ولكن العدو الصهيوني ليس بحاجة لاستيراد السلاح من الدول الاشتراكية.. وعنده الدول الامبريالية تزوِّده بكل ما يحتاج إليه ـ وأكثر الأحيان.. دون مقابل!.

* * *

في رئاسة «فارس الخوري» للوزارة.. تمَّت موافقة سورية على الاشتراك بمؤتمر «باندونغ» ـ كما أسلفنا. وفي فترة رئاسته.. زار رئيس الوزارة التركية سوريَّة ـ بعد قطيعة استمرت سنوات طويلة ـ إثر اغتصابهم «لواء اسكندرون». وقد اغتنم «الفارس» زيارة الرئيس التركي.. فتطرَّق، بكل لباقة، لموضوع «اسكندرون».. لكن «التركي» أجابه ـ دون لباقة أو لياقة أو تهذيب قائلاً:

هذه القضية.. بُتَّ فيها بشكل نهائي ـ ولا مجال للبحث فيها مطلقاً!.

فسكت «فارس الخوري». واتَّسمت تلك الزيارة بصورة غير وديَّة.. وباءت بالفشل محاولات المسؤول التركي دعوة سوريا للاشتراك بحلف عسكري، تتزعمه أمريكا، وتكون تركيا محوره.

وتعهَّد «فارس الخوري» في «مجلس النواب» بعدم الموافقة على أي حلف عسكري ـ مما أغضب النواب المؤيدين، ضمناً، للاتفاق مع الغرب، والسير مع مخطَّطه ضد الشَّرق! وتبنَّت الوزارات التي تعاقبت على الحكم، بعد ذلك، المخطَّط نفسه، وسارت في الطريق نفسه... دون أن تحيد عنه ـ والشَّعب ساهر، ونوابه مراقبون.

وحشدت تركيا جيوشها على حدود سوريا، لذلك عقدت سورية معاهدة «الدفاع المشترك» مع «مصر»، التي نصّت على تشكيل قيادة مشتركة، من البلدين، وعُيِّن «عبد الحكيم عامر»، وزير الدفاع المصري، قائداً عاماً للجيشين: المصري والسوري.

واستطاع السوفيات كشف خطةً تركيّةً ـ اسرائيلية للهجوم على سورية، واقتسام الدّولتين العدوتين الأراضي السورية بينهما.

وأطلعت المخابرات السوفياتية الحكومة السورية على تلك الوثيقة السريّة جداً.. والتي تدلُّ على قيام مؤامرة أميركية ـ تركية ـ صهيونية ضد سورية التي تقدّمت بشكوى عاجلة إلى مجلس الأمن. وتوسّط «الملك سعود» بين تركيا وسورية التي رفضت سحب شكواها ـ إلا بعد أن تسحب تركيا جيوشها المحشودة على الحدود.

واحتشدت قطعات بحريّة سوفياتيّة ومصريّة أمام ميناء اللاذقية ـ لدعم موقف سورية ضد تركيا. ووصل الموقف، في تلك الفترة، إلى أقصى درجات الخطورة!.

* * *

في حلب.. ألقى «الدكتور معروف الدواليبي» خطاباً دعا فيه إلى «ميثاق قومي»، بين الأحزاب والكتل النيابيّة.. تنبثق عنه «حكومة قوميّة» ـ لمجابهة الأخطار المحدقة بسورية.

وتبنّى «الرئيس القوتلي» هذه الدعوة.. وألقى بياناً في «مجلس النواب» حول «الميثاق القومي» المقترَح.. ودعا إلى الوحدة الوطنيّة، وأن تُشكّل حكومة «اتحاد وطني» تتمثّل بها الأحزاب والكتل النيابيّة كافة.. وتعمل لجمع كلمة الشّعب في مجابهة الأحداث.

وكانت تلك الدعوة، وذلك البيان في «مجلس النواب»، بدء تطوّرٍ كبير في السياسة السورية.. فقد نجمت عنه جميع الأحداث التي وقعت بعد ذلك.

ولم تفلح محاولات رئيس الجمهورية لتشكيل حكومة «اتحاد وطني».. وأخفقت جهوده في هذا السّبيل. فقد كلّف «رشدي كيخيا» لتشكيل وزارة «الاتحاد

الوطني»... فاعتذر. وكلّف «لطفي الحفّار»، وهو رئيس وزارة سابق، فرفضت الأكثريّة النيابية التعاون معه.. فاعتذر.

وقد نشرت لي الصّحف، وقتئذٍ تصريحاً حول تكليف «الحفّار»، بتشكيل الوزارة، جرى فيه تشويه وتحريف.. فجاء هكذا:

إننا نرفض التّعاون معه ـ لأننّا لا نريد أن تعود عجلةٍ الحكم إلى الوراء.

وفيما أذكر جيداً.. أن ملخص التّصريح كان هكذا:

إننا نقدِّر شخصيّة «لطفي الحفّار»، ونكبر ماضيه الوطني الحافل.. ولكننا نريد أفكاراً شابّة ـ تتطلّع إلى الأمام ـ أكثر من تطلعها إلى الوراء.

وصعد «خالد العظم»، و«أكرم الحوراني»، ومعهما «صبري العسلي»، إلى «القصر الجمهوري».. وطلبوا من الرئيس تكليف «صبري العسلي» بتشكيل الوزارة، مؤكّدين أنّ الأكثريّة النيابية تؤيّدهم وتعضدهم.

واستجاب لهم رئيس الجمهورية.. وكلّف «صبري العسلي» بتشكيل وزارة «اتحاد وطني».

وألحَّ «العسلي» على «حزب الشعب» كي يشترك بالوزارة.. كما ألحَّ رئيس الجمهورية و«الكتلة الدستورية»، لاشتراك «الشّعبيين» بها.. ولكنّ «رشدي كيخيا»، رئيس الحزب، رفض.. وأصرَّ على رفضه! وذهبتُ باسم «الكتلة الدستورية» وكنت أمين سرها، لمحاولة اقناع «الكيخيا» وكان نوّاب «حزب الشعب» يعقدون اجتماعاً لبحث الموضوع، فخرج «أحمد قنبر»، وهو من الأعضاء البارزين في الحزب، وصارحني بأنه مقتنع بوجوب الاشتراك بالوزارة.. ولكن «رشدي» مصرٌّ على عدم الاشتراك بها. وطلب مني البحث معه.. ومحاولة اقناعه شخصياً.

وخرج «كيخيا» من الاجتماع لمقابلتي.. وأبلغتُه رغبة «الكتلة الدستورية» بوجوب الاشتراك بوزارة «الاتحاد الوطني». فأعلن لي عدم موافقته. وحاولتُ إقناعه.. لكنه بقي متشبثاً بموقفه، ومصراً عليه. ومما قاله لي: إذا لم يبق معي أحد.. فسأعارض الوزارة وحدي، ولن أتراجع!.

وكان، رحمه الله، متشبثاً برأيه صلباً ـ كما سبق وذكرت. وإذا كان قد قرَر شيئاً.. فإنه لا يتراجع عنه! وهذه ليست صفة السياسي.. الذي يتّخذ لكل موقف ما يلائمه. والدبلوماسي المحنَّك.. تكون المرونة وسيلته ـ أكثر من العناد والصَّلابة.

وكلمة «رشدي كيخيا»، في «حزب الشعب» ـ وهو رئيسه ـ كانت لا تُعارَض! وقد قال لي أحد أعضائه المرموقين: «الرئيس رشدي» يملك حق «الفيتو».. فلو وافقنا جميعاً على موضوع، ورفض هو.. فإن كلمته هي القرار الأخير!!.

وفي يقيني.. أن عدم اشتراك «حزب الشعب»، و«الكتلة الدستورية»، بتلك الوزارة... كان خطيئة سياسية في ذلك الظرف ـ لأنّ التحوّلات المصيرية التي حصلت بعدئذٍ.. كانت نتيجة انفراد «جهات معيَّنة» بالحكم، واتخاذ القرار ـ حيث أنّ لها اتجاهاتها المتطرفة.. ووسائلها الخاصَّة بتحقيقها وفرضها!.

ولو أن «حزب الشعب»، و«الكتلة الدستوريّة»، التي اتَّخذت قرارها بالأكثرية نفس الموقف ـ تضامناً مع الشعبيين، لو أنهما اشتركا معاً بتلك الوزارة.. لكان لزاماً أن يشتركا بصنع القرار ـ ثم بالتَّالي.. الحدّ كثيراً من انسياق الحكومة بتلك السياسة المتطرِّفة.. التي كانت ترسمها بعض «الجهات» ـ وفي مقدَّمتها «عبد الحميد السرَّاج».. الذي كان يبدو شبحه وراء كل موقف وحادث وحديثٌ.

وقد مرَّ بنا... ما قاله لي «صبري العسلي» أنه «بَصْمَجي».. يوقِّع على كل ما يأتيه من الجهات الأخرى... ويجعلها وحدها تتحمَّل المسؤوليَّة!.

ذلك.. كان بترؤسه الوزارة في آخر عهد «هاشم الأتاسي» ـ رغم أنه كانت ثمة فئات معتدلة تشترك معه بتحمل المسؤولية.. فكيف بترؤسه الوزارة في عهد «القوتلي» ـ حيث الفئات المتطرفة، من وراء الستار.. ومن أمامه، هي التي توجِّه الحكم، وتسيِّره كيف تشاء.. والهدف الذي تريد!

وقد انشقَّ «الحزب الوطني»، حينذاك على بعضه.. وانسحب منه «بدوي الجبل»، و«عبد القادر شريتح»، وشخصيات أُخرى مرموقة.. مما أدّى إلى إضعافه تجاه حلفائه الجُدد.

* * *

وكان عليَّ أن ألقي كلمة «الكتلة الدستورية»، في الجلسة التي تلقي فيها بيانها الوزاري، وتطلب إعطاءها الثقة على أساسه.

وكانت «الكتلة» قد اتخذت قراراً بمعارضة الوزارة، وحجب الثقة عنها.. وعليّ أن أعبّر عن رأيها ومعارضتها، والأسباب التي أدت لذلك.

ولعلي كنتُ عنيفاً في ذلك الموقف.. أكثر من أي موقف آخر ـ عند درس بيان وزارة، وإعطائها الثّقة على أساسه، أو حجبها عنها.

وممّا قلتُه آنذاك: إنّ بيان الوزارة أشبه ما يكون بـ «جواز المرور» الذي يحصل عليه المسافر.. ويلقي به جانباً بعد أن يمضي!.

وللإنصاف أقول: إنّ جميع الوزارات السابقة، في جميع العهود السابقة، كنّ هكذا ـ ولا أستثني واحدة منهن على الإطلاق. والوزارات جميعها، فيما أعلم، لم تنلْ واحدة منهنّ الثّقة على أساس البيان الذي تلقيه في «مجلس النواب».. وإنما على أساس كيفية تشكيل الوزارة.. والظُّروف ـ الخاصّة والعامّة ـ التي تحيط بذلك، وتفرض إرادتها في بعض الأحيان.

ولقد تغيّر الحال ـ بعد أن استلم «الرئيس الأسد» مقاليد الحكم. فقد أصبح للوزارة بيان تلتزم به.. و«خطة خمسية» تتقيّد بتنفيذها تقيُّداً تاماً ـ خلال خمس سنوات.. ثم تتجدَّد الخطط البنّاءة المنتجة، فكلما انتهت خطة بدأت الأخرى ـ وهكذا دواليك.

وهذه قواعد ملزِمة.. لم تكن تحصل في العهود السابقة.

* * *

في أواسط الخمسينات.. قوي الضغط على سورية ـ من الدول الامبريالية، وأتباعها وأذنابها، واشتدّ والشعب السوري، في الطليعة، ومسؤولوه: مدنيّين وعسكريّين، مصمّمون على المجابهة والتحدي.. وعدم الرضوخ والاستسلام. وكان لابدّ من دولة قوية تستند سورية إليها، وتعتمد عليها.

ومدّ «عبد الناصر» يده لسورية.. ورفع صوته الجهوري ـ الذي كان له وَقْعه الدولي.. معلناً أن كل اعتداء على سورية هو اعتداءٌ على مصر. وعُقِدت بين

البلدين معاهدة «دفاع مشترك» ـ كما سبق وذكرنا. وفي حفل التّصديق، على تلك المعاهدة، قال «عبد الناصر»:

«إنّ هذه الاتفاقية.. هي فاتحة مستقبل جديد. فالتاريخ يؤكّد لنا.. أنه إذا ما اتّحدتْ سورية ومصر.. فإنهما ستحميان العالم الشرقي من جميع الأخطار التي يمكن أن تهدّده... وهذا هو ما حدث بالضبط في أيام الصليبيين ـ فعندما تحالفت سورية ومصر.. استطاعتا أن تقوما معاً بحماية العالم الإسلامي من الأخطار التي كان يخشاها. أمّا اليوم.. فستحمي مصر وسورية العالم العربيّ من الصهيونية».

وثارت ثائرة اسرائيل.. لعقد معاهدة «دفاع مشترك» بين مصر وسورية.. واستفحل غضبها وجنونها ـ إلى جانب وحشيتها ولؤمها.. فشنّ الجنود الصهاينة هجوماً غادراً على مواقع السوريين عند بحيرة طبريا. ولكن الجيش السوري الباسل تصدّى لذلك الهجوم وأحبطه.

واندفع السوريون يتبرّعون لجيشهم البطل ـ بصورة تبعث على التّقدير والاعتزاز. وتبرّعنا نحن، أعضاء المجلس النيابي، براتب شهر للجيش، وبعد ذلك براتب شهر للفلسطينيين.

وكان السوفيات عند وعدهم وتعهدهم ـ بمساعدة سورية إذا ما تعرضت لهجوم.. فتدفقت أسلحتهم الحديثة للجيش السوري. كما أنهم قاموا بدعم «اقتصادي» ملحوظ لسورية.. شمل أكثر الجوانب الاقتصادية. وكما ذكرنا.. أرسلوا قطعاً بحريّة ـ لتشترك مع القطع المصرية بحماية الشاطىء السوري.

وفي ١٧ نيسان سنة ١٩٥٦ اشتركت كتيبة مصرية بالعرض العسكري الكبير الذي أقامته سورية ـ بمناسبة مرور عشر سنوات على جلاء الجيوش الأجنبية عن البلاد.

وكان لذلك الاشتراك الرّمزي.. دلالته القوية على وحدة الجيشين، في الساعات الحرجة، والموقف الحاسم.. وتأثيره الكبير في نفوس أبناء الشعب السوري الذي تأكّد من استعداد الشقيقة الكبرى مصر.. للوقوف إلى جانبه في الأيّام الحالكة، والأخطار المداهمة.

* * *

قبل هذه الفترة، وفي وزارة «سعيد الغزّي» طلب ضبّاط الجيش السوري تسريح العميد «شوكة شقير»، رئيس الأركان، لأنه أوعز بعدم تعرّض الجيش السوري لكتيبة صهيونية اجتازت الحدود.. وقتلت أكثر من ٥٠ مدنياً سورياً دون أن تتعرض لها القوّات السورية - بناءً على أوامر من رئاسة الأركان! مما أثار غضب الضبّاط السوريين ونقمتهم.. وأصروا على إقالة «العميد شقير». وتبنّى وزير الدفاع «عبد الحسيب رسلان» طلب الضباط.. وأنّب رئيس الأركان لإعطائه أوامر بعدم التصدي للكتيبة المهاجمة، وأصرّ على إقالته.. وهدّد وزير الدفاع بالاستقالة إذا لم يُنَحَّ «شقير» من رئاسة الأركان، فنُحّي.. وعُيّن مكانه «اللواء توفيق نظام الدين» رئيساً للأركان العامة في مطلع شهر آب سنة ١٩٥٦، وعيّن «اللواء عزيز عبد الكريم» نائباً له.

وبعد فترة - لم تتجاوز السّنتين.. جرت محاولة انقلاب داخل الجيش.. أدّت إلى تنحية «توفيق نظام الدين» من رئاسة الأركان، وتعيين اللواء «عفيف البزري» مكانه - بعد أن رُفّع إلى رتبة «فريق». كما رُفّع «العقيد أمين النفوري» إلى رتبة «عميد»، وعيّن مكان «اللواء عزيز عبد الكريم».

وقيل.. إنّ «عبد الحميد السرّاج»، و«مصطفى حمدون»، وآخرين معهما.. كانوا وراء تلك المحاولة المقصودة التي أدّت إلى تسريح عدد من ضباط الجيش، ومعهم عدد من المدنيين.

ونشطت، بتلك الآونة، السفارة الأميركية وأعوانها.. لإيجاد قلاقل واضطرابات في البلاد. وبدأت حوادث منكرة.. بالإساءة إلى حرمة «الكنائس» في حلب.. مما أقلق السلطات السورية، وضاعف من نشاطها لاعتقال مدبّري تلك المؤامرة الرّهيبة - التي تحاول إشعال فتنة طائفيّة في سورية.. وهي البلد الذي لا يوجد، في الشّرق الأوسط، من يراعي حرمة الأديان والمذاهب والمعتقدات مثله.

وفي احدى الليالي.. استطاع بعض عناصر الأمن السّري أن يضبط الملحق الثقافي في السفارة الأميركية، بقرب إحدى الكنائس! وبعد تحقيق دقيق معه.. اعترف بأنه هو الذي يموّل العناصر المخرّبة للإساءة إلى أماكن العبادة. وتقدّمت

سورية بشكوى إلى الأمم المتحدة ــ ضد الإجراء الأمريكي. وطردت الحكومة السورية الملحق الثقافي، وعدداً من موظفي السفارة الأميركية.

وكان لذلك الموقف الشّائن.. أثره في الصحافة الأوروبية الحرّة.. فانتقدته بشدة ـ مما دفع حكومة واشنطن إلى التّنصل من مسؤوليته.. وأعلنتْ أنّ ما حدث ـ إن كان حدث فعلاً، حسب قولها، فإن مسؤوليته تقع على عاتق الملحق الثقافي وحده.. ولا علاقة للسفارة الأمريكية به.. وأنّ الموظف المسيء سيعاقب على تصرُّفه الفردي، وتجاوزه حدود واجباته!!!!

شيء مضحك! ويبعث على الهزء والسخرية!.

فهل يُعقل.. أن يُقدم موظف في السفارة الأمريكية.. على أعمال اجراميَّة من هذا النوع الشائن.. إلاّ بتوجيه من سفارته، وإيعاز من حكومته؟!.

وهل هناك من يصدّق تنصُّل الحكومة الأمريكية وادعاءها.. ويثق بتبريرها وهذيانها؟!

ولكن.. هذا هو مَنْطِق الامبريالية، ومن ورائها الصهيونية!

* * *

بتوجيه من دعوة رئيس الجمهورية «شكري القوتلي»، في سبيل «الوحدة الوطنية»، اجتمع ٦٥ نائباً ووقَّعوا على وثيقة «الميثاق القومي»، وشكَّلوا تجمّعاً نيابياً أطلقوا عليه اسم «التجمّع القومي»، وانتخبوا «احسان الجابري» رئيساً له. وألَّف «صبري العسلي» وزارته الثانية، في كانون الأول ١٩٥٦، وسائر أعضائها من التّجمع المشار إليه. وتولى «خالد العظم» وزارة الدفاع، و«صلاح البيطار» وزارة الخارجية.

ويقول «العظم» في مذّكراته إنّ «صلاح البيطار» كان يذهب إلى داره.. ليستشيره بمذكّرات يجب أن تُرسل، وأجوبة على مذكّرات تَرِد إلى الوزارة، وو.. الخ!

وقوي الخصام بين الحكومة والمعارضة واشتدّ. وبذلت كلتا الجبهتين جهوداً مضنية للتَّغلُّب على الأُخرى. وكنتُ مع المعارضة ـ رغم صلتي الشخصية

الوثيقة برئيس الحكومة، وبعض أعضائها. ولكن السياسة.. هي السياسة! وثمة أشياء كثيرة.. ليس فيها حلّ وسط ـ أو ما يشبهه. وأمّا في السياسة.. فكلُّ شيء يوجد له حل.

* * *

في عيد الثورة المصرية ـ ٢٣ تموز ١٩٥٦ ـ وبصورة مفاجئة.. صدر قرار تأميم «قناة السويس». وأحدث ذلك القرار دويًّا هائلاً في العالم كله. وأدرك المعنيون بالسياسة الدولية أنّ حدثاً ما. سيقع. وأن العالم بأسره يقف على حافة هوّة...!

وكانت بريطانيا تترقّب الفرص.. لتنقضّ على مصر، وترجع إليها من النّافذة التي خرجت منها! وفرنسا.. تريد أن تقضي على مصر ـ لتقضي على مورد رئيسي للثّورة الجزائرية! وأمّا اسرائيل.. فإنها تتحيَّن الفرص والمناسبات لتوسع حدودها، وتزيل الخطر المحدق بها من الجنوب!

واجتمعت مصالح الدول الثلاث.. فشنّوا عدوانهم الغادر على مصر. وكانت مصر قد اتّجهت إلى الاتحاد السوفياتي.. وبدأت بشراء الأسلحة منه. ولعل تسلُّحها من الاتحاد السوفياتي ـ والحرب الباردة على أشدّها بينها وبين الغرب.. لعلّ ذلك أيضاً كان أحد أسباب العُدوان على مصر.

ويوم بدأ الهجوم الإسرائيلي على «سيناء».. كان «عبد الحكيم عامر»، وزير الدفاع المصري، في دمشق ـ وكانت قد شُكِّلت برئاسته قيادة موحَّدة لجيوش مصر وسورية والأردن.

وذهبنا في ساعة مبكِّرة إلى المطار لوداعه.. وهو عائد إلى القاهرة ـ بعد أن أمضى بضعة أيام بين دمشق وعمّان.. لتنسيق جيوش البلدان الثلاثة.

وقبل أن يستقلّ الطائرة إلى القاهرة.. جاء من يهمس في أذنه أن مصفحات اسرائيلية قد توغلت في صحراء «سيناء» ـ باتجاه «قناة السويس»، ولاحظنا جميعنا أن «المشير عامر» لم يضطرب للنبأ.. بل تهلّل وجهه وصاح: أطمئنكم، يا اخوان، بأنّ نهاية اسرائيل قد اقتربت. ثم شرع يؤكِّد أنّ لدى الجيش المصري من

القوّة.. مَا يمكّنه من سحق العدو خلال أيام قليلة. وكانت حركات «عامر» وابتساماته.. تدعو كلها إلى الثّقة والإطمئنان. وصعد سلّم الطائرة، وهو يرفع يديه، ويقول: اطمئنوا، اطمئنوا.

ولكن «المشير عامر».. لم يكن قد علم بالاتفاق الثلاثي المجرم: بريطانيا وفرنسا واسرائيل!

وكانت طائرة أخرى.. تضمّ بعض أعضاء الوفد العسكري، المرافق له، قد أسقطها الصهاينة في مساء اليوم الذي بدأ في صباحه الهجوم الثلاثي على مصر. وكان العدو يحسب أن «المشير عامر» في الطائرة التي أسقطوها في البحر، ونجت طائرة «عامر» من مؤامرة العدو.

وفي اليوم الثاني لهجوم اسرائيل.. اتّضحت النّوايا الغادرة، وانكشفت الأغطية عن المؤامرة الرّهيبة، والخطّة الوحشيّة لاحتلال «القناة» و«سيناء»!

وتحرّك الجيشان السوري والأردني للهجوم على اسرائيل. ولكن «الرئيس عبد الناصر».. أوعز فوراً بتوقف سورية والأردن عن الهجوم - بعد أن ثبت أن العدوان الثُلاثي الغادر على «قناة السويس».. كان يهدف إلى احتلال المنطقة كلها، وخنق أصوات الحرية في آسيا وافريقيا!

فقد كانت خطة الأعداء.. أن تعمد اسرائيل فوراً إلى احتلال القسم العربي من فلسطين - عندما تتحرك القوات الأردنية لمساعدة مصر.. والجيش المصري يكون في شغل شاغل عنها - وهو يتعرّض للعدوان الثلاثي.. وسورية تتعرّض لنفس العدوان.. إذا ما هاجم جيشها اسرائيل.

ويوم كانت طائرات العدو تلقي قنابلها المحرقة على مدن القناة.. كان الأسطول الفرنسي يحتشد على مقربة من الساحل السوري، وينتظر حتى تركع مصر.. فينزل بحّارته ليرغموا سورية على الركوع - وفي نفوس الفرنسيين حنين إلى سورية.. وحقد رهيب على أبنائها الذين كافحوا وناضلوا حتى تحرروا من سلطتهم وسيطرتهم.

وكان النّاس يحتشدون على شاطىء اللاذقية ليراقبوا قطع الأسطول الفرنسي،

وهي على مقربة من مياههم الإقليمية، وحولها مئات الزوارق لإنزال كتائب من القوى الفرنسية، وفي طليعتها أولئك الجنود السوريون الخَوَنة الذين التحقوا بالجيش الفرنسي، وعلى رأسهم «الكولونيل مسّوح» ـ المعروف في فرنسا باسم «ماسّو»، وقد كان حينذاك قائد قوات المظليين في الجزائر! وهو قائد الحركة العسكرية التي أعادت «ديغول» إلى الحكم ـ ليحتفظ بالجزائر فرنسية! ثم هو قائد الحملة ضد «ديغول».. حينما قرّر الانسحاب من الجزائر ـ لأن فرنسا عجزت عن اخماد ثورتها. وأقال «ديغول» الكولونيل «مسوح» من منصبه، وأحاله إلى المحاكمة.

وهكذا.. لم يُرد «عبد الناصر» أن يشترك الجيشان السوري والأردني في المعركة.. حتى لا يتعرَّضا للخطر الذي تعرَّضا له، فيما بعد، سنة ١٩٦٧.

وفي يقيني.. أنه مهما تكن الخسائر والتضحيات.. فإنه لا يجب أبداً مهادنة العدو الصهيوني ـ وأنه يجب أن يظل الاصطدام به مستمراً.. إلى أن تُجتَثّ جذوره من أرض فلسطين، ويرفرف العلم العربي في سماء حيفا ويافا والقدس وتل أبيب.

واجتمعت «اللجنة السياسية» ـ وكان يُطلق عليها حينذاك: «لجنة الشؤون الخارجية» ـ اجتمعت في «المجلس النيابي» لتبحث فيما إذا كان ثمَّة موجب لسفر رئيس الجمهورية إلى «الاتحاد السوفياتي».. كي يحثّهم لاتخاذ موقف حازم وحاسم ضدّ الدول المعتدية الثلاث. وكنتُ من المتحمّسين لسفر الرئيس، وكان ثمّة نواب مُعارضون. ولكنّا اتخذنا قراراً، في اللجنة، بوجوب سفر الرئيس، فسافر.

وحينما عاد من رحلته السريعة استقبلناه، قرب منتصف الليل، في مدخل العاصمة ـ وكانت طائرته التي أهداها إليه السوفيات في تلك الرحلة، وتبرَّع بها للجيش السوري، قد هبطت في مطار حلب ـ لأنّ الهبوط في مطار دمشق كان متعذِّراً.. حيث أن البلاد في حالة حرب، والأعداء يراقبون الأجواء السورية باستمرار.. ويُخشى من تصديهم لطائرة الرئيس وإسقاطها.

وقال القوتلي: إنَّ عواطف السوفيات معنا، وإلى جانبنا. فتقدمتُ منه وقلتُ له: إن العواطف وحدها لا تكفي.. فهل هم على استعداد لأن يقفوا موقفاً حازماً إلى جانبنا لصدّ العدوان؟ فقال:

إنهم سوف يمدّوننا بالسلاح، وبكثرة وكثافة، ومتى دعت الضرورة. فسيكون لهم موقف حاسم.. ولا أستطيع أن أصرّح بأكثر من هذا.

وفعلاً.. كان لإنذار «بولغانين» الشهير.. أثر كبير في صدّ العدوان، وانسحاب المعتدين.

وللواقع التاريخي.. أذكر أننا كنا مرةً في زيارة رسمية لمصر، بعد تأميم «قناة السويس»، وفي أحد اجتماعاتنا بالرئيس «عبد الناصر» تحدّث مطوّلاً عن معركة القناة، وكيف جرت، ومما قاله:

لقد أصدرنا قرار «التأميم».. ونحن لا نملك سلاحاً يمكننا من الدفاع عن قرارنا وتنفيذه.. ولا أعرف كيف تجرّأنا، حينئذٍ، وأقدمنا.. وليس عندنا طاقة عسكرية للمجابهة إذا هوجمنا. والتفت نحو رفاقه أعضاء قيادة الثورة.. وضحك، وضحكوا جميعاً.

وكانت تلك الضحكات.. تدلُّ على العجب كيف جرؤوا على الإقدام.. ثم كيف تحدّوا، وثبتوا، وانتصروا.

وحديث «المشير عامر» لنا في المطار.. كان يدلُّ على ثقة لا حدَّ لها. وقول «عبد الناصر»، بعد ذلك، كشف عن حقيقة تدل على ثقة العربي بنفسه، وعلى عزمه وإقدامه، وتسلحه بالإيمان.

* * *

عقد الملوك والرؤساء العرب مؤتمراً في بيروت للتباحث فيما يجب عمله.. من أجل دعم مصر بكل الطاقات والإمكانات! وكان ذلك في ١٣ و١٤ شباط سنة ١٩٥٦ وجاء «مصطفى أمين»، رئيس تحرير جريدة «أخبار اليوم»، يحمل رسالة من الرئيس «عبد الناصر» إلى «شكري القوتلي» وسلّمه إيّاها ـ قبل انعقاد المؤتمر، وهذه هي نثبتها هنا للتاريخ:

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزي فخامة الرئيس:

لقد كان موقف سورية ـ بجانب مصر، في معركة الحريَّة ضد العدوان الاسرائيلي ـ البريطاني مما يدعو إلى الاعتزاز بالقومية العربية. وإنّ مصر تقف اليوم، رغم الجراح التي أصابتها، كرجل واحد في تصميم وعزم على القتال في سبيل سيادتها وحريّتها، وفي سبيل سيادة الأمة العربية.

لقد دمّر البريطانيون والفرنسيون مدينة «بورسعيد».. بشكل يدل على منتهى الوحشية والبربرية. وإنّي مرسلٌ لفخامتكم، مع مصطفى أمين، صور «بورسعيد» التي حصلنا عليها أمس، وذلك بعد ضربها لمدّة خمسة أيام بالطّيران، وضربها بالأسطول بعد عمليّة الغزو. ورغم ذلك.. فإن الشعب المصري في «بورسعيد» قاتل قتالاً مجيداً، ويرفض التعاون مع الأعداء. ورفض محافظ «بورسعيد» والحكمدار التعاون، واعتُقِلا بواسطة المعتدين، ومازالت المقاومة مستمرةً في «بورسعيد» إلى الآن.

إنّ الشعب كلّه مصمِّم عل القتال، في سبيل الدّفاع عن سيادته، ولم أنشر حتى الآن مدى خسائر «بورسعيد»، والطريقة الوحشية التي اتُّبعت في هدمها ـ حتى لا يتعرّض الأجانب في مصر للخطر. إنّ سياستنا مازالت على ما هي عليه: سياسة مستقلّة ـ من أجل العرب ومصر.

لقد استولت قوّاتنا المسلّحة على جميع المعدات البريطانية في القاعدة، ونسفت جزءاً منها. أمّا عن الجيش فقد استطاع أن يحافظ على صُورته في الانسحاب من الحدود الشرقية ـ رغم الطيران الفرنسي ـ البريطاني. وخسائرنا في المعدات قليلة، أمّا الطيران فقد أُصيب بخسائر نسبية. وأمّا البحريّة فإنها سليمة، وقد قام جزء منها بعمليات انتحاريّة، وصمّم الضباط والجنود السوريون على أن يشتركوا فيها، واستشهد واحد منهم ـ هو الملازم الأول البحار جول جمّال ـ وجُرِحَ واحد.

أمّا مشكلة «قناة السويس».. فنحن لا نقبل بأي حال التّدويل. ولا نزال نصمِّم

على سياستنا التي أُعلِنتْ بالنسبة للتّحالف مع سورية والأردن والسعوديَّة. وإنّ هذا التحالف اليوم.. أقوى مما كان في الماضي. أمّا بخصوص «حلف بغداد».. فمن المناسب الآن أن ينضمَّ العراق إلى الكتلة العربية، بعد أن ثبت التحالف البريطاني الإسرائيلي الفرنسي بطريقة عمليَّة، كما حدث في سورية ـ أي قطع العلاقات السياسية والثقافية والاقتصادية. وبخصوص قوات الطوارىء الدولية.. فلن نبُتَّ بالأمر الآن، وردّ مصر لم يُرسل بعد. وقد طلبنا من «همرشولد»، أمين عام الأمم المتحدة، إيضاحاً. ونحن نصمِّم على أن تكون قوة الطوارىء من دول نوافق عليها.. وأن تكون قوّةً على خط الهدنة ـ وليست في «قناة السويس». إذ أننا سنسيطر على قناة السويس من الغرب، ومن الشّرق، لمسافة ٦٥ كيلومتراً، وسأخطر فخامتكم بمجرَّد أخذ القرار.

تحياتي إلى جميع الأخوان. وأرجو أن تبلِّغهم، نيابة عن شعب مصر، اعتزازنا بهم. أبقاكم الله ذخراً للعروبة. وتقبلوا تحياتي.

١٠ شباط ١٩٥٦ جمال عبد النّاصر

ورفض «القوتلي» إطلاع الملوك والرؤساء العرب على صور الدَّمار والتخريب ـ بورسعيد ـ خشية أن يؤثِّر على عزائمهم فتنهار.. لكنَّ عزائمهم كانت منهارة.. فلم يَبْدُ منهم أيُّ إجراء عملي، وإنما احتجاجات وشكوى لمجلس الأمن!

لكنَّ سورية أدركت واجبها القومي نحو شقيقتها الكبرى مصر.. فحطّمت أنابيب البترول، وتوقَّف الشريان الحيوي لأوروبا عن التدفق. وبُذِلَت محاولات دوليَّة ضخمة لترميم الأنابيب.. ولكنَّ الشعب السوري المناضل رفض السماح بإعادة سيل البترول.. قبل أن تجلو القوات المعتدية عن أرض مصر. وتضامن الشعب، والحكومة والجيش، تضامناً مشرِّفاً لم تعرف البلاد أسمى منه.. ولا أروع ولا أشدَّ في الأيام السود.

وقاست أوروبا من قسوة البرد.. ما لم تقاس مثله قبل ذلك. وثبت أنَّ البترول العربي هو الشريان الحيويُّ لصناعتها.. ومن أهم العوامل الرئيسية لحياتها

وترفها وغناها.

وامتدح «الرئيس عبد الناصر» موقف سورية البطولي، وتضحيتها المُثلى، في أكثر من موقف.. وأعلن أن تحطيم أنابيب البترول، عبر سورية، كان له أثر فعّال في إرغام المعتدين على سرعة الجلاء.

لقد كان تأميم «قناة السويس» ـ بعد «مؤتمر باندونغ» ـ أقوى حافز للشعوب المضطهَدة المستعبَدَة.. لأن تنهض وتستردّ حقّها وكيانها من القوى الامبريالية المستعمِرَة.

وجاء تأميم «القناة».. نقطة تحوّل جديدة في تاريخ الشعوب الآسيوية والإفريقية.. وعاملاً قوياً لتضامنها واندفاعها ــ ثم تآلفها وتحالفها ضد قوى الظلم والطغيان.

واضطّر المجرم «ايدن»، رئيس الوزارة البريطانية، للاستقالة من منصبه.. بعد أن فشل مخططه باخضاع «مصر»، والاستيلاء على القناة. وغضب «ايزنهاور»، رئيس الجمهورية الأمريكية، لكرامته ـ لأنّ الهجوم الثلاثي على مصر كان دون علمه.. فكان له موقف سلبي من الدول المعتدية الثلاث. وهو موقف نسجّله له ــ وإن نكن على غير علم بباطن الأمور، وبما يجري وراء ستار.

* * *

كانت البلاد السورية تعتمد في حاجتها للبترول على المصفاة الكائنة عند مدينة طرابلس القريبة من الحدود السورية. وكانت شركات توزيع البترول الأجنبية، وهي أربع، متّصلة كلها بالشركة التي تستخرج البترول العراقي وتستثمره.. وبعضها تابع لتلك الشركة الأخطبوط ـ بل جزء منها!

ولو حدثت حرب مع العدو الصهيوني ــ وهي حالة مرتقبة في كل يوم، وربما في كل ساعة.. لكان بإمكان شركات توزيع البترول، والصهيونية من ورائها، أن توقف النشاط العسكري والمدني معاً.. وتقضي بتجميده ـ وذلك بمنع البترول عن سورية، وعدم نقله إليها!

وبما أنَّ سورية قد بدأت تستخرج البترول من أرضها.. فلماذا لا يكون عندها «مصفاة» خاصة.. تكرِّرُ بواسطتها بترولها، وتحول دون تحكم الأجانب بها؟!

وقرَّرت لجنة البترول هذا، وكنتُ نائب رئيسها، وطلبت من الحكومة الاسراع بانشاء مصفاة خاصّة.. قرب مدينة حمص.

وطرحت الحكومة السورية مناقصة عالميَّة.. اشتركت بها الولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد السوفياتي. وكان العرض الأمريكي هكذا: المدة أربع سنوات، والمبلغ المطلوب ٥٦ مليون ليرة سورية.. وإذا تأخَّرت أمريكا عن انهاء المصفاة في نهاية المدَّة المحدَّدة.. فإنها تدفع للخزينة السورية مليون دولار سنوياً، ويظل العقد قائماً!!

أمّا العرض السوفياتي.. فالمدة سنتان، والمبلغ المطلوب دفعه: ٢٨ مليون ليرة سورية فقط.

وبداهةً.. إنَّ العرض السوفياتي أفضل ـ من حيث المدّة والمبلغ. فوافقنا في «لجنة البترول» عليه. وكان باللجنة معارضون ـ في طليعتهم «الدكتور مجد الدين الجابري».. الذي أبدى اعتراضه في «مجلس النواب»، حين عرض الاتفاقية ـ بحجّة أنَّ السوفيات ليسوا اختصاصيين بصنع مصافي البترول مثل الأمريكان ـ وخاصةً «القطّارة» التي تُخرج البترول صافياً. ولكنَّ السوفيات، وهم مخلصون بعروضهم وتعهداتهم، أبرزوا وثيقةً من تشيكوسلوفاكيا، وهي اختصاصية بصنع قطّارات المصافي، يتعهّدون بتقديم «قطّارة» تستوفي جميع الشروط المطلوبة.

ووافقت «لجنة البترول»، بالأكثرية، على العرض السوفياتي. وقبل ظهر اليوم الذي خُصِّص لإقرار الاتفاقية مع السوفيات، في مجلس النواب، اتصل بي، بصفتي «أمين سر» المجلس، الملحق التِّجاري بالسَّفارة الأميركية.. طالباً تحديد موعد له، مع رئيس المجلس، فوراً ـ ليعرض عليه قضيَّة هامة ومستعجلة. واتَّصلتُ بالرئيس وأخبرته عن طلبه.. فوافق على استقباله.

وجاء «المُلحَق التجاري الأمريكي».. ومعه عرض جديد ـ مُغْرٍ ـ حسب

ادعائه.. وفي هذا العرض.. هبطت المدّة المحدّدة من ٤٨ شهراً إلى ٢٠ شهراً! والمبلغ من ٥٦ مليون ليرة.. إلى ٢٥ مليوناً ـ أي أقل ٨ أشهر من المدّة التي عرضها السوفيات، وأقلّ ٣ ملايين ليرة من المبلغ الذي عرضوه!

وفي الشّرط الأميركي.. أنه إذا حصل تأخير بإتمام العمل.. تدفع الشركة الأميركية مليون دولار سنوياً، ويبقى العرض قائماً!!

إذن متى يُنفّذ العقد؟ عِلْم ذلك.. عند شركات توزيع النفط للاستهلاك ـ وهذه لا يهمها دفع مليون دولار سنوياً... لأنها تربح أضعاف أضعاف ذلك.

وإذن.. فستبقى سورية دون مصفاة، ويبقى أمنها بين أيدي تلك الشركات الاستعمارية الصهيونية المخيفة!

وسؤال.. لابدّ من طرحه، وهو: لماذا لم يظهر هذا التّساهل الأمريكي، وهذه الأريحية الأمريكية.. ورغبة واشنطن بمساعدة سورية ـ كما ادّعَتْ قبل ظهور العرض السوفياتي؟! ولماذا احتفظ «البيت الأبيض» بهذه «العواطف» الكريمة.. إلى اليوم المقرّر عرض الاتفاقيّة مع السوفيات لإقرارها؟!

وقال رئيس المجلس للملحق التجاري الأمريكي، حينما قدّم له العرض الجديد: عليك مراجعة وزارة الإقتصاد ـ لأنها الوزارة المختصّة بعقد الاتفاقات. ونحن هنا في المجلس.. إمّا أن نوافق، أو نرفض.

وعصر ذلك اليوم نفسه، وأنا في طريقي من الفندق إلى المجلس النيابي، اعترض طريقي شاب.. وقال لي: كنتُ ذاهباً لزيارتك في الفندق. وأخبرني أنه يعمل في شركة أميركية للبترول. وعرض عليّ مبلغ ١٠ آلاف ليرة سورية ـ مقابل معارضتي العرض السوفياتي، والموافقة على العرض الأميركي الأخير!!

وكان ذلك القول مفاجأة لي.. من ذلك الشّاب الذي هو ابن شخص كريم.. كان محافظاً للاذقية، وله عندي أيادٍ بيضاء كثيرة.. وأنا في مطلع حياتي السياسية، فقلتُ له:

لو لم يكن أبوك صديقي.. وله عندي أيادٍ، كلما ذكرتُها شكرتُها، لكنتُ آخذ منك المبلغ.. لأضعه عل منصّة الخطابة في «المجلس النيابي»، وأذكر أنك قدّمته

لي لترشوني به ـ مقابل السّير في الاتجاه الأمريكي. ولكن كل ما بإمكاني قوله لك.. هو أنه عارٌ عليك أن تسيء إلى روح أبيك، وإلى سمعته وماضيه المشرق، وتسير في ركاب العدوّ الأمريكي!! فاذهبْ من أمامي.. ولا تدعني أرك بعد اليوم.

وأعترف.. بأني كنتُ، في ذلك الحين، بحاجة إلى هذا المبلغ، أو إلى بعضه ـ ولكنّ الكرامة هي الكرامة.. والوطنيّة الشريفة لاتُبَاع ولا تُشرَى. وأفٍّ للمال، ولكلِّ مغريات الحياة.. إذا نالت من شرف المرء وإبائه، وعزّة نفسه، ونبالة ضميره.

وعُرِضت الاتفاقية على المجلس، وجرى حولها نقاش حادّ. وكنتُ من أكثر النواب حماساً للعرض السوفياتي، واستنكاراً للتّساهل الأمريكي الذي ينطوي على مؤامرة.. لشلِّ الأداة العسكرية السورية عندما تحصل معركة مع الصهيونية.

ووقف النواب موقفاً مشرِّفاً ـ وإن كان بعضهم قد أبدى موافقته على العرض الأمريكي الأخير. وقد دام النقاش في المجلس بضع ساعات. ولا شكَّ بأنَّ ما عُرِضَ عليَّ.. عُرِض على آخرين أيضاً. ولكنَّ النواب لبّوا نداء ضمائرهم وواجباتهم القوميّة.. ورفضوا العرض الأميركي الأخير، وتمّ التصديق على العرض السوفياتي.

وقد وفى السوفيات بتعهدهم، وتمَّ انشاء «المصفاة» وتسليمها جاهزةً.. قبل المدّة المحدّدة ببضعة أشهر.

* * *

كانت الفترة الدستورية، من سنة ١٩٥٤ إلى سنة ١٩٥٨، من أكثر الفترات النيابية حيويةً وديمقراطية ـ رغم ما اعترضها من شؤون وشجون كان يُقَدَّر لها أن تكون عائقةً في السّبيل الديمقراطي السليم.

ولكنَّ النواب جميعاً، ورغم اختلاف وجهات نظرهم حول الحكم والحكومة، فقد ظلوا متشبّثين بالمظهر الديمقراطي، والمسؤولية النيابية، والروح القومية ـ التي تنطلق شعلةً، وتنتفض حيويّة.. وتأبى إلاّ أن تثبت وجودها وأثرها.. في كثير من المجالات والمواقف.

وكنّا نتقدّم بأسئلتنا واستجواباتنا للحكومة.. غير عابئين بما يدور وراء الكواليس ـ وأحياناً أمامها.

لقد كان الموقف بغاية الدّقّة ـ داخلياً وخارجياً.. وأثبت المجلس النّيابي وجوده ومراقبته، وتحمّله مسؤولياته، ونهوضه بواجباته وتبعاته.

وكان المسؤولون السوريون.. يتنقّلون بين العواصم العربية، لأداء مهمّات قومية ـ رغم الخلاف مع بعضها، وتباين وجهات النّظر مع بعضها الآخر.

وكان من عادة «المملكة العربية السعودية».. أن تُقدّم هدايا ماليّة لزوارها ـ كل حسب شخصيته ومنصبه. وصدف أن قام الوزير «الدكتور فاخر الكيّالي» بزيارة رسمية للرياض، وأرسل له الملك السعودي، كعادته مع كل زائر، مبلغاً من المال.. فاعتذر عن أخذه وأعاده.

وكانت صدمةً قاسيةً للأسرة الحاكمة في السعودية ـ وربما وسيلةً مجديةً للعدول عن ذلك الأسلوب.. الذي ظلّ متّبعاً من عهد «الملك عبد العزيز آل سعود»، مؤسّس المملكة، حتى ذلك الحين. فتقرّر إبطال تلك العادة.. والعدول عنها نهائيّاً، وهذا ما حصل.

في تلك الأثناء.. زارت سورية وفود نيابية عربية ـ كان أبرزها الوفد النيابي المصري.. وقد ناف عدد أعضائه على الثلاثين. ثمّ.. وفد نيابي تونسي كان منسجماً مع بعضه.. وبمنتهى الإدراك السياسي، والفهم القومي.

ومرّةً زار «صلاح سالم» سورية، وأقام له رئيس المجلس مأدبة غداء حافلة.. كانت وسيلةً لتذكّر موقفه في السودان ـ إبّان الانتخابات النيابية التي جرت بعد جلاء الانكليز مباشرة.. وكيف رقص مع القبائل الهندية جنوب السودان.. وكان يأكل كما يأكلون، ويلبس مثلما يلبسون، ويعبر الأنهر.. متعلّقاً بأغصان الأشجار المتدلية ـ كما يعبرون! واستطاع بذلك.. أن يؤثّر فيهم، ويدفعهم للتصويت إلى جانب «اسماعيل الأزهري».. الذي كان هدفه الاتحاد مع مصر ـ وقد ألمعنا في مكان آخر إلى هذا.

ونجحت اللائحة التي تدعمها مصر. وفشلت اللائحة التي يدعمها أنصار

بريطانيا. فكتبت جريدة «التايمس» الانكليزية تقول:

لقد صام «غاندي» ـ فخسرنا الهند! وبكى «مصدّق» ـ فخسرنا إيران! ورقص «صلاح سالم» ـ فخسرنا السودان!

وفي مأدبة الغداء التي أقامها رئيس المجلس النيابي، لـ «صلاح سالم»، رويتُ ما كتبته «التايمس».. فصفقوا لذلك طويلاً، وضحكوا كثيراً.

* * *

وزار سورية.. وفد نيابي يوغسلافي ترأسه امرأة بدينة مهيبة. وقد حدثتنا تلك المرأة.. عن مقاومتها للنازيين الألمان عند احتلالهم يوغوسلافيا وأنها كانت رئيسة كتيبة مقاومة.. وقد قتلت بيدها ٢٢ جندياً ألمانياً. ورأت بيدي مسبحة ـ وكنتُ حريصاً دائماً على حملها، خلال سنوات طوال، وأخيراً حرّرني الله منها، من تبعيّتها! وتناولت النائبة اليوغوسلافية المناضلة.. المسبحة من يدي.. ووضعتها على رقبتها، وجعلتها تتدلّى على صدرها. وحينما أعادتها لي.. قدمتُها لها. فسُرَّت كثيراً بها.. وكانت تحملها بيدها في جميع المواقف. وذهبتْ والوفد المرافق لها ـ لزيارة بعض المحافظات، وفق البرنامج الذي كنّا أعددناه للوفد، ولم أستطع مرافقته نظراً لكثرة أعمالي ومشاغلي. وحينما عاد الوفد.. قالت لي تلك السيدة ـ وكنا نتناول طعام الغداء، في «دير صيدنايا» للروم الأرثوذكس، على مائدة غبطة البطريرك، قالتْ:

أنا عاتبة عليك.. فقد زرنا المحافظة التي تمثّلها بالمجلس النيابي، ولم تكن معنا. وحينما تجيء مناسبة «النُّكتة».. فلابدّ من ورودها. فقلتُ لها:

إني أذكر قولكِ.. انكِ قتلتِ بيدك ٢٢ شخصاً. وخشيتُ إذا ذهبتُ معكم أن أرتكب خطيئة معك.. فأصبح الشخص الثالث والعشرين. فضحكت كثيراً.. وظلّت تضحك إلى آخر لحظة.

* * *

وأحياناً كثيرة.. كانت تحصل مناقشات حادّة، داخل المجلس وخارجه، وتتطوّر تطوّراً غير سليم ولا كريم. والإنسان هو الإنسان.. وكل امرىء معرّض للإقدام

على ما لا يجوز له الإقدام عليه ـ وحينئذٍ.. فإمّا أن يُثبت الوعيُ وجوده، أو أن تطغى عليه العاطفة والانفعال... فيتصرّف تصرفاً غير حكيم!

وإبّان تلك الفترة.. اتُّهِم بعض النواب بالتآمر مع دول أجنبية لقلب نظام الحكم في سورية.

ورغم قناعة الكثيرين من النّواب.. ببراءة بعض زملائهم مما اتُّهِم به.. إلا أنهم لم يتردّدوا بالموافقة على رفع الحصانة النيابية عنهم.. حتى تثبت براءتهم، أو إدانتهم ـ كي لا يُتّهم المجلس بأنه يقف عقبة في سبيل تحقيق العدالة، والخروج على الأعراف والقانون.

وشُكّلت «محكمة خاصة» لمحاكمة المتهمين.. كان لها دويُّها الواسع ـ داخل البلاد وخارجها. وعُيِّن «اللواء عفيف البزري» رئيساً للمحكمة.. ومن بين المتهمين: منير العجلاني، وعادل العجلاني، وعدنان الأتاسي، وسامي كبارة، وهايل سرور، وغيرهم. وكان خارج البلاد من المتهمين: ميخائيل اليان، والأمير حسن الأطرش. وقد حكم على ٦ بالإعدام وعلى ٥ بالسجن مدداً مختلفة. وبُرِّىء «فيضي الأتاسي».

* * *

وفي حُمّى تلك الاعتقالات والمحاكمات.. غادر «بدوي الجبل» سورية إلى لبنان، مع أسرته، وأقام فيه. ومثله فعل «فيضي الأتاسي» نائب حمص.

وقد كان لـ «البدوي».. رأيٌ بالحاكمين الجدد، واتجاهاتهم السياسية التي لا يرضى عنها. وقد مرَّ بنا أنه انسحب من «الحزب الوطني»، مع بعض الشخصيات، لخلافهم بالرأي حول الاتجاه السياسي.. واتفاق «صبري العسلي» مع اليساريين لتشكيل الوزارة.

وجاء من ينقل إليَّ، عن لسان «بدوي الجبل»، أنه مستعدٌ للعودة إلى دمشق ـ إذا كنتُ متأكداً من أن غرض المغرضين لا يناله بأذى.

وحتى لا أتحمل مسؤولية الجزم بهذا الموضوع، رغم قناعتي التامّة بأنه غير ملاحق، ولا مُتَّهَم بشيء ـ وأنا من أعرف الناس بـ «بدوي الجبل» وطباعه

وخلقه.. وأنه أبعدُ ما يكون عن العمل في الظلام، والاختباء وراء ستار.. وأنه حَذِر حتى من قرع باب، وتطفّل متطفّل، وهو يجابه بقسوة ويتحدّى ـ وأما أن يعمل في الظلام، ويشترك بعمل خفيّ.. فلا.

رغم قناعتي التّامّة بهذا.. فقد ذهبتُ إلى «عبد الحميد السرّاج».. الذي كانت تصدر من مكتبه قرارات الاتهام، والملاحقة والتوقيف! ولم يسبق أن زرتُه قبل ذلك. وكان لطيفاً وهو يستقبلني.

وسألتُه.. إذا كانت ثمّة قضيّة تتعلّق بـ «بدوي الجبل»، وموضوع يُسأل عنه، وهو شاعر الأمّة العربية الكبير، وفخرها جميعاً. فأكد لي أنه ليس مؤاخذاً بشيء، ولا مطلوباً لأي أمر يُخِلّ بالأمن.. وأنه مستعدّ لإرسال موظّف يستقبله على الحدود لتطمينه ـ متى أراد المجيء إلى دمشق. فشكرته، وخرجتُ وأنا مقتنع بما قاله ـ لكثرة ما جزم به وأكّده.

وذهبتُ إلى «حمّانا» بلبنان ـ حيث كان يصطاف «البدوي» مع أسرته الكريمة. ووضعتُ سيارة «المجلس النيابي» تحت تصرُّفه لكي يمتطيها ويعود إلى دمشق. فاستمهلني شهراً ونيِّفاً.. حتى ينتهي موسم الصَّيف. وخلال تلك الفترة.. حدث له حادث اصطدام مروِّع في أحد شوارع بيروت، اضطره للبقاء أياماً طويلةً في أحد المشافي. وبتلك الأثناء.. صدرت الأحكام القاسية على عدد من النواب، وبعضهم من أعزّ أصدقائه، فاضطرب.. وآثر البقاء في لبنان، ثم ذهب إلى سويسرا، ومنها إلى النمسا ـ حيث كان الحبيب «محمد»، ابن أخيه «الدكتور علي»، يدرس الطبّ فيها. وبقي بقرب «الدكتور محمد» فترةً طويلة.. ومنها عاد إلى سورية سنة ١٩٦١.

أمّا «فيضي الأتاسي».. فقد ذهب إلى دمشق، يوم التّصويت على «الوحدة مع مصر»، ولم يعترضه أحد.. واستقرّ في بلده «حمص» ـ إلى أن انتقل إلى رحمة الله. وكان يزورني في صافيتا، مع أسرته الكريمة، من وقت لآخر. وكنت آنس به، وبمجلسه، إلى أقصى حدّ. وآخر مرّة التقيتُ به.. كان ذلك في صالة كاتدرائيّة الروم الأرثوذكس بحمص ـ حيث كنتُ دعيتُ لإلقاء محاضرة عن الاغتراب

والمغتربين.. أثناء زيارة الأديب الشاعر «الياس قنصل» للوطن الأم.

* * *

في منتصف ١٩٥٥ زارني، في صافيتا، «الرئيس رشيد كرامي» رئيس الوزارة اللبنانية، وزعيم طرابلس، وفي طليعة الشخصيات اللبنانية والعربية المرموقة. وكان برفقته وفد كبير من شيوخ طرابلس ونوّابها وأعيانها وشبابها المثقّف. وقد أقمتُ لهم مأدبة غداء حافلة، في مقهى «عيون الغار»، دعوت لها وجهاء صافيتا ومنطقتها. وكان الجمع حاشداً. ورحبت بالرئيس «كرامي» وصحبه الكرام. وتلطّف وألقى كلمةً تفيض بالمشاعر النّبيلة، والعواطف الكريمة، والتّقدير العميق. وقد أتى في كلمته على الصّلات التاريخية، التي تربط بين صافيتا وجوارها بمدينة طرابلس.. وأنها في القديم كانت، ونواحيها، تابعةً لمتصرفيّة لبنان الشمالي، وعاصمته طرابلس.. وأنّ كثيراً من العوائل تربطها ببعضها روابط وثيقة جداً. وقد أُلقيت كلمات وقصائد في ذلك الحفل البهيج.

* * *

في حياتي النيابية.. تقدّمتُ باقتراحات وأسئلة واستجوابات كثيرة. ومن النادر أن عُقِدتْ جلسة نيابيّة.. إلا واشتركتُ فيها بالمناقشات، ولي فيها بعض الأسئلة والاستجوابات.. وربما اتّهمني أحد المتخاذلين بالإسراف في هذا.. وما أحسب إلا أنني كنتُ أقوم بواجبي النيابي ـ أو ما يُخيّل إليّ أنه واجب قومي.. لابدَّ منه، ولا غنىً عنه.

واقترح عليّ بعضهم.. أن أعود إلى ضبوط جلسات مجلس النّواب.. وأنشر تلك الأسئلة والاستجوابات والاقتراحات.. وهذا وحده يعوزه مجلّد ضخم.. وأنا أعمد إلى الاختصار، في كثير من المواقف، ما أمكن ـ لأني أكره الإطالة، وما وراءها من جهد وملل. ولكن لابدَّ لي من أن أمرَّ ببعضها ـ ولو مروراً عابراً.. وأكتفي بالإشارة إليها. منها:

اقتراح بتوحيد اللباس في سورية.

واقتراح باستبدال كلمة «مغتربين» بكلمة «مهاجرين» ـ لأن «الاغتراب» يعني

العودة.. و«الهجرة» تعني الإقامة. وقد أخذت السلطات باقتراحي، وسادت كلمة «مغتربين» بدلاً من كلمة «مهاجرين».

واقتراح بتسليف الموظّفين أموالاً لبناء دور سكن لهم.. أو انشاء مؤسسات وجمعيّات لهذه الغاية.

واقتراح بانشاء صندوق خاصّ للتقاعد.. يكون مستقلاً عن الخزينة العامّة ـ كما هي الحال في أوروبا وأمريكا.. وتستثمر أمواله لصالح المتقاعدين.

واقتراح بتعميم نظام الفتوّة في المدارس ـ وهو ما يُعمل به الآن.

واقتراح: من أين لك هذا؟ وهو يشمل بعض كبار المسؤولين والمستثمرين في عهد «أديب الشيشكلي».

واقتراح بإحداث مديرية عامة للمغتربين ـ إذا لم يكن بالإمكان احداث وزارة تعنى بشؤونهم، وشؤون ذويهم.

واقتراح لتخصيص ٢ بالمائة من الموازنة العامة كلّ عام.. لأجل احداث معاهد لتعليم أبناء المغتربين اللغة العربية.

واقتراح بتأميم وسائط النقل في مدينة دمشق.

واقتراح بتوحيد قوى الأمن الدّاخلي، وجعلها تابعةً لقيادة واحدة.

واقتراح بإلغاء المرسوم القاضي بمنع أعضاء نقابات العمل من الانتساب إلى أحزاب سياسية.

واقتراح بأن يُعاد لـ (سلطان باشا الأطرش) القصر الذي بنته الحكومة له، ثم صادره «الشيشكلي»، واعطاء «سلطان» أجوره منذ مصادرته.

واقتراح بتسمية الثكنة العسكرية في طرطوس.. باسم «الشيخ صالح العلي»، وتسمية شارع ومدرسة باسمه، وإقامة تمثال له في «الشيخ بدر» مركز «الثورة»، وآخر في طرطوس أمام الثكنة العسكرية التي يجب أن تحمل اسمه.. وإعطاء رواتب تقاعدية لأفراد أسرته، وللمجاهدين الذين حاربوا معه.. وإقامة جناح باسمه في المتحف العسكري.. ووضع سيرته، وتاريخ ثورته في مناهج التّعليم.

واقتراح بتأسيس دار للعجزة، وأخرى للأيتام، في كل محافظة.

واقتراح بتسمية شارع رئيسي في دمشق باسم الأرجنتين، وآخر باسم البرازيل.. حيث توجد لنا، في كلّ من البلدين، جالية كريمة.. تتمتع بنفس الحقوق والواجبات التي يتمتّع بها أبناء البلاد أنفسهم.

واقتراح بأن تبادر الحكومة السورية للتفاوض مع الحكومة السوفياتية.. وعقد معاهدة معها تشمل الشؤون السياسية والعسكرية والاقتصادية ـ وذلك علاوةً على «المذكرة الرسمية» التي كنتُ تقدَّمتُ بها لـ «جامعة الدول العربية»، عن طريق «مجلس النواب».. وقد سبق ذكرها ونشرها.

واقتراحات بشأن الاعتراف بالصين الشعبية، وكوريا الشمالية، وألمانيا الشرقية.

واقتراح بدعوة الشاعرين المهجريين الكبيرين «رشيد سليم الخوري» ـ المعروف باسم «الشاعر القروي» ـ والشاعر «الياس فرحات». وقد وافق المجلس فوراً على هذا الاقتراح، وأحاله إلى الحكومة للتّنفيذ. وتحققت، خلال تلك الفترة، الوحدة بين سورية ومصر قبل إتمام التنفيذ. فلاحقتُ الموضوع في القاهرة، مع الدكتور «عبد القادر حاتم»، وسيجيء ذكره.. ومع «محمود رياض» سفير مصر السابق في سورية، ومندوب «الرئيس عبد الناصر» في دمشق بعهد «الوحدة». واستمرت متابعتي وملاحقتي للاقتراح.. حتى تم تنفيذه. وقد نوّه بذلك «الشاعر القروي» في الحفلة الكبرى التي أقيمت له على «مدّرج جامعة دمشق»، ووجّه لي كلمات تقدير وشكر.

وقد زارني الشاعران في صافيتا.. وقضى كل منهما بضعة أيام معنا فيها.

* * *

كنت قرأتُ في الصُحف.. عن حفلة تنصيب «الكاردينال المعوشي» بطريركاً للطائفة المارونيّة الكريمة. فتقدّمت للمجلس النيابي باقتراح لتشكيل وفد رسمي يحضر حفلة تنصيب غبطته. ووافق المجلس، وشُكّلت لجنة مؤلّفة من:

«رفيق بشور» نائب رئيس المجلس، «أسعد هارون» وزير الصحة، و«نوفل

الياس» نائب اللاذقية، و«عبد اللطيف اليونس» أمين سر المجلس النيابي.

وكان لحضورنا، آنذاك، أثرٌ كبير في نفس غبطة البطريرك، والحكومة اللبنانية. وحضر «القدّاس» رئيس الجمهورية اللبنانية «كميل شمعون»، ورئيس مجلس الوزراء، والوزراء، وجمهور كبير من الشخصيات اللبنانية. وقد أُعجبت كثيراً بخطاب البطريرك البليغ، ودقته اللغويّة، وفصاحته بالتعبير. وسيأتي ذكره فيما بعد. وقد دعانا غبطته للغداء على مائدته، ولكنّ النائب «البستاني» أصرّ على دعوته إيانا، وكان له ما أراد.

* * *

وفي «معركة السويس».. أعَطى الضَّابط «جول جمَّال» أروع صورة عن مثالية الإنسان العربي، واستعداده للتضحية بنفسه، في سبيل معتقده وقضيّته، فاندفع بزورقه الحربي إلى بارجة فرنسية ضخمة.. كانت تُعتبر من أضخم البوارج في ذلك الحين.. وقد قذف بزورقه في وسطها.. فشطرها وأغرقها، واستشهد.. وأصبح من الأبطال الذين سجّلهم تاريخ التضحيات، وفي طليعتهم.

ومرّتْ أيام.. وطُويَ النبأ ـ بعد أن جلجل حيناً.. ثمَّ صمتت الألسنة والأقلام، وقد راعني ذلك، وأحزنني، فأثرتُ موضوع «جول جمال» في «مجلس النواب».. وقلتُ ـ فيما قلته:

إنَّ من العقوق ـ تجاه كرامتنا، وقضيتنا، وتاريخنا.. أن نهمل تضحية البطل «جول جمال».. فلا نكرّمها ونخلّدها.. لنثبت أننا شعب جدير بالخلود وبالحياة.. وأننا نعرف كيف نحتفظ بذكرى أبطالنا في صدورنا، وكُتبِنا وتاريخنا.. وفي كل مظهر من مظاهر وجودنا.

وتقدّمتُ باقتراح خطّي.. لإقامة تمثال له، وتسمية «الثانوية» التي تخرّج منها باسمه.. وكذلك تسمية شارع ومدرسة في كل مدينة سوريّة باسمه.. وأن تُدرّس سيرته وتضحيته في مناهج التعليم ـ ليكون قدوةً ومثالاً ونبراساً.. واقترحتُ أن يُعطى والداه راتباً تقاعديًّا طوال حياتهما. وقد أقرَّ المجلس تلك الاقتراحات، وأحالها إلى الحكومة لتنفيذها. وقد نُفّذت كلها.

وأقيمت للبطل الشهيد «جول جمال» حفلة تذكاريَّة ضخمة.. في «وادي النَّضارة» - بمنطقة تلكلخ. وترأس لجنة الاحتفال النائب السابق الدكتور «الياس عُبيد»، ودُعيتُ لالقاء كلمة فيها - بصفتي النائب الوحيد الذي أثار موضوع استشهاده، وطلب تخليد اسمه، وتكريم ذكراه. وقد نوَّه الخطباء جميعاً بموقفي.. وأعرب والدا الفقيد الشّهيد عن رغبتهما بزيارتي في صافيتا، والإعراب عن شكرهما وتقديرهما.

* * *

وإنَّ من الصعب جداً.. إحصاء جميع الاقتراحات، والأسئلة، والاستجوابات، في هذه المذكّرات - لأنَّ ذلك وحده يتطلَّب مجلَّداً مستقلاً.. وهي كلها موجودة في مجلدات «الجريدة الرسمية»، و«ضبوط جلسات مجلس النواب» سنة ١٩٥٠ و١٩٥٤ و١٩٦١.

* * *

وأحياناً.. كانت تحدث مناقشات حامية، في مجلس النواب، تتخللها قسوة بالكلام.. وفي بعض المواقف تشابك بالأيدي! وكان ثمة.. نائب معروف بطيبته ونزاهته - وإلى جانب ذلك.. بسرعة انفعاله، وشدّة حدّته. ومرةً.. اصطدم مع «راتب الحسامي»، وزملاء له، من «حزب الشعب»، وانتقل الاصطدام إلى خارج القاعة.. وجاء الآذن يهمس في أذني عن ذلك - وأنا على المنصّة إلى يمين الرئيس.. وإذا بنواب من «الشّعبيين» يحيطون بذلك النّائب، وقد مسك النائب «راتب الحسامي» بخناقه.. وهو يشد على رقبته بربطة عنقه، وبعصبيّة وانفعال شديدين! فأسرعتُ وناديتُ بعض الزملاء.. ولم نستطع سحب أنامل «الحسامي» من حول رقبة النائب ذاك.. إلاّ بصعوبة بالغة! وكان موقفنا آنذاك بمثابة إنقاذ.

ومن غرائب الصُّدف.. أنه حصل اعتداء على «راتب الحسامي»، من بعض الزملاء سنة ١٩٦١ وأصيب بجروح في رأسه - بنفس المكان الذي اعتدى فيه على أحد الزملاء - كما مر بنا!

ومثل هذه الاصطدامات، والتماسك بالأيدي، لا يخلو من مثله مجلس تمثيلي

في العالم ـ إلا ما ندر. وقد وصفه نائب فرنسي بأنه دلالة على الحيويّة والحماسة!

وإلى جانب ذلك.. كثيراً ما تحصل نُكت تخفّف من حدة المناقشات، وتضاعف من أثرها في النفوس. ولو كان ثمّة مجال لأوردت الكثير منها.

ولكني هنا أروي نكتتين، وأقف عندهما:

كان «فائز الخوري»، نائب دمشق، يخطب من على منصّة الخطابة، وقال: «إنّ هذه القضيةُ المعروضةُ أمامكم».. فرفع القضيّة ونعْتَها ـ وهما محلّ نصب. فقال له أخوه «فارس الخوري» رئيس المجلس: أنْصُبْ.. فرفع رأسه النّائب «فائز» وقال له: ما تعوّدنا النّصب يا سيدي. وضحك النواب والنّظارة طويلاً.

والثانية نكتة لطيفة ـ وإن كانت تنطوي على إشارة غير لطيفة:

كان المجلس النيابي، في احدى جلساته، يناقش مشروع قانون البلديات وفيه نصٌ يتيح للنساء الانتخاب والترشيح لعضوية المجالس البلديّة. وتصدّى النوّاب «المشايخ» لهذا النص.. وحملوا على فكرة إعطاء المرأة حق الترشيح والانتخاب. وحمي النقاش.. وأكثر النواب موافقون على منح المرأة هذه الصّلاحية. وكان نائب دمشق «الشيخ عبد الرؤوف أبو طوق» أكثر الشيوخ عنفاً وحِدّةً بالحملة على النساء اللواتي يردن الاشتراك بالحياة العامّة.

وصباح اليوم الثاني.. اتّصلت بي الرئيسة «عادلة بيهم»، رئيسة «الاتحاد النسائي» ـ وكنتُ أُجلُّها وأُقدّرها، وأعمل على تنفيذ رغباتها، وتربطني صلةٌ وثيقةٌ بأسرتها، وطلبت مني أن أحضر مقابلتها الرئيس، وبرفقتها عضوات الاتحاد. وحضرتُ المقابلة، وكنّ غاضبات على «الشيخ أبو طوق» لحملته الضارية على المرأة.. ووقفت إحداهن، وقالت غاضبة: «وينو.. بدي مصّ دموا!» وهمس الرئيس بأذني، وكنت أجلس إلى جانبه، وقال لي:

«الشيخ عبد الرؤوف» آتٍ إلى هنا الآن. وقد اتّصل معي بالهاتف، منذ قليل، فأرجوك أسرع، وحُلْ دون مجيئه ـ حتى تذهب السيدات.

وخرجتُ.. وإذا بـ «الشيخ» يريد الدخول إلى مكتب الرئيس فأمسكت يده،

ورجوتُه أن يدخل معي إلى الصالون ـ لأنّ لي حديثاً هاماً معه. وهناك أخبرته عن وفد السيدات اللواتي جئن للاحتجاج على حملته عليهن.. وأن إحداهن متحمسة كثيراً، وقد قالت: «وينو أبو طوق؟ بدّي مِصّ دمّو»! فقال لي: أهي صبيّة.. وبتستاهل؟ قلتُ له: صبيّة حلوة. قال: «إي.. تجي تمصّو»!

وبقي النواب فترةً طويلةً يتندّرون بهذه «النكتة».. ويضحكون.

ومرّة.. كان «الشيخ أبو طوق» يخطب ويطالب بفرض «التقشف». فأرسل له أحد الوزراء بيتين من الشعر. ونشرت إحدى الصحف السورية الخبر الطريف التالي:

«استفزت النكتة المنظمة ـ التي أهداها وزير الخارجية إلى النائب «الشيخ عبد الرؤوف أبو طوق»، في احدى الجلسات النيابية، استفزت شاعرية النائب الكريم الأستاذ «عبد اللطيف اليونس»، وهو على فراش الضَّنى، عافاه الله، ورأى في البيتين الفكهيين مادّة سائغةً للمداعبة والمحاكاة.. والبيتان هما:

إبدأْ بنفسِك والبس اللُّبّادا ... وَاركَبْ حِماراً فارهاً مُنقادَا
وإذا دُعِيْتَ لحفلةٍ مَرْمُوقَةٍ ... فَاركَب لها، بَدَل الحمار. جَوَادَا

فشطَّر النائب «اليونس» هذين البيتين، وخمّسهما. والتّشطير هو:

(إبدأْ بنفسك وَالْبس اللُّبّادا) ... ودَعِ الحَريرَ وزيّه المُعْتَادَا
وَاسْكُنْ دَهَاليزَ البُيوتِ تَقَشُّفاً ... (واركَبْ حماراً فارهاً منقادَا)
(وإذا دُعيتَ لحفلةٍ مَرمُوقَةٍ) ... حَشّدوا بها الظّبيات والآسادا
ودعوا لها من كل روضٍ زهرةً ... (فاركَبْ لها بَدَلَ الحمارِ جوادَا)

والتّخميس هو:

(إبدأْ بنفسك، والبسِ اللُّبّادا) ... وافرشْ حصيرك واتّخِذْهُ وِسادا
واغزلْ رداك، وشاركِ الزُّهّادا ... كِسَراً من الخبزِ المُقَدَّدِ زادَا

(واركبْ حماراً فارهاً منقادا)

(وإذا دُعيتَ لحفلةٍ مرموقةٍ) ... ورجوتَ أن تحظى بها بصديقةٍ

حسناءَ من كلِّ القيودِ طليقةٍ   تسعى إليك بقامةٍ ممشوقةٍ

(فاركبْ لها بدَل الحمارِ جوادا)

ومرةً جرى نقاش حادّ، حول أمور بوزارة الداخلية، وكان وزيرها حينذاك «علي بوظو» ـ وتربطني به صلة إخاء ومودة. ويبدو أن حملتي على إجراءات وزارته.. كانت عنيفةً وقاسية. فأرسل لي هذين البيتين:

أهذا أنت ــ يا «عبد اللطيفِ»   صديقي صاحب القلبِ النَّظيفِ؟

أتحمِلُ حملةً شعواءَ ضدّي   ولم تأبَهْ لوضعي، أو ظروفي؟

فأجبته بهذه الأبيات فوراً:

صديقي ــ يا «أبا عُروَهْ»   لأنت أشدّنا نخْوَهْ

عرفتُ بك الكريمَ السّمْحَ ــ   لا عنفٌ ولا قسوهْ

وخِلاً دائماً يمشي   بنا نحو الإخا خُطوَهْ

فلا تعتبْ ولا تغضَبْ   وسامحني على هَفْوَهْ

وكثيراً.. ما كنا نتبادل الشّعر، ونكتاً نرسلها بواسطة «الآذنين»، داخل المجلس، ولو جُمِعَت.. لشكّلت كُتيباً طريفاً ـ ينطوي على الروح المرحة التي كانت تخفّف من حدّة المناقشات والانفعالات. ولا يتّسع المجال هنا.. لإيراد أكثر مما أوردت.

* * *

كنت حتى سنة ١٩٥٧ أسكن بيتاً مستأجراً في صافيتا.. وقد انتقلتُ وأسرتي إليها من قرية «بيت الشيخ يونس» ـ عقب عودتي من لجوئي السياسي إلى العراق، ورَفْع الملاحقة عني. وقد سكنّا أوّلاً عند «آل توما»، وبعد ذلك عند «آل الصايغ» ـ وكلتا الأسرتين من كرام الناس.. وتُعتبران من أطيب من عرفنا وعاشرنا، وقد سبق وأشرنا إلى ذلك.

وسنة ١٩٥٦ اشتريتُ قطعة أرض واسعة غربي صافيتا. ثم اتفقتُ مع «ميخائيل أبو ديب» على بناء بيت واسع بالتّقسيط لبضع سنوات. وكان صادقاً في تعهده وتنفيذ الاتفاق. وقد حرصتُ على أن تكون للبيت حديقةٌ واسعةٌ..

محاطة بسور ينوف علوّه على المترين، وتحيط به أشجار باسقة من جميع الجهات.

ولا شكّ بأن الدّار الجديدة.. قد مكّنتني من الانصراف إلى الكتابة والتأليف ـ عند فراغ وقتي، وانتهائي من استقبال الناس، وفَضّ مشاكلهم، وقضاء حوائجهم.

وعلى ذكر مشاكل الناس وحوائجهم وقضاياهم.. أذكر أن رئيس «جمعية المتقاعدين» ـ «ابراهيم كنعان» ـ زارني مرةً مع أعضاء «الجمعية»، لأمور تتعلق بها.. وقد وقف أمام مكتبي في «مجلس النواب» بقامته الفارعة، وشاربيه المعقوفين والمرتفعين إلى أعلى، وقال لي: إنّ كلمة «متقاعد».. تعني ـ بالنسبة للموظّف الذي أنهى خدمته: «مُتْ قاعداً».

إنها تورية قاسية بمعناها... ولكنها ظريفة بمبناها!

* * *

في تلك الفترة.. ألّفتُ سنة ١٩٥٩ كتاب «حياة رجل في تاريخ أمّة».. استعرضت فيه القضية العربية خلال خمسين عاماً، من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩٥٨ ـ وهي الفترة التي عمل خلالها «شكري القوتلي» بالسياسة.. إذ بدأ عمله السياسي سنة ١٩٠٨ حين اعترف الأتراك بالكيان العربي.. وكان هو عضواً في «جمعية الاتحاد والتّرقي» التي كانت الدافع لذلك الاعتراف. ثم اختتم حياته السياسية سنة ١٩٥٨ ـ حين استقال من رئاسة الجمهوريّة.. لتمكين قيام «الوحدة» بين سورية ومصر، وانتخاب «عبد الناصر» رئيس جمهورية البلدين، أو الإقليمين، كما اصطُلِحَ على تسميتهما حينذاك، وهما: الإقليم الجنوبي، والإقليم الشمالي: مصر وسورية.

وقد درستُ في هذا الكتاب.. فترة الخمسين سنة تلك ـ بالنسبة للقضايا العربية بصورة عامّة، والقطر السوري بصورة خاصّة.. ففي الأماكن التي كان لـ «القوتلي» أثر فيها.. أقف عنده، وأبرز دوره، ثم أتابع رحلتي ودراستي للأوضاع التي حصلتْ خلال نصف القرن ذاك ـ مثل شأني بكتابة هذه «المذكرات» التي أُعنَى فيها بالقضايا العامة أكثر من عنايتي بالقضايا الخاصة.

وتلطف أدباء كرام، في سورية ومصر، وكتبوا مقالات مطوّلة عن هذا الكتاب.. وأجمعوا على أنه في طليعة الكتب التي صدرت ـ خلال الفترة التي صدر فيها. وقد طبعتْه «دار المعارف المصرية» طباعةً أنيقة متقنة. وهو يقع في ٣٠٠ صفحة من القطع الكبير. ولقد أطلع عليه «عبد الناصر» قبل نشره ـ وكان «القوتلي» قد طلب ذلك.

ثم ألّفتُ كتاب «المغتربون» ـ وكنتُ قد دُعيتُ لإلقاء محاضرات، في اذاعة القاهرة، عن المغتربين العرب في أمريكا. وبلغ عددها ٢٢ محاضرة نسّقتُها وهيّأتُها لأن تكون كتاباً جامعاً عن المغتربين ـ فكان. وقد طبعته «دار العرفان» في لبنان طباعةً جيدة. وبلغ حجمه ٢٥٠ صفحة من الحجم الكبير.

وسأعمل جاهداً لإعادة طبع هذين الكتابين، وبقيّة كتبي الأخرى، بإذن الله.

* * *

قلتُ... إنّ المنزل الجديد الذي بنيتُه، وانتقلتُ إليه.. قد مكّنني من العطاء الفكري.. حسب طاقتي وقدرتي ـ لأن هدوء المكان، وإطلالته.. يساعدان كثيراً على انطلاق الفكر، وتدفّق البيان.

وأنا ـ وأعوذ بالله من كلمة أنا ـ من الذين يؤخذون كثيراً بالإطلالة المشرقة، والأُفُق الرّحْب، والمدى الواسع.

وأكاد أنسى نفسي ـ وأنا في حضن الطّبيعة.. وفي وارفٍ من صفائها ونقائها، وظِلالها الناعمة الحلوة.

وأكثر ما يجعلني أبتعد عن نفسي، وأندغم في ما يحيط بي.. هو تدلّي خيوط القمر، وانسيابها إلى المقلتين، وشغاف القلب.. حتى لتكاد أناملي تتحسّسها ـ وهي تريق على جبيني وأجفاني نعومةَ الضَّوء، ورقّته وعذوبته وسناه!

يا للنّعمى..!

ويا لحَفيف الأغصان، ونغمها الرّتيب الحلو!

ويا للألَق الزّاهي.. واندغام النفس بمثلها الأعلى، وذوبانها فيه!

ويا للنجوم البَوَاسم.. وهي تُطِلُّ بحياء، وتتوارى بحياء ـ حينما يُطِلُّ القمر

ويُشرق، ويعذب ويحلو!

ويا لَعذوبته.. حينما يكتمل ويبدو بدراً ـ ولحباله حينما تندلق وتتموّج وتتدلّى!

ويا للخيالات السابحة الوضيئة.. وهي تتجمع من بين المتاهات، وتحوك خيوط الأمنيات، وترسم خطوط الغد!

ويا للمُثُل العليا.. إنَّها تولد هناك، وتتسلسل أشعتها من هناك! رؤًى.. لو لم تكن ثمّة تسميةٌ للنُّعمى ـ لكانت هي النُّعمَى!

رُؤًى.. تحلِّق بالمرء من عالمه ـ إلى عالمها.. فتضيئه بضوئها، وتغمر مقلتيه بسناها، وفؤادَه بريَّاها.

رُؤًى.. كلّما هدهدتها ـ زادت سطوعاً وشفافية! وكلّما أثرتَها ـ أغرتك باللَّحاق بها، والعيش معها ولها!

رُؤًى.. لولاها لما كان ثمَّة فكر، ولا ثمَّة عطاء.. ولانْطَفَأَ الشُّعاع، وأمْحَلَ الخيال.. وغابت شمس الحقيقة، وغاض منبع النور!

رُؤًى.. هي زادي في رحلتي، ورفيقتي في غربتي ـ منها أستمدُّ القوّة والعزيمة، والوحي والإلهام!

رُؤًى.. لولاها ما كنتُ، ولا عشتُ.. ولا يمكن أن أكون، ولا أن أعيش!

وأغمض باصرتي ـ لأراها ببصيرتي.. وأُصغي لنجواها بخفوق خافقي، ومرهف إحساسي ومشاعري!

إنّها هناك.. في المَثَل الأعلى الذي أؤمن به، وأعيش له!

وحسبي من العُلَى.. أنَّها هناك ـ وأنّها بعضٌ من بعضها، وسيماء من سيمائها!

حسبي منها هذا.. ولا أطمح لأكثر من هذا.

* * *

في تلك الأثناء سنة ١٩٥٧ قوي الضغط على دمشق.. وازدادت حدّته وشدّته ـ من الدول الامبريالية، والدول المجاورة لسورية.

وأنقل هنا.. ما كتبته عن تلك الفترة، في كتابي «من صميم الأحداث»، وقد

طبعته في البرازيل سنة ١٩٦٧ ـ هذا الفصل، من صفحة ١٣٩ إلى ١٥١، يبحث كيفية قيام «الوحدة» بين سورية ومصر، وأسباب فصمها.. مراعياً، هنا، الاختصار.. ومتجنباً الاستطراد ما أمكن.

وصلت الحشود العسكريّة حول سورية سنة ١٩٥٧ إلى درجة الخطورة. وكانت العاصفة تنذر بالهبوب بين ساعة وأخرى.. فقد فغر «حلف بغداد» فاه، وازداد الضّغط الاستعماري على سورية.. محاولاً أن يسدّ في وجهها كل متنفّس، ويمنع عنها كل عون! وأُغلقت الأبواب في وجه انتاجها الزراعي والصناعي.. فاستفحلت الأزمة الاقتصادية حتى وصلتْ إلى درجة مخيفة! وشنّتْ الدول الاستعماريّة حرباً دعائية ضد سورية ـ محاولين أن يوصدوا في وجهها كلّ المنافذ والسُّبُل!

ووقفت الدول الاشتراكية، وفي طليعتها «الاتحاد السوفياتي» موقفاً كريماً. ولكنّ أسواق سورية التجارية، استيراداً وتصديراً، كانت كلها مع دول الغرب.. والبلدان السّائرة في فلكه ـ حتى إنّ حكومة العراق الشّقيق.. أوقفت المعاملات التجاريّة مع دمشق كلها، وألغت العقود كلها! وكانت صناعة النسيج، والصابون، والفواكه المجفّفة، تعتمد على أسواق العراق ـ أكثر من أي بلد آخر. وهكذا مرّت فترة.. كان في معامل حلب، وحدها، ما ينوف على ثلاثين مليون متر، من مختلف أنواع النسيج، دون تصريف ـ فضلاً عن تلال الصابون، ومنتجات كثيرة أخرى ـ ممّا اضطرّ بعض المعامل للتّوقّف، وتسريح عدد كبير من العمال.

ورغم هذه المتاعب والصعوبات.. فقد بقيتْ سورية في موقفها الصامد البطولي.. ولم ترضخ لـ «حلف بغداد».. ولم تذعن لإرادة الاستعمار. وكانت الشقيقة الكبرى مصر.. تقف إلى جانب سورية.. وتدعمها في جميع المواقف والميادين.

ومن هنا ـ وإلى جانب هذا الإيمان القوميّ.. ارتفعت أصوات كثيرة تنادي بالاتحاد مع مصر، وتطالب به. ولقيتْ هذه الدعوة المخلصة، تجاوباً مع الفئات المخلصة.. دون استثناء. وفوجىء «عبد الناصر» بطلب سورية الرسميّ.

وتشهد الوقائع ـ ومن الإنصاف أن نسجل هذا.. بأن دمشق هي التي زحفتْ نحو القاهرة.. وليست القاهرة هي التي بدأت الزّحفْ.

والرئيس «عبد الناصر» مؤمن باتحاد الدول العربيّة، ويعمل في سبيل تحقيقه ـ بكل ما أوتِيَ من قوّة وعزم. ولكنّ الوحدة مع سورية.. لم تكن أبداً مبادرةً منه ، بل لم تكن قد وصلتْ بعد إلى دورها الحاسم في إطار تفكيره ومخطّطاته.

تلطّف «عبد الناصر» ووجّه إلينا دعوة سنة ١٩٥٧ لحضور احتفالات عيد «الثورة» في ٢٢ تموز. وقضينا يوماً كاملاً برفقته في الاسكندرية.. واصطحبنا معه، على ظهر باخرة «الحريّة»، لنشهد مباراة الأسطول المصري ـ على بعد عشرات الأميال من الشّاطىء. وكانت أروع مباراة شهدناها، وعشنا وقائعها وتجاربها. وتغدّينا مع سيادته في «نادي الضبّاط»، ثم تعشّينا معه في منزله.

وفي منزله.. دار حديث طويل وصريح عن اتحاد القطرين: سورية ومصر. وكان قد جرى حديث آخر، في مناسبة أخرى، بمكتبه في القاهرة ـ وقد سبق أن ذكرتُ أني أوّل من أثار موضوع «الاتحاد» بين البلدين ـ أقول «اتحاداً».. وليس «وحدة». ولو كان ما جرى اتحاداً لاَستَمرّ.. كما سبق وأسلفت، ولما تعرض لما تعرضت له الوحدة.

وكان الرئيس «عبد الناصر» صريحاً في حديثه إلى أبعد حدود الصّراحة.. وواقعيّاً إلى أقصى حدود الواقعية. وعدّد لنا حوادث كثيرة.. مع بلدان اتحّدتْ مع بعضها دون تهيئةٍ وتمهيد، وإعداد نفسي وزمني.. وقد فشلت تلك الاتحادات لأنها لم تقمْ على أسس ثابتة مكينة. وطلب منّا التّرَيّثْ والتّمَهّل... إلى أن يزداد وعي الشعب، ويرتفع بتفكيره إلى مستوى الهدف القومي.. وبذلك نأمن مخاوف الإخفاق، والتّردي في مهاوي الخيبة والفشل. وقد أبدى الرئيس مخاوفه من «النكسة».. وصعوبة احتمالها، أو تفاديها.

وقد ردّد ليلتئذٍ ـ ما قاله سابقاً.. لقد بدأنا باتحاد عسكري وثقافي.. ونرجو أن نوفّق لايجاد وحدة اقتصادية.. وبعد ذلك نحقّق الاتحاد السياسي. وهكذا نكون

قد بدأنا عملنا على مراحل، ووفق خطط مدروسة مُعَدَّة.. ونابعة من أعماق الشّعب العربي في البلدين، ومن قناعته ورغبته.

وكان أحدنا متحمساً.. وينظر إلى الأشياء بمنظار عاطفي بحت.. تاركاً للقدر تكييف الأمور، وللأحداث تقويمها وتوجيهها.. فوقف ذلك الزميل، وقال للرئيس «عبد الناصر» في حدَّة مخجلة:

يبدو أنك لا تريد الاتحاد معنا.. فلماذا لا تصارحنا بذلك؟!

ولقد اجتمعتُ بالرئيس «عبد الناصر» عدة مرّات، وأكلتُ على مائدته عدداً من المرات.. ولأوّل مرة رأيته يخرج عن طوره، وتظهر علائم الغضب على وجهه، وفي نبرات صوته، ويجيب:

«لماذا تتهمني بأني لا أريد الاتحاد معكم؟ يظهر أنك لا تقرأ ما نكتب.. ولا تصغي حين نخطب! ولو أنك تقرأ وتصغي.. فعلمتَ أنَّ إيماننا بالوحدة العربية هو قاعدة تفكيرنا، وركيزة عملنا. وقال سيادته:

«أنا لا أخشى المصريين أن يرتدّوا.. ولكني أخشاكم أنتم السوريين من الارتداد»!

كأنّه كان يقرأ في صحائف القدر.. وينطق بلسان الغيب!

وتجهَّم جوُّ الجلسة.. وأوشك الموقف أن يتأزّم ـ ولكنّ تهذيب الرئيس ولباقته، وحنكته ومرونته، أعاد الحديث الودّي إلى تلك الجلسة الممتعة التي استمرّتْ حتى ساعات الصّباح الأولى.

* * *

ونترك للأستاذ «محمد حسنين هيكل»، مستشار «الرئيس عبد الناصر»، ورئيس تحرير جريدة «الأهرام» وقتذاك، أن يحدثنا عما جرى بعد ذلك.. فنقتطف فقرات من كتابة: «ما الذي جرى في سورية؟» ـ وقد رافق تلك الأحداث وعاشها. وأرَّخها بدقة. قال:

«... وعند منتصف الليل ـ في الدقيقة الأولى من يوم كانون الثاني ١٩٥٨ ـ كانوا جميعاً، اثنان وعشرون ضابطاً، يمثّلون مختلف قطعات الجيش السوري،

ومعهم وزير الخارجية السورية، كانوا في بيت «الرئيس عبد الناصر» الذي جلس أمامهم، وبجواره المشير «عبد الحكيم عامر». وتكلّم وزير الخارجية السورية وقال:

إنّ الحكومة السورية موافقة على اتمام الوحدة بين مصر وسورية ـ بل إنّ الحكومة ترحّب بذلك.. كمطلب شعبيّ، وكطريق لاستقرار سورية.

وقفز الباقون جميعاً وراء كلمات وزير الخارجيّة، يطلبون «الوحدة»، ويلحُون في طلبها.

ومضتْ محاولة الإقناع ساعات.

وقال «جمال عبد الناصر»: إني أقبل المبدأ تحقيقاً لمطلب الشعب السُّوري، ولكي لا تضيع سورية.. ولكن على ثلاثة شروط، وشروطي الثلاثة هي:

أولاً: أن يتمّ استفتاء شعبي على «الوحدة».. ليقول الشّعب في سورية، وفي مصر، رأيه بالتّجربة.. ويعبّر عن إرادته.

ثانياً: أن يتوقف النشاط الحزبي في سورية توقفاً كاملاً، وأن تقوم الأحزاب السورية بحلّ نفسها.

ثالثاً: أن يتوقّف تدخُّل الجيش بالسياسة توقفاً تاماً.. وأن ينصرف ضباطه إلى أعمالهم العسكرية.

فهل أنتم على استعداد لذلك؟ لقد أوشك الصبح أن يطلع.. فاذهبوا وفكّروا.. فكّروا بين أنفسكم، ابحثوا الأمر كما يحلو لكم، وخذوا وقتكم في بحثه.

وجاء السّاسة من سورية، وفي طليعتهم «شكري القوتلي»، وبين الظروف الواقعة، وبين شروط «عبد الناصر»، لم يكن هناك مخرج ثالث.

وأذكر ـ والكلام لمحمد حسنين هيكل ـ أذكر، وأنا أكتب هذه السطور، كلمة «شكري القوتلي»، عندما وقّع بإمضائه على الاتفاق الأول على «الوحدة»، قال بلهجته العالية، وطريقته المشهورة:

«ها.. أنت لا تعرف ماذا أخذتَ يا سيادة الرئيس! أنت أخذتَ شعباً يعتقد كل من فيه أنه سياسي! ويعتقد ٥٠ بالمائة من ناسه أنهم زعماء! ويعتقد ٢٥ بالمائة

أنهم أنبياء! وهناك ١٠ بالمائة، على الأقلّ، لا يجدون أنفسهم دون مستوى الآلهة!

ونظر «عبد الناصر» إلى «شكري القوتلي»، وقال له ضاحكاً:

لماذا لم تقل ذلك.. قبل أن أوقّع على الاتفاق»؟!

* * *

ووافق الشعب العربي، في سورية ومصر، على الوحدة.. وقدّم «شكري القوتلي» استقالته، من رئاسة الجمهورية، إلى المجلس النيابي الذي انتخبه، وأطلق عليه لقب «المواطن العربي الأول».. وظلّتْ هذه التسمية ترافقه طوال أيام «الوحدة». وانتُخِبَ «عبد الناصر» رئيساً للجمهورية التي أُطلق عليها اسم «الجمهورية العربية المتحدة».. وجاء لزيارة سورية بعد أن تمّ انتخابه، وحلّ في بيت «شكري القوتلي». وما أن أعلنت الإذاعة وصول «عبد الناصر».. حتى زحفتْ دمشق لتحيّته.. وكانت الشوارع تركض بالناس ـ وليس الناس هم الذين يركضون عليها.

وذهبنا لتحية «الرئيس عبد الناصر»، في بيت «الرئيس شكري القوتلي». وكنّا مجموعة من النواب، والوزراء السابقين، ومعنا «الدكتور معروف الدواليبي» الرئيس السابق للمجلس. ولكنّ كثرة الجماهير وتراصّها.. حالا دون تمكننا من اختراقها، والوصول إلى المنزل! فاتّجهنا إلى «قصر الضيافة» ـ حيث سيحلّ «الرئيس عبد الناصر» وقرّرنا انتظاره هناك. وحينما وصلنا إلى الباب الخارجي.. أدّى لنا ضبّاط الأمن التحية، وفسحوا لنا مجال الدخول إلى داخل القصر. ولكنّ بعض رجال المخابرات.. جاؤوا وطلبوا منا الخروج، وأصرّوا على ذلك ـ وتأكّد لنا أن توجيهات «عبد الحميد السّراج» كانت وراء ذلك التصرّف النابي! وعدنا إلى المجلس النيابي، وقد وصل بنا التأثر إلى أقصى مداه ـ لأننا نحن الذين انتخبنا «عبد الناصر» رئيساً للجمهورية.. فهل يسوغ أن نعامَل، نحن النواب، هذه المعاملة المنكرة الشائنة!!!

ويبدو أن «عبد الناصر» قد علم بتصرف مخابرات «السرّاج» معنا.. فأظهر

امتعاضه واستنكاره، لما حدث.. وحدّد موعداً سريعاً لاستقبال النواب والتحدث إليهم. وهذا ما جرى.

* * *

حدث انقلاب مفاجئ في العراق ـ في ١٤ آب سنة ١٩٥٨ ـ ذهب ضحيته «الملك فيصل الثاني»، ووليّ عهده «عبد الإله»، ورئيس الوزارة «نوري السعيد». وكان بطل الإنقلاب «عبد السلام عارف» الذي زار دمشق، في ١٨ آب نفسه، للالتقاء بـ «عبد الناصر» الذي كان بزيارة للاتحاد السوفياتي، حين حدث الانقلاب العراقي، فغادر موسكو بسرعة وجاء إلى دمشق للالتقاء بـ «عبد السلام عارف»، في الثامن عشر من آب نفسه، أي بعد أربعة أيام من حدوث الانقلاب. وكان لقاءً أخوياً خفقت له قلوب الجماهير العربية ـ التي تتطلع إلى تحقيق «الوحدة العربية».

ولكنّ الدول الاستعمارية، وأناملها الخفية في الشرق الأوسط، عملت لاقصاء «عارف»، واحلال «عبد الكريم قاسم» محله! وكرّتْ السُّبحة.. فعاد «عارف» وقضى على «قاسم».. ثم كرّتْ مرةً أخرى.. فقضت على حلم اتحاد البلدين! وتوالت الأحداث بعدئذٍ.. فكان ما نشاهده الآن!

* * *

وعمد «أكرم الحوراني» إلى مناوراته المشهورة ـ وهو أحذق من يدبِّر المناورات ويحوكها! واعتكف في مكتبه بمجلس النواب ـ حيث كان انتُخِب رئيساً له في أواخر سنة ١٩٥٧ ـ ورفض الذهاب إلى «قصر الضيافة» حيث يُجري «عبد الناصر» مشاورات لتشكيل حكومة. وكان يُسمع صوت «الحوراني» خارج مكتبه.. وهو يصرُّ على تعيينه رئيساً لـ «المجلس التنفيذي» الذي يُشرف على الحكم في سورية ـ الإقليم الشمالي ـ وإلاّ فإنه يأبى التعاون مع العهد الجديد!

وأخيراً ـ وبعد أيام طويلة من المباحثات والمفاوضات.. أصدر «عبد الناصر» قراراً بتعيين «أكرم الحوراني» نائباً لرئيس الجمهورية في سورية، ورئيساً للمجلس التنفيذي.. و«صبري العسلي» نائباً لرئيس الجمهورية، ورئيساً للمجلس

التشريعي - مع أن المنطق الدستوري كان يقتضي العكس.. أي أن يكون «الحوراني»، رئيس المجلس النيابي، رئيساً للمجلس التشريعي في الكيان الجديد.. و«صبري العسلي»، رئيس الوزارة السورية، رئيساً للمجلس التنفيذي.

ولكنّ «الحوراني».. أصرّ على أن يكون هو رئيس المجلس التنفيذي.. فكان له ما أراد!

وأما «العسلي».. فقد استقال من منصبه - بعد أن ورد اسمه في محاكمات بغداد للسياسيين في العهد الملكي.. وأنه كان من أنصار «الهلال الخصيب»، وتقاضى أموالاً للعمل على تنفيذ ذلك المشروع الاستعماري. وقد أصدر «صبري العسلي» بياناً حاداً ضد ذلك الاتهام.. وأعلن أنه يستقيل من منصبه حتى يتيح المجال لمن يريد التحقيق معه.. وحتى لا يحول منصبه كنائب لرئيس الجمهورية دون التحقيق المراد. وقد قبل «عبد الناصر» استقالته، ولم يَجْرِ معه أي تحقيق.

وأصدر «عبد الناصر» مرسوماً جمهورياً بتشكيل وزارة سورية، الإقليم الشمالي، وهذه هي الأسماء:

أكرم الحوراني - بعثي - نائبٌ لرئيس الجمهورية، ورئيس المجلس التنفيذي. صبري العسلي - حزب وطني - نائب لرئيس الجمهورية، ورئيس المجلس التشريعي. والوزراء هم: عبد الحميد السراج - ضابط، عبد الوهاب حومد - حزب شعب. أمين النفوري - ضابط. أحمد عبد الكريم - ضابط. فاخر كيالي - حزب وطني. حسن جباره - مستقل. صلاح البيطار - بعثي. خليل كلاس - بعثي. مصطفى حمدون - ضابط. صبحي كحّالة - مستقّل. رياض المالكي - بعثي.

ورُفّع عفيف البزري لرتبة فريق، وعُيّن قائداً للجيش الأول.. ومعاونه اللواء عبد المحسن أبو النور - مصري.

* * *

كان «السراج»، قبل تشكيل وزارة الإقليم الشمالي، قد أرسل من يتعهد للملك «سعود» إجراء انقلاب عسكري في سورية ضد «الوحدة».. إذا دعمه بملايين الدولارات! واستجاب «الملك سعود» لهذه المبادرة التي كان يتلهّف عليها..

وأرسل له مبالغ كبيرة بشيكات.. عرضها «عبد الناصر» في اجتماع جماهيري كبير.

وكُشِفَتْ المؤامرة.. وثبت أنها كانت خدعةً من «السراج» ـ لكي يحوز على ثقة «عبد الناصر».. فيسلِّمه مقاليد الأمور الداخلية.. وكلّ صلاحيات الأمن بسورية ـ وهذا ما كان!

وحكم «السراج» سورية بعقلية رجل مخابرات، وليس بعقليَّة رجل حكم.. مما أثار نقمةَ الناس ـ وحتى المتحمِّسين للوحدة مع مصر ـ ممَّا دفع «القوتلي» لأن يروي لـ «عبد الناصر» قصَّة «الخوري» الذي كان يستبّد بأهل القرية الذين لم يعودوا يحتملونه.. ولمَّا لم يُصغِ لشكواهم رؤساؤهم الروحيُّون.. اعتنقوا الإسلام حتى يتخلَّصوا من سلطة «الخوري» الذي ذهب إلى «المفتي» وأسلم أيضاً.. وطلب تعيينه «إماماً» للقرية نفسها فعيّنه. وقال «القوتلي»:

وهذه حال سورية.. فقد هرب إليك أبناؤها ليتخلَّصوا من «أكرم الحوراني»، و«عبد الحميد السراج».. فرميتهم في حضن «الحوراني» و«السراج»..!

ويقول «محمد حسنين هيكل»، في كتابه: «ما الذي جرى في سورية؟»:

.... «وكان أحدهم، مثلاً، لغزاً غريباً وهو «عبد الحميد السراج».. يكتم في داخل نفسه أكثر مما يظهر للناس. ويريد أن يعرف كل شيء، ويمسك بأصابعه كلّ خيط! وكان في قلبه صراع عنيف بين المَثَل الوطني الأعلى.. وبين الرَّغبة في السلطة، والرَّهبة والسلطان. ولما كان، من غير شك، يريد «الوحدة».. ولكنه في الوقت نفسه، ومن غير شك أيضاً، يريد حكم سورية.. ولكن كيف السَّبيل»؟!

وتفاقم الوضع في سورية ـ التي أصبحت وكأنها مزرعة خاصة تستغلها فئات معينة من الناس! وامتلأت السجون بالأبرياء.. وأساءت تلك التصرفّات الرعناء.. إلى قِيَم الوحدة، وسمعتها وكيانها.

وكان لابدَّ من وضع حدٍّ لتلك التجاوزات.. فأصدر «الرئيس عبد الناصر» قراراً بتعيين حكومة موحَّدة للجمهورية العربية المتحدة. وعيّن «الحوراني» ورفاقه في القاهرة، وأرسل «عبد الحكيم عامر» إلى دمشق للبقاء فيها فترة توحيد الحكومة.

وأصدر قراراً بمنع توقيف أي شخص.. إلا بمذكرة قضائية، وعن طريق النيابة العامة. وعيّن مديراً جديداً للأمن العام ـ مما أثار حفيظة «السراج».. فاستقال من وزارة الداخلية. واستدعاه الرئيس «عبد الناصر» إلى القاهرة، وعيّنه نائب رئيس الجمهورية.. فرفض المنصب، وأصرّ على أن يكون وحده المسؤول في سورية ـ وإلا.. فلا!

ويقول «هيكل» في كتابه: إنّ «عبد الناصر» استقبل «السراج» خمس مرّات، استغرقت بمجموعها ما يقرب من عشرين ساعة.. وهو يحاول إقناعه لاستلام منصب نائب الرئيس.. فرفض ـ إلاّ أن يكون حاكماً لسورية.. وغير حكم سورية لا يقبل! وعاد إلى دمشق.. يدفع أعوانه وأنصاره للقيام بمشاغبات وأعمال تُخِلّ بالأمن.. حتى يُشعِر القاهرة بأنّ سورية دون «السراج» لا تستقر!!

وكان «الحوراني» وزملاؤه قد استقالوا دفعةً واحدة، وعادوا إلى دمشق».

* * *

في عهد الوحدة المنشودة.. أُلغيت الأحزاب السورية كلها ـ استجابةً للشرط الأساسي الذي اشترطه «عبد الناصر»، كما ذكرنا. ولم يبق في الإقليمين إلاّ حزب «الاتحاد القومي» الوحيد.. الذي كان قد تمّ تشكيله قبل ذلك في مصر.

وأُجريت انتخابات لعضويّة هذا الحزب في سورية.. ولم أشترك بها ـ لأني آثرت العزلة والابتعاد عن السياسة في تلك الفترة التي عُيِّن فيها «أكرم الحوراني» رئيساً لـ «المجلس التنفيذي»، و«عبد الحميد السراج» وزيراً للداخلية ـ وفي يده كل سلطات الأمن، والقضايا الداخلة في نطاقه!

وعُيِّن مدير منطقة جديد لصافيتا. وصرّح ذلك المدير، على مائدة خمر، أنه أُرسِل إلى صافيتا لمحاربة نفوذ «عبد اللطيف اليونس» ـ لكنّه أعلن أن من المحال محاربته.. لأنه يحترم نفسه، ويفرض احترامه على الآخرين.. وله خدمات كثيرة، وتقدير كبير في نفوس المواطنين. والحمد لله على نعمه وفضله.

لكنّ مدير المنطقة ذاك.. لم يُبدِ أيّ موقف سلبي تجاهي ـ بل على النقيض من ذلك.. كان يبدي نحوي تهذيباً وتقديراً ووداً. ولم يصدف أن دعوتُه مرةً إلاّ

ولَبَّى.. ولا زرتُه إلاّ ولقيتُ منه كل ترحيب. ومودّة.

وكذلك.. لم يصدف أن أحرجته مرّةً في أمر.. ولا تدخلتُ، بفترة وجوده، بقضيّة ذات صلة بسلطته. وصدق «زهير بن أبي سلمى»:

«وَمَنْ لا يكرِّم نفسه لا يُكرَّمِ».

* * *

خلال تلك الفترة... زرتُ الدكتور «عبد القادر حاتم»، وزير الإعلام، في القاهرة ـ وكنت على صلة دائمة به. وقد توطّدت العلاقة بيننا إبّان زياراتنا المتعاقبة للقاهرة.. وهو من أركان الثورة الذين كان يعتمد عليهم «عبد الناصر». ولا أغالي إذا قلتُ: إنه من أصدق وأطيب من عرفت في بلاد «الكنانة» ـ مصر.

وجرى التفاهم معه على أن أكتب تعليقات سياسية للإذاعة في دمشق، وقد حدّدها بثلاث مرات في الأسبوع: الجمعة، والأحد، والثلاثاء. وكنتُ أتابع الأحداث السياسية العربية والدوليّة.. وأكتب التعليقات حولها ـ مستمِداً ذلك من واقعها ومجرياتها، ونظرة «الجمهورية العربية المتحدة» إليها. وظللتُ أكتب تلك التعليقات وأذيعها ما يقرب من ثلاث سنوات. وكان لها أصداؤها الواسعة في القطر العربي السوري ـ أو الإقليم الشمالي ـ كما كانوا يسمّونه. وأحبطت المكائد التي كانت تحاك حولي.. والإشاعات المغرضة التي حاول بها ذوو النفوس المريضة أن يُلصقوا بي تهمة معاداة «الوحدة»، وعدم الإيمان بها، والإخلاص لها!

وطُلِبَ مني، في احدى زياراتي للقاهرة، إلقاء محاضرات، في الإذاعة المصرية، عن المغتربين العرب في أمريكا. فألقيتُ اثنتين وعشرين محاضرة.. جمعتهنّ بعدئذٍ في كتاب سميته «المغتربون».. وقد طبعته «دار العرفان» في بيروت سنة ١٩٦٤ ـ كما مرَّ بنا قبل هذا.

وكان صديقي «فؤاد الشايب» قد عُيِّن معاوناً لوزير الإعلام في القاهرة. وقد حرص على أن يذهب معي إلى «دار الإذاعة» كلّما ذهبتُ إليها. وقد عُيِّن بعدئذٍ مدير مكتب «الجامعة العربية» في بوينوس آيرس عاصمة الأرجنتين، وتوفي

فيها.

لقد كان مثلاً بالوفاء والنبالة والطِّيبة. رحمه الله.

* * *

كان الوضع الاقتصادي في سورية.. يختلف، من جميع جوانبه، عنه في مصر. فلم تكن سُبُل العيش متوازية.. وكذلك الرواتب والأجور، وسُبُل العمل والاتجار.

والإنسان ــ مهما سمت وطنيته، وبلغت تضحيته.. واشتدّ ايمانه، وعظم يقينه.. ومهما اندغم بمثله الأعلى، وأصبح جزءاً منه.. فإنّ شعوره نحو أسرته، وتفكيره بها، وبمستقبلها ومصيرها.. يظلّ له أثره في نفسه، وتفكيره وشعوره ــ وربما طغى، عند كثيرين، على أيّ اعتبار آخر، أو عاطفة أخرى. وهذا شيء بدهي.. لا ينال من سموّ الوطنيّة عند المواطن.. ومن جلالها ومثاليتها وقُدسيتها.

ولذلك.. كان الإقدام على «التأميم» في سورية.. أحد الأسباب الرئيسية التي أدّت إلى تقويض دعائم الوحدة.. وتبخُّر ذلك الحلم القومي الذي كان أمل الشعب العربي، وشعاره الدائم ـ وما يزال.

وكان.. إمّا أن ترتفع مصر إلى مستوى سورية ـ من حيث وسائل العيش، والحياة العامّة.. وهذا غير ممكن في زمن يسير! وإمّا أن تهبط سورية، معيشياً واقتصادياً، إلى مستوى مصر.. وهذا أيضاً غير ممكن ولا معقول. فعامل الزمن.. هو الأقوى أثراً، وأكثر تأثيراً وفعالية.

والشعوب.. ليست كالأفراد. فمن العسير ــ بل من المستحيل.. تغيير منهجها، وأسلوب حياتها، في جرّة قلم.. أو بيان يُتلى في محفل وإذاعة. وإنما هو عمل سنين طوال ـ ولا أقلّ.

وكان «شكري القوتلي» ـ كما سمعتُ منه.. يلفت دائماً نظر «الرئيس عبد الناصر» إلى هذه النواحي.. وإلى الأخطار التي تحيق بالحكم ــ من جراء بعض التصرفات الخاطئة! وقد حذّره من مغبّة التعرُّض للاقتصاد السوري ــ مؤكداً له، بأسلوبه الدمشقي المعروف ــ كما يقول هيكل ـ أنه ما دام هذا «الدكّان» مفتوحاً..

فإنك ترتاح من وجع الرأس.. والعكس بالعكس.

وطلب منه «عبد الناصر» مزيداً من الإيضاح.. فقال له:

إن ابن الشّام يهتمّ بوضعه، ووضع أسرته، إلى حدّ بعيد.. فإذا ضيَّقتَ عليه الخناق، وآذيته في أسباب معيشته.. فإنه يقف منك موقفاً غير سليم. وإذا لم تتعرّض له.. فإنه يبقى هادئاً ساكناً لا يأتي بأي عمل مسيء.

ويقول «هيكل»: إنّ «عبد الناصر» قال «للقوتلي» مرةً أخرى.

ليتك أخبرتني بهذا.. قبل إقرار الوحدة ـ إذن لكان لي موقف آخر.

ولكنّ «عبد الناصر» ـ مع الأسف.. كان قد استسلم لمعاونيه، وترك لهم حرية تصريف الأمور في سورية ـ وبعض أولئك.. يفتقر إلى النظرة الجادّة البعيدة المدى!.

* * *

شخص عادي مصري.. عُيِّن مدير المصرف الزراعي بصافيتا ـ البلد الذي يمتاز بوعي أبنائه، وثقافتهم وسموّ مداركهم.. وهو بعد أن رحل وولّى.. وُجِدَ بمكتبه مسودة رسالة بعثها لوالدته.. يقول فيها:

تصوّري يا أمي.. الناس، في البلد الذي أنا فيه، لا ينادونني إلا: «بيك»!!

وهو بتلك «البيكويَّة»، والمناداة العشوائية، كان يرى نفسه فوق مدير المنطقة، وربما فوق المحافظ! ووُجِدَ انتهازيّون.. استغلّوا فيه هذا الشعور المضحِك، وغذّوه، وتغذّوا منه!!

أليس هذا.. من الأمور المضحكة. والباعثة على الهزؤ والسخرية؟!

وأمثال هذا «البيك» المزيَّف.. كانوا كثيرين. وكانت الأخطاء الماثلة.. لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى! ودفعت «الوحدة»، من كيانها وواقعها، ثمن تلك الأخطاء.. والانحرافات والتّصرُّفات!

وضاع الإيمان القومي، والجهود التي بُذِلَتْ في سبيل ظفره، في خِضَمّ الجهالات والأنانيّات.. وسوء التصرّف والتقدير!

وعلى ذكر الألقاب.. فنحن في بلادنا فنانون بتنويعها وتوزيعها، وأعود لذكر

هذه الواقعة. كنتُ مرةً.. في قرية «الجريمقية»، التابعة للاذقية، بزيارة النائب، والوزير السابق «أسعد هارون»، وسمعت أحد الفلاحين يناديه «أسعد آغا»! فقلت له: ما هذا؟ يبدو أنك هنا «آغا»! فقال لي:

يا أخي: أنا مشكلتي باللقب مشكلة.. فأنا في دمشق «بيك»، وفي اللاذقية «أفندي»، وفي الجريمقيَّة «آغا»!

ومهزلة الألقاب.. كانت في الأردن بعهد «الملك عبد الله».. الذي كان يمنح لقب «باشا» للناس العاديين.

ومما يُروى عنه.. أن صحفيين لبنانيين زاراه في عمان. وبعد فترة طويلة من الانتظار.. جاء رئيس الديوان بمغلَّفين كبيرين قدَّمهما لهما قائلاً: الملك.. أنعم على كلٍّ منكما بلقب «باشا»، ووضع لكما في البنك ٥٠ جنيهاً. فقالا له: نرجو أن تضعوا «الباشا» في البنك.. وتعطونا الجنيهات!

وأعرف شخصاً كريماً ـ لا أريد ذكر اسمه ـ حصل على هذا اللَّقب.. بموجب رسالة أرسلها إلى «الملك عبد الله»، ووضع إلى جانب إمضائه «باشا». فجاءه الجواب من الملك: «فلان.. الباشا». وهكذا أصبح باشا ـ دون أن يدفع شيئاً ـ سوى طابع البريد!

ومرةً.. كان «تامر بن إسبر باشا بشور» في مكتب مدير منطقة صافيتا، وجاء ضابط مصري كبير، مكلَّف بموضوع «الإصلاح الزراعي»، سأل «تامر»، حين علم أنه ابن «باشا»، كم أخذ الإصلاح الزراعي من أملاكه.. فقال له: لا شيء ـ لأنه لا توجد عندي أراضٍ زيادة عن المسموح به.. فقال له المصري: ابن «باشا».. ولا توجد عندك أملاك واسعة! فقال له «تامر»: عندنا يُعطى لقب «باشا» للشرف، للأخلاق، للكرامة، للاسم الكريم.. أما عندكم في مصر.. فيُعطَى للأراضي والممتلكات! وبلع المصري ريقه، وغادر القاعة.

* * *

كانت الديون، في تلك الفترة، قد تراكمت عليَّ بشكل رهيب ومخيف.. وكنتُ أرزح تحت أعبائها وحدي. وكان أصدقائي مديري المصارف الأربعة التي كنتُ

أستدين منها: البنك السوري اللبناني، البنك العربي، بنك انترا، بنك اللاذقية. وكان كلّما استحقّ سند أستبدل به آخر، وأدفع الفائدة، فيؤجّل المبلغ أشهراً أخرى ـ وهكذا دواليك.. وبقيتُ على هذا النحو.. إلى أن أُمِّمت المصارف في سورية، كما جرى في مصر. وأصبح الموضوع بالنسبة لي شائكاً وعسيراً ـ لأنّ مديري البنوك في سورية.. لم تعد لهم صلاحيات كالسابق، وإنما أصبحوا مرتبطين مباشرةً بالقاهرة.. وكل دين، أو تأجيل دين، يجب أخذ موافقة المركز الرئيسي في القاهرة أولاً!!

وأخبرني أصدقائي مديرو البنوك ـ وفي طليعتهم «بطرس مقنّص» مدير عام البنك السوري اللبناني، وكان من أصدقائي الخُلّص، رحمه الله ـ أخبروني بأنه لم يعد باستطاعتهم مساعدتي وإمهالي كالسابق، وأنّ عليّ أن أتدارك أموري بوسائل أخرى! فاضطررتُ للاستدانة من «حسن السيد» مبلغ (٤٥) ألف ليرة سورية.. وقد أصرّ، رغم الصداقة الوثيقة التي كانت بيننا، على أن أرهن له بيتي، في صافيتا، بالدوائر العقارية! كما استدنت من «المصرف الزراعي»، في طرطوس وصافيتا، ومن الصديق «توفيق دانيال».. الذي كان، وأنجاله، من خيرة من يُعتمَد عليهم في الملمّات. وقد جمعتُ حوالي ١٢٠ ألف ليرة سورية دفعتُها للبنوك، وتخلّصتُ من ديونها، وخطر ملاحقتها ـ كما فعلتْ مع كثيرين، وحجزتْ أملاكهم، وطرحتْها في المزاد العلني ـ وفي طليعة هؤلاء «شكري القوتلي» الذي استقال من رئاسة الجمهورية في سبيل تحقيق «الوحدة». وقد اندفع أمير الكويت الرّاحل فسدّد ديونه للبنوك، واستوفى مقابل ذلك قصره، وقطعتيْ أرض له في شارع «أبو رمانة».

كانت تلك الفترة، وما بعدها، من أقسى ما مرّ عليّ في حياتي! ومع ذلك.. فإني لم أشعر بعاطفة أحد، ولم تمدّ إليّ يدٌ من أيٍّ كان ـ وأنا في أشدّ حالات العوز والحاجة والضّيق!

اللهمّ.. ما عدا ابنتيّ «أمل» و«سميّة» ـ فقد اطّلعتا صدفةً على رسالة أحد مديري البنوك. أجل.. اطلعتا صدفةً ـ إذ ليس من عادتهما، ولا عادة

والدتهما، أن يطلعن على أية ورقة تخصّني دون علمي. ولكن مجيء رسائل متعاقبة من البنوك.. دفعهما لأن تطلّعا على إحداهُنّ. ومن تلك الرسالة.. علمتا مدى المتاعب المادية التي يعانيها أبوهما، ويرزح تحتها ـ ولا مسعف ولا معين. فجاءتا بما في حوزتهما، وحوزة أمهما، من حليٍّ ذهبيّة.. وضعتاها بين يديَّ. على أن أبيعها، وأسدِّد بثمنها قسماً من ديوني. ولم أستطع إقناعهما، وايقاف مجرى دموعهما.. إلاّ بعد عناء وجهد.

وقد علمتُ، فيما بعد، أنهما كانتا ـ من وقت لآخر.. تبيعان قطعة ذهبية، وتنفقان ثمنها في البيت، دون علمي.

بارك الله.. بالبنوّة الكريمة الرّحيمة ـ ما أطيبها، وأحلاها وأغلاها!

ونظراً لوجودهما ـ ومعهما، بل قبلهما، «عائدة» بنت أختي «زينب».. فإني لم أشعر بفراغ في حياتي دون ولد ذكر.

وأعترف، أمام الله، وأمام القُرّاء، بأن ابنتيّ البارّتين هاتين.. ليستا أعزّ عندي، ولا أغلى، من بنت أختي «عائدة».

فهي مثلما ـ إن لم تفقهما: محبّةً وعاطفةً وحنوّاً. وقد اقترنتْ سنة ١٩٧٢ بابن عمها الأستاذ «أحمد الأحمد» الذي هو مثال الطيبة والنُّبالة والخلق الكريم. وحياتهما، بنعمة الله، مثاليّة بصفاتها ونقائها وهنائها. وقد أنجبا ثلاثة أبناء: محمد، وعدنان، وزينب، حفظهم الله ـ وهم في «الجامعة» متفوقون على أقرانهم بفضل الله.

و«أحمد» يتّسم بالجديّة والواقعيّة. وهو نجل شاعر الأمة العربية الكبير «بدوي الجبل» ـ الذي كان بيته ملتقى أرباب الوجاهة والسياسة، ومحجّة لأرباب الأدب والفكر.

* * *

في تلك الفترة، سنة ١٩٦٠، اقترنتْ ابنتي الكبرى «أمل» بنسيبها المربّي المعروف «ابراهيم يونس» ـ وهو نجل خالي العالم والشاعر «الشيخ يوسف ابراهيم»، قاضي الشرع، وأحد وجهاء أسرتنا المرموقين.

وقرين «أمل» خريج «كلية الآداب» في جامعة دمشق، وهو يتمتّع بحافظة عجيبة.. إذ أنه يحفظ قسماً كبيراً من الشعر الجاهلي، والشعر الأموي والعباسي ـ فضلاً عمّا يحفظه من شعراء العصر الحالي. وموهبته الأدبية الرائعة لم يستثمر إلا في أسلوب التّدريس، وما يتصل به. ومما يعجبني من شمائله.. أنه صادق مع غيره ـ صدقه مع نفسه.. وأنه مستقيم بتعامله مع الآخرين ـ استقامةً قلّ مثيلها، وندر شبيهها. وهو موضع ثقة وتقدير.. ندر من يتمتّع بمثلهما في هذا المحيط.

وجرى لـ «ابراهيم» و«أمل» عرس حافل.. لم تشهد «منطقة صافيتا» مثيلاً له منذ زمن طويل. وقد دعي للاحتفال بزواجهما أهالي ١٤٦ قرية ـ ٩٦ منهما في دارنا بـ «صافيتا»، و٥٠ بمنزل والد العريس في قريتنا «بيت الشيخ يونس».. هذا عدا عن المدعوين الكرام من أبناء مدينة «صافيتا» نفسها.

وكانت حديقة منزلنا الواسعة في «صافيتا» ـ وهي تزيد على ثلاثة آلاف متر مربع ـ لم تغرس بعد، ولم تُسَوَّرْ. فأقيم فيها سرادق واسع.. صُفّت فيه أربع موائد ـ كل واحدة منهن تتّسع لأربعين شخصاً. وظلّ المدعوون يغدون إلى الموائد.. من الساعة ١٢ ظهراً إلى ما بعد الساعة ٦ مساءً. وكل هذا من نِعَمِ الله وفضله.

وأنجب «ابراهيم» و«أمل» خمسة أبناء ـ هم: «ماجد»، و«حسام»، و«رامي»، و«رُبَى»، و«نزار». أما الثلاثة الأوّلون: «ماجد» و«حسام» و«رامي» فقد حصل كل منهما على شهادة الهندسة. والأخيران: «رُبى» و«نزار» ما يزالان طالبين في الجامعة ـ وهما في السنة الأخيرة ومن الطلاّب المتفوقين بفضل الله. أمّا «المهندس ماجد» فقد اتجه للأعمال الحرة. والمهندسان «وسام» و«رامي» فهما يعملان في وزارات الدولة بمراكز مرموقة.

وابنتي «سميّة».. اقترنت بـ «الدكتور محمود السيد» ـ بعد أن نالت شهادة الحقوق، وعملت في المحاماة. وهي الآن مفتشة مرموقة في مديرية التفتيش بدمشق. وهي، كشقيقتها الكبرى «أمل»، كاتبة مبدعة لها أسلوبها الرائع، وبيانها المشرق.

وقرينها «الدكتور محمود السيد».. هو بمستوى عالٍ من العلم والثقافة وسعة الإطلاع، وقد أجمع عارفوه، في الوطن العربي، على تقدير أدبه وعلمه واطلاعه الواسع. وثمة عدد من الجامعات العربية، وبعض المؤسسات الدولية، تطلب منه باستمرار بحوثاً وأحاديث. كما أن بعض كتبه التربوية ـ وهي بضعة عشر ـ يُدرَّس في عدد منها.

وعندما انتُخِبَ مديراً لـ «ادارة التربية» في «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم»، جاء في العدد الرابع من النشرة الاخباريّة الصادرة عن «المنظمة» عام ١٩٩٢ ما يلي:

«انضمَّ مؤخَّراً إلى أسرة «المنظمة» بـ «تونس» مدير جديد لإدارة التربية «الدكتور محمود أحمد السيد»، عميد «كلية التربية» بـ «جامعة دمشق». و«الدكتور السيد»، شخصيَّة علمية وتربوية عربية بارزة، سبق له أن تقلد عدداً هاماً من المسؤوليات التربوية والعلمية. كما شارك في عدد كبير من الندوات والمؤتمرات التربوية. وهو عضو عامل بعدد كبير من اللجان التربوية ببلاده في الوطن العربي. كما أشرف على عدد هام من الوسائل العلمية».

وقد اُقترنت بنتي «سمية» بـ «الدكتور السيد» وأنا في البرازيل. ورفضا أن يقام لهما عرس حافل ـ لأني غير موجود، وأصرَّا على أن تقتصر حفلة زواجهما على عدد محدود من الأصدقاء والأنسباء. ولكن الأنسباء والأصدقاء الكرام رفضوا إلا أن يكون عرساً حافلاً ضخماً ـ وهكذا كان. وقد أنجبا أربعة أبناء: «شذا» و«رفيف» و«رنوة» و«بيان». وقد تخصصت «الدكتورة شذا» بالطب الداخلي، و«رفيف» بالاقتصاد وادارة الأعمال، و«رنوة» بالصيدلة، و«بيان» هو الآن من طلاَّب «كلية الطب» الموهوبين.

وابنتي «سمية».. هي أول فتاة مارست مهنة المحاماة في محافظة طرطوس، ومن العشرة الأوائل اللواتي مارسنها منذ عام ١٩٦٥.

وما أحسب فتاةً، في المحيط كله، كثر طالبوها، والرَّاغبون في الاقتران بها مثل بنت أختي «عائدة»، وابنتيَّ «أمل» و«سمية» ـ لأنهنَّ، بفضله تعالى ـ قدربين

تربيةً كريمة، ونهجن منهجاً شريفاً.. وسرن على طريق الطّهارة والفضيلة من طفولتهن.

ولابنتيّ «أمل» و«سمية» موهبة بالكتابة والنقد الأدبي. وتُعْنَيان بالقصّة. وأسلوبهما في غاية الرّقة والنعومة والسلاسة ولو تستمرّان بالكتابة.. فسيكون لهما، في عالم الأدب شأن ـ وأي شأن. وحينما كانتا تنشران في جريدتي «الأنباء» التي أصدرتُها في البرازيل، و«الوطن» التي أصدرتُها في الأرجنتين، قصصاً قصيرة، ومقالات وتعليقات أدبية.. كان الناس يقبلون على قراءتها، وبعضهم يرسل لهما هدايا نفيسة ـ تقديراً لأدبهما، ويراعتيهما الموهوبتين.

وبنت أختي «عائدة» ـ هي مثلهما ـ إن لم تفقهما. ولكنها انصرفت عن اليراعة إلى علم الصيدلة وتفرّغت له، ولها شأن ملحوظ في علم الصيدلة وما يتعلق به. وهي من سيدات المجتمع المرموقات.

* * *

في النصف الثاني من شهر أيلول سنة ١٩٦١ تلقيتُ دعوة من أمين عام «الجامعة العربية»، «عبد الخالق حسّونة»، يطلب مني الذهاب إلى القاهرة للاجتماع به، والتحدّث في موضوع تعييني مدير مكتب «الجامعة العربية» بالأرجنتين.

وسبب طلبه.. أنّ «القوتلي» كان كلّما اجتمع بـ «عبد الناصر» يشكو له الوضع المتردي في سورية.. ويحذّره من سوء العاقبة. ومرةً.. قال له «عبد الناصر»:

لماذا لا يُثير النواب السوريون هذه المواضيع في «مجلس الشعب».. وأنا دائماً أُعلن بأنّ على النواب أن يرفعوا أصواتهم بالنّقد.. لكل ما يرونه مخالفاً للخطّ الذي رسمناه من أجل الإنعاش الاقتصادي، وصيانة الحريات العامّة؟. ثم قال له:

صاحبك «عبد اللطيف اليونس».. الذي حدّثتني عنه أكثر من مرة.. هو، فيما أعرف، خطيب وجريء.. فلماذا لا يرفع صوته وينتقد، ويذكر هذه الوقائع التي

تذكرها لي ـ من حيث التجاوز، واضطهاد الحريّات، وما أشبه؟ لماذا لا تطلب منه هذا؟

فقال له «القوتلي»: ولكنْ.. هل اخترتَه بين النواب السوريين الذين اخترتَهم أعضاء لمجلس الشعب؟

فقال له «عبد الناصر»: «الله.. دا ـ يا أخي.. هو موجود في المجلس».

فابتسم «القوتلي»، وقال له: «آسف أن أقول لك.. إنه غير موجود».

والمرحوم «فؤاد الشايب».. هو الذي روى لي ما جرى عن لسان «القوتلي»، وقال لي: إنَّ «القوتلي» أخبره بأنَّ «عبد الناصر» قد اكفهرَّ وجهه، وقال له:

صحيح.. لقد فوَّضتُ «أكرم الحوراني» و«عبد الحميد السراج» باختيار النواب السرويين لمجلس الشعب ـ نظراً لإلحاحهما الشديد، وإصرارهما على أن يكون اختيار النواب بواسطتهما. ولم يخطر بذهني إلاَّ أنَّ صاحبك «عبد اللطيف» بين الذين اختاروهم.. لأني أعرف أنه من النواب المرموقين.

ونقل لي المرحوم «الشايب»، عن لسان «القوتلي»، أنَّ التأثُّر قد بدا فعلاً.. على وجه «عبد الناصر».

وبعد فترة وجيزة، من حديث «القوتلي» مع «عبد الناصر»، تلقَّيتُ دعوة أمين عام «الجامعة العربية». وكان قد سبق التحدث مع «القوتلي»، قبل ذلك، عن هذا الموضوع.

وذهبتُ إلى مصر.. واجتمعتُ بـ «عبد الخالق حسُّونة»، أمين عام «جامعة الدول العربية»، وعرض عليَّ منصب مدير مكتب «الجامعة» في الأرجنتين. وتمَّ الاتفاق على أن أعود في اليوم الثاني لاستلام قرار التعيين، والاجتماع مع مديري المكاتب لأخذ التعليمات اللازمة منهم.

وباليوم نفسه.. زرتُ «الدكتور عبد القادر حاتم»، وزير الاعلام المصري، وأطلعته على خبر التّعيين.. وبدا لي أنه على علم به ـ لأنه لم يُفاجأ بالنبأ.. فتمنّى لي التّوفيق، وطلب أن نظل على صلة ببعضنا.

وصباح اليوم الثاني.. فاجأتنا الاذاعات العالميَّة بحصول انقلاب عسكري في

دمشق.. ضدّ الوحدة!!

* * *

كان «الرئيس عبد الناصر». قد عيّن «المشير عبد الحكيم عامر»، وزير الدفاع المصري، مشرفاً على السلطة التنفيذيّة في سورية ـ بعد إقصاء «أكرم الحوراني».. ونقله إلى القاهرة، وتعيينه نائباً لرئيس الجمهوريةّ.. لكنه ما لبث أن استقال، وعاد إلى دمشق، كما ذكرنا.

ولم يكن «المشير عامر» بمستوى المسؤوليّة الكبيرة الملقاة على عاتقه! وقيل إنه كان مدمناً على الحشيش، وما يتبعه من تصرفات غير كريمة، ولا سليمة!

وكانت الأحوال قد ساءت وتردّتْ إلى أقصى حـدّ.. فصدر مرسوم بنقل «عبد الحميد السراج» إلى القاهرة.. نائباً لرئيس الجمهورية ـ لكنه أيضاً رفض المنصب ـ كما مرَّ بنا ـ وأبى إلاَّ أن يظلَّ الحاكم في دمشق التي عاد إليها. وشرع أعوانه، ورجال مخابراته، يملؤون البلد دعايات وإشاعات، ومشاغبات واضطرابات!

واغتنم الفرصة بعض ضباط الجيش، من أبناء دمشق، وبدؤوا التّحرّك للقيام بانقلاب ضد «الوحدة» ـ مدفوعين من أصحاب «الشركة الخماسيَّة» والمؤسسات السورية المُؤَمَّمَة!

وكان «العقيد عبد الكريم النحلاوي»، مدير مكتب «المشير عامر»، هو المخطِّط والموجِّه للانفصال، وقد جاء في مذكرات «اللواء راشد كيلاني» ما يلي:

«أمَّا الضبَّاط الذين اشتركوا معه بهذه الحركة.. والذين تألَّف منهم مجلس قيادة الثورة فهم ـ بالاضافة إلى المقدَّم «عبد الكريم النحلاوي» ـ العمداء: موفّق عصاصة، عبد الغني دهمان، فيصل سري الحسيني، محمد منصور، بدر أعسر، زهير عقيل، سمير جبور، نور الله حاج ابراهيم. والمقدَّمون هم: حيدر الكزبري، فخري عمر، هشام بعد ربه، مهيب هندي».

وحينما أعلن عن الحركة الانقلابيَّة بصورة مفاجئة.. طلب «عامر» من القطعات الرئيسية المؤيدة.. أن تتحرك فوراً، وتزحف إلى دمشق لخنق حركة

العصيان. وبعد فترة وجيزة.. اتصل بهم «عبد الكريم النحلاوي»، باسم «المشير عامر، وطلب منهم التّوقّف عن الزّحف ـ لأن مباحثات ومفاوضات تجري لانهاء القضية بسلام! وهكذا تجمّدت القطعات الموالية في أمكنتها.. والبيانات الخادعة تصدر باستمرار.. حتى تمّ تجمّع المنشقّين في دمشق، واستولوا على الإذاعة، وضربوا حصاراً حول الأركان.. وتمّ ترحيل «المشير عبد الحكيم عامر» بطائرة خاصّة إلى القاهرة. كما أُعيد إلى مصر آلاف الموظّفين المصريين، ومئات الضباط الذين كانوا في سورية، وعاد الضباط السوريون من مصر إلى سورية».

وأصدر «عبد الناصر» أوامره إلى قوة مظليّة بالتوجه إلى سورية ـ على أن تتبعها قوات تُرسل عن طريق البحر. وكان قائد المنطقة الساحلية موالياً لمصر، ولكنه أخيراً انضمّ وجيشه إلى جيش الانقلاب في دمشق.. فصدرتْ إليه الأوامر باعتقال المظليين المصريين وقائدهم، وإعادتهم على نفس الطائرة التي هبطت بهم في مطار «حميميم» القريب من مدينة اللاذقية. وحينئذٍ اضطرّ «عبد الناصر» للعدول عن إرسال قوة بحرية. وأعلن في ١٩٦١/١٠/٣ أنه لن يستعمل القوة لإعادة الوحدة. وأعلن بعد أيام أنه لن يمانع بعودة سورية إلى «جامعة الدول العربية»، وإلى «هيئة الأمم المتحدة».

وكان «المقدم حيدر الكزبري» هو قائد قوى البادية التي زحفت إلى دمشق، وحاصرت الأركان، واستولت على المراكز العامّة. وعُيِّن نسيبه «الدكتور مأمون الكزبري» رئيساً للوزارة.. التي اختير أعضاؤها من مؤيِّدي الانفصال، وهم:

ليون زمريّا، عدنان القوتلي، فرحان الجندلي، عزّة النّص، عوض بركات، نعمان الأزهري، أمين ناصيف، عبد الرحمن حوريّة، أحمد سلطان، فؤاد العادل، بكري قبّاني.

وصار «حيدر الكزبري» يصدر الأوامر والتوجيهات، بصفته زعيم الانقلاب، مما لم يرق لـ «النحلاوي» وأعوانه.. فتآمروا على «الكزبري»، وزعموا أنّ بعض الموقوفين في «سجن المزة».. لا يدلون بمعلومات هامّة إلاّ له شخصياً. وبهذه الحيلة.. ذهبوا به إلى «سجن المزة».. وما أن أصبح داخله حتى أُغلقت

الأبواب دونه، وأصبح من السجناء. وحينئذٍ أخرجوا نسيبه «الدكتور مأمون الكزبري»، وحلّ محله «عزّة النّص».

وعُقِد مؤتمر في دمشق ـ من «حزب الشعب»، و«الحزب الوطني»، وبعض المستقلين، اجتمع فيه ٥٠ شخصاً كرّسوا الانفصال، وقرّروا عودة سورية دولةً منفردة.. لها كيانها الدولي والعربي. وحدّدوا موعداً لإجراء انتخابات نيابية بعد أربعة أشهر في ١ ـ ١٢ ـ ١٩٦١.

وكان أعوان «عبد الحميد السراج»، وعناصر مخابراته، قد حسبوا أنه هو رجل الانقلاب.. فحملوا صوره، وطافوا بالشوارع وهم يحيّونه، ويهتفون له!

وما أن علم رجال الانقلاب الحقيقيون بذلك.. حتى سارعوا لاعتقال «السراج» وزجّه في سجن «المزة» ـ الذي كان يزّج فيه الناس، ويمتهنهم ويعذّبهم! ولكنّ عناصر مخابراته كانوا هم المشرفين على السجن.. فسهّلوا له الهرب منه.. حيث تمكّن من الخروج والتّسلل إلى الحدود اللبنانية، ومنها إلى القاهرة.. وهناك ارتمى على أقدام «عبد الناصر» وهو يبكي.. فعيّنه معاون مدير أحد البنوك. وكان قبل «الانفصال»، بفترة وجيزة، قد عيّنه نائب رئيس الجمهورية، كما مرّ بنا، فرفض ذلك المنصب الكبير، وأباه ـ لأنه كان يطمح لأن يظلّ حاكم سورية المطلق! ولكنه أخيراً.. قنع بمنصب معاون مدير بنك!

في اليوم نفسه ـ الذي قام فيه ضباط سوريون بالانقلاب على الوحدة.. وصل إلى الفندق الذي كنتُ أحلُّ فيه بالقاهرة.. سكرتير «الدكتور عبد القادر حاتم»، وزير الاعلام المصري، طالباً مني الذّهاب إلى مكتب الوزير لمقابلته.. فذهبتُ معه. وهناك أبلغني رغبة الرئيس «عبد الناصر» بالذهاب إلى جنيف لمقابلة «الرئيس شكري القوتلي»، حيث كان يوجد وقتئذٍ، والحصول منه على تصريح يشجب الانفصال، ويعلن تمسّكه بالوحدة. وقال لي:

إنّ طائرة مسافرة إلى سويسرا ستحطُّ في مطار القاهرة الساعة الثانية بعد الظهر، وقد حُجِزَ لك مقعد فيها.. وإنّ عليك أن تتهيّأ للسّفر حالاً.

وأخذ جواز سفري لإرساله إلى السفارة السويسرية، والحصول منها على

التأشيرة المطلوبة.

وعدتُ إلى الفندق لتهيئة أمتعتي، وانتظار جواز السفر، والسيارة التي ستقلُّني إلى المطار.

وقبل الساعة الواحدة، بعد الظهر، اتصل بي «الدكتور حاتم» هاتفياً، وأفادني بأنه لم يعد ثمة موجب للسَّفر ـ لأنَّ «القوتلي أصدر بياناً بتأييد الانفصال»!

وجزعتُ للنّبأ، وتألمتُ أشدَّ الألم ـ إذ ليس من المعقول أن يتنكّر على «الوحدة» من يُطْلَق عليه اسم «بطل الوحدة».. وأن يؤيِّد الانقلاب ضدَّها، ويدعم من تنكروا لها، وخرجوا عليها!

شيء لا يُقِرُّه منطق، ولا يصدِّقه عقل. ولكنَّ «الدكتور حاتم» سمع النبأ بالإذاعة، وتأكد منه، وأكّده.

وتساءلتُ بيني وبين نفسي: هل امَّحت العقائد، وضاعت المبادىء، وتلاشت القيَم؟! وهل من المعقول أن ينكر المرء ماضيه، ويتنكّر لنفسه ولعقيدته؟!

وأعترف.. بأنَّ نبأ «الانفصال الصَّاعق».. لم يكن أكثر إيلاماً وإيذاءً من أن يقال إن «شكري القوتلي» قد أيَّده وأقرَّه.. وهو الذي استقال من رئاسة الجمهورية لأجل تحقيق الوحدة. ولولا أنه استقال حينذاك ـ لما كانت ثمّة وحدة بين سورية ومصر.. وهذا شيء يعرفه الجميع، ويعترفون به.

وأعود لتكرار ما قلته سابقاً.. من أنني كنت من أنصار «الاتحاد» مع مصر ـ وليس «الوحدة».. وهذا ما أبديته وطالبت به. ولو كان ما حصل «اتحاداً».. لكان بقي إلى الآن ـ لأنه يبقي لكل بلد شخصيته، وأسلوبه الذاتي بالحكم. ولكن ما حصل.. قد حصل.

* * *

خلال الأشهر الأخيرة من عهد «الوحدة».. جرى انكماش بين «القوتلي» و«عبد الناصر». ويعود سبب ذلك الانكماش.. إلى صدور قرار بتأميم ممتلكات «فايز العجل»، زوج احدى كريمات «شكري القوتلي»، وقنصل سورية الفخري في الاسكندرية قبل الوحدة.

وحينما يزور «القوتلي» القاهرة، كان يستضيفه «عبد الناصر» في «قصر القُبّة» الرسمي، المخصص للملوك والرؤساء. وفي الاسكندرية.. كان يحلّ في منزل صهره «العجل» ـ الذي شملته قرارات «التأميم» بعد ذاك. وقد اعتبر «القوتلي» تأميم بيت بنته وصهره إساءةً شخصيةً له.. وتأثّر من ذلك التّصرّف تأثيراً عميقاً!

ولكنّ عقيدة الرجل المؤمن.. يجب أن لا تتأثّر بالأمور المادية، ولا تأبه لها. فالإيمان القومي.. هو فوق مستوى المصالح ـ مهما علا شأنها وقدرها.

هذا.. ما قلته لـ «شكري القوتلي» ـ عندما زرتُه في سورية، بعد عودته إليها.. وقلتُ له:

لقد كتبتُ كتاباً عن حياتك.. وهو في طليعة الكتب التي ألّفتُها. وقد يُعاد طبع هذا الكتاب.. ولابدّ من أن آتي في الطبعة الجديدة على ذكر «الجمهورية العربية المتحدة»، وما آلت إليه. فكيف أبرّر تأييدك «الانفصال» ـ وأنت بطل «الوحدة»؟ فلولا استقالتك من رئاسة الجمهورية السورية.. لما كان مقدّراً للوحدة، بين سورية ومصر أن تتم، فقال لي:

أنا لم أُؤيّد الانفصال مطلقاً ـ ولن أؤيده أبداً. ولكن إليك ما جرى:

كنتُ مريضاً في المستشفى بمدينة «جنيف» السويسرية، ورنّ جرس الهاتف قرب سريري، فتناولته «أم حسان» زوجتي.. وإذاً بالمتحدث هو «الدكتور مأمون الكزبري»، رئيس الوزارة التي عيّنها من قاموا بالانقلاب، وطلب أن يتحدّث معي، وناولتني «أم حسان» سمّاعة الهاتف. وسألني «الكزبري» عن صحتي، وتمنّى لي الشفاء، فشكرتُه. وقال لي:

الإخوان كلهم يقدمون لك تحياتهم وتمنياتهم بسرعة شفائك، فقلتُ له: سلّمْ لي عليهم، واشكرهم نيابةً عني. وقال «القوتلي»:

أؤكّد لك.. أنّ هذا هو ما جرى.. ولم يرد ذكر الانقلاب، والإنفصال، ولا أيُّ موضوع سياسي على الإطلاق. وقد استغلّ الانقلابيون موضوع المخابرة ـ وهو مالا علم لي به أبداً، وأردف قائلاً:

أنا عاتبٌ كثيراً على «عبد الناصر».. فقد كان عليه أن لا يستسلم للأمر الواقع ـ بأيّ حال من الأحوال. وهل إذا طلبت «الاسكندرية» الانفصال عن القاهرة فوافق على ذلك؟ إنّ وضع سورية، في «الجمهورية العربية السورية»، مثل وضع الاسكندرية تماماً؟ وقال: لقد سلّمتُ «عبد الناصر» أمانة لم يحافظ عليها مع الأسف.

هذا ما قاله «شكري القوتلي».. أنقله عن لسانه بكل أمانة ودقّة ـ تاركاً للتاريخ، وحده أن يستنبط الحقيقة والواقع.. ويحكم.

ولكنْ.. في يقيني أن «عبد الناصر» استعمل منتهى الحكمة والرَّويّة والتّعقل، وذلك باستسلامه للأمر الواقع.. وعدم تعريض البلاد لمجازر رهيبة ـ لا تُدْرَك نتائجها الوخيمة.. ولا تُعْرَف.

وفضلاً عن ذلك.. لو أنه أرسل جيشاً مصرياً إلى سورية لكانت تدخّلت بعض الدول المجاورة التي تكنُّ عداءً مخيفاً لمصر وسورية معاً ولاغتنمت اسرائيل الفرصة لتنفيذ مخططها الجهنمي.

لقد كان «عبد الناصر»، في موقفه ذاك، حكيماً وواقعياً ومخلصاً.

* * *

بعد أن حصل «الانفصال».. صرتُ في موقفٍ حرج جداً ـ إذ ليسَ من السَّهل مراجعة مكتب «الجامعة العربية».. وقد جرى ما جرى في سورية.

وحرتُ في أمري! وأخيراً صمّمتُ على العودة إلى دمشق ـ بعد أن سمحت السلطات المصرية للسوريين، الموجودين في مصر، بالعودة إلى بلادهم. وأمّا من أراد البقاء منهم.. فقد بقي. والنواب الذين آثروا البقاء في القاهرة.. ظلّوا يتقاضون راتبهم من الخزينة المصريّة.. طوال السنوات التي بقوها، بعد ذلك، في مصر.

وكنتُ أشرتُ، قبل هذا، إلى أنني بعد قيام «الوحدة» كنت معلّقاً سياسياً في إذاعة دمشق. ولمّا حصل الانفصال.. انهالت الأقلام المريضة بالسِّباب والشّتائم على أنصار «الوحدة» ومؤيّديها! وبدأت تتناول «عبد الناصر» نفسه، ولا

ترعوي! وبدأ المشرفون على الإذاعة.. يخفون أسماء المذيعين.. حتى لا يتعرَّوا لنقمة الجماهير الغاضبة لحصول الانفصال.

وكان من البداهة.. أن أمتنع عن إلقاء تعليقات سياسية.. وأن أبتعد عن دار الإذاعة كلّياً ـ رغم إلحاح صديقي «نسيب الاختيار» مدير قسم التعليقات السياسيَّة، رحمه الله.

حينما حُدِّد موعد الانتخابات الجديدة.. اتّصل بي الصديق «رياض عبد الرزاق»؛ وبحث معي موضوع التفاهم مع «منير العبّاس».وكان صديقنا «العقيد حسن الخير».. يتبنّى هذا الموضوع، ويبحثه باستمرار.

ولأوّل مرة.. اجتمعتُ بـ «منير العباس»، وأخيه «شوكة» في منزل «رياض» بدمشق وجرى البحث بموضوع اتفاقنا معاً.. ودخولنا الانتخابات جبهة واحدة، وبلائحة واحدة. وأبدى كلٌّ منّا رغبته بذلك ـ كي نضع حداً للخلاف المستشري.. والذي يشكو منه أنصارنا، المنتشرون في سورية وأمريكا، ويتبرّمون ويتذمّرون.. ويودون إنهاءه، وفتح صفحة جديدة من الوئام والوفاق مكانه.

ولكنَّ موضوع المرشح المسيحي.. وقف عائقاً في الطريق. فقد أصررتُ على أن يكون «رفيق جبرائيل بشور» هو المرشّح. وطلب «منير» أن يكون القاضي «أنيس بشور»، عضو المحكمة العليا السابق هو المرشح، ولا شكَّ أنه من أشهر القضاة السوريين: كفاءة ونزاهةً وعلماً. وأبداً لم يكن اعتراضي على «أنيس»، من حيث الشخصية والأهليّة، وإنما كان اعتراضي لأنَّ «رفيق، أبو عصام»، هو زميلي في المجلس النيابي السابق.. وكنا دائماً في منتهى الوفاق والوئام والتعاون.. وأنه ليس من عادتي، ولا خلقي، أن أتخلّى عن صديق ـ فكيف إذا كان بمستوى «رفيق»؟

وكان «منير العباس».. قد اتّفق و«أنيس بشور». على أن يخوضا معركة الانتخابات معاً. ولم يكن من السهل على «آل العباس» أن يتنكروا لذلك الاتفاق، ويُخِلّوا به. وأنا أعرف هذا، وأقدّره. ولكنْ.. لم يكن من الممكن أن أتخلّى عن زميلي وصديقي «رفيق بشور».. وأوثر سواه عليه ـ ولو كان ابن عمه.

وحقاً.. كان الموقف محرجاً جداً ـ بالنسبة لآل العباس، ولي.

وطلع علينا أخو «منير» ـ «شوكة»، وهو المعروف بذكائه ودهائه وحنكته، طلع علينا باقتراح عمليٍّ فعّال.. وهو أن نختار «رياض عبد الرزاق» حكَماً بيننا. وأنَّ علينا أن نقبل بحكمه ونذعن له.

ووافقتُ على اقتراح «شوكة».. لأنه سبيل «آل العباس» للتخلُّص من مسؤوليتهم تجاه اتفاقهم مع «أنيس بشور» ـ ليس إلاّ. وصارحتُهم فوراً.. بأني لن أتخلّى مطلقاً عن «رفيق».. وأني أفضِّل ألف مرة أن أخسر المعركة معه.. على أن أربحها دونه.

وقال لي «شوكة»: لننتظر أولاً قرار التحكيم.. ثم لكل حادث حديث.

واتّصلتُ بـ «رياض عبد الرزاق» في منزله بطرطوس ـ بعد عودته إليها.. وأكدّتُ له موقفي بكل حزم وجدٍّ وإصرار. وجرتْ، خلال تلك الفترة، محاولات كثيرة لاقناعي، فرفضتُ رفضاً باتاً جميع أنواع الحلول والعروض.

وأعطى «رياض» حكمه إلى جانب «رفيق»، وتمَّت موافقة «منير» عليه. وكان «رياض عبد الرزاق» مخلصاً في مسعاه.. وفي سعيه لوضع حدٍّ للخلاف بيني وبين «آل العباس» ـ حيث تنطوي صفحة العداء المستحكم بيننا.. وتحلّ محلّها صفحة تعاون مشترك ـ لخيرنا معاً، ولخير المنطقة كلها. وكان لموقف «رياض» الكريم هذا.. أثر بعيد في المحافظة كلها ـ وحتى في أماكن نائيةٍ عنها.

وقمنا ـ منير وأنا ـ بزيارات مشتركة لبعض القرى.. كي يتأكّد النّاخبون من واقعيَّة اتفاقنا، وتآلفنا وانسجامنا.

ولقد لقي ذلك الاتفاق صدىً بعيداً، ورضىً، في كل مكان. وكان له أثره.. في مجرى الانتخابات بأماكن عديدة، داخل المحافظة، وخارجها. وكانت لائحتنا الانتخابية مؤلفة من:

منير العباس، عبد اللطيف اليونس، محمد أمين رسلان، رفيق بشور. واللائحة المنافسة مؤلفة من:

محمد كامل الصالح، مدحة ياسين، عبد اللطيف رمضان، خليل بشور.

وقد رئس القائمة المنافسة «محمد كامل الصالح» ـ وهو شاعر، ومحام، وضابط سابق. وتربطني به، وبأسرته النبيلة، أواصر مودّة متينة، وخاصة «الشيخ علي سليمان».. الذي كانت له وجاهة دينية وزمنيّة مرموقة.. و «الشيخ حبيب الصالح» ـ المشهود له بالتّقى والإيمان، ونقاء الوجدان واللسان.. وهو زوج بنت عمي «خضرا»، خالة زوجتي «جميلة»، وقد تربّتا معاً كشقيقتين، وما تزالان كأنهما شقيقتان ـ و«أمّ محمد خضرا».. هي في طليعة النساء اللواتي أنجبتهن أسرتنا.. وقد أنجبتْ من قرينها «الشيخ الصّالح» عدة أبناء ـ هم مَثَل بالكفاءة والاستقامة، والخلق الكريم.. وثمّة وشائج عائلية أخرى.. مع أنسبائهم الكرام.

وقد سبق أن ذكرت.. أني في عهد «الشيشكلي» قد اخترتُ «الدكتور صلاح» شقيق المحامي «محمد كامل»، ليكون مرشحنا عن صافيتا ـ ولكنّ الظروف، آنذاك، لم تتح لنا الاستمرار في المعركة حتى النهاية ـ مع الأسف! وقد حُرمت منطقة صافيتا من تمثيله إياها، وقتذاك، وكان خير كفؤ لذلك.

ولقد آلمني وأحزنني أن تحصل منافسة بيني وبين ابن عمي «مدحة»، نجل المرحوم «يونس المحمد» ـ الذي كان وجيه أسرتنا المرموق، ووجهها المشرق. وقد لقيت «مدحة» في أحد مراكز الاقتراع، ففتحت له صدري، وأفهمته أنه إذا نجح في الانتخابات فسأعتبر نفسي الناجح، وسأكون في طليعة من يقدّم له التهاني. وتلطف هو فأبدى نفس الشعور.

وقد ورث هو وأخوته: محمد، وعادل، وعدنان، وياسين، الكثير من شمائل والدهم ـ رحمه الله. و«الدكتور عدنان»، وهو صديقي الذي أعتزّ بصداقته اعتزازي بثقافته، هو أول من حاز على شهادة «دكتوراة» في قريتنا. وربما كان المفكر الكبير «الدكتور مفيد عبد الكريم»، المحامي والأستاذ بجامعة دمشق، وقد حظيت به الوزارة أخيراً ـ وأبدى بها تفوقاً ملحوظاً ومقدرة فائقة يعترف بها الجميع ـ قد يكون هو الأول في نيل شهادة «الدكتوراه» ـ التي حصل عليها «الدكتور توفيق اليونس» الأستاذ بجامعة حلب. وإن محيطنا يعتّز بهم جميعاً،

وبمركزهم الاجتماعي والأدبي، وبكافة المثقفين من أبناء القرية الذين يحملون شهادات عالية في مختلف المجالات ـ وخاصة المربي الكبير الأستاذ محمود أحمد عبد الكريم مدير «معهد الحرية» في دمشق، والذي هو موضع ثقة وتقدير كبيرين.

* * *

والدكتور «مفيد عبد الكريم»، وزير النقل، إلى جانب ثقافتـه العميقة واطلاعه الواسع فإنه يتميز بالدقة في العمل والحرص على أداء مهامه بمنتهى العناية والإخلاص والسهر المتواصل على المسؤوليات الجِّسام المنوطَّة به. وهو وزميله الدكتور «محمد سلمان»، وزير الإعلام قدوتان بالمقدرة والكفاءة، وسعة الأفق.

* * *

وكم آلمني وساءني وجود تنافس بيني وبين «الشيخ عبد اللطيف محمد رمضان»، وهو مالم أكن أتوقعه ـ نظراً للصلات الوثيقة التي تربطني به وبأسرته النبيلة، من عهد المجاهد الكبير «الشيخ صالح العلي» الذي كنت من أخلص الناس له ـ كما يعرف ذلك كل من عرفنا، ويشهد به كل من شهدنا. وما أحسب أن ثمَّة صلة تربط بين ناس وناس.. كانت، وما تزال، أمتن من الصلة الوثيقة بيني وبين هذه الأسرة الكريمة. وإنّ اتجاه «الشيخ عبد اللطيف رمضان»، مع الفئة المناوئة ، لم يُضْعِف أبداً من قوة تلك الصلة ومتانتها واستمرارها ـ ومن المحال أن يضعف.

ولقد كنت من أعماق قلبي، وأعترف، أتمنى أن يكون أحد «آل رمضان الكرام» على لائحتنا.. ولكن الوضع، في ذلك الوقت، لم يُسعِفْ.. مع الأسف!

وأذكر أني يوم الاقتراع ـ وأنا في طريقي إلى أحد المراكز.. التقيتُ «الشيخ عبد اللطيف رمضان» في الطريق، وقد تعطَّلت سيَّارته.. فنزلتُ من سيارتي، وسلّمتُ عليه بحرارة.. وأصررتُ عليه أن يذهب معي بسيارتي، وأوصلتُه إلى مركز الاقتراع الذي كان يقصده.. وقلت للناخبين على مسمع منه:

من يضع اسم «الشيخ عبد اللطيف رمضان» مكان اسمي.. فإنه لا اعتراض

لي على ذلك أبداً.. لأننا أخوان ـ وسنظل أخوَين، ما دمنا حيَّين.

* * *

وثمّة مغرضون، ولي عند بعضهم مواقف كان لها أثرها في مجرى حياتهم.. أولئك المغرضون المبغضون الحاقدون.. حاولوا الحؤول بيني وبين النّجاح في الانتخابات.. فاستعملوا الدسائس والمؤامرات والمناورات.. لكي ينفذوا إلى بعض المراكز الانتخابيّة التي أعتمد عليها.. ويبعدوها عني، ويقيموا حاجزاً بيني وبينها بالمكر والخديعة و«البَذْل»! وصدق القول المشهور «اتَّقِ شرَّ من أحسنتَ إليه». وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿ولا يَحيقُ المكر السَّيىء إلاّ بأهله﴾.

«صدق الله العظيم»

لكنهم بفضل الله ووعي الناخبين، قد أخفقوا، وباءت محاولاتهم بالفشل الذريع.

ورشّح نفسه منفرداً المحامي «نجم الدين الصالح». وكان قد تمّ اختياره عضواً بالمجلس النيابي، في عهد الوحدة، وأبدى كفاءةً ونشاطاً ملحوظين. ولم ينجح في تلك الجولة ـ لكنّه انتُخب نائباً في «مجلس الشعب»، بقائمة «الجبهة الوطنية التقدمية»، عدة مرات بعد ذلك ـ وما يزال.

ونشر منافسونا بياناً عنيفاً.. هاجمونا فيه بقسوة وتحدٍّ. واستعملوا ضدنا كلمات قاسية.. كنا نربأ بهم أن يستعملوها ضد أيٍّ كان! سامحهم الله.

ونشرنا بياناً انتخابياً ـ بعد بيان منافسينا.. ولم نتعرَّض لهم، أو نعرِّض بهم، بأية كلمة قاسية، أو نابية. وإنما كان بياننا استعراضاً للمبادىء التي نؤمن بها، والأفكار الاصلاحيّة التي سنعمل لها، ونسعى لتحقيقها.

وحتماً.. في صافيتا ناس حياديون واعون.. قارنوا بين بياننا المتّزِن الهادىء.. وبيان منافسينا العاصف الغاضب. ونحسب أنَّ لهؤلاء أثرهم في مجرى الانتخابات ـ ولو بتأثير محدود.

* * *

ثبت لنا ـ من بعض التصرفات.. أنَّ المشرف على الانتخابات له وجهة نظر

غير سليمة من جهتنا.. وأنه صمّم على أن يحقق غايته ورغبته عند فرز الأصوات ـ بعد أن تأكد له أن لائحتنا ستكون هي الفائزة بأكثريّة ساحقة! وكان يتظاهر بالحياد.. ولكنه ضمناً كان يعمل لمساعدة الفئة المناوئة لنا!

ونقل لي أكثر من واحد.. أنه كثيراً ما كان يقف عند النافذة، في مكتبه، ويتطلّع إلى حيث يتجمّع مناصرونا للحصول على هويّات، وهم كُثُر.. ويتجمع أنصار منافسينا، وهم قلّة، فيمتقع وجهه. ويضرب كفاً بكف، ويغلق النافذة بقوة!

وبعد انتهاء عمليّة الاقتراع.. كنتُ أجلس، مع بعض الأصدقاء، في مقهى قرب دار الحكومة.. وكان يجلس معنا أحد أصدقاء المشرف على سير الانتخاب.. وقال بصوت عالٍ، موجّهاً كلامه لي:

سيفشل شخص من لائحتكم، وينجح الثلاثة الآخرون.

وكان يجلس بقربي الصّديق «سعيد الرشيد».. فهمس بأذني قائلاً: إنه يعنيك! قلتُ له: إني أعلم أنه يعنيني. ثم قلتُ لذلك القائل:

أنا شخصياً.. لا يهمني أن أنجح، أولاً أنجح.. فقد انتُخِبتُ نائباً مرتين قبل الآن. وإنما يهمّني أن ينجح بقية رفاقي.. وهذا يكفي. وغادرتُ المقهى إلى منزلي ـ لأتابع عمليّة فرز الأصوات ـ التي كانت تأتيني مباشرة بعد انتهائها.

وصمّم المشرِف على عمليّة الانتخاب أن يلعب «لعبته».. ويحقق غايته ـ إذ أنه عندما وصلتْ صندوقة اقتراع قرية «بويضة سويقات».. أنقص من العدد الذي حُزْناه ٥٠ صوتاً!! وكانت خطّته أن يفعل ذلك في بقيّة الصناديق، وإحصاء الأوراق التي تحويها!! وكان هو الذي يقرأ التقارير الواردة.. ويعلن الأرقام ثم يسجلها دون اطلاع بقية أعضاء اللجنة عليها!

وكان لنا وكلاء في جميع مراكز الاقتراع.. وهم يوافوننا بنتيجة التصويت، في كل مركز، فور الانتهاء من عملية فرز الأصوات. كما أنّ معتمدينا لدى اللجنة التي تتجمّع لديها صناديق الاقتراع، وتحصي الأرقام التي تحويها، كانوا يتصلون بي هاتفياً لاعطائي نتيجة فرز أصوات كل مركز ـ كما يعلن رئيس اللجنة المشرف على الانتخاب.

واتّصل بي أحد وكلائنا.. ونقل لي الرّقم الذي سجّله في مركز عمليّة فرز الأصوات.. فاتصلتُ هاتفياً بالمشرف على الانتخاب ولفتُّ نظره إلى الذي حصل. وأفهمته أنّ وكلاءنا يوافوننا بنتائج الاقتراع قبل أن تصل إليهم. فاستمهلني.. حتى يُعيد عدّ الأوراق وإحصاءها. وبعد قليل اتّصل بي، مبدياً اعتذاره عن «الخطأ غير المقصود» الذي حصل!!

وطبعاً.. لقد أدرك دقّة مراقبتنا.. وأنه ليس من السهل تمرير تلك «الخدعة».. فعدل عنها.

وأوعزتُ إلى وكلائنا أمام اللجنة المشرفة على إحصاء الأصوات، أن يراقبوا عمليّة فرز الأوراق مراقبةً دقيقة، وبانتباه زائد.. وأن يطلبوا الاطلاع على الأرقام.

وهكذا.. أُحبطت تلك المحاولة ـ التي لو قُدِّر لها أن تنجح.. لكانت النتيجة عكس ما أراده الناخبون.

وقد حازت لائحتنا على ١٠٥٤٠ صوتاً، بزيادة ألوف الأصوات على اللائحة المنافسة.

وكان أنصار زميلنا «محمد أمين رسلان».. ملتزمين بواجبهم الانتخابي سنة ١٩٥٤ أكثر من التزامهم بواجبهم سنة ١٩٦١، إذ أن قسماً كبيراً منهم.. قد انحاز إلى الجهة المنافسة لنا ـ لأسباب... لا مجال لذكرها هنا!!

* * *

كان التّفاهم بيني وبين «آل العباس»، مناسبة كريمة، ووسيلةً خيِّرة.. لإيجاد تفاهم بين ذوي النفوذ والوجاهة في الجبل. وقد عقدنا اجتماعاً واسعاً في منزل الضابط «محمد عزيز الهوائس» بدمشق.. حضره عدد من الشخصيات المرموقة في محافظة اللاذقية ـ ولم تكن محافظة طرطوس قد أنشئت بعد.. وقرّرنا جميعاً القيام بنهضة إصلاحيّة شاملة.. تهدف، أوّل ما تهدف إليه، القضاء على «العشائرية».. والتعصب المعيب، وعلى أسباب التّفرقة.. واجتثاثها من جذورها، ثم يتناول الاصلاح النواحي الاجتماعية.. فنعمل للقضاء على أسباب التّخلُّف

والجمود ـ حيث تنطلق تلك الفئات التي جُبِلت نفوسها بالطيبة والبراءة والنزاهة.. تنطلق في مختلف مجالات التقدّم والتّطوّر والتحرر. وكان مما قرّرناه:

إلغاء مهور البنات، ومنع تأجيرهنّ خادمات، ومنع دفع الأتاوات والجُعالات لذوي النفوذ. وهذا البند.. لقي معارضةً من بعضهم، ولكنّا تغلّبنا أخيراً على تلك المعارضة بالرّفق واللين. ثم اختيار مرجع ديني كبير.. وإرسال نخبة من الشباب للدراسة في «النجف الأشرف»، و«الجامع الأزهر» ـ ليكونوا أئمّة المساجد، ومرشدين دينيين. وإنشاء صندوق خاص.. لتعليم الطُّلاّب الفقراء، ومساعدة المحتاجين. وو.. الخ.

وقرّرنا عقد اجتماعات عامّة سنويّاً.. تُطرَح في كل منها اقتراحات بنّاءة من أجل التطور، والقضاء على الجمود والتّخلف ـ على أن تُعقد كل سنة في مكان. ويكون الاجتماع الأول في قرية «تلّة الخضر»، والثاني في قرية «الشيخ بدر» ـ مركز ثورة «الشيخ صالح العلي»، والثالث في قرية «بيت الشيخ يونس»، والرابع في قرية «قرفيص» التابعة لـ «بانياس»، وو.. الخ.

وقد أبدى الجميع حماسةً شديدة لتلك المقرّرات ـ وأعربوا عن استعدادهم للتّقيُّد بها، والعمل على تنفيذها.

وإن الانصاف، للواقع والتاريخ، يقتضيان أن نذكر بأن «محمد جنيد»، نائب مصياف، كان في طليعة المرحّبين بتلك المبادىء، والمتحمّسين لها. وقد أبدى استعداده للتبرع بمبلغ كبير من المال، كل عام، لأجل اقرارها وتنفيذها. رحمه الله.

* * *

وبمناسبة الحديث عن «العشائرية»، ووجوب إلغائها.. فإني أنشر هذه الوثيقة التاريخية البالغة الأهمية.. التي تشير إلى اجتماع شيوخ وزعماء المسلمين العلويين سنة ١٢٧١ هجريّة ـ أي منذ ما يقرب من مائة وأربعين عاماً مضى اتفاقهم على إلغاء العشائرية.. وأن يكون الجميع صفّاً واحداً، وفئةً واحدة، يعملون لغاية واحدة.. وقد عُقِد الاجتماع في قرية «بيت الشيخ يونس»، بمنزل

المغفور له «الشيخ ياسين يونس ياسين»، وكان هو آخر الموقِّعين - إذ جرت العادة، في ذلك الحين، أنّ من يكون الاجتماع في بيته هو آخر من يضع إمضاءه.

وهذه الوثيقة التاريخية.. تُعتبَر من أنصع صفحات تاريخنا، وأكثرها تألُّقاً وإشراقاً. وقد رسمتْ لنا الطريق الشريف الذي يجب أن نسير عليه.. فهل نسير عليه؟

وزودنا بهذه الوثيقة المشرِّفة من تاريخنا الحديث.. فضيلة «الشيخ علي خليل وقّاف»، إمام مسجد صافيتا، جزاه الله خيراً.. وشكراً له. ويقول إنه نقلها عن خط «الشيخ ابراهيم محمد»، من قرية «حمّين»، الذي نقلها عن «شيخ» من قرية «بيت الشيخ يونس» - لم يذكر اسمه.. وإنما يشير إلى أنه نقلها عن النسخة الأصلية حرفياً. وهذه هي - لم ننقص منها شيئاً، ولم نزد عليها شيئاً - إلا بعض النقط والفواصل في آخر الجمل.. وهو ما لم يكن معروفاً بذلك الحين.

بسم الله الرحمن الرحيم

النّقل بالأمانة. صورة الوثيقة التي أُلغيت بموجبها «العشائرية»، وهي: «الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا «محمد»، وآله وصحبه. ربنا اغفر لنا، ولأخواننا الذين سبقونا في الايمان، ولا تجعل في قلوبنا غِلاً للذين آمنوا، ربّنا إنك رؤوف رحيم».

الباعث لتحريره، هو أنه يوم تاريخه قد حضرنا، نحن الفقراء لله تعالى، المرقومة أسماؤهم أدناه، واجتمعنا مع بعضنا، وحصلت المكالمة بيننا، حيث أننا جميعاً عبيد الله تعالى. وكلٌّ منا مقصده رِضَى ربّه، ونوال رحمته ونعمته.. وقد اعتمدنا على خيرة الله تعالى، وصرنا عشيرة واحدة. وصَارَ الصالح والدم والرأي والغيرة واحدة على إقامة حدود الله تعالى. وإذا أحدٌ ادَّعى بدعوى من جميع الدَّعاوي يترافعان مع بعضهما بالشرع الشريف. وكما يثبت ويحكم الشرع يجري العمل. ومن اتّبع رأينا من عامّة الشعب له ما لنا وعليه ما علينا. وعلى هذا الوجه المشروع حصل الرّأي والاتفاق منا جميعاً برضانا واختيارنا. وتحرَّر هذا السند لوقت الحاجة سنة ألف ومائتين وواحد وسبعين ١٢٧١ هجرية في

العاشر من شهر صفر يوم الخميس. صح صح صح. القابلون بما فيه:

سليمان عباس ـ كاف الحبش. ديب أحمد ـ البيره. حبيب عيسى ـ متور. ابراهيم سعيد ـ الرّويميّة. ابراهيم مرهج ـ بيت ناعسة، حسين أحمد حسين ـ جورة الجواميس. ابراهيم عباس سليمان ـ بيصين. صالح عمران الزاوي ـ ضهر بشير. عباس جابر ـ الطليعي. محمد يوسف ـ رأس الخشوفة. الحاج معلّى ـ بيت الحاج. اسماعيل محمد ـ أو بين. علي حمدان الزاوي ـ ضهر بشير. صالح علي ـ الحداديّات. حسين يونس ـ المسقس. سلمان محمد ـ فتاح ابولي. علي محمد ـ بشبطه. ياسين يونس ياسين ـ بيت الشيخ يونس ـ انتهى.

والأحداث.. التي تعاقبت بعد اتخاذ قرار ـ بوجوب اتّباع خطىً إصلاحية.. قد حالت تلك الأحداث دون الشروع بتنفيذ تلك المبادىء، مع الأسف!

ولا شكّ أنّ الوعي القومي، وانطلاق الجيل الجديد، والمبادىء التحرريّة الشريفة قد أخذت طريقها إلى نفوس الناس كافة.. وهذا ما هو كافٍ لتحقيق المبادىء التحرريّة التي آمنّا بها، وقرّرنا العمل لإقرارها وتنفيذها.

وفي يقيني.. أنّ الشعوب التي تخطاها قطار الزمن، عبر أجيال طويلة، هي الأكثر إسراعاً للإفادة من تجارب الزّمن، وتجاوز أخطاء الماضي. وهي التي تحقّق إنجازات.. تفوق الانجازات التي حققتها الشعوب التي سبقتها واضطهدتها.

ولنا في الأمة العربية أقوى شاهد، وأكبر دليل. فهي عندما فُتِحتْ أمامها كُوى النور انطلقت وحلّقت، وأعطت العالم من الحضارة والرُّقيّ.. ما لم يُتح لكثير من الأمم السابقة أن تحققه وتعطيه.

ومن نِعم المولى، وحسن التّوجيه في هذا العهد.. فإنّ كثيراً من الأفكار الاصلاحيّة التي آمنّا بها، وعملنا لتحقيقها وتنفيذها.. قد تحققتْ، وتمّ تنفيذها ـ بفضل التوجيه السّديد، والوعي الناشط.

وإذا كانت ثمّة رواسب.. ما تزال مستقرّة في بعض النفوس.. فإنّ الزمن كفيل باجتثاثها من جذورها.. ومحوها، والقضاء عليها.

* * *

عندما اجتمع «المجلس النيابي».. انتُخِب «الدكتور مأمون الكزبري» رئيساً، و«رفيق بشور» نائب الرئيس، وانتُخِبتُ «أمين السر».

وانتخب المجلس لجنةً، لوضع دُستور جديد، مؤلَّفة من ٣٣ عضواً ـ كنت أحدهم. واختير من بينهم ٥ أعضاء لوضع «النّص».. أي إعداد مشروع الدستور لعرضه على اللجنة الكبرى، ومناقشته وإقراره.. ثم عرضه، بعد ذلك، على مجلس النواب ـ تماماً كما حدّد عند وضع دستور سنة ١٩٥٠.

وكنتُ أحد الخمسة.. الذين تمَّ اختيارهم لوضع «النّص».

وكلّ ما أذكره.. عن قرارات المجلس، ومناقشاته.. هو موجود في ضبوط جلسات «مجلس النواب». ويمكن لكل امرىء الرجوع إليها في مكتبة المجلس، أو عند النواب الذين يحتفظون في دورهم بمجلدات الجلسات ـ في المجالس التي قُدِّر لهم أن يكونوا أعضاء فيها، أو في مجلدات الجريدة الرسمية.

وانتُخِب «الدكتور ناظم القدسي» رئيساً للجمهورية. وكلّف «الدكتور معروف الدواليبي» بتشكيل الوزارة ـ مما أثار حنق بعض الدمشقيين.. وقد عبّر عن ذلك أحد نوابهم.. بأحد المواقف الفاضية.

ولم أكنْ راضياً عن تلك الوزارة التي اشترك بها صديقي «أحمد علي كامل»، نائب اللاذقية، وقد جاء إلى منزلي في صافيتا ـ وكنتُ حينئذٍ أعود نسيبي وصديقي «محمد عبد الكريم»، في مدينة طرابلس بلبنان، فاتصلَ بي هاتفياً.. مما اضطرني للعودة إلى صافيتا، والذّهاب وإياه إلى دمشق.. وقد منحتُ، وعدداً من الزملاء، الثقة بالوزارة ـ رغم عدم موافقتنا ورضانا عن كيفيَّة تشكيلها ـ ولكنها السياسة! وللصّداقات الشخصيّة أثرها الفعّال في بعض المواقف، وربما في أكثرها!

وبعد شهر ونيّف ـ من تشكيل الوزارة.. زارني وفد من «جزيرة أرواد» وكنتُ رئيساً للجنة «الشكاوى والعرائض»، وقدّم عريضة حول احتجاز العدو الصهيوني زورق صيد، وعلى متنه بضعة ملاحين.. وأنّ ذلك جرى منذ بضعة أشهر ـ وليس ثمّة أي خبر عن الزورق وملّاحيه!.

فتقدمت بسؤال للحكومة حول هذا الموضوع الهام. وجاء جواب الوزارة أنه لا علم لها بالقضيَّة!

ومن البداهة .. أن ذلك لم يجر في عهدها ـ وهي حديثة العهد. ولكنَّ المفروض، حتماً وحكماً، أن تكون ثمّة إضبارة، بهذا الموضوع، عند الجهات المختصّة بملاحقة هذه القضية ـ وكل القضايا المماثلة.

فعلَّقتُ على جواب الوزارة.. مستغرباً جهل المسؤولين المختصين، أمر مواطنين محتجزين عند الصهاينة، منذ بضعة أشهر، ولا علم للسلطات السورية بالحادث!

وثار «الدواليبي»، رئيس مجلس الوزراء، وصرخ بصوت حادّ:

يا أستاذ: إذا كنتَ تريد معارضة الوزارة.. فليس بهذا الأسلوب! وقد أجبتهُ بلهجة ـ قال عنها زملاؤنا النواب: إنها كانت أكثر حِدَّةً وشدَّة.. وقلتُ له:

يجب أن تذكر أنك هنا ـ في المجلس النيابي.. وإنَّ عليك أن تحني رأسك لكل كلمة تقال فيه.. لا أن ترفع صوتك عالياً، وتتحدّى.. واندفعتُ كالسَّيل. وصاح، وصحتُ.. وصرخ وصرختُ. فأوقف رئيس المجلس الجلسة.

وبعدئذٍ تدخَّل بيننا الوزير «أحمد علي كامل»، وكان صديقي، وثمّة دالّة لكل منّا على الآخر.. وأصلح بيننا، وأزال ما علق في نفسينا من أثر تلك المشادَّة.. العنيفة الحادَّة ـ التي كان لها صداها ودويُّها البعيد. وقد نشرتها الصحف حينئذٍ، وتناقلتها وكالات الأنباء.

و«الدكتور الدواليبي» إنسان طيب القلب، ومهذَّب. لكنه متى غضب.. يصبح انساناً آخر، وكنتُ أقدِّره وأعتبره ـ ولكنَّ السياسة.. هي السياسة!

وتقدَّم بعض النواب بمشروع قانون يتضمن تعديلاً لقانون الاصلاح الزراعي الذي وُضع في عهد الوحدة مع مصر. وكان طلب التعديل يتضمن رفع نسبة الملكية في الأراضي المرويَّة، وغير المروية.

وفي يقيني.. أن في قانون الاصلاح الزراعي.. كثيراً من العدل، والانصاف للفلاح ـ لأن من غير المعقول، ولا المقبول، أن يملك مالك مئات الهكتارات.. ولا

يملك أحد من فلاحيه هكتاراً واحداً!

ولكن، وبالوقت نفسه، يجب أن تُراعى حقوق المالك فيما يتبقّى لـه.. ويكـون حرّ التّصرف فيه ـ بعد توزيع الفائض مـن الأرض المسموح لـه بتملكهـا. وقـد تضمَّن تعديل القانون هذه الناحية أيضاً.

وفي احدى الجلسات احتدَّ «أكرم الحوراني».. فخلع حذاءه مـن رجلـه، وشرع يدقّ به على المنضدة التي أمامه!

تماماً.. كما فعل «خروشوف» مرَّة.. في الأمم المتحدة!

وأثار عدد من النواب موضوع الوحدة مع مصر.. في أكثر مـن جلسـة. وكـان معـارضو «الوحـدة».. قُسـاةً فـي تعابيرهم، وتعريضهـم بشـخص «الرئيـس عبـد الناصر» ـ وهو ما كان يجب الابتعاد عنه.. لأنـه مـن غير اللائق توجيه كلمات غير كريمة.. بحقّ شخص كان إلى الأمـس القريـب، رئيسـاً للبلدين ـ فضـلاً عن شخصيَّة «عبد الناصر» الضخمة، ومكانته الدولية التي نعتَدّ بها ونعتَزّ. وقلت فـي احدى الجلسات:

إنَّ هذا الموقف العدائي مع مصر.. يجب أن لا يستمر ـ لأننـا لسنا بغنـىً عن مصر، ونحن في حرب مصيرية مع العدو الصهيوني. كمـا أن مصر ليست بغنـىً عنا.. وإنما يجب أن نتلاقى على صعيد التعاون المثمر. وإذا كان قد تـمَّ الانفصـال بين البلدين، فيجب أن لا تكون ثمَّة قطيعة بينهمـا ـ وإنَّ مـن الإجـرام القومـي أن تحصل هذه القطيعة بيننا. ويجب أن نذكر جيداً.. أننا نحن الذين ذهبنا إلـى مصـر من أجل الوحدة.. وليست مصر هي التي جاءت إلينا.

وقد صفق لي النظّارة طويلاً حينذاك.

ونشط الأخوان المسلمون، داخل المجلس وخارجه كما نشطوا سنة ١٩٥٠ ـ ليضعوا فـي صلب الدستور: «ديـن الدولـة الإسـلام». وحينئـذٍ.. يصبـح التشـريع بكامله مستوحىً من هذه المادة!

وسورية بلد متطوِّر. وتطوُّرها لخير المجتمع كله.. ولضمـان الحريـة والعدالـة فيه. والتقيد بمبادىء طائفية.. هو ضد حركة التطور، وشمولها وانطلاقها.

ولعلَّ أبلغ ما قيل، في مراعاة التطور، ومماشاته، قول الإمام «علي بن أبي طالب»: «لا تقسروا أبناءكم على تعاليمكم ـ لأنّهم مخلوقون لزمان غير زمانكم».

* * *

بعد أشهر قليلة، من عودة الحياة الدستورية، فوجىء المواطنون بانقلاب عسكري.. طوّح بالحكم القائم، وزجَّ بأركانه في سجن «المَزّة» الذي لم ينجُ من رَهْبَته شخص زاول العمل السياسي ـ ما عدا نادرين.. وما أندر أولئك النادرين!

وكان في طليعة المعتقلين رئيس الجمهورية، ورئيس مجلس الوزراء، وعدد من النواب.

وسبب ذلك الانقلاب.. أنَّ جماعةً من الضباط الشباب زاروا «الرئيس عبد الناصر» في القاهرة، وبحثوا معه موضوع «اتحاد» مصر وسورية ـ ولم يتطرّقوا لذكر «الوحدة».. وإنما حول «اتحاد» فحسب. وقال لهم «عبد الناصر» ـ بصراحته المعهودة:

لن أبحث معكم أيَّ اتفاق.. حتى تقوّضوا هذه «الخيمة» ـ «استعمل نفس التعبير» ـ وتَحُلّوا المجلس النيابي، وتقضوا على الحكم القائم!

وعاد أولئك الضباط من مصر.. مشبعين بهذه الرَّغبة، ومصممين على تنفيذها ـ ونفذّوها.. وقاموا بانقلابهم الذي مرَّ ذكره!

* * *

في اليوم.. الذي جرى بمسائه الانقلاب ـ ٢٨ آذار ١٩٦٢ ـ اجتمع نواب محافظة اللاذقية، وكان عددهم عشرين نائباً، وقرّروا تأسيس كتلة مستقلة، وطلبوا مني وضع نظامها الداخلي.

ومن عادتي.. أني متى بدأتُ عملاً ما.. فإني لا أنفك عنه حتى أنجزه.

وكانت جلسة ذلك المساء حامية. ومن المصادفات الغريبة.. أني لم أشترك بالنقاش الذي جرى فيها. وبعد انتهاء الجلسة. في ساعة متأخرة، انفردتُ بمكتبي لأكتب النظام الداخلي لكتلتنا المستقلة. وقد بقيتُ حتى الساعة الواحدة والنصف صباحاً.. ثم رتّبتُ أوراقي، ووضعتها في درج مكتبي، وغادرتُ المجلس من بابه

الشرقي.. ولم أشعر بأيّة حركة حوله. وكان شرطي واقفاً هناك للحراسة، كالعادة. فأدّى لي التحيّة، ومضيت.

وكانت قطعات الجيش التي قامت بالانقلاب.. قد تحركت من أماكنها، واحْتلّت المواقع المحددة لها قبل منتصف الليل. ودخلت ثلاث دبابات حديقة المجلس النيابي الشمالية ـ حيث مكتب الرئيس، ومكتب رئيس مجلس الوزراء، وأمين عام المجلس. وأمّا مكاتب أمانة السر، ونيابة الرئاسة، والمراقبين، فكانت في الناحية الجنوبية. وتقع القاعة التي تُعقد فيها الجلسات.. بين القسمين الشمالي والجنوبي.

ولو خطر لي تلك الليلة، وأنا في مكتبي، أن أفتح النافذة المطلّة على الحديقة، وأتطلّع منها.. لرأيت دبّابةً جاثمة قربها. وماذا يكون قد حدث، ولكنّ الله لطيف بعباده.

وفي الصباح.. استمعتُ إلى الاذاعة ـ وإذا بخبر الانقلاب يدوّي!

* * *

بعد أن تمادى «عبد الكريم النحلاوي» بخطّته، وطوّح بالحياة الدستورية التي كان دعا إليها قبل أشهر.. وحلّ مجلس النواب، واعتقل رئيس الجمهورية، وكبار المسؤولين ـ تكفيراً عن خطيئته ضد «الوحدة»، وتقرُّباً من «الرئيس عبد الناصر».. الذي كرّر تأكيده، بوجوب القضاء على النظام البرلماني، في سورية، قبل البحث معه بأيّ موضوع.

بعد أن قوّض «النحلاوي»، ومعاونوه، دعائم الحكم الديمقراطي.. عهد إلى اللواء «عبد الكريم زهر الدين» تولّي رئاسة السلطة التنفيذيّة. وكان الضباط الذين أعلنوا الانفصال... قد اختاروا «زهر الدين» قائداً لهم، ورئيساً للأركان. وبعد أن تمّ لـ «النحلاوي» ما يرغبه.. أراد أن ينفرد بالحكم، ويستقلّ به! ومن مركز القوّة يفاوض «عبد الناصر»، ويتباحث معه!

ولكنّ الفئات ـ ذات النفوذ القوي في الجيش.. اجتمعتْ في حمص، وأعلنت التّمرّد.. وقررّت إقالة «النحلاوي» من منصبه العسكري، وإخراجه من البلاد...

مع عدد من الضباط.

وكانت تلك المقررات. بمثابة اتفاق بين الفئات المتنازعة ـ الدّاعية للانفصال. ولكنَّ مؤيدي الوحدة لم يرضوا بها.. فانسحبوا من المؤتمر، وذهبوا إلى حلب، وأعلنوا العصيان فيها، بقيادة العميد «لؤي الأتاسي»، واحتلوا دار الاذاعة، وبدأوا يبثون برامج باسم «الجمهورية العربية المتحدة». والتحقت بهم بعض القطعات العسكرية ـ ولكنّ القيادة العامة جابهتهم بهجوم عنيف بالطائرات، على دار الإذاعة، وأمكنة وجودهم، ثم أرسلت قوات مدرَّعة للاستيلاء على قواعدهم، فاستسلموا لها.. وأُرسِل بعضهم إلى الخارج وفي طليعتهم «لؤي الأتاسي»، وعُيِّنوا ملحقين عسكريين بالسفارات السورية.

وعلى أثَر ذلك.. جرى اجتماع حضره عشرات السياسيين، وقرروا، بالاتفاق مع السلطات العسكرية، عودة «ناظم القدسي» إلى القصر الجمهوري.. لممارسة صلاحياته الدستورية، وقد عاد في ١٢ نيسان سنة ١٩٦٢ وعهد إلى «بشير العظمة» بتشكيل وزارة ضمَّت في عضويتها:

رشاد برمدا، أحمد عبد الكريم، عبد السلام العجيلي، رياض الميداني، صبحي كحالة، رشيد حميدان، عدنان الأزهري، جورج خوري، عبد الحليم قدّور، نهاد السباعي، روبير الياس، إحسان الرفاعي.

وأراد رئيس الجمهورية ، والوزراء، اجراء حوار مع «عبد الناصر».. وأوفد وزير الخارجية «عدنان الأزهري» لهذه الغاية. ولكنَّ «عبد الناصر».. رفض إجراء حوار مع أشخاص لهم مواقف عدائية من الوحدة.. ودعوات صريحة للانفصال.

وفي عيد الثورة ٢٣ تموز ١٩٦٢ ألقى «عبد الناصر» خطاباً عنيفاً.. شنَّ فيه هجوماً قاسياً على السوريين.. اعتُبر بمثابة دعوة الشعب السوري لاعلان العصيان، والانقلاب على حكم الانفصال. وقدَّمت الحكومة السورية شكوى إلى «الجامعة العربية» على مصر! وانعقد «مجلس الجامعة» في بلدة «شتورا» بلبنان. ورئس الوفد السوري «أسعد محاسن» ونائبه «خليل كلاّس»، وضمَّ

أعضاء منهم: عبد الغني قنّوت، أمين النفوري، أديب الداوودي، هيثم كيلاني، ووفد مصر هم سوريون ـ منهم: أكرم ديري، جادو عز الدين، وتوفيق حسن. وانسحب الوفد المصري احتجاجاً على تهجمات الوفد السوري على مصر ورئيسها بشكل عنيف وحاد!. وكان «خليل كلاس».. أشدّهم عنف كلمة، وقسوة قول! ولم يُصدر مجلس الجامعة قراراً بموضوع الشكوى ـ نظراً لانسحاب وفد الجمهورية العربية المتحدة.

واشتّدت الحملات على حكومة «بشير العظمة».. فقدّم استقالته في منتصف شهر أيلول سنة ١٩٦٢ ـ وحينئذٍ عمد «ناظم القدسي»، رئيس الجمهورية، إلى تكليف «خالد العظم» بتشكيل الوزارة التي ضمَّت:

رشاد برمدا، رفيق بشور، أسعد محاسن، أحمد مظهر العظمة، أسعد كوراني، نهاد باشا، عمر عودة الخطيب، فرحان الجندلي، نبيل الطويل، عزيز عبد الكريم، عزّة طرابلسي، روبير الياس، خليل كلاس، جورج خوري، عبد الحليم قدّور، أمين النّفوري، صبحي كحّالة، الفريق عبد الكريم زهر الدين ـ الذي تولّى وزارة الدفاع.

وعاد «عبد الكريم النحلاوي» خلسةً إلى سورية في منتصف الشهر الأول ١٩٦٣ وعمل لايجاد تمرّد بين بعض ضبّاط الجيش، ولكنّ قيادة الجيش تمكّنت من التغلب على المتمردين، وأعادت «عبد الكريم النحلاوي» ورفاقه إلى أمكنتهم، في السفارات السورية بالخارج، واعتقلت عشرات الضباط، وأودعتهم السجن.

* * *

حينما زار عدد من الضبّاط الرئيس «ناظم القدسي»، في سجنه، وطلبوا منه العودة إلى قصر الرئاسة، ومتابعة أعماله الرسمية ـ دون مجلس النواب.. اشترط لعودته، وممارسة مهامه الدستوريّة أن يقدّم النواب جميعاً استقالتهم.. لتكون له مبرّراً بأن ليس ثمة «مجلس نيابي» يعود على أنقاضه.. وقد أقسم اليمين على صيانة الدستور الذي لا تسمح أحكامه بأن يُحَل «مجلس النواب» قبل مرور ثمانية عشر شهراً على انتخابه.. ولم تكن هذه المدّة قد اكتملت بعد.

وإذن.. فلابدّ من استقالة النواب أنفسهم ليكون الحلّ دستورياً!

وحمل بعض أعضاء المجلس عرائض طافوا بها على النواب يطلبون توقيع استقالتهم عليها. واستجاب عدد غير قليل.. ولكنّ الأكثريّة رفضتْ ، وكنتُ أحد الرّافضين.

ولمّا فشلتْ خطّة حلّ مجلس النواب ـ بواسطة استقالة أعضائه.. قَبِل «القدسي» العودة إلى مركز رئاسة الجمهورية.. وسعى لاطلاق سراح رئيس مجلس الوزراء والوزراء، وبقية المعتقلين السياسيين، واخراجهم من السجن.

وكان على النواب أن يطالبوا بتعديل الدستور.. وقد عاد رئيس الجمهورية لممارسة صلاحيّاته ـ فإما أن يُدعى المجلس للانعقاد.. وإمّا انتخابات نيابيّة خلال شهرين. وسواءً كان مجلس النواب منحلاً، أو كان أعضاؤه مستقيلين.. فلا بدّ من إجراء انتخابات نيابيّة جديدة، خلال ستين يوماً، أو دعوة المجلس للانعقاد فوراً ـ حسب نصوص الدستور.

وكان على رئيس الجمهورية أن ينسجم مع واجبه الدستوري ـ أو يستقيل. وقد قلتُ له ذلك صراحةً ـ حينما قدّمنا له «مذكرة»، موقّعة من أكثريّة النواب، تتضمّن دعوة المجلس للانعقاد فوراً. وقد حمل النّائب «رياض عبد الرزاق» تلك «المذكرة»، وطاف بها على النواب في جميع المحافظات، وأخذ تواقيع الأكثرية الساحقة عليها.

وأوجعت الرئيس «القدسي» صراحتي التي نوّهتُ عنها، وقال لي: أنت دائماً عنيف وحادّ.. فقلتُ له: لستُ دائماً هكذا.. وإنما فقط في المواقف التي تتطلّب ذلك.

وأخبرنا «صبري العسلي» أنه اجتمع به، وقال له: إنّ موقفك هذا.. يطالك دستورياً.. وتكون معرّضاً، في أيّ وقت، للاتهام بخرق أحكام الدستور ـ فضلاً عن أنه نقطة سوداء في تاريخك السياسي. وليس لك إلا أن تدعو المجلس النيابي للانعقاد ـ وإلا فستكون وحدك المسؤول.

وأُحرِج الرّئيس «ناظم القدسي».. وأراد أن يمحو من حياته السياسية تلك

الصفحة القاتمة ـ وهو ذو التاريخ المجيد الحافل.. فبذل جهداً لحملنا على سحب مذكّرتنا المطالبة بدعوة مجلس النواب للانعقاد فوراً. ورفضنا الموافقة. فأجرى اتّصالات مكثّفة مع ضباط الجيش الذين كانوا يعارضون عقد مجلس النواب. وهدّد بالاستقالة من رئاسة الجمهورية.. إذا لم يُدعَ المجلس للانعقاد. واستمرّ باتصالاته وتهديده.. حتى تمّتْ موافقة أركان الجيش على أن يجتمع النواب في غير بناء المجلس!

ووافق النُّواب، مكرهين، على الاجتماع في دار «خالد العظم».. وعدّلوا الدستور في جلسة واحدة! ومنحوا «خالد العظم» الثقة لمدة سنة كاملة ـ وكان قد كُلِّف بتشكيل الوزارة. وأعطوا السلطة التنفيذية سلطة التشريع خلال تلك السنة. وتعهّد رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الوزراء بعدم حلّ مجلس النواب. ولكنهما لم يفيا بوعدهما وعهدهما! فحلاّه بعد يومين اثنين ـ بناءً على طلب «الآخرين»!

وكان من رأيي، ورأي الكثيرين من الزملاء، أنه يجب حلّ المجلس.. بعد أن عُرِّض به، وبكرامة ممثلي الشّعب، وجرى ما جرى.. وأن يُعمَل إلى انتخابات نيابية جديدة ـ ولكن بعد أن تُعقد ولو جلسة واحدة.. في قاعة المجلس نفسه، ثم تُرفع الجلسة إلى أجلٍ غير مسمّى. وخلال أسابيع، بعد ذلك، يصدر مرسوم الحل.. فيكون المجلس قد استعاد بعضاً من كرامته.. وحافظ على النّهج الديمقراطي السّليم، ومجراه القويم.

ولكن ما أردناه لم يحصل!

وفي يقيني أننا جميعاً، وأعني النواب كافّة، كنّا شركاء في تلك الخطيئة الدستورية ومسئوليتها ـ إذ لم يكن لنا أن نجتمع في غير بناء المجلس.. ولا أن نخرق حرمة الدستور فنعدّله خلال ساعات ـ بدلاً من مرور ستة أشهر كما تنصّ أحكامه.. ولا أن نتنازل عن سلطتنا التّشريعية للسلطة التنفيذية، في تلك الظروف.. فنضع حبل المشنقة حول أعناقنا مختارين.. ثم ننحي باللائمة على الآخرين!!

ولكنْ.. كان النَّواب في عملهم ذاك، يحسبون أنهم ينقذون الحياة الدستورية، ويتابعون السَّير بها في طريقها القويم.. لتؤدي بهم إلى هدفهم المنشود.

ورفض قسم من النواب.. أن يجتمعوا برئاسة «الدكتور مأمون الكزبري»، رئيس المجلس، فاضطروه للاستقالة.. وانتُخِبَ «سعيد الغزّي» رئيساً لتلك الجلسة ـ بعد أن رئس القسم الأوَّل منها «رفيق بشور»، وتولّيتُ أنا أمانة السرّ.

في تلك الجلسة ـ الوحيدة ـ وُئِد الدستور، وخُرِقَتْ أحكامه! وظفر الدكتور «ناظم القدسي» بتبرئة نفسه.. وظفر «خالد العظم» برئاسة الوزارة!

ولكنهما لم ينجوا من الهوَّة التي حُفِرت لهما.. فوقعا فيها! إذ لم يطل الأمر كثيراً.. حتى عاد «المنقلبون» ينقلبون عليهما، ويزجّونهما وبقيَّة الوزراء في السجن.. الذي لم ينجُ منه إلا وزير الثقافة «رفيق بشور» ـ لأنه كان في الطريق إلى صافيتا.. وقد توقف قليلاً في حمص ـ بينما كانت الاعتقالات تجري.. فلا في دمشق وجدوه، ولا في صافيتا عثروا عليه. وصاحب الحظّ.. دائماً هو الرَّابح الأخير.

رحم الله «أبا عصام».. كم كان طيِّباً ونبيلاً. وكان القدر دائماً إلى جانبه. وقد ورث عنه ابنه «الدكتور عصام» شمائله ومناقبه.. وانتقل أخيراً إلى رحمة الله، مأسوفاً على شبابه ومزاياه.

وأما «خالد العظم».. فقد احتمى بالقنصلية التركية، الموجودة في الطابق الأرضي من داره، وبقي لاجئاً فيها.. إلى أن تمكنت السفارة التركية من الحصول له على موافقة المسؤولين بالخروج من سورية. فذهب إلى بيروت، وأقام فيها إلى أن توفي، ودُفِنَ في مقبرة «الأوزاعي» ـ بناءً على وصيّته.

وقد نشرت مذكرات «خالد العظم» بعد وفاته بثلاثة مجلدات ضخمة.. أرَّخ فيها الأحداث التي جرت في سورية. ومما يؤخذ عليه.. انه تحامل بقسوة على بعض السياسيين السوريين.. وأرَّخ الأحداث التي مرّت بالبلاد من وجهة نظره هو.. فجعل نفسه خالقها وصانعها، ومدبِّرها ومسيِّرها!

صحيح.. أن كاتب «المذكرات» ـ وأنا من هواة قراءتها ـ يعمد إلى ايراد

الأحداث ودراستها، والتعليق عليها.. وأنه من خلالها يعمد إلى سرد قصة حياتـه، وتدوين ملاحظاته.. وليس في هذا ما يشين.

ولكن الـذي يشـين ويعيـب.. هـو أن يجعل نفسـه صـانع الأحـداث وموجّهها.. وينكر أثر الآخرين بها، وتأثيرهم فيها.. وهو ما يؤاخذ عليه المرء ويُعاب.

وصحيح أيضاً.. أنه قد كان لـ «خالد العظم» أثر بارز في بعض الأحـداث التـي مرّت بالبلاد، وأنه كان رجل دولة.

ولكن.. ليس صحيحاً أنه هو الذي صنع الدولة.. وأنه كـان فـي الفترات التـي مرَّ بها كل الدولة ـ كما يشير في مذكراته.

والمذكرات.. هي سجلٌ للزمن والناس. ومثلما هي استعراض لتـاريخ.. فإنهـا تمكّن القارىء من الاطلاع على ما جرى في ذلك التـاريخ، وأخـذ دروس وعظـات منه.

وأمّا أن يتحدث كاتب «المذكرات» عن نفسه، وعمّا جرى له ومعه.. فليس في هذا ما يشين، وما يؤاخذ عليه ـ بل انه واقع يفرضه الواقع.

والحياة مدرسة.. وكل امرىء في هذه الحياة.. هو تلميذ في هذه المدرسة.

وأكثر الناس نجاحاً فـي الحيـاة.. هـو مـن يعترف بهـذا، ويؤمـن بـه، ويجعلـه شعاراً له.

* * *

وتوالت الأحداث. وسعى أحد الأشخاص المعروفين.. لوضـع اسـمي فـي بعض القرارات التي اتُخِذتْ بحق السّياسيين السوريين. وقـد وُجـد مـن أثنـى علـيَّ بين الضباط الكرام، ووقـف منـي موقفـاً كريمـاً.. فذكـر مواقفـي الجريئـة فـي المجلـس النيـابي، وأنـي كنـت فـي طليعـة النـواب المتحرّريـن. ولكـنّ ذلـك الشّـخص الحـاقد انتصر أخيراً. وكان يناصبني العداء ـ دون أن تكـون قـد بـدرتْ منـي بـادرة سـوء نحوه! ولكنّ تأثّره باعتبارات انتخابيّة محليّة، وتـأييده لفئـة كنـتُ منافسـها.. كـان هو سبب حملته عليَّ، وسعيه للانتقام منّي!!

وذلـك الشخـص نفسـه.. زار البرازيـل، بعـد هجرتي إليها، فاستقبلتُه، والسيدة

حرمه، استقبالاً كريماً، وأكرمتُه ـ كأنَّ شيئاً لم يحدث منه ضدّي.. مع أني أعرف الكثير عنه، وعن مواقفه السَّلبية منّي. ولكنّي، بنعمة الله وفضله، لا أعرف الحقد ولا الضغن، وهذا شأني مع سائر الناس.. فكم من الناس من أساء إليَّ، وعن قصد وتصميم، فلم أقابل إساءته إلا بالتسامح والصَّفح. وقد مددتُ يد التسامح والصفح إلى ذلك الذي أساء إليَّ، وأكرمتُه في البرازيل إكراماً حافلاً ــ كأن شيئاً لم يحدث منه ضدّي. وحينما ودَّعني، شدَّ علي يدي، وقال لي: أنت أفضل مني بكثير.. كأنَّ هذا الواقع يحتاج إلى هذا القول! ولكنّ هذه الكلمة.. إن أشارت إلى شيء.. فإنها تشير إلى يقظة الضمير، والاعتراف بالخطأ ـ ولا أقول الذنب.. وحسبي من الزمن والناس هذا.

* * *

في مطلع صيف سنة ١٩٦٤ تلقيتُ دعوة من «الرئيس شكري القوتلي» لقضاء فصل الصيف معه في مدينة «جنيف» بسويسرا. وكانت احدى كريماته المصونات قد اتَّصلتْ بي، وأبلغتني دعوة والدها.

وزرتُ «الدكتور نور الدين الأتاسي» وزير الداخلية حينذاك، وقدّمتُ له طلباً بالسماح لي بالسفر ـ وكان ثمَّة قرار بمنع السياسيين السوريين من مغادرة البلاد. فاستقبلني بمنتهى اللطف والترحيب، واستمهلني إلى اليوم الثاني، وقال لي: سيجتمع هذا المساء «المجلس الوطني»، وهو مؤلَّف من كبار الضبّاط والمسؤولين، وسأتبنّى طلبك، وأحمله إلى المجلس، وأرجو أن تكون النتيجة خيراً.

وفي اليوم الثاني سلَّمني الطلب مع الموافقة. وأكَّد لي.. أن أحداً لم يعترض ـ بل ذكرني بعضهم بالثناء على مواقفي الجريئة، والبنّاءة، في مجلس النواب.

وهكذا استطعتُ الخروج من سورية إلى لبنان.. ومنه قرَّرتُ السفر إلى جنيف ــ وكنتُ قد حصلتُ على تأشيرة دخول إلى سويسرا من السفارة السويسرية في دمشق. وقد صمّمتُ بعد انتهاء فصل الصَّيف على أن أسافر من جنيف إلى فنزويلا، ومنها إلى الأرجنتين.

وقبل سفري.. اجتمعتُ بعدد من أنسبائي، وأبلغتهم رغبتي بالرّحيل، وأني لا أعرف متى أعود. ولا أستطيع أن أصف مدى التأثر الذي انتابنا جميعاً.. وقد أوشكت الدموع أن تشتبك ببعضها. وقال لي «يوسف الطاهر» ـ وكان من وُجهاء الأسرة: مشاكلنا كثيرة.. ولا نعرف كيف سنحلها بعدك. وانهمرت الدموع من كلينا. والأمر يومئذٍ لله.

وكتب لي ابن عمي «محمد طاهر عبد اللطيف» يقول: كانت من أقسى اللحظات التي مرّتْ علينا.. تلك التي أخبرتنا فيها أنك عزمتَ على الرّحيل، وأنك لا تعرف متى تعود .. وطلبتَ منا أن نكون يداً واحدة لمجابهة الزّمان والأحداث. وغير الله لا يعلم كم تأثّرنا، وكم حزنًا. وكانت دموعنا بعدك.. أكثر بكثير مما رأيته أمامك.

لقد كان «أبو فيصل».. كتلةً من العاطفة والمحبّة. وكنتُ آنس به، وأثق بصدقه واخلاصه. وقد انتقل إلى جوار ربه في غيابي.. فتأثرتُ كثيراً. وحزنتُ لوفاته ـ لأنه كان من أبرّ الأصدقاء والأنسباء. ومن نِعم المولى.. أن أنجاله وأنجال أخيه «محمود» و«أحمد» يتحلّون بأخلاق آبائهم، ويسيرون على غرارهم ومنوالهم. حفظهم الله جميعاً، وحققَ لهم النجاح المؤمّل والمرتجى.

لقد خدمت كثيرين في حياتي ـ فمنهم من ظلّ يذكر الجميل، ويعترف به.. ومنهم من أنكره وعقّه!

ولعل عقوق الأقرباء.. أقسى من عقوق الآخرين، وآلم وآذى! وسامحهم الله جميعاً.

والنفس المفطورة على الخير.. هي دائماً نزّاعة للخير ـ وهي لا تضيق ذرعاً بذكر الجميل.. وإنما تقرّه، وتعترف به، وتظلُّ تردّده، وتعرب عن امتنانها له ـ وهي بهذا.. إنما تدل على صفائها ووفائها، وطيبتها ونبالتها.

* * *

حينما عزمتُ على الرّحيل.. أوصيتُ بأن تأتي السيارة التي تُقِلُّني إلى دمشق مع الفجر ـ حتى لا يشعر أحد من أفراد أسرتي. بسفري. ودخلت السيارة حديقة المنزل، ووقفت في المكان المخصص للسيارات. وكان الوقت باكراً جداً، وخيوط

الضَّوء لم تكن قد انتشرت. وكنتُ حريصاً على أن أخرج من المنزل.. دون أن يشعر بي أحد. وخرجتُ من باب غرفتي المطلّ على الشرفة، وأنا أحمل حقائبي بهدوء وسكون.. وجلستُ إلى جانب السائق ـ وقبل أن يخرج بسيارته، من باب الحديقة الواسع، التفتُّ إلى الوراء ألقي على البيت وحديقته نظرة وداع.. وإذا بوالدتي وزوجتي تقفان على سطح البناء المخصّص للفقراء «المنزول»، وبيد كل منهما منشفة تكفكف بها دموعها.. وهما تعلمان أني ذاهب، وغير الله لا يعلم متى أعود.

وانهمرت الدموع من عينيَّ.. وأنا أحاول أن أخفي عن السائق.. ذلك الينبوع المتدفق من قلبي ومقلتيَّ.

لحظات.. تمرّ على المرء في حياته.. تكون ذات أثر عميق فيها.. وتغرس في نفسه ذكرى موجعة وألماً وأسىً عميقين.

واللحظة التي غادرتُ فيها منزلي، ورأيتُ والدتي وزوجتي تقفان.. وهما تبكيان ـ هي من اللحظات المدمِّرة التي لا تُنْسَى.. ومن المحال أن تُنسى.

ومضتْ والدتي. وأمّا ذكراها في نفسي.. فإنها لم تمض، وهيهات أن تمضي ـ وإنما ستبقى معي.. إلى أن أتبعها وأمضي.

وأما زوجتي، بنت عمي، فإني أسأل المولى أن يحفظها، ويمدّ في عمرها، فهي خيرٌ مني ـ وكانت دائماً خيراً مني. وقد اعترفتُ بهذا سابقاً، وأكرِّر هذا الاعتراف الآن.

* * *

كنتُ قرَّرتُ بعد انتهاء زيارتي لسويسرا.. أن أذهب إلى أمريكا الجنوبيّة. وصمَّمتُ أن أزور فنزويلا أولاً، ثم أذهب منها إلى الأرجنتين.

وكانت الحكومة الفنزويلية، وما تزال، تمانع كثيراً بإعطاء تأشيرة دخول إليها، وخاصة للسوريين واللبنانيين، فذهبتُ وصديقي الشاعر الكبير «عمر أبو ريشة»، رجل المروءة والمكرمات، لزيارة «نديم دمشقية»، الموظّف الكبير بوزارة الخارجيّة اللبنانيّة، نطلب منه التوسط لدى السفارة الفنزويلية كي تعطيني تأشيرة

دخول. وحينما رآني «دمشقية» عرفني فوراً، وكنّا قد عشنا معاً في العراق سنةً كاملةً ـ منذ خمسة وعشرين عاماً.. وقد مرّ بنا هذا! وأمّا أنا فلم أعرفه ـ لأن ملامحه قد تغيّرت. واستعرضنا معاً ذكريات العراق. واتّصل بالسفارة الفنزويلية فوافقت. وتلطّف «أبو ريشة» ورافقني إليها، فأعطتني تأشيرة دخول، واقامة لمدة شهر واحد فقط.

رحم الله «عمر أبو ريشة»؛ الشاعر الكبير المتفوّق، فقد كان من أطيب وأنبل مَنْ عرفت مِنَ الناس.

وفي بيروت، قبل سفري، زرتُ والصديق «جودة شبّوع» غبطة «الكاردينال المعوشي»، بطريرك الطائفة المارونية الكريمة، وكانت لي صلة سابقة به ــ إذ مرّ بنا أني اقترحتُ في «المجلس النيابي» تشكيل لجنة نيابية للمشاركة باحتفال تنصيبه وكنتُ أحد أعضائها.

وفي زيارتي الأخيرة لغبطته تحدث عن شاعر الأمة العربية الكبير «بدوي الجبل» ولجوئه إلى «بكركي» وقضاء أيام فيها تحاشياً من أن تعتقله السلطات اللبنانية في بيروت. وقد ظلّ في ضيافة غبطته.. إلى أن نقله «الشيخ بشارة الخوري»، رئيس الجمهورية اللبنانية السابق بسيارته إلى المطار ــ حيث استقلّ الطائرة إلى أوروبا.

وقد تلطف «البطريرك» فأهداني نسخةً من الرسالة التي كان قد وجّهها إلى الطائفة المارونية الكريمة، بمناسبة عيد رأس السنة، وذكر في إهدائه عبارةً لطيفةً كنتُ شديد الحرص على الاحتفاظ بها ـ ولكنّ أحد الزّائرين الكُثُر كانوا يتردّدون باستمرار، على الفندق الذي حللتُ به في مدينة كاراكاس، عاصمة فنزويلا، قد اطّلع على الرسالة.. فاختلسها، ومضى بها ــ دون أن أعرف! وهذا من أسوأ ما يفعله امرؤ مع امرىء آخر. وكنتُ حريصاً على الاحتفاظ بها ـ وعليها المقدمة اللطيفة، التي كتبها البطريرك على رسالته.

* * *

في روما، وقد وصلتُها عصراً، اتّصلتُ بسفير سورية، «الدكتور جمال الفرّا»،

وطلبتُ منه أن يرسل لي سيارته لأقوم بزيارته فقال لي: أنا ذاهب لزيارتك، وجاء إلى الفندق الذي حللتُ فيه، وأخبرني أن السيدة «أم حسّان»، حرم الرئيس «شكري القوتلي»، حاولتْ أن تتّصل بي في سورية فلم تتمكن، فاتصلتْ به هاتفياً ـ أيْ بالسفير ـ وأخبرته أن «القوتلي» قد أُصيب بانفجار في الدماغ، وأنهم اضطروا لنقله إلى أحد المستشفيات بألمانيا. ورجتْه أن يتصل بي، بأيّة وسيلة كانت، ويطلعني على ما حدث.

وإنه لمن الغرابة بمكان.. أن أتّصل بالسّفير السوري في روما ـ ولم يكن بمخططي ذلك.. وأنا على أهبة السفر لسويسرا، ثم أن يأتي ليخبرني بما جرى لـ «القوتلي»، وما حدث له!

حقّاً.. هناك شيء خفيّ يوجّه الانسان، ويوحي إليه بما يجب أن يفعل!

وطبعاً لقد عدلتُ عن السّفر إلى سويسرا، و حجزتُ مقعداً باحدى الطائرات المسافرة إلى فنزويلا، بمساعدة «السفير الفرّا»، واتصلتُ هاتفياً بأحد الأصدقاء الذين كانت توجد لي معهم بعض الصّلات والمراسلات، وأخبرتُه عن سفري وموعد وصولي.

* * *

قلتُ، فيما سبق، إنّ مذكراتي عن المهجر.. ستكون مستقلّة عن هذه المذكرات، وسأفرد لها كتاباً مستقلاً.. وهي تستوجب ذلك وتستأهله ـ لأنها غنيّة بالأحداث التي تتطلب التسجيل.. وهي من المراحل المهمة في حياتي، وأكثرها أثراً وتأثيراً فيما تبقّى منها. ولكني أريد، إلى جانب ذلك، أن يكون سياق هذه «المذكرات» تامّاً في توالي الأيام والأعوام.

* * *

في مطار «كاراكاس»، عاصمة فنزويلا، استقبلني عدد من المغتربين، وأكثرهم من محافظة طرطوس، وحجزوا لي شُقّةً في أحد الفنادق الفخمة. وأعدّوا لي برنامجاً حافلاً.. وكانوا أسخياء وغيارى. وقُدّر لي أن أزيل خلافات بين أشخاص وأنديةً.. وأن أعمل على تقويةً الروابط فيما بينهم وبين الوطن الأمّ.

مكثتُ في «كاراكاس» عشرين يوماً.. كانت حافلةً باللقاءات والزيارات، والمحاضرات ومآدب التكريم ـ ممّا ترك في نفسي أثراً عابقاً بالتقدير والشكر.. لتلك الجالية الغيورة التي احتشدت في المطار لوداعي ـ كما لم تحتشد لوداع أيّ زائر آخر.. كما قيل لي.

* * *

وانتقلتُ من كاراكاس إلى «بوينوس ايرس»، عاصمة «الأرجنتين»، حيث كانت جمهرة من أبناء الجالية الكريمة بانتظاري.

وفي «بوينوس ايرس».. حللتُ بفندق «بلاسا اوتيل» الشّهير، ومكثتُ فيه بضعةَ أيام.. ثم أصرّ صديقي «يوسف الرّشيد»، على أن أنتقل إلى داره ـ حيث نعمتُ منه، ومن زوجته الفاضلة ونجليها السخيين قلباً ويداً، أحمد واسماعيل، نعمتُ بضيافة كريمة، طوال اقامتي في العاصمة الأرجنتينية تلك الفترة.

وزرتُ عدداً من المدن الأرجنتينية التي يوجد فيها مغتربون.. ولكنّ الكثرة الكاثرة من أبنائهم لا تجيد اللغة العربية، ومتى ذهب الأب. اندغم أبناؤه الذين يجهلون لغة آبائهم بالمجتمع الأرجنتيني، وأصبحوا جزءاً منه!

وهذا شيء تفرضه طبيعة الزمان والمكان.

ولكنّها حال مؤسفة ومؤلمة ومحزنة. وخسارة قومية كبرى لا تعادلها أية خسارة ـ وهيهات. وكتبتُ مراراً عن هذه المأساة القومية الموجعة ـ وسأظل أكتب وأكتب.

وفي جميع المدن التي زرتها.. ألقيتُ محاضرات، عن الوطن العربي بصورة عامّة، وبصورة خاصة عن سورية ـ التي تقف بوجه الامبريالية والصهيونية صامدةً تتحدّى.

وكانت محاضراتي.. تلاقي اقبالاً شديداً من المواطنين ـ وحتى الذين لا يحسنون فهم اللغة العربية كانوا يحضرونها.. ويعربون عن سرورهم بوجود من يتكلم لغة آبائهم وأجدادهم.. ويتحدّث عن أرضهم ولغتها وحضارتها.

* * *

ثم زرتُ «تشيلي»، وأمضيتُ فيها ما يقرب من شهرين ـ كانا حافلين باللقاءات والمحاضرات والحفلات.

وكان «حافظ اللبّان»، سفير تشيلي السابق في سورية ولبنان، هو عميد الجالية السورية، وركناً بارزاً في المجتمع العربي والتشيلاني.. ولم يكن القانون التشيلاني يسمح بتعيين رؤساء البعثات الدبلوماسية ـ إلا إذا كانوا مولودين في «تشيلي». وكان «اللبّان» مولوداً في سورية بمدينة حمص.. فعُدّل القانون لأجله، وصار يُطلق عليه اسم «قانون اللبّان».

وقد أراد «حافظ» أن أكون ضيفاً عليه طوال إقامتي في «سانتياغو»، ولكنّ «محمد البطحيش»، رجل الأريحيّة والمروءة، وهو من مدينة «النّبك»، أصرّ على أن أكون في ضيافته وحده ـ وهذا ما حصل.

وصدف أثناء وجودي في «سانتياغو»، عاصمة «تشيلي»، أن زارها وزير خارجية الأردن، وجرى له استقبال حافل. وقد أُقيمت له حفلة تكريم تكلمتُ فيها. وتلطف الوزير في كلمته فحيّاني بعبارات لطيفة، وأثنى كثيراً على الرسالة القومية التي أؤديها في المغترب ـ وقد بلغه الكثير عنها.

* * *

أثناء تلك الرحلة، لبعض بلدان أمريكا الجنوبية، تنقّلتُ في ربوع البلدان الثلاثة: فنزويلا، والأرجنتين، وتشيلي ـ كما ذكرت. وزرتُ بعض ولاياتهن ومدنهنّ. ولقيتُ من أبناء الجالية حفاوةً وترحاباً لا أستطيع وصفهما، والتعبير عن مدى حرارتهما، إلا بترداد عبارات الشكر والامتنان.. أقدمها لتلك الجالية الغنيّة بمكارمها، والنبيلة بشمائلها، والسخيّة بعطاءاتها الروحية والوطنية.. والتي أضافت إلى التاريخ العربي الحافل.. ملحمةً مشرقةً عزّزت بها الاسم العربي، والكيان العربي. وأعطت فكرة مشرّفة عن أمتّها ووطنها الأوّل.

وفي بعض الولايات.. كنت أزور حكّامها، ومجالسها النيابية، وألقي خطباً في بعضها. وقد أقام لي سفير سورية بالأرجنتين «الدكتور أسعد حومد» مأدبة عشاء حافلة في دار السفارة. وهو في منتهى الطيبة والنبالة والخلق.

وفي مدينة «توكومان».. التي يسمونها «حديقة الأرجنتين».. استقبلني في المطار رئيس بلدية «توكومان» إلى جانب وجهاء الجالية، ورؤساء أنديتها وجمعيّاتها. وحضر حفلة التكريم الواسعة التي أقيمت لي في «الجمعية الاسلامية» التي كان يرئسها آنذاك، الصّديق «محمد خليل أبو علوش» الذي يتمتع بسمعة كريمة، ومكانة مرموقة.. وله مواقف مشهودة من الشهامة والغيرة. وقد أورث شمائله كلها لنجله الطبيب اللاّمع «الدكتور اسماعيل» الذي هو سرّ أبيه. وقد تلطف الشاعر المبدع الأستاذ «علي محمد عيسى» فحيّاني بقصيدة.

وفي اليوم الثاني قمتُ بزيارة رئيس البلدية مع فئة من أركان الجالية ـ يتقدمهم الوجيه الكبير «الشيخ حسن عبد الهادي»، ورؤساء الأندية والجمعيّات العربيّة.

* * *

عند انتهاء زيارتي للأرجنتين.. زرتُ البرازيل ـ مبتدئاً بمدينة «ريودي جانيرو» التي تُعتبر من أجمل بلدان العالم.. إن لم تكن أجملها جميعاً. وفيها جالية عربية مشهورة بغيرتها ووطنيّتها وعاطفتها، وتعلّقها بالوطن الأول.

ولقد وعدني صديقي «محمد حيدر عدبا» الذي هو وحده جالية مستقلّة بشمائلها وطاقاتها وعطاءاتها.. وعدني بأن يحصل لي على صور عن زيارتي، في ذلك الحين، لعاصمة البرازيل السابقة.. كي أضعها في كتابي المقبل: «ذكريات الغربة» الذي سأتحدث فيه عن الجمعيّات، وأركان الجالية، حديثاً شاملاً مسهباً.

ومن مدينة «ريودي جانيرو» ذهبتُ إلى مدينة «سان باولو».. التي تُعتبر، بحقّ، عاصمة الجالية العربية في القارة الأمريكية ـ نظراً لضخامة أبناء الجالية، وسعة نفوذهم، ووفرة غناهم. وبعض أثريائهم.. يُعتبَر في طليعة أثرياء تلك البلاد الواسعة التي هي أشبه ما تكون بقارّة.

وزرت خلال اقامتي في البرازيل ولايات: كوروتيبا، وريوكراندي دوسول، وماتوكروسو، وبرازيليا، والأمازون، وغيرهنّ. وقويت أواصر المودة بيني وبين أركان الجالية في كل منهنّ.

في «برازيليا»، العاصمة، كنتُ أحلّ في منزل وجيه الجالية صديقي «سامي جبرين». وفي «الأمازون» بضيافة المناضل المعروف «أسعد زيدان» صاحب جريدة «أخبار العرب».. التي كانت في ذلك الحين الصوت المتحرّر المدوّي في سائر أنحاء تلك البلاد. وزرتُ بعض مدن الولاية ـ حيث قنصل سورية الفخري «حليم الحلو» الذي يمثّل بلاده خير تمثيل، ويعطي عنها أروع فكرة وصورة.

وكانت البعثات الدبلوماسية السورية، في كل بلاد زرتُها، تتلطّف وتقيم لي مآدب تكريم ـ مما يجعلني أسجّل لها ذلك بكل تقدير وامتنان.

وكنتُ، كما مرّ بنا، أُدعى في بعض البلدان الأمريكيّة التي زرتها.. لزيارة المجالس النيابية وإلقاء كلمات فيها.

* * *

واستقرّ بي المقام أخيراً في مدينة «سان باولو» ـ البرازيل.

وسنة ١٩٦٧ ألّفتُ كتاب «من صميم الأحداث» ـ بناءً على طلب صديقي الودود «فؤاد سرحان».. الذي له عليّ دالّة الأخ على أخيه، والصديق على صديقه.

وفي الكتاب دراسة القضايا العربية.. والأحداث التي مرّت بي، ومررت بها. وقد تعهّد توزيع ذلك الكتاب أصدقاء أوفياء ومواطنون غيارى ـ في طليعتهم: «فارس بطرس»، و«فؤاد سرخان»، و«ابراهيم رفقة» ـ وقد ذكرتُ أسماءهم الكريمة في نهاية الكتاب تقديراً لجهودهم وعواطفهم. ومن المؤسف أنه سقط سهواً من المنضّد اسم الصّديقين: «سعيد ضرغام»، و«محمد سرحان» ـ اللذين أبديا كلّ جهد واهتمام بشأن الكتاب ومؤلّفه. وأمّا «أحمد سرحان» شقيق «محمد» و«فؤاد» ـ فقد كان في كندا مع أسرته الكريمة سنتذاك.

وكانت مأساة سنة ١٩٦٧ قد حصلت بعد أن طُبع الكتاب. فكتبتُ عن تلك المأساة التاريخيّة المروعة.. كلمة تتضمّن الألم والحزن لما حدث.. وضعتُها في مقدمته دون أن تأخذ صفحاتها أرقاماً في صلبه أضيفت إلى الكتاب بعد انتهاء طبعه. وأثبتها هنا ـ لأنها، في يقيني، تعبّر عن مشاعر الانسان العربي الذي

روّعته تلك المأساة.. وأصابت كرامته، وواقعه التاريخي، في الصّميم. وهذه هي:

* * *

قارئي العزيز:

بعد أن تمّ طبع هذا الكتاب.. تتالت الأحداث وتفاقمت، ووقعت المحنة الكبرى.

وكان لزاماً عليّ.. أن أضيف صفحات إلى تلك الصفحات ـ ولكن يد المنضّد كانت قد فرغتْ منها. وكما يقال: لم يعد في القوس منزع.

وإنّ من الخير. أن تبقى هذه الملاحم في طريقها إليك ـ لتستشفَّ منها بعض صور الماضي المظلم.. وأنت في سبيلك القويم إلى غدٍ وضيءٍ مشرق ـ أو هذا ما يجب أن يكون.

نحن نكتب للتّاريخ.. ولقارىء التاريخ وحده أن يحكم. وليس من الإنصاف أن تُحجبَ عنه حقيقة الأحداث.. التي سبقت هذه الأحداث. ولا أن تحجب عنه آراء من خبروها ورافقوها وعاشوها.

يجب أن نعطي قارىء الغد. ولو وميضاً عن تفكير رجال الأمس.. وعن الأماني التي ضاعت، والحلم الذي تبخّر، والرجاء الذي خاب.. وعن الخطوات التي سبقت هذه المأساة، والأيدي التي حاكت خيوطها وأحكمتها.

يجب أن يعلم قارىء الغد.. كيف كان أملنا، وكيف جاء عملنا مخيّباً هذا الأمل.

نحن نعرف الظروف القاسية التي عاشها رجالنا.. والتي اصطدمت بها خططهم، ومناهجهم، ومطامحهم. ولكنّ أحداً منا.. لن يغفر للكثيرين منهم عدم تهيّئتهم لهذه الظروف.. وتقديرها، والاستعداد لها!

لقد كان بعضنا.. يعيش في متاهات الخيال، والأحلام، وآمال المغفّلين ـ بينما خصمنا اللدود يعيش واقعه، وواقع ناسه الذين يعيش معهم، ولهم!

كان بعض رجالنا يتّخذ من فلسطين، وقضيّتها، وسيلة للدّعاية وحبّ الظهور. ويتّخذها خصمنا وسيلةً لإقرار باطل، ومحو حقيقة!

كان بعضنا يعتبرها سبيلاً لانطلاق سمعة وشهرة.. ويعتبرها عدوّنا سبيلاً لغرضه الأعمى، ونزواته الطائشة!

كان دأبنا إلقاء الخطب، واصدار البيانات والتهديدات.. وعدوّنا يتّخذ من بياناتنا وتهديداتنا وسيلةً لجمع المال، وحشد الرجال، وتكديس السلاح!

كان رجالنا يحاربون بعضهم بعضاً، ويحاربون الآخرين أيضاً - بينما خصمهم يحاربهم وخدهم، ويصادق الجميع ضدّهم!

كانوا يغرقون في حمّى الهناء والترف والنّعيم - وخصمهم يغرق في حمّى التهيئة للعمل، والاستعداد للمعركة الكبرى!

ولهذا كله.. ربح عدوّهم معركته، وخسروا هم معركتهم!

وليس غريباً أن يخسرها رجالنا - بل نخسرها نحن العرب جميعاً.. ما دمنا لم نرتفع إلى مستواها تفكيراً وعملاً، وتهيئةً واستعداداً! ثمّ.. لم نعرف سبيل الجدّيّة والواقعية.. والسّهر المضني، والتضامن الصادق، والكفاح المخلص المستميت!

ليس المهمّ.. أن يحّدد المرء أهدافه – وإنما المهم بل الأهم، أن يعرف السبيل الموصل إليها.. وإلاّ ضاعت وضاع معها. وهذا ما حصل لنا – نحن العرب! فقد طفح بنا الغرور، واستبدّ بنا الزهو.. فضيّعنا إيماننا في شعاب الجهل،.. وضيّعنا بذلك أنفسنا – ثمّ وجدناها ذبيحةً في «سيناء»، ومحطمة في «القدس»، ومهشمة في «الجولان»!

وجدناها مفقودة المعالم، مهدورة الحقيقة، ممزّقة بين أنياب الضواري، وأنياب الحماقة والطيش، والادّعاء الفارغ الأعمى!

كان عدوُّنا أقوى منا.. لأنه عرف واجبه، وعرف نفسه.. وجهلنا نحن واجباتنا وأنفسنا.

لقد استخففنا بعدوّنا واستهنّا.. واعتقدنا أننا نستطيع التغلب عليه في أيام.. وإذا به هو الذي يتغلب علينا في أيام! وهكذا خسرنا الجولة الثانية - كأقسى ما تكون الخسارة، وآلم ما يكون الذّلّ والهوان!

نحن لا ننكر على رجالنا الخطوة التي خطوها.. ونبذ خلافاتهم وقت الشّدّة.. وسيرهم إلى المعركة متّحدين متضامنين. ولكنّا ننكر عليهم.. أنهم لم يعرفوا واجبهم إلا في اللحظات الأخيرة.. وأنّ بعضهم لم يستيقظ إلاّ على أصوات

المدافع، وسقوط القنابل، ودويّ الانفجارات! ولو أنهم عرفوا واجبهم قبل ذلك ـ وكانوا يقظين حذرين.. لما كانت هذه المأساة الموجعة.. ولا النتائج الأليمة التي أدّت إليها!

لقد كنّا أطفالاً في ميادين السياسة سنة ١٩٤٨ ـ وإذا بنا أكثر طفولةً سنة ١٩٦٧!!

لقد عثرنا على أنفسنا الضائعة في «العقبة»، و«القنيطرة»، و«رام الله».. فلنعد إليها: ندرسها، ونحقق معها، ونحاسبها ـ ولنَكُنْ في محاسبتنا أنفسنا: واقعيين، وصريحين، وصارمين.

ما تزال فينا بقيّةٌ من حياة.. وحدها تكفي، ووحدها تبعث الثقة والأمل.

وما تزال عندنا طاقات ضخمة.. تكفل لنا الغلبة، وتحقّق لنا النصر ـ إذا عرفنا كيف نستخدمها، ونفيد منها، وننتقم بواسطتها.

سلاح البترول.. هو أمضى سلاح في أيدينا، وأمنع وأقوى ـ إذا عرفنا كيف نستغلّه، ونستثمره، ونفيد منه. إنه وحده، يستطيع ربح المعركة الأخيرة.. وتمريغ أنف الامبرياليّة والصهيونية في التراب.

يجب أن يُقصَى عن البترول نواطيره ومستثمروه.. ويصبح في أيدي الشعب ـ وللشعب.

وأقوى من كل سلاح.. وأمنع أثراً، وأشدّ تأثيراً، هو سلاح الإيمان ـ الإيمان القومي، والإيمان الوطني.. والإيمان بأننا سادة أنفسنا، وأرضنا، وقضيّتنا.. وأنّ لنا الحقّ في أن نستعيد ماضينا، وتاريخنا، ومقوّمات خلقنا.

يجب أن نتدرّع بسلاح الإيمان.. ونصونه، ونغذّيه، ونعتمد عليه.

ولا يسوغ لنا أن يبقى للانهزامية أثرٌ في صفوفنا ـ لأنها أشدّ خطراً علينا من الأسطول الأمريكي السادس.. ومن حقد الصهيونيين، ولؤم الأمريكيين، وتآمر البريطانيين، وتكالب الرجعيين!

يجب أن يعود إلينا إيماننا بالله وبأنفسنا.. وبأن الحق الذي لا تدعمه القوّة.. يتلاشى بين أنياب الباطل ويضمحلّ.

يجب أن لا نكون اتكاليّين.. بل يجب أن نعتمد على سواعدنا، وطاقاتنا، وإمكاناتنا. يجب أن نكون واثقين.. بأن هذا «الإمهال» هو الذي جرّنا إلى «الإهمال».. وأنهما، معاً، هما اللذان أوصلانا إلى هذه النتيجة المحزنة المخزية المميتة!

لقد نسينا ـ أو تناسينا.. أنّ «شرعة الغاب» هي التي تحكم العالم، وتسيطر عليه! وهي التي تسلب الحقّ من الضعفاء وتسلّمه للأقوياء! وأن التّغنّي بالمبادىء والشعارات.. ما هو إلا تزييف للحقيقة، وتمويه لها، وللواقع معها! وأن المصلحة والمنفعة هما في نظر الدول الامبريالية: المبدأ والرسالة، والمثل الأعلى.. وما سواهما «فهو باطلٌ وقبض الريح».

لقد خبرنا، في محنتنا هذه، أصدقاءنا وأعداءنا.. وإذا بكلٍّ منهم يعمل لمصلحته، ويسعى لها، ويفتّش عنها، ولا يفكّر إلا بها! وفي وقت الشدّة.. لم نجدْ حولنا إلاّ دموع يتامى، وآهات وأشلاء ممزّقةٌ، وقوىً مبعثرة.. وآمالاً حطّمتها العاصفة. وطوّح بها الإعصار!

وقد ثبت لنا...أنّ الحياد وعدم الانحياز.. هما أسطورة مزّقتها الحقيقة، وأنكرها الواقع.. وأنّ من لم يكن ذئباً أكلته الذئاب، ومن لم يكن ضارياً هشمته الضواري!

يجب أن نحطم «الأصنام» العربية ـ التي ما تزال من عهد الجاهليّة.. ونقيم مكانها تماثيل للحرية، وأضواء للقوميّة، ومشاعل للوثبة الكبرى.

إنّ «الأصنام» العربية.. هي الرّكائز التي يستند إليها الاستعمار، ويغذّيها، ويتغذّى منها. ولأجل القضاء عليه.. يجب القضاء عليها.

لقد طوّحتْ كارثة ١٩٤٨ بكل من اصطبغتْ يداه بدم الخيانة.. وأوغل قلمه ولسانه فيها. ويجب أن تطوّح كارثة ١٩٦٧ بكل الذين ساهموا بها.. وسبّبوا باهمالهم وتقاعسهم مأساتها المروّعة، ونتائجها العنيفة المريرة.

نكون مجرمين.. إذا نحن أشفقنا على الذين لم يشفقوا على كرامتنا وشرفنا ومستقبلنا.. ونكون أكثر اجراماً إذا تركنا عقرب الساعة يمرّ.. ولم نحسب لكل

دقيقة حسابها.. ولم نستفد من كل بادرة ومناسبة وظرف.

قارئي الكريم:

لقد خسرنا معركةً.. ولكننا لم نخسر الحرب، ولن نخسرها ـ إلا يوم نخسر ثقتنا بأنفسنا، وإيماننا بقضيّتنا.. وبأننا سننتصر.

ألا نذكر ما قاله «بطرس الأكبر» امبراطور روسيا وموحدها ـ حينما أخبروه بأن جيش «السويد» الصغير.. قد تغلّب على جيشه الكبير، فقال لهم: وسيغلبوننا مرّات عديدة.. ولكننا أخيراً سنتعلّم منهم كيف نتغلب عليهم. وهذا ما كان.

لقد عشنا واقعاً مريراً.. أوصلنا إلى نتيجة مريرة ـ وما ذلك إلا لأننا استسلمنا للأوهام والخيالات، والبلاغات والإذاعات!

ويوم نبني أنفسنا على أسس واقعية سليمة.. نعرف كيف نسترد شرفنا المثلوم، وكرامتنا المهينة.. وننتصر.

عشرون دولة.. لكل منها جيشها وسلاحه.. وطرق تدريبه، وأسلوب تمرينه! هذا.. غير جائز، وغير معقول ـ بل إنه شيءٌ مخجل ومعيب!

فإما أن نضطلع، جميعاً، بمسؤوليتنا القومية الكبرى.. فيكون جيشنا واحداً، وتنظيمه واحداً، وقيادته واحدة.. أو نظلّ أصفاراً إلى الشمال ـ لا قيمة لنا ولا وزن!

نحن نعرف جيداً.. أنه لم يكن بضعة ملايين يهودي.. ضدّ مائتي مليون عربي ـ وحسب.. وإنما كانت ضدنا الامبريالية والصهيونية.. وكل من يكره الأمة العربية، ويكيد لها ولأهدافها، ويخشى وحدة كلمتها، وتنسيق صفِّها. ولو عرفنا كيف ننظِّم صفوفنا.. لعرفنا كيف نتغلب على أعدائنا ـ رغم كثرة عددهم وعُدَدهم، وإزالة أثرهم وتأثيرهم.

ما تزال أمامنا «الجولة الثالثة» ـ ويُخيّل إليَّ أنها قريبة وغير بعيدة.. فالعرب أذهلتهم الهزيمة، والعدو أسكره النصر.. ولابد من أن يصطدما في وقت قريب، وغير بعيد.

يجب أن نعود إلى أنفسنا قبل المعركة المقبلة، ونحاسبها.. ونتخذ أحكاماً

صارمةً بحق الذين تهاونوا وتقاعسوا واستكانوا.

يجب أن يصفّي الشعب العربي كل «الجيوب» الغريبة في صفوفه، وينقّي بلاده منها. ويجب أن لا نستسلم للخوف، والشعور بالهزيمة. ويوم نستسلم لهما.. نكون قد فشلنا فعلاً، ويكون عدوّنا قد انتصر فعلاً! وما دام عندنا إيمان بالكفاح.. فإن إيماننا بالنصر سيظل قويّاً ـ بل يزداد قوة.

وإنّ من الإجرام أن نتّهم كفاية الجندي العربي وإخلاصه.. بل يجب أن نُقّر ببطولته، ونعترف بشجاعته وايمانه بقضيته. فظروف المعركة.. كانت أقوى منه.. وأشدّ من شدته، وأعنف من عناده واستماتته.

كان الطيران الأميركي والانكليزي يشترك بالعدوان مع اسرائيل.. وتصبّ طائراته قنابل «النابالم» المحرقة، وكُتَل البترول الملتهب! ومن البدهي.. أنّ من يسيطر على جوّ المعركة... فإنه يسيطر عليها كلها ـ وهذا ما حدث! وهكذا لم تعد بطولة الجندي ذات أثر فعّال.. بعد تفوق طائرات الأعداء وسيطرتها على الجوّ.

إن ايمان الجندي العربي، وبطولته، هما اللذان سيحققان الأمل المرجوّ، والهدف المُبْتَغى. ولكن علينا.. أن نهيّىء له الأجواء المناسبة، والظروف المواتية.. ونقضي على تلكّؤ المتلكّئين، وتقاعس المتقاعسين، وتآمر المتآمرين.. وننطلق بقِيَمِنا ومُثُلنا، ومقوّمات كياننا ومبادئنا، وتعاليمنا المستقاة من ماضينا وتاريخنا، وسيرتنا الشريفة.. التي نعتزّ بها ونزهو.

قارئي الكريم:

يجب أن نؤمن بأن أبناء الشعب السوري كلهم.. متهيّئون للمعركة، متأهّبون لها.. وأن «سورية» تقف طاقاتها، وإمكاناتها كلها، لمجابهة العدو والقضاء عليه. ولو أنّ عند أخواتها نفس الشعور والتصميم.. لكانت المعركة غير ما كانت عليه.. ولكان المستقبل أكثر شروقاً وبريقاً ولمعاناً.

وقد يستفيد رجل السياسة من فشله.. ويتّخذ منه وسيلة لمجابهة المستقبل، وتحدّي المِحَن والأرزاء والنكبات والصعوبات..

أقول: «قد».. وأقف عندها ـ تاركاً للقارىء أن يتصوّر، وللتاريخ أن يحكم. ولنستسلم لتفاؤل شاعر الأمّة العربيّة الكبير «بدوي الجبل»:

يا مَنْ يُدِلّ علينا في كتائبه   نَظّار.. تَطَلّعْ على الدنيا سَرَايَانا

* * *

في صيف سنة ١٩٦٨ كنت أزور «شاعر عبقر ـ شفيق معلوف» في جزيرة «كواروجاه»، المنتجع الشهير لأثرياء مدينة «سان باولو»، ومترفيها. وكنت قد أجريتُ دراسةً لشعره.. أطلعتُه عليها. وكانت زوجته «روز»، العميقة الفهم، والحادّة الذكاء، تسمع ما أقرأ، فقالت:

لماذا لا تضع كتاباً عن شعر «شفيق» وتنقده ـ مثلما تمدحه؟ فقلتُ لها: لبّيكِ.

وكانت ثمّة شقّة بنفس البناية لكريمتهما.. وهي فارغة لا يشغلها أحد.. فانزويتُ فيها. ومن الصباح الباكر، إلى ما بعد منتصف الليل، كان القلم رفيقي ـ أو كنتُ رفيقه. وخلال بضعة عشر يوماً ـ ولا مبالغة ـ أنجزتُ الكتاب، وهو مؤلف من حوالي ٥٠٠ صفحة. وقد طبعتُ الجزء الأول منه ـ ٢٥٠ صفحة ـ في مطبعة «الحياة» ببيروت، وبقي الجزء الثاني ينتظر الوقت المناسب ليُطبَع.

وبحمد الله وتوفيقه.. فإن يراعتي متى بدأت بالكتابة.. فإنها لا تتوقّف. كان ذلك خلال سنوات طوال.. وما أعرف إذا كان السّن قد أثّر عليها الآن، أو لم يؤثّر. وكل ما أرجوه أن يكون باراً بي وبها.. فلا يفعل. ومن الله أطلب العون والتوفيق.

* * *

في «سان باولو» ـ حيث كان قد استقرّ بي المقام.. عرض عليّ الأصدقاء فكرة تأسيس جريدة... وبعد تداول الرأي، ودراسة الفكرة من جميع جوانبها، أصدرت جريدة «الأنباء» ـ بثماني صفحات من الحجم الكبير، وباللغتين العربية والبرتغالية.

وكانت العقبة الأولى.. وجود رئيس تحرير للقسم الاسباني. وقد وُفّقنا بانضمام الزميل «جوليو أطلس» إلينا ـ وكان صحفياً بارعاً، ونجماً تلفزيونياً لامعاً.

و«أطلس»، والشاعر «نبيه سلامة» ـ الذي انضمّ إلى القسم العربي، بعدئذٍ، وكان سكرتير التحرير، من أطيب وأخلص الذين عملوا معي.. فقد كانا مثال الأمانة والاستقامة.

رحم الله «جوليو أطلس».. الذي رحل إلى العالم الآخر، بعد أن رحلتُ من البرازيل، وحفظ «نبيه سلامة».. بقيّة السّلف الصالح من الشعراء القُدَامَى في بلاد الأمازون.

وقد لقيتُ، في مطلع العمل، عقبات كثيرة، وعانيتُ معاناةً قاسية ليس هنا مجال بحثها وعرضها.. ولكني عقدتُ العزم على عدم التراجع ــ ومن عادتي، متى ما أقدمتُ، أن لا أتردّد، ولا أتراجع.

ولا شكّ أنه قد كان لمساندة الدبلوماسيين السوريين، وفي طليعتهم «أبو النور طيارة»، سفير سورية في البرازيل حينذاك، و«محمد خضر» قنصل سورية العام في «سان باولو»، مواقف مشجّعة، ودعم معنويّ كريم، وكلاهما صديق ـ وخاصة «محمد خضر» الذي تربطني روابط وثيقة به، وبأسرته النبيلة، وأسرة قرينته الأديبة السيدة «أمل»، كريمة صديقنا «الشيخ محمود حبيب»، وجه بانياس المشرق، ونائبها المرموق في أكثر الفترات. و«محمد خضر» هو من ألمع الدبلوماسيين السوريين.

ويعرف المسؤولون في سورية، وكبار أبناء الجالية، أنه قد كان لجريدة «الأنباء» أثر كبير، ودور هام، في تقوية الصّلات وتمتينها بين المغتربين والوطن الأمّ ـ أو «الوطن الأب».. كما يحلو لبعض اللغويين، أن يصحّحوا التّسمية الشّائعة.

وقد تلطّف المغترب المعروف «الدكتور سامي القدسي».. فقدّم لنا آلة طبع ضخمة ـ وذلك فضلاً عن الدعم الشهري الذي ظلّ يقدمه للجريدة إلى أن استطاعت أن تكفي نفسها بنفسها.

رحم الله «سامي القدسي».. فقد كان مثال الشهامة والأريحيّة والمروءة. ولم يعرف الاغتراب من هو أكثر سخاءً منه ـ سخاء قلب ونفس وكفّ. وحياته صفحة

نقيّة في تاريخ الاغتراب ـ بل ملحمة خالدة فيه.

وكان العثور على مُنَضِّدٍ عربي ـ يقتصر عمله على الجريدة وحدها.. من أشدّ الصعوبات التي جابهتنا. ولكني في زيارتي للوطن، بعد اصدار الجريدة، استقدمتُ فتىً من صافيتا توسّمتُ فيه الخير.. فكان عند الثّقة به، والأمل المرجوّ منه ـ وهو «يوسف عبد الحميد عباس».. وقد أثبت إخلاصه لعمله.. الذي كان يضطره، عند بدء ممارسته، أن يبقى في المطبعة، ببعض الليالي، حتى الفجر، وكنتُ أحياناً أضطرُّ للبقاء معه.. فلا نعرف النوم ـ ولا لحظةً واحدة.. طوال الليل.

«يوسف عباس».. فتىً دؤوب على عمله، مخلص له، متفانٍ به، حفظه الله.

* * *

سنة ١٩٧٠ قام بـ «حركة تصحيحية» وزير الدفاع، وآمر سلاح الطيران، «حافظ الأسد».

لم أكن أعرفه قبل ذلك .. ولكني وضعتُ رسمه أمامي على المكتب، وبدأت أتفرّس فيه.

وقد كوّنتُ فكرةً رائعةً عن «حافظ الأسد» ـ لأني رأيتُ مظاهر الرجولة، والرصانة، والثّقة بالنفس، تبدو جليّةً واضحةً في قسمات وجهه.. مثلما تبدو سمات الصّدق والاتزان والنّبالة.

فقرّرتُ أن أقف صفحات الجريدة لتأييده.. ونشر كل ما يرد منه وعنه. وقد كتبتُ، بعدئذٍ ـ وبمختلف المناسبات.. مجموعةً من المقالات عن «الحركة التصحيحية»، وما وردنا بشأنها.. وهي لو جُمِعتْ ونُشرت في كتاب ـ لكانت كتاباً ضخماً.

وفي السنة الثانية لتوليه السلطة، وبعد انتخابه رئيساً للجمهورية ـ بإجماع لم تعرف البلاد مثيلاً له قبل ذاك.. زرتُ سورية وقابلته، وكان واسطة اللقاء صديقي «أسعد كامل الياس» الذي هو، وحده، دنيا من الطيبة والنّبالة.. والذي أحفظ له في نفسي، هو وزميله «جبران كوريّة»، كثيراً من الاعتزاز والتقدير والودّ.

وقدّمتُ للرئيس «الأسد» اثنين وثلاثين سؤالاً ـ حول الأوضاع السورية

والعربية والدولية. وقد تلطّف وأجاب عليها كلّها. واتّسمتْ أجوبته، السّديدة المحكمة، بالدّقة والصراحة والموضوعية.. فأحدثتْ دويّاً كبيراً في المقتربات.. وتناقلتها وسائل الاعلام المحلية والعالمية، وعلّقتْ عليها.

وترك «الرئيس الأسد» أثراً كريماً في نفسي عندما التقيتُه. وشعرتُ بتقدير عميق لشمائله، ولما تلطّف وأحاطني به من كريم عنايّة ورعاية.

وأنشر هنا.. الكلمة الأولى التي كتبتها بوحي من تلك الزيارة، وهذه هي:

مع الأسد.. في عرينه

لم أكن أعرفه من قبل ـ كما يحلو للمرء أن يحدد معنى المعرفة أو يتصوّرها. ولكن.. حينما جلستُ إليه، ساعةً ونصف الساعة، خرجتُ وكأني أعرفه منذ زمن طويل.

تنبع ابتسامته من قلبه ـ حينما تطلّ من شفتيه، وتبرق من عينيه.. كأنّ لها مع وجهه المشرق عهداً لا ينفصم، ورفقةً دائمة لا تزول.. وهي أقوى دليل على راحة فكر، وصفاء ضمير، ونقاء وجدان.

وثمّة نظرة سابرة عميقة الغور.. تُقَرِّبك منه، ولا تبعدك عنه.. بل تشدّك إليه برباط محكم وثيق ـ حتى لتشعر أنك مع أكرم أخٍ، وأنبلِ صديق.

ووقار.. لا يضفيه المنصب عليه ـ بل ربما هو الذي يضفيه على المنصب.

وقار.. يحفّ به جلال هدوء، ويغمر مجلسه صفاء أنس، وصدق كلمة، وروعة حديث.

كلمته.. هادئة هادفة ـ لها معناها ومؤدّاها.. ووسيلتها الدّقيقة في التّعبير عن الفكرة التي يريدها، والغاية التي يرمي إليها.

تخرج كلمته معبّرة ـ بعد أن يحكمها العقل، ويصقلها القلب. وتشعر، وأنت في مواجهته، أنّ ثمّة ذهناً صافياً هو الذي يدفع القول الذي يقوله.. ويجعلك تثق به، وتؤمن به.

ليس في حديثه توقّف.. وإنما أناة وهدوء ودقّة. ومع ذلك.. يخيّل إليك أنه يتدفق كالسيّل لأن المعنى الدّقيق العميق، في كل كلمة وموضوع، يشغل ذهنك إلى

حدّ بعيد، ويجعلك تتصوّر هذا، وتتخيّله.

ويبدو أنّ «الأسد» يقرأ كثيراً ـ لأنّ في حديثه ما يشير إلى هذا.

والرّجل العظيم.. لابدّ له من أن يقرأ ـ وإلاّ فقد الكثير من جوانب العظمة، وتراثها الثقافي والروحي والفكري.

كان «عبد الناصر»، رحمه الله، يقرأ بعد أن ينام الناس، وقبل أن يفيقوا. وكثيراً ما كان يناقش الآخرين فيما يقرأ لهم وعنهم.

وقد اغتبطتُ كثيراً.. حينما سمعتُ «الأسد» يتكلّم. وأيقنتُ أن أفكاره تشير إلى سعة أفق.. تدل عليه سعة اطلاع، وسعة ثقافة.. وأنّ الأحداث قد صقلتْ أفكاره، وغذّتها ونمّتها، والثقافة أغنتها وأثرتها.

وليس المهم أن يتدفّق المتحدّث.. ويكون واضحاً في كلماته، دقيقاً في عباراته، متزّناً باشاراته. بل المهمّ، وربما الأهم، أن يشدّك إليه برباط الثقة، ويجذبك إليه بقوة الاقتناع بما يقول، والثقة بما يبدى.

والثقة التي يغرسها المتحدث في نفسك.. هي التي تفتح كل باب مغلق، وتنير كل سبيل مظلم، وتحلّ كل مشكلة عويصة.. ثم تملأ البصر والبصيرة معاً.

حدّثتُ «الأسد» عن المغتربين.. والمصير المؤلم الذي يترصّدهم، والمستقبل المظلم الذي يحيق بهم، ويهدّد صلتهم بالوطن الأم بالزّوال، وقوميّتهم بالذّوبان والاضمحلال.. وإنّ أكثر المسؤولين السابقين لم يكونوا يفتكرون بهم إلا عندما يحتاجونهم! ولا يسأل أحد عنهم.. إلا إذا كانت ثمّة ظروف تتطلب ذلك وتستوجبه! مع أن المغتربين هم منطلق الوطن الأم.. وتُكأتُه التي يعتمد عليها في الملمّات والنائبات. وقلت لسيادته:

إن ملايين من أبناء المغتربين السوريين، في المغتربات، قد فقدوا لغة آبائهم وأجدادهم.. وبهذا الفقدان سيفقدون ارتباطهم بالوطن الأم، ويصبحون أجانب لا تربطهم بالعرب والعروبة إلا رابطة ذكرى.. ولكنها سرعان ما تضمحل وتموت ـ عندما يموت الآباء والأجداد، ويمحي أثرهم وخبرهم.. لأنّ اللغة هي مظهر القومية وجوهرها، ووسيلتها للبقاء والخلود. وعندما تتلاشى وتزول.. يتلاشى

المكوّن الأساسي للقومية ويزول ـ وهذا شيء بدهي وطبيعي.

وحقاً.. إن من العسير إنقاذ تلك الملايين كلها ـ وهي موزّعة في كثير من البلدان، وألوف المدن والقرى.. ولكن حتماً يمكن إنقاذ فئات منها تكون ركيزةً للعروبة في المهجر.. ومشجعاً للآخرين على الاقتداء بها، واتّباع سُبُلها.. ثم نواةً للمتابعة والاستمرار، والتمسك بوشائج الوطن الأم.

وقد أصغى «الرئيس الأسد» بكل جوارحه لهذا الذي قلته عن المغتربين، واستوعبه بحسّه السليم، وادراكه الواسع.

وفي اليوم الثاني. التقيتُ مسؤولين كباراً ـ وإذا بتوجيهات كريمة قد وُجّهت إليهم من «الرئيس».. فلمستُ منهم تفكيراً جديّاً بمستقبل المغتربين، واهتماماً بالغاً بهم. ووجدتُ كلّ واحد منهم مؤمناً بقضيته، مخلصاً لها ـ وهذه أولى بوادر النّجاح، وطلائع التفوق.

ما أعظم الرجل ـ حينما يكون صادقاً في ما يعد، مخلصاً في ما يقول، وبنّاءً في كل ما يعمل. وذلك وحده، دليل عظمة الأمّة، وأسمى براهين التفوق.

لقد قرأتُ كثيراً عن «حافظ الأسد»، وسمعتُ من ألسنة الناس أكثر.. وكوّنتُ، مما قرأتُ وسمعتُ، فكرةً كاملةً عنه ـ أو خيّل إليّ أني كوّنت هذه الفكرة.

ولكنْ.. حينما جلستُ إليه.. وجدتُ القلم أعجز من أن يتصوّر واقعه، ويلّم بكل نواحي سعة أفقه، وانطلاق فكره. وصدق الشاعر:

هكـــذا هكـــذا.. وإلاّ فـــلا لاَ   ليـسَ كـلُّ الرجـالِ تُدعـى رِجـالاً

* * *

والمغتربون.. مدينون للرئيس «الأسد» بالكثير. فهو الوحيد الذي أوفد معلمين إلى القارّة الأمريكية لتعليم أبناء المغتربين لغة آبائهم وأجدادهم. وقبل بادرته الكريمة هذه.. لم يبدر مثلها من أي رئيس، ولا في أيّ عهد من العهود.

وفي عهد «الرئيس الأسد».. وُجِدتْ منظّمة «اتحاد الجمعيّات العربيّة» ـ التي أطلق عليها اسم «فياراب».. وقد أسِّست سنة ١٩٧٣ في مدينة «سان باولو»، أكبر مدينة صناعية في أمريكا الجنوبية، وفيها أكبر جالية عربية. وكانت هي

المهيّأة لانعقاد المؤتمر الأول لـ «فياراب» فيها. ولكن أزمة سياسية، اصطنعها السفير البرازيلي في دمشق، قد أوجدت خلافاً حاداً بين البرازيل وسورية.. وأوشكت العلاقات بين البلدين أن تصلِ إلى طريق مسدود - لولا أن تدارك الأمر وفد سوري ذهب من البرازيل إلى دمشق، وقابل «الرئيس الأسد»، ورجاه تلافي الموضوع بحكمته، وحسن درايته. كما أنّ شخصيّات من الجالية زارت رئيس الجمهورية البرازيلية في العاصمة برازيليا، ورجته عدم الاصغاء إلى تقارير سفيره في دمشق ـ لأنها مغرضة.. ومقصود منها إيجاد أزمة سياسية بين البلدين الصّديقين.

ونجحت الوساطة. وتراجعت البرازيل عن موقفها الصُّلب حينذاك.. ونقلتْ سفيرها الصهيوني المتحيّز من دمشق.

في تلك الفترة.. كان من المرتقب أن يُعقد «مؤتمر فياراب» الأول في سان باولو، وقد عُقِدتْ عدّة اجتماعات تمهيديّة.. تكلمتُ فيها. ولكن الأزمة السياسية التي أشرنا إليها.. قد حالت دون ذلك، فعُقد المؤتمر في بوينوس ايرس عاصمة الأرجنتين، وقد حضرتُه ـ وكنتُ أحد خطبائه.. كما كنتُ من المشرفين على إعداده، والتّهيئة له، والعمل لانجاحه. وقد حضرته وفود من بلدان أميركا الجنوبية، وبحر الكاريبي الذي توجد في جزره «جوالٍ عربية».

وما يزال «الرئيس الأسد» يرعى مؤتمرات «فياراب»، ويدعمها بالمال والنفوذ، والتّوجيه السّديد، وسائر الوسائل التي تكفل نجاحها وانطلاقها. ولأجل ذلك.. تذهب الوفود الرسميّة إلى القارّة الأمريكية باستمرار ـ كما تزور وفود منها الوطن الأمّ، وتعقد اجتماعات فيه.

والمؤتمر الأخير الذي عقد في الأرجنتين رئسه الأستاذ «عبد الله الأحمر»، الأمين العام المساعد، والشخصية المتّصفة بالحكمة والرّصانة والاتزان. ومنذ بضع سنوات.. حضر المؤتمرات الخفيّة والعلنيّة التي كانت تحاك ضده من بعض أعضاء المؤتمر أنفسهم! ولكنّ شخصيّة الأستاذ «الأحمر» كان لها أثر فعّال في احباط المؤامرات بـ «هافانا»، والقضاء عليها، ثم بانفضاض المؤتمر.. وقد

خيَّمتْ عليه رايّة الوئام والوفاق.. وهو عكس ما جرى أخيراً في الأرجنتين... حيث نفذتْ أغراض المغرضين إلى ما كانت تحلم به منذ وقت طويل! و«الأحمر» طاقةٌ قوميةٌ ضخمة لا حدَّ لها.

وفي كتابي المقبل، «من ذكريات الغربة»، سأتحدث مطوَّلاً عن «فياراب»، وعن رأيي بكيفيّة تشكيله.. وكيف يجب أن ينطلق ويعمل.

ولابدَّ هنا.. من ذكر «الدكتور محسن بلال» ـ الطَّاقة الضّخمة من العطاء الروحي والفكري والعلمي.. والشخصية المرموقة التي عملت بجد واخلاص في سبيل انجاح «فياراب»، وأهدافه القومية. فهو يُعتبَر، بحقّ، موضع ثقة «الرئيس الأسد» للعمل في أجواء «فياراب»، والسَّعي من أجل انطلاقها وبقائها ونمائها.

وقد زار «الدكتور بلال» المغتربات، في كثير من المناسبات، وكان موضع تقدير الجميع، وحبّهم واعجابهم. وهو، إلى جانب مقدرته السياسية والمعيّته، فإن مقدرته الطبية المتفوّقة. هي حديث زملائه الأطباء في المغتربات والوطن الأم.

* * *

بعد انتهاء زيارتي لسورية سنة ١٩٧١ ـ حيث أمضيتُ فيها شهراً ونيِّفاً. وكنت في تلك الفترة الحافلة باللقاءات والزيارات، ضيفاً على الحكومة. وبعد انتهائها عزمتُ على زيارة بعض الأقطار العربية: بنان، مصر، تونس، الجزائر وطلبت من الأستاذ «عبد الحليم خدام»، وكان وزيراً للخارجية، أن يتلطَّف ويوعز لأحد المسؤولين في الوزارة كي يتصل ببعثاتنا الدبلوماسيَّة في الدول العربيَّة المارّ ذكرها، ليهيّئوا لي مقابلة بعض كبار المسؤولين فيها. وقد تلطَّف وفعل. أمّا لبنان ـ حيث لا يوجد تمثيل ديلوماسي بين البلدين.. فقد أجرى أمين عام وزارة الخارجيَّة السوريَّة اتصالاً هاتفياً بأمين عام وزارة الخارجية اللبنانية ـ الذي كان عند حسن الظن به، والأمل المرجو منه. وقد قابلتُ في بيروت رئيس الجمهورية «سليمان فرنجيَّة»، ورئيس الوزارة، وبعض كبار المسؤولين. وكان الرئيس «سليمان فرنجية» لطيفاً جداً، وانطلق معي في حديث ودّي طويل.

وقبل سفري إلى مصر. زرتُ «السيد موسى الصدر» مع الصديق «زيد الزين»

المفتش بوزارة العدل اللبنانية ـ وهو نجل المجاهد العلامة «الشيخ عارف الزين» صاحب مجلة «العرفان».. التي مرّ ذكرها وذكره. وقد حضرت حفلتي تكريمه وتأبينه، وكنت خطيباً في الاثنتين.

وقال لي «السيد الصّدر» إنه حريصٌ على أن يجتمع بأبناء محافظة اللاذقية، المقيمين في مدينة طرابلس، ويقوّي الصلات بينه وبينهم لما فيه خير الجميع. وحدّدنا يوم جمعة لذلك اللقاء. ومن طبعي.. أنني أحرص دائماً على التقيد بالمواعيد. وقد انتظرت في المسجد، مع الكثيرين من أبناء الجبل، مجيء «السيد».. ولكن يبدو أنّ عارضاً مفاجئاً قد حال بينه وبين المجيء. وقد أدّيتُ، وبقية المواطنين، «صلاة الجمعة» حيث أُتمّ بالمصلّين «الشيخ محمود مرهج»، خريج «النجف الأشرف». ولم أر «السيد موسى الصدر» بعدها أبداً، وكان ذلك آخر العهد به. وقد سافر بعدئذٍ إلى ليبيا، بدعوة من «القذافي»، ثم اختفت آثاره.. ولم يُعرف عنه شيء بعد ذلك!

ومن لبنان سافرتُ إلى مصر ــ حيث أمضيتُ بفندق «هيلتون» بالقاهرة شهراً ونيفاً، وكنتُ ضيفاً على الحكومة المصرية طوال تلك الفترة. وألقيتُ في الفندق محاضرة عن الاغتراب والمغتربين.

وزارني بالفندق «خالد الحسن»، أحد الأقطاب الفلسطينيين المشهورين، وله عندي جميل لا أستطيع نسيانه.

فمرّةً زرتُ الكويت، وكنتُ أحمل رسالةً من «الرئيس شكري القوتلي» إلى أميرها ــ تتعلق بموضوع أحد المواطنين. وبعد أن قابلتُ «الأمير» ـ أو «الشيخ» حسب التعبير هناك ـ بحثتُ عن فندق لأحلّ فيه فلم أجد مكاناً صالحاً بأي فندق ـ إذ كانت الفنادق كلها مزدحمةً ولا مكان فيها، فعزمتُ على العودة بنفس اليوم. وصدفةً التقيتُ «خالد الحسن»، وكانت بيننا ثمة معرفة من دمشق، وكان يتردد على مكتبي بمجلس النواب، من وقت لآخر ـ لأنه كان يعمل باحدى الصحف السورية.

وعرف عزمي على العودة بنفس اليوم ـ لأني لم أعثر على غرفة بأحد

الفنادق الرئيسية، فدعاني لبيته وأصرّ على دعوته. وهكذا مكثتُ في ضيافته، وبناء على إلحاحه ثلاثة أيام. وقد علمتُ، قبيل سفري، أني كنتُ أنام في سريره الخاص، وأنه والسيدة حرمه كانا ينامان على فراش عادي بالصالون.

كم خجلتُ من نفسي، حينذاك، وتألمتُ.. وأمّا هو فإنه يرى ذلك شيئاً عادياً، وأنّ من طبع العربي وخلقه أن يفعل هذا.

وسأظلّ، طوال عمري، شاكراً له ذلك الموقف الكريم الذي لن أنساه ما حييت. وهو في طليعة المناضلين الفلسطينيين البواسل.

وأعرف.. بأن مثل هذا قد حدث معي في كثير من الأوقات ـ حينما كان يزدحم منزلنا بالضيوف.. فأضطر إلى تقديم غرفتي الخاصة لأحدهم، وأبيت على فراش ممدود على الأرض ـ في غرفة أخرى. وأذكر مرةً أني قضيت الليل بأكمله على أحد المقاعد في الصالون.. لأن البيت كان يغصّ بالضيوف الكرام.

* * *

في القاهرة .. زرتُ «الدكتور عبد القادر حاتم»، وزير الاعلام، وأنا أحفظ له في نفسي كثيراً من التّقدير والودّ. كما زرتُ «الدكتور عبد العزيز كامل»، وزير الأوقاف، وكنتُ التقيتُه قبل ذلك في البرازيل.. حينما زارها لحضور «المؤتمر الاسلامي» الذي عُقِد في مدينة «سان باولو».. وأُعجبتُ كثيراً بنضارة روحه، وصفاء إيمانه، وصدق تقاه.

ودعاني «الدكتور كامل» لحضور الاحتفال بيوم مولد «الحسين»، سِبْط «الرسول»، وابن «الامام علي»، ع، وقد أقيم الاحتفال في المسجد المسمى باسم «الحسين». وتلطّف الوزير «كامل» فأوعز للمشرفين على المسجد أن يفتحوا لي «الغرفة الخاصة» التي يُوجَد فيها خزانة مغلقة، ضمن حائط مغلق، قميص «النبي محمد»، وعصاه، وبعض شعرات من لحيته الشريفة. وكانت قد حملتها «زينب» حفيدة «الرسول»، إلى القاهرة ـ حينما ذهبتْ إليها بعد استشهاد أخيها «الحسين» في «كربلاء». وقد دُوِّن على جدران «الغرفة الخاصة» ما قاله الرسول بحفيده «الحسين».

وتلك «الغرفة» ـ التي لها حرمتها وقدسيّتها.. لا تُفتَح عادةً إلا بالمناسبات، ولبعض الزائرين المرموقين. وقد تلّطف وزير الأوقاف وأوعز بأن تُفتَح لي. وبنعمة الله وفضله.. رأى في أمريكا حينما زارها، مدى الأثر الذي لي في نفوس المغتربين.. وقد ذكر هذا في مكتبه، وفي مسجد «الحسين» عليه السلام.

حقاً.. إن المكان رهيب ـ يبعث على الخضوع والخشوع، والعودة إلى ذلك الماضي السحيق.. حيث امتدت أيْدٍ سفاكة مجرمة إلى «الحسين»، إلى سبط الرسول، ونكّلت به وأردته!

ولا يستطيع أيٌّ كان.. إلا أن يقف خاشعاً بذلك المكان.. المهيب الرهيب.

ويُروى.. أنَّ قتلة «الحسين» حملوا رأسه إلى «يزيد بن معاوية»، ورموه على الأرض.. وكان في يده قضيب.. فصار يعبث فيه بشفتي «الحسين»، وكان أحد صحابة رسول الله موجوداً.. فصرخ وقال:

وَيْلَكَ.. والله، رأيتُ «رسول الله»، يضع شفتيه على هاتين الشّفتين اللتين تعبث بهما. وخرج «الصحابي» الجليل وهو يبكي.

* * *

بعد أن جاء وزير الأوقاف، وأدّينا معه صلاة العشاء، خرجنا معاً من «الغرفة الخاصّة» إلى قاعة المسجد الواسعة التي غصّتْ بالمصلين الذين قُدِّر عددهم بخمسة آلاف ونيف.

وتبارى الخطباء، وهم من كبار الشخصيات العلمية والدينية والسياسية، يشيدون بـ «الحسين» عليه السلام، وبعظمة شخصيته، ومكانته عند جدّه «الرسول»، ويردّدون الأقوال التي قيلتْ فيه، وبآل بيته الكرام.

ولقد فوجئتُ ودهشتُ.. وما حسبتُني في القاهرة، وإنما حسبتني في «النجف»، أو «كربلاء». وهذا ما قلته لـ «الدكتور عبد العزيز كامل»، ولرئيس مجلس النواب وكان موجوداً في ذلك الحشد الكبير ـ وقد أكد لي، حينما زرتُه في اليوم الثاني بمكتبه، أنه حريصٌ كل الحرص.. على حضور الاحتفال سنوياً بمولد «سيدنا الحسين» ـ كما قال.

وطلبتُ من وزير الأوقاف.. أن يوجِّه دعوةً إلى بعض علماء «الشيعة».. كي يحضروا هذا الاحتفال الضخم كل عام، ويروا هذا الحشد الكبير، ويسمعوا ما يقال فيه. وإنّ من شأن ذلك.. أن يزيد في التحام القلوب وإلفتها.. ويقضي على دعاة التفرقة والفتنة. فأثنى على الفكرة، ووعد بتنفيذها ابتداءً من العام القادم، سنتذاك ـ ولعله فعل.

* * *

في القاهرة.. نعمتُ بلقاء «الدكتور محمود السيد»، وقرينته ابنتي «سميّة»، وقد جاءت إلى القاهرة.. لتبقى إلى جانب زوجها، وهو يتهيّأ لنيل شهادة «الدكتوراة» في أصول تدريس اللغة العربية.. وهو اختصاص واسع وشامل وعميق، لا يقدم على الحصول عليه.. إلاّ من هو واثق من نفسه، وجَلَده، وسعة مداركه. والدكتور «السيد» هو هذا. وقد نال شهادته بتفوق، وكان موضع تقدير أساتذته وزملائه جميعاً.

قضينا معاً.. أبو بيان، وأم بيان، وأنا، أياماً حلوةً ممتعة... كانت قصيرةً بعددها ـ ولكنّها كانت حافلةً وأنيسة.

وقد زرتُ، والدكتور «السيد»، سفير سورية في القاهرة «الدكتور سامي الدروبي»، واستعرضنا موقفه المؤثّر جداً.. يوم قدّم أوراق اعتماده لـ «الرئيس عبد الناصر».. وكيف بكى ـ وهو يقول له:

أمس.. كنتُ أحد رعاياك. واليوم أجيء سفيراً للبلد الذي كنت أنت رئيسه!

وقيل: إنّ «عبد الناصر» اغرورقت عيناه بالدموع ـ وهذه حال الدنيا!

* * *

من مصر.. ذهبتُ إلى الجمهورية الشعبية الليبية الاشتراكية وو.. الخ! ومكثتُ فيها خمسة عشر يوماً، والتقيتُ بعض كبار المسؤولين الليبيين. وهالني ما رأيته من تأخر الشعب الليبي، وسطحية ثقافته، وفقدان الحياة الاجتماعيّة بين أبنائه ـ وذلك كله من أثر الاستعمار وتأثيره، ومخلّفاته وبقاياه!

كان ذلك.. سنة ١٩٧١ ـ وحتماً لقد حصل تطوّر بعد قيام الثورة، وجرى

العمل على رفع سويّة الشعب وتحرّره من الجمود والتخلّف.. وقد اجتمعتُ، بعد ذلك، بعدد من الليبيين في المغترب، وترك بعضهم أثراً كريماً في نفسي.. وشعوراً بأنّ الانفلات من ربقة الماضي قد بدأ يأخذ مجراه في تلك البلاد التي كانت في عهد الاستعمار غنيةً بالبترول، وفقيرةً بالثقافة.

ومن ليبيا.. ذهبتُ إلى تونس ـ حيث أمضيتُ فيها ثلاثة أيام، ورأيتُ ثمّة فارقاً واضحاً بين التطوّر العمراني والثقافي في البلدين الجارين.

في تونس.. تجد الانسان العربيّ ممتلئاً حيويّة ونشاطاً، واعتداداً بالنفس.

ثمة اعتداد، في نفوس البعض، يدلّ على فراغ وتفاهة.

وثمّة اعتداد فُطِرتْ عليه بعض النفوس.. وليس فيه تَعَالٍ على الآخرين، ولا ازدراء بهم.. وإنما هو زهوٌ يشير إلى قوة الشخصية، وغناها الروحي والفكري والثقافي، وهو ما تجده في التونسيين ـ وربما هو في الجزائريين أكثر بروزاً ووضوحاً وهيمنة ـ ولكن.. وراء خشونة المظهر، في الجزائريين، صفاءٌ وبراءةٌ وطيبةٌ.

وفي يقيني ـ ومهما تكن البواعث والمسببات .. فإن النفوس المفعمة خلقاً ونضارة، والمكتنزة علماً وفهماً، يكون التواضع سمتها، ونكران الذات صفتها، والتهذيب وسيلتها وخميرتها.. وذلك كله، أو بعضه، هو الموسوعة التي لا تفنى، والمعين الذي لا ينضب.

وربما يفوق اعتداد الانسان الجزائري بنفسه.. أيَّ انسان آخر ـ وأكاد لا أستثني.

فالجزائريون.. ثاروا وحاربوا، وقاوموا وجابهوا، وضحّوا طوال بضع سنوات.. ووقفوا مواقف بطولة وتضحيات ـ لعلّها من أروع ما عرف التاريخ ودوّن المؤرّخون. ولعلّ مردَّ اعتدادهم الصارخ يعود إلى هذا ـ حتى إن سائق سيارة أجرة.. يرى نفسه مثل رئيس الجمهورية بالعمل للجزائر ـ ولا أقلّ! وقد قال لي أحدهم مرة:

كنتُ و«أبو مدين» نحارب معاً. وبعد أن حررّنا بلدنا من الأجنبي.. ذهب هو

يخدم الجزائر عن طريق رئاسة الجمهورية.. وأنا أخدم الجزائر بواسطة هذه السيارة. هو يعمل رئيس جمهورية، وأنا أعمال سائق «تكسي». وكلانا نخدم بلدنا!

هذا العنفوان الطاغي عند الجزائريين. له بواعثه ومبرراته ـ كما مرَّ بنا.

وأمَّا الذين يشكون فقر الروح، ونضوبها، وجفافها.. فأي عذر لهم ـ لاعتدادهم وزهوهم وتعاليهم؟!

وفي الجزائر.. زرتُ «الدكتور ابراهيم ماخوس»، وهو يعمل طبيباً فيها. وكان في الثورة قد تطوَّع مع الثائرين، يعالج ، ويضمِّد جراحهم، ويحمل السلاح معهم، فقدَّروا له هذا الموقف، وحفظوه له.

وله عندي ذكرى كريمة. فحينما كنتُ في «سان باولو» بلغ قنصلها العام «الدكتور رشيد القباني» أنَّ ثمة قراراً أُعِدّ بتسريحه وهو قيد الصدور. وسألني إذا كنتُ أعرف وزير الخارجية فأكتب له ـ وكان «الدكتور ابراهيم ماخوس» هو وزير الخارجية، ولم أكن أعرفه ـ ولكني أعرف عنه أنه رجل مروءة وشهامة. فكتبتُ له، ورجوته بشأن «رشيد القباني»، وجاءني جواب منه يقول فيه.. إن تسريح القنصل كان قيد التوقيع، ولكن بعد وصول رسالتي عدل عن تسريحه وأبقاه. ويقول في رسالته اللطيفة إنه لا يعرفني.. ولكن يعرف عني الكثير، وأنه مستعدّ لتلبية كل رغبة لي. وفي رسالته يطلب مني أن أشكر الجالية باسمه لِتَبَرُّعها «بدار للقنصلية السورية».

وجرى مثل ذلك.. مع المرحوم «عادل السباعي»، مدير مكتب «الجامعة العربية» في «بوينوس ايرس»، فكان قد بلغ السن القانونية لانهاء الخدمات، فأُنهيتْ خدمته. وطلب مني أن أكتب إلى الأستاذ «عدنان عمران»، معاون أمين عام الجامعة للشؤون السياسية والاداريَّة كي يمدّد له لمدة عام.. فكتبتُ له، وجاءني الجواب أن القرار قد صدر، ولكنه سيعيد النظر به، وطلب مني، برسالته اللطيفة، أن أخبر «السباعي» بأن يبقى في عمله، وسيصله قرار التَّمديد، وقد وصله.

مثل هذا.. حدث معي كثيراً في الغربة. ومنه يُستدَلّ أن الأخوان الكرام يحفظون لي ذكرى كريمة في نفوسهم.. وأن الاغتراب لا يمحوها ـ بل يحييها. فشكراً لهم.

* * *

عندما وصلتُ مدينة الجزائر.. كان القائم بأعمال السفارة السورية بانتظاري في المطار ـ وهو ما كان يحصل عند وصولي إلى مطارات البلدان العربية التي زرتُها، والتي مرَّ ذكرها. وقد تلطّف الدبلوماسيون في السفارات العربية تلك.. فاهتموا بي أثناء اقامتي، وأكرموني. ومن المؤسف أنني لم أحتفظ بأسمائهم الكريمة. ولكنّي، من أعماق قلبي، أسجّل لهم جزيل شكري وامتناني.

في مطار الجزائر.. بينما أنا في الصف الطويل، مع بقية المسافرين، أمام ادارة الأمن والجوازات، سمعتُ صوتاً يذكر اسمي، ويسأل عني فتقدمتُ منه وعرّفتُه بنفسي، وعرّفني بنفسه.. إنه القائم بأعمال السفارة السورية في الجزائر. وطلب مني جواز سفري ليأخذه إلى الموظّف المختص.. ويريحني من الوقوف في ذلك الحبل الطويل من المسافرين. وبحثتُ عن «الجواز» في جيوبي فلم أجده. واضطربتُ، وقلتُ للدبلوماسي السوري:

حينما كنتُ في مطار تونس ختمه رجال الأمن، وسلّموني إياه، ووضعتُه في جيبي. ولعلّه فقد مني في الطائرة.

وذهبنا معاً إلى الطائرة ـ وكانت ما تزال جاثمةً في مكانها. وصعدنا إلى حيث كنت أجلس، وبحثنا المكان.. فلم نجد الجواز. وقالت لنا «المضيفة بالطائرة»:

نحن ننظّف المقاعد وما حولها، ونحمل النفايات إلى الخارج.. فقلت: لعله بين تلك النفايات. وأسرعنا إلى حيث هي على أرض المطار، وبحثوا لنا فيها ـ وإذا بـ «جواز السفر» بينها!

من الغرابة، كلّ الغرابة، أن يحصل معي هذا.. لأني دقيق جداً بترتيب أموري، وتنسيق أوراقي وحوائجي. ولكنه مع الأف قد حصل!

وكذلك.. حدث معي ما يشبهه في «لشبونة»، عاصمة البرتغال، وكنتُ ذاهباً

إليها من الأرجنتين ـ وأنا في طريقي إلى الوطن.. ففي مطار «بوينوس ايرس» جاء صديقي «رفيق حدّاد» وأعطاني مغلّفاً ضخماً كي أسلّمه لوالده في صافيتا. وسألته إذا كان فيه أوراق ماليّة، أو مجرّد أوراق عاديّة.. فقال لي: فيه مبلغ من المال مرسل لوالدي.. وحاولتُ وضعه في جيب سترتي، فلم تتّسع له. فاضطررتُ لوضعه في جيب البنطلون الخلفيّة ـ وقد بقي نصفه داخلها، والنصف الآخر خارجها.

ووصلنا مطار «لشبونة» في الليل، وأخبرونا أنه يوجد عطل في الطائرة، وأننا سنبيت هذه الليلة في أحد فنادق المدينة. وبدأنا نهبط سلّم الطائرة وكنتُ أضع معطفاً على كتفي، وأحمل حقيبةً صغيرة في يدي. وفجأة داس من هو ورائي على طرف معطفي، فالتفتُ إلى الوراء ـ لأسحب المعطف من تحت قدمه.. وإذا بي أرى شيئاً ملقىً على سلم الطائرة.. فانحنيتُ لألمس ذلك الشيء.. وإذا به المغلف الضخم الذي أرسله معي «رفيق حدّاد»!!

هذا ما جرى! وليثق القارىء الكريم.. بأن هذا ما جرى!

فكأنّ القدر قد دفع ذلك الشخص الذي كان يهبط السلم خلفي.. ليدوس على معطفي، وينبهني إلى المغلف الذي سقط في تلك اللحظة من جيبي!! وقد علمت، فيما بعد، أنه كان يحوي ٢٢ ألف دولار! فشكراً لك يا ربي.

مثل ذلك، أو قريب منه، جرى معي في مدينة سان باولو سنة ١٩٤٨ ـ إذ كنتُ قد هيّأتُ أغراضي ورتّبتُها، ووضعتُها في حقائبي، وغادرتُ الفندق الذي بقيت فيه شهراً ونيفاً. وكنتُ قد تحرّيتُ غرفتي بدقة.. خشية أن أكون قد نسيت شيئاً فيها. وحينما هممتُ بركوب السيارة.. وكان عدد من أركان الجالية بانتظاري ـ للذهاب معي إلى المطار.. أحسستُ بأني قد نسيت شيئاً في غرفة النّوم. فوقفتُ، وقلتُ للأصدقاء: أرجو أن تنتظروني قليلاً ـ لأني أشعر بأنه لابدّ من العودة إلى الفندق، فغضب صديقي «الشيخ جميل ربيع»، رحمه الله، وصاح:

من الصّباح.. ونحن نجمع الأوراق والأغراض، ونتحرّى جوانب الغرفة، والجناح كلّه، ولم نترك قيد إصبع إلاتحرّيناه.. وتعود من جديد للبحث عن شيء!

فرجوتُه أن يدعني وشأني بضع دقائق.. وأسرعتُ عائداً إلى غرفة النوم، واتجهتُ إلى المنضدة الموجودة جانب السرير، وفتحت أحد أدراجها.. وإذا في آخره «علبةٌ فضية» مرسوم عليها «العلم السوري» بالذهب، وداخلها كمية من الليرات الذهبية... أرسلها «حسن اليوسف» من مدينة «كمبوغراندي ـ البرازيل» إلى المجاهد الكبير «الشيخ صالح العلي». وعدتُ وهي في يدي.. فدُهش الجميع عند رؤيتها.

* * *

في تلك الفترة، بمدينة سان باولو ـ البرازيل ـ جرت مساجلات شعرية بيني وبين صديقي «شاعر غلواء ـ زكي قنصل». وأعترف بأني لستُ بمستواه الشعري، وهو شاعر متفوق ـ إذ أني قد اتجهت للنَّثر، وليس للشعر. ولقد سبق ونظمتُ عدداً من القصائد نوّه عنها الأديب الكبير الأستاذ «نعمان حرب» في الكتاب الذي نشره عني. وقد تلطّف واختار منها بعض المقاطع، وقدّم لها هذه المقدمة اللطيفة:

اليونس

شاعر عذب النَّغم

نشرت جريدة «السلام» الصادرة بالأرجنتين الملحمة الرائعة التي نظمها الأستاذ «عبد اللطيف اليونس»، والتي تنقض قول «فارس بني عبس»: «هل غادر الشعراءُ من متردَّم».

ولقد عرف القرّاءُ أن «اليونس»، صاحب هذه الملحمة، هو كاتب أنيق اللفظ، مترف العبارة، حلو الديباجة. يتميَّز بأسلوب يضعه في الصفوف الأولى من كتّاب العربية. ولكنهم لم يعرفوه شاعراً عذب النَّغم، مشبوب العاطفة، مجنّح الخيال.. تدين له القافيةُ، وينقاد المعنى، ويموج شعره، بالثورة والعبير، وتهبّ من أردانه أنفاس الجنَّة.

وتبلغ هذه القصيدة أربعمائة وأربعين بيتاً، وقد نظمها جواباً لقصيدة الشاعر

«زكي قنصل»: «أنا حيّة رقطاءُ».. وهي تنطوي على مداعبات لطيفة لأعضاء «ندوة الأدب العربي»، في الأرجنتين، وتتطرّق إلى مواضيع أخرى تزخر بألوان المتعة والطرافة، وتصف أعضاء «الندوة» وصفاً محبَّباً لكل منهم. كما أنها لا تخلو من بعض الآراء الفلسفية، والنّوازع المتضاربة في الناس والمجتمع.. والمعاناة الذاتية التي يشكو منها الشاعر في غربته.

ونكتفي بهذه اللُّمَح من القصيدة التي تنسحب على كل شؤون الحياة، وتحلّل أبعاد الشعر وعمقه، وجماليّته، في كل ما يكتبه الشاعر «زكي قنصل»، ثم ننهي هذه اللُّمَح بالنّفحات الشّذيّة التي تصوّر معاناة «اليونس» الذاتيّة، في هجرته الطويلة.. وحرمانه من أنس الأهل وأحبائه:

يا شاعراً.. يَعْنُو له الشُّعراءُ ... ويصفّق الأُدباءُ والخطباءُ
هذي النجوم.. زرعتّهنّ قوافياً ... فإذا القريض أشِعَّةٌ وضياءُ
وإذا الحروفُ كأنّهنّ مشاعِلٌ ... تنجابُ عند وميضها الظّلماءُ
في كلّ بيتٍ حكمةٌ عَصْماءُ ... وبكلّ بيتٍ شِرعةٌ سمحاءُ
والشّعرُ.. وحيٌ من إلهٍ قادرٍ ... من طيبه ووَجيبه سِيماءُ
فارفقْ بنفسك يا «زكيُّ» ولا تقلْ ... للنّاس إنّك «حيّةٌ رقطاءُ»
خلطَ الدّعيّ.. فلستَ أفعى ـ إنّما ... أنت المَلاكُ مكانُهُ الجوزاءُ
ذَوَتِ الأماني.. يا «زكيُّ»، ولم تعدْ ... ريّا.. أكلُّ الأُمنياتِ هباءُ؟!
ما قيمةُ الدنيا إذا هي أقفرتْ؟ ... يا نظرةً عَطْشَى.. رعتكِ سماءُ
تبّاً لمجدٍ لا تنيرُ دروبَهُ ... بَسَماتُ قلبٍ مُترعٍ ورجاءُ
آليتُ لا أحيا.. إذا أنا لم أفزْ بـ «نَعَمْ».. وتُمْحى من حياتي «اللاّءُ»
سَجِّلْ، بحقّك يا «زكيُّ» مصيبتي ... فاليأسُ أخنى.. والحياةُ شقاءُ
وإذا قضيتُ ـ وسوف أقضي عاجلاً ... فسيَنْعِشُ القلبَ الشّهيدَ رثاءُ
لا تبخلَنّ به ــ وأنت أبو الوفا ... هيهات ينضبُ من هواك وفاءُ
إني لأشعرُ أنّ يومي قد دنا ... بعضُ الشّعورِ حقيقةٌ بلهاءُ
هذا دمي.. وتَعَبُّ عطشى من دمي ... وأنا الشّقيُّ بها.. عداني الماءُ

أنا ما أسِفتُ على نعيم مَرَّ بي   لكنْ أسِفْتُ.. لأنها حَرْبَاءُ:
دنيا.. تُغيِّرُ كلَّ يومٍ لونها: صبحٌ أغرُّ وليلةٌ سوداءُ!

* * *

وزرعتُ في تلك الخميلة مهجتي   فتعطَّرتْ منها.. ومرَّ هواءُ
وإذا نِثَارُ هوايَ فيضٌ من سَنىً   وإذا الأريجُ سحائبٌ بيضاءُ
وإذا دموعُ الله تغمرُ بُرْعُماً   لمَّا تلاشى.. أنَّتِ البطحاءُ
يا سائرين على التراب ترفقوا!   تحت التُّرابِ عواطفٌ خرساءُ
ومُنىً، وأحلامٌ تقلَّصَ ظلُّها   لا القلبُ مأواها.. بل الغبراءُ!
هل تُزهِرُ الآمالُ في قلب الثَّرى؟   بعضُ الحقائقِ.. فوقهنَّ غِشاءُ
ليتَ البراعِمَ تَستحيلُ لألسُن   تحكي.. كأنَّ عبيرهنَّ نِداءُ
لولا التُّقى، يا ربي عفوك عن تُقًى،   لَتَعطَّرتْ بحديثها الأجواءُ
لَجعلتُ بعضَ عبيرها ورُضَابِها   تستاقُ منه الجنَّةُ الزَّهراءُ
لَرَفعتُ فوق الخافِقَيْن منارتي   وأطلَّ من قلب السَّماءِ لواءُ
لكنَّني، وأنا المُعَنَّى، طوَّحتْ   بحياتيَ الأحزانُ والبأساءُ
آمنتُ بالحزن الشَّهيَ.. أعُبُّ من   نعمائه.. ما تشتهي النَّعماءُ
يا رَبي.. طهِّرْ بالدَّموع حُشاشتي   أنقى صلاةٍ: غصَّةٌ وبكاءُ
يا رَبي.. هذي مُهجتي ويراعتي   وَقْفٌ.. على من تشتهي وتشاءُ
يا رَبي.. أين غدي؟ وأين يَرَاعتي؟   هيهاتِ.. لا نُعْمَى، ولا إيحاءُ!

* * *

خُذْها إليك.. تحيَّةً عربيَّةً   فيها نقاءُ أُخوَّةٍ وصفاءُ
واغفرْ تجاوزَها البريء.. فإنها   خفَّتْ إليك تقودُها خُيَلاءُ
واذكرْ أخاك فإنه في محنةٍ   نَفْسيَّةٍ.. سرَّاؤه ضرَّاءُ
لا مَجْدُهُ مجدٌ، ولا أيَّامُهُ   بيضٌ، وكلُّ حياته جوفاءُ
يقضي لياليه الطِّوالَ مُسَهَّداً   لا بدرَ يُؤنِسُهُ، ولا وَرْقاءُ

* * *

خُذها إليك.. وقد تَأرَّجَ روضُها زهراءَ.. لم تحلمْ بها عذراءُ
هيَ أول الغيثِ الهتُونِ.. فحاذروا ألنّسْرُ بعضُ رحابهِ الجوزاءُ
إنْ أنتم عُدتُمْ.. يعودُ لمثلها وإذا سكتُّمْ.. أنتمُ العقلاءُ

* * *

كنتُ في مدينة «سان باولو ـ البرازيل» أشكو من مرض في معدتي.. وقد أكد الطبيب المختص أنها «قرحة».. وأنه لابدَّ من إجراء عملية جراحية. وكان أصدقائي بالأرجنتين ـ وفي طليعتهم «المطران صوبتي»، رحمه الله، والأديبة «دلال كبّاس»، وشقيقها «نقولا كبّاس»، وغيرهم، يمارسون الصّوم الكامل سنوياً.. فلا يتناولون إلا الماء فقط، ويتحدَّثون عن فوائده الصِّحيَّة التي لاحدّ لها.

وصمَّمتُ في البرازيل على أن أصوم ٢٨ يوماً. وعثرتُ على كتابين للصوم ـ أحدهما تأليف «المطران خلّوف» نقلاً عن اللغة الروسية، والثاني ألّفه شخص من زحلة، لا أذكر اسمه، وهو أكثر دقةً من الأول. وكنتُ، وقتذاك، أحلّ ضيفاً على السيد «غانم علي الجردي» في داره العامرة. وصُمْتُ خمسة عشر يوماً، وكنتُ مصمِّماً على الاستمرار.. ولكنّ قنصل سورية العام، في سان باولو، وصديقي وجيه الجاليّة «يوسف اليازجي»، رحمه الله، زارني وحملاني على الأفطار ـ بحجّة أنّ عيد الجلاء في ١٧ نيسان سوف يحلّ بعد أيام قليلة.. وأن الجالية ستلتقي بهذه المناسبة، وأنه لا يمكن إلاّ أن أكون موجوداً.. واضطرّاني للإفطار.

والصوم سهل جداً. فبعد اليوم الثالث لا يشعر المرء. بجوع أبداً، وإذا جاع بعد ذلك.. فإن عليه أن يفطر فوراً ـ لأنّ الجسم لا يتقبّل الصوم. أمّا أنا.. فلم أشعر بجوع مطلقاً.. ولذلك بقيتُ مستمرّاً. ولكنّ كتاب الصوم يقول ويؤكد أنه إذا حصلت حرارة في جسم.. الصّائم.. فإنّ عليه أن يفطر فوراً، ويُخطِر الطبيب. وارتفعت حرارتي من اليوم الخامس إلى اليوم التاسع، وكانت تتراوح بين ٣٩ و٤٠ درجةً، ومع ذلك فقد تمرَّدتُ، ولم أُفطِر. وكنتُ أشعر بآلام حادَّة في معدتي لا تُطاق، وكأنّ سكيناً تمزّقها.. ورغم هذا فقد بقيتُ مثابراً ولم أُفطِر. وكنتُ أطبّق تعاليم الكتاب الآخر بدقة ـ من حيث كيفيّة النوم، والمشي، وتنشّق الهواء،

وتنظيف الأمعاء بالطريقة المعروفة يومياً.. وبعد اليوم التاسع زال ألم المعدة نهائياً، ولم أعد أشعر بأيّ انزعاج خلال فترة الصوم والتي استمرت ١٥ يوماً على الماء القراح ـ دون أن يخالطه شيء على الاطلاق، وهبط وزني ١١ كيلو.

إنّ الصوم سهل جدّاً.. ولكنّ الإفطار هو الصّعب ـ إذ بمجرد أن تضع في فمك نُقطة حليب تتنبّه خلايا الجسم كلها، وتطلب الطعام.. وهُنا تظهر قوة الإرادة وطاقة المرء على الإحتمال. وحينئذٍ يكون الجوع الذي لا يطاق ـ ومع هذا فإنه خلال اليوم الأول من الافطار لا يستطيع الصائم أن يتناول إلاّ نصف كأس من الحليب، كل ساعتين ـ وذلك طوال أربع وعشرين ساعة ـ رغم الجوع المدمِّر. وعليه أن يمضغ قطرات الحليب مثلما يمضغ اللحم القاسي.. وأن يُنزله إلى المعدة نقطاً نقطاً. وفي اليوم الثاني تُضاعَف الكميّة.. وفي اليوم الثالث، وما يليه، «شوربة» لحم دجاج ـ ليس فيها أثر للدّهن على الاطلاق، وإنما ماء فقط.. وفي اليوم السابع بامكان الصائم تناول خضار مسلوقة ـ وهكذا وهكذا.

وبفضل الله. لقد شُفيتُ من «القُرحة» نهائياً، وكان ثمّة طنين في أذني اليمنى، ووجع قاس في ركبتي اليمنى، وقد زال.. وبقيتُ أشهراً لا أستعمل النّظارة في القراءة والكتابة. وصمتُ بعد ذلك عدة مرات ـ ولكنّ صومي لم يكنْ يتعدّى الأسبوع.

وحاولتُ منذ فترة أن أعاود ذلك الصوم ـ ولكنّ جسمي لم يتقبّله.. فعدلتُ.

وخلال سنوات طوال.. كنت أشعر بالتهاب في الجيوب الأنفيّة ولم تُجْدِ معالجات طويلة ومستمرة.. وأخيراً نصحني ناصح بأن أتنشّق الماء البارد من أنفي مراراً عديدة، وفعلتُ، ثم ثابرتُ، وشُفيتُ. وكلما حاول «الرّشح» أن يهجم عليّ.. أسرع إلى تنشّق الماء البارد بكثافة، فيُقضَى على الميكروب نهائياً. وهكذا لم أعد أُصاب برشح. وكلّ من استمع إلى نصحي، واتّبع نفس الطريقة، ابتعد عنه الرّشح وزايله.

وبُليتُ بوجع ظهر.. بقيتُ سنوات وأنا أقاسيه. وراجعتُ أطباء كثيرين في أمريكا.. وخضعتُ لمعالجات «ذلك»، وما أشبه، فترات طوالاً، فضلاً عن مئات

الإبر، ومئات ومئات الحبوب - ولكن دون أيّة فائدة. ومرة في دمشق زارني ابن أخي «الدكتور مازن»، حفظه المولى وحرسه هو وأخوانه، ولمّا رأى وضعي المتردّي، جلب لي أستاذ رياضة في جامعة دمشق، فنصحني أن أمارس حركات رياضيّة معينة اكتشفها طبيب أوروبي، وعلّمني كيف أزاولها. وخلال أسبوع واحد ذهب عني وجع الظّهر، ولم أعد أشعر به أبداً. وما أزال أمارس هذه الرياضة يومياً وباستمرار.

* * *

سنة ١٩٧٤ كتبتُ سلسلة مقالات عنوانها: «احذروا الشّاه»، وهو شاه ايران - عدوّ العرب، وصديق الصهاينة، وقد خُلِعَ فيما بعد.

وتقدّمتْ السفارة الإيرانية بشكوى ضدي، للسلطات البرازيلية التي أحالتها للتحقيق. ومن حسن الحظ.. فقد كان المسؤول عن التحقيق آنذاك «اللواء توما»، الرئيس الحالي للأمن العام في البرازيل.. وهو يتمتّع بتقدير وثقة، من كافة الأوساط، ندر أن حصل على مثيل لهما مسؤول آخر في البرازيل كلها. وقد اتصل به شقيقه المحامي «الدكتور رزق الله توما»، رئيس «فياراب أميركا» سابقاً، وطلب منه طيّ القضيّة.. وطُوِيَتْ.

ومثل تلك الشّكوى.. تقدّم بها ضدي سفير مصر، «حسن الشّريف»، أو الأصحّ «اللاشريف».. طالباً توقيف الجريدة، وملاحقتي قضائياً - نظراً لحملتنا على «أنور السادات».. بعد خيانته المكشوفة، وانصياعه لتوجيهات الصهيوني «كيسنجر»، إبّان معركة تشرين سنة ١٩٧٣، وإصدار أوامره للجيش المصري بالتوقف عن متابعة الهجوم والتقدّم في سيناء.. حيث استطاع العدو الصهيوني أن يعبّىء طاقاته كلها في وجه الجيش السوري.. الذي كان يخوض معركة قاسية في الجولان!.

وكان نصيب شكوى السفير المصري.. مثل شكوى السفير الإيراني.

* * *

في ربيع سنة ١٩٧٥ تداعت صحّتي بشكل خطير - نظراً للإجهاد الكبير،

والتعب المتواصل.. إذ لم أكن أعرف الرَّاحة على الإطلاق. وعادني صديقي الغيور «الدكتور باسل فرحات» وتلطف فنقلني بسيارته إلى طبيب «صيني»، والأصحّ «كوري»، في «سان باولو».

وحينما فحصني الطبيب «الكوري».. قال: إن عليّ أن أخضع للمعالجة الدقيقة ٤٥ يوماً متواصلة.. والنّجاح مضمون.

وتلك المعالجة.. هي بالإبر الصينية الشّهيرة. وكان يَخِزني بها في ٦٥ موضعاً من جسمي.. يبتدىء من الرقبة، وينتهي بالكعبين.

و«الإبَر».. فضية صغيرة.. يخزها بسرعة فائقة، ويسحبها بنفس السرعة. والوقت كله لا يزيد على خمس عشرة دقيقة ـ وربما أقل! والأماكن التي لا يوجد فيها عظم وشرايين.. فالشعور بالألم قليل، واحتماله سهل ـ وأمّا التي يوجد فيها.. فيا ربيّ عفوك وحلمك.

وفي اليوم السابع عشر، وبفضله تعالى، شُفيتُ تماماً.. وعادت صحتي كما كانت ـ وربما أكثر صفاءً ودِقّة.

لقد عدتُ إنساناً طبيعياً.. كما كنتُ ـ وربما أصبحتُ أكثر نشاطاً وفتوّة.. ومع ذلك، ورغم شعوري بأنه لم يعد ثمّة موجب لمتابعة المعالجة، فقد ثابرتُ على مراجعة الطبيب «الكوري»، وتحمّل «الإبرة» وآلامها، مدة ٤٣ يوماً متواصلة، دون انقطاع ـ أي إلى ما قبل اليوم الذي غادرت فيه البرازيل عائداً إلى الوطن.

بعد أن حصل ما حصل لي، بسبب الاجهاد والتعب المتواصلين، قررّتُ إنهاء غربتي، وتخلّيتُ عن جريدة «الأنباء» للصحفي المعروف «نوّاف حردان» ـ وهو أديب ومؤلف.. أثبت جدارةً وكفايةً في مؤلفاته وكتاباته الصحفيّة.

ومن المؤسف.. أن يضطّر الصديق «نوّاف حردان» لحجب الجريدة عن قرائها الكُثُر ـ نظراً لظروف صحيّة، وأسباب مالية قاسية. ولعلّ هذه الموانع تزول، ويعود لمتابعة إصدار الجريدة ـ كما كانت.

* * *

وقد غادرت البرازيل ووكيلي الدائم فيها صديقي الصدوق السيد «ناصر أحمد

سلوم» ـ الذي هو، وأسرته الكريمة، موضع الثقة والتقدير من كل عارفيهم ـ ولا أستثني. وسيأتي ذكره في كتابي المقبل: «ذكريات الغربة».

* * *

قضيت في الوطن سنتين.. كانتا حافلتين بالكتابة والمطالعة، واللقاءات والزيارات، وإلقاء محاضرات.

ولا أريد هنا.. أن أورد تفاصيل لا فائدة من سردها، ولا موجب لعرضها.. ولا أن أُلِمّ ـ ولو إلمامة عابرة.. ببعض المواقف التي لا أرى موجباً للوقوف عندها، أو التّطرق اليها.. وإنما أكتفي بما ذكرت.. حبّاً بالاختصار، ورغبةً بالابتعاد عن الاطالة والإكثار.

وقد عكفت، خلال تلك الفترة، على ترتيب مكتبتي وتنسيقها، وإعادة النّظر بمؤلّفاتي التي لم يُقدّر لي اعادة طبعها.. ولا أعرف متى يُقدّر لي ذلك. ولكنَّ الذي أعرفه، وأنا موقنٌ بـه، وواثقٌ منه.. أنّ ابنتيّ، «أمل» و«سميّة»، سوف تعكفان، بعد رحيلي إلى رحمة الله، على طبعها.. وجمع مقالاتي الأدبية والسياسية وو.. الخ المنشورة في جريدتّي «الأنباء» و«الوطن»، وصحف كثيرة أخرى، ونشرها كلها في كتب مستقلّة تُوضع لها أسعار رخيصة، ويُرصد ثمنها لأعمال البرّ والإحسان.

وأنا واثق من عاطفتهما نحو أبيهما. وأنهما ستفعلان ما أطلبه وأترقبه منهما ـ إذا لم يُقدّر لي طبع مؤلفاتي، وجميع مقالاتي، ونشرهنّ في حياتي.

وفي يقيني.. أنّ تلك المقالات جميعها ـ إلا ما يتعلّق منها بمناسبات عادية وعابرة.. هي حريّة بالنشر في كتب مستقلّة.. يحمل كل منها اسماً، وعنواناً، مستقلاً.. لأنها تصور مرحلةً عامرةً من عمري.. وتلقي أضواء مشعّة على دنيا الاغتراب، وطريقة النازحين بالتفكير، وأسلوبهم بالتّعبير، وخاصة ما يتعلّق منها بالوطن الأم ـ فضلاً عن أنها سِجِلٌ حافل بالأحداث التي مررتُ بها، ومرّت بالمغتربين، ثم بالبلاد التي انحدروا منها، وخلّفوا في مغترباتهم: اسماً، وكياناً، وتراثاً.

ومن مجريات تلك الأحداث.. وأسلوب دراستها، وسُبُل التفكير بها، والتعبير عنها.. يمكن للباحثين، والدارسين، أن يستخلصوا وقائع تمكنهم من البحث والدرس، والوصول إلى الرغبة المنشودة، والغاية المتوخّاة والمبتغاة، واستنباط ما تستوجبه دراسة تلك المرحلة من مراحل الاغتراب الغنيَّة.

وعند ابنتيّ.. موهبة أدبيَّة أعتزّ بها وأزهو.. وهي تمكنهما من الاضطلاع بمهمة النشر، وما تقتضيه من إعداد، وتهيئة، وتنسيق.

وأرجو أن يكون ذلك كلّه .. تحت إشراف «الدكتور محمود السيد» ـ انسان الأريحيَّة والعاطفة والمروءة ـ فضلاً عن سعة الاطلاع، وقوة التركيز.

* * *

في ربيع سنة ١٩٧٧ زارني في صافيتا صديقي الكاتب والشاعر المغترب «الياس قنصل»، وبحث معي وضع الجالية في الأرجنتين، وحاجتها الملحَّة لإصدار جريدة باللغتين: العربية والاسبانية ـ بعد أن احتجبت سائر الصحف العربية عن الصدور. فوعدته بدرس الموضوع، والعمل لتحقيقه.

واتصلتُ بصديقي «أسعد كامل الياس»، مستشار «السيد الرئيس» لشؤون الإعلام وأطلعته على الفكرة.. فوافق عليها، وحبّذها. وقابلت «الرئيس الأسد» وذكرت له الموضوع، وأبنت لها الحاجة الملحّة لتحقيقه ـ كي يسدّ الفراغ الذي أحدثه توقّف الصحف الأخرى عن الصدور. فأبدى سيادته موافقته على الفكرة، مدّ الله في عمره، وأبقاه ذخراً لأمته ووطنه.

وقمتُ برفقة الأستاذ «أسعد الياس» بزيارة وزير الاعلام «أحمد اسكندر».. الذي لم تعرف المكرمات من هو أنضر منه روحاً، ولا أطهر نفساً، ولا أنقى ضميراً وشعوراً.. نضّر الله ذكره وذكراه، وأكرم في الآخرة مأواه ومثواه.. وأطلعناه على المشروع، فرحَّب به، وأبدى استعداده لدعمه. ثم اقترح والأستاذ «أسعد» ضرورة سفري إلى الأرجنتين، واجراء دراسة للموضوع.. حتى يُبْنَى على أسس سليمة وقويمة. واستجبتُ لرغبتهما، وسافرت، وللأستاذ أسعد «أبي كامل» فضل كبير، ويدّ طولى، في جميع المواضيع الاعلامية دون تحديد.

وفي عاصمة الأرجنتين، بوينوس ايرس، بحثنا الموضوع مطوّلاً مع أركان الجالية المرموقين.. فلقينا تجاوباً من الجميع. وكان «عيسى عوض» القائم بأعمال السفارة السورية، في طليعة المشجعين والمؤيدين.

وحينما عُيِّن.. «عبد السلام عقيل» سفيراً لسورية في الأرجنتين.. أظهر اهتماماً بالغاً بالموضوع، منذ وصوله، ووقف منه موقفاً كريماً. وعرض علينا أن نجعل مكتب الجريدة في غرف، غير مستعملة، تقع على سطح بناء السفارة.. فشكرناه، واعتذرنا ـ لأننا رغبنا في أن يكون مكتب الجريدة مستقلاً، وفي بناء مستقلّ. وحينئذٍ سعى السفير «عقيل» مع رئيس وأعضاء «الغرفة التجارية السورية ـ الأرجنتينية» لاعطائنا مكتبها الذي كانت قد انتقلت منه إلى مكتب آخر. فلبَّت الطلب، وبقينا فيه عدّة سنوات.. إلى أن طلبتْ منا أن نفرغه فأفرغناه، وسلمناها اياه، وانتقلنا إلى مكتب آخر استأجرناه. وكنت طلبت من الصديق الكاتب والشاعر «الياس قنصل» أن يشترك معي بالعمل، وأن تكون رخصة الجريدة باسمه، فوافق، وانطلق «الياس قنصل» بمشروعنا. وأطلقنا على الجريدة إسم «الوطن»، وساهمنا معاً باعداد العدد الأول، وقدّمناه للمطبعة التي يملك أكثر أسهمها الصديق «رشيد سابا» الذي سهّل أمامنا السُّبُل، وأبدى رغبة صادقة بتسهيل مهمتنا.

وفي صباح أحد الأيام، والجريدة قيد الطبع، زارني بالفندق «الياس قنصل»، وفاجأني بالقول إنّ الأطباء قد منعوه من العمل ـ لأنه مصاب بـ «كوليسترول» حادّ، ووضعه الصحي مخيف. وذهب إلى الدائرة الأرجنتينية المختصَّة.. وسحب المعاملة التي كان قد تقدّم بها للحصول على ترخيص باصدار الجريدة!

وصُعِقتُ للنبأ.. ووجدتُني في موقف حرج جداً!! فأنا لا أستطيع البقاء في الأرجنتين والاقدام.. كما أنني لا أستطيع التراجع والإحجام.. لأن التراجع مخجل ومعيب ـ ليس تجاه المغتربين وحسب، وإنما تجاه المسؤولين أيضاً.

واتصلتُ بوزير الاعلام «أحمد اسكندر»، وطلبتُ أن يرسل من يحمل العِبء عني.. ويريحني من متابعته ومسؤوليته ـ لأني لا أستطيع التفرغ له.. والعودة

إلى الاغتراب من جديد، فطلب مني أن أستمرّ.. حتى يمكن العثور على من يستطيع تحمل العبء، والنهوض به.

وهكذا.. أصبحتُ وسط معمعة.. لا أستطيع مغادرتها ولا التخلي عن دوري فيها!

واضطررتُ للمتابعة ـ ريثما يتسنّى لي ايجاد من يحل محلي.

وطلبتُ من «الياس قنصل» أن تكون رخصة الجريدة باسمه، ولو ابتعد عن إدارتها وتحريرها، ويكون هو «المدير المسؤول» شكلياً ـ لأنه لا يمكن اصدار صحيفة.. دون حصول شخص ما.. على ترخيص رسمي، ثمّ أن يكون لها «مدير مسؤول» تجاه السلطات المسؤولة. والشروط في الأرجنتين أكثر سهولةً من البرازيل التي تصرّ على من يطلب الترخيص له باصدار صحيفة.. أن يكون صحفيّاً، ومسجّلاً في نقابة الصحافة، ثم يحمل الجنسيّة البرازيلية.. وقد فرض القانون أخيراً، أن يكون مولوداً في البرازيل.. وهذا مالا وجود له في الأرجنتين ـ إذ يمكن لكل من يحمل دفتر اقامة في البلاد.. أن يتقدم بطلب إلى الدائرة المختصّة، مرفقاً ببعض الأوراق الثبوتية، وحينئذٍ يُسمح له باصدار الصحيفة التي يريد. وفي البرازيل يتقاضون ضريبة دخل من الصحف، أسوةً بالأعمال التجارية والصناعية الأخرى، وأما في الأرجنتين.. فلا. وإنّ قانون المطبوعات في الأرجنتين.. أكثر سهولةً ويُسراً منه في البرازيل.

واتصلتُ بصديقي «شاعر غلواء ـ زكي قنصل»، وطلبتُ منه أن يحلّ محل أخيه «الياس»، ويصبح صاحب الجريدة، ومديرها المسؤول.. فاعتذر لاعتبارات تتعلق بعمله التجاري.

وهكذا.. صدر العدد الأول ـ وهي لا تحمل اسم «صاحب الامتياز»، ولا «المدير المسؤول»! وفي ذلك مخالفة صريحة للقانون ـ بوقت كان فيه الحكم العسكري يكمّ أفواه الناس، ويملأ السجون بالأبرياء! وللصهاينة أثرهم وخطرهم، وتأثيرهم القوي على وسائل الاعلام!

ومن البداهة... أني المسؤول المباشر عن الخروج على القانون، ومخالفة

نصوصه الصّريحة. وقد دخلتُ الأرجنتين بصفة «سائح» لا يحق له القيام بأي عمل من هذا القبيل. ولم أكن قد حصلتُ على «إقامةٌ» ـ بل لمّ أكن قد تقدّمتُ بطلب الحصول عليها.

وسعيتُ لاقناع آخرين أثق بهم.. كي نأخذ الرخصة باسم أحدهم.. فلم أوفّق.

وتقدمتُ بطلب الحصول على «اقامة» تتيح لي مزاولة أعمال. وبمجرّد تقديمها وتسجيلها.. أعطيتُ تصريحاً يتضمن السّماح لي بممارسة أي عمل ـ وكان ذلك بفضل متابعة وملاحقة صديقي «نعيم الباشا»، الموظف المحلي بالسفارة السورية، الذي بذل جهوداً متلاحقة حتى استطاع الحصول على هذا الترخيص، ثم على الإقامة فيما بعد. وكنتُ قد اضطررت للذهاب إلى أورغواي ـ بعد انتهاء الفترة التي يُسمح لي البقاء خلالها بصفة سائح. وللسفارة السورية فضل كبير بحصولي على الإقامة، وتسهيل ظروف العمل لي.

وفي «مونتيفيداو»، عاصمة أورغواي، كانت لي ثمّة لقاءات بالجالية العربية فيها.

* * *

كان قد صدر من «الوطن» عدة أعداد.. ولا صاحب امتياز للجريدة، ولا «مدير مسؤول». ولكنّ الله وقانا خطر تلك المجازفة، وحمانا ورعانا.

وبعد أن حصلت على «إذن رسمي» يجيز لي القيام بأي عمل.. تحررتُ من المسؤولية القانونية الرهيبة، وتابعتُ إصدارها اسبوعياً بـ ١٦ صفحة ـ ٨ عربي و٨ اسباني، وهي تحمل اسمي.

ومن طبعي.. أني إذا توليت عملاً ما.. فإنني أجتهد كثيراً لأجعله ناجحاً ومثالياً. وهذا هو شأني في جميع الأعمال التي توليتُها، أو فرض علي توليّها. والله هو الموفّق، والهادي إلى سواء السبيل.

وكم عانيت وقاسيت في تامين القسم الإسباني طوال ثلاث سنوات ـ لأني كنتُ أريد ممن يعمل معي.. أن يتفرغ للعمل، ويكون له دوام ثابت ـ في أوقات معينة ومحددة بمكتب الجريدة. وقد عمل معي ناس طيبون وأكفاء: «نعيم الباشا»،

و«ابراهيم حسين»، و«الدكتور كاتيلا» - السفير الأرجنتيني السابق والأستاذ في جامعة بوينوس ايرس، ولكنهم لم يكونوا متفرغين للعمل معي - لأنَّ لهم أعمالاً أخرى تَسْتَنْفِذُ جهدهم وأوقاتهم. ولذلك.. لم يكن من السهل الاتصال دائماً بهم، وارسال مواد لهم، وجلب موادٍّ منهم.. أو أن يخصّصوا أوقاتاً محددة لوجودهم في المكتب أو المطبعة ـ لأنَّ لهم أعمالاً أخرى... يضطلعون بها، وتستنفذُ الجزء الأكبر من طاقاتهم وأوقاتهم.

ولم أرتح من ذلك العناء.. الذي ليس ثمّةَ ما هو أمرّ منه، ولا أقسى.. إلا بعد أن تولّى القسم الاسباني الصديق «بادرو تشاك ماكيان» ـ بكفاءة ومقدرة فائقتين. وهو فلسطيني المولد. وما هي إلا فترة وجيزة حتى أصبح من كتّاب اللغة الإسبانية المرموقين.

وسلّمتُه الجريدة، بعد ذلك، وتخلّيتُ له عنها ـ لأنه لم يكن باستطاعتي الاستمرار بتحمل خسائرها الفادحة. أما «بادرو» فقد استغنى عن مجموعة الموظفين الذين كانوا يعملون معي بجهد صادق، واندفاع مشكور ـ وخاصة السكرتيرة «لطيفة ادريس علي»، المثالية بأمانتها وخلقها واستقامتها. وكذلك «نقولا كبّاس» الذي له مواقف خيِّرة ومشكورة من أجل الجريدة.

وما يزال الصديق «بادرو تشاك ماكيان» عاكفاً على اصدار «الوطن» بنفس الاتجاه العربي، والشعور القومي. وقد نقل مكتب الجريدة إلى منزله... كي يتجنّب المصاريف الباهظة التي لا تُحتمل - وبذلك استطاع التغلب على الصعوبات المالية واستمرار الصدور.

كان الله في عون الصديق «بادرو»، وألهم الجالية العربية أن تعاضده وتساعده ـ كما يملي عليها واجبها، وكما هو معروف عن غيرتها وأريحيتها.

* * *

في الأرجنتين، كما في البرازيل، كنت أتلقى تهديدات مستمرّة من الصهاينة. ومرة تلقيت رسالة يهددني مرسلوها بالقضاء على حياتي.. إذا لم أغادر الأرجنتين خلال أيام حدَّدوها. وأطلعتُ السفير «عبد السلام عقيل» على تلك

الرسالة.. فأبدى اهتماماً بالغاً بها، وتلطف فراجع سلطات الأمن التي تعهدت بالحماية المطلوبة، ولكنها طلبت أن لا أسير منفرداً وإنما دائماً برفقة ناس، وهذا ما فعلتُه.

وأمَّا هواتف التهديد والشتيمة.. فحدِّث عنها ولا حرج ـ ولكنني لم أكترث بها، ولم آبه لها. ومن طبعي وخلقي أني غير هيَّاب، ولا وجِل ـ لأني مؤمن بقوله تعالى: ﴿قل لن يصيبنا إلاَّ ما كتبه الله لنا﴾. صدق الله العظيم.

* * *

في أواخر السَّبعينات .. زار الأرجنتين «المطران كبوتجي»، مطران القدس،

الذي تآمر عليه الصهاينة، وأخرجوه من فلسطين ـ بحجَّة أنه يدعم الثورة الفلسطينية، وأنه ينقل بسيارته السلاح للثوار. وقد ذهب من روما إلى الأرجنتين حيث أقام فيها بضعة أشهر ـ بعضها كان في دار السفير السوري «عبد السلام عقيل»، والبعض الآخر في منزل «عادل السباعي»، مدير مكتب «الجامعة العربية»، والسيدة «هالا» حرمه المصونة.

و«المطران كبوتجي» كتلة ملتهبة من الوطنية الصارخة، والإيمان العربي، والحماسة القومية. وقد رأينا أن نقدّم له إعانة مالية تليق به وبمقامة. وتوليتُ أنا هذه المهمة. ومن البداهة أني كنتُ أول من وضع اسمه بالقائمة، والشَّخص الثاني هو صديقي «بادرو تشاك ماكيان» المولود في مدينة «يافا» بفلسطين. وقد فرضنا أن يكون التبرع بالدولارات، وأن لايقل المبلغ الذي يتبرع به الشخص عن مائة دولار. ولقي الموضوع إقبالاً من ذوي النخوة والشهامة والمروءة.

وبلغ «المطران كبوتجي» ذلك.. فزارني في الفندق الذي كنتُ أحل فيه، وأصرَّ على طيّ الموضوع، مؤكداً أنه في سعة، وأنه لا يشكو الحاجة أبداً.. ومعلناً، بصورة جازمة، أنه سيغادر الأرجنتين فوراً.. إذا لم نوقف جمع التبرعات، ونُعد المجموع منها لأصحابها. وإزاء إلحاحه، وتأكيده على عدم حاجته، فقد لبَّينا رغبته واستجبنا لها، وأعدنا للمتبرعين ما تبرعوا به.

وبعد أن غادر «كبوتجي» الأرجنتين إلى روما، ومنها إلى طهران، للتوسط بشأن الرهائن الغربيين ـ وقد استقبل من «الإمام الخميني»، وبقية المسؤولين الإيرانيين، بكل تقدير واعتبار.. نظراً لمواقفه الشريفة المخلصة بشأن القضية الفلسطينية. كما أنه زار دمشق فاستقبله «الرئيس الأسد» وأكرمه، تقديراً لجهاده ونضاله. وبعد سفره من الأرجنتين.. علمنا أنه لم يكن يملك درهماً واحداً.. وأنه كان يُضطر لأن يمشي على قدميه، وأحياناً، مسافة طويلة ـ لأنه لا يوجد معه أجرة سيارة أجرة! وكم تألمنا وحزنّا ـ وما نزال متألمين حَزَانَى. وهذه هي النفوس الكبيرة.. التي لا يمكن أن تصغر أمام الأحداث والصعوبات.

وبلغنا أخيراً .. أنَّ «الفاتيكان» قد خصص له راتباً شهرياً يكفيه. و«المطران كبوتجي» هو أحد الشخصيات الكريمة التي تركت أثراً كريماً في نفسي. وما تزال المكاتبة مستمرة بيننا، وقد نُشرت احدى رسائله لي، في الكتاب الذي تلطّف الأديب الكبير الأستاذ «نعمان حرب» ونشره عني سنة ١٩٨٨ وقد مرّ ذكره معنا.

* * *

كانت «الجامعة الكاثوليكية» في توكومان.. تدعوني لإلقاء محاضرات فيها، طوال بضع سنوات. وفي ربيع سنة ١٩٨٦ ألقيتُ فيها محاضرة عن «الحضارة العربية، وأثرها في تكوين الحضارة الإنسانية، وبناء الإنسان».

و«الجامعة الكاثوليكية»، هذه، مثالية.. باتجاهاتها وأهدافها.. فهي تدرِّس في صفوفها «الشريعة الاسلامية»، وتعتبرها مادةً ملزمةً للنجاح. ويشرف على هذا القسم «الدكتور علي الصارمي» ـ المعروف بذكائه، ونشاطه، وسعة فهمه. وهو نجل التقي الورع «الشيخ محمود الصارمي» ـ الذي هو موضع تقدير الجميع واجلالهم.

كما أنَّ هذه «الجامعة».. قد أقامت، منذ سنوات، أسبوعاً كاملاً للتحدث عن العرب والإسلام. وقد دعت الدبلوماسيين العرب، في العاصمة الأرجنتينية، كما دعت مفكرين أرجنتينيين لإلقاء محاضرات حول هذا الموضوع الرَّحب، والمساهمة بذلك الأسبوع الذي كان حافلاً، وجديراً بالثناء والشكر ـ مثلما هو

جدير بالاعتزاز والفخر.

وكنت محاضراً بذلك الأسبوع الرائع الحافل. وقد نقل محاضرتي، إلى اللغة الإسبانية، مدير مكتب «الجامعة العربية» في الأرجنتين، وقتذاك، «الدكتور عبد القادر إسماعيل».

ودُعيتُ أخيراً لإلقاء محاضرة عن «المسيحية والإسلام»، وقد حضرها جمهور كبير من أبناء الجالية العربية الكريمة، وعدد من أساتذة الجامعات، وكرام الشخصيات، ورجال الدين.

وبعد انتهاء المحاضرة التي دامت ما يقرب من ساعتين.. ألقى مدير «الجامعة الكاثوليكية» الدكتور «فوسبوري» كلمة مسهبة.. استعرض فيها محاضراتي السابقة، وأثنى كثيراً عليها، وقال فيما قاله:

إنَّ المحاضرات التي ألقاها «اليونس».. هي من أرقى وأبلغ المحاضرات التي أُلقيت في هذه «الجامعة».. وقد سجلها مجلس «الجامعة» كلها، وعكف على دراستها دراسةً عميقةً وواسعة، واعتبرها بمثابة «أطروحة».. وقرَّر بموجبها منح «الدكتور اليونس» شهادة «دكتوراه» بدرجة «شرف».

وهكذا حصلتُ على هذه الشهادة الرفيعة، وسط تصفيق حاد استمر بضع دقائق.. وقد اصطفّ الموجودون حبالاً طويلة ليقدّموا تهانيَهم، ومظاهر الغبطة والابتهاج باديةٌ على وجوههم جميعاً.

ومن أعماق القلب.. أشكر جالية «توكومان» التي هي، ولا شك، في طليعة الجاليات العربية في المغتربات: وطنيةً واندفاعاً وغيرة. وسآتي على ذكرها، وذكر جمعياتها وأركانها، في كتابي المقبل: «ذكريات الغربة».

* * *

لقد فُجعتُ، وأنا في الأرجنتين، بوفاة صديقي «أحمد اسكندر» ـ وزير الإعلام السوري ـ وكان لوفاته دويّ الصاعقة، وهبَّة الإعصار. فكتبتُ في جريدة «الوطن» أرثيه، بكلمة نابعة من أعماق القلب، وهذه هي:

أحمد اسكندر

الذي رحل.. وأصبح في رحاب الخلود

يا «أحمد»:

بأيِّ عينٍ نبكيك؟ وبأي يراعٍ نرثيك؟

أنبكيك بالعين ـ التي كانت كلما تطلعتْ إليك.. امتلأتْ غبطةً ونشوة؟

ونرثيك بالقلم الذي كان ينهل من معين أدبك وثقافتك، وخلقك وعاطفتك ـ ولا يرتوي... وهيهات أن يرتوي؟

لقد مضيتَ.. بعد أن روَّيتَ مآقينا بالدموع، وقلوبنا باللوعة، ونفوسنا بالآهات والأنَّات!

مضيتَ..! وخلَّفتنا لحزنٍ لا ينتهي، وألمٍ لا يزول!

مضيتَ..! ورفاقك.. هم أكثر ما يكونون لهفةً عليك، ووطنك أكثر ما يكون حاجةً إليك.

يا أبا «اسكندر» ـ الذي لم يأتِ.. و«رباب» التي أتت:

لماذا تُركتَ أصدقاءك الكثيرين، وأسرتك الحزينة المفجوعة .. ومضيت؟!

لم يكن عهد الناس بك أن تذهب لترتاح.. وتترك غيرك يسهر ويشقى!

كان عهد الناس بك.. أن تبقى في عملك إلى قرب الصباح.. وتباكر بالمجيء إليه منذ الصباح.. وأنك تحمل هموم قومك في قلبك، ولا تحمّلهم شيئاً من همومك وأوجاع نفسك.

لقد مضيتَ.. ولم تترك وراءك إلا هذا الاسم الضخم، والسمعة العاطرة، والأثر الخالد الذي لا يفنى.

بلى.. وأقساطاً متراكمة على البيت الذي تسكنه وأسرتك.. ويجب أن تُؤدَّى شهراً فشهراً، وسنةً فسنة.

وحسب الرجل الشريف هذه النزاهة والعفَّة ـ وما أشدَّ حاجتنا إليهما، ولهفتنا عليهما.

يا أبا «رباب»:

مثال الأب الحنون، والزوج الوفي، والصديق المخلص، كنتَ.

كنتَ. مثال المواطن الشريف، والمسؤول العفيف، والأديب المشرق الديباجة، الطلي العبارة، الواضح الإشارة، العفّ اللسان والبيان.

وآه.. ما أقسى كلمة كنتَ.. ولكنَّ القدر هكذا أراد أن تكون!

بالأمس.. كنتَ مِلْءَ عين الزمن والناس. واليوم.. أصبحتَ مِلْءَ عين الذِّكْر والذِّكرى!

بالأمس.. كان مجلسك يحفّ به الوقار، ويهيمن عليه الجلال، وتنطلق منه البشاشة. واليوم.. أصبح الكرسي فارغاً، والمجلس باهتاً، والقاعة التي يجلس فيها «أحمد اسكندر».. لم يعد في صدرها «أحمد اسكندر»!

والدُّعابة الحلوة .. اللطيفة المغزى، البريئة المرمى، الأنيقة التعبير.. لم يعد العطر يعطِّرها، والأريج يؤرِّجها، والروح المرح يغمرها برقته وعذوبته، وصفائه ونعومته، وحلاوة مغزاة ومرماه.

ونكهة الصدق ـ يا صديق ـ قد مضتْ معك، وخلّفَتْنا عِطاشاً بعدك! وآه.. كم نحن مشوقون إليها، متلهّفون عليها، محرومون منها!

يا أبا رباب:

لقد نشأتَ مع «حزب البعث»، منذ نشأتَ.. ورافقته، منذ يفعتَ. وسرتَ مع المسيرة التي سارت، ومع الطلائع منذ صارتْ. فكنتَ، في كل مراحل حياتك، مثالاً بالمروءة، ونموذجاً بالتضحية، وقدوةً بالكلمة الصادقة.. والوفاء المنقطع النظير.

ومرَّ وطنك، بالفترة التي كنتَ تشرف فيها على الإعلام، بأقسى ما يمكن أن يمر به وطن ـ وفي كثير من المعارك تكون الكلمة هي السلاح.. وقد عرفتَ كيف تستعمل هذه الكلمة، وتجعلها سلاحاً أمضى من السلاح.

ولسورية.. دويٌّ في العالم كله ـ وكأنها مِلْءَ العالم كله. واسمها أكبر بكثير من حجمها.. وأضخم من طاقتها، وأقوى من قوتها. وهذا يعود لأصالة شعبها، ولقائد مسيرتها ـ «الحافظ»، حفظه الله.. ثمَّ للأسلوب الذي تُطلَق فيه الكلمة بالهجوم والدفاع، والعطاء والإبداع.

ولك في هذا.. أثرٌ كبير، ويدٌ طولى.

والأمم الحيَّة.. هي التي تخلق وتُبدع.. وأبناؤها هم الذين يعطون ويبدعون.

وكانت أمتك عبقريةً في إنجابها إياك، وإنجابها أمثالك من النادرين.

وكنت عبقرياً، ومخلصاً، في عطائك لها، وسخائك من أجلها.

لقد أعطيتها طاقاتك طوال حياتك.. ثم أعطيتها بعدئذٍ حياتك.

وما أعظم العطاء ـ حينما تكون الحياة ثمناً له.

وتشهد العلى.. أنك متَّ شهيد الكلمة والكرامة.. شهيد العقيدة والواجب.. وأنك في سبيلهما قد قضيتَ ومضيت.

مُتَّ..! وأستغفر العُلى ـ فالمثالية الرفيعة لا تموت.. وإنما تبقى حيّةً ما بقيت الحياة، وخالدةً ما دام الخلود.

والمثالية الرفيعة ـ التي حلّتْ بك، وتجسمتْ فيك.. من أجلها استشهدتَ، وفي صميمها ستبقى.

والتاريخ.. من أين يُولَد؟ انه يُولَد من العباقرة أمثالك. وبالعباقرة أمثالك يستمرّ.

والنضال.. الذي هو اسمٌ لمُسمًّى، وحقيقةٌ لكيان.. إنما كنتَ مثالاً له، وكان صورةً لك وعنك!

ربما أتعبتَه.. ولم يُتْعِبْك ـ ثم رُحتَ ضحيَّته.. وقد أثرى بك!

والتواضع والتهذيب.. هل عرف الناس من هو أكثر منك تمسكاً بهما، واستجابةً لهما؟

وهل عرف الناس.. من هو أكثر منك لياقةً ولباقةً، وأدباً ورقة؟

يا أبا «رباب»:

كنتُ أذهب إلى دمشق.. وأملي أن ألقاك فيها. ويوم أصل إليها.. كنتَ أول من أتصل به، وألتقيه.

وكنتَ تكرم وفادتي منذ وصولي.. إلى حين رحيلي.

وكم كنتُ حريصاً على البقاء قربك.. وأن أنهي غربتي لأعود.

ولكنني حينما أعود ـ إذ قُدِّر لي أن أعود.. فإني سأعود ولا أراك.

وأسائل الناس: أين «أحمد اسكندر»؟ ولا من مجيب!

وأسائل الصَّدى عنك.. فيرتد الصَّدى ـ ولا خبر عنك!

وهل يمكن للمروءة أن تموت؟

ويوم تموت المروءة والمكرمات.. فلا كانت الدنيا، ولا كانت الحياة!

يا أبا«رباب»:

ما قَصَدَكَ ذو حاجة.. إلا قضيت حاجته، ولَبَّيتَ رغبته. ولا لجأ إليك ذو حق.. إلا ضمنتَ له حقه، وأنصفته.. وجعلته يخرج شاكراً وفخوراً.

فخوراً.. بمن؟

بالبلد الذي أنجبك، والرئيس الذي احتضنك، والشعب الذي قدَّرك ـ فأكرمك في حياتك، وأكرمك بعد مماتك.

وتمضي ـ وما من أحدٍ إلا ويمضي.

ولكنَّ قليلين ـ بل نادرون.. أولئك الذين يعطون مثلما أعطيتَ، ويضحون بمثل ما ضحَّيتَ.. ويتركون وراءهم الأثَرَ العاطر الذي تركتَ.. والذكرى الخالدة التي خلَّفتَ.

وحسبك من العُلى هذا.. وحسبنا نحن، يا أبا الفضائل والمكرمات، هذا.

يا «أبا رباب»:

يا صاحب القلب الطيب المشرق، والنفس الطاهرة الأبية.. والفؤاد الذي لم يعرف الحقد، ولم يؤمن إلا بالتسامح والصدق.. والعفة والإباء، والترفُّع عن الشحناء والبغضاء، والادِّعاء والكبرياء.

يا صاحب الابتسامة النابعة من القلب.. والتي تصبّ نقاءها في كل قلب.

يا صاحب الأيادي البيض ـ التي كانت تنفح دون مِنّة، وتسعف دون ترقُّب شكر.

يا صديقي.. الذي أحببتُه من كل قلبي، وبكيتُه ـ وسأظل أبكيه ـ بدموع مقلتيَّ وقلبي.

يا أيُّها الصاحب المثالي، والأب المثالي، والزوج المثالي ـ لزوجة طاهرة مصونة مثالية.

يا ينبوعاً من الطيب، لا قرار له.. والعاطفة الرّقيقة النبيلة ـ التي لا مثيل لها.

يا «أبا رباب»، و«لميس»، و«لمى»:

لك عندي أيادٍ كثيرة، وكثيرة.. فهل وفّيتُك بعضها بهذه الكلمة العَجلَى؟

أرجو أن أكون قد فعلتُ. وإن كنتُ قصّرتُ.. فاغفر لي قصوري وتقصيري ـ وأنت أكرم من عرفتُ وعاشرتُ وخبرتُ.

وليرحمك الله ـ يا فقيد الوطن والعروبة.. يا فقيد المُثُل العليا والنزاهة.. يا فقيد الأدبِ والعرب، يا فقيد الخلق الرفيق النبيل. يرحمك الله ويرحمنا بعدك.

* * *

وتولّى «وزارة الاعلام»، بعد «أحمد اسكندر»، «ياسين رجوح»، وأثبت فيها كفاءةً مقدرة ونزاهة.

ووزير الإعلام الحالي، «الدكتور محمد سلمان».

وهو شاب ممتلىء حيويةً ونشاطاً، وعلماً وخبرة ـ إلى جانب ثقافته الواسعة، وإدارته الحكيمة، وطاقاته في العطاء والإبداع.

إنّه يعطي فكرةً كريمة مشرقة.. عن الشباب العربي المثقف الواعي، والمخلص المتحمس ـ الناهد إلى غدٍ أفضل، ومستقبل أكمل.

وهو موضع تقدير وثقة عارفيه جميعاً.

ولا شك أن دوائر «وزارة الإعلام».. قد شهدت في عهده تطوراً ملحوظاً، وانطلاقاً واسعاً ـ في الأقطار العربية والأجنبية.

* * *

في صيف سنة ١٩٨٣ دُعِيتُ لحضور «مؤتمر اسلامي» في «كندا»، وكانت الحكومة الإيرانية هي صاحبة الدعوة، وسفيرها في واشنطن يرأس الجلسات ويديرها.

وقد حضر «المؤتمر» ما ينوف على ٥٠٠ شخص، من مختلف الجمهوريات

الأمريكية. ودُعي من الأرجنتين السيد «كامل مرهج» رئيس الجمعية الإسلامية في توكومان حينذاك، و«الدكتور عليّ الصارمي» أمين سرها وقتذاك.

وفي احدى جلسات «المؤتمر».. خطب أحدهم، وهاجم بعنف وضراوة سورية، ورئيسها «الأسد». وما أن انتهى.. حتى طلبتُ الكلام، ووقفتُ فوراً أردّ عليه، وبنفس العنف والضراوة، وأفنّد اتهاماته، وألقي الضوء على صلابة الموقف السوري ــ في وجه الصهيونية والامبريالية، وأتباعهما وعملائهما، وهذا ما يجعلها هدفاً لحملات العملاء والمأجورين. وما أن انتهيتُ.. حتى وقف عدد كبير من أعضاء المؤتمر يصفقون، ويهتفون لسورية وقائدها.

حقاً.. إن لسورية أنصاراً ومؤيدين في سائر أنحاء العالم.. وهم يقدّرون رسالتها وبطولتها، وموقفها الحازم الصارم في وجه العدو الصهيوني اللئيم.

وبعد انتهاء «المؤتمر».. التقيت صديقي «أنيس الكيك» في مدينة «مونتريال»، بكندا، وقضينا أيام أنس فيها ـ مع أنسبائه وأصدقائه. ومنها ذهبنا إلى مدينة «نيويورك»، حيث أمضينا بضعة أيام فيها ـ بضيافة نسيبنا الغيور «علي سلامة»، وأخيه «حسن»، وأبويهما الكريمين، وأشقائهما الأعزاء ــ وكانت تلك الأيام.. من أمتع الأيام وأحلاها. وقُدِّر لنا، بعدئذٍ، أن نعود لزيارة هذه الأسرة العزيزة، وقضاء أيام معها.

وقد انتقل النّسيب الغيور «علي»، وحرمه المثقفة «سَحَر»، إلى لبنان وسكنا مدينة «طرابلس» ـ مركز تلك الأسرة النبيلة من قديم. وهما، أينما كانا، ملء عين الزمن والناس.

* * *

في مطلع خريف سنة ١٩٨٦ سافرت وصديقي الصدّوق «أنيس الكيك» برحلة استجمام إلى الولايات المتحدة، وكندا، وفرنسا، وسويسرا، حيث أمضينا معاً ما يقرب من شهرين.

ورفقة صديقي «الكيك» من أروع وأمتع الرفقات. فهو فضلاً عن خبرته بالسفر، وسعة معلوماته ومداركه، فإنه ينسجم مع رفيقه إلى أقصى حدود

الانسجام.. ويجعله يشعر بأنّ الأيّام التي يقضيها معه.. هي من أجمل أيام العمر، وأمتعها وأحلاها.

وصداقتي وصحبتي لـ «أنيس الكيك».. قد تجاوزت ما هو معروف عند الناس.. حتى أصبحنا بنظرهم، ونظر الحقيقة والواقع، وكأننا شخص واحد ـ ولسنا شخصين اثنين.

حقّاً.. لقد كانت تلك الرحلة الممتعة من أجمل أيام العمر.. فهل يُقَدَّر لها أن تعاد؟

وخلال السنوات الأخيرة من غربتي.. كنتُ أقضي فصل الصيف في المصيف الشهير «بونتادي لاستي ـ أورغواي» إلى جانبه، هو وحرمه الرّاقية السيدة «أدال»، وكانت تلك الأيام.. من الأيام التي لا تُعوَّض ولا تُنسى.

والسنّة الماضية ١٩٩١ نعمنا، في مصيف «بونتادي لاستي»؛ برفقة الدبلوماسي الرّفيع المستوى والخلق، «عبد الحسيب الأسطواني» سفير سورية في الأرجنتين، حيث قُدِّر لنا أن نقضي معاً بضعة عشر يوماً ـ وكان يصطاف، والسيدة حرمه الرفيعة الأخلاق والتّهذيب. ورفقة «الأسطواني».. ليس كمثلها رفقة، وجواره ليس كمثله جوار.

وفي السّنوات الأخيرة أيضاً.. كنتُ أذهب والصديق «الكيك»، خلال شهر آذار، إلى منتجع يقع على حدود الأرجنتين ـ تشيلي، ويعلو عن البحر حوالي ألفيْ متر، وهو مشهور بمياهه الساخنة.. التي يقصدها السُيّاح والمستشفون من سائر أنحاء الدنيا.. ودرجة حرارة تلك المياه تزيد على المائة ـ وهي موزّعة بشكل فني رائع، ضمن بناء حديث ضخم.. ويقال إنّ تلك المياه الأعجوبة، ذات الهدير المخيف، تشفي من أمراض كثيرة ـ وخاصّة ما يتعلق بالجلد، والجيوب الأنفيّة، والعصبي، وو..... الخ!

* * *

في فرنسا، وبرفقة صديقي «أنيس الكيك»، نعمت برؤية أخي «محمود»، وأنجاله الدكاترة الموهوبين الذي كانوا يتخصصون في جامعات «بوردو»

الشهيرة، وهم: «مؤنس» و«صلاح» و«سُهَى» التي كانت بمثابة أمّ لأشقائها ـ لفرط رقّتها وحنانها. وكان «صلاح».. ما إن يرى معوزين، جزائريين أو مغاربة، إلا ويفتح «الثلاجة» ويفرغها مما فيها ويعطيهم إياه. ونفسه المفطورة على السخاء والرأفة تأبى إلا هذا.. وعلى «سُهَى» أن تملأ «الثلاجة» من جديد ـ ودائماً كان عليها أن تملأها من جديد.

وقد التحق «الدكتور مازن» أخيراً بأشقائه ليتّم اختصاصه في فرنسا. ثم التحقت بهم شقيقتهم المهندسة «حنان» ـ التي قيّض لها القدر أن تقترن برفيق حياتها هناك، وهو «الدكتور فؤاد خضور» الذي كان أستاذاً بجامعة «تشرين ـ اللاذقية»، وقد أوفدته الجامعة للتخصص أيضاً. فبذّ أقرانه جميعاً، وحاز على المرتبة الأولى بينهم، فتعاقدت معه الجامعة الفرنسية، وبقي ورفيقة دربه العزيزة «حنان» هناك.

وأولاد أخي، والحمد لله، جميعهم أذكياء نبهاء.. ومشهود لهم بالاستقامة والتُّقى والصلاح.. وهم مثاليون بهذه الصفات المشرقة الكريمة. وفور حصولهم على شهادات الاختصاص.. تعاقدت معهم المشافي الفرنسية للعمل فيها. ولابدَّ أخيراً من عودتهم إلى وطنهم، حيث يستفيد المجتمع من علمهم ومواهبهم وكفاياتهم. وقد تعاقدت «الدكتورة سهى» أخيراً مع السعودية، للعمل في أحد مشافيها.

وبهذه المناسبة.. لابُدَّ من الإعراب عن الأسف العميق ـ لأن بعض النوابغ من بلادنا يستجيبون للمُغريات.. ويبقون في بلدان أوروبا وأمريكا التي تعمل لهجرة العقول إليها.. فتحرم بلدانهم منهم، وتستفيد هي من طاقاتهم ونبوغهم!

* * *

في أواسط الثمانينات.. التقيت قداسة «البابا يوحنّا بولس الثاني»، في مدينة بوينوس آيرس ـ عاصمة الأرجنتين.

كان قداسته يزور تلك البلاد، وقد أُجريتْ له استقبالات حافلة لا مثيل لها. وتلطّف، ورغب في أن يجتمع بأركان الجالية الإسلامية. وطلب مني السيد «محمد

مسعود»، رئيس «المركز الإسلامي»، أن أكون عضواً في الوفد، فلبيت رغبته ـ وأنا مشوق لذلك، وحريص كل الحرص. وكنا في مقدمة الوفد: شيخ الجامع، ورئيس «المركز الإسلامي» وأنا. وكانت قد أعِدَّت لقداسته منصَّة ليجلس عليها. ولمّا رآنا وقوفاً، عند دخوله القاعة، أبى أن يصعد على المنصَّة، وظلَّ واقفاً بقربنا.

وألقى سكرتير «المركز الإسلامي» كلمة موجزة باللغة الإسبانية. وألقى قداسته كلمةً تضمنت التحيَّة للمسلمين، وأن يعمل معاً ـ المؤمنون بالله، في سبيل الله. وبعد الانتهاء من كلمته.. تقدم وطاف على أعضاء الوفد يصافح كلاً منهم، ويقدم له «علبة» لطيفة ضمَّنها لوحة صغيرة، عليها رسم «السيد المسيح» من جانب، ورسم «البابا» من جانب آخر. وأُخِذَ لكل منا رسم معه ـ وهو من أعزّ ما أحتفظ به من رسوم.

لقد ترك «البابا» في نفسي، ونفوس الآخرين جميعاً، أثراً كريماً ـ نظراً لتواضعه، ورقته، وسموّ شمائله. وكانت مناسبة كريمة ـ تلك التي أتاحت لنا اللقاء بقداسته في الأرجنتين.

* * *

في أمريكا.. أقحمت نفسي بأعمال صناعية ـ كان يؤمل نجاحها كسواها، وكما نجح غيرنا بها، أو بما يشبهها. ولكني، مع مزيد الألم والأسف والحسرة، قد منيت بخسائر فادحة، في البرازيل، من الذين كانوا موضع ثقتي التامّة! وكنت ضحية تلك الثقة.. التي أدّت إلى عكس ما أريد!

والأحياء من شخصيات الجالية العربية، في مدينة سان باولو، يعرفون ذلك جيداً.. ويتندّرون به.

وحينما ذهبت إلى الأرجنتين سنة ١٩٧٧ وقدِّر لي أن أتعرف على «أنيس الكنيك»، وهو من أركان الجالية ـ المشهورين باستقامتهم، ودقة معاملتهم، وصدق كلمتهم.. انتقلت حينئذٍ من مجال الخسارة إلى مجال الربح. وكان له فضل كبير، ويدٌ طولى، بما حقّقته، أثناء إقامتي في الأرجنتين، من نجاح مادي.. مكّنني من

وفاء ديون كان بعضها ما يزال ممسكاً بخناقي ـ بسبب من تعاملت معهم في البرازيل..

وقد استطعت بفضل تعاملي مع صديقي «الكيك» أن أتغلب على تلك المتاعب.. ثم أن أنهض بالتزاماتي تجاه الآخرين.

و«أنيس الكيك».. ذو أعمال واسعة في البرازيل، والأرجنتين، وأورغواي. ويُعتبر هو وابنه «عفيف» ـ الذي ورث شمائل أبيه ـ في طليعة مصدّري القهوة، من البرازيل إلى أوروبا.

* * *

حينما قررت العودة إلى الوطن.. تلطّف أصدقاء كرام، وأقاموا لي مآدب تكريمية سخيّة.. أذكر منهم السادة ـ بكل تقدير وشكر وامتنان:

السفير السوري الأستاذ «عبد الحسيب الأسطواني»، ومستشار السفارة السورية الأستاذ «شاكر الخيّاط»، والأستاذ «رامز شقرا» ـ رئيس فياراب أمريكا حينئذٍ، والدكتور «هو راسيو حداد» رئيسها السابق، والأمين «رشيد سابا» قطب «الحزب السوري القومي»، والسيد «خالد قصّاب» رئيس «الجمعية البيرودية»، والسيد «محمد مسعود» رئيس «المركز الإسلامي»، والسيد «حميد ديب» رئيس «الجمعية الإسلامية» ـ بفلورس، والسيد «أحمد سلاجا» رئيس «جمعية الاتحاد الإسلامي العلوي»، ورئيسها الفخري «اميليو محمود»، والسيد «علي اصطنبولي» ـ رئيس «الجمعية الإسلامية العلوية» في «خوسي ايخنيارو»، وأصدقاء آخرون كرام. فلهم جميعاً وافر شكري، وجزيل تقديري وامتناني ـ كما للسيدين «أحمد» و«اسماعيل إدريس»، وشقيقتهما اللطيفة «لطيفة» وقرينها، وافر الشكر والتّقدير.

وحينما مررتُ في البرازيل.. تلطّف قنصل سورية العام، في مدينة «سان باولو»، الأستاذ «مصطفى حاج علي»، وأقام لي مأدبة تكريميّة حافلة في داره العامرة، دعا إليها أركان الجالية، وأدباءها وشعراءها، وقد تلطّف سيادته وألقى كلمة قيمة، نُشِرت في مجلة «الثقافة». كما ألقى قصائد الشعراءُ الملهمون:

«الشيخ شكيب تقي الدين»، الأستاذ «شفيق عبد الخالق»، الأستاذ «ابراهيم سلمان»، وكان العرّيف الأديب الأستاذ «أنطوان لاذقاني». وقد ألقيتُ كلمة تقدير وامتنان.. عبَّرت فيها عن مشاعري، نحو سيادة القنصل، والأدباء الكرام.

ولم يصدف، وأنا في المغترب، أن زار زائر، ووفد رسميّ تلك البلاد.. إلا وأقيمت له مأدبةً حافلةً، وقمتُ بواجب تكريمي إيّاه. وحتى الأشخاص الذين قاموا بزيارات خاصّة.. فإني قمت بواجبي نحوهم والحمد لله.

ويوم زارت البرازيل «السيدة» «وزيرة الثقافة»، «الدكتورة نجاح العطّار»، أقمتُ لها مأدبة حافلة في «سان باولو». وقد أُلقِيَ أمامها عددٌ من القصائد والخُطَبْ، وتلطّفت وألقتْ كلمةً بليغة، حضّتْ فيها على تعليم اللغة العربية لأبناء المغتربين، وحيّتْ الأدباء والشعراء، وتعهّدت بنشر آثارهم وكتبهم التي يرسلونها إليها. وكانوا جميعاً شاكرين هذا التّعهّد، وممتّنين له. ولا شك أنها ستفي بوعدها ـ لأنها معروفة بصدق الكلمة، والوفاء بالوعد.

ومن الذين زاروا المغترب، للاشتراك بأحد المؤتمرات، وكان لهم أثرهم فيه، «الدكتور عدنان محيي الدين»، والسيدة حرمه المصونة، و«الدكتور محمد منصور» وقد مرَّ معنا هذا. ومكتب «الدكتور عدنان»، وقلبه الطيب، مفتوحان لكل مغترب يزور الوطن الأم.

* * *

في تلك الفترة، وكنت ما أزال في المغترب، انتقل إلى رحمة الله المجاهد الكبير، قائد الثورة السورية «سلطان باشا الأطرش»، وقد أقمتُ له حفلة تأبينية كبرى في «النادي السوري»، بعاصمة الأرجنتين «بوينوس ايرس»، ألقيتْ فيها قصائد وكلمات عديدة. كما أقيمت له حفلات تأبينية أخرى، في مناطق أخرى ـ تقديراً لشخصه العظيم، ونضاله الذي يعتبر ملحمة خالدة في تاريخنا الحديث. وقد ورد ذكره في هذه «المذكرات» بأماكن عديدة. وكتبت حينئذٍ مقالاً في جريدة «الوطن» ـ افتتاحية العدد ـ أحبّ نشره في هذه المذكرات ليكون خاتمتها.. وليصح فيها وفيه القول الكريم: «وختامها مسك».

سلطان باشا الأطرش

هو قمة من قمم المجد، وذروة من ذُرَى الخلود.

هو جزء من تراثنا الذي نعتز به ونباهي.

وصفحة نقية من تاريخنا القومي المشرّف المجيد.

بل ملحمة عابقة بأرَج الجهاد، وعطر الكفاح، وشذا النضال.

سيرته تضوع كما يضوع المسك، وتفوح كما يفوح العبير.

لسان مهذب، وكلمة بريئة، وطلعة متواضعة، وخلق قويم، ونفس نقية أبيّة شريفة.

وحديث متّزن رصين، وعبارة صادقة نزيهة.

ووجنة فيها صفاء الضوء، ونقاء الشعاع، وبياض الضمير.

ووجه يُطِلّ عليك كما يُطِلّ نجم.. ويطفح رقةً ووداعة، وطهارة ونبلاً.

ومجلسٌ وقور مهيب.. يوحي إليك بأنك أمام واحد من أبطال التاريخ، وركائز الماضي، ودعائم التراث.

إنسان. يحمل في قلبه قلب الإنسان، وفي روحه روحه، وفي شمائله شمائله، وفي مزاياه مزاياه.

فكأنّ القيادة قد خُلِقتْ له ـ منذ أن خُلق.. ووُجِدت معه ـ منذ أن وُجِد!

وقد اجتمع زعماء سورية، وأركان مجتمعها ـ سنة ١٩٢٥ ـ وبايعوه قائداً عامّاً لثورتهم.. فكانت عظيمة به تلك الثورة، وكان ذلك القائد عظيماً بها.

حارب الأتراك قبل الفرنسيين.. وخرج على الاحتلال العثماني ـ مثلما خرج على الاحتلال الفرنسي.

فقد كان عدوّاً للاستعمار، ونصيراً للحرية.

وحينما نفذت آخر طلقة من بندقيته.. التجأ إلى الأردن، وبقي معتصماً فيه إلى أن انزاح العلم الفرنسي من سماء سورية، وجلا آخر جندي أجنبي عنها.

ورغم جميع المغريات.. فقد اعتكف في قريته «القريّا».. وبقي فيها إلى أن صعدت روحه إلى باريها، ووسِّد الثرى فيها.

ودخل اسم «القريّا» في التاريخ.. وأصبح نبضاً من أحرفه، وشعاعاً من ملاحمه، وندًى من نداه.

لم تعرف نفسه الزُلفى ـ كما أنها لم تعرف الكبرياء، ولا الادّعاء.

كان إذا ذهب إلى دمشق.. يذهب في موكب، ويعود في موكب.

وكان يُحتفى به.. بقدر ما كانت تمثّل عظمته من عظمة، ووقاره من وقار.

وأبداً.. لم تهبط قيمته لدى المسؤولين في دمشق ـ على امتداد الزمن، واختلاف العهود، وتوالي الانقلابات.

وإنما ظلّ: «سلطان باشا.. سلطان باشا».

وحتى حينما كانت تغص سورية بـ «الباشاوات».. كان وحده يقال له «الباشا».. فيُعرَف من هو، وأين هو ـ ذلك لأن شخصيته بقيت، طوال حياته، في سموّها وإشراقها ولمعانها.

وبقي محافظاً على سمته الرصين، وخلقه النبيل، واسمهِ الوقور.. وعلى عقيدته ووطنيته وسمعته.

كانت عروبته في شموخ الأفق، ونقاء النور، وإطلالة النجم.

كانت عاصفةً كالعاصفة، مزمجرةً كالزّوبعة، مندفعة كالإعصار.

هذا الإنسان الهادىء الوادع، المتواضع الوقور.. إذا ذُكِرت الصهيونية أمامه ينتفض كالأسد، ويهدر كالموج.. ويصبح إنساناً آخر ـ كأنه نمر يثب، وقذيفة تنفجر، ونسر ينقضّ.

كان يكره الصهيونية ـ وحتى اسمها.. فكيف لا يكره كيانها ووجودها ومسخها دولة.

مؤمن بعروبته ـ إلى أقصى حد.. ومتفانٍ بخدمتها ـ إلى آخر ما يحلم به فكر، ويَطَاله ظن.

كان مدرسة في الرصانة والرّزانة، والوعي والهدوء ـ مثلما كان مدرسة في الجهاد والكفاح، والوطنية والقومية.

كان ينحي باللائمة على العرب ـ لأنهم لا يتّحدون.. ولأن شرذمة من الصهاينة تتغلب عليهم، وتفرض نفسها.. ولو إلى حين ـ وإن كنا لا نعلم متى يحين هذا الحين!

كان يأسف لأنه ليس في شباب.. ليعطي الناس درساً بالجهاد، وكيفية التغلّب على الأوغاد.

وحينما كان يتحدث عن العروبة ومكارمها، والنضال من أجلها ـ ولأجلها.. تتقلص عضلات وجهه، ويشمخ حاجباه، وينتفض شارباه، وتقذف الشرر المتطاير مقلتاه!

يا لله!

هذا إنسان من غير طينة بني الإنسان!

وحده جحفل من قوة، وصخرة من صلابة، وطود من شموخ!

ووحده غابة من رياحين، ومنعطف من ورود، وربيع من زهور!

ووحده ملحمة من تاريخ، وإشعاع من تراث، وبقية من بقايا السّلف الصالح!

يا باشا ـ يا «سلطان»:

أتذكر يوم قلت لمرافقيك: لن أزور أحداً قبل «عبد اللطيف اليونس». وسأزوره في الفندق، وليس في مكتبه بالمجلس النيابي.

وتلطّفت وقلت فيّ قولاً كريماً.. وذكرتني بعبارات نبيلة ـ لا أنساها ما حييت، وما بقيت.

يا باشا ـ يا «سلطان»:

في آخر لقاء معك في «القرَيّا» السنة الماضية، وكنت برفقة صديقي الأديب الكبير الأستاذ «نعمان حرب»، حيث حظينا بلقاء زميلنا السابق ابنك «المنصور»، والصديقين الصدوقين أخيك «اللواء زيد»، ونسيبك «العقيد محمد»، وكنتَ مريضاً.. وانتصبتَ في فراشك، وأنت تزأر كالأسد وتصرخ:

ألا يتفقون؟! ألا يخجلون؟! ألا يخافون الله ـ وهم يرون أعداءهم متّحدين عليهم.. بينما هم مختلفون متفرقون!!!

ولاح بريق غريب في عينيك وأنت تقول: لا آمل إلا بـ «حافظ الأسد». هو وحده الذي يقف في وجه العدو يتحدَّى. وهو وحده الذي سيحافظ على كرامة العروبة وأمجادها. وقلت:

اللهم انصره، اللهم انصره.

وحينما ذكرت اسمه.. انبسطت أساريرك، واطمأننت، وارتحت.

يا باشا ـ يا سلطان ـ يا أبا منصور:

كيف ترحل.. والقدس ما تزال محتلّة، والعدو يعبث بفلسطين.. وقد اقتلع من سماء «حِطّين» علم «صلاح الدين».. وأنت البطل البطل، والمجاهد العربي الأصيل الأصيل!

كيف تترك الأرض التي استحال فيها غبار معاركك إلى صخور.. وطلاب المدارس يدرسون أخبار بطولتك وشجاعتك، وتحدّي رجالك «بني معروف» للقذائف والدبابات ـ وهم لا يأبهون، ولا يجزعون؟

كيف تترك «الجولان» يستنجد، ورجالك المغاوير فيه يجابهون صلف العدو، ولؤمه وشراسته، وهمجيته ووحشيته، ولا يَعْبأون ولا يكترثون ولا يبالون؟

كيف تتركهم وتمضي.. وتخلّفهم وراءك وترحل؟

كيف تمضي.. وسماؤنا مملوءة بالدخان، وأرضنا يتقاذفها الإعصار.. وحاضرنا المريض يكاد ينعى لنا غدنا الذي يكتنفه الغموض، ويجلببه السواد والاكمداد؟.

وتمضي إلى رحاب الله.. حيث تلتقي بالأبرار الصالحين، رفاقك المجاهدين. اقرأهم عنّا السلام. وقل للمجاهد الأول فيهم «الشيخ صالح العلي»، بطل البطولات، ورجل الرجولات.. قل له: إننا ما نزال على عهدك وعهده، وودّك وودّه. وبإذن الله سنظل. وإني سأظلّ وفيّاً لذكراه، وذكرى العلاّمة الجليل «الشيخ سلمان الأحمد»، ما بقيت وحييت.

يا أبا منصور ـ يا سلطان ـ يا باشا ـ يا واحداً من أنبل من عرفت وعرف غيري.. يرحمك الله، ويرحمنا بعدك. ويرحم «الشاعر القروي» الذي قال فيك:

فيا لـك «أطرشـاً» لمّـا دُعينـا   لِثـأرٍ.. كنـتَ أسـمَعَنا جميعَـا
وحولك من «بني معروفَ» جَمْـعٌ   بهـمْ، وبدونِهـم، تفْنـى الجموعَـا

* * *

وأخيراً.. أنا من الذين لا يتجاوز طموحهم حدود الواقع المألوف، ولا يسلكون إلا السَّبيل القويم المعروف.

وأنا لا أتطلب من الحياة.. إلا الطّاقةَ التي تمكّنني من العطاء السَّمْح.. الـذي لا يمكن تحديد نوعه ومداه.. والذي لا يطمع بمقابل، ولا ينطـوي علـى منّـةً.. وإنما هو خالصٌ لله، والشكر لله.

وإن سعادتـي التـي أعمل ـ لأظفـر بوارف من نعمائها وصفائهـا.. هـي في أن أسعف محتاجين، وأكفكف بشغاف قلبي دموع حزانى ومعوزين.

وإنـي بهـذا القـول.. لا أمدح نفسـي، ولا أقصد إطراءها، واستدرار الثنـاء عليها ــ وأعوذ بالله من ذلك. فأنـا، كما هو معروف عنـي، من أشـد النـاس تواضعاً، وكرهاً للتعالي والزّهو.

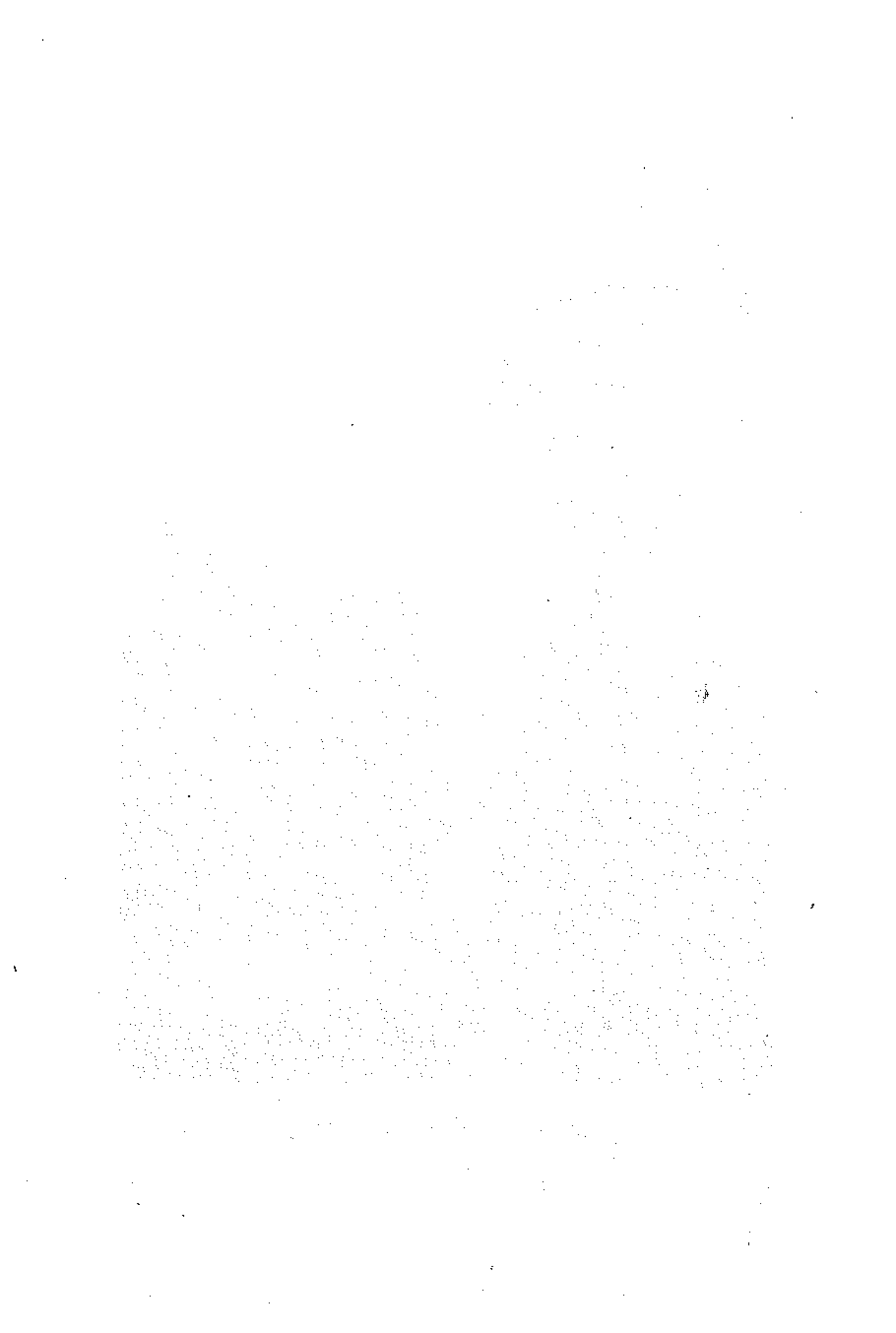
ولكن.. إذا مُسَّـتْ كرامتـي ـ ولـو قيد شـعرة.. فـأصبح، حينئـذٍ، إنساناً آخـر. وصدق من قال: التواضع للمتواضع فضيلة، والتكبّر على المتكبّر رجولة وبطولة.

وأعترف.. بأن طيبة قلبي هي التي جنت عليَّ ـ وما تزال تجنـي. فهـي مصدر سعادتي ـ مثلما هي مصدر تعاستي.. ومع ذلك فأنا بها هانىءٌ وسعيد.

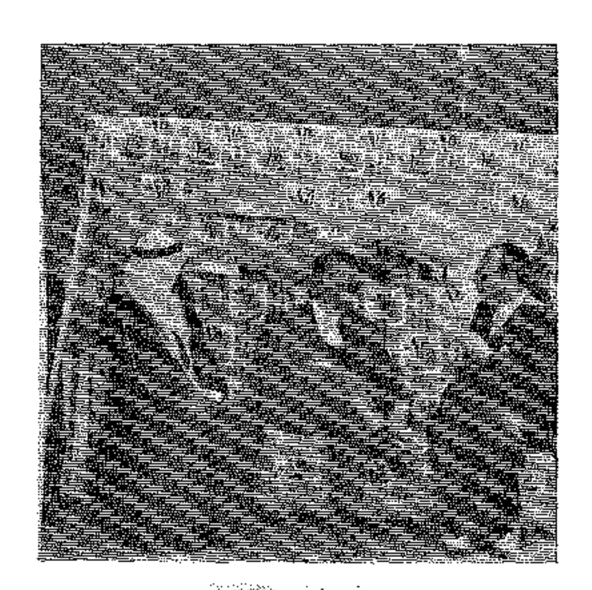
والأمر يومئذٍ لله، والحمد لله، والشكر لله.



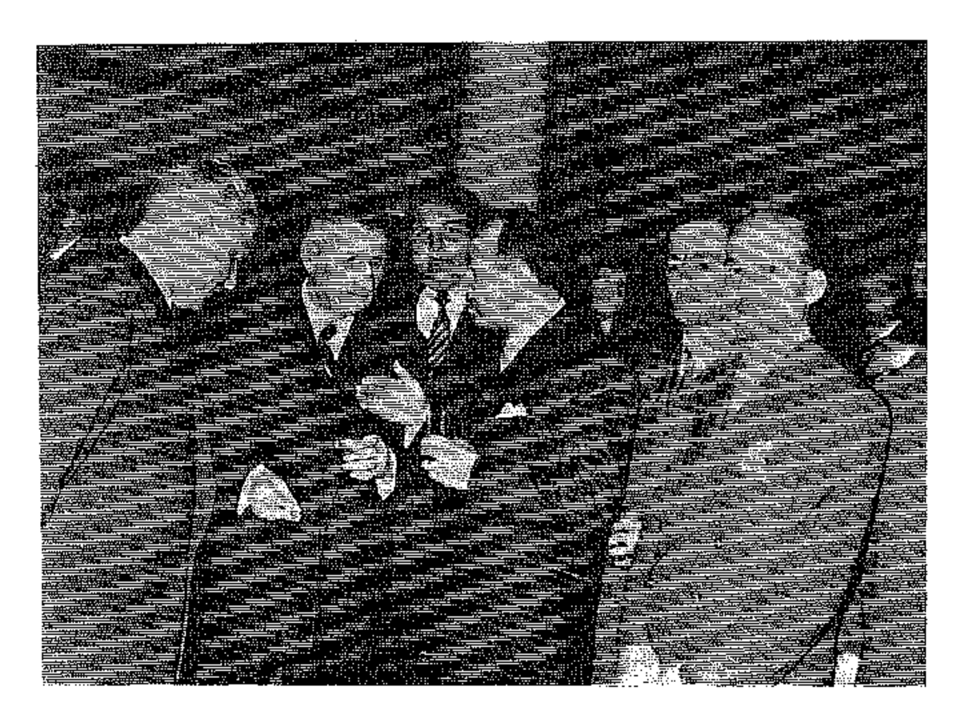
مع الرئيس حافظ الأسد بطل التشرين



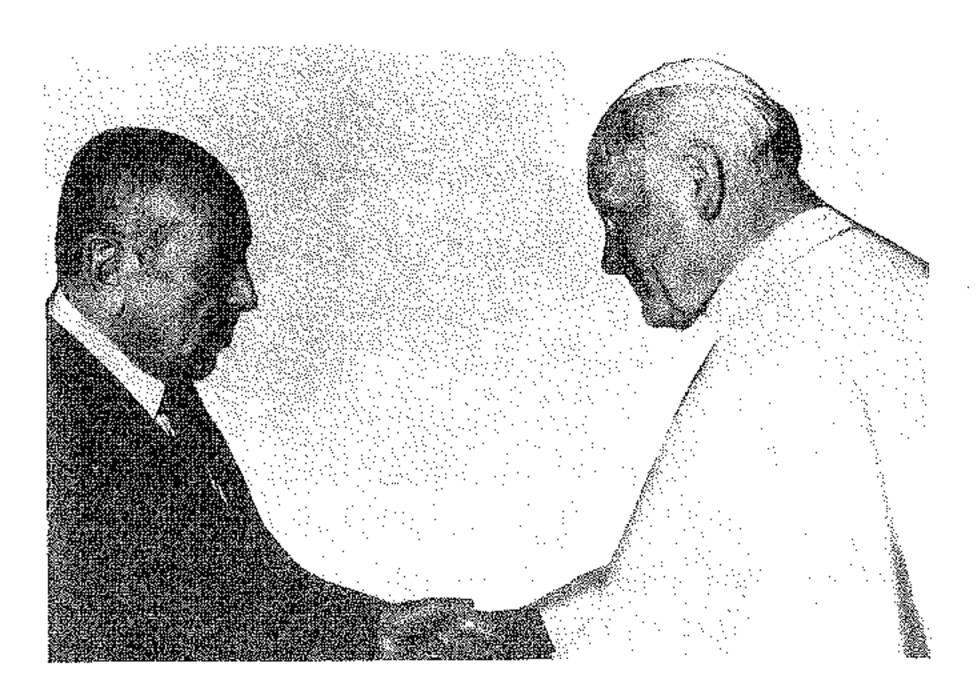




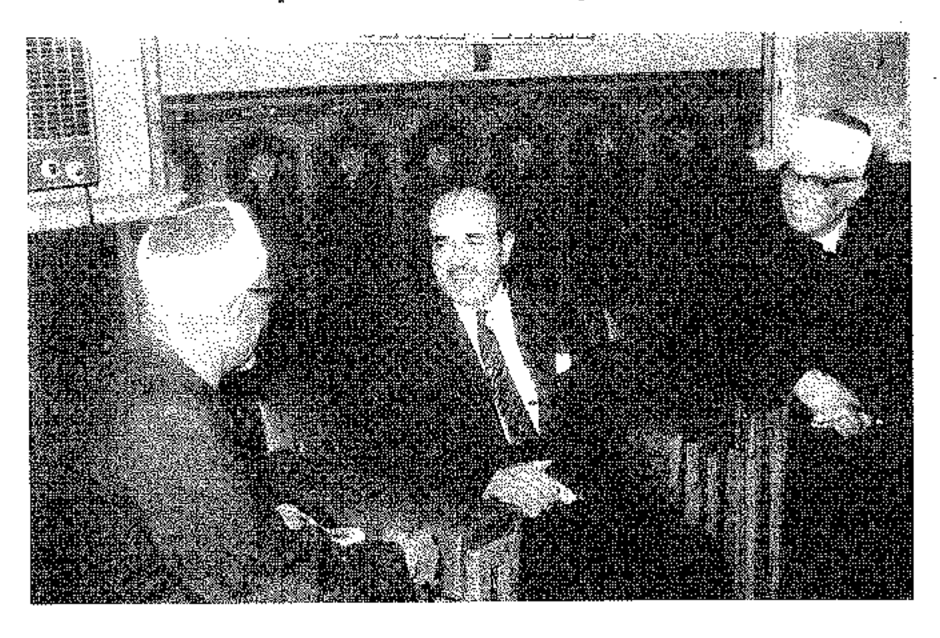
مع الأمير عبد الإله ـ العراق



مع مصطفى العمري رئيس وزراء سابق بالعراق



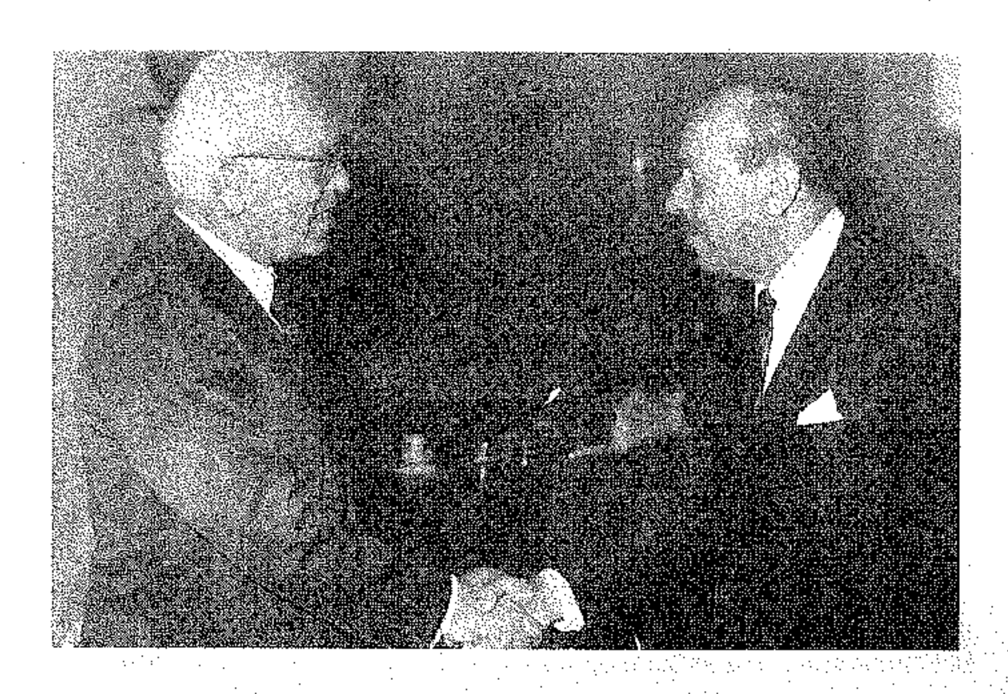
اليونس مع قداسة البابا «يوحنا بولس الثاني»



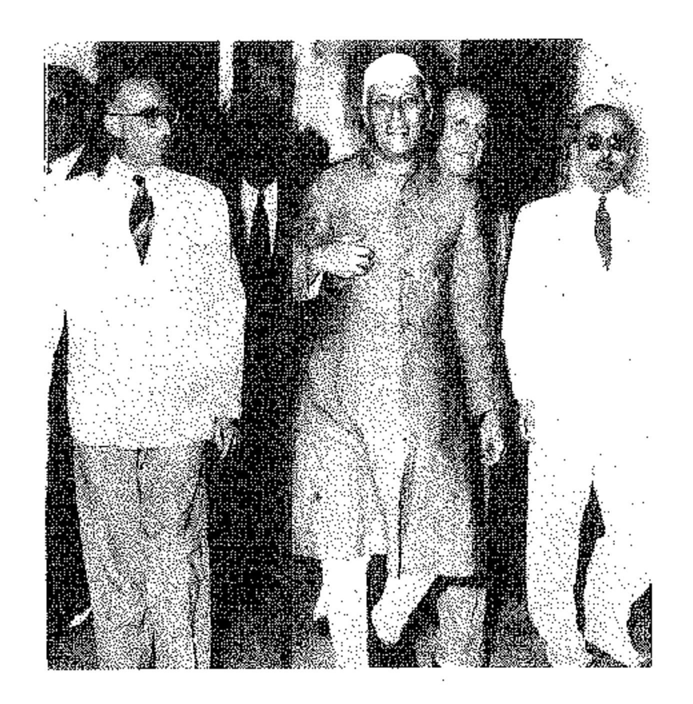
الدكتور اليونس مع فضيلة شيخ الجامع الأزهر في مكتبه بالقاهرة



المجاهد الكبير الشيخ صالح العلي في الوسط وعن يمينه العلامة الكبير الشيخ أحمد رضا ، فالدكتور اليونس . وعن يساره «الشيخ صالح» الشاعر الكبير الشيخ سليمان ضاهر فالشيخ عارف الزين صاحب مجلة «العرفان»



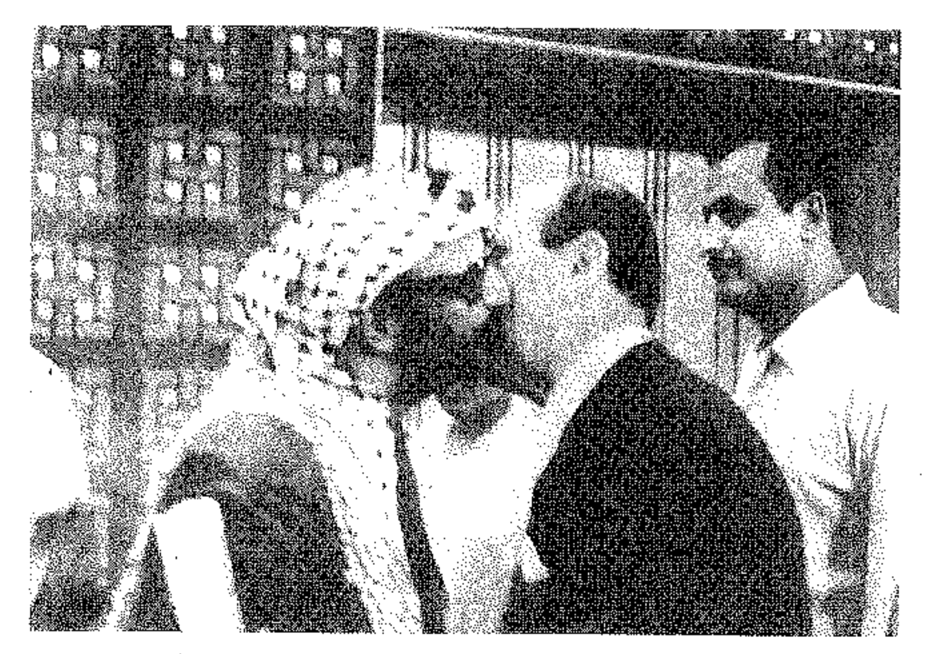
الدكتور اليونس مع الرئيس سليمان فرنجية رئيس الجمهورية اللبنانية في قصر الرئاسة ببيروت



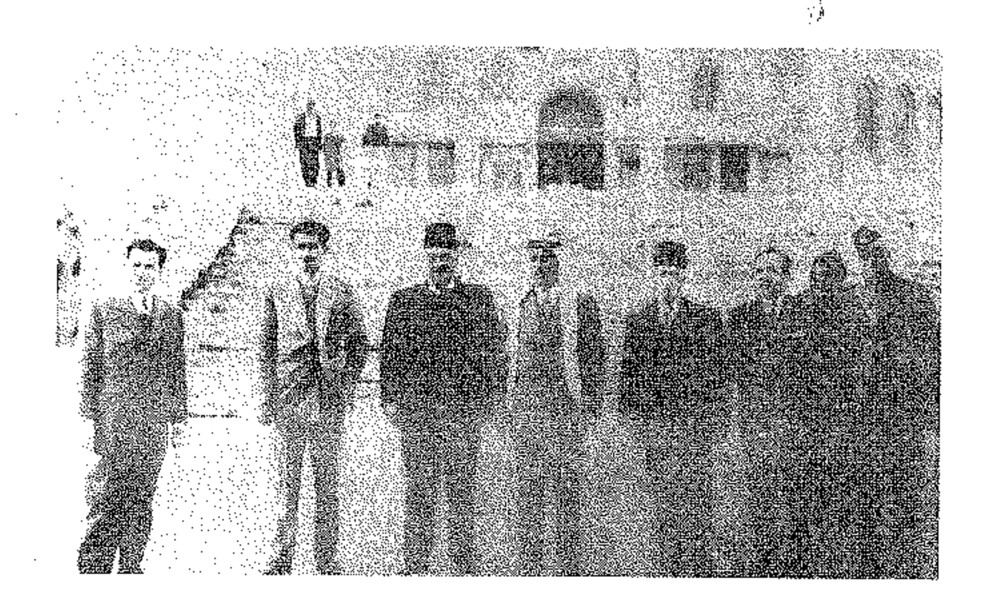
الرئيس نهرو



مع الملك فيصل الثاني في بغداد ، وعن يمينه إحسان الجابري ، وعن يساره اليونس ، ثم بقية أعضاء الوفد السوري



الدكتور اليونس مع السيد ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية

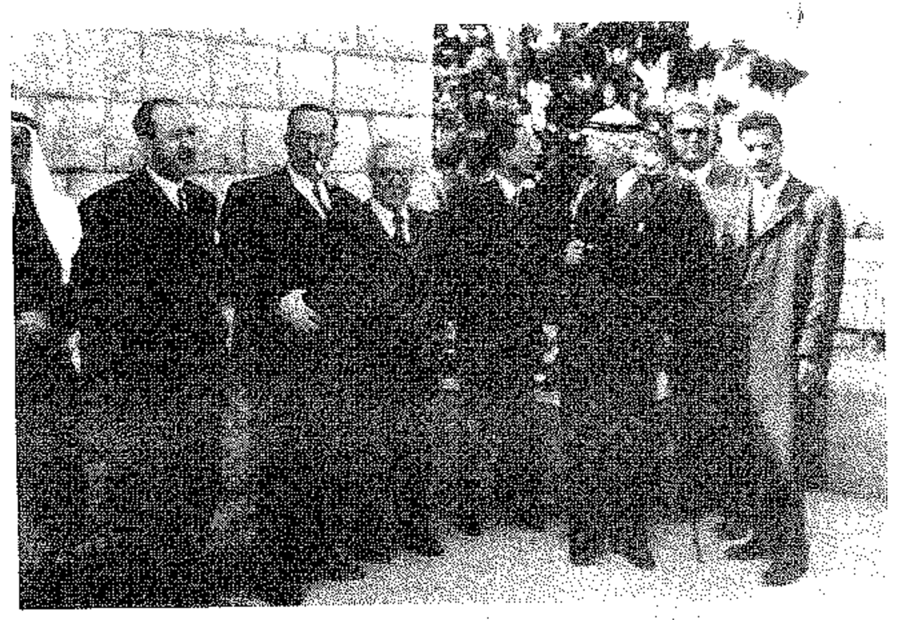


في حرم المسجد الأقصى

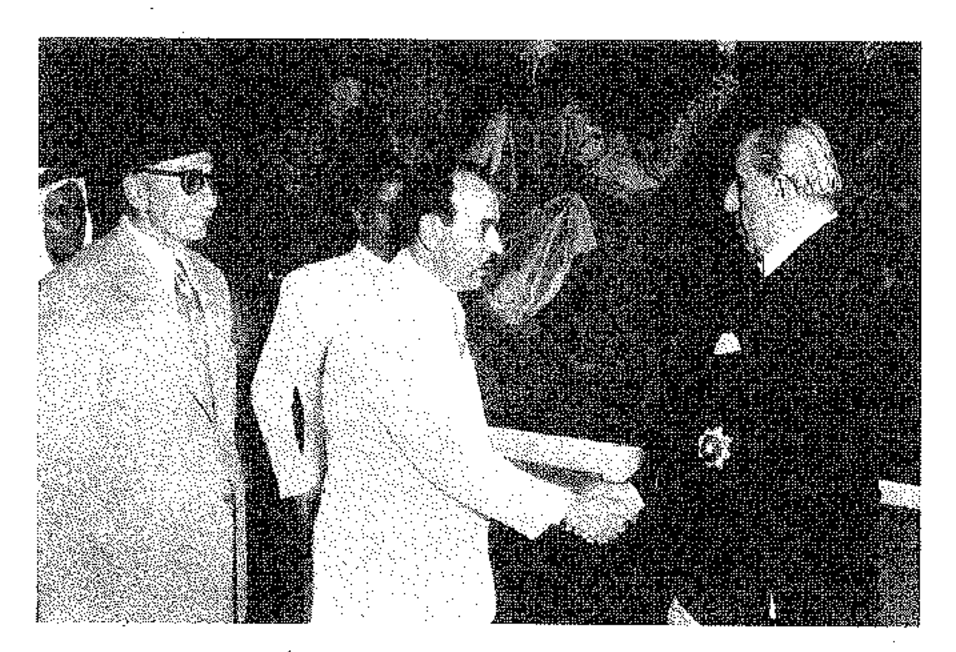


في مجلس النواب العراقي

وإلى يسار «اليونس» الدكتور «معروف الدواليبي» ففيصل العسلي ، فأحمد قنبر



أمام المسجد الأقصى



الدكتور اليونس يهنىء شكري القوتلي بانتخابه رئيساً للجمهورية

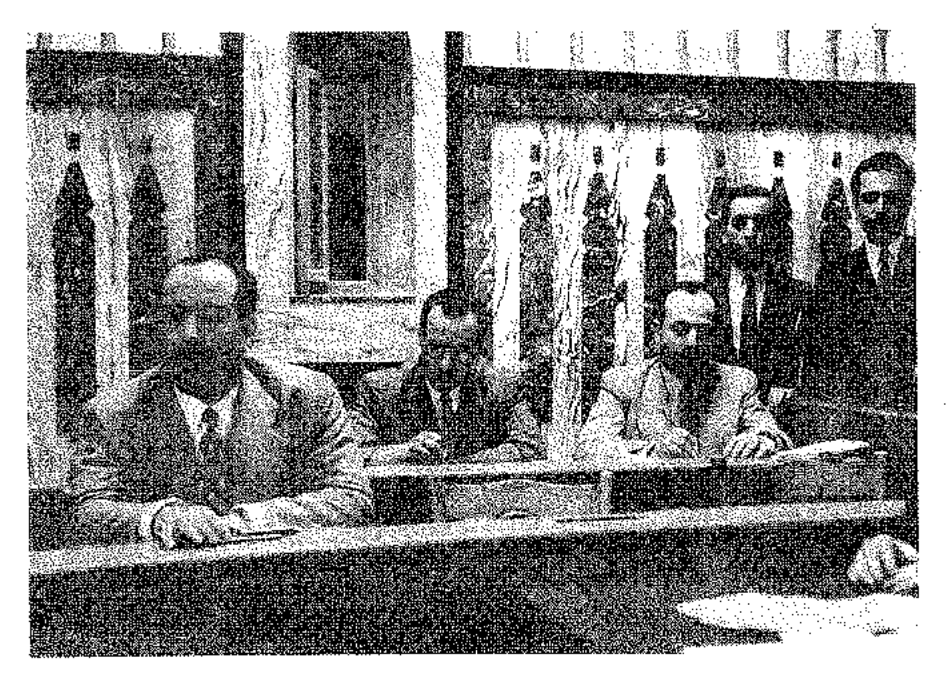


الدكتور اليونس مع المجاهد الكبير الشيخ صالح العلي



في الأردن

من اليمين إحسان الجابري ، معروف الدواليبي ، محمد العايش ، صلاح البيطار ، عدنان الأتاسي ، اليونس فرزت المملوك



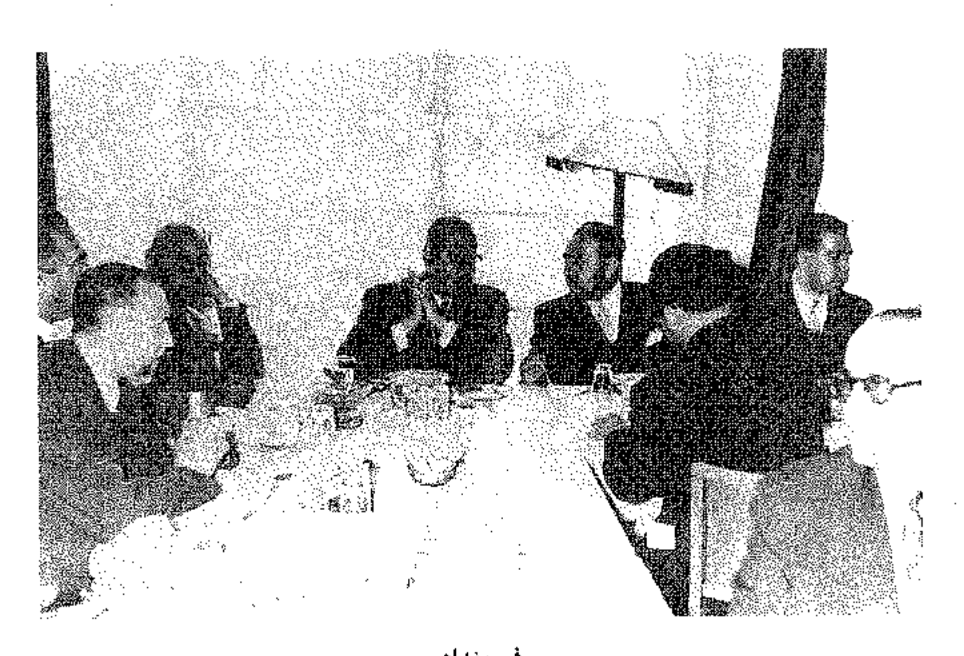
الدكتور اليونس في مجلس النواب



رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا يلقي كلمة ترحيب بالوفد السوري ، ويرى رئيس الوفد رفيق بشور وإلى يمينه «اليونس» وإلى يساره الدكتور عبد الوهاب حومد .



في الأردن ـ والدكتور اليونس يخطب وكان المتكلم الرسمي باسم الوفد السوري



في بغداد

الدكتور اليونس وهو يتحدث مع الدكتور معروف الدواليبي رئيس الوفد السوري ويبدو إلى يساره جهاد الهواش



د. اليونس في عمان وهو يخطب ويبدو إلى يمينه المجاهد الكبير أكرم زعيتر وإلى يساره عدنان الأتاسي فإحسان الجابري



رئيس الجمهورية الأرجنتينية الدكتور كارلوس منعم ، وإلى يساره أحمد سلاجا رئيس جمعية «الاتحاد الإسلامي العلوي ، في بيونس آيرس ، وإلى يمين الرئيس السفير السوري عبد الحسيب الاسطواني ، فالمطران كيرللس راعي الطائفة الأرثوذكسية بالأرجنتين ، فالدكتور اليونس

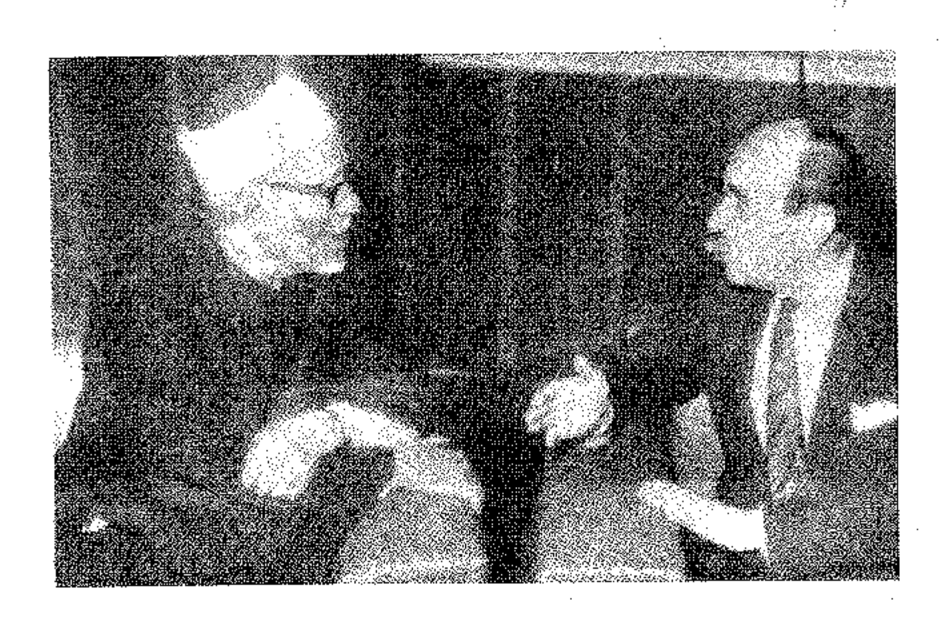


في السعودية ــ والدكتور اليونس يرتدي اللباس العربي

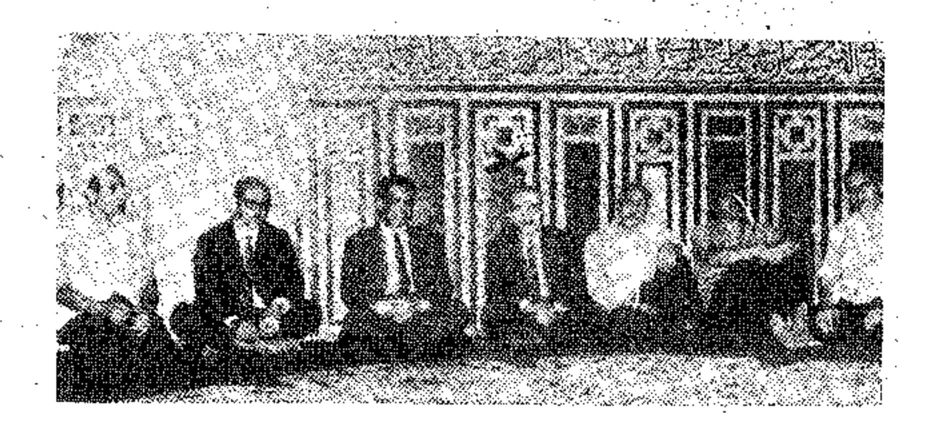


في قصر عابدين في القاهرة

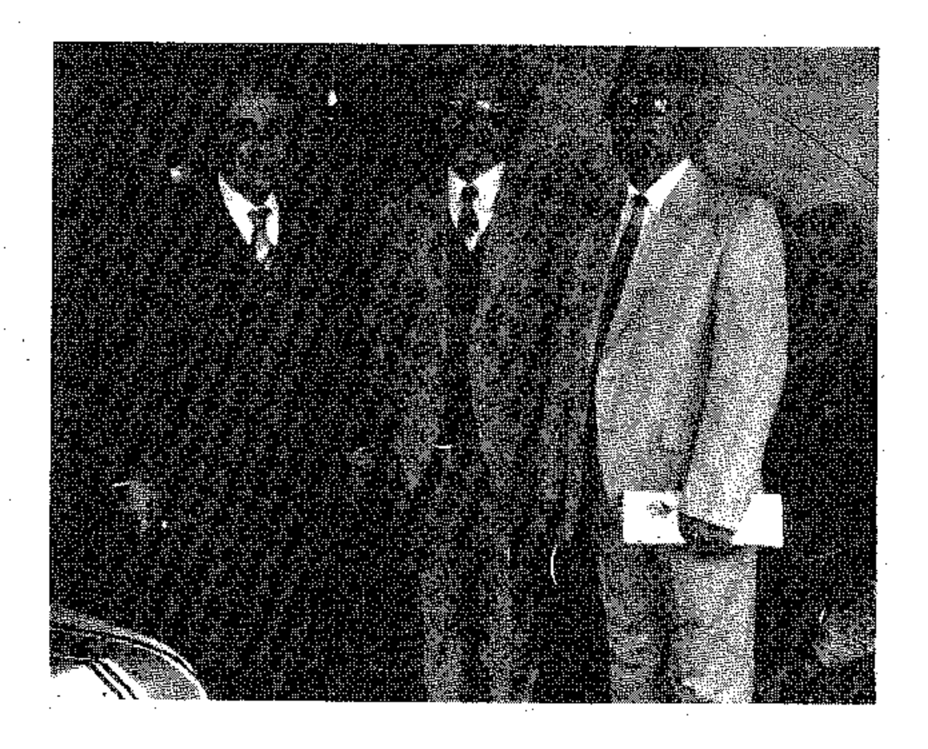
ويبدو إلى يمين الدكتور اليونس الدكتور معروف الدوالبي ، وإلى يساره أكرم الحوراني



اليونس مع شيخ الجامع الأزهر



اليونس في غرفة «الحسين» الخاصة بمسجد الحسين في القاهرة



في الوسط الأديب الكبير الأستاذ «نعمان حرب» ، وإلى يمينه الدكتور «اليونس»



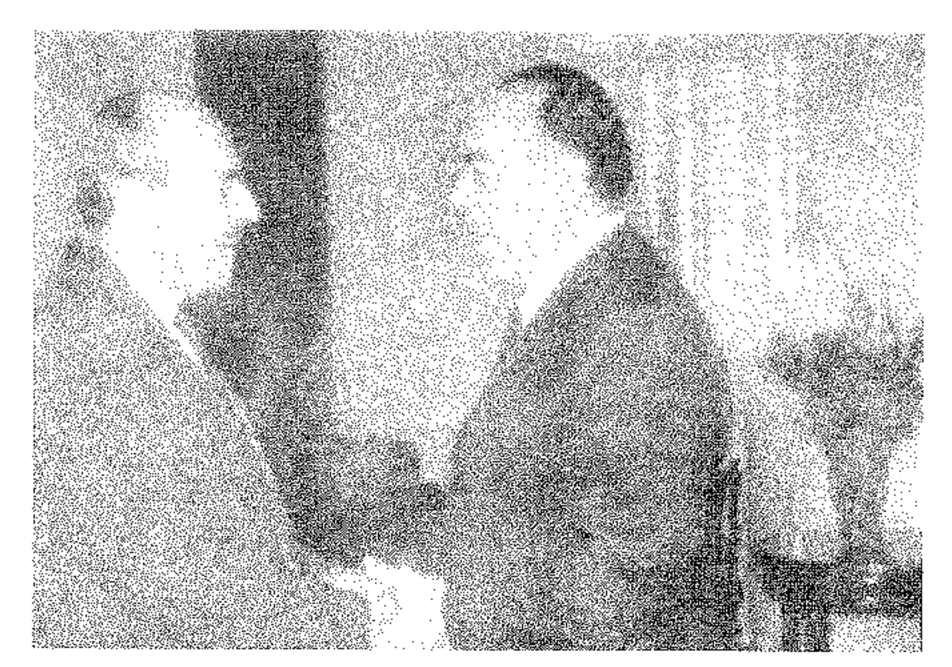
النائب عبد اللطيف اليونس يتلو القسم الدستوري في المجلس النيابي السوري



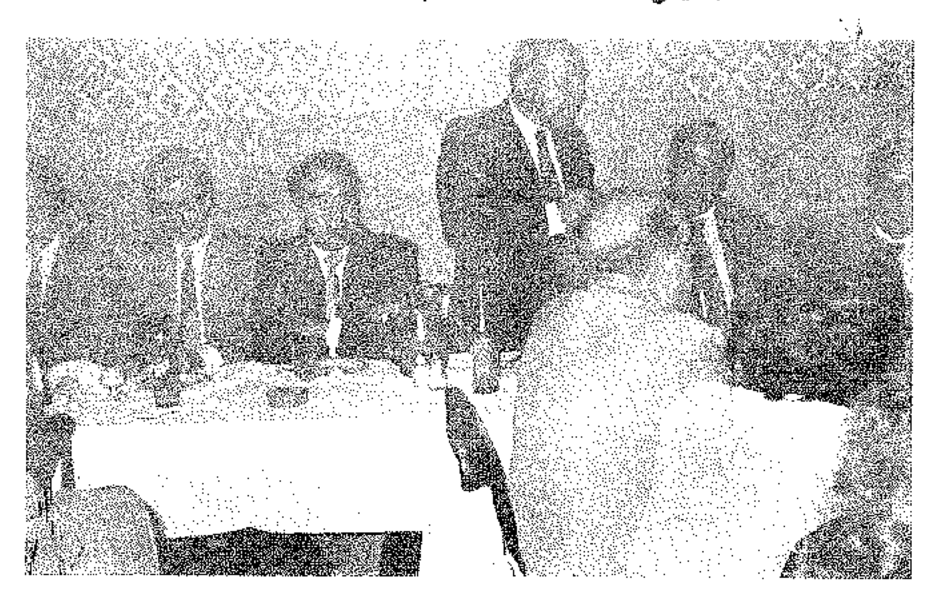
رسم هاشم الأتاسي لدى انتخابه رئيساً للجمهورية سنة ١٩٥٠ وهو الجالس ، ويُرى الدكتور ناظم القدسي رئيس مجلس النواب وهو يوقع على محضر الانتخاب ، ويبدو «اليونس» واقفاً عن يساره .



اليونس مع ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية



اليونس مع الدكتور عبد القادر حاتم رئيس مجلس وزراء مصر



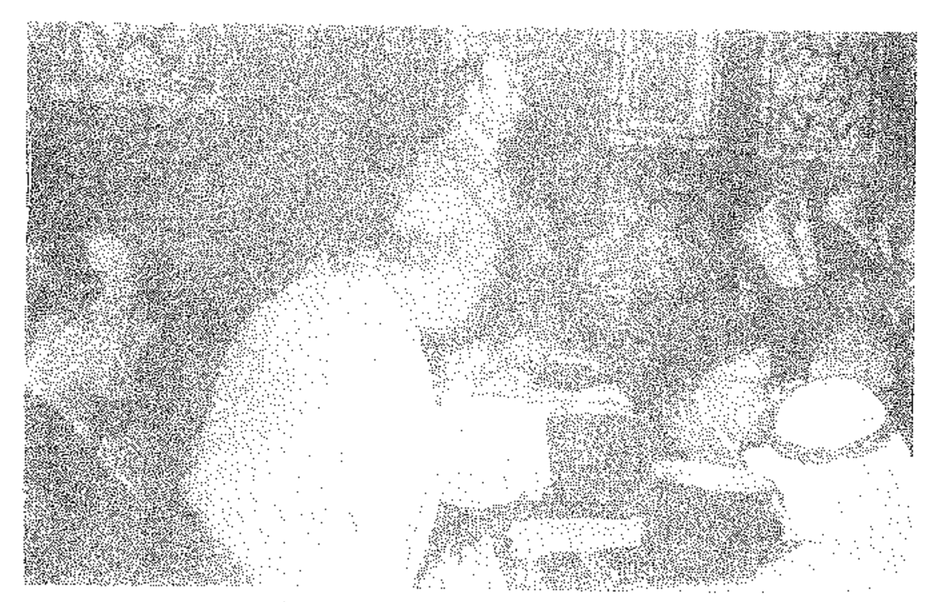
الدكتور اليونس يخطب في احدى الحفلات في الأرجنتين ، وإلى يساره السفير السوري الأستاذ عبد الحسيب الاسطواني ، وإلى يمينه الاستاذ شاكر الخياط مستشار السفاره ، فالاستاذ أحمد نصره سكرتيرها .



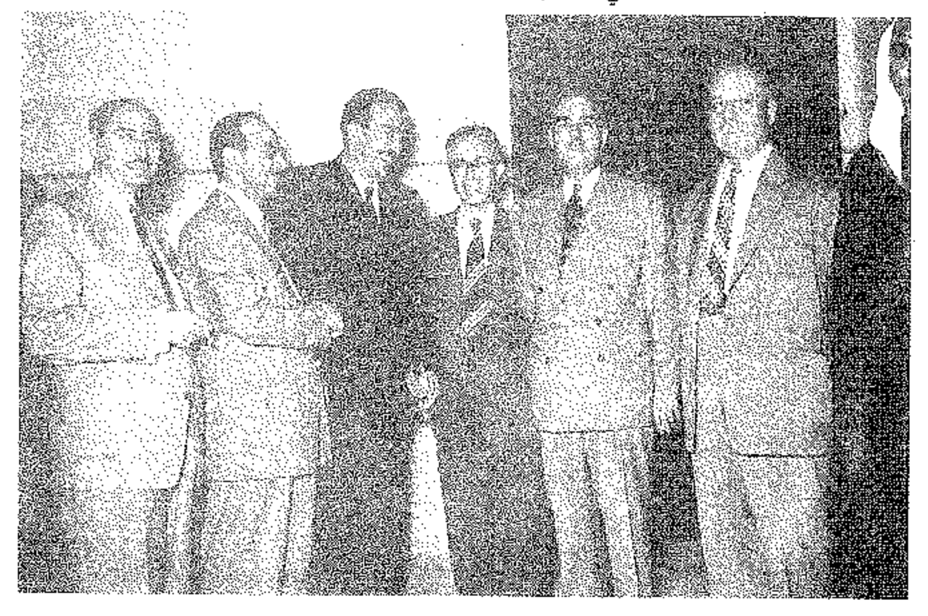
الدكتور «اليونس» وإلى يساره «الشيخ عبد العزيز بن زيد» سفير المملكة العربية السعودية، وفي الأخير «الدكتور معروف الدواليبي» ، رئيس مجلس النواب السوري ، وهو يقرأ .



يبدو من اليسار أحمد علي كامل وزير الأشغال العامة ، فاليونس ، فأحمد قنبر وزير الداخلية ، فالعميد توفيق نظام الدين رئيس أركان الجيش السوري .



في مجلس النواب السوري واليونس يتكلم



في مجلس النواب

ويبدو من اليمين : رفيق بشور ، رشدي كيخيا ، الدكتور ناظم القدسي ، خالد بكداش الدكتور اليونس ، عبد المجيد النجار



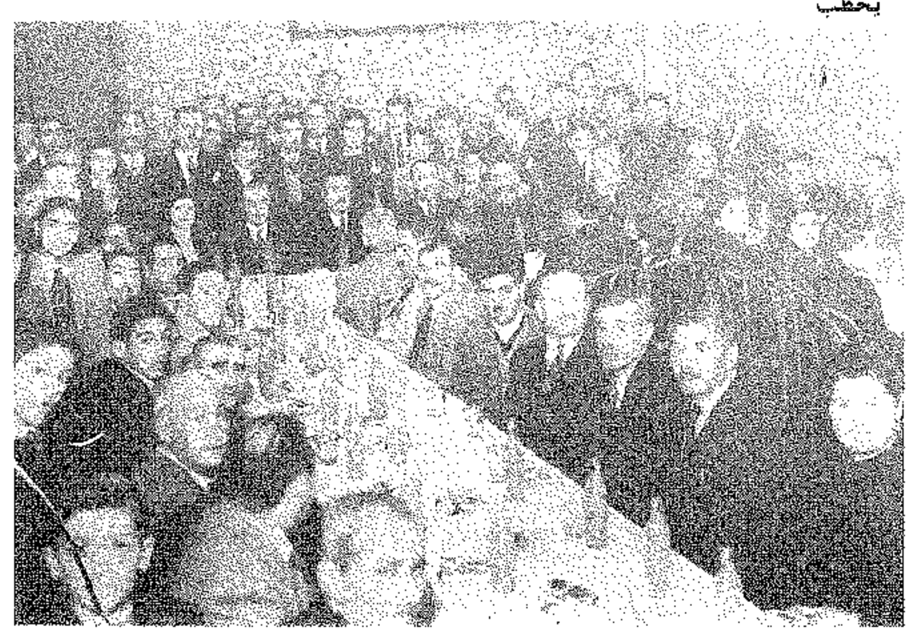
الأستاذ عبد اللطيف اليونس يخطب في بهو الجامعة الإسلامية في مدينة التوكومان في الأرجنتين



الجمهور يستقبل اليونس واقفاً في أحد الأندية العربية بسان باولو حيث ألقى محاضرة عن (العرب ـ ماضياً وحاضراً)



بإحدى حفلات التكريم في توكومان ، بالجمعية الإسلامية ، ويبدو الدكتور اليونس وهو واقف يخطب

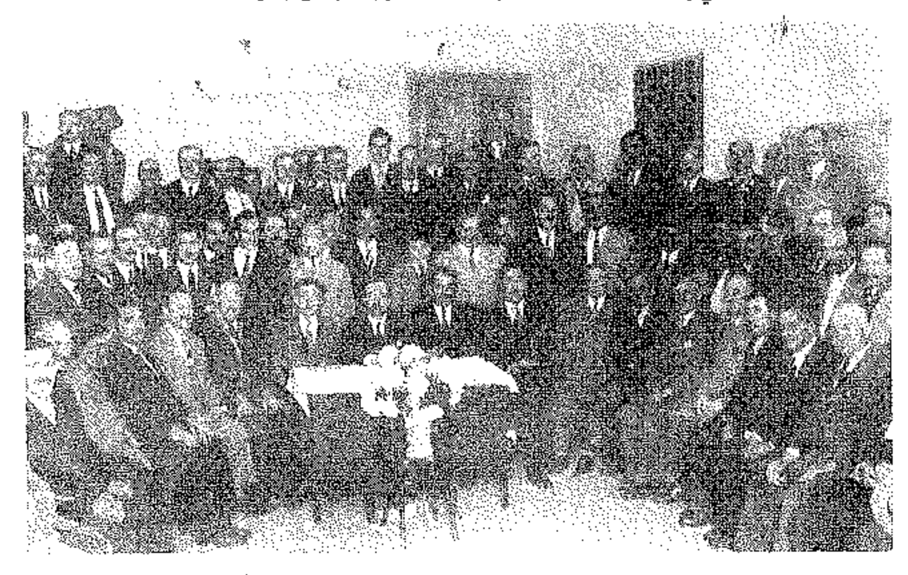


في إحدى حفلات التكريم للدكتور اليونس

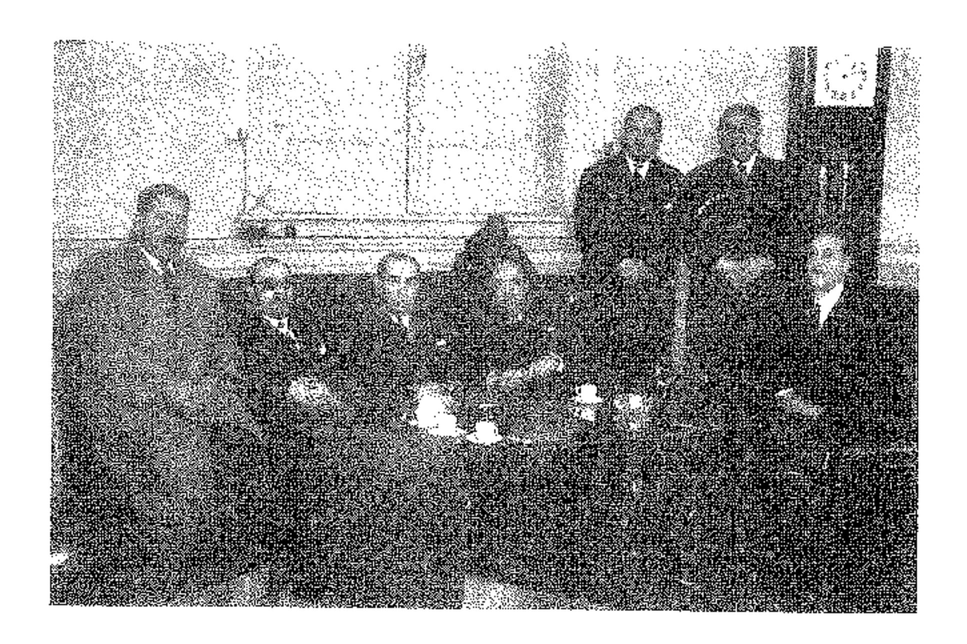
بالجمعية السورية اللبنانية في توكومان ـ الأرجنتين



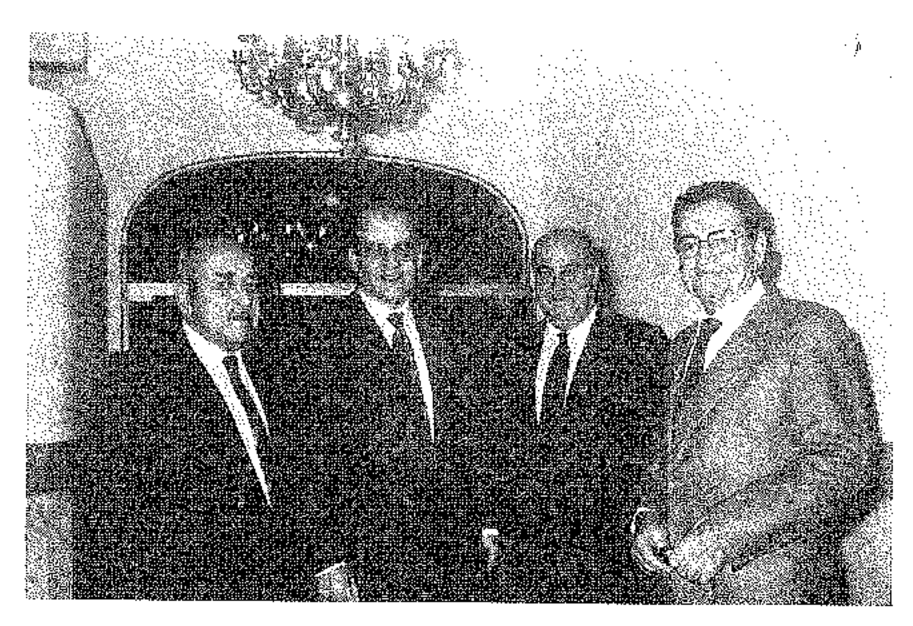
في إحدى الحفلات التكريمية للدكتور اليونس وهو يخطب



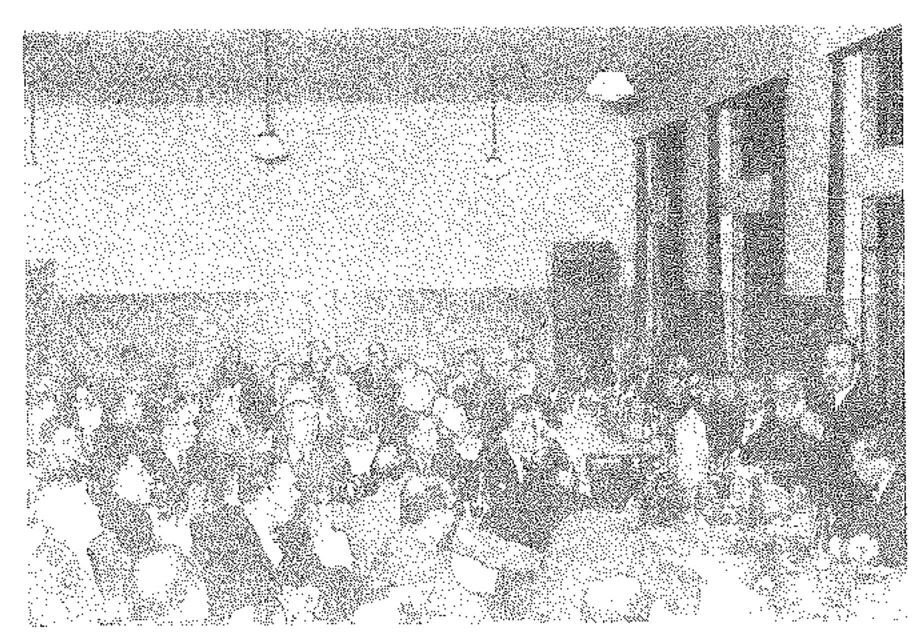
في جمعية الاتحاد الاسلامي العلوي في بو بينوس آيرس ـ الأرجنتين . وإلى يمين الدكتور اليونس الدكتور أحمد سليمان ، فالشيخ محمود الحامد . وإلى يساره الأستاذ يوسف صارمي ، فالاستاذ غانم ياسين .



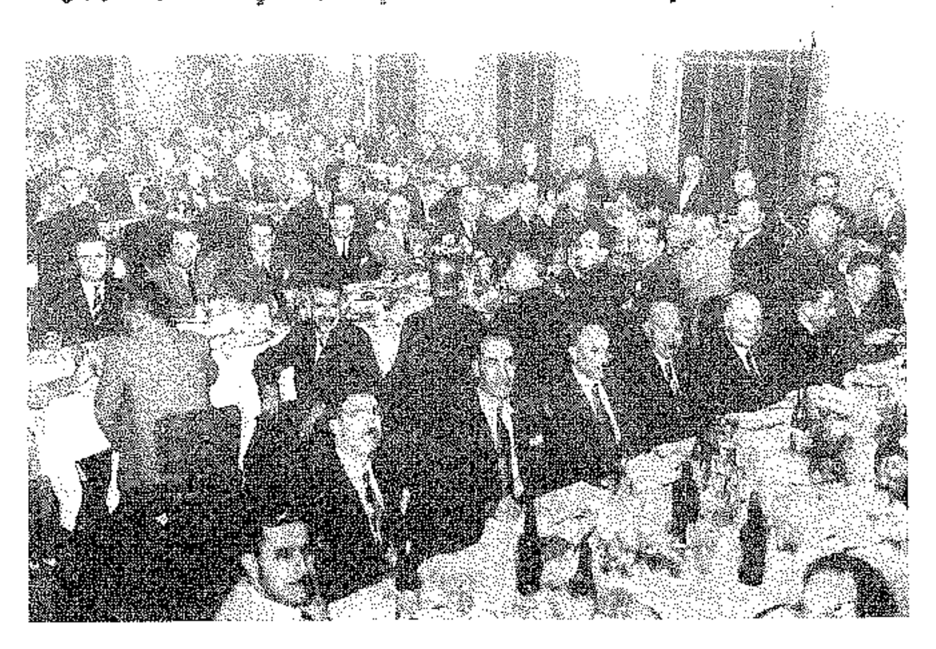
مع حاكم ولاية سانتاخه ـ الأرجنتين



د. اليونس ويبدو في الصورة صديقه أنيس الكيك وأحمد ملاجا رئيس جمعية الاتحاد الإسلامي العلوي .



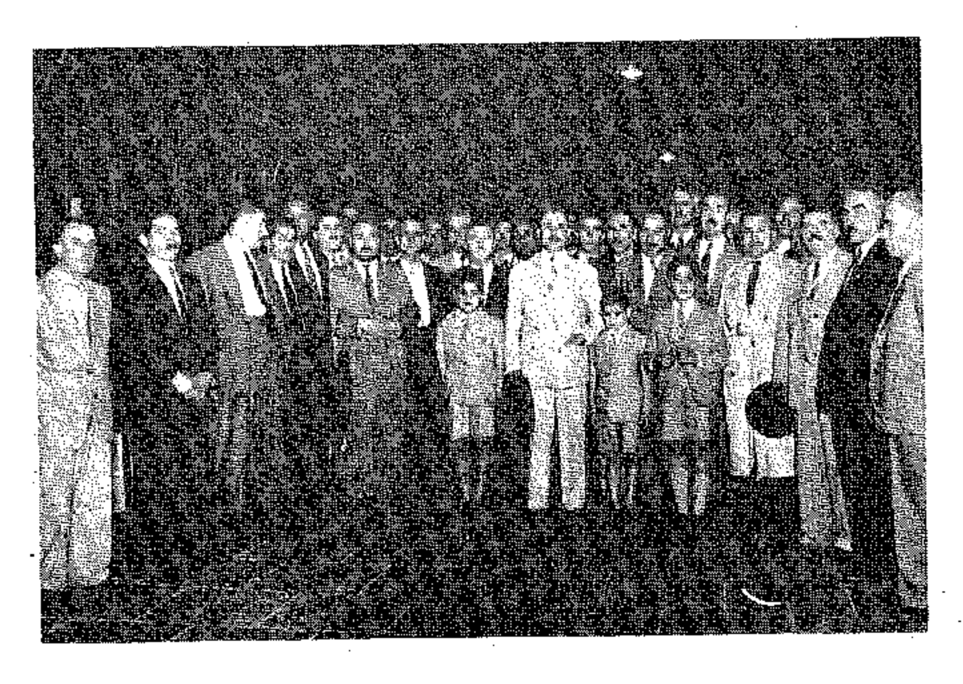
د. اليونس يخطب في إحدى الحفلات التكريمية التي أقيمت له في سان باولو ـ البرازيل



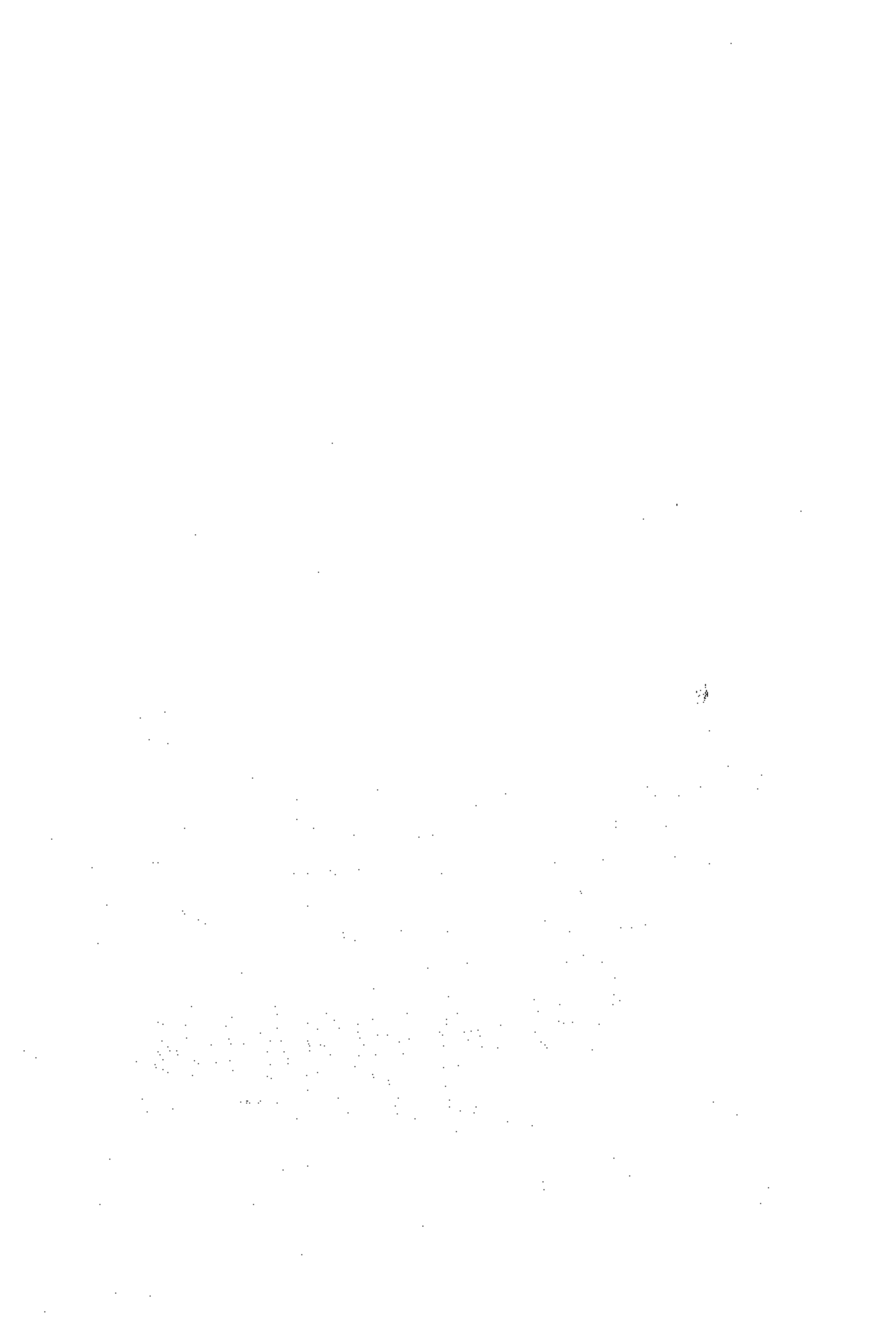
حفلة تكريم لليونس في البرازيل ويبدو إلى جانبه المطران حريكي وإلى يمينه قنصل سورية العام في ولاية سان باولو



في موسكو أمام نصب «لينين» سنة ١٩٥٥



الجالية تحتشد في محطة توكومان لوداعه حين سفره





في مدينة ليننغراد بالاتحاد السوفياتي

